سيرة

W A L I D   S A I F

وليد سيف

الشاهد المشهود

سيرة ومراجعات فكرية



مكتبة الرمحي أحمد

111

سيرة

وليد سيف

الشاهد المشهود

سيرة ومراجعات فكرية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

111

فيسبوك @ktabpdf تيليجرام



مكتبة الرمحي أحمد

الطبعة العربيّة الأولى، 2016

مكتبة الرمحي أحمد

مُقَدِّمَة

في السيرة: الحاضر يشيّد الماضي!

هل يجب أن تحفل السيرة الذاتية بالأحداث الكبيرة والمنعطفات والصدمات والتحولات والأسرار الخبيئة والزوايا المعتمة وما يمكن أن يصدم القيم السائدة، والتحديات المضنية التي أنتجت استجابات فذة، والمواقف التي يمكن الزعم بأنها كانت جزءاً من سيرورة التاريخ العام في مجالاته السياسية والاجتماعية والثقافية- هل يجب أن تحفل سيرة الإنسان بهذه العناصر وأشباهها: كلها او جلها أو بعضها، كي تستحق الكتابة والقراءة؟

في ملتي واعتقادي أن هذا وهم غذاه شغف الناس بالمادة الحكائية المفعمة بالمفاجآت والأسرار والخيبات والإنجازات والأحلام الكبيرة وانقلاب الحظوظ. وفي ملتي واعتقادي أن سيرة أي إنسان، كائناً من كان، تقدم مادة غنية للكتابة، وإن بدا أنها بسيطة وعادية، وكان صاحبها غمراً في سواد الخلق، إذا وجدت من يحسن استبطانها وتحويلها إلى نص أدبي ذي قيمة إنسانية وفنية.

مناط الأمر ليس صاحب السيرة نفسه وما جرى عليه في سيرة الحياة من وقائع استثنائية، فحياة الفرد، أي فرد، هي دراما إنسانية يتجلى فيها الشرط الإنساني والوجودي بكل ما فيه من أفراح وأتراح وأحلام متحققة او منكسرة. مناط الأمر هو فعل الكتابة ومدى قدرته على الاستبصار والتأمل وتغريب العادي والمألوف والغوص إلى بواطنه المضطربة بالهواجس والتساؤلات والرؤى والبحث عن المعاني وخلقها ثم تقويضها والتفاوض مع الحياة وإغراءاتها وتهديداتها الدائبة.

مكتبة الربيعي أحمد

السير العظيمة المدونة، لم تخلقها الوقائع الفعلية في حياة الإنسان، بقدر ما خلقتها الكتابة نفسها. وقيمة السيرة تتمثل في قيمة النص نفسه لا في الواقع الخارجي الذي يفترض أن النص يسعى إلى تسجيله، وإلا تحول نص السيرة إلى ما يشبه التحقيق الصحفي أو ملف الاعترافات التي تفضي إليها التحقيقات الأمنية.

كشأن أي عمل فني أو أدبي، فإن السؤال في مقاربته وتقويمه وتذوقه ليس: ماذا؟ وإنما هو: كيف؟ وفي كيفية القول تتشكل القيمة والمعاني. ولذا فإن أقل السير قيمة من النواحي الأدبية هي التي يحتاج قارئها إلى التحقق من مدى مطابقتها للواقع. هل وقع هذا الذي يذكره كاتب السيرة حقا؟ ربما صح هذا في سير السياسيين الذين كان لهم أدوار في الحياة العامة والتحولات السياسية الهامة، ولم يسجلوا سيرهم لتكون نصوصاً أدبية، وإنما لتكون وثائق تاريخية، ولكنه لا يصح في السير ذات الطابع الأدبي. فالنص هنا هو الحدث والواقع، وليس وثيقة تسجيلية عن الخارج الموضوعي. النص يشير إلى نفسه لا إلى خارجه، ويكشف عالم الكاتب الداخلي أكثر مما يوثق أحداث حياته. ليس المهم أن يكون ما يورده قد وقع حقا كما يصف، ولكن «الحكي» نفسه هو الحقيقة الماثلة وهو مادة التأمل والتذوق والنظر.

بعبارة أخرى، فإن نص السيرة هو رواية الكاتب عن نفسه أو غيره، والرواية هنا هي الموضوع، وليست تمثيلاً للموضوع. إنها صورة الكاتب وصاحب السيرة هنا والآن.

لنا أن نقرر هنا حقيقة تخالف الفكرة السائدة. وهي أن كاتب السيرة إذ يروي عن طفولته وماضيه، لا يمكن أن تكون روايته مرآة أمينة لذلك الماضي مهما يجتهد في الدقة والصدقية. إذ إن محتوى الوعي في زمن الكتابة يتوسط بيننا وبين رؤية الماضي وروايته. إنني الآن وقد تجاوزت الستين لست الفتى الذي كنته قبل خمسين عاماً. تغيرت ذائقتي وتغير محتوى وعيي، وأحكامي واستجاباتي ومزاجي ونظرتي للعالم والكون والناس ونفسي التي أعدت تعريفها غير مرة. وبهذا كله تغيرت الصور الذهنية للعالم في وعيي. باختصار تغيرت عين الرائي فتغيرت صورة المرئي. والهوية الذاتية التي تصلني بالماضي البعيد، وتمنحني الشعور بأن مراحل حياتي تمثل سيرورة لذات واحدة، هذه الهوية ليست معطى خارجياً، بقدر ما هي إنجاز يومي أحققه على مستوى الوعي والوجدان والذاكرة. وبقدر ما يسهم الماضي في إنتاج الحاضر، فإن الحاضر يسهم في إعادة إنتاج الماضي من

مكتبة الربيعي أحمد

حيث هو رواية يشيدها الوعي الحاضر. ولا مفر: رواية الماضي ليست استدعاء بريئاً من ذاكرة ثابتة المخزون، وإنما هي تتلون ويعاد إنتاجها وتلقى عليها معانٍ ودلالات جديدة في ضوء تراكمات الخبرة وتطور الوعي ونظم المعاني المدخرة فيه، حتى لحظة الرواية. وليس هذا من قبيل التحريف والتزييف المتعمدين، وإنما هو جزء من الشرط الإنساني الذي يجعل الذات جزءاً من الموضوع، ويجعل المعاني التي ننتجها ونكتسبها تسهم في إعادة إنتاجنا. تصنعنا بقدر ما نصنعها. فهي إنجاز الوعي وقيده، بنت الذاكرة وأمها!!

"الماضي هو الآن: والحنين إلى الماضي شهادة على حاضرنا. فما الذي يغرينا باستدعائه وتغليفه بهالة رومانسية لم تكن تحيط به في وقته حين كان حاضراً!! لماذا نصفه دائماً بالزمن الجميل الطيب المضيء، وكأننا نقيم به الحجة على حاضرنا المغاير، مع أنه لم يكن بجملته أفضل على الصعد العامة والخاصة. لا يضرنا ونحن نصفه بالزمان الجميل أن نستذكر ما عشنا فيه من عنت وضنك وقلة نقص من أخبارها على أبنائنا كلما وجدنا منهم بطراً أو احتجاجاً وتبرماً. كيف كان بعضنا يمشي أميالاً طوالاً في قيظ الشمس أو المطر ليصل إلى مدرسة متهالكة المبنى تدلف على رؤوس الطلبة شتاء، ويحشر فيها أعداد كبيرة من التلاميذ الذين يدع بعضهم بعضاً ولا رادع لهم إلا عصا المدرس المعدة بعناية وإتقان لتكون أشد إيلاماً ومضاضة. على أن ذلك أهون من العقوبة المعنوية وعمليات الإذلال العلني أمام جملة الطلبة والمدرسين. كيف كان شطر من جيلنا يدرس في ضوء السرج قبل أن تصل الكهرباء إلى البيوت، على ألا يطيل السهر فيستهلك من زيت السراج ما تضيق الأسرة بنفقته. كيف كان توفير الكتب المدرسية والقرطاسية مطلباً عسيراً يورث الأب كآبة والأبناء شعوراً عميقا بالذنب. كيف كان المصروف اليومي للابن السعيد قرشاً أو نصف قرش، بينما يمشي «الأقل حظاً» بجيب خاوية. كيف كان الطعام عزيزاً والمائدة فقيرة، والأثاث بسيطاً ولا شيء من الأجهزة التقنية الحديثة التي غدت بعد ذلك من المقتنيات المفروغ منها. لا ثلاجة ولا طباخ الغاز ولا جهاز تلفزيون. أما الهاتف الجوال والحاسوب وأخواته الأصغر سناً من وسائط الاتصال الحديثة فما كان لأشد الخيال جموحا ومغامرة أن يتصورها.

لم يكن من ذلك وأضرابه شيء. ومع ذلك فلا يفسد ذلك للحنين إلى الماضي وتمجيده قضية. ولا تنقبض ملامحنا بالذكرى الأليمة ونحن نقص على أبنائنا من أنباء تلك

مكتبة الربيعي أحمد

الأيام الخوالي في معرض اللوم والتأنيب على تذمرهم من عيوب حياتهم وزمانهم. بل تضيء وجوهنا ويستبد بنا شعور غامر بالفخر والاعتزاز. بلى.. فالماضي الذي نتحدث عنه يبقى الزمان الجميل المضيء على الرغم من تلك الصعوبات والمنغصات.

والحال أنه لم يكن في حينه زماناً جميلاً مضيئا. وكان رضانا به ونحن فيه أقل من رضى أبنائنا بزمانهم هذا. فكيف إذا أضيف إلى ذلك كله ما هو أدهى وأمر: نكبة فلسطين وضياع الأوطان واللجوء والخيام. ولم يكن يعيننا على احتمال مضاضاته إلا أحلام الخروج منه إلى زمان أكثر وفرة ونبلاً وشجاعة. وقد عبرنا حقاً إلى مستقبل الماضي، الذي هو حاضرنا الآن. وعلى الصعيد الشخصي فإن حاضر شطر من جيلنا ليشبه كثيراً ذلك المستقبل الذي حلمنا به في الماضي. فها هي الشهادة العليا والمركز المرموق والإنجازات المهنية والمنزل الحسن والسيارة الفارهة، ومقتنيات أخرى لم ترها عيون آبائنا ولم تسمع بها آذانهم ولا خطرت لهم على قلب!

فلم صار الماضي بأثر رجعي زماناً جميلاً مضيئاً؟

لا لم نعد اكتشافه لنتبين فيه ما غفلنا عنه في حينه، ولم يزينه في وعينا حاضر أشد بؤساً منه، بالاعتبارات الشخصية المادية على الأقل.

بلى.. ثمة من انتقل من بؤس إلى بؤس، وانكسرت أحلامه القديمة. وثمة من انتقل من بؤس إلى خير. ولكن الغالب على هذا وذاك أن يلتفتا إلى الماضي بعيون غائمة ومن خلال تنهيدة عميقة يصعد نداء الحنين: «سقى الله تلك الأيام!».

من جديد، ليس لنا في حديث الذكريات والسير الذاتية أن نطابق بين الواقع البعيد والشهادة عليه في الحاضر. فالشهادة هنا والآن، هي الواقع وهي محل النظر والتأمل والقيمة. والفارق بين واقع الماضي وشهادة الحاضر عليه ليس فارقاً بين الصدق والكذب، أو بين الحقيقة والوهم، وإنما هو فارق بين واقع خارجي لا معنى له خارج وعينا به، وواقع الصور الذهنية التي يشيدها وعينا فيراها ويرى بها لأسباب كثيرة متنوعة تتعلق بحاضر الوعي. وقد قيل: الرؤية حجة الاعتقاد. ولكن الأصح هو القول: الاعتقاد حجة الرؤية. بعبارة أخرى.. نرى ما نريد، لا ما يفرضه المشهد الخارجي في العالم الموضوعي. وإلا فكيف تتنوع الشهادات من أشخاص خاضوا التجربة وشهدوا الواقعة معا؟! إننا

مكتبة الربيعي أحمد

لنقرأ الواقعة في ضوء المعاني التي نلقيها عليها، فإذا اختلفت المعاني اختلفت القراءات والروايات. ولقد تختلف المعاني باختلاف المصالح والتحيزات المسبقة، وربما اختلفت لاختلاف محتوى الوعي ونظم المعاني والرموز التي نختزنها ونؤول بها الأشياء. على نحو ما: الأسماء هي الأشياء! والدوال هي المدلولات. ويبقى السؤال قائماً: ما الذي يدعونا إلى «أمثلة» الماضي وإحاطته بتلك الهالة الرومانسية التي تجعله الزمان الجميل والفردوس المفقود بصرف النظر عن حقيقته الواقعية الخارجية.

أقرب الإجابات إلى الذهن أن الماضي هو زمن الفتوة الأولى وشرخ الشباب ودهشة البدايات ولذة الاكتشافات وهزة الذائقة الأولى التي لم يفسدها طول الألفة وبطر الحواس. وأي إنجازات مهما تكن عظيمة لن تعوض المرء عن شرخ الفتوة والشباب!

بلى كانت المائدة فقيرة والطعام عزيزاً.. ولكنك ما تزال تبحث من عشرات السنين عن طعم ذلك البطيخ وذلك الخيار والبرتقال وجبن القشقوان اللاذع، فلا تجده في أي مكان. وما زلت تستذكر مع رفاق المدرسة وأصدقاء الحارة –حين تلقاهم– فلافل مطعم «الثور» البسيط الذي ذهب سره مع صاحبه، فلا تدرك له مثيلاً في الأقطار والأمصار التي ذرعتها طولاً وعرضاً، على ما صارت إليه المطاعم من فخامة ونظافة وتفنن في العرض والمتاع.

من الهين أن تعزو ذلك كله إلى الطرق الصناعية الحديثة التي أفسدت الحرث والزرع وأقحمت نفسها في عمل الطبيعة ومصادرها الأولى، حتى ثأرت هذه لنفسها فمنعت خراجها وعطاياها. وقد يكون هذا صحيحاً فيما تجود به الطبيعة بقدر معلوم. ولكنه ليس صحيحاً بمطلقه، ولا سيما فيما يعده الإنسان ويركبه. لم يذهب سر ذلك «الفلافل» مع صاحبه، وإنما الذي ذهب تلك الذائقة البريئة القديمة التي كانت تستقبل مع سائر الحواس عالماً طازجاً بروائحه ومذاقاته وألوانه وأصواته، قبل أن تتكاثر الخيارات والمقارنات وتتزاحم المذاقات والخبرات الحسية، وذهب معها شرخ الشباب الذي صارت ذكراها علامة عليه. فخرجت معاني تلك المحسوسات من مجالها المادي لتحمل دلالات جديدة معنوية تحيل إلى زمان قديم منصرم.. إلى الزمان المضيء الجميل!

تستمع إلى نساء ورجال ضربوا في السن، يتحدثون عن أيام «البلاد»! عن فلسطين قبل النكبة والتهجير، وكيف كانت الصحة أفضل بكثير من هذه الأيام، وفضلاً عن

مكتبة الربيعي أحمد

«هناء» البال وهدوء الخاطر يعزون هذا إلى طعامهم في ذلك الزمان، حين كانوا يأكلون ما تنتجه أيديهم من زرعهم وماشيتهم وطيورهم، ولم يكن المال يتوسط بين المنتج والمستهلك، فالمنتج والمستهلك شخص واحد. أما الآن فلا يدرون من أن يأتي هذا الطعام الذي يشترونه بمالهم وكيف يصنع، وما الذي يدخل في صناعته. ثم ينسبون إلى ذلك هذه الأمراض الجديدة التي ما كانوا يسمعون بها «أيام البلاد». وأين مذاق طعام اليوم من مذاق طعام الأمس؟ ويتناسون في هذه الأثناء تلك الأمراض السارية التي كانت تعصف بأعمار الناس، وغياب الرعاية الصحية والوعي الصحي والقدرة المادية على تحصيل الرعاية حتى لو وجدت. فلا يبقى للمرأة التي حملت وأنجبت عشر مرات أو أكثر غير الولد والولدين والثلاثة. يتناسون هذا كله وهم يقارنون حاضر الصحة البائس بماضيه المشرق «أيام البلاد»!

ثم إذا أمعنت النظر تبين لك أن المعاني المرتبطة بالصحة والمرض والطعام والحمية قد امتدت من تلك المجالات المادية المخصوصة، إلى الفضاء الوطني والسياسي والإنساني. فما هي شهادة على الصحة والمرض والطعام في الماضي، وإنما هي في المقام الوجداني الأول شهادة على الفردوس المفقود، وحياة الكرامة والحرية في الوطن الضائع، وهي في المقابل شهادة احتجاج على حاضر اللجوء والضياع في المنافي. كل شيء طيب في المقام الطيب، أما المقام النكد فلا يخرج نباته إلا نكداً! هكذا تحتال الذاكرة على الأشياء وهي تعيد تعريفها وتشحنها بدلالات جديدة من وحي الحاضر وهمومه.

وفضلاً عن المعاني المرتبطة بشرخ الشباب والوطن الضائع عند من فقد وطنه، فيبدو أن من طبيعة الشرط الإنساني أن تبقى السعادة الكاملة والرضا التام أفقاً يسعى إليه الإنسان، فلا هو يبلغه ولا هو يرضى بدونه.[1] في مرحلة من العمر تحدد طموحاتك وغاياتك وتصوغ آمالك وأحلامك، ثم إذا كنت محظوظاً وبلغتها، برزت لك منغصات وتحديات جديدة، ونشأت لديك مطالب وغايات جديدة. فكأن تحقيق غاية ما يخلق شرط الإمكان لتخلق غاية أو غايات أخرى دونها عوائق وتحديات من نوع مختلف. فلا تكاد تروي ظمأ من ماء، حتى يعاودك الظمأ إلى ماء من نبع آخر. أو كأن المرتفع الذي ارتقيته، قد مكنك من أن ترى مساحات جديدة عبر المدى كانت مجهولة عندك. فهي تغريك الآن بمتابعة السعي والسفر إلى الحدود الجديدة. ولكن دونك وإياها بيد خلفها بيد وأخطار متربصة وتكاليف جديدة من جسمك ونفسك.

مكتبة الربيعي أحمد

وحتى المرتقى الذي بلغته، فإنه ليس آمناً مع تدافع الطالبين والطامحين، وعليك أن تجاهد كيلا تنحدر منه. وإذا كان بلوغ منتصف الطريق إليه وأنت صاعد إليه إنجازاً ملأ نفسك بالسعادة والرضا في ذلك الحين، فإن الانحدار إليه من مكانك أعلى المرتقى يورثك غماً وهماً وكآبة وشعوراً بالحسرات والإخفاق ما كان في نفسك بعضها وأنت تستقبل الطريق كله في أول أمرك وأنت بعد في قعر الوادي. ولقد يذكرني هذا بعبارة سمعتها يوماً من رجل بسيط عميق الإيمان صوفي المنزع، يقول: «قد يتبادر إلى أذهاننا أن الله تعالى يعطي الغطاء على قدر الإحساس بالبرد، ولكنه كذلك يرسل البرد على قدر الغطاء! فمن كان غطاؤه سميكاً ربما امتحن ببرد أشد». وأعلم أن هذه العبارة قد توجه في غير وجهتها لتكون عزاء للبائسين وصداً للمقهورين عن طلب نصابهم الذي اختطف منهم، فيزين لهم سدنة الظلم والاستغلال وثقافة الخضوع أن ما هم فيه من شقاء ليس أكثر مما يكابده من هو أكثر منهم مالاً وأعز نفراً. ولكن المعنى الذي ينبغي أن توجه به تلك العبارة أن الإنسان مهما يحقق من الإنجازات والمكاسب، فإن قلقه الوجودي لا يغادره وإنما يتمثل في صور جديدة. ولذا يبقى حاضره مشوباً بنكد العيش، أو المكابدة: (لقد خلقنا الإنسان في كبد). ذلك بعض الشرط الوجودي الإنساني كما أسلفنا. ولعله في جانبه الإيجابي ضروري لاستمرار الدفع والتدافع والصيرورة والسيرورة والحراك النشط. ولأن الإنسان منشغل بما يكابد في حاضره، مهما يكن موقعه، فإن ذلك يُعفّي على آلام ماضيه الذي يستوطن الذاكرة. والآلام إذا انتفت فكأنها لم تكن. بل ربما صار من متع الإنسان أن يستذكر تلك التجارب المؤلمة ليؤكد إنجازات الحاضر. فبضدها تتعرف الأشياء. ولا نستطيع أن نقدر عظمة النهايات إلا بالمقابلة مع تواضع البدايات. كالفرق بين ذروة الجبل وقعر الوادي. إنها رواية الارتقاء التي ما زالت تلهب المخيلة الإنسانية والأدبية والفنية. ومن هنا نفهم عادة كثير من الناجحين في تذكير أبنائهم وغيرهم بتواضع البدايات. من جديد، إنها في المقام الأول شهادة على عظمة النهايات. الحاضر يعيد إنتاج رواية الماضي ليقول عن نفسه اكثر مما يقول عن الماضي!

شرخ الشباب، وميعة الصبا، ودهشة الاكتشاف الأول، ورهافة الذائقة غير المترفة.. هذه كلها تتواطأ لتشحن الوجدان وتعتقل صورة الماضي ليشع ملء الروح بحنين لا تكدره الآلام القديمة، ولا تبخسه الإنجازات الأخيرة. بل قد يحملنا الحنين إلى الماضي

مكتبة الربيعي أحمد

أحياناً على تبخيس الحاضر ومكتسباته حتى تصير هذه امراً مفروغاً منه لا يستحق الاحتفال. ولكن كان هناك حقاً في الماضي ما خسرناه إلى الأبد، وما لا تعوض عنه إنجازات الحاضر. وصحيح أنه قد أتيح لأبنائنا لم يتح لنا في مثل أعمارهم، ولكن الحقيقة أيضا أنه قد أتيح لنا ما لم يتح لهم من خبرات ومتع صغيرة لم نقدر قيمتها الوجدانية إلا حين غادرت الواقع المحسوس لتستوطن الذاكرة وعالم الرموز والمعاني.

أين أبناؤنا من مصادر الطبيعة الأولية التي ما زالت تغذي مخيالنا بالصور وتعد المسرح لأحلام نومنا؟!

أين منهم ناي الرعاة قادماً من سفح الجبل إلى شباك دارنا؟

أين طيور السنونو تملأ الفضاء وتسافر إلى حيث لا تسافر إلا أحلامنا الكبيرة..

أين منهم القنابر تدرج أمامنا في السهل والوادي فتغرينا بنصب الأفخاخ وإغوائها بالصفير والغناء كي تمضي نحو أفخاخنا الشريرة..

أين منهم مزامير الأعراس الشعبية والدبكات التي تشعل الحماس وجذوة الشباب..

أين منهم السلاسل الحجرية التي تتعرج في سفوح التلال وتحتضن الصبار الذي يوشك أن ينعقد ثمره الحلو..

أين منهم شجر البلوط الذي كنا نتبارى في إسقاط حمله بالحجارة..

أين منهم شقائق النعمان وزهر البابونج الأصفر ومهرجان الألوان في تفتح الربيع..

أين منهم مواسم الحصاد وغناء الحصادات ينادين بنات الناصرة للنزول إلى مرج بن عامر..

أين منهم موسم قطاف الزيتون والعالم الاحتفالي الذي يبعثه في المكان وإنسانه..

أين منهم سلال التين الذي علمه النضج بالشطوب الصغيرة وبلله ندى الفجر ساعة القطاف..

أين منهم روائح النعناع البري والزعتر الجبلي وبراعم البرتقال..

مكتبة الربيعي أحمد

أين منهم هديل الحمام ونباح الكلاب وصهيل الخيل وثغاء الحملان البيضاء التي تملأ السفوح، وكأنها قادمة من كتاب الأساطير الكنعانية..

أين منهم تلك الهزة التي سرت في أبداننا وأرواحنا حين اكتشفنا الأنثى لأول مرة، والتقت عيون حذرة خجول محيرة بين الشوق والشعور بالإثم والخوف من الرقيب..

أين منهم ذلك الطبشور الذي كنا نخط به على إسفلت الشارع اسم فلسطين والمدن الضائعة..

أين منهم أول الشعر الرومانسي وأول الأغاني العاطفية التي كانت تحضنا على حب نبيل يعرفه آباؤنا بقلة الأدب!

أين منهم صورة عزيزة لممثلة جميلة في ثوب السباحة كنا نتداولها بيننا سراً ونحذر أن يكتشف الكبار الدليل على فساد أخلاقنا المبكر، ومعه فساد الزمان الجديد..

تلك وأمثالها كانت فواتح الوعي ومسارح الصبا وفضاءات الروح..

والآن وقد تجاوزنا الستين، نعلم أنها لم تكن متعاً مجانية لبخسها، ولكن لأنها تعريفاً لا تشترى بثمن، ولا تقدر بثمن.. فعندما انتقلت إلى عالم المعاني والرموز صارت جزءاً من تكوين المخيلة والوجدان والقيم.. ومكوناً مؤسساً للهوية.. وليست الهوية إلا أن تكون..

أين من هذا كله نبت المدينة الصاخبة ودخان عوادم السيارات والعوالم الافتراضية على شاشة الحاسوب ، والتفاعل الفردي مع ألعاب مبرمجة يختزنها جهاز صغير!

لا يبني اليمام أعشاشه على واجهات الزجاج والفولاذ وجدران الإسمنت العالية..

لا يصهل الحصان في الشوارع المكتظة بالسيارات..

لا ينبت الزعتر الجبلي في الإسفلت..

ولا يتقافز قطيع الماعز في ساحات المدينة..

وبيننا وبين صياح الديكة أميال من العمائر وعالم من الضجيج والضوضاء..

أما ما نستطيع أن نقبض عليه من ذلك العالم المختفي، فإنه يتحول في غير موطنه وزمانه زخرفة فولكلورية نزين بها حياة مختلفة.. ما كان أسلوب حياة، يصبح عرضاً

مكتبة الرمحي أحمد

مسرحياً معداً بعناية ومصقولاً ومعدلاً ليوافق ذائقة نظارة جاؤوا من فضاء آخر.. وما كان ثوباً شعبياً لبسطاء الناس، صار استعارة مترفة للمناسبات ورمزاً لهوية لا يزيدها التهديد إلا تحصناً.

لا نريد بهذا أن نطلق أحكاماً قيمية أو نفاضل بين زمنين. فالحاضر الذي نعيش فيه هو ماضي الأيام القادمة.. وحين يصبح كذلك عند أبنائنا سوف يشع في وجدانهم بوصفه الماضي النبيل الجميل المضيء البريء. وسوف تعيرهم الكهولة لغة يتحدثون بها عن ذكريات الصبا شبيهة باللغة التي نتحدث بها نحن الآن عن ماضينا.. وسوف يكتشفون أنهم صاروا أشد شبها بنا منهم بأبنائهم.. فكل نقطة في خط الزمان تقوم بأدوار ثلاثة في سيرة كل إنسان: فهي مستقبل في آن، وحاضر في آن، وماض في آن. نتطلع إليها إذ هي مستقبل بشوق المسافر إلى أفق جديد مفعم بالاحتمالات، ونعيب عليها إذ هي حاضر نكابد فيه ما نكابد ونفتقد فيه ما نفتقد ونطلب فيه ما لا يمنح، ثم نرفعهاإلى عالم المثل والحنين والشعر إذ هي ماض لا رجعة إليه. فما هي حقيقة موضوعية خارجية ساكنة ثابتة، ولكنها حقيقة نشيدها نحن في هيئات متغيرة.. وكأن الحال أننا لسنا أبناء زماننا إلا بقدر ما أن الزمان ابننا الذي نشكله على صورتنا.

ولعل العالم لم يفقد براءته ولن يفقد براءته يوماً. ولكن نحن من يفقد البراءة في وقت ما من أعمارنا. ولا تأتي الخبرات المتراكمة والحكمة المكتسبة والمعارف المتقدمة بغير ثمن باهظ.. وهو نزع غلالة الغموض والسحر والدهشة عن العالم، فيغدو جافاً موحشاً مقفراً من التوقعات والمفاجآت والأسرار وغوايات المجهول والمخاوف من الكائنات الغريبة التي تكمن وراء التلال والغيوب وستائر الليل في بلدة تنام بعيد الغروب.. في ذلك الزمان الذهبي الطيب! ليست هذه سيرة ذاتية بالمفهوم التقليدي المتعارف. فمن كان يبحث عن دراما الأحداث المشوقة والغرائب والمفاجآت والصدمات والتقلبات وخفايا الرغبات، فلن يجد الكثير منها هنا. سمها إن شئت سيرة فكرية ووجدانية: سيرة السمع والبصر والفؤاد.. سيرة الوعي شاهداً ومشهوداً.. أما المحطات الكبرى في رحلة الحياة، فتوفر السياق لمراجعات فكرية ووجدانية تمتد من الخاص الذاتي، إلى العام الإنساني، ثم تعود بالعام إلى الذاتي. فمن قال إن العام ليس مسألة شخصية، ومن قال إن الذات لا ينطوي فيها العالم الأكبر؟ ومن قال إن المشهود مستقل عن الشاهد!

مكتبة الرمحي أحمد

الذات الواعية هي التي تشيد صورة العالم الموضوعي من خلال نشاطها التأويلي الذي يستمد من نظم المعاني المختزنة في الوعي فضلاً عن المصالح المتدافعة. وبذلك يصبح الواقع في وعينا رواية، بل مجموعة روايات مختلفة متدافعة، بها نحب ونكره ونخاصم ونحيا ونموت. فأي شيء أكثر ذاتية من هذا؟!

وقد أملت طبيعة العمل تنسيق الفصول والمحتوى وفقا لمحورين متقاطعين، محور أفقي يمثل التتابع الزمني للمحطات الكبرى في رحلة الحياة، ومحور رأسي يتمثل في القضايا والتداعيات والمراجعات الفكرية والوجدانية التي يبعثها الوقوف على ذكرى كل من تلك المحطات. فإذا انبعث الكلام عليها انعتقت من عقال السياق الزمني المحدد الذي استدعاها، لتنطلق في فضاء موضوعها أنى حملها التطواف من الزمان والمكان.

وأخيراً من قال إن شجاعة البوح في السيرة لا تتمثل إلا في كشف ما يحرص الإنسان عادة على كتمانه من الخبايا والخفايا الخاصة لا سيما ذاكرة الجسد في متاهاته؟

إنما الشجاعة في مقاومة التيار وإغراءات الأمان في ظل القطيع..

وإنما الشجاعة في الامتناع عن الشرب من نهر الجنون حين يتكاثر الشاربون وتصير أوهامهم وهذاؤهم هي القاعدة..

وإنما الشجاعة في تفكيك الأساطير التي تؤسسها الطوائف المهنية والثقافية والسياسية عن نفسها..

إنما الشجاعة في رفض اشتراطات النادي لحمل بطاقته مهما تكن سلطته وامتيازاته العملية والمعنوية..

إنما الشجاعة في تفضيل مغارم العقل على مغانم الجهل..

وإذا كان تحدي خطاب السلطة الحاكمة الفجة يحتاج إلى قدر من الشجاعة، فإن نقد الكثير من الخطابات المعارضة وكشف ادعاءاتها وازدواجيتها وأضاليلها وسلطتها الكامنة، يحتاج إلى قدر أكبر من الشجاعة. يستوي في ذلك ما يبتزك منها بمفردات الحداثة والتقدم والقيم الكونية، وما يبتزك بمفردات الأصالة والخصوصيات الثقافية وحماية الهوية المهددة. ذلك أن تحدي خطاب السلطة قد تخرج منه بنياشين الفروسية والشهادة،

مكتبة الرمحي أحمد

أما نقد الخطابات الإيديولوجية والشعبية فقد يوزع دمك بين القبائل السياسية والفكرية، فلا تدري على أي جنب تميل. فمن قال إن عدو عدوي صديقي بالضرورة؟!

الشجاعة أخيراً هي أن تكون ذاتك وتشيد روايتك الخاصة بعيداً عن الإملاءات الخارجية.

وهذه روايتي!

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

طولكرم:
المذاقات الأولى

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. في منطقة الغسق

أفتح عيني من القيلولة نصف انفتاحة أو دون ذلك. ما زال جفناي ثقيلين، والغمامة السوداء تتلبث في رأسي وتعتقل وعيي الذي يكافح للصحو من غياهب النوم وأرض الأحلام. وللحظة قصيرة تلتبس علي نفسي وهويتي، ويبدو وكأنني أبحث عن ذاتي في ذاكرة معطلة، أو كأنني أعوم في فراغ بلا علامات وشواهد. فأجتهد وسعي في البحث عن علامات تدلني علي وعلى محيطي.. فأحدق بصعوبة خلل الغمامة السوداء التي ما زالت تغلف رأسي وعيني.. آه..

هذا بيتنا في طولكرم.. خلف سريري النافذة التي تطل على الحديقة ، وأدناها إلى النافذة صف من شجرتي برتقال وشجرة ليمون.. أما المتطرفة منها إلى الجنوب فهي من البرتقال البلنسي الذي يتأخر نضجه عن سائر البرتقال، ويصلح للعصير أكثر من الأكل.. أما الوسطى فلا يعرف أحد لها تصنيفاً أو اسماً ولم نصادف مثلها قط في أي مكان.. فلا ندري كيف جيء بها وكيف عثر عليها آباؤنا الذين زرعوها هناك. فكأنها نبتة يتيمة لا نسب لها. أمامي باب حديدي داخلي أخضر اللون.. في الركن جهاز المذياع ذي العين في زاويته، ويتدلى منه سلك ينتهي في زجاجة مملوءة بالماء.. أصوات المخيم المجاور لبيتنا تصل مكتومة عبر الجدار السميك الذي ما زال ينتصب بين وعيي والعالم.. وكذلك أصوات الشارع الذي يفصل بين سور حديقتنا ومدارس وكالة غوث اللاجئين للإناث، وصياح الديكة ونباح الكلاب من المزارع القريبة

يرتسم في وعيي المشوش المحيط الخارجي لمكاني على السرير في تلك الغرفة من بيتنا.. ومع ذلك، فثمة لبس ما، وخطأ ما.. ما زلت تائهاً في المنطقة الفاصلة بين النوم

مكتبة الربيعي أحمد

واليقظة.. أشعر بأنني معتقل في الحواس المشوشة.. أريد ولو شاهداً واحداً لكي أعرف الآن نفسي، ويدركني فيّ حسي.. وأسترجع ذاتي من أرض التيه التي يغلفها الضباب..

ثم أنفض رأسي مرة واحدة.. لا.. ليست هذه غرفتي في بيتنا في طولكرم ، وليس هذا بيتنا، وليس هذا سريري القديم.. وليس ثمة نافذة ورائي تطل على الحديقة وشجيرات البرتقال والليمون. وما في الخارج حارتنا، ولا شارع نابلس، ولا بيارة «الحمد الله»، ولا السهل الذي يقطعه وادي «الزومر»، وأنا الراقد هنا لست الفتى المراهق الذي يحلم بالشواطئ والمدن البعيدة، وتكفيه نظرة سريعة وطيف ابتسامة من فتاة أحلامه، كي يطير في الهواء ويمشي على الماء، ويلمس النجوم ويمتطي السحاب، ويفيض شعراً يحسب أنه يكفيه لاقتحام عالم عصي على الفاتحين. لا ليست هذ طولكرم، وليس هذا الراقد على السرير ذلك الفتى. إنما الراقد هنا هو ما آل إليه ذلك الفتى وقد جاوز الستين.. وخاض في الشواطئ التي كان يحلم بها قديماً، وبلغ المدن التي كانت بعيدة.. وذرع الأرض شرقاً وغرباً، ونال نصيبه من أسباب السعادة وأسباب الأسى.. من الرغبات الناجزة والرغبات المحبطة..

أنا في مكان شبيه بالأماكن التي كان يحلم بها ذلك الفتى الذي كنته.. في عمان.. لندن.. باريس.. نيويورك.. غرناطة .. جنيف.. فينا.. برلين.. ستوكهولم.. أوسلو.. لوس أنجلوس.. سان فرانسيسكو.. جزر البهاماز.. كاتكون ورملها الأبيض الناصع وشواطئها المتدرجة الألوان..

فلماذا يخذلني الوعي في منطقة الغسق التي تتوسط بين النوم واليقظة! لماذا تغيب الأماكن التي كانت حلماً عندما صارت حاضرة، وتحضر طولكرم في غيابها لتمحو ناطحات السحاب ببيوتها الصغيرة الواطئة، وتقصي الشواطئ اللازوردية، وهي التي حرمتها النكبة من بحرها القريب.. وليحل زيتونها وبرتقالها محل الغابات الكثيفة التي تستوطنها الغزلان والوعول والحوريات الطائرة.

وإن هذا ليتكرر بين الفينة والأخرى، حتى لأخشى أن يحدث يوماً وأبقى معلقاً في ذلك التيه حتى آخر الأيام!

ذلك وقد غادرت بلدتي طولكرم في الضفة الغربية حين كنت بعد في الثامنة عشرة من عمري لألتحق بالجامعة الأردنية في أكتوبر/ تشرين الثاني من عام 1966. وما أن

مكتبة الرمحي أحمد

انصرم العام الجامعي الأول حتى وقعت النكسة في حزيران عام 1967، فحال الاحتلال بيني وبين طولكرم. ومنذ ذلك الحين لم أتمكن من زيارتها إلا بضع مرات لا يزيد مجموع أيامها على بضعة شهور. وإذن فقد سلخت جلّ عمري خارجها إلا من ثمانية عشرة عاماً فيها. ومع ذلك فهي تحتكر اليوم روحي وعقلي ووجداني وأحلامي، تكاد تجبّ ما بعدها، وكأن كل ما تلا نشأتي فيها مجرد تعليق عليها، أو اختبار لوعود أحلامي فيها، ولوددت لو كان المنتهى فيها كما كان المبتدى.

ها هي الآن إن لم تزرني في أرض التيه لحظة الاستفاقة من القيلولة، دعتني إلى زيارتها كل ليلة قبيل النوم أو في أثنائه؛ يحملني خيالي قبل النوم إليها، أو يحملني الحلم إليها أثناء النوم.. إلى أدراج الصبا ووروده. فلا أكتفي بنظرة الطائر، ولكني أجول فيها شارعاً شارعاً، وأتوقف عند الدور والدكاكين، إما انطلاقاً من بيتنا في الحارة الشمالية بالقرب من شارع نابلس وإلى جوار المخيم، وإما من موقع ما فيها نحو بيتنا.. ما زالت في الحلم والمخيلة على هيئتها في الخمسينات والستينات.. بلدة رومانسية صغيرة محيرة بين الريف والمدينة.. قد جمعت بين أحسن ما في هذه وتلك. عدد سكانها المقيمين زهاء عشرين ألفاً في ذلك الحين، فهي مدينة بهذا المعيار. إلا أن جل أهلها قد انتقلوا إليها من قرى ريفها الكثيرة التي تصل إلى البحر الفلسطيني المسروق على بعد خمسة عشر كيلو متراً، حيث كانت قرية أم خالد التي ترجمها الغاصب الإسرائيلي إلى نتانيا. فبقيت طولكرم أمينة على تراثها الريفي. وعزز من ذلك سهلها الزراعي الخصب الذي تحده جبال الزيتون واللوزيات، وكان يمد المدينة وما حولها بأنواع الخضار فضلاً عن القمح والشعير والذرة. وتحتل بيارات البرتقال وسائر الحمضيات مدى فسيحاً منه.

أنا الآن في موقع ما من ذلك السهل المزروع.. وإني لأشم رائحة الأرض المروية تواً بمياه البئر الارتوازي الذي يملكه «حافظ الحمد لله» ابن قرية عنبتا القريبة التابعة لقضاء طولكرم (قبل أن تصير محافظة). وكان رجلاً محبوباً إذا رشح نفسه للانتخابات البلدية اكتسح أصوات الناس.. دون أن يدعمه حزب من تلك الأحزاب الإسلامية والقومية، أو ترفده بلاغة خطابية تبشر بفجر جديد يملك مفاتحه من دون الناس. كل ما في الأمر أنه كان رجلاً كريم النفس، فكان بئره الارتوازي لا يروي بيارته الواسعة فقط، وإنما كان يمد أهل المخيم القريب أيضا، فإذا بدأ ضخ الماء في الحوض الكبير، أقبلت نساء المخيم بدلاء

مكتبة الربيعي أحمد

الماء زرافات ووحدانا.. فلا يحجبهن حاجب ولا يمنعهن مانع ولا ينتهرهن أحد.. وكأني أسمع الآن ضجيج «موتور» البئر يتناهى إلى البيوت القريبة، ومعه هدير الماء المضخوخ بقوة، وضوضاء النساء المتجمعات عند الحوض.. وكأني أراهن مقبلات مدبرات تلزمهن الدلاء المحمولة على الرأس أن يتهادين الهوينى بأجسام منتصبة ونظرة ثابتة إلى الأمام.

2. بين حصارين: صناعة الأحلام والآثام

ها أنا ذا في موقع ما من سهل طولكرم الذي يمتد تحت التلة التي تقوم عليها المدينة، ويبدأ ضيقاً من مدخلها على الطريق القادم من مدينة نابلس الكبيرة ثم يتسع تدريجاً بين المدينة وجبال قرية شويكة في اتجاه الغرب نحو البحر الفلسطيني المغصوب. فإذا تحرر من الجبال الذي تطوقه من جهة الشمال، اتسع ملء المدى إلى ما وراء الأفق الغربي. ولكن هيهات.. فهو إذ يتسع إلى أبعد مدى يضيق فلا يتسع لقدميك.. حذار حذار من أن يغويك نداء البحر المختبئ وراء الأفق والمدى المفتوح، فتمشي خطوة وراء «خط الهدنة» الذي يقطع السهل. فوراء الخط رصاصات تنتظر صدرك لتفجر حلمك باحتضان البحر. قد وصلت الحدّ بين المدينة وأرض البرتقال الحزين الذي اغتصبه الكيان الصهيوني منذ عام 1948. وليس ثمة أسلاك شائكة تردع اندفاعك نحو الأفق الغربيّ. إنما هي علامات متفرّقة هنا وهناك ولوحة في موقع ما كتب عليها «خط الهدنة». ولأنك يمكن أن تتجاوز الحد قبل أن تنبهك الرصاصات المتربّصة، فالأحوط أن تقف على بعد مسافة آمنة. تنظر وراء ذلك الخط الملتبس، فيمتلئ صدرك بالحزن والغضب والشوق والحنين ورغبة الموت.. أبيني وبين وفلسطين النكبة أن أمشي عشر خطوات دونها الموت الزؤام؟ وما طيب العيش بعد فلسطين النكبة؟ تتغلب غريزة البقاء على غواية السهل المفتوح والبحر الذي اعتاد عبر العصور أن يرى إقبال الغزاة ثم إدبارهم. وتؤجل العبور حتى موعد الشهادة. وإذ تذهب ببصرك نحو السماء ترى رفاً من الطيور يتّجه إلى الغرب. فيزيدك المنظر أسى وحنينا.. ويمتلئ فؤادك بصوت فيروز:

سنرجع يوما إلى حينا..

ونغرق في دافئات المنى..

مكتبة الربيعي أحمد

يعز علينا غداً أن تعود

رفوف الطيور ونحن هنا!

ولكني هنا ما أزال. أتحوّل بنظري الآن صوب المدينة القابعة فوق التلة، تتخلل دورها الحجرية وحاراتها وطرقاتها أشجار السرو والصنوبر. وأحاول أن أميز ملامحها من بعد.. وفجأة أشعر بالوحشة منفرداً في مكاني بين حقول القمح والذرة.. وأشتاق إلى دفء المدينة والحياة فيها.. وما هي حتى يحملني شوق المغترب إلى طرقاتها .. أجدني في مكان قصيّ من غربها: شارع المحطّة، حيث كانت تقوم محطة قطار الخط الحجازي قبل أن تتحوّل إلى خراب موحش، وهناك ينقطع عمران المدينة بخط الهدنة الملتف من السهل إلى حدود العمران. وترى شارعاً موحشاً خرباً يمتد عبر الحدود إلى قلب الوطن الضائع، كان يصل طولكرم بالمناطق الغربية حتى البحر، قبل أن يعطّله اغتصاب الوطن. وترى فيه الآن أثر العطالة الطويلة حفراً وشقوقاً انبثقت منها الأعشاب. ترممه مخيلتك وترده إلى ما كان عليه، وما ينبغي له أن يكون.. وترى الحافلات القديمة تسير عليه متجهة إلى الساحل.. ربما ليوم عمل في حيفا، أو لنزهة على شاطئ البحر. ما بال هذه الحدود تحاصرك أينما درت؟ تدير ظهرك لها وتمشي في شارع المحطة الجميل المحفوف بأشجار الصنوبر والسرو.. وتنتصب فيه دور كنا نعدّها أجمل ما في المدينة وأرقاه. تتناسى للحظة ما استدبرته من محطة القطار الموحشة والطريق المعطل الذي يعبر الحدود ولا يعبر فيه أحد. فما زال في الحياة ما يستحق الحياة. والحلم الكبير لا يجُبُّ الأحلام الصغيرة. والحد الذي يطوق العمران وراءك لا يملك أن يصادر أشواق الصبا التي يبعث جذوتها شارع المحطة الجميل. فهنا تقطن أجمل ثلاث فتيات في المدينة: أختين وصديقتهما. وما أحسب فتى لم يشدّ الرحال إلى ذلك الحي، لعله يحظى بنظرة لن ترجع عليه إلا بحسرة.. فقد أحبهن الجميع، ولم يحببن أحداً منهم.. كن حوريات في أنظارهم، وكانوا مجرد «زعران» في أنظارهنّ! لا يزيدهن الجهال إلا تعاليا وحياءً وترفعاً. وأشهد أني لم أرَ واحدة منهن تلتفت إلى أحد، مهما يجتهد في لفت الانتباه. ولكل من «الزعران» أسلوب يحسبه مجديا. فهذا يبالغ في تصفيف شعره ودهنه وإرسال غرته إلى الأمام، ويطوق عنقه بمنديل معقود، ويكشف أعلى صدره ويرتدي بنطالا ضيقاً قصيراً يرتفع عن كعبيه على الطراز الشائع، ويرش جسمه بعطر رخيص يحسبه عند الغيد شيئا، ويمشي مستعرضا نفسه وهو يهز بيده

مكتبة الربيعي أحمد

سلسلة تلتف على إصبعه ثم تنفلت عنها متقمصا أحد فتيان الشاشة مثل أحمد رمزي وربما عمر الشريف. وقد يدندن بأغنية رومانسية لعبد الحليم.

وهذا آخر يؤثر المظهر الرسمي الجاد الذي يوحي بالمستوى اللائق بحسناوات جمعن بين الجمال والمستوى الاجتماعي الراقي. فيفرق شعره كما يليق بأبناء المحترمين، ويرتدي بذلة وربطة عنق وحذاءً لامعا. فهو أيضا «ابن ناس».

وهذا «أزعر» أدرك أن أمله في الوصال كأمل إبليس في الجنة. فقنع بالتفاتة ولو كانت التفاتة إنكار، وابتسامة ولو كانت ابتسامة سخرية. فإذا مررن به في طريقهن إلى المدرسة أو منها، تقمّص دور المهرّج، فأطلق التعليقات والنكات البذيئة والضحكات الصاخبة.

وهذا آخر اختار أن يصنع لنفسه هيئة الرومانسي الشاحب الهائم الذي أهمل مظهره، لا لانعدام القدرة، ولكن لأن مخبره يغني عن مظهره، وقد صرفته الهموم العظيمة والقلق الوجودي والتساؤلات الكبرى والمشاغل الفكرية والثقافية عن الاعتناء بالمظاهر التافهة وصغائر الأمور!

وهذا آخر قد بدأ في تعريف نفسه شاعراً وأديباً. لم لا وقد نشرت له صحيفة الجهاد بضعة أبيات في زاوية بريد القرّاء؟ فهذه أول خطواته إلى الصفحات الرئيسة، ومنها - إن شاء الله - إلى المجلات الأدبية الكبرى، ومنها إلى الدواوين المطبوعة، ومن يدري؟ ربما صار علماً في المشرق والمغرب، وصار تقرّب الحسناوات إليه طموحاً مستعصياً إلا على المحظوظات، أما من رفضت عروض عشقه وهو في أول الطريق إلى المجد، فلسوف يأتي يوم تدرك فيه أيّ فتى أضاعت، فتعض أصابع الندم على ما كان متاحا لها ثم صار مستحيلا. أهذا الذي كانت تظنه فتى كأي فتى، وهو في غيب المصائر والأقدار عظيم!

وهذا آخر قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت وهو يحاول حباً لا رجاء منه. فجلس يفكر ويقدر ثم ينظر ثم يعبس ويبسر، ثم يقبل ويدبر. فلا يجد سبيلاً للفوز بقلب الحورية المترفعة إلا بحدث درامي قوي يبرز فيه فارسا من عصر الملاحم تتجلى فيه أسمى صور الشهامة والشجاعة والنخوة. ولكن ما السبيل إلى ذلك ولا حرب يخرج منها بطلاً تهتف باسمه العذارى، فإن لم يكن تواضعت أحلامه إلى مظاهرة سياسية ضد أذناب الاستعمار، يقودها محمولاً على الأكتاف، وتقتحم مدرسة «العدوية» للإناث لتخرج الطالبات من

مكتبة الرمحي أحمد

صفوفهن وفيهن فتاة أحلامه، ثم لا بأس بأن يسجن في سبيل الحرية لأيام معدودات لا يلقى فيها عذابا شديدا ولكنها تكفي لأن يخرج من السجن مرفوع القامة، يشير إليه الناس وتتهامس البنات به تقديراً وإعجاباً. وإذ لا شيء من ذلك وضاقت به الأسباب، ازدادت أحلامه تواضعاً، فتخيل أنه يصادف فتاة أحلامه في الطريق، ليجد أن أحد «الزعران» يتعرّض لها بقلة الأدب والمضايقات فتأخذه النخوة العربية، وتحركه الغضبة المضرية، ويدعوه داعي الفروسية، فيشمر عن ذراعيه وما هي حتى يصرع «الأزعر» الدنيء على ما أوتي من بسطة في الجسم. ولما كان هذا الاحتمال بعيداً في الواقع فلم لا يتفق مع صاحب له كي يقوم بدور «الأزعر»، فيتسنى أن يؤدي هو دور البطل على وفق خطة مسبقة يرضى بها صاحبه أن ينهزم له.

ولكن أي فتى آخر يمكن أن يرضى بهذا الدور الخسيس والوصمة المترتبة عليه؟ وما يدريه لعلّ الأمر يتفاقم وتخرج الأحداث عن النص فيتدخل بعض أهل الفتاة. وتلك لعمر الله طامة كبرى. الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ، إذ يتبرأ صاحب الدور المساند من صاحبه ذي البطولة المطلقة: «هذا الذي أضلّني السبيل فاجعلوا له ضعفين من العذاب»! وإذ يجد الحالم المسكين أنه لا يهتدي سبيلا للفوز بقلب الحسناء. يؤجل التدبير إلى يوم آخر. وقد يعزّي نفسه بأن الله إذا شاء فعل.

تعددت الوسائل والإخفاق واحد. فالفتيات الثلاث اللواتي أحبهن الجميع، لم يحببن أحدا ولم تلتفت إحداهن إلى أحد. ولا أراني الآن وأنا في شارع المحطة الذي تهفو إليه القلوب المعذبة، أحظى بأحسن مما حظي به غيري. ولا ثمّ غير طيف عابر خلف زجاج الشباك الذي تطوّقه شجرة الياسمين المتسلّقة. ولا أدري أهو طيف الأم أم البنت أو حتى الأب، والعياذ بالله! فلأتابع السير نحو قلب المدينة في اتجاه مدرسة خضوري الزراعية. هذه أولاً مدرسة خالد بن سعيد التي درست فيها صفاً إعداديا واحداً، تقع أدنى مرتفع حادّ وتقوم أعلاها مقبرة المدينة، ويليها حيث يستوي المرتفع مدرسة عمر بن عبد العزيز التي اصطلحنا عليها باسم «العمرية»، وهي المدرسة التي درست فيها الصفوف الابتدائية الثلاثة الأولى.

وإذن فالمقبرة بين مدرستين إحداهما أدنى المرتفع وأخراهما أعلاه. وأشباح الموتى لا تقوم في النهار! فلم تكن رهبة الموت لتردعنا في نهار الدراسة أن نتسرّب من ساحات

مكتبة الربيعي أحمد

المدرسة إلى المقبرة في وقت الفسحة، لنختلس «شفطة» من سيجارة تتنقل بيننا. وما كنا نملك ترف انتقاء نوع السيجارة. وما كانت ذائقتنا قد ارتقت إلى مستوى التمييز بين الأنواع. فلتكن من سجائر «لولو» الأكثر رخصاً والأقل جودة والأشدّ لذعاً للفم والحلق. فإن توفرت لنا سيجارة «كمال» الأكثر جودة فنعمت هي. أما سيجارة «غولد ستار» الفاخرة فمطلب مؤجل إلى زمن آخر حين بلغناه كانت هذه السيجارة قد غابت عن الوجود وتوقف إنتاجها. وحل محلها أنواع أكثر جودة وفخامة. حسبنا الآن من السيجارة ذلك «الدوخان» اللطيف الذي يخامر الرأس، ولذة الاختلاس، ونشوة عصيان السلطة، ومتعة التجريب والمغامرة الخطرة، بعيداً عن عيون الرقيب المدرسي أو العائلي.

كيف غدت المقبرة ساحة الحرية بين مدرستين تضجّان بالحياة؟ تلك واحدة من المفارقات الكثيرة التي ستواجهها في قابل أيامك. ولكنك لا تفوز دائماً في لعبة القط والفأر التي تحكم علاقتك بمدير المدرسة. وإذ تنقضي الفسحة وتعود للاصطفاف في ساحة المدرسة تمهيداً لدخول الصفوف من جديد، يبرز المدير يحف به أركان حربه وبإحدى يديه عصا وبالأخرى ورقة يقرأ منها أسماء الزعّار والدعّار وأصحاب الشر والمعاصي الذين استتروا بظل الموتى ليقترفوا إثم التدخين، فحق عليهم القول و التأديب والتعزير والعذاب على مشهد من زملائهم ليكونوا لهم عبرة. وإذن، فإن جاسوساً مُجَنّداً قد وشى بالعصاة. وعلى من يسمع اسمه أن يخرج من الصفوف ويتقدم إلى حيث يقف المدير لينال جزاءه العادل: ضربات شديدة بعصا الخيزران المرنة اللاسعة على ظاهر اليد وباطنها. ولكن لعبة صراع الإرادات تبقى مستمرّة وقت العقاب. إرادة المدير أن يوجعك حتى تصرخ أو تتأوّه أو تناشد وترجو وتعد بالتوبة. وذلك في عرف التلاميذ ما يسقط مروءتك وتباشير رجولتك، ويغري بك المتنمّرين. فلتكن إرادتك أن تمدَّ يدك للعصا بسرعة ودون تردد. وتتلقى الضربات الموجعة دون أن ترتدّ يدك ولو قليلاً، بل دون أن تنقبض ملامحك. ففيك من الرجولة والصبر ما يقهر الألم وإرادة الجنرال المدير. وإنك لتعلم أن صبرك على هذا النحو يغري المدير بأن يبالغ في قوّة الضربات وعددها ليبلغ منك تلك الآهة المذلّة. ولكن: المنايا ولا الدنايا. فإذا انقضى العذاب وعدت إلى مكانك في الصفوف فلا ينبغي لك أن تنفخ في يدك الملتهبة المحمرة التي يكاد أن ينفجر منها الدم، لتبردها من لهب الوجع. فعيون زملائك ما زالت تلاحقك لتحكم فيك. فإذا نجحت في

مكتبة الربيعي أحمد

هذا الاختبار حظيت باحترامهم وارتفعت مكانتك بينهم، وليذهب رأي المدير والمعلمين فيك إلى الجحيم. فالسلطة الغاشمة هي الجحيم. وتذكر الآن في وقفتك من المدرسة أن العدوّ الغازي من ورائك، خلف الحدود التي قطعت وطنك، وأنّ السلطة الغاشمة من أمامك متشخّصة في المدير الذي يلهب اليدين بالعصا، وربما انهال بها على الجسم كله دون تمييز. وهو يحسب أنه يؤدبك كما ينبغي للأب الراعي حتى يستقيم أمرك ويعتدل اعوجاجك مبكراً، قبل أن تستمرئ الفسوق والتمرد والعصيان، فيذهب مستقبلك هباء. فالنار من مستصغر الشرر. والعصا لمن عصى. وهذه العقوبات الجسدية و المعنوية باطنها الرحمة وإن كان ظاهرها العذاب. وهو لا يفتأ بين الفينة والأخرى يتمثل قول الشاعر:

وقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

فإن فاتك اليوم هذا المعنى من قسوته، فلسوف يأتي يوم تدركه فيه، فتسترجع ذكراه بالحب والخير والشكر والعرفان. وتطلب له الرحمة حياً وميتاً كفاء ما أبدى لك من الرحمة المحتجبة بالقسوة الرادعة، والغلظة الرائعة، والسلطة الجائعة.

وقد جاء ذلك اليوم. ولكن هيهات هيهات. فأنت اليوم أشد رفضا ونفورا وإنكاراً لذلك المعنى المزعوم، ولتلك السياسة التربويّة المتخلفة. فكم من تلميذ ضاق بذلك الإذلال والقسوة، فغادر مقاعد الدراسة من غير رجعة. وقنع من مستقبله ببيع الكعك أو أعمال الحدادة والنجارة ونحوها. فلم تنكسر عصا المدير على جسده الغض حتى انكسرت معها أحلامه وآماله. وكان عليه بعد زمن أن يرى بعض زملائه وقد صاروا أطباء ناجحين ومهندسين لامعين وأساتذة جامعات بارزين، وهو ما زال يكافح من أجل لقمة العيش، لا يرجو أن يذكر بعض هؤلاء أنهم في يوم ما كانوا معه على صعيد واحد، يتقاسمون الأحلام والآمال والخبز والسجائر الرخيصة ويطاردون معا فراشات الربيع، ويستمتعون بكل ما تمنحه لهم الحياة مجاناً: قوس قزح غب المطر ورائحة الياسمين والزنبق البريّ. ويتنافسون للفوز بقلب الطالبة الحسناء نفسها، تلك التي أحبها كل منهم، ولم تحبّ أحداً منهم.

لا، أيها المدير الجنرال، لم ندرك ذلك المعنى. وإذا كانت النار من مستصغر الشرر، فإنها تصلح أن تكون كناية عن معنى آخر: فالطغاة الكبار الذين يبطشون بشعوبهم، هم

مكتبة الربيعي أحمد

من الطغاة الصغار الذين يوطّئون لهم ويعدون لهم أجيالاً نشأت على الخوف والخنوع والخضوع. وكلهم، كبيرهم وصغيرهم، على مذهب واحد من الذرائع: إنما نرعاكم بسلطان الأبوة، ونقسو قسوة الحازم على من يرحم، ونحن أدرى بمصالحكم، ونعلم ما لا تعلمون، وما نريكم إلا ما نرى وما نهديكم إلا سبيل الرشاد! و ثمة أعداء من الخارج يتربّصون بكم الدوائر، فإن رأو فينا ميوعة وفوضى مالوا علينا ميلة واحدة، فذهب الراعي والرعيّة. سبحان الله! لا يأمن الناس تهديد الغزاة إلا بترويعهم من طرف الطغاة، وهم بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يستعبدهم الطغاة، وإما أن يستعبدهم الغزاة. والحق أن الطغاة هم شرط الغزاة!

وأعلم أن الحنين إلى الماضي يحمل كثيراً من الناس على أن يمحوا القبيح من صورة المدرسة، وأن يضحكهم من ذكرياتها ما كان يبكيهم، وأن ينسبوا إليها ما يتمتعون به من مهارات رياضية ونحوية يزعمون أن مدارس أبنائهم الحديثة لا تؤسس مثلها في الأجيال الجديدة.

ويغفلون عن أنّ نظامهم التربوي القديم لم يكن غير ساحة لمعركة البقاء لا ينجو منها إلا الأفضل. وهؤلاء يمكن القول فيهم إنهم تعلموا وتفوقوا وتقدّموا على الرغم من المدرسة لا بفضلها.

وقد يحسب البعض أن النظام التربوي الضيق القاسي، أشد ما يكون على الأقل ذكاء ونباهة. وهو لا شك شديد عليهم، طارد لهم. ولكنه أيضا عدو للعباقرة والموهوبين. ذلك أن النظام شديد الضيق عليهم، لا يتسع لمواهبهم ولا يرعاهم فرادى، ولا يوفر لهم من التحديات العقلية والعلمية ما يطلق استجاباتهم الفريدة. فتجدهم في ملل من منهاج عقولهم أكبر منه. وإذا اختار أحدهم أن يعبر عن مواهبه بما يخرج عن المساحة المألوفة اتهم بالغرور والادّعاء والاستعراض وتحدّي سلطة المعلم المعرفية والرغبة في إحراجه. فيؤثر السلامة حتى يخرج من هذا الحيّز الضيّق. ويتردد أن أينشتاين لم يبد في المدرسة تميّزاً خاصاً يتناسب مع مآله. وقد يتوهم البعض من ذلك أن العبقرية قد حطت عليه متأخراً. ولكن الأمر ليس كذلك يقيناً. فلا ينام الإنسان على حال من الذكاء المتوسّط، ليصحو عبقرياً. والحال أن النظام التربوي المدرسي لم يكن ليفسح لعبقريته أن تتجلى على وسعها، فكان ما

مكتبة الربيعي أحمد

يتلقاه دون قوّة عقله وأقل من أن يستنفد نشاطه وجهده. فما يحتاج الآخرون إلى أيام لاستيعابه، يستوعبه هو في لحظته. ثم يكون عليه أن يغالب الملل في انتظار لحاق الآخرين به. فلما تحرّر من تلك الحدود الضيّقة، انطلقت عبقريته على وسع الكون الذي فكّك ألغازه وأعاد تعريفه، وغيّر بذلك صورة الكون في الأذهان.

لا، لم يحملني الحنين إلى الماضي ولا الاحتفال الوجداني بلقاء طولكرم بعد طول غياب، أن أمحو القبيح من صورة المدرسة. ولكني مع ذلك لن أسمح لهذه الوقفة أن تفسد علي تجوالي في مسارح الصبا وطرق الأحلام. فلأتابع السير منعطفاً إلى مدرسة خضوري الزراعية. سيصبح اسمها بعد حين كلية الحسين الزراعية وسوف تتحول أخيراً إلى جامعة. ولكن مالي والمستقبل، أنا القادم منه إلى الماضي الجميل، إذ كانت مدرسة خضوري كأنها قطعة من الجنة بأشجارها الكثيفة الباسقة، و بسائطها المعشبة، وشوارعها الداخلية النظيفة، وعمائرها الأنيقة، ومزارعها الخضراء التي يحدها خط الهدنة مع الكيان الصهيوني. وكان دخولها حصراً على طلبتها ومعلَمّيها وموظفيها، فلا يدخلها سائر الناس إلا في مناسبات مخصوصة كمباريات كرة القدم التي تقام على ملعبها العشبيّ الذي تحيط بأضلاعه أشجار السرو. فكنا نحتشد لنشجع فريقنا الكرمي ضد خصمه الضيف. وكان مدير المدرسة مشهوراً بالصرامة والضبط والربط على قلة ما نشاهده. يغفر له أنه كان له ابنتان في مثل أعمارنا تنافسان الحوريات الثلاث نضرة وجمالاً. ولم يكن حظ الفتيان منهما بأحسن من حظهم من الحوريات. على أن ذلك لم يمنعني أن أتغزل بإحداهن شعراً سار بين الرفاق. ولعلّ بعضهم قد ادعاه لنفسه. وما كنت لأصارع من أجل حقوق ملكيتي له، فينكشف أمره في مجتمع محافظ يتغنى بشعر الغزل ما دام في امرأة مجهولة. فإذا كان في فتاة معلومة من أهل البلد وقد سمّتها القصيدة، فلا يدري صاحبها على أي جنب يميل، وأيّ ثائر يتقي، ومن أين يأتيه العذاب والعقاب: من أبيه الذي سيكون تقريعه أشّد مضاضة من وقع الحسام؟ أين ما بذل فيه من التأديب والتربية على مخافة الله ومكارم الأخلاق والمروءات، فإن لم تردعه هذه فليذكر أن له أخوات كتلك التي تعرّض لها بغزله. فهل يسرّه أن يتعرض لهن أحد بمثل ما فعل؟ أبمثل هذا الشعر نحرّر الأوطان؟ لقد احتمل الابن إثما وبهتاناً عظيماً لا تكفرهما إلا التوبة الصادقة وكثرة الاستغفار، والاجتهاد في النوافل.

مكتبة الربيعي أحمد

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أم يأتيه العقاب والعذاب من مدير المدرسة الذي لا يتزحزح عن مذهبه في ضرورة أن يقسو الحازم على من يرحم ليردعه عن غيه، وبذلك ينقذه من نفسه!

أم من قوم الفتاة الذين انتفخت صدورهم وحميت أنوفهم وصاح صائحهم، يا لثارات بني عبس!

فليدّع القصيدة من يشاء، فلن تبلّغه أكثر مما تبلّغني. وما هي إلا نفثة محرور يعينه الجمال العصي على اكتشاف الشعر فيه. ولسوف يتلو ذلك قصائد أخرى تتحدّى سلطة رقيب أشدّ خطورة وأنكى عذابا، وتصنع لنفسها فضاءً لا تقطعه حدود الغزاة ولا تطوقه شرطة الطغاة، وتعبر فيه رفوف الطيور الفيروزيّة التي يعز علينا غدا أن تعود، ونحن هنا.

ولكنني هنا الآن في طولكرم، في مرابع الصبا الغابر لا يشدني إلا شوق العائد بعد طول غربة في أرض التّيه. أخلّف مدرسة خضوري ورائي مصعّداً. هذه سينما (الفريد) على زاوية الشارع المنحدر عن يميني. وغير بعيد أمامي، وعن يساري سينما (الأندلس) التي كان اسمها في أول أمرها سينما (يافا). إلى هنا كنا نفرّ من ملالة مدينة تنام مع غروب الشمس، قبل أن نُعيد اكتشافها في عالم الذاكرة، ويحوّلها الحنين إلى فردوس مفقود. هنا كنا نأتي لننسى، ولو لساعتين أو دون ذلك، واقعاً ثقيلا يحاصره الغزاة والطغاة وتندحر فيه الرغبات المحبطة. هنا نافذة نُطلّ منها على عالم ليس لنا حيث الصور الجميلة التي تنتجها مصانع الأحلام في هوليود والقاهرة.

وكما كنا نستقبل العالم الواقعي بذائقة ساذجة متواضعة في معاييرها ومتطلباتها وتوقعاتها، قبل أن تفقد الأشياء قدرتها على الإدهاش مع تقدم الوعي وتزاحم الخبرات وتراكم المعارف وبطر الحواس، كنا كذلك نستقبل الأفلام. فمن النادر أن يخيّب فيلم آمالنا في الإقناع والتأثير. في زمان آخر سوف يصبح من النادر أن يدهشنا فيلم بجودة نصه وتنفيذه على الرغم من التقدم الهائل في صناعة السينما. ولسوف نعجب ونحن نشاهد فيلماً قديماً، كيف استطاع هذا الفيلم أن يضحكنا ويبكينا إذ شاهدناه أول مرّة: حبكة ضعيفة، وقصة ساذجة مكرورة، ومعالجة «ميلودرامية» تخاطب العواطف السطحيّة، وشخصيات مسطّحة أحادية، وعجز عن استبطان الواقع وعلاقاته وشروطه، وحوار

مكتبة الرمحي أحمد

ركيك، وإخراج بدائي، إلاّ بالطبع من استثناءات قليلة بقيت تحتفظ بتميزها على الرغم من تقادمها. وعلى أي حال، فلا ندامة ولا رثاء لوقت ضائع. بل ينبغي أن نشكر لسذاجة وعينا وتواضع أحكامنا في ذلك الحين. فلولا ذاك لخسرنا تلك الأحلام الجميلة التي كانت ترتسم على الشاشة السحريّة، ولكانت الحياة إذ ذاك أكثر ملالة وكتامة. ولكن، ما بالنا الآن، إذا عرض واحد من تلك الأفلام القديمة على إحدى القنوات التلفازية، نُعيد مشاهدته بكل اهتمام وشغف، على الرغم من أحكامنا النقدية القاسيّة، ولا نتسامح مع الجديد تسامحنا مع القديم؟ الآن يجذبنا إليه سبب آخر، غير أسبابنا القديمة. الآن يردنا إلى ذلك الماضي الجميل المضيء، ويبعث فينا الصبي الذي كنّاه. كان في الماضي نافذة تطل بها على عالم ليس لنا، والآن هو نافذة نطل منها على عالم كان لنا وفقدناه إلى الأبد.

وللسينما عادات في خداع الوعي والحواس. فما يرتسم على الشاشة أجمل دائماً من الواقع. فالممثلون يصبحون نجوماً لامعة. والنجوم دائماً جميلة براقه غلاّبه.

وإذ نعيد مشاهدة أحد تلك الأفلام العربية القديمة، نعجب كيف كانت هذه الممثلة أو تلك تخلب ألبابنا وتغذي أحلامنا وتهيج أشواقنا. والآن وقد تحررنا من سلطان النجومية وفتنتها مثلما تحررنا من عشى الرغبات البدائية، الآن نرى تلك الممثلة بعين أخرى أكثر حدّة وأقل تسامحاً وكرماً: قوام ممتلئ وردفان عريضان، وعنق ثخينة.

وذلك المطرب الممثل الذي فتن قلوب العذارى وأرّق جفونهنّ، فبَلّلن مناديلهن بدموع العشق المستحيل، ومشى بهن على طريق الشوق والشوك، وأيقظهن صوته من جوف الليل، وصرفهن عن يقظة النهار.. ذلك المطرب الذي عشقنا أغانيه بقدر ما شعرنا بالغيرة منه، فهو على البعد يبلغ من قلوب الحسان ما لا نبلغ نحن على القرب.. نطلب الواحدة ولا نجدها، وهو يكتسح قلوبهن على الجملة من مكانه القصي في سماء مرصّعة بالنجوم.. ذلك المطرب، لم يكن له من الوسامة بعض ما له من الموهبة والصوت الرّخيم الشجيّ.. ولكن للشهرة والموهبة سلطان وضوء باهر يعشي الأبصار، ويؤجل الكهولة، ويطيل القامة، ويجمّل القبيح. والجمال كما قيل في عين الرائي لا في حقيقة المرئيّ.. ومهمّة السينما كمهمّة السحر: أن تسحر أعين الناس حتى ليخيّل إليهم من سحرها أن مشاهيرها (أبطالها) قد صنعوا من غبار النجوم، حين خلق سائر الخلق من صلصال من حمإ مسنون.

مكتبة الربيعي أحمد

قل في صوت أم كلثوم ما شئت، ولا تدّخر شيئا من ديوان المدائح، إلا ما كان في جمال الصورة. فما بال كل هؤلاء المبدعين الذين اتصلت سيرتهم بسيرتها قد بذلوا في عشقها أعمارهم ومواهبهم، وبعض كبريائهم، وهي متحصّنة عنهم في علياء مجدها. فقنعوا منها بأن تبقيهم في ظلها العالي، يحاولون حباً يائساً أو يموتون فيعذرون. فهذا الشاعر الموهوب ينفق طاقته الابداعية في كتابة الأغاني لها. وكان بوسعه أن ينافس على لواء الشعر الفصيح. وهذا الموسيقار العظيم يرضى من قربها بأن يرافق حفلاتها الغنائية «عوّادا» في فرقتها الموسيقية، إذ تعزف ألحاناً من صنع غيره، فيضرب على عود تضيع أنغامه في زحمة الآلات الأخرى.

لم تأت هذه الفتنة الطاغية المتسلطة من جمال الوجه والصورة يقيناً. وإنما شعّ بها سلطان الشهرة والمجد والموهبة الفذّة، ذلك السلطان الذي في وسعه أن يعوّض عما ضنت به الطبيعة من أنوثة أو فحولة. أو هي جاذبية تحاكي قانون الجاذبية الطبيعي، إذ يجذب الجرم الكوني الكبير ما دونه من الأجرام إذا دخلت في نطاق جاذبيته. أو كأنها نزوع الإنسان إلى تأكيد قيمته وتفردّه إذا اصطفاه من دون خلق الله حبيب عصيّ بعيد المنال شغل الدنيا وملأ الأسماع وتزاحم على بابه المعجبون والعشّاق، وتنافس في حبه المتنافسون!

ولكن مهلاً! قل اللهم لا حسد. فلا يكافئ مغانم شهرة الفنانين إلا مغارمها.

فمن الناس في مجتمعنا من تحصن من سحرهم، فهو يميز بين الأغنية والمغني، والتشخيص والمشخِّص، لنا أن نستمتع بما يقدمه هؤلاء ولكن المطرب في نهاية الأمر «مغنواتي» والممثل «مشخّصاتي». وهو ما لا ترضاه العائلة المحافظة لأبنائها مهما تكن امتيازات المال والشهرة. ولطالما كانت الشهرة -على كل حال- طرائق جددا. فمنها صيت حسن، ومنها صيت سيء. ألا ترى إلى من أشيع عنه صيت سيء، يقال فيه: قد شُهّر به؟ فالتشهير والشهرة من جذر واحد! ولطالما لحقت بمجتمع الفنانين وصمة الانحلال والسهرات الحمراء. وبذلك يعيش الفنان مفارقة حادّة بين التعظيم والتبخيس. فتارة يمشي مختالاً بين معجبيه، يوشك أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، وتارة أخرى يجد من القوم من يسلقه بألسنة حداد ويصدّ عنه صدوداً. فإن لم يكن هذا كافياً، فثمة آخرون لا ينكرون مهنته حتى ينكروا معها فنه على الجملة. فهو عندهم هزل لا يليق بذوي

مكتبة الربيعي أحمد

الأحلام، أو هو إثم من عمل الشيطان ينبغي اجتنابه، إذ يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، ويصرف عن مكارم الأخلاق.

في طولكرم، كنت لا ترى في دار السينما إلا الشباب والفتيان في معظم الأحيان. إن لم يكن ذلك ترفعاً من الكبار عن ترفيه ملتبس بالهزل، فترفعا عن الجلوس بين فتية صاخبين غير راشدين، كلما جاء مشهد تقبيل، تلقوه بالصفير والتعليقات المبتذلة. وإذا نشب عراك على الشاشة بين البطل الطّيب الخير وخصومه الأبالسة شبوا عن مقاعدهم يصفّقون للبطل ويحرضون ويذمرون على القتال.

وأحسن الأفلام عند كثير منهم ما جمع بين كثرة التقبيل والمشاهد الساخنة وكثرة العراك. فإذا عرض فيلم من هذا النوع تواصوا به وأقبلوا عليه يتذامرون.

في مقام كهذا لا نتوقع أيضا أن تقبل الفتيات إقبال الفتيان، إلا إذا كان الفيلم من النوع العاطفي الرومانسي، لا سيما أفلام عبدالحليم حافظ. وهنا يتزاحم الفتيان على دار السينما تزاحم النحل في قفيره، لا يغريهم من الفلم ما يغري الفتيات، وإنما يغريهم إقبال الفتيات أنفسهن. فهي من المناسبات النادرة التي يجتمع فيها هذا الحشد من الفتيان والفتيات في حيّز واحد.

فترى الفتيان وقت العرض يقلّبون أبصارهم بين الشاشة وبين الفتيات اللواتي يجلسن في نصف الصالة المخصصة لهن. فلا يجاور الفتى فتاة مباشرة في مقعده. وبين القسمين طريق المرور.

يودّ أحدهم لو كان له من الحظّ في الحب ما لبطل الفيلم، حتى لو جاء ذلك في صفقة واحدة مع مرض عضالٍ لا يرجى شفاؤه في بلد العاشق، إلا أن يسافر إلى أوروبا لتجربة علاج هناك، حظوظ نجاحه ضئيلة. ولكن من عادة الأفلام أن تتغلب فيها النهايات الجميلة على أسوأ التوقعات وأعتى التحديات، ليفوز العاشق بالحسنيين، الحبيبة والعافية، بعد أن ظنّ الجميع كل الظن ألا أمل ولا تلاقي، وأن جرح العاشق لا يهدأ ولا ينام، لا في يوم ولا في شهر ولا في سنة، وأن «حكاية حبّه» محكومة بفجيعة محتومة!

مكتبة الرمحي أحمد

على أن الفتيات في نصف الصالة المخصص لهن منصرفات كل الانصراف عن لواعج الشباب في النصف الآخر. بل لعل العواطف المشبوبة التي تتمثل على الشاشة تزيدهن زهداً بهم. شتان عندهن بين صناعة الواقع وصناعة الأحلام.

وأين شاب من هؤلاء الذين يقبعون في عتمة المكان من نجم الفيلم الذي ينضح رقةً و نبلاً و صدقاً و موهبةً و مثاليةً. إن لم تكن قصة الفيلم وشخصياته تجسيداً للواقع، فإنها حجة عليه، تزدري به وتكشف قصوره. لا عزاء للفتيان في صالة السينما. وسوف يرجع بطل الفيلم من رحلته في العلاج إلى أوروبا معافى، وسوف يلتئم شمله مع حبيبته الجميلة. وعندها تنقلب دموع الفتيات في دار السينما إلى دموع فرح. انتهت رحلة العذاب، وانتصر الحب ولكن في عالم آخر.

فإذا انقضى الفيلم لم تخرج الفتيات حتى يتم خروج الفتيان أو إخراجهم. ولكن هؤلاء يتلكؤون عند باب السينما يرجون إرسال نظرة أخرى لا يستقبلون مثلها.

وكنت ترى الفتيان إذا خرجوا من باب السينما قد تقمّص بعضهم حال بطل الفيلم على حسب قصته ونوعه، فإذا كانِ من أفلام الغرب الأمريكي ورعاة البقر رأيت أحدهم يمشي وقد ابتعد بذراعه عن خاصرته وأخذ يقبض يده ثم يبسطها كأنه يستعد لسحب مسدسه الوهمي بسرعة البرق في مشهد المواجهة الأخيرة. فإن كان في صحبة انخرطوا معه في مبارزات يتبادلون فيها إطلاق النار وهم يسدّدون بأيديهم المشهرة، وقد ينفخ بعضهم على رأس سبابته ليبردها من حميم الرصاص الغزير ودخانه ويتابع. وإن الرصاص لا ينقضي من ذلك المسدس العجيب دون حاجة إلى إعادة حشوه. وإذا كان مثل هذا المشهد في الفيلم قد استغرق بضع دقائق أو دون ذلك، وانتهى كالعادة وبالضرورة بمصرع الأشرار جميعاً على كثرتهم وسلامة البطل ذي المهارة المعجزة، فإن مشهد المحاكاة لا يكاد ينقضي. فالنص هنا مفتوح ومرتجل. ولا يودّ أحدهم أن يموت أو ينهزم. فلا يسقط أحدهم نفسه على الأرض من رصاصة صاحبه الذي ظن أنه قد أرداه قتيلاً، حتى يفاجئه الأول بالنهوض ليسدد له رصاصة ينبغي أن تكون قاتلة. ولكن هيهات.

لا أحد يموت. وغاية ما يرضى به جرح في أعلى ساعده أو فخده لا يعطّل قدرته على متابعة إطلاق النار. وهكذا حتى يملّ القوم ويصل بعضهم إلى باب داره، لتذكره

مكتبة الربيعي أحمد

كوفية أبيه و «قمبازه» ولهجته الريفية بأنه عربي فلسطيني من (طولتشرم) طولكرم بينه وبين الغرب الأمريكي بعد المشرقين وبعد المغربين:

- وين بكيت (بقيت) حظرتك (حضرتك) داير لهسّع (لهالساعة)؟

- مع أصحابي!

- وين مع أصحابك؟

- بندرس مع بعظ (بعض).

- هه! تنشوف يا فالح!

أحسب أن والدي -رحمه الله- كان أكثر تصديقاً لروايتي عن قضاء الوقت في الدراسة مع بعض أصحابي. ربّما لأنني كنت «الأول» في صفّي على توالي الأعوام، على الرغم من المنافسة الشرسة في مجتمع طولكرم الذي كان يضع التعليم والتفوق الدراسي في الدرجات العليا من سلّم القيم الاجتماعية، باعتبارهما الشرط الأهم للحراك الاجتماعيّ والاستثمار الأعظم الذي ينقل الأسرة الممتدة بمجملها من حال معيشي إلى حال أفضل، ومن طبقة إلى أخرى. فلم يكن على والدي أن يشكّ في روايتي وهو يرى نتائجي السنوية، ويستمع إلى مدائح المعلمين لي، وهي التي لم أكن أكيل لهم مثلها. فالتفوق العلميّ في مجتمع طولكرم يكافئ التفوق الأخلاقي. وذنب المتفوق مغفور ولو عَظُم. أما المتأخّر فلا يكاد يشفع له شيء من حسن الخلق والخلقة، فهو مذنب بلا ذنب. وعليه أن يعيش مع وصمة التخلّف الدراسي، في كل حين تلاحقه بوابل من الأوصاف القبيحة:

- (تيس، حمار، بغل، بهيم، غبي)، وتنذره بمستقبل معتم.

- سوف تنتهي «عتّالا»، أو موزع جرائد، أو «سمكريًّا»، أو «زبَّالاً»... ما ظنك غدا إذا صرت عالة على بعض إخوانك وقد يصدّون عنك صدوداً، إن لم يكن من أنفسهم فبتأثير أزواجهم!

لا عجب إذن أن يكون والدي فخوراً، وأن يصرفه ذلك عن أن يظنّ بي سوءاً إذا ادّعيت أني كنت في شأن الدراسة مع أصحابي، وقد كنت في دار السينما على الحقيقة. وهي في معاييره الأخلاقية أقرب شيء للحانات الليلية التي نتسامع بها في ديار الكفر والمدن

مكتبة الربيعي أحمد

الصاخبة البعيدة ولا نراها. بل لعلّ صرامة معاييره الدينية والأخلاقية هي التي كانت تدعوه إلى تصديق حجتي، وتصرفه عن اختبار صحتها. فهل يعقل أن ينحدر ولده المتفوق في دراسته والذي نشأ في بيت دين أن ينحدر إلى ذلك الدرك الأسفل فيذهب إلى دار السينما ليشهد تلك الرذائل متصورة أمامه؟ كان على بيتنا أن يتخلف عن بيوت الناس أعواماً قبل أن يخضع والدي أخيراً لضغوط العائلة فيدخل جهاز المذياع إلى بيتنا على مضض، واحتاج إلى وقت أطول لكي يغضي عن استعمالنا له لسماع الأغاني دون أن يندندن بأصوات التبرّم وذمّ الزمان الآيل إلى فساد. ولعله حين جاء بالجهاز بعد طول رد، لم يفعل ذلك استجابة للضغوط وخلاصاً من الجدال المزعج في المقام الأوّل، وإنما لأن حاجته إلى الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم ونشرات الأخبار قد غلبت أخيراً على مفاسد المذياع الأخرى. فلا عجب إذن أن يرى إلى السينما بوصفها أم المفاسد والرذائل.

وكان قد فرض على أبنائه أن يثوبوا إلى البيت قبيل دخول المساء، وذلك قبل أن نبلغ الصفوف الثانوية. والمدينة على كل حال تنام مع غروب الشمس كما وصفتها مجلة العربيّ في تحقيقها المنشور عن طولكرم عام 1963م، وغاية ما يبلغه الساهرون انقضاء صلاة العشاء. ولما كان وقت عرض الأفلام يبدأ في وقت ما بعد العصر، فإن عرض الفيلم لا ينتهي حتى غياب الشمس على حسب طوله وعلى حسب طول أيام الفصول. فكنت أقضي الدقائق الأخيرة من الفيلم متوتراً أقلب نظري بين الشاشة وساعتي. وأنا بين الرغبة العارمة في مشاهدة الذروة الدرامية التي تأتي مع النهاية وبين الخشية من تأنيب والدي. وما كان يفعل غير التأنيب، ولكن كان له من الهيبة والسلطة المعنوية ما يجعل تأنيبه ثقيلاً يرجى اجتنابه.

ولقد ترجح الرغبة في مشاهدة نهاية الفيلم على خشية التأنيب إذا كانت درجة التشويق والإثارة عالية. فإن لم تكن رجحت كفة الميزان الأخرى، فخرجت من دار السينما قبل مشاهدة الخاتمة. وبذلك فاتني من أفلام كثيرة نهايتها. وكان على خيالي أن يشخّص الخواتيم. وربّما اضطررت في نهار اليوم التالي أن أسأل بعض رفاقي ممن شاهدوا الفيلم أن يقص علي النهاية.

وكان بعضهم أوفق من بعض في القص والتشخيص. وكان علي أن أنتظر عشرات السنين بعد ذلك لأستدرك ما ضيعته من تلك النهايات واللذات. وذلك حين دخلنا زمن

مكتبة الرمحي أحمد

الفضائيات التي تزاحمت فيها قنوات الأفلام القديمة، وجلها بالأسود والأبيض. فوجدتني أقبل على مشاهدتها دون الأفلام العربية الجديدة بدافعين: أولهما ذلك الحنين الآسر إلى الماضي، وثانيهما استكمال مهمة بدأت ولم تنته في زمان غابر قديم. وما كانت تلك النهايات الفائتة بالتي تفاجئ أحداً أو تصدم توقعاته. فهي أشبه شيء «بالكليشيهات» الجاهزة. وما أن يمضي من الفيلم بعضه حتى يكون بوسع أقلنا خيالا أن يتنبأ بمجرى الأحداث بعد ذلك حتى القرارة الأخيرة. ولكن، لفنون السرد سحرها وجاذبيتها مهما تكن ساذجة ومكرورة.

أفلم تكن الجدة تقص علينا الحكاية الشعبية البسيطة عشرات المرات ونحن نضع رؤوسنا على ركبتها، ثم ننشدها أن تعيدها علينا مرات أخرى في أيام أخرى؟! فلا يزول السحر حتى تغادرنا الطفولة، وتمنحنا الحكمة المتراكمة والمعارف المكتسبة ما يرفع غلالة السحر عن العالم، أو يجعل مطلبه أكثر صعوبة و تعقيدًا.

حين لم يكن في وسعنا أن نذهب إلى دار السينما لنشاهد واحدا من تلك الأفلام، كنا نصنعه! فكنت أخرج مع بعض رفاقي إلى سهل طولكرم، وهناك ننخرط في تمثيل قصة مرتجلة نحشد فيها من المعارك ما نتمنى أن يحشده أي فيلم حقيقي نشاهده. ولكن إدارة عملية الإخراج وتوزيع الأدوار وتوجيه الممثلين المشاركين وإلزامهم خطوط السرد (وكانت كلها من عملي فضلاً عن دوري في البطولة المطلقة!)، لم تكن بالعملية الهينة. فما إن ندخل في عملية الأداء والتشخيص وفقاً لتوجيهاتي الابتدائية، حتى يصبح الموقف اختبارا للقيادة و صراع الإرادات وعلاقات القوة والتدافع الاجتماعي السلوكي المضمر والمعلن على الواقع والمعاني والتأويلات والامتيازات المعنوية.

لا أحد يريد أن يموت مغلوبا ويخرج من اللعبة؛ لا أحد يريد أن يكون شريرا في عالم مثالي متخيل ينهزم فيه الأشرار؛ لا أحد يريد أن ينتهي دوره في منتصف الفيلم. الكل يحاول الخروج عن خطوط النص التي ارتجلها شخص واحد (هو أنا)، الكل يحاول أن يكون شخصية رئيسة وبطلا مكافئاً.. لا أحد يرضى بدور ثانوي، فكيف أن يكون «كومبارسا»! وما هي حتى يتوتر الجو ويتحول الصراع المتخيل إلى صراع حقيقي على عناصر الصراع المتخيل وخطوطه!! وفي سياق هذا التفاعل العجيب تنكشف أنماط

مكتبة الربيعي أحمد

الشخصيات الحقيقية للمشاركين. فهذا سريع إلى الغضب الجارف والانفعال الشديد، وذاك أكثر تعقلا وحكمة وواقعيّة، وهذا يفضل هدم السقف على رؤوس الجميع وتخريب اللعبة الماتعة برمتها على أن يخضع لتوجيهات القيادة ويرضى بأقل مما فرض لنفسه. وهذا ضعيف يؤثر السلامة والاتباع على المواجهة أو تحمل التبعات. وهذا لا تتفق طموحاته الكبيرة مع مواهبه الحقيقية المتواضعة. وذاك أكثر دهاء من غيره، فيظهر القبول والتفهم ويتجنب الجدال، ثم يجد طريقة ذكية لفرض نفسه. وهكذا يتقلب الموقف بين التشخيص المتخيل والتفاوض عليه، ويصير الخيالي موضوع التفاعل الواقعي واختباره.

ومع التقلب بين هذا وذاك، تقلب آخر بين اللهجة المصرية، وهي لهجة الأداء والتشخيص المتخيل، واللهجة الكرمية الفلسطينية، وهي لهجة الصراع الواقعي على فضاء الخيال والوهم.

بعد زهاء عقد ونيف، سوف يتحول شغفي بسحر الدراما وفنون السرد إلى حرفة كتابية تتنافس مع عملي أستاذاً جامعيا. وسوف يكون بوسعي أن أكتب نصوصى الدرامية التلفازية لينفذها جملة من أصحاب المواهب المحترفين إنتاجاً وإخراجا وتمثيلا، في صناعة متكاملة تقوم على التقاسم و التكامل. ولن يكون علي أن أنهض بكل المهمات و أن أدخل في تدافع متعب مع سائر المشاركين!

هل قلت: «لا تدافع»؟ ليس هذا صحيحا. فالتدافع سنة في الفعل الاجتماعى وإن اتخذ أشكالا مختلفة. والصناعة الدرامية وإن قامت على التقاسم الوظيفى والتكامل فإنها تنطوي على قدر كبير من التدافع، بل الصراع أحيانا، بين أطرافها، وتشتغل فيها علاقات القوة مستعلنة أحيانا ومستخفية أخرى.

إنها القصة القديمة عن التوتر الطبيعى بين الفرد والجماعة. لا يستغنى أحدهما عن الآخر، ويستثقل ثمن الحاجة إليه من كيانه ومصلحته وحريته ورؤيته ومواقفه وتعريفاته للأشياء. فيكون التدافع.

ولعله شرط إنساني وضرورة اجتماعية يفضى معها التدافع إلى الدفع والحراك ولو بعد حين. أما انفراد أحد الطرفين: الفرد أو الجماعة، بالسلطان، فلابد أن يفضى إلى نوع من الطغيان: طغيان الفرد، أو طغيان الجماعة التي تلغي حرية الفرد وإبداعه. فإذا وصل

مكتبة الربيعي أحمد

التدافع حد الصراع والإقصاء المتبادل، انقلب إلى ضد مآلاته، وأفضى إلى تفكك المنظومة الاجتماعية وانهيار النشاط الجمعي. وباء الجميع بالخسران حتى ينتظم أمرهم من جديد على قواعد جامعة.

إذا صحّ أن صناعة الدراما السينمائية والتلفزيونية هي -في جانب منها على الأقل- صناعة الأحلام، سواء أكانت تلك الأحلام هروبا من الواقع أم تقدمة لخلق واقع جديد أكثر نبلا وجمالا، فإن عملية الصناعة نفسها أنموذج للواقع بكل ما يضمره من علاقات وشروط وأنماط إنسانية، قد يكون بعضها شديد القبح.

لم نكن ندرك هذا كله حين كنا نرتاد سينما الفريد وسينما الأندلس في طولكرم في تلك الأيام الزاهية من خمسينات القرن الماضي وستيناته، وكنا نستقبل من أعمارنا أكثر مما نستدبر.

كفى وقوفاً على دار سينما الفريد ودار سينما الأندلس. ولأتابع السير في مرابع الصبا، قدما نحو قلب المدينة.

3. قلب المدينة: تزاحم الأضداد

أجيل بصري في ساحة المدينة. هنا كان يقف بائع «البرّاد»، وهو شراب مثلوج غليظ القوام بنكهة الليمون، يصنع في أسطوانة يديرها البائع في بطانة من الثلج تحيط بالأسطوانة حتى يقارب الشراب حدّ التجمّد. ولم نكن نعرف في ذلك الحين كؤوس البلاستيك التي تستعمل مرة واحدة. فكنا نتناوله وقوفاً في كؤوس من الزجاج، فإذا فرغنا أعدنا الكأس للبائع، فيشطفه على عجل في «طشت» من الماء، ثم يصب فيه لآخر. وما كان عندنا من الوعي الصحيّ ما يصرفنا عن هذا الأمر خشية الأمراض المعدية. وكنا على كل حال أجرأ على المجازفة في سبيل الرغبة، وأكثر استهانة بالنصائح، وأقل تقديراً للعواقب. ولعل أجسامنا قد اكتسبت في تلك الظروف مناعة خاصة. وكان «البرّاد» لذيذا، يزيد من لذته حرّ طولكرم الخانق والمصحوب برطوبة قادمة من بحر فلسطين المسروق، وليس بيننا وبينه إلا زهاء عشرة أميال من حقول الموت والرصاص المعدّ لجنازاتنا.

مكتبة الربيعي أحمد

على أن أشهر ما في تلك الساحة مطعم فلافل «الثور» الذي ما زلنا من دهور نبحث عن طعمه في كل مكان فلا نجده. وكيف نجده وقد ذهبت الذائقة القديمة التي كانت تستقبله، مع ذهاب عصر الطفولة والصّبا الأول. وكنا نشتري منه شطيرة ونحن في طريقنا إلى دار السينما القديمة. وعلى الرغم من اشتهاره بالفلافل إلا أنه كان يقدّم الشواء لمن يملك القدرة على ثمنه. وقليل ما هم. فكان ذلك خارج طموحاتنا القريبة. ومع توالي الأيام وتعاقب الفصول وزيادة «المصروف» صار بالإمكان ادخار ما يكفي من النقود لتناول وجبة من الشواء هناك لأول مرة. وأول اللذات دائماً أروعها. فكان ذلك أقرب شيء إلى طعام الفردوس. ولكن من عادة الفردوس الأرضي أن نفتقده، إلا من حنين يتنامى مع مر الأيام. ولعل الحنين هو الذي يصوّره فردوساً مفقوداً بأثر رجعي.

في هذه الساحة المركزية، لم أستقبل بعض نكهات الحياة الأولى فقط، وإنما قابلت الموت شاخصاً لأول مرة متدلياً من حبل مفتول مثبت على رافعة خشبيّة. كان يوماً غائماً. وفي الليلة السابقة سرى الحديث في المدينة أن جاسوساً لإسرائيل حكم عليه بالإعدام، سوف يشنق غدا في تلك الساحة. كنت في زهاء الثامنة. وكانت الساحة في طريقي من بيتنا إلى المدرسة العمرية أعلى المقبرة.

حين وصلت الساحة رأيت الناس قد تحلقوا زرافات ووحدانا حول المشنقة المنصوبة التي يتدلّى منها الرجل، وقد اصفرّ وجهه وتجمّدت عيناه واندلع لسانه.

وكان مكان المشنقة المنصوبة على بعد أمتار قليلة أمام مطعم «الثور» للفلافل والمشاوي. كانت عيون الناس مسمّرة على الرجل المشنوق وهم يتبادلون التعليقات. لم يبد أحدهم مصدوماً في حضرة الموت الشاخص، فلا ثمة وجه منقبض، ولا أحد يكتفي بنظرة فضول سريعة ثم يتعجّل بسيره. كان الموقف أشبه بفرجة شعبيّة. لم يتوقف دخان الشواء عن التسرّب من مطعم الثور. وإن أنس فلا أنسى منظر رجل جالس إلى طاولة صغيرة يتناول فطوره على مشهد من الموت، وقد انتفخ خده من لقمة عظيمة يتبعها بقضمة أعظم من حبة بندورة (طماطم). لم أمكث طويلاً أمام المشهد الذي سيلاحقني أياماً طويلة في صحوي ومنامي، وفي صف الدراسة والبيت والطريق. شيء ما غامض قبيح معتم موحش، نفذ من جلدي إلى حيث موضع القلب والوجدان والوعي والروح،

مكتبة الرمحي أحمد

واستقر هناك كغيمة سوداء. ووجدتني وأنا ابن الثامنة مدفوعاً لأن أرسم المشهد على لوحة «كرتون» كبيرة: الرجل المشنوق المتدلّي من حبل المشنقة، والرجل السمين على بعد أمتار يحشو فمه بالخبز والطماطم وهو يقلب بصره بين طعامه والموت.

للشعراء وأصحاب التأملات الفلسفية أن يؤوّلوا المشهد على وفق ما يغويهم زخرف القول. وربّ قائلٍ: بل هو بغض العدو الغاصب ومن ثم مقت الخونة الذين يبيعون الأوطان. فحق لنا أن نحتفل بقصاصهم احتفالنا بالحياة نفسها. ما كان القوم ينظرون إلى الموت شاخصاً، ولكن إلى العدالة ومصائر الأعداء المرجوّة.

ولكنّي حين نظرت إلى الرجل المشنوق، غلب على بصري ووعيي منظر الموت بإطلاق، لا منظر الخائن ومصيره. لنا أن نحتفي بالخلاص من الخونة والجواسيس، ولكن الموت لا يغيّر شكله على وفق تصنيف الميت وأسباب موته. وهو في كل الأحوال يصرف عن الشهية حين تراه كفاحاً وجها لوجه، ولو كان الجوع قوياً، والطعام شواءً غوياً، فكيف لا يصرف عن خبز وطماطم. لعلّ بعض الفرق بيني وبين الآخرين أني كنت في مطلع العمر، منشغلاً باكتشاف الحياة وألوانها وأصواتها وروائحها عن تدبّر الموت وتصوّره، إلا من لحظات القلق على مصير الأبوين في تلك الأوقات الغامضة من سكون الليل وأشباحه. فلما رأيت الرجل المشنوق صرفني النظر إلى الموت عن التفكّر في قصّة الميت و مآله ذاك.

بل راودني شعور ملح بأن الرجل ربما كان بريئاً، وأنه ضحية ظلم شنيع، أو خطأ قاتل، أو تدبير ماكر. كنت أرغب في أن أعتقد هذا لأسوّغ ما أضمرت صدمتي بمنظر الموت من بعض الإشفاق والتفجع على ميت يفترض أنه جاسوس لقي قصاصه العادل. فأنا لم أشاهده وهو يقترف جرمه الشنيع، ولم أطلع على عواقب جرمه وما أوقعه من أضرار بالقضية المقدّسة وناسها. ولكني رأيت المشهد الأخير فقط من سيرته. وذاك ما انطبع في عقلي ووجداني وهزّ مشاعري ورجّ كياني. وليس الخبر كالنظر!

ذاك هو شأن الدراما الإنسانية في واقع الحياة، كما هي الدراما الفنية المتخيلة التي تحاكيها، وكذلك الانطباعات التي تخلقها حيل الإعلام في طريقة سرد الخبر. فقد ترى شريطاً يصوِّر الساعات الأخيرة لرجل محكوم بالإعدام. والغاية المضمرة خلق رأي عام

مكتبة الرمحي أحمد

ضد عقوبة الإعدام. فلا يفصّل الشريط في جرائم الرجل التي أفضت به إلى هذا المصير. إنما يمرّ بها مروراً عابراً بالخبر الموجز دون مادة بصرية صادمة. ويكتفي بتصوير النهايات بتفاصيلها و دقائقها الثقيلة وطقوسها التي تبعث القشعريرة في جسمك.

وترى الرجل المحكوم وقد كسره اقتراب المصير المرعب حتى شحب وجهه، وارتجفت شفتاه، وارتخت ساقاه، وهو يجرّ إلى حبل المشنقة أو غرفة الغاز بلا مقاومة منه. وترى أهله يشهدون مصيره بعيون دامعة. وقد يلقي عليهم تحية الوداع الأخير. وقد تجد نفسك في هذه الأثناء تنتظر بتوتر شديد أن يرنّ ذلك الهاتف المعلّق قبيل اللحظة الأخيرة، ليصل أمر صاحب القرار بإيقاف العمليّة، لظهور أدلّة جديدة لصالح المتّهم. وتودّ أن تقنع نفسك أن الرجل بريء، وأن التهمة باطلة، والأدلّة مدبّرة، أو هي نتاج الخطأ البشري والمتشابهات. ولكن هذا كله لا يحدث. وترى المحكوم ينتقل في لحظة واحدة من عالم الحس والحياة إلى عالم الموت الغامض. فيترك ذلك في نفسك غصّة عميقة لا تزايلك إلا بعد وقت. لقد حملتك طريقة السرد على التماهي مع المحكوم والانحياز له، حين اكتفى السرد بالنهايات دون المقدمات التي أفضت إليها..

ولقد ترى شريطاً آخر يسرد قصّة مجرم عات يخطف الأطفال ويعتدي عليهم ثم يقتلهم بعد عذاب ورعب شديدين. وترى وجوه الضحايا شاخصة أمامك وأهاليهم يبكونهم بحرقة بالغة. ويشخص لك الشريط تفاصيل عمل المجرم الذي تجرّد من كل مشاعر الإنسانية، وغدا وحشاً ضارياً بلا ضمير. فلا تطيق انتظار أن ترى قصاصه العادل بأم عينيك. تكاد تقول: لا يكفي له الإعدام حتى يرى من العذاب ما أوقع بضحاياه. وقد تقول: لو كان لي من الأمر شيء لقطعته إرباً.

وقد ترى القصة نفسها في شريط آخر، مع إضافة تفسر سلوك المجرم وكيف آل إلى تلك الشخصية العصابيّة الإجرامية المختلّة. فقد لقي في طفولته من العذاب ما تنهدّ له الجبال هدّا. كان زوج أمه يحبسه ويجيعه ويضربه بقسوة بالغة ويعتدي عليه جنسياً، وأمه عاجزة عن الدفاع عنه. ثم لم يجد إلا أن يفر من البيت ويتشرّد في الطرقات وينام على الأرصفة حتى في قرّ الشتاء، وأن يلتقط طعامه مع الكلاب من أكياس القمامة. وقد تعرّض في الأثناء لاعتداءات جنسية مكرورة من المتشرّدين الكبار. ثم بدأ بالسرقة وانتهى

مكتبة الربيعي أحمد

إلى القتل والخطف والاغتصاب، بعد أن جرّدته الظروف القاسية من إنسانيّته. وها هو يساق إلى الموت الذي سيحرّره أخيراً من حياة بائسة بقدر ما سيحرّر ضحاياه المحتملين. ومع هذه الإضافة السردية يصبح الرجل جلّاداً وضحية في آن واحد. والتفسير الذي تقدمه يضمر الاعتذار له. ومشاعر المشاهد حائرة مختلطة، تتقلّب بين البغض والأسى..

تلك قوّة السرد وذلك تأثيره الطاغي، سواء أكان سرداً متخيلاً أم سرداً إخبارياً. يشاهد العالم الغربي قتلى الجيش الإسرائيلي وهم يدفنون وقد وقف على قبورهم أهاليهم يودّعون الأحباب ويذرفون الدموع. ويغيب عن المشهد ضحايا الفلسطينيين وعذاباتهم ومقدمات الرواية التي بدأت منذ قرن ونيف، وفصولها التي تشمل اغتصاب الوطن وتشريد الشعب وعمليات القتل والتجويع والحصار والتنظيف العرقي والتمييز العنصري.

الصراعات الإنسانية في أحد وجوهها الرئيسية صراعات بين الروايات المتعارضة. والأقدر على فرض روايته وتسويقها هو الأقوى في علاقات القوة التي تنتظم فيها الحياة الإنسانية. إنها معركة المعاني والتعريفات والصور الذهنية وخطابات القوّة. فالحق لا يستعلن بذاته من موقع خارجي موضوعي متعالٍ متجاوز لوعي البشر أنفسهم وطرق صوغهم له وقدرتهم على إنتاج خطابه وتوزيعه. هُم محلّ إنتاجه ومحلّ استقباله. ومهما يبد معنى العبارة الشهيرة فظّاً ومتوحشاً، فإنها تنطوي على قدر كبير من الحقيقة: «القوة هي الحق».

كذلك هي في مذاهب البشر، وإن لم تكن كذلك في حكم السماء. من جديد تصبح الأسماء في وعي البشر هي الأشياء، والدوال هي المدلولات. وليس للموضوع وجود فاعل مستقل عن الذات الواعية، والنظر لا يستقبل المنظور حتى يتدخل في تشكيله على وفق ما يسقط عليه من المعاني والتعريفات. وانتقاء المعاني والتعريفات وإنزالها على الواقعة الخارجية محكوم بعلاقات القوة والمصالح المتعارضة ومحتوى الوعي المعرفيّ. إنه الشرط الإنساني الذي لا يمنحنا القدرة إلا بقدر ما يقيّدها، ولا يعطينا الصوت إلا بقدر ما يسكتنا، ولا يرينا إلا بقدر ما يخفى عنّا.

بعد يوم من ذلك العرض القاتم، اختفى الرجل المشنوق من الساحة، وبقي أياماً أخرى معلقاً في مخيلتي حتى تغلب صوت الحياة وتجدّدت مواعيدها، فاختفت صورة الرجل من مقدمة الوعي إلى مستودعه الخلفي، فلا تعود حتى تستدعيها بعض دواعي

مكتبة الربيعي أحمد

الحياة وتجاربها، أو تسلم إليها تداعيات التفكير العجيبة، الذي يمكن أن يبدأ من أمر صغير في الحاضر لتقوده التداعيات عبر سلسلة من القضايا والأحداث حتى يصل إلى مصائر الشعوب ورمضاء الطغاة ونار الغزاة؛ من متعة صغيرة عابرة من متع الحياة إلى المآسي الكبرى. فإذا وصلت إلى آخر سلسلة التداعيات، تساءلت: مالذي أوصلني إلى هذه النقطة؟ ثم تجهد ذهنك وأنت تبحث عن نقطة البداية التي أسلمت إلى هذه النهاية!

ما زلت في تلك الساحة التي تتداعى فيها الذكريات وتزدحم ازدحام الناس فيها، وأستدعي واقعةً كان يمكن أن تنتهي بمأساة لولا لطف الله.

كنت عائدا من المدرسة الخالدية التي تقع أدنى المقبرة وأنا في الصف الإعدادي الثالث (أي الصف التاسع بتسميات الحاضر). وإذ وصلت إلى هذه الساحة رأيت الناس قد تحلقوا حول موضع منها وقد علت الأصوات واختلطت لأمر جلل. فلما اقتربت رأيتهم يرفعون شاباً قد فقد الوعي وتضرّج رأسه ووجهه وثيابه بالدم، ثم يضعونه في عربة خشبية من تلك العربات التي كانت تستعمل لنقل المواد وترفع على عجلات أربع. فلما استقر جسده فيها تولّى بعض الشباب دفع العربة بسرعة نحو مستشفى المدينة الذي لا يبعد كثيراً عن الساحة وإن كان الوصول إليه يحتاج إلى جهد، لأنه يقع في موضع مرتفع من هضبة البلدة، وعليك أن تبلغه صعوداً.

ميّزت الشابِ الذي كان في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات من عمره فوراً، فقد كان واحداً من هذه النماذج الإنسانية الطريفة التي تلوّن أجواء المجتمعات الصغيرة باختلاف مظهرها أو سلوكها، وتمنح الناس مادّة للنوادر والطرائف المسلية، تغذيها مخيّلة شعبية تنزع إلى المبالغة والابتداع واختلاق النوادر لتعوّض عن فقر الأحداث ووسائل الترفيه في مجتمع صغير هادئ. وما هي حتى تتغلب الصورة الذهنية المبتدعة على الشخص الحقيقي، حتى لتكاد أن تختفي ذاته، إلا من أثر ضئيل، وتذوب في الأنموذج الذي شيّده له العقل الشعبي. وقد يمتثل الشخص نفسه للأنموذج الذي يراه الناس به، إما لطغيانه الذي لا يقاوم، وإما لأنه يمنحه بعض الامتيازات المعنوية، إذ هو الدور الوحيد الذي يتاح له أن يلعبه في المسرح الاجتماعيّ، وهو السبب الوحيد الذي يجعله منظوراً و مسموعاً، وربما تراخى الناس في تطبيق معاييرهم الاجتماعية والقيميّة عليه كما

مكتبة الربيعي أحمد

لا يتراخون مع غيره. ذلك لأنهم لا يتعاملون معه بالجديّة التي يتعاملون بها مع الآخرين، وتوقعاتهم منه غير توقعاتهم منهم. وفي بعض الأحوال المتطرفة، ما يلبث مثل هذا الشخص أن يصبح ملكاً للخيال الشعبي وموروثه. هنا تختفي الذات الأصيلة تماماً، لتحل مكانها شخصية شعبية فولكلورية ذات سيرة مفتوحة، تتعاقب الأجيال على تناقلها وتضيف إليها من النوادر والحكايا والطرائف ما يعبّر عن مزاجها العام وهجائها الساخر لضغوط الواقع وتناقضاته وأحواله. هكذا صنع المجتمع العربي الإسلامي شخصية «جحا» من أصل يترجح أنه عاش في البصرة في العصر العباسي الأوّل، غاب الأصل الذي لا نعلم عنه شيئاً نطمئن إلى صحته، وبقي الأثر الشعبي حاضراً ممتداً إلى الأبد يتحرك في فضاء مفتوح على الأزمنة والأمكنة. فنراه في بعض النوادر يتحرك في عصور السيف، وفي أخرى يتحرك في عصور البارود والبنادق. يخاطب الرشيد في نادرة، وتيمورلنك في نادرة أخرى. وهو عربي في بعض النوادر، تركي في أخرى باسم نصر الدين خوجة فضلا عن لقبه الخالد «جحا». وإن اسم «جحا» ليُحيل إلى كلمة «حجى» وهو العقل والتدبّر. وكأنه الحكمة مستخفية في البله المدّعى والهزل المصطنع، ليتمكن من قول كلمته الهجائيّة الساخرة، دون أن يتعرّض للعقاب، في أزمنة حافلة بالطغاة والغزاة والأحكام الصارمة.

لم يبلغ «حسن أبو لبيبة» الذي رأيته غارقاً بدمه في تلك الساعة أن يصبح أثراً شعبياً في عالم حديث استغنى عن خلق الفولكلور واكتفى بميراثه. ولكنه كان مادة للنوادر والطرائف. وكان جزءا من المشهد الكرمي اليوميّ في الخمسينات ومطالع الستينات. فقد كان فتى مفتول العضلات، وكان حريصاً على أن يرتدي من الثياب ما يبرز رأس ماله الوحيد. فعدا عن ذلك كان الشاب ساذجاً بسيطاً من بيت فقير شديد التواضع، لا يشفع له نسب معروف في عائلات البلدة. وكان له قلب طفل في جسده الرياضي المعجب. وكان إذا مشى نفخ صدره إلى الأمام، وشدّ منكبيه إلى الخلف والجانبين، وباعد بين ذراعيه وجسمه.

وكنا حين نراه في طفولتنا المبكرة نغبطه كل الغبطة على هيئته وقوته ونتمنى أن نكون على مثاله. وكان خيالنا الطفولي يذهب بقوته إلى آماد بعيدة معجزة، وكنا ندعوه البطل، حين كنا نعتقد أن البطولة تتعرف بالقوة الجسدية لا بالقلوب والأفعال. بل لم يكن يخطر لنا أنه بنى جسده الرياضي ذاك بالتدريب والجهد الرياضي الدائبين. فقد كنا نتوهم

مكتبة الرمحي أحمد

أنه حبي بهذا الجسد وتلك القوة التي أهّلته للقب البطل بيننا، مثلما يكون الإنسان طويلاً أو ذا بشرة بيضاء أو سوداء. وكان الرجل شغوفاً بالسينما حتى الهوس. وكان يعتقد أنه مؤهل للنجومية لولا أنه ولد في بلدة مجهولة بعيدة عن عواصم الإنتاج السينمائي التي تصنع النجوم.

فإن لم يكن له إلى تحقيق تلك الأحلام سبيل، فإن له أن يتقمّص هيئة النجوم وأبطال السينما في هيئته ومشيته وثيابه. فكأنه اصطنع لنفسه عالماً موازياً متوهماً تصبح معها مشاهد الحياة اليومية مشاهد سينمائية يتصدّرها «البطل»، والناس من حوله فريقان: فريق من «الكومبارس» يشكل خلفية المشهد له، وفريق من النّظارة يشاهد البطل وهو يختال في مشيته ويبحث عن مناسبة تتجلى فيها قوته. ولعل هذا ما جعله محلاً للنوادر والطرائف. وقد يدخل معه بعض الظرفاء في لعبة التخيل والتخييل فيخاطبونه بأسلوب الحوار السينمائي مبتدعين مواقف أشبه «بالكليشيهات» السينمائيّة، مستعملين اللهجة المصرية أو اللهجة المحلية بلكنة تحاكي اللكنة الأمريكية متنقلين بين القاهرة، عاصمة السينما العربية، وهوليود، عاصمة السينما الأمريكية.

وقد يحاكون معه مشاهد إطلاق النار على طريقة «رعاة البقر»، أو المصارعات التي يرضون فيها أن يغلبهم «البطل». فإذا انصرفوا عنه يتضاحكون تابع سيره بلا ضحك. فالمشاهد عنده مستمرّة. ولا أدري إذا كانت تستمر حين يأوي إلى منزلة المتواضع.

قد تكون تجربته السينمائية من ضروب الوهم والتقمّص. ولكنه كان «يتعيّش» حقاً من السينما!! بلى، فقد كان يعمل بدار السينما اليتيمة في طولكرم في سنوات الخمسينات، وهي سينما يافا التي تغيّر اسمها إلى سينما الأندلس بعد سنين، قبل أن تنضم إليها أخرى باسم سينما الفريد. وكان عمله لدار السينما مزدوجاً. فهو يروّج للأفلام التي تعرضها، وهو الذي يستقبل روادها قبيل العرض فينظر في بطاقات الدخول قبل أن يأذن لهم بالدخول، وقد يقودهم إلى مقاعدهم وهو يحمل المصباح اليدوي الذي ينير لهم طريقهم. أما طريقة ترويجه للأفلام المعروضة، فكان يخرج مع آخر إلى الطرقات، وهما يحملان لوحاً كبيراً من الخشب الذي ينتهي بقائمتين، وقد ثبت على اللوح جملة من الصور الفوتوغرافية المأخوذة من لقطات الفيلم ومشاهده. وإذ يسيران باللوح في الطرقات لعرض الصور على

مكتبة الربيعي أحمد

الناس وحفزهم على المشاهدة وارتياد السينما، كان صاحبنا يقرع جرساً بيده الأخرى ويصيح دون توقف معلناً اسم الفيلم وأبطاله وصفته:

-الحق (أي لا يفوتك). الدرع الأسود. بطولة روك هدسون وتوني كيرتس. أضخم أفلام هوليود. فيلم الموسم... الدرع الأسود.

فإذا أقبل بعض الفتية عليه للاستطلاع، ركز وصاحبه اللوح على قائمتيه، وترك للفتية أن يتفحّصوا الصور المعروضة، علّها تغريهم بالمشاهدة.

ولقد تراه أحياناً وقد ارتدى ثياب رعاة البقر، فوضع القبعة الشهيرة على رأسه، وعقد على رقبته منديلاً على مثال مناديلهم، وارتدى حذاءً مرتفعاً على مثال أحذيتهم. وإنه ليفعل ذلك حين يدور في الطرقات مروّجاً لفيلم من أفلام الغرب الأمريكي. ولكنك تراه أيضا في تلك الهيئة بغير مناسبة. فالرجل كما قلنا كان يعيش حياته في عالم موهوم يحاكي عالم الأفلام السينمائية التي كانت تمنحه من الصور الجميلة ما لا يمنحه واقعه البائس في بلدة صغيرة تنام مع غروب الشمس، وكأن أهلها يتعجلون الأحلام التي تحررهم من قيود الزمان والمكان، وقد تحملهم إلى الشواطئ التي لم يروها بعد، والمدن التي لم يزوروها بعد، والنساء اللواتي لا تجود بمثلهن إلا شاشة السينما ومجلاتها.

وإذا كانت السينما عند الكثيرين من أهل طولكرم المحافظين، تدخل في باب المدنّس، فإن وضع «البطل» الخاص كان يحرره من التهمة ووصمة المنكر، فكان الناس يتقبلون انتقاله السلس في رمضان من «المدنّس» إلى «المقدّس». ولا أعني بذلك انقطاعه للعبادة واعتكافه في المساجد. ولكنني أعني تحوله من العمل لدار السينما، إلى عمل «الطبّال» الذي يوقظ الناس للسحور في الرّبع الأخير من الليل وهو ينادي:

- يا صايم وحّد الدايم.

وما كان يفعل ذلك تقرّباً واحتساباً، أو لطلب الأجر الآجل يوم القيامة. فما رأيت الرجل قط يرتاد المسجد لصلاة الجمعة، وهي الصلاة التي يؤديها الكثيرون ممن لا يؤدّون سائر الصلوات المفروضة! إنما كان ذلك عملاً يتوقع به الأجر العاجل من النّاس. فإذا كان آخر الشهر جادوا عليه تطوعاً بما يقدرون عليه من قروش أو ثياب أو مطاعم وحلوى. فالرجل وإن كان يعيش جل حياته في عالم الأوهام والصور الجميلة، فإن الفقر

مكتبة الربيعي أحمد

والحاجة يردانه في الأوقات المناسبة إلى عالم الواقع. فيتخلى فيها عن دور النجم الذي يستعرض نفسه مختالاً أمام عيون الخلق، ليكون ما كان حقاً: رجلاً بسيطاً فقيراً ساذجاً لا حظ له من التعليم، يصطاد من الرزق الشحيح ما يقيم أوده و أود من يعيل. وفي هذه الأوقات المتقطعة تتغير قواعد اللعبة: فلا هو يقبل نافخاً صدره، ولا المحسن يتصرف معه على مجرى العادة! في رمضان تتصفّد شياطين السينما في طولكرم، ويتقاعد لمدة شهر شكري سرحان وعمر الشريف وأحمد رمزي وفريد شوقي ومحمود المليجي، ويذهب في إجازة موقوتة روك هدسون وتوني كيرتس وأنطوني كوين وجيمس دين ومارلون براندو وغاري كوبر، وتتوقف أشباحهم جميعاً عن ملاحقة «البطل»، حتى ينقضي الشهر الكريم، فيعود هؤلاء جميعاً دفعة واحدة ليشاركوه فرحة العيد واحتفالاته، وليحيطوا به أينما سار وأينما جلس. ويعود الظرفاء إلى عادتهم في الحوار مع كل أولئك النجوم من خلال حوارهم مع «البطل»، فكأنه الوسيط الروحي بين المعجبين ونجومهم.

فما الذي حدث حتى سقط «البطل» فاقداً الوعي مضرجاً بدمه؟ لم يتأخر الجواب عن تساؤلي، بينما كان بضعة رجال يدفعون العربة وحمولتها بسرعة نحو المستشفى.

تحدّى بعضهم البطل أن يرفع العربة الخشبية بساعديه في الهواء. ويبدو أن شبح جون ريفز، بطل أفلام هرقل في تلك الأيام، كان في صحبة «البطل» ينظر من خلف كتفه. ومن عادة هرقل أن يرفع الصخرة الهائلة كما يرفع أحدنا صندوق الطماطم، وأن يمسك السقف أن يطيح إلى الأرض. ما لم يذكره البطل أن «هرقل» كان نصف إله في الأسطورة الإغريقية، وما لم يذكره أيضا أن معاجزه التي يشخّصها جون ريفز هي خدع بصريّة، تسحر أعين الناس حتى يخيل إليهم من سحرها أنها حقائق واقعة. وما لم يذكره البطل كذلك أنّ التحديات السابقة التي نجح في اختبارها لم تكن بهذا الحجم المعجز. إلا أنّه كان من القوة حقاً أنه تمكن من رفع العربة التي يعجز عن رفعها العصبة من الرجال أولي القوّة. وليته كان أضعف من أن يرفعها عن الأرض. إذن لسلم جسمه، وإن لم تسلم سمعته. فلم يكد يرفعها في الهواء حتى اختل توازنها بين ساعديه وعجز عن حفظها مرفوعة أو إسقاطها بعيداً عنه، فنزلت على رأسه وجسده بكل ثقلها. وبدلاً من أن يحملها صار المسكين محمولاً فيها، حين تحولت إلى عربة إسعاف بلا صافرة!

مكتبة الربيعي أحمد

سلم البطل ونجا من الموت. وماهي حتى عاد سيرته الأولى، يتغلّب على بؤسه وقلة حظه بالتيه واستعراض العضلات المفتولة. لم لا وفي مذهبه أنه نجح في ذلك التحدّي الأكبر؟ ألم يتمكن من رفع العربة على أي حال؟ ولم يكن من شروط النجاح في ذلك التحدّي أن يردّها إلى الأرض بأمانٍ سالماً. كان المطلوب أن يرفعها، وقد فعل. أما الثمن الذي دفعه في المقابل، فذلك شأن آخر.

لا أغادر ساحة المدينة في طريق الذكريات حتى أرسل بصري إلى مكان في الشارع الذي ينفتح عليها ويقع أعلاها مباشرة حيث تصطف الدكاكين. والشارع يمتد يميناً حتى يصل إلى المرتفع الذي ينتصب الجامع القديم أعلاه، وشمالاً إلى طريق نابلس الذي يحملني إلى منزلنا في الحارة الشمالية جوار المخيّم. هناك على بعد أمتار من الساحة، حيث يتقاطع هذا الشارع مع شارع آخر شديد الارتفاع يصل بك إلى مركز الشرطة، كان يقع أفضل دكان لبيع الفواكه والخضروات في المدينة. وكان يختص ببيع النخبة من هذه المواد إلى النخبة من أهل المدينة الذين لا يضرهم أن يدفعوا ثمناً أعلى من أجل المنتقى والأفضل. ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر. والفرق على كل حال لا يعدو قروشاً وإن كانت القروش عزيزة في ذلك الزمان. ولعل زبائن المحل كانوا يدفعون ضريبة الوجاهة الاجتماعية بتلك القروش الزائدة. فالطبيب والقاضي ومفتش التربية ومدير المدرسة و«القائم مقام»، لا يحسن أن يراهم الناس يدافعون الناس في زحمة المساحة المفتوحة لبيع الفواكه والخضار تحت الجامع القديم، حيث الأسعار أدنى والجودة أقل، وأصوات الباعة تملأ المكان. وهناك دائماً في كل بلدة من يحب أن ينسب نفسه إلى النخبة وإن لم تكن إمكانياته المادية على قدر تكاليفها.

ليس في هذا ما يستدعي الوقوف والتذكر. وليس فيه ما يخالف المألوف، لولا أن مالك المحل كان امرأة لا رجلاً. ولم تكن كأي امرأة! فقد كانت تفارق كل مألوف. كنّا نعرفها باسم «الحاجة لولو». ولا أدري الآن إن كان ذلك اسمها الحقيقي أم كان لقباً أطلق عليها فلم تعرف بغيره. ولأهل طولكرم ولع بإطلاق الألقاب. فإذا لحق بأحدهم لقب ما التصق به إلى الأبد، واختفى اسمه الأصلي، حتى يظنّ جل الناس، لا سيما الأجيال الجديدة، أن ذلك اللقب هو اسمه الذي سماه به أبواه، فإن لم يكن فهو اسم عائلته الذي غلب على اسمه الأول، فهو يدعى به. بل إنك إذا تأملت في أسماء بعض

مكتبة الرمحي أحمد

العائلات، ترجح لديك أنها كانت في الأصل ألقاباً. وإلا فكيف تفسر أسماء عائلات مثل الفار وقراقع والجمل والثور وأبو خيط ونحو ذلك؟ ولقد يمتثل أصحاب الألقاب لما تواطأ عليه الناس، بخاصّة إذا لم يكن اللقب منفراً مرذولاً. فإن كان كذلك وأنت لا تدري أنه لقب لحق بالرجل على الرغم منه وهو كاره، ثم ناديته به، فقد أهدفت نفسك لسبابه وشتائمه.

على أنّ اسم «الحاجة لولو» لا ينطوي على معنى بغيض. فليكن اسماً حقيقياً أو لقباً، لا فرق. لم يكن من المألوف في مجتمع ذكوري أن تكون امرأة صاحبة تجارة ناجحة تشرف عليها بنفسها، لا من وراء رجل. فإن لم يكن هذا كافياً لتفرّد «الحاجة لولو»، فاعلم أنها كانت من أغنياء المدينة المعدودين، وكانت ثروتها حديث البلدة، يختلف الناس في تقديرها بين مقتصد ومبالغ. ومن الطبيعي في أمر غير مألوف كهذا، أن تشتغل المخيلة في الحساب والتقدير. وفي واقع الحال ما يسوّغ عمل المخيلة. فالحاجة لولو لم تكتف بتجارتها الناجحة في الفواكه والخضار، حتى دخلت في تجارة الذهب. وكان محلّها لبيع المصوغات قبلة الأنظار، ثم توالت محلاتها في تجارات مختلفة. وتوزّع أبناؤها بين أعمالها التجارية. ولكنها بقيت في بؤرة الضوء من ذلك كله. فإذا أشير لأحد أبنائها، قيل: ابن الحاجة لولو. أما زوجها فكان غائباً عن النظر أو يكاد. ولا أذكر أني رأيته قط أو عرفته. ولا أحسب أن ذلك لأنه لم يكن حاضراً في المشهد، ولكن لأن الحاجة لولو كانت تملأ المشهد، فلا ينصرف النظر عنها إلى خلفية الصورة وهوامشها.

فهي صاحبة المال والتجارة، وصاحبة السلطان فيهما، وإليها ينسب ذلك كله. ولابد أن يستصحب هذا شخصيّة قويّة يحتفي الناس بمثلها في الرجال، وينكرونها على النساء فيفضلون أن يستبدلوا بها صفة «المتسلطة» حين تكون فيهن. وكذلك كان يرى كثير من الناس إلى «الحاجة لولو». إذ لابد أن يكون حضورها الطاغي وغياب زوجها نتاج تسلّطها من جهة، وضعف شخصيته من جهة أخرى. فحتى لو كان المال مالها، فإن المألوف أن ينتقل إلى يد زوجها ليديره ويستثمره بحكمته ورشده في مجتمع التجارة الذكوري.

الأصل أن تكون المرأة عالة على زوجها، لا أن يكون عالة عليها. والأصل أن تلزم المرأة حيزها المنزلي العائلي، لا أن تحضر في الحيّز العام ومعها سلطان المال والتجارة.

مكتبة الربيعي أحمد

فكيف يرضى زوج «الحاجة لولو» أن يكون في خلفية الصورة أو هامشها، وأن يكون ملحقاً بزوجه بدلا من أن تكون ملحقة به، بل أن ينسب إليها فإذا ذكر قيل: زوج «الحاجة لولو»، إلا أن تكون هذه حالة من تلك الحالات النادرة التي تجدها حتى في القرى الصغيرة: امرأة قوية متسلّطة، وزوج ضعيف مذعن. وندرة هذه الحالات يفضي إلى وصمها بالشذوذ، ويجعلها في العادة مصدراً للنوادر والطرائف المختلقة، وقد زعم البعض أن امرأة من هذا النوع في إحدى القرى كانت تؤدب زوجها أحياناً، فإذا تدخل الجيران للذب عنه، صاح الزوج فيهم:

- مالكم وهذا؟ امرأة تؤدب زوجها، فما شأنكم أنتم؟!

وصفة التسلط في المرأة مرادفة «للاسترجال»! قوة الرجل رجولة، وقوة المرأة تسلّط. وتسلط المرأة «استرجال». فلا هي لهذا ولا هي لذاك. وكذلك كان البعض يصف «الحاجة لولو».

لم نتوقف في ذلك الزمان لنعظم من شأن امرأة استطاعت أن تخرق الستار الحديدي المضروب بين المرأة والحياة العامة، مثل الحاجة لولو، وأن تنجح نجاحاً عظيماً فيما يخفق فيه الكثير من الرجال. كما لم نتوقف لنحيي زوجها الذي لم ينازع زوجه، صاحبة المال، حقها في تولي مهمة توظيف مالها وإدارته وإنمائه، بما عاد بالخير عليه وعلى أبنائه. وكلاهما خرج بهذا من سلطة المألوف المجحف، والثقافة الذكورية السائدة. ولا يستطيع هذا إلا امرأة ذات قلب شجاع، وزوج ذو قلب شجاع ونبيل. كلاهما بهذا كان يعبّر عن شخصية متفرّدة قويّة.

ولعلك حتى هذه النقطة قد تصوّرت الحاجة لولو امرأة مدنية متعلّمة، من أسرة متنفّذة أورثتها المال والسلطان!

لم تكن الحاجة «لولو» شيئاً من هذا! وذاك خرق آخر للمألوف، أضاف إلى تفرد تلك المرأة العجيبة. فقد كانت الحاجة «لولو» امرأة قروية ترتدي الثوب الريفي وخرقة الرأس التقليدية. ولم يكن لها أي حظ من التعليم. وكنت تراها تقف على محلها لبيع الفواكه والخضار، فتقلب البضاعة لتتأكد من جودتها، وتتخلّص من الحبات التالفة، أو الذابلة، ثم تلقي أوامرها على عمالها يميناً وشمالاً بنبرة واثقة، وصوت أجش أسهم في

مكتبة الربيعي أحمد

خلق أسطورة استرجالها. وإذا كانت قرى الريف في ذلك الزمان مرادفة للفقر والقلة وندرة الموارد، ولم يعرف أن «الحاجة لولو» قد ورثت رأس مالها من أحد، وما كان لها ما يؤهلها للوظيفة حتى تدّخر من دخلها رأس مال لأي تجارة مهما تكن، إن لم يكن شيء من هذا، فمن أين جاء مالها الذي بدأت به ثم ما زالت تربّه وتنمّيه حتى استوى تجارات ناجحة وثروة لافتة؟ هنا تشتغل المخيلة والإشاعة لتخلق الأسطورة، فمن قائل: عثرت على كنز في مكان ما. ومن قائل: إنها تخلّفت عن الناس وقت التهجير عام 1948، ثم عمدت إلى بعض المنازل المهجورة التي غادرها أصحابها اضطراراً على عجل، وتركوا فيها ذخائر حسبوا أنهم يعودون إليها في بضعة أيام أو أسابيع، فجمعت منها ثروتها الأولى، وهي ترى أنها أولى بتلك الذخائر المتروكة من الصهاينة الغاصبين. اختلفت التأويلات والتفسيرات والتخمينات، وصاحبة الأسطورة تخالط الناس وتظهر في محالّها، غافلة أو متغافلة عما يقولون. حسبها أن تتابع عملها، وللخلق أن يسهروا جرّاها ويختصموا. فبعض دوافعهم حسد ما هم ببالغيه، يضخمه في النفوس أنها امرأة، فكيف إذا كانت امرأة ريفية أمية بسيطة خشنة الملامح ذات صوت أجش. وبعض دوافعهم الأخرى صعوبة أن يصدقوا أن امرأة بهذه الصفات لا يرتد نجاحها إلا لهمتها العالية، وشخصيتها المتفردة، ولا تنسب ثروتها إلا لفطنتها وذكائها الفطري وجهدها الدؤوب. وإنهم لا يجتهدون في التأويل، ولا يذهبون في التخمينات كل مذهب، ولا يلتمسون أسبابا عجيبة غريبة في الحديث عن ثروة رجل بدأ من الحضيض واستوى بعد حين على قمة من الثروة والنجاح. فصفة رجل كهذا واضحة ساطعة ناصعة: عصاميّ. وهو نفسه حريص على سرد قصة صعوده من الفقر والشقاء والكد والبؤس إلى الثروة والجاه. إذا لا تظهر القمة العالية إلا بالتقابل مع قاع الوادي. ولم يكن هذا المثل من الرجال بعيداً عن محل الحاجة «لولو». فعلى بعد مسافة قصيرة ، يقع نوفوتيه «الحاج عيون» – وهو كذلك لقب لحق به فلم نعرفه بغيره – وكان محلّه أنجح محلّ لبيع الملابس والأحذية للبلدة كلها ، يزدحم فيه «الزبائن» ازدحام النحل في قفيره. وكان الحاج عيون من أبرز أغنياء البلدة. وكان كريم النفس كثير البذل والعطاء. ولقد رأيته في الأعياد يدخل محله الفقراء والمساكين، فيكسوهم دون حساب. وكان ظريفاً طريفاً يطلق تعليقاته يميناً وشمالاً. وكان الرجل أسرع الناس إلى الحديث عن بداياته المتواضعة، وقيل أنه بدأ «عتّالاً» وأنه كان يعلق

مكتبة الربيعي أحمد

صورته وهو يعتل الأحمال بعد أن أفاض الله عليه من رزقه، ليذكر نعمة الله عليه، ويذكّر الناس في الوقت نفسه. ولم أدرك هذه المرحلة من بداياته ولكني أدركته وأنا طفل وهو في «كشك» لا يتسع لغيره، يبيع لفائف الخيطان ونحوها من لوازم الخياطة اليدويّة.

لم يحتج الناس إلى أي جهد ذهني لتفسير صعود الحاج عيون إلى تلك الثروة والتجارة الناجحة. حسبهم أن ينسبوها إلى فضل الله، ورضى الوالدين، وطيب النفس، وحب العطاء، وحسن التوكل على الله، إلى جانب «العصاميّة».

ولكن «الحاجة لولو» لم تحظ بشيء من هذه التفسيرات. كأن هذه الأسباب لا تجتمع لامرأة قط. فلم يفترض أحد أن «الحاجة لولو» ربما ابتدأت ببيع سلال التين والعنب وصناديق البندروة والخيار وغيرها على بسطة في قارعة الطريق كما يفعل كثير من النساء الريفيات. ولكنها بخلاف الأخريات كانت بعيدة النظر، قوية الإرادة، ذات شخصية مستقلّة، وموهبة تجارية فطرية. فحملتها هذه الصفات الذاتية إلى حيث وصلت. وإذ تنحسر التفسيرات الطبيعية في أذهان الناس، تتقدم الغرائب. وما ضرّ «الحاجة لولو» أن تبقى في ذاكرة طولكرم محفوفة بالغرائب التي طالما كانت المادة التي تصنع منها الأساطير!

فلأتابع السير منعطفاً إلى الشمال في ذلك الشارع الذي ينفتح على الساحة. وما إن أمضي خطوات حتى أجدني عند محل آخر، كان في ذلك الزمان الغابر مكتبة لبيع الصحف والمجلات والكتب، يمتلكها رجل اسمه «عبد الرحيم العلي». وكان من أحسن الناس خلقاً وأطيبهم نفساً، وأهدئهم طبعاً. يجلس ساكناً في مقعده بوجه هادئ إلا من طيف ابتسامة. يرتدي الجاكيت والبنطال، ولكنه يضع على رأسه الكوفية البيضاء. وإني لأذكره فأكاد أن أحني رأسي لذكراه احتراماً وتقديراً وعرفاناً بالجميل. وإذ أشعر أني لا أدين بشيء لمعلم درست عليه في صفوف المدرسة، فإني أدين لذلك الرجل بما لم تمنحني المدرسة إياه. فقد أمدتني مكتبته بالكتب التي أسست لمعارفي وثقافتي وشغفي بالقراءة في كل مجال. وربّ قائل الآن: كيف تدين له بما بذلت له نقودك؟ فتلك بضاعته التي يرجو بيعها ويخشى كسادها. ولكني لم أكن دائما أمتلك النقود على حين أني كنت دائما أطلب الكتب وأواظب على القراءة! فما كان الرجل يمنعني من كتاب أريده سواء أكان معي ثمنه أم لم يكن. فكنت أدخل محلّه وأنتقي من الكتب ما أشاء متى أشاء على وعد السداد الآجل غير

مكتبة الرمحي أحمد

الموقوت. ومن ذا الذي يستوثق من سداد فتى في الخامسة عشرة حتى الثامنة عشرة، ليس له دخل إلا مصروفه اليومي وما يتحصل له في المناسبات والأعياد! فلا والله لا أذكر يوما أنه ذكّرني بديوني على تراخي الأيام بينها وبين السداد، ولا منعني من كتب جديدة لم أسدّد بعد ثمن السابق لها. ولكني كنت أفي بحقوق الرجل في آخر المطاف. وما غادرت طولكرم بعد الثانوية وله في ذمّتي قرش واحد. ولولا تلك المكارم من ذلك الرجل النبيل، لما أتيح لي في وقت مبكر أن أتعرف على سارتر وكامي وكولن ويلسون وأن أقرأ روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس و يوسف السباعي، وكتب طه حسين والعقاد وأحمد أمين ولويس عوض ورجاء النقاش ، وشعر شوقي وحافظ والشابي وإيليا أبو ماضي وجبران وإبراهيم طوقان، ثم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، والبياتي ونازك الملائكة والسيّاب، وأن أتابع كل عدد جديد من مجلة الآداب ومجلة الأفق الجديد التي كانت تصدر في القدس وتؤسس لحركة أدبية أردنية فلسطينية غنية. وما كان لموهبتي الأدبية والشعرية أن تتفتح وتنمو في وقت مبكر لولا تلك القراءات التي أتاحها لي كرم الرجل ومروءته. فما إنْ بلغت صفوف الثانوية حتى كنت أنشر شعري وقصصي القصيرة ومقالاتي الاجتماعية والنقدية الأدبية في صحيفتي «الجهاد» و «المنار» وفي مجلة الأفق الجديد إلى جانب أهم الأدباء والكتاب على ضفتي الأردن. وكنت أرسل نصوصي بالبريد. فما كان أحد خارج طولكرم ليعرف أن هذا الكاتب ما زال فتى في صفوف الثانوية. فظنوا أنني كغيري من الكتاب المعروفين قد بلغت من العمر والمؤهل العلمي ما يتوقعونه من أمثالهم. وأذكر أني حين انتقلت بعد الثانوية إلى عمّان للدراسة في الجامعة الأردنية في منحة دراسية من وزارة التربية والتعليم، وبدأت بإجراءات المنحة في الدوائر المختصة، استوقف اسمي أحد الموظفين فرأيته يقلّب البصر بيني وبين الوثائق أمامه.

- وليد إبراهيم سيف؟

- نعم.

- هذا اسم ذلك الكاتب الذي نقرأ له في الصحف.

- هو أنا.

- أنت؟

مكتبة الربيعي أحمد

- نعم.

وارتسمت على وجهه ملامح التعجب والإعجاب معاً. ومضى سريعاً في إنفاذ الإجراءات، وقد زاد يقينه بأن منحة الوزارة قد ذهبت إلى مستحقها.

وإن ذاك ليرتد بعض فضله إلى ذالك الرجل الطيب النبيل: عبد الرحيم العلي. فالنص لا يتخلّق في فراغ، وإنما هو نتاج نصوص تملأ الوعي وتغني الوجدان وتطلق المخيّلة وتوسّع المعجم وتصقل الأسلوب. وذاك ما سيدخل بعد حين في معجمنا النقدي باسم «التناص». ولطالما وصلت مبكراً إلى مكتبة عبد الرحيم العلي متلهفا لالتقاط الصحيفة، وتقليب صفحاتها على عجل لأرى اسمي ونصّي المطبوع. فلا أمضي بعد ذلك في سبيلي إلا وأنا أشعر أن قامتي قد طالت إصبعا أو اصبعين، وأن عيون الناس تلاحقني بالإعجاب، وأني الآن قد صرت على بعد قصيدة أو قصيدتين من نظرة إعجاب عصية تجود بها إحدى الحوريات الثلاث في شارع المحطة. ولكني، بعد عشرات القصائد والقصص القصيرة والمقالات، لم أحظ بشيء من ذلك! فالحوريات الثلاث من التعقل والواقعية وترفع الحسن ما يفرقن به بين الأغنية والمغني، والقصيدة والشاعر، والقصة والقصاص. فلا يحملهن التمتع بثمرة الإبداع على الميل للمبدع! وما يدريهن؟ فكثيراً ما يكون النص أحسن من صاحبه. فكم من الكتاب والمفكرين ملأت أعمالهم السمع والأبصار، فلم تغن عنهم أعمالهم من مودة الناس عامة، وحب النساء خاصة، شيئاً. ولقد يعتذرون لأنفسم أو يعتذر الآخرون لهم برهافة الحس وسمو العقل والقلق الوجودي والتفرد الذي يشتبه مع غرابة الأطوار والانشغال بالمكاسب الفكرية والمعنوية عن مكاسب الحياة المادية، ونحو ذلك مما يستعصي على تفهم العامة، ولا يغني عند النساء فتيلاً. وفي مذهبي أنها تعلاّت سقيمة.

فلأتابع سيري أدراج الصبا ووروده وشوكه، ميمماً شطر بيتنا.

هذا مقهى «الكرمول»، مقهى النخبة المتعلمة، حيث كانوا يلتقون بعيد العصر في العادة، في داخله أو في حديقته الخلفية. وتراهم يلعبون النرد والورق، ويشربون القهوة أو يدخنون بالنرجيلة، بينما يتحاورون في كل أمر وفي السياسة على وجه الخصوص.

ولمتعلمي طولكرم في ذلك الزمان لهجة خاصة تقارب الفصحى، والقاف في نطقهم في منزلة بين منزلتي القاف والكاف، تصعب محاكاتها. ولهم في النقاش والجدال

مكتبة الربيعي أحمد

مزاج معتدل، فلا ترتفع الأصوات وإن اشتد الاختلاف، ولا يخاطب أحدهم الآخر إلا بكنيته تأدباً واحتراماً. ولا تسمع من أحدهم كلمة سوقية نابية مهما يكن موضوع الحديث مستفزاً مغيظاً مغرياً بالسباب.

ولقضايا السياسة والساسة عادات في إخراج المرء عن طوره واستنفار غضبه، ودفعه للجهر بالسوء وبذاءة القول، كفاء ما في أعمال السياسة من بذاءة الفعل، وتنفيساً عما يحتقن في الصدور. فكيف إذا كانت تهمة الساسة التفريط بالأوطان والعمالة للاستعمار، وكانت الحدود التي تقطع جسم الوطن المغتصب على مرمى البصر. على أن عبد الناصر كان محط آمال الناس في ذلك الحين. وما كانت محبتهم له إلا لتزيدهم مقتاً لغيره من الحكام الذين لحقهم وصف «أذناب الاستعمار».

كان كل من في المدينة مسيّساً على نحو ما، دون أن يلزم من ذلك الانتماء إلى حزب من الأحزاب، وإن كان البعض كذلك. فمنهم بعثيون وقوميون و قليل من الشيوعيين، وكثير من حزب التحرير. ولم يكن للإخوان المسلمين من الأتباع مثل ما لحزب التحرير في طولكرم ومحيطها، حتى غبر على ذلك زمان وانقلب الحال. أما الشيوعيون فمن الطبيعي أن يكونوا ندرة في مجتمع محافظ متديّن. على أن المخيلة الشعبية كانت تضيف إلى عددهم ما ليس لهم. فكل من عرف بإلحاد أو قلة دين كان ينسب إليهم. فكأن كل ملحد شيوعيّ، أو كأن الإلحاد والشيوعية من المترادفات. وقد يغلو البعض أكثر من ذلك فينسب إلى الشيوعي من الموبقات ما يخرق كل ممنوع!

أجاوز قهوة الكرمول متابعاً طريقي. هنا إلى يميني كان مطعم «البلعاوي» الذي كان يبيع أشهى فول مدمس وحمص في المدينة. وهما مما يصرّ جيلي على أنهم لم يتذوقوا مثلهما قط. ولم يفلح مطعم مثله قط على مر السنين أن يغني غناءه أو يكفي كفاءه! كل شيء أجمل وأشهى في الزمان القديم. وأي عجب! فمن عادة الناس أن يسقطوا على المآكل دلالات عاطفية تتجاوز المحسوس، وتحيل إلى الزمان والمكان البعيدين الغائبين اللذين لا يزيدهما البعد والغياب إلا قرباً وحضوراً في الذاكرة. فترى الشخص إذا ذكر زيت الزيتون، أصر على أن أحسنه في فلسطين، وأن أحسن ما في فلسطين ما كان من زيتون منطقته فيها، وأن أحسن ما في منطقته ما كان من زيتون أرضه! ثم لا يسعه إلا أن يكرم

مكتبة الربيعي أحمد

الزمان القديم فيزيد: وزيتنا في الماضي أطيب من زيت الحاضر. وربما نسب ذلك إلى نكد العيش وفساد الزمان وضياع البركة فضلاً عن طرق العصر الحديثة التي تعالج الزيتون المعصور وتسرف في نزع حموضته حتى تذهب بطعمه اللاذع. هذا إلى جانب الكلام المعاد عن المبيدات الكيماوية وأضرارها!

فليكن ما يكون من أسباب تميز مطعم «البلعاوي» الذي لم أر صاحبه قط يبتسم أو يتبادر للحديث مع أحد، ولا يكاد يرفع رأسه عما هو عليه من الدق والتحريك والغرف. حسب «الزبائن» منه حسن صناعته وثمرة جدّه.

وإذ أمضي في الطريق خطوات أجدني عند دار البلدية القديمة. وهي من معالم البلدة البارزة. يصعد المرء إليها على أحد صفين من الأدراج في جانبين متقابلين، يفضيان إلى ممر مرتفع يمتد إلى الباب. وكانت البلدية مركز الاحتفالات الشعبية الوطنية. إذ يحتشد الناس في الساحة الممتدة أمامها. ويتعاقب الخطباء أعلى الأدراج في مواجهة الجمهور. وإن أنس لا أنس المهرجان الخطابي الذي نظم هناك بمناسبة العدوان الثلاثي على مصر، وكان لي من العمر ثماني سنوات. وكانت تلك أول مناسبة وطنية حاشدة أحضرها وأستشعر فيها أثر الحشود والحماس الجمعي على الفرد، فكأنه يسلم نفسه لموج عظيم كالطود يحمله أنّى شاء دون مقاومة منه. كان زمن المدّ القومي الصارم. فإذا أصيب عضو في الجسم العربي تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر. وأذكر كيف كنا نستقبل نهار المدرسة حين نصطف في الساحة استعداداً لدخول الصفوف، فلا ندخل حتى ننشد معاً نشيد الجزائر:

قسماً بالنازلات الماحقات

والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات

في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا..

مكتبة الرمحي أحمد

ثم يتبرع من شاء ببعض مصروفه لثورة الجزائر وشعبها، يوم كان المصروف الذي يمكن تبعيضه وقسمته قرشاً أو قرشين في أحسن الأحوال. أما إن كان مصروفك نصف قرش، فأنت وما تجد من نفسك في تلك الساعة. فإن كان الجوع غلاباً والرغبة متسلّطة، بذلته لشطيرتك. وإن غلب عليك الحس القومي بذلته للجزائر. وقد تراوح بين هذا وذاك من يوم إلى آخر. فأين ذهب ذلك الروح ، حتى تبارت الأنظمة العربية في إعلان شعار «بلدنا أولاً». ولا تدري متى كان في مذاهب الحكام ثانياً؟ وإن شعار «الأول» ليضمر بالضرورة تقابلاً مع «ثان» و «ثالث». ولا يقول لنا أحدهم ما هو الثاني وما هو الثالث. هل هو سائر الوطن العربي، أم هو فلسطين على وجه الخصوص؟! والمعنى المضمر أن القطر المعني قد أمضى زمناً طويلاً وهو يقدم قضية فلسطين على مصالحه، ويبذل فيها من موارده المادية والبشرية ما كان حقيقاً به أن يبذله لرفاه شعبه. وقد آن أوان ذلك. وهو ادعاء لا يصمد لاختبار حقيقته، وإنما يبتدعه الحكام لينفخوا في الذات القطرية النرجسية، فيصرفوا شعوبهم عن رؤية الحقيقة في أسباب شقائهم، وهي أنهم هدروا ثروات بلادهم على أنفسهم وعائلاتهم، وأن شرط رفاه الشعوب العربية ليس الانصراف عن فلسطين، بل التخلص من الفساد والتسلط والاستبداد. كما يتجاهل هذا الادعاء السقيم أن الأمن القطري لا يستقل عن الأمن القومي. وإنهم ليرون الولايات المتحدة تتدخل في أقصى ركن من العالم بدعوى حماية أمنها القومي، فهل يريد منا هؤلاء الحكام الطغاة المستبدون أن نقتنع بأن أمن بلادهم محصّن مما يقع في جوارهم العربي والإسلامي؟! ماذا عن تداعيات غزو العراق عام 2003! وماذا عن الغزو السوفييتي لأفغانستان وما تناسل عنه من إرهاب؟ ومنذ متى صار المشروع الصهيوني مشكلة تختص بالفلسطينيين دون سائر العرب إلا أن يقحموا أنفسهم فيها، وأن إسرائيل لا تشكل أي تهديد للأمن القومي العربي إلا أن يجرهم الفلسطينيون إلى مستنقعها، وهيهات! أين الكلام عن وظائف الكيان الصهيوني في خدمة المشروع الاستعماري المستمر ضد الأمة العربية ومشروع نهضتها ووحدتها واستقلالها الفعلي؟ وأين حقائق الترابط والتشارط العضويين بين أهداف التحرير وأهداف النهوض العربي استجابة للترابط والتشارط العضويين بين المشروع الصهيوني والمشاريع الاستعمارية الإمبريالية ضد الوطن العربي بأسره، بوصف إسرائيل وكيلا متقدما في المنطقة لتلك القوى الدولية الإمبريالية؟ هل صار هذا حديثا من أساطير

مكتبة الربيعي أحمد

الأولين: العروبيين والإسلاميين واليساريين، يحيل إلى زمن الخطابات السياسية العاطفية، والشعارات الثورية الرنانة والمد القومي المهزوم كما يزعم سدنة الإذعان وأولياء الغرب الاستعماري ودعاة العزلة القطرية؟!

إن لم ير الحكام وأولياؤهم وأولياء أوليائهم أن إسرائيل تمثل تهديداً للأمن القومي برمّته، وأن التحدي الصهيوني قضية عربية إسلامية وإن تقدمها الشعب الفلسطيني، فإن جل شعوبهم لا ترى رأيهم، بل تجمعهم مع الكيان الصهيوني على صعيد يأتلف فيه الطغاة والغزاة. وهذا وحده يمثل خطراً على أمن أنظمتهم، وهو ما يختزلونه في مفهوم الأمن الوطني! فأين يذهبون؟ ألا ساء ما يحكمون! وإن لم تكن مسألة الأمن القومي وطبيعة الكيان الصهيوني ووظائفه ضد الأمة العربية بأسرها، ما يوجب اجتماع الأقطار العربية حول القضية الفلسطينية فماذا عن مشاريع الإنماء الاقتصادي الاجتماعي الثقافي التي تقتضي التكامل والتكتل بحكم الضرورة ، لا بحكم «الأيديولوجيا »؟! فإن كان الأمر كذلك على الصعيدين الأمني السياسي والاقتصادي الاجتماعي النهضوي فما معنى تلك المفاضلة بين «أول» قطري ، و «ثوان» و «ثوالث» أخرى قومية لا يسميها الشعار إذ يَجُبُّها فعلاً متجاهلاً أو جاهلاً لحقيقة أن «الأول القطري» ينتظم في «الأول القومي»، وأن التفريط بأحدهما تفريط بالآخر. وإن ادعى أولئك الحكام المستبدون زوراً أنهم بذلوا لقضية فلسطين بالسابق ما كان على حساب رفاه شعوبهم الذي ينبغي أن يصير الآن (أولاً)، فإن شقاء شعوبهم شاهد على كذب ذلك الادعاء، وشقاء الشعب الفلسطيني المتراكم مع تصاعد العلو الصهيوني، شاهد آخر. فلا هم في العير ولا في النفير، وإنما هم في شأن أنفسهم وكراسيهم، قد حولوا شوكتهم العسكرية والأمنية من وجهة العدو الغازي، إلى وجهة الشعوب المنكوبة بالطغاة والغزاة معاً. والثروات التي زعموا أنهم يريدون نقلها من حساب المعركة مع العدو، إلى حساب الرفاه الداخلي تحت شعار (بلدنا أولاً)، لم تجد طريقها إلا إلى حساباتهم وحسابات أوليائهم. ألا ساء ما يحكمون!

لا لم تكن فلسطين «أولاً» عندهم في السابق أو اللاحق، لتصبح ثانياً أو ثالثاً. وأكذب القول فيهم أنهم أفرطوا سابقاً في توجيه الثروة والجهد من أجل فلسطين على حساب شعوبهم. وأصدقه أنهم فرطوا بالحقوق الفلسطينية وبحقوق شعوبهم معاً فحق عليهم قول شعوبهم.

مكتبة الربيعي أحمد

أما قلت سابقاً أن من مواقف الحكام والساسة الفاسدينِ المستبدين ما يغري بالسباب البذيء! كفى إذن من تداعيات الوقوف على دار البلدية القديمة، قبل أن يغلب علي ما يحسن أن يكبحه التجمّل والتأدب!

إلى يميني الآن طلعة المستشفى وقانا الله شر أسباب اللجوء إليه، ووقانا شره. فلربما كان أحيانا أشد خطراً على الصحة من أسباب اللجوء إليه. فقد كان شديد الفقر في معداته وأطبائه وممرضيه!

كانت أمي يرحمها الله حاملاً عام النكبة. وإذا هي في أيام الحمل الأخيرة، وقع قصف بالطائرات على قواعد قريبة للجيش العراقي. وفي خوفها واضطرابها وتعجلها البحث عن ملجأ، اصطدم بطنها المنتفخ صدمة قوية بزاوية الطاولة. وكانت تروي لنا أنها أحست بحملها في تلك اللحظة يتقلب مضطرباً قي رحمها، حتى خشيت على مصيره. فلم تلبث أياماً حتى وضعته ذكراً. وكان سليماً إلا من جرح في جانب رأسه من أثر تلك الصدمة. وإذ كبر ذلك الطفل بقي معه أثر الجرح مع زائدة لحمية صغيرة ناتئة منه. وما كان ذلك ليوجب شيئاً من المعالجة، لولا أن الزائدة اللحمية كانت تنمو قليلاً مع نمو الصبي. وكان لا يفتأ يعبث بها حتى صار الأمر مزعجاً. وفي الصفوف الابتدائية رأى والد الصبي أن يحرره من هذا العبء، فعرضه على الطبيب الذي قرر أن يزيل الزائدة اللحمية بجراحة بسيطة في مستشفى البلدة. وكان على الصبي أن يتحمل ألم الجراحة التي رأى الطبيب أنها لا تستدعي تخديراً. والألم إذا انقضى فكأنه لم يكن. ولكنه لم ينقض في تلك الواقعة! فلم يمر يوم على تلك الجراحة حتى انتفخ وجه الصبي وتضخم ضعفين. فقد التهب الجرح لقصور عملية التعقيم في المستشفى. وكان على الطبيب أن يرجع بالصبي إلى المستشفى لينظف الجرح ويعقمه ويعالج الالتهاب. حتى إذا شفي الصبي ومد يده يتحسس موضع الجراحة وجد النتوء اللحمي في مكانه! فما ناله من تلك الجراحة إلا الألم وخطر التسمم والالتهاب. ولم يرجع هذه المرة إلى الطبيب ولا إلى المستشفى. فأهون أن يعيش بتلك الزائدة الصغيرة التي يغطيها الشعر من أن يجازف بما هو أكبر. وإذ جرى على عادته في العبث بها وفتلها سنة أخرى أو سنتين أخريين، وجد على يده دماً في أحد الأيام. وإذا بالزائدة قد انقلعت وانتهى أمرها إلى الأبد! فقد عملت يده بها ما لم تعمله سكين الطبيب والمستشفى.

مكتبة الربيعي أحمد

كان ذلك الصبي أنا.

كنت إذا مررت بالمستشفى شممت رائحة الموت تفوح من تلك الغرفة الصغيرة الموحشة قبالته مباشرة، وهي الغرفة التي تحفظ فيها جثث الموتى قبل أن يتسلمها أهلوهم. وقد يجري فيها تشريح الجثة إذا اقتضى الأمر ذلك. وإني لأرى نفسي الآن في زهاء الثامنة عشرة بين حشد من الرفاق والأصحاب نقف أمام تلك الغرفة. وقد بلغنا أن أحد أصحابنا قد سقط ميتاً على حين غرة في صباح ذلك اليوم، وهو يلعب الكرة مع بعض أصحابه. كان الفتى من حدة الطباع وسرعة الغضب والانفعال لأقل الأسباب ما يصرف الكثيرين عنه اتقاء لغضبه الجارف. على أني خالفت نصائح الآخرين لي في صحبته، واختبرت قدرتي على ترويض انفعالاته وردع غلوه. وأحسبني قد نجحت. فكان يبدي لي من الاحترام والتقدير ما لا يبديه لكثير غيري. وأبانت لي المخالطة عن قرب أن للفتى قلباً طيباً تخفيه حدة الطبع التي لا يستطيع كبحها في معظم الأحيان، فيسرع في السباب والشتيمة والعراك دون أن يخشى عواقبها مهما يكن خصمه في تلك اللحظة.

كنت خارجاً من بيتي ظهيرة ذلك اليوم، ميمماً شطر السهل الفسيح ومعي كتابي وشطيرة أعدتها لي الوالدة رحمها الله. فلم أبتعد كثيراً حتى لقيني أحد الرفاق:

- أتدري ما حدث صباح اليوم؟

- لا.

- عكاشة. مات عكاشة.

سقطت الشطيرة من يدي من أثر الصدمة. ثم قصّ علي الفتى تفاصيل النبأ. كان عكاشة يلعب الكرة مع آخرين، فاختلفوا حول ضربة مرمى. وما كان عكاشة ليحتاج إلى سبب أكبر من هذا ليهيج هياجاً هائلاً، فيرغي ويزيد ويسب ويشتم ويتحدى، وقد احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، وعلا صوته. وفي لحظة واحدة توقف ذلك كله إلا من زبد الفم ورغوته، إذ سقط عكاشة إلى الأرض بلا حراك.

عرفنا بعد ذلك أن بعض الأوعية الدموية في دماغه قد انفجرت وأودت به. وبسبب ملابسات الموقف كان لابد من التشريح لتحديد سبب الوفاة. وما هي حتى احتشدنا أمام

مكتبة الربيعي أحمد

غرفة التشريح وحفظ الموتى، ونحن بين مصدق ومكذب وقد أخذتنا صدمة الموت وانطفاء الحياة في عز الصبا. فالموت لا يزور في العادة إلا كبار السن بعد أن يتوقف العمر عن بذل مواعيده ولم يبق للمرء ما يعيش من أجله. أو هكذا كانت توقعاتنا في ذلك الحين. والصدمة على قدر التوقعات المخالفة. ومع أن مستقبل عكاشة في حياته لم يكن يعد بالكثير، بالحكم على مواهبه الضئيلة، وأدائه المدرسي وسلوكه الاجتماعي وخلفيته المتواضعة في مخيم طولكرم، فقد كان الصبا في ذاته موعدا مع الحياة ومنحها المجانية. لن يتاح لعكاشة بعد اليوم أن يستمتع بالنظر إلى قوس قزح، واصطياد القنابر ولعب الكرة، ومطاردة الفراشات الملونة، والاحتفال بألوان الربيع واشتمام رائحة التراب عقب المطر الأول، وصناعة أحلام قد لا تتحقق وإن كانت في ذاتها وفي وقتها تغطي قدراً من قبح الواقع وتؤنس من وحشته، وتبعث في النفس خدراً جميلاً. وما كانت صدمتنا بوفاة عكاشة على غير توقع إلا صدمة بما ذكرتنا به وفاته، وهو أن الموت يأتي على موعده لا على مواعيدنا، و موعده مجهول. فلا أحد منا بمنأى عنه مهما تكن أعمارنا. وقد أنسانا كل ذلك في حضرة الموت ما كنا نعيبه على عكاشة من حدة الطبع وغلظة السلوك وسوء المعشر. فبكاه الجميع، وخرج في جنازته الجميع، وشارك في طقوس دفنه ووداعه الجميع. وبدا كأنهم يودّعون شهيداً أو حبيباً لم يعرفوا أحداً قط في مثل وداعته ووفائه وحسن معاملته!

حتى إن بعضهم ترك على قبره لوحات خطوا عليها كلمات الوداع مخلوطة بالثناء. ولما كانت السينما الأجنبية رائد العولمة الثقافية في ذلك الحين، فأذكر أن أحدهم قد وضع لوحة بالانجليزية خط عليها: (Rest in Peace). وما كان ذلك منه لأن اللغة الانجليزية قد غلبت على لسانه! وإنما لأنه رأى مثل هذا في بعض الأفلام الأمريكية. وبدلاً من أن تكون السينما محاكاة للواقع، صار الواقع يحاكيها أحياناً.

بمحاذاة المستشفى تقع مدرسة العدوية الثانوية للإناث، يحيط بها سور مرتفع من الحجر يحجب الطالبات عن عيون الشباب المتطفلة التي تدور حيث تدور الجدائل المعقودة بالشرائط البيضاء أو الملونة. وهناك أمام المدرسة كان يتسكّع بعض «الفتيان» وقت وصول الطالبات أو خروجهن، فلا ينالهم في العادة إلا الحسرة والخيبات، وربما بعض الشتائم من الفتيات، وأكثر من رجال البلدة المحترمين الذين يصادف مرورهم من هناك في تلك الساعة! فإذا ميّزوا أحد «الزعران» المتطفلين، لم يكتفوا بنهره ووعظه حتى

مكتبة الربيعي أحمد

يهددوه باشتكائه إلى أبيه. وكفى بالأب عندئذ خصماً وحكماً. شارع ضيق فقط بين نذر المستشفى وأشباح غرفة الموتى، وبين تباشير الأنوثة المتفتحة خلف أسوار «العدوية». وكذلك الحياة ما زالت تتوزعنا بين مفارقاتها.

4. على شارع نابلس: بدايات ونهايات

أستطيع الآن أن أسلك أحد الطريقين نحو منزلنا. فإما أن أتابع سيري في شارع نابلس الذي صرت فيه، وإما أن أسلك طريق قرية شويكة القريبة الذي يلتقي بشارع نابلس عند موضعه الحالي قريباً من دار البلدية وطلعة المستشفى، فإذا سلكت هذا الطريق الثاني الذي يقطع سهل طولكرم الفسيح ويمر بمحاذاة ملعب البلدية، كان علي أن أنعطف منه بعد دقائق يميناً على طريق بيارة «راسم كمال»، فيفضي بي هذا الطريق من جديد إلى شارع نابلس في موضع قريب من بيتنا. وفي بعض أحلامي السابقة المتكررة التي كنت أطوف فيها طرقات طولكرم وحاراتها حتى منزلنا كنت أسلك هذا الطريق كما سلكته كثيراً في الأيام الخالية.

ولكني أختار الآن أن أتابع سيري في شارع نابلس، فقد كان طريقي المألوف اليومي في الماضي. وبقي كذلك في معظم أحلامي تلك.

أمضي في طريقي ذاك حتى أبلغ موضعاً تصعد منه طلعة جانبية إلى اليمين كذلك كان يقوم عليها بيت طبيب للأسنان وله شرفة يجلس عليها أهل البيت يحتسون قهوة الصباح. ثم ها هنا إلى يساري درج هابط يسلم إلى حارة صغيرة في بيوت عدّة. ومن بينها كان البيت الذي احتضن أول «روضة» في طولكرم، تعلمت فيها القراءة والكتابة وبعض الحساب قبل أن أبلغ سن المدرسة. ولا يغرّنك اسم «الروضة» فتحيلها في ذهنك إلى «رياض» اليوم. إذ لم تكن إلا غرفة تسوية غير مبلطة كأنها مغارة، وتنفتح على الحديقة. والمعلمة من أهل البيت. ولا أحسب أنها كانت مؤهلة بأكثر من التعليم المدرسي. وكنا نقتعد الأرض ونكتب بالطبشور على ألواح صغيرة بأيدينا.

أذكر يومي الأول فيها. فقد صحبتني أمي إلى المكان، وأنا أحسب أنها ستبقى معي حتى نعود معاً. فلما تبين لي أنها غادرتني وحدي مع المعلمة وسائر الأطفال انخلع قلبي وإن غالبت البكاء. قبل اليوم، كان أخي الأكبر وأختاي الكبريان يغادرون المنزل في كل

مكتبة الرمحي أحمد

صباح إلى المدرسة، وأبقى في المنزل مع أمي وجدتي، أنعم بالدفء والأمان العاطفيين. حتى أكرهت على هذا الفطام العاطفي القاسي.

وما لبثت أن ألفت هذا الوضع الجديد، وأعانني على قبوله ما صرت أسمع من كلمات الثناء على سرعة تعلمي.. وشيء آخر!

بلى.. كنت في السادسة أو أكاد. ومع ذلك شعرت بشيء غامض يجذبني عاطفياً إلى فتاة في مثل عمري من رفاق الروضة! لا ، لم يكن ذاك من باب الرفقة الخالصة التي تنشأ بين الأقران منذ المراحل العمرية المبكرة، فيقع كل منهم على شبيهه ومشربه، فيلهون معاً بما يتاح لهم من أسباب اللهو وطرقه. وهي رابطة أكثر ما تكون بين أبناء الجنس الواحد، فالصبيان يرافقون الصبيان، والإناث مع الإناث، والثقافة الاجتماعية تعزز هذه القسمة، وتميز ألعاب الذكور عن ألعاب الإناث. فللذكور البندقية والسيف والسيارة والكرة ونحوها وللإناث «العرائس» والزينة وأمثالها، وما يليق بالذكر من الخشونة في اللعب لا يليق بالأنثى. وكل ذلك تدريب مبكر على تمايز الأدوار بين الجنسين وفق معايير التنشئة الاجتماعية. وترى الصغار إذا اجتمعوا ذكوراً وإناثاً، انقسموا فوراً إلى جماعتين حسب الجنس، وانصرف كل إلى مشغلته، وللصبيان صخب وحركة ليس للإناث مثلهما. فإن حاولت فتاة أن تشارك الصبيان فيما يصلح لكليهما، وجدت الصبيان يصدون عنها صدوداً، وربما اضطهدوها واستقووا عليها ظلماً وعدواناً! وعليها أن تنتظر حتى تتفتح زهورها لتقتص منهم بسلطان الأنوثة! إذ هم مراهقون لا يهتدون مع طغيان «الهرمونات» سبيلاً!

لا لم يكن انجذابي إلى الصغيرة «شفيقة» في تلك الروضة انجذاب الأقران حسب، ولي غنى في صحبة الأقران الذكور، بل كان من نوع انجذاب الذكر إلى الأنثى، ذلك الذي ركبه الله في الفطرة التي فطر عليها الناس، أو قل - إن شئت - في كتاب الجينات. وبالطبع لم يكن في ذلك الانجذاب شيء من نداءات الجسد، وإلا كنت من غرائب الطبيعة وخوارقها المرعبة! ولكنني كنت إذا رأيتها خفق قلبي، وإذا غابت ظل طيفها حاضراً في نفسي. وإذا كانت عطلة نهاية الأسبوع تعجلت انقضاءها لأراها من جديد. وإني لأحرص على أن أظهر لها أحسن ما عندي، وأتقرب إليها ببعض ما أملك من متاع قليل أو حلوى عزيزة. فما عساني أسمي هذا الشعور، غير أنه كان من صنف عاطفة الحب! أو

مكتبة الرمحي أحمد

هو من تباشيره أو هو من بذرته المطمورة في الجبّلة الأولى، قبل أن ينمو نباتها ويستوي على سوقه، ويتفتح زهره ثم ينعقد ثمره. وإني لأعلم أن مثل هذا الشعور غير مألوف في تلك المرحلة المبكرة من العمر. ولا أدري كم من الناس غيري اختبر مثله. ولكنه كان. وفي مذهبي أن الناس أمناء على وصف مشاعرهم وتعريفها أمانتهم على أنسابهم. فهم أولى بتعريفها. فهي حقيقة بقدر ما يرون أنها حقيقة. وإلا لم بقيت ذكرى ذلك الشعور ماثلة في نفسي على تطاول الأيام؟ ولماذا لا أذكر تجربة «الروضة» إلا ذكرت معها شفيقة بتلك الصفة، وهي التي ستغيب من عالمي بعد تلك السنة اليتيمة التي قضيتها في الروضة، ولسوف أعشق غيرها حين يصير العشق من مألوف المراهقة والشباب، لا يثير شيئاً من العجب، وإن أثار شيئاً من الاعتراض في المجتمع المحافظ.

فما ضرني لو سميته أول حب، فإن لم يكن فأول إحساس بالأنثى من حيث هي أنثى، لا من حيث أنها واحدة من مجتمع الأقران! ولا يفسد ذلك لبراءة الطفولة قضية.

على الرغم من أنها كانت «روضة» بدائية شديدة التواضع في إمكانياتها فإنه ما إن انقضى العام حتى كنت أحسن القراءة والكتابة والإملاء والعمليات الحسابية الأولية. وقد ظننت أن هذا من العادي المألوف الذي لا يقتضي شيئاً من التفاخر. وكنت أعجب من والدي إذ يتفاخر بي أمام أصحابه، ثم يلزمني أن أستعرض لهم قدراتي لتقوم بالشهادة على صدق قوله، فأقرأ لهم من الصحيفة اليومية دون تعثّر أو تباطؤ أو لجوء إلى التهجئة. كان الأمر يبدو لي طبيعياً لا ينبغي له أن يلفت الأنظار. ولكن ردود فعل المستمعين كانت تشهد بغير ذلك. فلا يزيدني الأمر إلا حيرة وتعجباً، بينما ترتسم على وجه الوالد ابتسامة الرضى والاعتزاز. إذ ذلك كله قبل أن أبلغ سن الدخول إلى المدرسة. فلما دخلتها، قضيت الصف الابتدائي الأول لا أكاد أتعلم جديداً لم أتقنه من قبل أو أتقن أحسن منه. وعلى مدى العامين التاليين درج المعلمون معي على عادة قبيحة وإن كانت لتثير زهوي أحياناً، إذ أكون في صفي حين يأتي آذن المدرسة، فيستأذن أن يصحبني إلى صف أعلى لبضع دقائق حسب طلب معلم ذلك الصف في تلك اللحظة، فإذا صرت هناك طلب مني معلم الصف الآخر أن أحل مسألة معروضة من مسائل الحساب، أو أن أجيب عن سؤال في موضوع آخر. فإذا فعلت، طفق يؤنّب صفه ويقرّعه ويصمه بأقذع الأوصاف. كيف يتسنى لصبي دونهم عمراً وصفاً أن يجيب عما أخفقوا في الإجابة عنه، إلا أنهم في أحسن

مكتبة الرمحي أحمد

الأوصاف كسالى، وفي أقبحها لا عقول لهم. ثم يترنم بشطر منظوم: (جسم البغال وأحلام العصافير). ثم يردني إلى صفي محموداً مشكوراً.

وكان أخي الأكبر يتقدمني بضعة صفوف. فإذا دعيت إلى صفه لتلك الغاية تملكني حرج شديد، وغمرني شعور بالأسى والضيق يذهب بالزهو كله، إذ لا يسع المعلم إلا أن يخص أخي بالمقارنة والمفاضلة بعد أن يعممها على سائر التلاميذ. وكنت أحب أخي الأكبر حباً جما، وما زلت. وهو من أطيب الناس قلباً. وما كانت المفاضلة الآثمة القاسية لتثير غيرته. بل على النقيض من ذلك كان يرجع بي إلى البيت مزهواً مفاخراً بي، وكنت أرجع مغموماً مهموماً مشفقاً عليه أعظم الإشفاق، وقد تغلبني الدموع إذ انفردت بنفسي أو تأملت في وجهه عن بعد. وكانت المفاضلة بيننا في مستوى الأداء المدرسي تستمر في المنزل. فأتحمل من ذلك شعوراً ثقيلاً بالذنب لا يزيد عليه إلا شعوري بالعطف على أخي الأكبر. ولعل أبانا كان يتوهم أنه بهذا يحفز أخي على مضاعفة الجهد. وما يدري أنه كان يحبطه ويفقده الثقة بنفسه، ويدفعه دفعاً إلى تعريف نفسه كما يعرفها معلمون قساة غلاظ الأكباد، وآباء يحسبون الشدة حزماً، والحزم في باطنه رحمة. أفما كان بعضهم في ذلك الزمان إذا ذهب بولده إلى «الكتاب» يقول لشيخه:

- لك من ولدي اللحم ولنا منه العظم!

وبذلك يعطيه رخصة لاغتيال طفولته وتقويض عالمه، وتحطيم كبريائه وثقته بنفسه. حتى إذا استقر في نفسه أنه كما يوصف: لا خير فيه ولا أمل منه في الدراسة، استدبرها على الجملة، واستنكف عن المدرسة، واقترح بديلاً آخر لمستقبله. وذلك ما انتهى إليه أخي الأكبر بعد حين. فلم يكمل صفوف المدرسة. وغادرنا في ميعة الصبا إلى الكويت، حيث درس في كليتها الصناعية، ثم عمل فيها حيناً من الدهر، حتى قرر الهجرة إلى كندا ليجرب حظه. وما زال فيها حتى اليوم. ولست أشك في أن أمثاله في الأجيال الجديدة يكملون تعليمهم المدرسي والجامعي إن شاؤوا، وقد يحصلون على الدرجات الجامعية العليا بعد أن تطورت الأساليب التربوية وارتفع مستوى تأهيل المعلمين ولا سيما في المدارس الخاصة المتميزة، وتخفف المجتمع من قسوة أحكامه على المتوسطين، ومن دونهم، ولم تعد الرياضيات وأخواتها المعيار الأوحد لمستوى الذكاء وفرص النجاح، على نحو ما كانت قديماً.

مكتبة الربيعي أحمد

لا عجب أن تفوقي في المدرسة لم يورثني ذكريات طيبة كما أورث غيري. ولم أخضع يوماً للقول المأثور (من علمني حرفاً كنت له عبداً). فحق العلم أن يحرر من العبودية لا أن يفرضها. وما إن تقدمت قليلاً في صفوف المدرسة حتى خلعت عن نفسي الصورة النمطية للطالب المتفوق المجتهد الذي يفرق شعره بعناية ويجلس في صفوف الأدراج الأولى ليكون أقرب إلى شرح المعلم و أسمع لصوته وأبعد عن تشويش الطلبة في الصفوف الخلفية، فإذا سمع همساً خلفه تمعّر وتمغط وتأفف وقلب بصره بين الجناة والمعلم، كأنه يستعديه عليهم. وقد يحاججهم في أنه وأمثاله قد جاؤوا للدراسة فلا يحسن بمن جاء لغيرها أن يفسد عليهم غايتهم. وتراه في الاختبارات يحيط ورقته بذراعه ويحني رأسه وكتفيه عليها، ليحول بينها وبين من تحدثه نفسه بالغش واستراق النظر. فإذا تناهى إلى سمعه نداء اليائس مخنوقا متحشرجاً ينشده الله أن يسرب له جواب سؤال استعصى عليه أو يكشف الحجاب عن ورقته قليلاً رأيته يبالغ في حجبها حتى كأنه يرقد عليها، وينفخ نفخة احتجاج مع نظرة صارمة عجلى إلى صاحب النداء المكروب، لينبه المعلم إليه. فإذا عوتب في موقفه ذاك ألقى على زميله درساً في الأخلاق وحق المجتهد في الانفراد بثمرة كسبه.

لا يحسبنّ القارئ أني هنا أسوغ الغش على أي نحو من الأنحاء. ولا أجادل في حق المجتهد في ثمرة جهده وأنا الذي أنفقت في التعليم الجامعي حينا من الدهر واضطرتني محاولات الغش أن أطور مهاراتي في الرقابة ومحاصرة المشبوهين.

ولكن من مفارقات الحياة والسلوك الإنساني، أن بعض الأنفس الشح قد تستتر بما يصعب دفعه من القيم والمواعظ الأخلاقية. وقد يشي موقف صائب في حالة مخصوصة عارضة، بشخصية نكدة أنانية في مجملها، كما تستظهر في الأحوال والظروف الأخرى. فلو أن ذلك الطالب الموصوف لا يبخل إلا بأجوبته في الاختبار رفضاً لمبدأ الغش ثم يجود بما يحمد الجود به، لرضي منه القوم وكبر في أعينهم. ولكنه شحيح في كل أمره حيث الشح قبيح لا يمكن أن يستخفي بأي مسوغ أخلاقي. فهو لا يشرك أحداً في أشيائه ولا يعير قلماً لمن جف قلمه أو نسيه في بيته، ولا يقطع لأحد من ورق دفتره، ولا يقسم لأحد من طعامه، ولا يخالط إلا من كان على شاكلته ترفعاً واعتداداً، وإذا تواطأ الطلبة على مناشدة المعلم تأجيل الإمتحان خرج عن الإجماع، وألح على إجراء الامتحان في وقته الموعود،

مكتبة الربيعي أحمد

وحجته أنه قد استعد للامتحان ببذل الجهد و الوقت فليس من العدل أن يتراخى الوقت بين استعداده وامتحانه فتخبو الذاكرة بعد أن تم شحنها بالجد والكد. وليس من الإنصاف كذلك أن يمنح من لم يغن غناءه ولم يجتهد اجتهاده مهلة أخرى ليحصل على التراخي ما حصله هو في فسحة الوقت السابقة! والمعلم في العادة أميل إلى هذا الرأي، بل إلى كل رأي يصعب الحياة على الطلبة!

ما كان لي إلا أن أنأى بنفسي عن هذه الصورة النمطية الكريهة للطالب المتفوق. فصرت أوثر الجلوس في المقاعد الخلفية مع الطبقات الشعبية المقهورة (!!) أو أهل الشرور والشغب والمعاصي كما يفضل أن يصفهم المعلمون. وأعانني طول قامتي على تسويغ جلوسي هناك كيلا أحجب عن أهل النقاء والأدب والاجتهاد معلم الصف و«سبورته». وما هي حتى صرت ناطقاً باسم الجماهير(!) الساخطة المتأهبة للتمرد والشغب، أتقدمهم في كل مطلب ومواجهة وصخب. فلا يصرفني استعدادي للامتحان عن تبني مطلب القاعدة العريضة في تأجيله. فإن فرض علينا تقدمت تلاميذ الصفوف الأولى بالنتائج. فلم يكن لهم ولا للمعلمين حجة علي مما يحتجون به على الآخرين من الكسل والتفريط والتقاعس. وبذلك كان بوسعي أن أجادل عن موقفي بأنه قضية مبدأ وتضامن مع الجماعة، لا قضية تهرب من تبعات الدراسة وأحمالها. وبقدر ما أكسبني ذلك إعجاب الجماهير التي كانت غايتها بالفعل التهرب من تبعات الدراسة وأحمالها، فإنه جعل المعلمين في حيرة من أمري. فما هكذا يورد الأول في الصف إبِلَه، وما هكذا ألفوا من سلوك المتفوقين وصورتهم النمطية. فكيف يجمع هذا الفتى بين نزعات التمرد والتفوق الدراسي!! فالأصل ألا يجتمعا. وكيف يخلط نفسه «بالطبقات الدنيا» بمعيار التحصيل العلمي، وحقه أن يترفع عنهم مع النخبة؟! التفوق امتياز. والامتيازات تدعو في العادة إلى الانتظام في الواقع السائد لا إلى مفارقته وخصومته والتمرد عليه.

وأذكر أن معلم العربية وكان رجلاً مكتهلاً يرتدي الكوفية، قد نظر إلي يوماً بعد واقعة شغب ثم قال بصوت يختلط فيه الإعجاب مع الإشفاق:

-يا وليد، أنا أتوقع لك مستقبلاً عظيماً في عالم الكتابة ولكن، يا للخسارة! إنك لتسبح في الماء العكر!

مكتبة الربيعي أحمد

وقد أختصر بتلك العبارة موقف المعلمين وسدنة النظام المدرسي مني.

أما جماهير الطلبة، فصرت عندهم كمن يختار أن ينسلخ عن طبقته النخبوية، بدافع المبدأ الثوري لينحاز إلى الطبقات الكادحة التي تمثل مادة الثورة. وذلك قبل أن نطلع على مثل هذه التصنيفات في الأدبيات اليسارية!

والحق أن دافع جمهور الطلبة المتمرد، كان في معظم الأحيان التهرب من أعباء الدراسة! وما كانت معرفتي بذلك لتصرفني عن تبني مطالبهم وتسويغها بزخرف القول وحديث المبادئ. فقد كان رفضي لاستبداد المدرسة وقسوتها أشد من رفضي لاستبداد الجماهير! وما زلت منذ تفتح وعيي على الحياة وسنة التدافع فيها لا أغالب نزوعي إلى الانحياز للضعفة والمغلوبين، وإن اشتطت مطالبهم واختلفت غاياتهم. ولكنني استشعرت منذ ذلك الحين، ما سوف تبديه لي الأيام القادمة، وذاك أن قادة الحركات الشعبية قد يجدون أنفسهم أحياناً أسرى لضغوط قواعدهم وتوقعاتها منهم، حتى يصيروا تابعين لا متبوعين، مسيرين لا مخيرين، فيمضوا مع المد الجارف، وإن خالف ذلك رؤيتهم وتقديراتهم، خشية التهمة بالتفريط والتنازل. وقليل هم الزعماء والساسة الذين يتمكنون بمواهبهم الفذة من أن يحفظوا توازناً دقيقاً بين المصالح العاجلة والمصالح الآجلة، بين المبادئ والذرائع، بين ضغوط الجماهير وبين ضغوط الواقع والغايات، ليتخذوا قرارات قد تكون موجعة في الحاضر مثمرة في المستقبل وأن يقنعوا بها جمهور الناس.

بل إني عرفت شيوخاً كباراً وأئمة مرموقين، يتحفظون في عرض آرائهم التجديدية المستنيرة وفي التوسعة على الناس، خشية أن يفقدوا ثقة قواعدهم المتشددة، وأن تلحق بهم تهمة التفريط بشرع الله. مع أن الزيادة في الدين كالنقص منه أو أشد نكراً.

وأظهر ما تكون هذه الحالة من انصياع القادة والزعماء الشعبيين لضغط قواعدهم والمزاج العام، حين تغيب المؤسسات الديموقراطية الحقة التي تجعل القرار مسؤولية جمعية وتفسح للتناوب المنظم على القيادة والسلطة، فالمفارقة إذن أن القيادة المستبدة بخلاف المتوقع، هي التي يمكن أن تضطر أحياناً إلى الخضوع لاستبداد المزاج الشعبي العام، حين يهدد كراسيها الثابتة المؤبدة ومصالحها المكتسبة من حساب المبادئ والغايات.

مكتبة الربيعي أحمد

كيف أفضت بي التداعيات إلى هذه الأفكار انطلاقاً من الوقوف على الروضة التي تعلمت فيها أول القراءة في دفتر الدراسة، وأول القراءة في دفتر الأنثى!! لا داعي لأن أجهد ذهني في استرجاع الحلقات والروابط وقد اقتربت من بيتنا عند المخيم.

أخيراً هذه بقالة أبي القديمة إلى يميني، تحت بناء قديم كبير لافت بمعماره المميز، وشرفاته التي تقوم عليها جملة من الأقواس والأعمدة. أنظر إليها الآن بحنين غامر، على الرغم من أنها كانت في زمان الطفولة الغابر بمثابة السجن عندي. ففي أيام العطل المدرسية كان الوالد يمسكني فيها كي لا أختلط بأولاد الحارات، حتى يقتلني الملل. وما أزال أقدر في ذهني الوقت المناسب لاستئذانه حتى يغلب الضيق والملل على الهيبة والزجر. فإذا أطلقني كنت كمن يركب الريح في فضاء الحرية. وذلك قبل أن أشب عن الطوق وأنتزع مساحة أوسع منها.

وأراني الآن أدقق النظر في البقالة المغلقة المهجورة، وأتلمس حواف زاويتها الحجرية بحثاً عن ثلم صغير في الحجر، لبثت طويلاً قبل أن أغادر طولكرم أبحث عنه حتى أجده، كلما مررت بالبقالة. إنه أثر مادي من الماضي البعيد، صنعته مع ابن عمي الذي كان يكبرني بأربعة أعوام بمنشار صغير لا يزيد عن طول الإصبع ليكون علامة بيننا في السنين القادمة. لا أراني أجده أو أني لا أميّزه. إذ أحدث تقادم الأيام وتعاقب الفصول في الحجر من الأثلام والشقوق ما ضلت معه علامتنا. وأنظر إلى الشرفة أعلى الدكان وأذكر ذلك الشاب الضرير الذي كان يسكن مع عائلته هناك، وكان الناس يتحدثون بشغفه في الفلسفة، والفلسفة في ملتهم واعتقادهم لا تستقيم مع الدين وربما تاخمت الكفر أو دخلت فيه. ولكنهم في المقابل كانوا يسرفون في وصف عبقريته وعقله الجبار ومواهبه الفذة التي عوض بها عن فقدان البصر. وإن قائلهم ليقول: (كل ذي عاهة جبار)، يريدون بذلك إن فقدان المرء لإحدى الحواس يرهف غيرها. ولعل في هذا بعض الصواب. ولكن المخيلة الشعبية تغلو في نسبة القدرات الفائقة لكل من ابتلي ببصره، وقد بلغها من خبر طه حسين والمعرّي ما تتوهم معه أن كف البصر كان السبب في تعاظم مواهبهما، لا أنهما خلقا بتلك المواهب الفذة على ما يلد به أكفاؤهما من المبصرين. ولعل السبب في تلك المبالغة أن تفوق المبدعين من هؤلاء يقتضي منهم التغلب على قيد لا يقتضى من المبصرين مثله. فهم أجدر بالإعجاب والتقدير. فما كان لهم أن يبلغوا ما يبلغ المتفوقون من المبصرين إلا بجهد

مكتبة الرمحي أحمد

أعظم وعقل أكبر. وهكذا كان ظني بذلك الشاب الضرير الذي يسكن فوق بقالتنا حتى غلب الخيال على الحقيقة في أمره. وكان فيما يبدو شغوفاً بالموسيقى والغناء. فإذا جلس على الشرفة سمعناه يغني إحدى أغاني عبد الوهاب بصوت رخيم، ولا يفعل ذلك حتى يصدح باللحن والإيقاع كذلك. وإذ سحرت أوهام الطفولة عقلي، زعمت كما زعم بعض الآخرين أن له من القدرة الخارقة ما يجعل الألحان التي يطلقها بصوته كتلك التي تصنعه الآلات تماماً.

بعد زهاء خمسين سنة من ذلك الوقت وأربعين سنة منذ غادرت طولكرم سوف هاتفني رجل مجهول ليهنئني على مسلسل «التغريبة الفلسطينية»، ثم يذكرني أنه ذلك الضرير الذي كان يقيم مع أسرته فوق بقالتنا. وعلمت منه أنه حصل قبل زمن على درجة الدكتوراه. ولا أذكر هل قال لي: هي في الفلسفة أو في غيرها. ولكي أؤكد له أني أذكره جيداً، ذكرته بغنائه القديم الرخيم، فضحك مسروراً. ولا أدري ما صنع الله به بعد تلك المكالمة. عسى أن يكون خيراً كبيراً.

إلى جانب بقالتنا بقالة مثلها، كان يملكها رجل طيب اسمه «سعود» وكان بخلاف أبي يرتدي «القمباز» الريفي. وعلى الرغم من تنافس البقالتين الجارتين، كانت العلاقة بين صاحبيهما علاقة ود واحترام. فكلاهما عميق الإيمان، يكل نفسه ورزقه إلى الله، ويعلم علم اليقين أنه لو اجتمع أهل الأرض على أن يعطوك ما لم يكتبه الله لك، لم يصل إليك، وإن اجتمعوا على أن يمنعوك شيئاً كتبه الله لك، ما استطاعوا. ولكن بقالة سعود كانت أنجح قليلاً من بقالتنا ولعل حزم أبي وصرامته وغلبة الجد عليه، لم تكن في صالح تجارته. وكان يكره أن يبيع بالدين كرهه أن يشتري به. فما تحملت الأسرة ديناً قط. وكان شعاره (على قدر فراشك مد ساقيك)؛ وبقي وفياً لهذا الشعار حتى آخر عمره. فلما مات –رحمه الله– لم يورثنا ديناً علينا ولا ديناً لنا.

ذكرت أن هذه كانت بقالتنا القديمة. ولا أعني قدمها من الحاضر. ولكن من البقالة الأخرى التي بناها على الطرف من حديقة منزلنا، وهجر سابقتها. ولذلك حكاية. فقد بكر على عادته يوماً إلى البقالة القديمة، ليجد بابها مخلوعاً وبضاعتها منهوبة مع كل ما ترك فيها من غلة البيع، حين كان المال عزيزا مهما يكن بمعايير اليوم. وكانت صدمة عظيمة للأسرة. فقد ذهب مصدر الرزق في ليلة واحدة. ولم يكن على الشرطة أن تبحث

مكتبة الربيعي أحمد

طويلاً عن الجاني. فقد كان المشبوهون قلة في طولكرم، قد يقلون ولكنهم لا يزيدون. فلا يعدو أن يكون الجاني أحد اثنين أو ثلاثة من أصحاب السوابق، الذين اتخذوا من السرقة مهنة فلا يخرجون من السجن حتى يعودوا إليه. كما لم يكن على الشرطة أن يكابدوا في جمع الأدلة لتقوم على المشبوه حجة قانونية قاطعة. فالضرب والركل كفيلان بتحصيل الاعتراف. والاعتراف رأس الأدلة. والمشبوه على كل حال لا يضره الاعتراف أكثر مما يضره الضرب. ولا يضره السجن أكثر مما تضره الفاقة والوصمة الاجتماعية خارجه.

كان الجاني شاباً من أعتى الخارجين على القانون. لا يعرف الخوف ولا يأبه بالعاقبة. وله جسم شديد القوة، فإذا جاءت الشرطة لاعتقاله، لم يسلم لهم إلا بعد عراك شنيع. ولا يظفرون به إلا بالتكاثر عليه.

لم نسترجع شيئاً من مالنا المنهوب. فقد كان الجاني يعلم مسبقاً ما تعلمه الشرطة، وهو سهولة الوصول إلى اللص في طولكرم. فتعجل ببيع البضاعة بأبخس الأثمان، ثم تعجل بإنفاقها. ولما سئل: أين ذهبت بالمال! لم يزد على أن ابتسم ابتسامة استخفاف، وقال: أنفقتها في السجائر والثياب والتردد على دار السينما. وبعد أن قضى مدة حكمه بالسجن نمي إلينا أنه كان يروي عن جنايته تلك فيقول: عزمت على السرقة، وحرت أي البقالتين الجارتين أسرق. فدخلت بقالة أبي فيصل(أبي) أولاً ، وطلبت من صاحبها أن يفك لي ورقة نقدية فاعتذر. ودخلت الثانية (بقالة سعود) ففكها صاحبها لي، فعرفت عند إذن هدفي!

بعد زهاء ثلاث عشرة سنة من تلك الواقعة، لقي الشاب مصرعه بزخة من الرصاص! ... لا لم يقتل وهو يمارس النهب والعدوان، ولم يقتله أحد من أبناء جلدته ووطنه، ولكنه ذهب شهيداً في عملية فدائية ضد عدو وطنه. كان الشاب قد وجد أخيراً في المقاومة ضالته وخلاصه. وردته المقاومة إلى جذوره وجذور آبائه الضاربة في الأرض. فأصل الشقاء والفقر الذي أعان عليه الشيطان يرجع إلى اغتصاب وطنه وتشريد أهله إلى مخيمات المنافي حيث المجاري المفتوحة والمراحيض الجماعية والخيام التي لا تقي من برد ولا مطر، وحيث الانتظار الطويل لما لا يأتي، والأمراض السارية التي تقصف الأعمار قبل بدايتها. أبى ذلك الشاب إلا أن يبيض صفحاته السابقة، ويخلفنا وراءه ندبج المراثي، ونتأمل في دراما التحولات الإنسانية. فهذا لص سابق سلب مالنا القليل ثم عوضنا

مكتبة الربيعي أحمد

بحياته كلها في سبيل استرداد وطننا السليب! وهذا في المقابل زعيم وطني سابق أنفق عمراً في المقاومة وأخطأته الشهادة حتى أدركته حلاوة السلطة وغواية الثروة، فاستباح حقوق البلاد والعباد! وقد صح القول المأثور: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

أقطع عرض الشارع قبالة الدكان إلى الرصيف الآخر، وأقف متأملاً أرسل نظري نحو الأفق الشمالي. ثمة أرض واسعة مفتوحة مليئة بأشجار الزيتون، تنحدر من مكاني وتنتهي عند طريق بيارة راسم كمال الموازي، على حافة السهل الذي يمتد عرضاً حتى تلال قرية شويكة. ولأمر ما لا أدرك كنهه فإن وقوفي في ذلك الموضع والمنظر الممتد أمامي يتكرران في أحلامي كما لا يتكرر غيرهما، ويبعثان في نفسي من المشاعر الغامرة الجياشة ما لا يبعثه شيء آخر، حتى كأنني في حال من الوجد الصوفي. السهل والمدى المفتوح من جهة، والمدينة القابعة على التلة لا يتعرف أحدهما إلا بالآخر.

فحين أكون في السهل، أرسل بصري نحو المدينة التي تشرف عليه، وهنا في ذلك الموضع من المدينة أرسل بصري إلى السهل الممتد أدناها حتى حدود الخيال. الطبيعة أمامي وعمران البشر ورائي، إذا كنت في أحدهما تشوفت للآخر. وهنا أجد نفسي في موضع اللقاء بينهما وموعد العناق. فلي من المكان أحسن ما في العالمين. وكثيراً ما يحتال علي الوعي المطمور حين أبلغ هذا المكان في أحلامي، إذ يستتر الحلم الجاري في ذاكرة الأحلام السابقة ليخيل إلي أنه واقع. فلا يستدعي ذاكرة الأحلام السابقة إلا الواقع المتحقق في اللحظة الراهنة. فأراني في فضاء الحلم الأخير أحدث نفسي:

-أخيراً ها هي أحلامي القديمة المكرورة التي كانت توقفني على هذا المكان قد تحققت، وما كان حلماً صار واقعاً عياناً. فلأمسك هذه اللحظة الرائعة وأمتص رحيقها على مهل. فلطالما انتظرتها - بشوق عارم وحنين طاغ.

فإذا انتبهت من نومي كان علي أن أعبر طبقات فوق طبقات من فوضى الوعي، لأكتشف خدعة الأحلام التي تصنعها الرغبات القوية العميقة المحبطة!

ولكنني هنا الآن أخيراً، أملأ ناظري بالمشهد البديع، وأحدث نفسي على الحقيقة:

- ها هي أحلامي القديمة المكرورة قد تحققت أخيرا....

مكتبة الربيعي أحمد

ولكن، لابد لي أخيراً من متابعة الطريق نحو منزلنا. وإذ أمشي بضعة أمتار قبيل أن يبدأ شارع نابلس بالانحدار، أتوقف من جديد، أدقق البصر في وسط الإسفلت، بحثاً عن مسمار دق فيه مثنياً في تلك الأيام الخوالي. فقد غبر علي زمان كنت إذا بلغت ذلك الموضع بحثت عن المسمار حتى أجده. فهو علامة حادثة فاجعة رجت قلبونا رجاً ولبثت تلاحقني أعواماً متوالية. وما كنت أتوقع حقاً أن أجد تلك العلامة الآن بعد عشرات السنين. فما لا يفعله تقادم الأيام وتقلب الفصول بالشارع والمسمار، تفعله بلدية المدينة.

ولكني على الرغم من ذلك جريت على عادتي القديمة في البحث عن المسمار لأستكمل رحلة العودة إلى الماضي وأدراجه. فما شأن ذلك المسمار؟!

على بعد أمتار من بقالتنا القديمة في اتجاه الشرق صوب منزلنا، ثمة بيت سكنته أسرة من أقاربنا البعيدين: وكان الأب رجل أعمال موسر في الكويت. فرأى أن يرد أسرته للعيش في طولكرم بينما يبقى هو في الكويت يتابع أعماله ومشاريعه الكبيرة، ويأتي لزيارة أسرته بين الفينة والأخرى. لم نر قبل تلك الأسرة من ينفق إنفاقها، فالمال وفير وفرة لافتة. وكان ذلك من حظ بقالتنا. فالقرابة تملي أن تشتري الأسرة حاجتها منا. فكانت تغني عن عشر عائلات من «الزبائن». وكنا نعجب حين نرى أحد الصبيين من تلك الأسرة يخرج من جيبه من الدنانير ما لا يحمل مثلها الرجال، ثم لا يترك شيئاً تهفو إليه نفسه إلا اشتراه مرة واحدة بلا حساب. وأحسب أن الكبير منهما كان في زهاء الثالثة عشرة. وكان له دراجة هوائية فاخرة، فلا يكاد يرى إلا وهو يدرج بها مسرعاً على شارع نابلس، هبوطاً وصعوداً.

أضحينا في أحد الأيام مع الخبر الفاجع. صرع «يحيى»، صاحب الدراجة في حادث سير. كان ينطلق على عادته مسرعاً بدراجته الهوائية، وإذ انحرف عن طرف الشارع صدمته سيارة وهرست جسمه الغض!!

ما أزال أذكر نساء قرية «ذنابة» وآل سيف مقبلات نحو منزل الأم المفجوعة وهن يرتدين السواد، ويلوحن بالمناديل السوداء، ويذرفن الدموع، وينحن الميت بكلام موقّع، في مشهد بدا لي قادماً من كتاب التراجيديات القديمة، وكنت قد اطلعت على قدر منها في وقت مبكر؛ (والشكر من جديد لعبد الرحيم العلي صاحب المكتبة السمح). في موضع الحادث الجلل، دقّ بعضهم مسماراً مع ثَنْيِهِ على الإسفلت! كانت الخرافة تقول: إذا صرع

مكتبة الرمحي أحمد

الإنسان على حين غرّة قبل الأوان في حدث غير عادي فلربما ظهر شبح في موضع مصرعه، ويكون ظهوره في الليل، وما زال يطيف بالمكان دهراً لا يحسن أن يفارقه فيرعب سراة الليل إذا تراءى لبعضهم من حين إلى آخر. والخرافة تطلق على ذلك الشبح اسم «العمورة» أو «الونَس». فإذا دق مسمار في موضع الحادث مع ثنيه ، قيدت «العمورة» بقيد لا تنفلت منه لتطوف بالمكان، وضرب بينها وبين الناس حاجز لا تستطيع عبوره!! وهكذا كان من مصرع يحيى - رحمه الله - الذي لم يكن له من اسمه نصيب! فما زلت بعد ذلك كلما مررت بذلك الموضع، أبحث عن المسمار حتى أجده. ولئن منعت «عمورته» من الظهور والطواف بالمكان فإن صورة الغلام القتيل ظلت تطوف في ذاكرتي إلى زمن طويل.

إن مفهوم «العمورة» أو «الونس» لا يبتعد كثيراً عن مفهوم الشبح في الثقافة الغربية الشعبية، إذ الشبح يرتبط كذلك بالموت المفاجىء، في ظروف فاجعة أو ملتبسة، ولما يستوفي الميت بعض حاجاته الملحّة في وقت مصرعه. فلا تستطيع روحه أن تعبر البرزخ إلى الحياة الأخرى، ويظل متعلقاً بالمكان وقد التبس عليه حاله، حتى يعينه بعض الأحياء على التحرر من عبء السؤال عن ملابسات مصرعه، أو على استيفاء الحاجة الملحّة التي فاجأه الموت قبل استيفائها. إلا أن «العمورة» في خرافتنا، ليست روح الميت نفسه كما الشبح في الخرافة الغربية إنما هي كائن آخر من عالم مختلف. ولعلها أثر من معنى «القرين» في الاعتقاد الديني. ذلك ما كان من أمر ذلك المسمار الذي اختفى إلى الأبد بعد حين، واختفت معه الخرافة القديمة من عقول الأجيال الجديدة: كلهم أو جلهم!

5. على أعتاب الدار: حب في ظل الخيام

أخلّف طيف الغلام الصريع ورائي، وأبدأ في الانحدار على شارع نابلس حتى أصل إلى ما كنا ندعوه في طفولتنا المبكرة «سوق الدواب» قبل أن تقام عليه مدارس غوث اللاجئين: مدارس للذكور، وأخرى للإناث. ومدارس الإناث منها تواجه بيتنا مباشرة، و ليس بينهما إلا شارع المخيم الضيق الذي يلتقي بشارع نابلس عند بيارة «الحَمْدَ الله». على بعد أمتار من البيت نحو الشمال. هذه البقعة الواسعة من الأرض وما عليها من المدارس، تحيط بها الشوارع من كل ناحية: شارع نابلس يلتف عليها من الغرب والشمال، وشارع المخيم يحدها من الشرق، وشارع مستقيم يحدها من الجنوب ويصل ما بين شارع نابلس

مكتبة الربيعي أحمد

حيث أقف الآن وشارع المخيم، ويمر أمام مدارس الوكالة للذكور، وتمتد البيوت على جانبه الآخر.

كانت هذه الأرض سوقاً لبيع الماشية كل سبت، ولذلك عرفناها بسوق الدواب. فإذا جاء الربيع اشتعلت بخضرة العشب والنباتات البرية وألوان الزهور من البابونج إلى شقائق النعمان. وقبل أن نحيط منزلنا بسور إسمنتي مرتفع، لم يكن حاجز الأسلاك ليحجب عنا ذلك المشهد البعيد إذا جلسنا في حديقة المنزل. وقد تجتني منه أختي الكبرى بعض النباتات المخصوصة التي تصلح للأكل. وكان احتفال الألوان ذلك يتقابل بحدة مع كآبة المخيم المجاور. فما تجود به الطبيعة يذهب به جور الإنسان. ثم رأى البعض أن يفيدوا من الحجر الشيدي اللين الذي تكتنزه تلك الأرض. فحفروا فيه منجماً لاستخراج الشيد، كانت تعمل فيه بنات المخيم لقاء قروش قليلة. وإني لأراهن يدخلن النفق بسلال فارغة، ويخرجن بها ممتلئة. ثم أظهرنا في يوم ما على العويل الجماعي من المخيم يصفق الآذان ويخلع القلوب. انهار المنجم على من كان فيه! كانت مأساة كبيرة تردد صداها في نفوسنا زمناً طويلاً.

ونسبت إلى القضاء والقدر اللذين لا يذكرهما بعض الناس إلا حين يعوذون بهما من تبعات أخطائهم. ولا عزاء لأهل المخيم!

ثم بنيت مدارس الوكالة على قسم من هذه الأرض. وبقي سائرها خالياً من العمران. وفي زاوية منها تطل على السهل، حيث ينعطف شارع نابلس باتجاه بيارة «الحمد الله»، ثمة صخرة مرتفعة بعض الشيء،، اتخذتها لنفسي مقعداً، فأسرح ببصري في السهل الممتد، وأذهب في التأمل والتفكير وصناعة الأحلام، وأراقب رفوف الطيور في رحلتها صوب البحر. وأقسم وقتي هناك بين القراءة في كتاب الطبيعة، والقراءة في الكتاب المطبوع الذي يَصْحَبني دائماً، بين شعر ورواية وتاريخ وفلسفة ونقد أدبي. وفي وقت تال صار من عادتي هناك أن أتحوّل ببصري عن السهل أمامي إلى شرفة أحد البيوت من ورائي على حدّ الشارع الذي يمر أمام مدارس الوكالة للذكور إلى أن يلتقي بشارع المخيم الذي صار اسمه «شارع العودة». فإذا رأيت على الشرفة ما أتلهف على رؤيته امتلأت روحي بالسعادة وعرتني هزة «كما انتفض العصفور بلله القطرُ»!

مكتبة الرمحي أحمد

إذا كانت عواطفي الغامضة المبكرة نحو رفيقة الروضة، مما يشتبه تعريفه فإن عواطفي نحو فتاة الشرفة كانت حباً لا لبس فيه! فأنا الآن في الصفوف الثانوية، وقد أضافت القراءة والكتابة والنشر في الصحف إلى عمري أعواماً أخرى.

كانت الفتاة هادئة الملامح حسنة الوجه، يشع وجهها طيبة ونقاء ووداعة وحياء. وقد أحببتها حباً جارفاً ملك علي نفسي، وفجر فيها ينابيع الشعر. فكانت نظرتها الحيّية تضيء لي مطلع النهار. وطيف ابتسامتها يضيء مصابيح الليل. فإذا رأيتها تفتحت في روحي مواعيد الحياة، وامتلأت بعزيف الربابات، فأعود إلى بيتي وقد استخفني الطرب، محمولاً على جناح فراشة. وإذا غابت تجمعت فوق رأسي نذر الحياة كغيوم داكنة ثقيلة، وحجبت الطبيعة ألوانها، حتى أقول: ما لها؟! وبادلتني الفتاة حباً بحب. ومكثنا على ذلك حتى نهاية المرحلة الثانوية التي آذنت بالرحيل.

نعم، كان حباً لا لبس فيه! ولسوف يبقى طيف تلك الفتاة ماثلاً في ذاكرتي أبد العمر، حتى بعد أن انقضى ما بيننا عقب انتقالي إلى عمان للدراسة في الجامعة الأردنية. فتلاشى تدريجا دون إعلان كما تتلاشى الألوان مع تعاقب الفصول. غادر الطيف فضاء العشق الذي يمكن أن يتغير ساكنوه، على ما يجدون فيه أثناء إقامتهم من شعائر الاحتفال والاحتفاء ومشاعل الهيام والوله، وحل في ضواحي الذاكرة الجميلة التي تحتضن سكانها إلى الأبد، وتكرم مثواهم بلا ضجيج، وفيها متسع للجميع!

وإني لأذكر تلك الفتاة تمشي على استحياء ذاهبة إلى المدرسة أو عائدة منها، وقد ربطت جديلتها بشريطين أبيضين. وأذكر نظرتها الحيّية وابتسامتها الرقيقة لي، وأذكر سهر الليالي وأنا أتنوّر وجهها في منازل النجوم، أذكر كل شيء منها .... إلا شيئاً واحداً، لا قبل لي بتذكره أبداً.. ذلك لأني لم أعرفه أبداً كي أستدعيه من الذاكرة.. صوتها!

لعلك تدرك الآن لماذا ألححت على أن أؤكد ما حقه أن يستغني عن التأكيد، وهو أنه كان حباً حقيقياً لا لبس فيه! فقد كان كله عن بعد! لم نجلس يوماً معاً ولم نتبادل الحديث وجهاً لوجه، فلا سمعت صوتي ولا سمعت صوتها. كان حباً مكتوباً لا منطوقاً. وكان غاية ما في وسعنا من طرق التواصل تبادل الرسائل والنظرات والابتسامات، وأقرب ما نبلغه من اللقاء أن نتمهّل في السير إذا مر أحدنا بالآخر في الطريق، لنتبادل

مكتبة الربيعي أحمد

نظرة وابتسامة لا تفضيان إلى موعد فلقاء! فإن لم يجمعنا الطريق، ظهرت لي في شرفة منزلها إذ أعبر الشارع عنده من أجل نظرة أخرى وابتسامة أخرى أتزوّد بهما إلى اليوم التالي.

بلى كان حباً صامتاً، إلا من ضجيج القلوب ومعازف الوله وبلاغة النظر وفصاحة الرسائل المعبّأة بالشعر والمشاعر! وما كان المجتمع الكرمي المحافظ ليبيح لنا أكثر من ذلك، بل ما كنا لنسمح لأنفسنا بأكثر منه في ذلك الحين ولو قدرنا. وهو، حتى مع الاكتفاء بالتراسل عن بعد، كبير عند جلّ الناس في مجتمع يؤثم الحب بإطلاق، فلا يشفع له العفاف وانعدام المخالطة وحفظ المسافات. فكان مما ينال من سمعة الفتاة أن يقال فيها: إنها «تصاحب»، وقد يقال بدلاً من ذلك: إنها «تراسل». والكلمتان في معجم الناس من المترادف. ولذا فإن علاقتنا تلك، وإن كانت كلها عن بعد، ما كانت لتنجو من كلام الوشاة والرقباء، وما كانت لتعاب بغلبة الجبن، وإنما بغلبة الجرأة! وكان من صدق الفتاة ونقاء أخلاقها، أن رأت أن تصارح أمها يوماً، كي تتبرأ من عيبة الخفاء ومظنّة الكتمان. وما هي حتى عرف أهلها جميعاً. فكان لهم من العقول المستنيرة ومن الثقة بأخلاق ابنتهم وبسمعتي وسمعة بيتي ما جعلهم يغضّون الطرف. وقد حملوا العلاقة المنضبطة على محمل الجد، لعلها تؤدي إلى زواج في الوقت المناسب؛ إلا أن ذلك كله لم يبح لنا أن نتجاوز الرسالة المكتوبة والنظرة والابتسامة إلى موعد فلقاء!

أكاد أرى طيف ابتسامة ساخرة، وهزّة رأس مستخفة! أي حب هذا الذي لا لبس فيه، وما كل ذلك الكلام عن نظرة تضيء مطلع الفجر، وابتسامة تنير مصابيح الليل وعزيف الربابات ملء الروح، والطيران على جناح فراشة. وينابيع الشعر والشعور، ولم يكن ثمة لقاء مباشر ولا سلام ولا كلام حول شموع موقدة؟! إنما هي أوهام المراهقة، وخداع الرغبات المحرمة حين تتخفى في ثياب العواطف المتسامية.

فليقل من شاء ما شاء في مثل هذه التجارب. فمنذ كان الذكر والأنثى، كانت عاطفة الحب بينهما قسمة بين الطبيعة البدائية الفجّة، والثقافة الإنسانية الاجتماعية المركبة. بين الطين والحمأ المسنون، والروح الطامحة إلى السمو في معارج النور، طبقات بعضها فوق بعض، فأولها غريزة البقاء، بحفظ النسل والتوالد. فهذه غاية الطبيعة من الزوجية، ووسيلتها الغريزة الجنسية التي يتجاذب بها الزوجان الذكر والأنثى. وهاتان الغريزتان

مكتبة الرمحي أحمد

تعملان في الإنسان وسائر الحيوان على سواء. ثم يتركب عليهما في الإنسان ما يختصّ بإنسانيته: العواطف الجميلة الموجعة التي نسميها الحب، وما يصحبها من رعاية وحنان وتواصل وتفاهم وشراكة؛ ثم الثقافة والأخلاق والتنظيمات الاجتماعية التي تحكم العلاقة وتضبط جموح الطبيعة أن تنفلت وتطغى على حساب العمران البشري. وذلك كله يشتغل في فضاء الوعي والإرادة والحرية والمسؤولية. والأصل فيها جميعاً أن تسمو بالإنسان فوق سائر المخلوقات. ولكن المفارقة المتأصّلة في الشرط الإنساني أن ما أصله أن يسمو بالإنسان، يمكن أن يجعله الإنسان سبب شقائه وانحطاطه. ومناط ذلك الإرادة والخيارات الأخلاقية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:7-10].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ [التين:4-6].

لا يخطئ الحيوان الذي تحكم الغرائز سلوكه وتنظمه دون خيار منه، فالذكر الأصح والأقوى يفوز بالإناث دون غيره. وبذلك تضمن الأنثى ألا يستقر في رحمها إلا أفضل الجينات، ويضمن الذكر الأول أن يوزّع جيناته المتفوقة على أكبر عدد ممكن من الإناث، ليعيد إنتاجها في نسله. فيكون البقاء للأصح والأقوى. وليس في ذلك فجور ولا تقوى، ولا تزكية للنفس ولا تدسية.

أما الإنسان فقد ألهم كليهما: الفجور والتقوى، وله أن يزكي نفسه إن أراد، فيسمو بإنسانيته، وله أن يدسّيها إن شاء فينحط بها أسفل سافلين.

فإذا تحررت الغرائز البدائية من العواطف التي تسمو بها، وانفلتت من المعايير الأخلاقية والاجتماعية والثقافية التي تنظم عملها طغى الإنسان وجار وشقي وأشقى، وانحط من التقويم الأحسن الذي خلق فيه، إلى أسفل سافلين.

وإذا كان معيار الانتقاء في تزاوج الحيوان، ينحصر في تفوق الذكر الجسدي، فإنه في عالم الإنسان أشد تعقيداً. ففضلاً عن الجانب الصحي والجسدي، هناك قوة العقل وحسن

مكتبة الربيعي أحمد

الخلق والخلقة، والمركز الاجتماعي، والحسب والنسب، والوضع المادي. فكل هذه تدخل في اعتبارات المفاضلة. ثم يزيد عليها ما يصعب وصفه وتفسيره إلا بلغه الاستعارة والمجاز، فبعضهم يسميه كيمياء الجاذبية بين الذكر والأنثى، وبعضهم يسميه ذبذبات التجاذب، وآخرون يسمونه الشرارة.

فهل يضمن اجتماع هذه كلها للألفين أن تنتهي حكايتهما على نحو ما تنتهي الحكايات الخرافية البديعة: وعاشا في ثبات ونبات، وخلفا صبياناً وبناتاً.. وفي الإنجليزية ما معناه وعاشا بعد ذلك في سعادة دائمة؟!

ولكن الحياة ليست حكاية خرافية. فشرط الإمكان للسعادة والمودّة والتراحم والسّمو والسكن، هو نفسه شرط الإمكان للشقاء والتباغض والأنانية والانحطاط!

قد تذهب شعلة الوله بعد حين من اجتماع الألفين. وهي بطبيعتها قصيرة الأجل، تغذيها الرغبات الجائعة، والتلهف على القريب البعيد، وضعف الشعور بالأمان، ومخافة التغيّر والفقدان قبل بلوغ الغاية وقبل أن يقضي القلب لبابته. فإذا سكنت هذه كلها وقضيت الأوطار، وذهبت شعلة الوله الحارقة، ربما أعقبها دفء الحب الهادئ والمودة العميقة والرحمة المقيمة والعشرة العزيزة وشراكة الحياة والذاكرة. وقد يذهب ذلك كله معاً فكأنه لم يكن. وأقسى من ذهابه أن يحل محله المقت والتباغض وحروب الجنسين الطاحنة، إذ تطغى النزعات الأخرى: نزعات الهيمنة والأنانية وإلغاء الآخر، تغذيها ثقافة ذكورية تجعل الذكر ذاتاً والأنثى موضوعاً. أما التنظيمات الاجتماعية والقيم الثقافية التي يفترض بها أن تهذب السلوك وتسمو بالغرائز وتصون العلاقات فيمكن أن تنقلب إلى ضد غايتها، فتطغى على الفطرة التي فطر الله عليها الناس، وتجور على الفرد وتصادر حيزه الشخصي الخاص، وتقهر فرديته وتقمع استقلاله وتحاصر عواطفه، حتى يزدحم حيز الألفين بالشركاء! وكل ذلك يتواطأ على اغتيال المحبة.

ولست تجد شيئاً من هذا في عالم الحيوان. ولذا كان الإنسان في أصل فطرته أكرم الكائنات، وبيده أن يرتد أسفل سافلين، فيكون كالأنعام، بل أضل سبيلاً!

هل ترى الآن لماذا كان الحب قسمة بين الطبيعة والثقافة؛ بين الجسد والروح، أصله في الغرائز الأولية البدائية، وفرعه في سماء الشعر والأدب والفنون والفلسفة، ولماذا

مكتبة الربيعي أحمد

كان حالة يعيشها الناس على اختلاف ثقافتهم ومستوياتهم المعرفية، ثم يستعصي على التعريفات والتفسيرات والتأويلات؟! فإن شئت أن ترده إلى الغرائز البدائية لم تجاوز الحقيقة، وإن لم تبلغ الحقيقة كلها، وإن شئت أن تنسبه إلى العواطف المتسامية، لم تجاوز الحقيقة أيضا، وإن لم تبلغها جميعاً. ولك إن شئت أن تؤصله في أنانية الجينات الساعية إلى إعادة إنتاج نفسها، فيكون ظاهره حب الآخر وباطنه حب الذات. ولك في المقابل أن ترى فيه أعظم تجلٍّ لفناء الذات في الآخر! فهو مجمع الأضداد: أبسط ما في الوجود الإنساني وأعقده. وبين بساطته وتعقده مدى مفتوح لما تبثه القرائح المسكونة به: من أبسط أغنية شعبية إلى أرفع الشعر والأدب والفنون والفلسفة! فما زال الحب يمد هذا وذاك بمعين لا ينضب أبداً، وبمعانٍ لا ينقضي إدهاشها ولا تخلق مع طول الرد.

أكل هذه التداعيات في طبيعة الحب لأجادل عن صدق حبي لفتاة الشرفة التي لم أسمع صوتها يوماً؟ وما ضرني أن أمضي مع القائلين: «كان وهماً من أوهام المراهقة»، وقد انقضى كله وصار أثرا من الماضي، وخلفت من بعده تجارب أخرى، حتى بلغت سكني ومستقري ومستودعي في شريكة عمري وأم أبنائي! بلى يضرني من ذلك خيانة ماضي العواطف بأثر رجعي، إذ يعاد تعريفه على غير ما كان في حينه. فأن تنقضي علاقة الحب شيء، وأن يعاد تعريفها بما يلغيها شيء آخر. فهو عدوان على شطر من الذاكرة، ومصادرة لجزء من السيرة، وظلم للذات، وأقبح من ذلك أنه ظلم لفتاة الشرفة نفسها. فهل يكون جزاء عواطفها النبيلة نحوي التي رجحت خوفها من مقالة القائلين في مجتمع شديد القسوة على العاشقين، وحملتها على أن تصارح أهلها بها على ما في ذلك من مجازفة، هل يكون جزاء تلك العواطف الجميلة أن أكذبها الآن بعد خمس وأربعين سنة أو يزيد، ولأجرّد صاحبتها من المعاني العاطفية التي تستحقها في مستودع الذاكرة، وهل من الإنصاف لكلينا أن أسقط القيمة الرمزية لذكرى ساعات التلهف والوجد وسهر الليالي وضجيج القلوب ووجع الترقب والانتظار، وتدفق القريحة بالشعر؟ إن لم تكن هذه تجليات الحب الحقيقي الذي لا لبس فيه، فما يكون؟

لنا أن نصنف علاقات الحب على وفق معايير مختلفة لا تتعلق بطبيعته وحقيقته، ولكن بما يحيط به من ظروف: واقعي ترجى مآلاته، وغير واقعي لا أمل منه، عذري وغير عذري، ناضج وغير ناضج، عقلاني وغير عقلاني ونحو ذلك مما لا يغير في طبيعته

مكتبة الربيعي أحمد

وجوهره واسمه الذي أسماه صاحبه به، فهو أجدر بتعريفه، وما تعريفه إلا ما أحسّ وكابد. ودع عنك زخارف القول وولع الكتاب بالمفارقات البلاغية. فهذا يقول: حبك الأخير هو حبك الأول، وذاك يقول: ما الحب إلا للحبيب الأول. وقديماً عزلت زخارف البلاغة وإغراء الجناس قاضي «قُم»، إذ وقع الخليفة كتاباً إليه بدأه بالقول: «أيها القاضي بقم...» ثم راود الجناس فأعياه حتى لم يجد إلا أن يكمل: «قد عزلناك فقُم»! فالبلاغة يمكن أن تضلل من حيث تريد أن تبين. والحق المبين في أمر الحب الأول والثاني والأخير، أنها جميعاً حب في وقته. فالحب الأول هو الأول، والثاني هو الثاني، والأخير هو الأخير. ولا يَجُبّ التالي منها حقيقة السابق، وإن حلّ محلّه. أما مجاملة الحاضر بشطب الماضي، فيبطن عدم الثقة بالحاضر وينذر بأن يكون مصيره كمصير الماضي! وما هو كذلك عندي.

من أجل ذلك كله، أراني الآن أنظر إلى الشرفة القديمة الخالية إلا من طيف الذكرى، فأجدني أطرق هامتي إعزازاً وتمجيداً وشكرا لكل النساء اللواتي عشقت، وأرفع لهن نشيد الحياة الذي ترتله عرائس الشعر في هيكل الحب. فقد أسهمت كل منهن في كتابة عمري وسيرتي وشعري، وهو ما لا يمكن أن يسلبني إياه أحد أو شيء، إلا أن يسرق ذاكرتي وكتاب حياتي. وما هو بفاعل.

ها قد صرت قاب قوسين أو أدنى من منزلنا. ها هو المخيم الذي يجاورنا، والذي تفتح وعيي على عذاباته منذ مطالع الخمسينيات فصار عنواناً لمأساة شعبي ووطني، وظل مستودع الذاكرة الجمعية الفلسطينية وحارسها وحاضنة المقاومة. وما زال منذ كان الشاهد والشهيد.

ليس بينه وبين سائر المدينة إلا شارع العودة. ولكن، بينه وبين أهل المدينة العودة نفسها! وطريق العودة إلى القرى الضائعة طويل طويل، تعترضه عواصم الامبراطوريات العظمى، وعواصم الوكلاء المحليين، وما لا يحصى من الدبابات والطائرات والعساكر التي تتوزع بين الغزاة من أمامك، والطغاة ذوي القربى من ورائك. فلا تدري على أي جانبيك تميل.

وسوى الروم من ورائك رومٌ   فعلى أي جانبيك تميلُ

مكتبة الرمحي أحمد

بلى، بين المخيم وأهل المدينة مسافة بطول مسافة العودة. والشارع الضيق الذي يفصل بينهما وتقطعه في بضع خطوات هو الفاصل بين عالمين متفاوتين، على أحدهما أن يواجه وصمة التشرد واللجوء القسري. بلى، الكل فلسطيني. والحماس الوطني لا يختص بأهل المخيم، والقضية أكبر من أن تكون قضية لاجئين، والفقر لا يستوطن المخيم وحده، وإن كان حظه منه أكبر. وأهل المدينة لا يبخلون على أبناء وطنهم المشردين بما يستطيعونه من الرعاية والمساعدة... على أن تبقى المسافة بينهما ثابتة على حالها، وأن تظل العلاقة بينهما علاقة اليد العليا باليد السفلى!

- إياك ومخالطة أبناء المخيم، فتفسد أخلاقك.

- هذه أخلاق أهل المخيم.

- ما لكم تتصايحون تصايح أهل المخيم.

لا عزاء للمنفيين حتى وهم منفيون في أوطانهم!

أعتذر لأهل مدينتي التي أحبها حبا لا مزيد عليه، إذ أكشف بعض المسكوت عنه، مما يحوك في الصدر ونخشى أن يطلع عليه الناس. وذلك تعريف الإثم. وقد آن أوان التطهر منه، بالاعتراف به أولاً، والاعتذار وطلب الغفران ثانياً. والمخيم جدير بذلك بعد أن استرد كرامته بدماء الشهداء، وألوف القادة والموهوبين والعلماء المرموقين الذين كان عليهم أن يقطعوا أضعاف المسافات التي يقطعها غيرهم، ليبلغوا وإياهم الغاية نفسها.

هنا في المخيم ما زلت تسمع أغاني الحصادين القديمة، يرددها أبناء الجيلين الثالث والرابع الذين لم يدركوا شيئا من حياة أجدادهم في القرى التي أخرجوا منها، ثم مسحت عن الوجود، ولكنها لم تمسح من الذاكرة الموروثة. فإذا سألت أحدهم: «من أين أنت»؟ فالأرجح ألا يقول: «أنا من مخيم طولكرم»، وإنما ينسب نفسه إلى القرية التي هُجّر منها آباؤه. فما إن حرموا من العيش فيها، حتى صارت تعيش فيهم، حيث لا تستطيع جرافات العدو أن تزيلها مهما كثرت و تعاظمت وعلت في الأرض.

وقد لعبت قيود المكان دوراً عظيماً في حفظ الذاكرة الجمعية. فأهل المخيم يتكاثرون جيلاً بعد جيل، ومساحة المخيم لا تزيد. ومن يخرج منه أقل عدداً ممن يولد فيه. فكان على

مكتبة الربيعي أحمد

الأجيال أن تتجاور في حيّز ضيّق. وعلى ما في ذلك من شقاء، فإنه خلق المزيد من فرص التواصل والتفاعل وتبادل الخبرات بين الأجيال، ويسّر انتقال الذاكرة من جيل إلى جيل. فهنا ما زلت تسمع أهازيج الشاعر الشعبي «نوح إبراهيم» في وقائع ثورة الثلاثينات ضد الانتداب البريطاني ومشروعه الصهيوني، وهنا ما زلت تسمع مراثي شهداء الثلاثاء الحمراء في أواخر العشرينات: فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم، الذين أعدمهم الإنجليز في سجن عكا. وهنا «الميجنا» و «العتابا» باقية متجددة تجدد الحياة والأمل.

تزاحم السكان في حيز المخيم الضيق ،وتلاصق البيوت الواطئة، والافتقار إلى الخصوصية ، وانعدام الخدمات العامة والتنظيم العمراني وحرية الإنسان في اختيار جيرانه، وضغوط الفقر والجوع والتشرد، كان من شأنها جميعاً أن تخلق فرص التنازع والتدافع والتدابر والتشاحن والشجار. وهذه بدورها أسهمت في التأسيس للصورة النمطية الظالمة للمخيم وأهله. ولكنك حين تقيس هذه الأعراض الجانبية بأسبابها البنيوية المرعبة تجدها أقل بكثير مما تصنعه تلك العوامل في العادة. ولعل القيم الدينية وأخلاق القرية قد أسهمت بقدر كبير في كبح السلوك وتقليل الأضرار، حتى كانت الجرائم نادرة. وفي المقابل، فإن ظروف المكان نفسها التي تولد فرص التنازع، ما لبثت أن جعلت المخيم بمثابة العائلة الكبيرة الممتدة التي تتقاسم الأفراح والأتراح، فإذا ناح حمام الدار جاوبه حمام الجار، ومن بكى أبكى واستبكى، وساعة الفرح النادرة شركة بين الجميع. والشراكة في الأحزان تقللها والشراكة في الأفراح تزيدها. وليس على الفاقد أن ينعى فقيده في الصحف ليعلم الناس فيأتوه للعزاء، فالميت فقيد الجميع. ولا ينتظر الناس دعوات الأعراس لحضورها والمشاركة في دبكاتها وأهازيجها على أنغام «اليرغول» و «الشبابة» القادمة من ذاكرة كنعان. وهي إن كانت مناسبة للفرح فلابد أن تخالطها الأحزان. فالفرح يستدعي ضده ، حين يذكر بما فوتت المصائب من أسباب كماله: عزيز قريب خطفه المنون قبل أن يشهد هذا اليوم، وبلاد ضائعة كانت أولى بهذا الفرح وهو أولى بها. فترى المرأة تطلق الزغاريد ودموعها تنحدر على خديها، وملامح التعاسة تنبئ أنها ليست دموع الفرح، ولكنها دموع الحزن على الغائب عن المشهد، وكان حقه الحضور.

ولكن، ما بال المخيم يحتفظ باسمه القديم المشتق من الخيمة، بعد أن خلعت الخيام وحلت محلها بيوت القصدير أولاً ثم بيوت الإسمنت منذ زمن بعيد؟! لعله الإصرار على حلم العودة. فالمخيم بطبيعته طارئ عارض مؤقت وليس مأوى دائما وإن طال الزمن.

مكتبة الربيعي أحمد

فمن يحق له بعد ذلك أن يغتال الحلم ويتنازل عن حقوق العودة لملايين اللاجئين؟ وما الحلم الفلسطيني الذي تولى سفارته الشعر والأدب والفنون، إذا أسقط منه حق العودة؟ هل يذهب الحلم مع الريح وتبقى النصوص واللصوص؟! هل يغيب المرثي من الذاكرة وتبقى المراثي التي رفعت له؟ هل ينحسر الظل العالي وتبقى مدائحه؟ وهل سقط الشهداء ليوفروا لنا الجلد الذي ندون عليه أشعارنا، ومداد الدم الذي نكتبها به، ثم إذا فرغنا من ذلك اجتهدنا وسعنا أن نغربها عن مصادرها، كي تكتسب هوية «عالمية» تؤهلنا لعضوية منتدى لا يسمح ـ ـضائه باصطحاب الشهداء! هل يصير الشعر أكبر من الوطن الذي انبثق من أحلامه وأوجاعه؟ وهل يصير الوطن عبئاً على طموح الشعر في التجوال في عواصم العالم؟ وهل نرضي أن تكون كل البلاد بلادنا إلا بلدنا؟!

لم يفوض اللاجئ أحداً بالتصرف بحلمه والمقايضة عليه. والسفارة للحلم هي على شرط صاحب الحلم. العودة في آخر المطاف أو هي القيامة!

أدركت المخيم إذ هو خيام. ورأيت الريح تعصف بها ثم تطيح بعضها على رؤوس سكانها. وشاهدت المطر يتحول من غيث إلى سيل من العذاب. ولكم تناهى إلى منزلنا المجاور أنين الموجوعين وعويل الثواكل والمفجوعين. ورأيت الأطفال شبه العرايا يتلقطون من الأرض ما يتلقط الطير، إلا أن الطير يسيغه دون الإنسان حتى يسيغه له الجوع الكافر. ولقد أتى علي حين من زمان الطفولة المبكرة، كنت أحسب فيها أن نوى التمر من مكونات الأرض، شأنه شأن التراب والحصى، لكثرته في كل شبر من الأرض. ثم أدركت لاحقاً أنه من أثر التمر العراقي الذي كان يصل لنجدة المنكوبين بعيد التهجير القسري. وشهدت الناس يتزاحمون على حصصهم من مساعدات وكالة غوث اللاجئين ثم يبيعون بعضها بأبخس الأثمان ليسدوا ثغرات أخرى من حاجاتهم الأساسية. وسمعت بعض الظرفاء من شباب المخيم يستعين على الشقاء بالسخرية، فإذا أراد أحدهم أن يحلف على شيء أقسم بالله أولاً ثم بـ «كرت البطاقة» ويعني بطاقة وكالة الغوث التي تؤهل لتسلم المؤونة الشهرية الشحيحة. وشهدت كذلك تزاحم الصبيان والبنات على «بقج» المعونة الأمريكية التي تضم ثيابا مستعملة تبرع بها أصحابها. وكل وحظه. فتقارن العائلة بين حظها وحظ جارتها، ويتدافع أهل البيت وهم يقلبون محتوى «البقجة» ليرى كل منه ما يصلح له. وقد ترى أحدهم بعد ذلك وقد ارتدى ما يضيق عليه أو ما يزيد على قياسه. فذلك أصلح ما وجد

مكتبة الرمحي أحمد

لنفسه التي تأبى أن تخرج من «المولد بلا حمص»! وحدثني صديق بعد حين من الدهر، أنه حين كان صبياً جاء المدرسة يرتدي «بيجامة» مخططة يظنها «بذلة» جادت بها «بقجته»! ولم يشفع له جهله عند المعلمين، فإن كذبوه فجزاؤه الضرب، وإن صدقوه فالهزء والسخرية.

ولا عزاء للمحرومين!

هذا الجحيم كله، بينما الفردوس المفقود على مرمى البصر وراء خط الهدنة. تدركه الأبصار ولا تدركه الأقدام. وهو ما يجعل الجحيم جحيمين. فأشد ما يكون الظمأ والجوع حين يصير الماء والطعام تحت يديك ولا تملك أن تصيب منهما. على أن بعض رجال المخيم بعيد التهجير، لم يستطيعوا مقاومة النداء السحري القادم من الفردوس غرب خط الهدنة، فجازفوا بالتسلل إليه تحت جنح الظلام ووصلوا إلى مزارعهم وبياراتهم المسروقة، وعاد من عاد منهم بأكياس من ثمار الجنة. لم يكن الجوع، دافعهم الأول. فالخطر المتربص هناك أعظم منه. ولكنه الحنين الآسر، وربما إثبات الشجاعة التي أهدفها النفي للتهمة، وربما رغبة الموت التي يولدها الشقاء والضياع والغربة. وإني لأتخيل أحدهم وقد صار في الأرض التي يحفظها عن ظهر قلب وكانت مرتع صباه ومنبع كرامته، فيملأ صدره بعبيرها وسمعه بمواويلها التي تستعصي على الترجمة، ويتلمس أشجار البرتقال الحزين كالمسحور كأنه يتلمس روحه وأرواح آبائه وأجداده. فالأرواح لا تغادر منابتها!

عاد الأوائل يقصون القصص ويهيجون العواطف ويزيدون الحنين ضراماً. ثم توقفت المحاولات حين ذهب آخرون ولم يعودوا إذ سقطوا عند عتبة الدار! وآثر العدو أن يقذف بجثث آخرين شرق خط الهدنة، وقد شقت بطونهم وحشيت بالبرتقال ليكونوا رادعاً لمن تحدثه نفسه بزيارة داره وقطف ثمره، أو حتى أن يدفن في أرضه.

كنت أجلس في بقالة الوالد الجديدة التي بناها في طرف من حديقة المنزل، بعد أن هجر القديمة التي تعرضت للنهب. وكان يزوره فيها بعض رجال المخيم، فيجالسونه وقتاً يتبادلون فيه الحديث، وجله عن «أيام البلاد» وقصص التهجير وذكريات ثورة الثلاثينيات ونوادر من تجارب الحياة المتقلبة.

كان الكلام ينطبع في روحي وتتشخص الصور في وعيي حتى كأني عشتها مع من عاشها، وحتى كأن الذكريات ذكرياتي، وأنا الذي لم يدرك الفردوس المفقود، وما ولدت

مكتبة الربيعي أحمد

إلا عام فقدانه. ولكنني لن أدرك مدى التأثير العميق التي تركته تلك الشهادات العفوية في نفسي إلا بعد زهاء ربع قرن حين شرعت في كتابة مسلسل «التغريبة الفلسطينية»، فانبعثت تلك الشهادات والصور والحكايات من مستودع الذاكرة لتدخل في نسيج العمل وبنيته السردية. ولا أراني أبالغ إطلاقاً إذا قلت: إن شخصيات النص وخطوطه السردية الدرامية قد استقلت عن خيارات كاتبها بعد شوط من الكتابة، لتفرض وجهتها وتطورها وتحولاتها عليه. ولعل تلك المصادر الإنسانية الواقعية هي التي أعانت على تشخيص الذاكرة الفلسطينية بتفاصيلها الحية، فلم يجد المشاهدون الفلسطينيون فيها رواية قضيتهم العامة فقط، بل كذلك رواياتهم الشخصية في إطار الرواية العامة، وكأنهم يعيشونها من جديد بكل آلامها وأحزانها وآمالها، حتى اتخذت ردود الفعل نمطاً مكروراً، فالكل وجد نفسه حاضراً في موضع ما من الأحداث والمواقف. فهذا يقول: كنت هناك، وذاك يقول: تلك أمي أو جدتي، أو ذاك أبي وذاك عمي. ولم أتأثر بشيء كما تأثرت بموقف روي لي عن عجوز طاعنة في السن، كانت تشاهد العمل مع أهل بيتها. وكان أحد أبنائها قد ودعها وخرج مجاهداً في عام النكبة ولم يعد. ومكثت على أمل عودته دهراً بعد نزوحها، حتى أبلت الأيام آمالها. فلما بلغت في المشاهدة الحلقة التي تصور النزوح القسري، ورأت جموع المهجرين في الطريق إلى المنفى، التبس عليها الأمر، فلم تعد تميز بين الواقع وروايته، ولا بين التشخيص الدرامي والمادة الإخبارية المصورة، وسقطت في وعيها، الذي أبلاه العمر والأسى المتطاول، فواصل الزمان والمكان، وإذ بها تقول لولدها الذي كان يشاهد معها:

- دقق النظر في هؤلاء النازحين. لعلك ترى أخاك بينهم!

وكانت تلك شهادة أغنتني عن كل الشهادات. وما كنت لأحصلها لولا تلك الشهادات التي سمعتها في طفولتي وصباي من أهل المخيم في المقام الأول. وما كانوا يعلمون في ذلك الحين أنهم يدونون في وعيي و وجداني المسودة الأولى لنص «التغريبة»، فكان المخيم في مركز السرد، شاهداً و شهيداً، وبطلاً جمعياً كما ينبغي له. وكانت كتابة العمل فرصة عظمى لأرفع إلى المخيم ما يستحقه من التقدير في الوجدان الفلسطيني، موصولاً بالاعتذار نيابة عمن ظلموه بتلك الصورة النمطية الآثمة.

وما كانت تلك الصورة النمطية لتردعني عن صحبة «أولاد المخيم».

مكتبة الربيعي أحمد

لم يكن بيتنا بيت غنى ووفرة، ولا كان بيت فقر وحاجة. فقد كنا نجد الطعام على البساط أو الطاولة. وكان بيتنا الصغير من حجر تحيط به حديقة مزروعة بالأشجار المثمرة وتطوقها أشجار السرو العالية. وكنا نزرع فيها بعض الخضار الموسمية كالبندورة والبطاطا والبصل والنعناع والبقدونس. ونربي فيها حماماً ودجاجاً وأرانب من حين إلى آخر. ولنا أرض أخرى خارج المدينة تمدنا بالزيت والزيتون. ولا يخلو البيت من خزين الزعتر والجبن النابلسي الأبيض. كان الحال مستوراً كما يقال، ولكن الفاقة التي تجاور بيتنا جعلتني أحس أننا نعيش في ترف مخجل على سبيل المقارنة.

ومع ذلك كان ثمة ما أغبط صبيان المخيم عليه: الخشونة التي يخلفها شظف العيش. والخشونة في مذهب الصبيان الذكور ترادف القوة والإقدام. فكنت أحرص على أن أخفي عنهم ما يعد بالمقارنة ترفاً، وأن أخالطهم مخالطة الند الذي لا يحجم عن عراك فرض عليه، ويصبر على ما يصيبه منه، إذ ذاك من عزم الأمور. وكنت إذا خرجت معهم للعب كرة الشرائط، أخلع صندلي وأمشي وأركض حافياً، وذلك عند أبي من الكبائر، حتى غلظ باطن قدمي، فلا يضرهما ما ينغرس فيهما من حصى ومعدن مدببين.

والطفولة قادرة على إبداع ألعابها مما تمنحه الحياة مجاناً، حين يعز ما يشترى بالمال. فكان صبيان المخيم بارعين في صناعة العربات من الأسلاك المعدنية، يأخذونها من الأسلاك الشائكة التي خلفتها معسكرات الجيش العراقي الذي شارك في حرب عام النكبة. فكانوا يجردونها من الأشواك المعدنية، ثم يطرقونها حتى تستقيم، ثم يصنعون منها عربات على هيئة السيارات والحافلات والشاحنات، ويتفنن بعضهم في الحجم والطراز، ويتنافسون بما صنعت أيديهم.

وبرعوا كذلك في صنع الزلاجات الخشبية، إذ يأتون بلوح خشب مما يعثرون عليه، فيركبون عليه عجلات، وقد يصنعون له مقوداً ثم يضعون قدماً عليه ويضربون الأرض بالأخرى فينزلق بهم على الطرقات. وطوروا مهارات عالية في صنع أناشيط قذف الحجارة التي كنا نسميها المقاليع، يتنافسون بها على إصابة الهدف ومسافة الرمي، ومثل ذلك شعبة الصيد التي يتخذونها من فروع الشجر، ويركبون عليها شريط المطاط، وفي وسطه رقعة تشد إليه الحصاة، ثم يشد الشريط إلى أقصاه ويسدد الرامي ثم يفلت الشريط ويطلق الحصاة إلى الهدف، وهو في العادة عصفور.

مكتبة الرمحي أحمد

بعد سنين سيتحول الحجر بيد الطفل الفلسطيني إلى سلاح للمقاومة، وقد ورث من آبائه مهارة استعماله باليد أو شعبة الصيد أو المقلاع، ليواجه به جنود الاحتلال المدججين بالسلاح حتى أسنانهم، فلا يقاتلون إلا من وراء جدر مشيدة من وسائل القتل الفتاكة.

حين كبرنا عن تلك الألعاب، صرت أرافق أصحابي إلى مركز الشباب الاجتماعي الذي أنشأته وكالة الغوث في المخيم، لممارسة الأنشطة الرياضية والثقافية. وإذ صرنا بالسنة الثانوية الأخيرة، أعلنت الوكالة عن مسابقة للشعر والقصة القصيرة يشارك فيها من شاء من أبناء المخيمات المختلفة في الضفتين عبر مراكز الشباب الاجتماعية تلك. ولما كانت المسابقة محصورة في أبناء المخيمات لم يكن بوسعي أن أشارك فيها. فاقترحت على أحد رفاقي من أبناء المخيم أن أمده بقصيدة وقصة قصيرة يشارك بهما. فإذا فاز بأيهما كانت الجائزة المالية قسمة بيننا بالسر. وقد فاز فعلاً بالجائزتين معاً: جائزة الشعر الأولى، وجائزة القصة القصيرة الأولى. وتوالت عليه التهاني والمدائح، وصار فخر المخيم ومركز الشباب. أما أنا فتوزعت مشاعري بين الاعتزاز الذاتي بفوز قصيدتي وقصتي، والضيق من انصراف الفضل إلى غير أهله. وما كان لي أن أطلب من صاحبي أن يعلن بالسر فيبور سعينا معاً. ولكني في المقابل لم أتوقع منه أن ينخرط بالدور حتى يتماهى معه، فينسى أو يتناسى ثنائية الحقيقة المستخفية و الوهم المستعلن على الأقل في ما بيننا. فكأنه أحس أن إثبات النصين لنفسه لا يكتمل إلا بإنكاري والتنكر لي على الجملة. وإذ به يستدبرني ويقاطعني تماماً كأننا لم نكن يوماً صديقين. ومضى يستمتع بغوايات الشهرة المؤقتة ولو في نطاق المخيم المحدود. وبالطبع، لم يكن من الصعب أن يستنتج رفاق آخرون من المخيم نفسه أنه ليس صاحب النصين، فقد كان صديقاً لصيقاً بي، وكنت قد صرت أديباً معروفاً ينشر في الصحف، وهو لم يكن قد عرف بشيء من المواهب الأدبية. فالحسبة إذن بسيطة، وربما أعنت عليها بشيء من التلميح الذي استحللته بعد الذي رأيت من جحود ذلك الفتى.

ليس المخيم وطن الملائكة، ولا وطن الشياطين، شأنه في ذلك شأن سائر الأمكنة والبيئات. إنما هو كغيره موطن للبشر! وكفى بذلك مدحاً، وكفى به ذماً!

كان على اللاجئ أن يوزع أحلام الخلاص بين غايتين معاً: العودة واسترجاع الوطن السليب من ناحية، وتحسين مستوى معيشته من ناحية أخرى.

مكتبة الربيعي أحمد

وقد أدرك منذ وقت مبكر، مع سائر الشعب الفلسطيني أن التعليم هو الوسيلة الأولى لإدراك الغاية الثانية، حتى صار الاهتمام بالتعليم قريباً من الهوس، أو رديفاً للعبادة. وقد بدأ هذا الوعي بالانتشار في الوسط الريفي منذ الانتداب البريطاني الذي عمل بكل الوسائل والقوانين المجحفة على إرهاق الفلاحين بالضرائب المختلفة على الأرض وغلتها، لتصبح عبئاً اقتصادياً على الفلاح، بدلاً من أن تكون مصدر عيشه، فيضطر إلى بيعها. وإذ يأبى البيع، ولم تعد الأرض لتفي بأسباب عيشه انصرف إلى الاستثمار في تعليم أبنائه كلهم إن استطاع أو جلهم، أو واحد منهم على الأقل ليكون رافعة الأسرة بمجملها في المستقبل. وكذلك كان. وقد أنتج هذا الحال بطلين لا يسميهما التاريخ الوطني: الأخ الأكبر الذي يتخلى عن طموحه في التعليم ليسهم مع أبيه في تأمين حاجات الأسرة الضرورية، وفي تأمين أسباب التعليم للأخ الأصغر، وهو البطل الثاني الذي سوف يفي بوعوده حين يحصل من التعليم ما يوفّر له الوظيفة المجزية، فلا يرتقي سلم الحراك الاجتماعي حتى يجذب معه سائر أسرته. وقد يأخذ على عاتقه أن يعين في تأمين نفقات التعليم لبعض أبناء إخوته. وكل جيل من الأسرة يرد دين الجيل السابق بدعم الجيل التالي. ففي غياب المؤسسات الوطنية العامة تحملت الأسرة شطراً عظيماً من المسؤوليات التي ينبغي أن تنهض بها الدولة في الأحوال الطبيعية.

على أن التفاوت في مستوى التعليم بين أبناء الأسرة التي لم يكن في وسعها أن توفر نفقات التعليم لجميع أبنائها في ذلك الحين، قد خلق تفاوتا طبقياً واضحاً بين من فاته حظ التعليم ومن حظي به. ولربما خالط أسرة الأخ الذي قدم التضحية من أجل تعليم أخيه، شعوراً بالمرارة إذ تقارن بين حالها وحال العم المتعلم وأسرته من حيث مستوى المعيشة والمركز الاجتماعي، وإن كان هذا العم لا يقصر في دعم أسرة أخيه. ولسان الحال: لولا تضحية أبينا لما كان هذا الفرق ولما كنا الطرف الذي يتلقى العون. إلا أن هذا الشعور لا يمنع من الاعتزاز والتفاخر بإنجازات العم ومحبته. وإن كان ثمة ما يخالط ذلك من كدر المقارنة والتفاوت والغيرة، فليصرف إلى الوافد الغريب على الأسرة الممتدة، أعني زوجة العم، وهي على الأرجح من طبقة اجتماعية أرقى بالمعايير السائدة، كفاء ما ارتقى إليه العم بفضل الشهادة العلمية وامتيازاتها اللاحقة. وليس من الصعب أن يفسر سلوكها المختلف بأنه تعالٍ وتكبر. وما هو كذلك في معظم الأحيان. ولكن لا عزاء للنساء في مجتمع الثقافة

مكتبة الربيعي أحمد

الذكورية والأسرة الممتدة. ألا ترى إلى الحكايات الشعبية «تشيطن» زوجة الابن وتنسب إليها تهمة المباعدة بين زوجها وسائر أسرته الممتدة بعد أن كانت الأسرة على قلب رجل واحد؟ وتغفل هذه الحكايات أن التغير الذي طرأ على علاقة الابن بسائر أسرته الممتدة عقب زواجه، هو على الأرجح تغير طبيعي أملاه تحول مسؤوليته الأولى إلى أسرته النووية الجديدة من زوج وولد دون أن يقطع بالضرورة مع أسرته الممتدة. كان في الأمس منصرفاً على الجملة لوالديه وإخوته، والآن تغيرت الأدوار، وعليه أن يرعى أسرته الصغيرة الجديدة فيما يبدو أنه من حساب أسرته الممتدة.

لا بأس، فالظواهر المضيئة لا تخلو أحياناً من جانبٍ معتم. والتعاون الأسري من أجل التعليم والبقاء والارتقاء سوف يبقى علامة مضيئة في التاريخ الوطني الفلسطيني. فلا عجب أن يصير التميز في مستوى التعليم كماً وكيفاً في وسط الشعب الفلسطيني مما يشهد لهم به سائر الناس. بل ليس من المبالغة القول إن التعليم كان منذ اللحظة الأولى شكلا من أشكال المقاومة من أجل البقاء.

كذلك كان عند اللاجئين الفلسطينيين الذين كنت ترى أبناءهم يدرسون على ضوء السراج، فإذا عزّ زيت السراج، خرج بعضهم يدرس في ضوء مصابيح الشارع. ولما كانت ظروف اللجوء قد حالت بينهم وبين الالتحاق بالمدارس مدة من الوقت بعد عام النكبة، فقد كان بعضهم أكبر سناً من أقرانه في الصف نفسه بعامين أو أكثر. وربما انقطع أحدهم عن الدراسة أعواماً منصرفاً إلى العمل لإعانة أسرته، ثم إذا تحسّن الحال استأنف الدراسة في مدارس الوكالة. وأذكر شاباً كان يبيع الصحف على قارعة الطريق، وأذكر نداءه الرتيب المكرور بنغمة ممدودة خاصة، يردد أسماء الصحف في ذلك الزمان: الدفاع، الجهاد، فلسطين. بعد حين من الدهر، صار هذا الشاب طبيباً مرموقاً. إذ لم يمنعه ما فات من عمره، أن يستدرك على نفسه أخيراً ليكون ما تؤهله له الإرادة والقدرة.

ولكن كم من أمثاله قهرت الظروف أحلامهم وطمرت مواهبهم فلا يعلم بها أحد؟! في ذاكرتي واحد من هؤلاء. كنت أفترش وإياه الأرض في «سوق الدواب» خلف جدار مدارس الوكالة، فنتحدث في كل شأن، وكان في الأثناء يتناول حجراً شيديا ليناً ينحته بسكين، وما هي حتى يتمثل حصاناً يكاد أن يصهل، أو طائراً يكاد أن يطير

مكتبة الرمحي أحمد

بجناحيه، أو أي شيء آخر من خلق الله. كان يفعل ذلك بأسلوب عفوي عرضي، لا يريد به غير التشاغل والتسلية في أثناء الحديث. ولعله لم يكن يدرك قيمة الموهبة التي ولد بها، ولا يرجو منها شيئاً لمستقبله. إنما كان يستجيب لإلحاحها الفطري وندائها الغامض.

هذا الشاب سوف يقضي حياته بعد ذلك في بيع كؤوس الشاي للمارة وأصحاب الحوانيت. ولو ولد ونشأ في عالم آخر فلربما صار فناناً ونحاتاً عظيماً. ولا غالب إلا الله.

حلم الخلاص من بؤس المخيم، حمل بعض الشباب على البحث عن فرص العمل في بلاد النفط الناشئة، لا سيما الكويت. ولما كان الحصول على تأشيرة الدخول أمراً متعذراً. فقد جازف هؤلاء بالتسلل عبر الصحراء بين البصرة والكويت. نجح بعضهم في الوصول، وتاه بعضهم حتى قتله الظمأ، فلا وصل ولا عاد. وأورث أهله حسرة الأبد. وصارت رحلة الصحراء تلك فصلاً في رواية المأساة الفلسطينية، وجزءاً مؤلماً من ذاكرتها.

والذاكرة هي ما راهن العدو على انطماسه مع تطاول الزمن والشتات. فبعد أن سلب الأرض، علم أنه لا يطمئن فيها حتى يسلبها من الذاكرة، فيلغي بذلك أصحابها الذاكرين. واللاجئ الذي أخرج من أرضه، استوطنت الأرض وعيه ووجدانه وأحلامه وجراحه.

فذاكرة الماضي هي التي تحرس حلم العودة ووعد المستقبل. وبالمقابل فإن حلم المستقبل هو الذي يبعث ذاكرة الماضي حيّة في كل حين. مصادرة الماضي مصادرة المستقبل. والفلسطيني يريد استرجاع مكانه وزمانه. وما الوطن إلا مكان نقش عليه أصحابه تاريخهم وهويتهم وذاكرتهم الممتدة عبر الزمان. والشعوب التي طواها النسيان، لم يذهب بها الفناء المادّي، وإنما ذهب بها فناء الهوية الحضارية التي تتعرف بها الشعوب وتتعين بها الأمم، حتى ذابت في هويّات أخرى غلابة.

وإذا كانت الاستجابة على قدر التحدي، فإن تهديد الهوية الفلسطينية، قد جعلها الآن، بعد أكثر من ستين سنة من النكبة، أقوى مما كانت في أي وقت مضى، حتى لتكاد أحياناً أن تتعدى الخط الدقيق بين الاعتزاز الوطني وشطط النرجسية الجمعية التي يمكن أن تستفز الآخرين، حتى وإن كانوا من ذوي القربى. وهي مفارقة أخرى من مفارقات الوضع الفلسطيني في المنافي.

مكتبة الربيعي أحمد

فاللاجئ الفلسطيني الذي يتوقع منه بعض الناس أن يمشي مطأطئاً، وأن يلزم هوامش الأرصفة ويعطي أولوية العبور لمضيفه، لم يمنعه بؤس المخيم ووصمة اللجوء أن يتطاول بظله وهويته وكبريائه، حتى ليلتبس ذلك بالتعالي و«النمردة». بل إن الفلسطيني ليحس أحياناً أنه محسود على جنازات شهدائه بقدر ما يرى فيها حجة لتضحيات شعبه، وحجة على عجز القعدة والمفرطين!

ها قد أوشك التجوال في ضواحي الطفولة ومرابع الصبا على الانتهاء. وها أنذا أصل إلى منزلي على عادتي القديمة أول المساء. وها هو منزلنا أخيراً تحيط به أشجار السرو القديمة. وها هي بقالتنا مغلقة منذ ودع صاحبها الحياة بعد رحلة طويلة مع المرض. وها هو باب السور الحديدي الذي يقابل مدارس الوكالة للإناث. هذا هو البيت الذي احتضن بدفئه اثني عشر ابناً وبنتاً توافدوا إلى الحياة على مدى ثمانية وعشرين عاماً هي فرق العمر بين الأكبر والأصغر، وكنت رابعهم في ترتيب العمر، يكبرني أخ وأختان.

هنا أول المذاقات وأول الروائح وأول الشعر وأول الأحلام الكبيرة. وما لم يكن يسعه البيت الصغير كانت تسعه حديقته التي كانت تجود علينا بثمرها وعبير زهورها وزقزقة عصافيرها وملاعب الطفولة فيها ومخابئ الفارين من وجه العدالة الأبويّة! هنا في هذا البيت الصغير كنا نتقاسم رغيف الخبز وحبات الزيتون ونأكل في إناء واحد تطيش أيدينا فيه على «طبلية» وطيئة ونحن جلوس على الأرض، قبل أن يترقّى الفوج الثاني من الأبناء إلى تناول الطعام على طاولة تحتل معظم الغرفة الصغيرة التي كانت قبل ذلك شرفة مفتوحة على السماء والقمر وأصوات المخيم وروائح الروث وزهر البرتقال معاً. هنا تفتح إدراك الصبي الذي كنته على الحياة وذاته وسمعه وبصره وفؤاده. فكان ما سوف يكون! هذا الذي يقف الآن أمام باب السور الحديدي عائداً إلى نقطة البدء التي هي نقطة المنتهى في دورة الزمان. لم يبق عليه إلا أن يضغط على زر الجرس. ويكاد أن يسمع رجيف قلبه المتلهف على الدخول ومعانقة أمه بعد طول غياب. ترى ما عساها تفعل حين يفاجئها ظهوره من الباب دون سابق موعد أو خبر! هل تتسمر لحظة وهي تنظر في وجهه قبل أن تنقشع غمامة الحيرة والدهشة والإنكار عن شمس الحقيقة، فتدرك أخيراً أن الرجل الواقف أمامها هو الابن الذي فرّق الاحتلال بينها وبينه؟ هل تملك أن تبقى قائمة على ساقيها أم ترجف بها المفاجأة الرائعة؟ وهل كانت فكرة العودة دون سابق بشرى فكرة

مكتبة الربيعي أحمد

حسنة في المقام الأول، أم أني أخطأت في ترجيح روعة المفاجأة المنشودة على ما يمكن أن يكون في الروعة من ترويع لقلب أثقله الأسى وأثخن فيه فراق الأحباب؟!

كل هذا الآن رهن الاختبار. وإذ أضغط جرس الباب وأطل من فوق السور أرى طيف أمي تخرج من باب المنزل القائم في وسط الحديقة، وأنتظر أن تمشي نحو باب السور الذي أقف عنده بلهفة الطفل الذي كنته حين رجعت إلى منزلنا بعد يومي الأول في الروضة.

اقترب الوعد ولم يعد بي صبر على انتظار الدقيقة الأخيرة. فلم لا يتحرك الطيف الذي تخفي عتمة المساء ملامحه حتى ليبدو من بعيد مثل أشباح الموتى؟

أشباح الموتى....!!! ألم تمت أمي قبل أكثر من ربع قرن؟! وهل بقي لي غير طيفها الذي لا يغادر مخيلتي ووجداني وأحلامي، وأعقبني سؤالاً دائماً مؤرقاً: هل كان في وسعي أن أكون ابناً أبر وأفضل؟!

كيف استطاع الحلم أن يخدعني مرة أخرى فيوهمني أن هذه الجولة في مدارج الصبا هي تحقيق أحلامي السابقة؟

كيف تحتال الذات على نفسها، فتستدعي في داخل حلمها الجديد ذاكرة الأحلام السابقة الشبيهة، لتموّه على الحلم الجاري وتقنع نفسها بأنه الواقع الشاخص أخيراً، وأنه تأويل الأحلام القديمة قد جعلها ربّي حقاً!!

تالله ما تفعل الرغبات المقهورة!!

مكتبة الرمحي أحمد ktabpdf@تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

عن الجذور

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. ظل السنديانة وأساطير القرية

مثل كل الأمهات كانت أمي خير الأمهات وأطيبهن قلباً وأعظمهنّ حناناً وأكثرهن تفانياً وإنكاراً للذات!!

كانت من أسرة مدنية تعيش في حيفا حين تزوجها أبي، وقبل ذلك عاشت مع أسرتها أعواماً في عكا. وكانت إذا ذكرت إحدى هاتين المدينتين، أطلقت آهة حسرة وحنين، تعقبها بالقول «سقى الله تلك الأيام». وكانت تنطقها محرفة على نحو ما ينطقها عامة الناس.

من الصعب أن يكون الاختلاف بين الأصهار في الخلفية الاجتماعية والعادات والتقاليد والمزاج أكثر ما كان بين أسرتي أبي وأمي! فقد جاء أبي من خلفية ريفية، إذ كانت أسرته الصغيرة تعيش في قرية «باقة الشرقية» من قرى «الشعراوية» التابعة لقضاء طولكرم، قبل أن ينتقلوا للعيش في طولكرم نفسها ويبتنوا فيها المنزل الذي ولدت ونشأت فيه. كانوا أربعة إخوة: ثلاثة ذكور أكبرهم والدي، وبنتاً واحدة كانت تكبرهم جميعاً. أما عمتي -رحمها الله- فلم تغادر القرية أبداً حتى توفاها الله، بعد رحلة طويلة مع المرض، ورحلة أطول مع زوج غليظ القلب، شديد القسوة حتى على ولده الوحيد. وحين لا يكون منشغلاً بخلق أسباب الشقاء والتعاسة لمن حوله، كان يمارس موهبته الأخرى في هجاء الزمان والشكوى من قلة الحظ. وكان بارعاً في الهجاء الساخر وابتداع الاستعارات والكنايات، فيضحك سامعه حتى لو كان أبغض الناس له. وقد سمعته مرة يقول: (لو عملت في صنع القبعات، لخلق الله الناس بلا رؤوس!). وبالطبع لم يكن الطلاق خياراً قائماً عند أهل المرأة. فمهما يبلغ الزوج من سوء الخلق تظل عندهم وصمة

مكتبة الرمحي أحمد

الطلاق أدهى وأمرّ. وهو عند الزوجة أشد نكيراً. فما عساها تفعل بعد ذلك وهي أميّة ليس لديها ما تعيل بها نفسها، إلا أن تكون عبئاً على إخوتها وضيفاً ثقيلاً على أزواجهم؛ فإذا ابتليت امرأة بزواج من ذلك النوع لم يكن لها إلا الصبر على جحيم الدنيا وانتظار الموت: موت الزوج أو موتها، سيان! فإن كان الأول أدركت من الدنيا بعض الراحة، وإن كان الثاني فلعل ما كابدته من عذاب الدنيا أن يكون قد طهرها من الذنوب لتلقى وجه ربها بحسنات صبرها فقط، فتستحق نعيم الآخرة.

وأي شقاء أعظم من أن يطالعها في كل نهار ويخالطها في كل ليل رجل لا تطيق طلّته ولا أنفاسه، فإذا أدبر عنها في بعض شأنه تنفست الصعداء، ورجت أن يطول غيابه، وإذا أقبل ضاق صدرها وانكتمت أنفاسها وأظلمت الدنيا في عينيها! ولا فرار، حتى يكبر أبناؤها فتستقوي بهم، فيصح فيها القول: إنها أنجبت خلاصها ولو كان مؤجلاً! وعندئذ يكون الزوج قد شاخ وذهب ذفره وغزته الأمراض فيصير كَلًّا على زوجته، وكانت في الأمس كَلًّا عليه، وإذ بها في البيت صاحبة الأمر، بعد أن لم يكن لها من الأمر شيء.

وإن الثقافة الشعبية الذكورية لتختلق صوراً ذهنية موهومة، وتنزل على المواقف والأحوال من المعاني ما يسوّغ الواقع السائد أو يهوّن من قسوته. فقد تسمي طغيان الأزواج هيبة وفحولة، وقوة شخصية، وخضوع المرأة أدباً ورقة وطاعة محمودة، أما رقة الرجل مع زوجه فضعف وميوعة، ومقاومة المرأة لإذلالها تنمرد وشراسة وسوء خلق. ثم تذهب الثقافة الشعبية التقليدية إلى أبعد من هذا حين تزعم أن المرأة نفسها تفضل الرجل المهيمن الشديد وتجلّه وتعظّمه، إذ ذاك من مظاهر قوته وفحولته. فتخضع له راضية مرضية. فإذا انقضى أجله، سمعت من يقول: إن زوجته ما زالت منذ موته في حزن ووحشة، وأكثر ما تفتقد طلعته الصارمة وصدى نهره وقهره وأوامره ونواهيه يملأ عليها البيت ويهز أركانه.

ولقد يصح هذا في بعض الحالات. فقد يألف البعض الخضوع حتى لا يدري ما يفعل بحياته بعد أن تتحرر إرادته. وفي بعض الدراسات النفسية ما يفيد أن الضحية أحياناً تطور قدراً من الألفة المرضية مع جلادها فلا تطيق فراقه وإن استطاعت، وتلتصق به التصاق الطفل بأبيه، والعائل بمعيله والتابع بمتبوعه مهما يكن قاسياً. ويعزز من ذلك

مكتبة الربيعي أحمد

عند الضحية فقدانها لتقدير الذات وشعورها بأنها ليست أهلاً لأحسن من هذا، بل يمكن أن تصرف اللوم إلى نفسها فترى أن ما تلقاه من جلادها جزاء مستحق. ومن العبيد من لزم سيده بعد عتقه.

ولكن هذا وإن صح في بعض الحالات، فإنه لا يصح في جلها. ولقد عرفت نساء عشن في ظل أزواج متحكمين مستبدين، فلم تكن إحداهن تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً في حياة زوجها. ولم يكن الزوج من سوء الخلق بحيث يضرب أو يسب أو يشتم. بل ربما كان عفاً كريماً نظيف اليد محترماً بين الناس، ذا خلق ودين. كل ما في الأمر أنه مستبد في بيته لا يرضى بأقل من الطاعة المطلقة والخضوع التام، حتى سلب زوجته إرادتها و جعلها متاعاً، فليس لها من الأمر شيء فيما تحب وتكره. فلما مات، بكته حقاً بكاء الزوجة المخلصة المتفانية، وعددت مناقبه وأخلاقه الحميدة. ثم إذا انقضت شهور الحزن والوحشة الأولى، وبدأت تذوق طعم الحرية والاستقلالية، رأيت في وجهها من علامات الراحة والبهجة والحيوية ما لم تكن تراه من قبل. وماهي حتى يقل كلامها عن مناقب زوجها الراحل، ليشي بعضه بالأسى لما كابدته من استبداده، لا بالأسى على غيابه. فإذا ذكرته قدمت لكلامها بالقول: «سامحه الله...»، ثم تلمح إلى مظالمه أو تصرح بها. وتنهي الكلام كما بدأته «سامحه الله...» أو «أنا أسامحه دنيا وآخرة». وليس يسامح المرء إلا فيما ظلم به. فالعبارة تشي بالمرارة والحسرة أكثر مما تفيد الغفران. وقد تسقطها إذا اشتد بها الأسى وهي تقص من عنائها معه.

لم تصل عمتي -رحمها الله- إلى هذه المرحلة. فقد صح في زوجها القول الشعبي المأثور «عمر الشقي بقي»، فعمّر حتى جاوز التسعين، فشهد وفاة عمتي، ثم وفاة ولده الوحيد منها، ثم استشهاد ولده الوحيد من زوجته الثانية في عملية فدائية ضد الاحتلال. فسبحان الذي يخرج الحي من الميت!

وكانت تلك العمة من أرق الناس فؤاداً وأحسنهم خلقاً. فإذا اشتد نكير العائلة على زوجها وسوء معاملته لها وبدا لها أن الأمور تتجه إلى الصدام، كانت أحرص الناس على أن تلتمس له الأعذار وأن تختلق له بعض المكارم لتغطي على سوءاته. وكان إخوتها يعطفون عليها أشد العطف ويهدون إليها من المتاع والمال ما وسعهم ذلك، حباً لها أولاً،

مكتبة الرمحي أحمد

وتعويضاً لها عن بؤس زواجها ثانياً، وتعظيماً لها في عين زوجها ثالثاً، ورشوة مضمرة له رابعاً، لعلّه أن يذّكر أو يخشى.

وكانت إذا جاءت لزيارتنا من القرية حملت معها من صنع يديها حلوى «الخبيصة» المصنوعة من الحليب وعصارة الخرّوب في طبقات بعضها فوق بعض، واللبن الرائب من حليب النعاج في قدور فخارية صغيرة، كنا نسمي الواحد منها «مغطاساً»، وفطائر ورق الزعتر المصنوعة من رقائق العجين المشبعة بزيت الزيتون.

وفي الأعياد كان والدي يصحبنا إلى القرية لوصل الأرحام، وزيارة قبور الآباء والأجداد والأقارب وقراءة الفاتحة عندها. فإذا مشينا في طرقات القرية الضيقة وجدت الناس كباراً وصغاراً يقفون أمام بيوت الطين ليرقبوا الضيوف الوافدين الذي يرتدون ثياب المدينة. وتدار في البيوت كؤوس شراب الورد. ثم يتنافس المتنافسون في دعوتنا إلى الغداء أو العشاء، وكل يحلف على ذلك بالله، أو بطلاق زوجه التي تصبح، وهي غافلة، بين نارين: فإما كد تحضير الطعام، وإمّا الطلاق! ولم يكن والدي ليكره شيئاً أكثر من الحلف بالطلاق، فهو عنده مما يسقط مروءة الرجل. والطعام في العادة «المسخّن» المصنوع من خبز التنور البلدي، يبسط عليه البصل المفروم المطبوخ بزيت الزيتون ومرق الدجاج، ويرش عليه السماق والصنوبر ثم يمد فوقه الدجاج المشوي في التنور الذي نسميه في قرانا «الطابون». وقد يضاف إلى هذه الأكلة الشعبية المشهورة في شمال فلسطين، أطباق أخرى من الخضار واللحم المطهوة في فرن «الطابون» أيضا، فيكون لها مذاق طيب مميز.

وقد توهمت في طفولتي المبكرة أن هذا وأمثاله هو طعام الفلاحين اليومي، حتى غبطتهم عليه، كما غبطهم على عيشتهم من قبل محمد عبد الوهاب في أغنيته المشهورة «ما أحلاها عيشة الفلاح»، حين كان الفلاح المصري يكدح للإقطاعي صاحب «العزبة» وأولاد الذوات، ويموت بالآلاف بالكوليرا وغيرها من الأمراض الوبائية.

كثيراً ما تستقل الصور الذهنية عن الواقع، فتصير مرجعاً له، أو بديلاً له في المخيلة يعمي عن حقائقه. سل طفلاً أن يرسم لك صورة من الريف وبيوته. الأرجح أن يرسم كوخاً أوروبياً بسطحين مائلين، على تلة ينحدر منها طريق ضيق.. تحف به بسائط العشب والأزهار والأشجار، وفي سمائه بعض الطيور.

مكتبة الرمحي أحمد

أين هذا من طبيعة ريفنا العربي وبيوته؟ إنما هو طيف من طبيعة الريف الأوروبي الذي استقرت صورته في مخيلة الصغار من خلال وسائل الإعلام وكتب الأطفال المترجمة.

وكنا في المدرسة، إذا طلب منا الكتابة عن الريف في درس التعبير والإنشاء، نعيد إنتاج الصورة الرومانسية المثالية، لقرية آمنة مطمئنة، تملأ أجواءها أغاريد الطيور، وهواء نقي لم تكدره أنفاس الخلائق، ويعيش أهلها في هناء وصفاء وراحة بال، وقد خلوا من هموم الدنيا ونكد العيش، وقنعوا من الدنيا بلقمة الخبز المغموسة بالزيت والرضا، تحيط بهم البساتين العامرة التي تعبق بروائح الزهور البرية. أما كدّ الفلاح في الأرض فصحة وعافية. ولا ننسى أن نشكر له ما يوفره لنا من الغلال والثمار وأطايب الأرض التي ما كنا لنستمتع بها لولا جهده المبرور وسعيه المشكور.

كل ذلك حين كان الجهل والفقر والأمراض السارية، تتحالف جميعها لتقصف أعمار الأطفال على التخصيص. وليس من غير المألوف أن تحمل المرأة خمس عشرة مرة أو نحو ذلك، ثم لا يسلم لها من أحمالها إلا اثنان أو ثلاثة. فليس في القرية طبيب ولا صيدلية، ولو وجد لما أغنى فتيلاً من الجهل والفقر. وكان على فتيان القرى أن يمشوا أميالاً كل يوم ليصلوا إلى مدرسة تخدم قرى عدة، ولا تعلم إلا بضعة صفوف ابتدائية. وقد يحشر تلاميذ الصفوف في غرفة واحدة متهالكة هي كل المدرسة، وربما قام على تعليمهم مدرس واحد أو اثنان. ويكون عليهم في الشتاء أن يخبطوا في الوحل أو يقطعوا ودياناً جرت فيها سيول الأمطار، فذهبت ببعضهم غرقاً. فإذا أتم التلاميذ الصفوف القليلة المتاحة، كان على ذوي العزم والطموح منهم أن ينتقلوا إلى المدينة القريبة لاستكمال الدراسة حتى نهاية الثانوية. وفي ذلك ما فيه من العبء المادي على الأسرة. وقد يضطر هؤلاء التلاميذ أن يعيشوا عيشة الكفاف، وقد يجتمع العدد منهم في غرفة واحدة لاختزال النفقات المرهقة على قلتها.

أما صورة التآلف والتراحم والتكافل والتعاون في بيئة الريف، فبعضها صحيح، وكثير منها مبالغ فيه. فليس في الريف ملائكة أكثر مما في المدينة. والنزاعات على حدود الأراضي من مألوف الحياة في الريف. وجل الفلاحين يكدحون في أراضي كبار الملاك.

مكتبة الربيعي أحمد

أما المرأة فنصيبها من الكدح والعناء أكبر من نصيب الرجل. فحياتها مقسومة بين الحمل والعناية بالأطفال وعمل البيت والعمل في الحقول. وكم منهن وضعت حملها في الحقل وقد فاجأها المخاض فيه.

فأين هذا كله من تلك الصور الرومانسية التي صارت أقرب إلى «الكليشيهات» النمطية؟ تغير واقع الريف الفلسطيني الآن وتحسنت ظروفه العامة، وصار الكثير من القرى أقرب إلى حال المدينة من حيث البيوت والطرقات والمرافق العامة ونمط المعيشة. ومع ذلك ما زالت القرية القديمة المتخيلة التي كنا نصورها في مقالات درس التعبير والإنشاء حاضرة في مقالات الأجيال الجديدة، وما زالت الطيور تغرد في فضاء النصوص، وما زال الفلاح قانعاً بلقمة العيش المغموسة في الزيت والرضا، بينما يكد في الحقول ليوفر لنا ما لذ وطاب مما تنبت الأرض!

لئن صح أن الفلاح لا يجد إلا لقمة الخبز والزيت، بينما يتمتع غيره بكل تلك الأطايب التي تخرج من كد يده، فلا معنى لذلك إلا أنه ضحية الاستغلال، إذ لا أحسب أنه يتطوع بذلك تقرباً إلى الله واحتساباً، ليكون فيمن وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولكن ، تلك آفة النصوص حين يوحي بها اللصوص.

على أني كنت أستمتع حقاً بتلك الساعات التي نقضيها في القرية في المناسبات، مع ما يحيطنا به أهلها من مظاهر الاحتفاء والتكريم. ولم تكن روائح الزهور البرية ولا الهواء المنعش ولا زقزقة العصافير هي ما يبهج روحي فيها، ففي حقول طولكرم وسهلها من هذه ما يكفي ويغني، ولكني كنت أنتشي برائحة دخان «الطوابين» تملأ جو القرية، وتبادر إلى أنفك لحظة الاقتراب منها. ولعل الروائح المميزة من أكثر الأشياء بعثاً للذاكرة القديمة إلى جانب الأغاني والألحان التي ترتبط بذكرى خاصة. وما زلت منذ عشرات السنين إذا شممت دخان الحطب في أي أرض مفتوحة، تنبعث القرية الفلسطينية في ذاكرتي مرة واحدة بتلالها الصخرية وسلاسلها الحجرية، وبلوطها وسنديانها وزيتونها ومزامير الرعاة فيها وأساطيرها الموروثة.

بعد سنين سوف أكتشف أن حضور القرية في وجداني ومخيلتي الأدبية والشعرية أقوى بكثير مما يتوقع من شخص لم يكن يزورها إلا في المناسبات السنوية القليلة. ولعل

مكتبة الربيعي أحمد

ذلك لأن حضورها مقترن بحضور فلسطين ورموز الأرض الشاخصة في شواهدها الطبيعية الريفية. فالفلسطيني يقرأ هويته على جذوع السنديان والبلوط والزيتون القديم، ويستمع إلى صوتها في مزامير الرعاة وأغاني الحصادين وصياح الديكة وصهيل الخيول، ويشتم رائحتها في معاصر الزيتون ودخان الطواحين وأزهار النرجس، ويتذوق طعمها في «المسخن» والزعتر الجبلي والنعناع البري. ولسوف يأتي علي زمان ألوم فيه نفسي أشد اللوم لأنني لم أتجول بين قرى فلسطين كلها حين كان في وسعي أن أفعل ذلك، وهي أكثر من أن تحفظ، فبين القرية والقرية أخرى. وعلى الرغم من التقارب فإن لكل منها شخصيتها وأسطورتها، وربما اختلفت بعض الاختلاف في اللهجة المحكية. وقد رسمت المخيلة الشعبية للواحدة منها صورة نمطية تفارق جارتها التي لا تبعد عنها إلا ما يبلغ صهيل الحصان. فهذه قرية عرف أهلها «بالشطارة» والتدبير المادي، فهم «يصنعون من الغيوم ملاحف» و «يجبرون حبة القثاء المكسورة على عرقها كما يجبر العظم المكسور»، وتلك قرية عرف أهلها بكثرة المنازعات مع الحفاظ على آداب التعامل، فإذا تقاضى شخص مع عمه حول حق متنازع عليه، وصارا إلى باب المحكمة لم يسع ابن الأخ أن يعبر الباب قبل عمه، فيقدمه تجلة واحتراماً، وهو الذي يتهم ذمته! وهذه قرية أخرى كل من فيها زعيم قد أمال عقاله ومشى متسامقاً كأنه يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، وتلك قرية طابت نفوس أهلها كما طابت ثمارها، فهم ربيع اليتامى والأرامل والسائل والمحروم...

كثرة القرى في فلسطين شاهد على أن هذه البقعة المباركة من الأرض هي من أقدم البلاد التي نشأت فيها المستوطنات الزراعية التي مهدت لنشوء الحضارات المستقرة.

والحق أن أصول عائلتي لم تكن في قرية «باقة الشرقية». فمنازل آل سيف في بلدة برقة من أعمال نابلس. والرواية الشفوية الموروثة تفيد أن قطعة كبيرة من العشيرة قد غادرت «برقة» بعد نزاع مع عشيرة أخرة إلى قرية «ذنابة» المجاورة لمدينة طولكرم واستوطنوا فيها وغلبوا عليها منذ زهاء قرنين. ولأمر ما لا ندركه، اختار جد أسرتي المباشرة أن يقيم وحده في باقة الشرقية، وإن حافظت الأسرة على تواصلها مع أصل العشيرة المتوزعة بين «برقة» و«ذنابة»، حتى انتقلت للعيش في طولكرم في حيها المجاور لذنابة. ولكل عشيرة كبيرة روايتها الشفوية المتوارثة عن تاريخها وجذورها، يختلط فيها الواقع بالأسطورة.

مكتبة الربيعي أحمد

ويروي شيوخ آل سيف ونسابتهم أن العشيرة ترتد إلى القبائل اليمنية القحطانية، وأنهم جاؤوا من جزيرة العرب إلى فلسطين استجابة لدعوة صلاح الدين حين استنفر قبائل العرب للجهاد ضد الفرنج ، فقدموا مع قطعة كبيرة من عشيرة «الحفا» التي تنتمي إلى قبائل «عتيبة» العدنانية التي ترجع أصولها إلى هوازن وأحلافها، واستقرت العشيرتان في برقة بعد أن أبلوا في جهاد الفرنج، كما تؤكد الرواية الشفوية باعتزاز. وإذا كان الجهاد مع صلاح الدين ضد الفرنج محمولاً على ذمة الرواية الشفوية غير الموثوقة، فإن العشيرة تتحدث باعتزاز عن تاريخ قريب موثق، إذ كان ابنها عبد الرحيم الحاج محمد قائداً عاماً لثورة الريف الفلسطيني بين عامي 1937 و 1939 ضد الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني، وكان استشهاده بالقرب من جنين إيذاناً بنهاية الثورة بعد أن تحالفت على إخمادها ظروف محلية وإقليمية ودولية مختلفة.

لم أدرك جدي رحمه الله. ولكنني علمت من الأسرة أنه كان رجلاً رقيق الحاشية، ثر العواطف، شديد الحساسية على الرغم من منبته الريفي الذي يورث في العادة بعض الغلظة. كان يكره التغيير وإن كان إلى خير، ويخشى المغامرة، ويؤثر السلامة في المألوف وإن كان قاسياً، على مجازفات الجديد وإن كان حافلاً بالوعود. وكانت جدتي ، رحمها الله ، على النقيض منه تتطلع إلى مستقبل أفضل لأبنائها وإن حملهم بعيداً عنها. فلما انتقلت الأسرة للعيش في طولكرم التي لا تبعد عن القرية أكثر من عشرين كيلو متراً، كان كالسمكة التي أخرجت من الماء فلم يستخفه بيت الحجر الأنيق، مقارنة ببيوت القرية الطينية، ولا تقدم أبنائه الثلاثة في مستوى المعيشة، بعد أن أكمل أصغرهم دراسته الثانوية في أهم معاهد التعليم في القدس، التي لم تكن تستوعب إلا نخبة الطلبة، وغدا معلماً مرموقاً في وقت كانت فيه مهنة التعليم موضع التقدير والإجلال.

أما ولداه الآخران فاكتفيا من التعليم ببضعة صفوف، وانتهيا إلى العمل في مجال التجارة، فافتتح والدي -وهو الأكبر- بقالته بينما افتتح أخوه الآخر محلاً لبيع الثياب. وقد استدبر الجميع حياة القرية دون أن يلتفوا إلى الوراء، إلا ما كان من جدي الذي اشتدت وحشته من مفارقة القرية وحكاياتها وأصواتها وروائحها وألوانها، فوجد نفسه ممزقاً بين داعي المكوث مع أسرته في بيئتهم الجديدة غير المألوفة وداعي البقاء في القرية التي لا يحسن أن يتنفس هواءً غير هوائها. فكان كما تروي الأسرة، يطوف في البيت

مكتبة الرمحي أحمد

الجديد في طولكرم وهو ينفخ محروراً ويهمس في نفسه: أهذا الذي أخرجكم من قريتكم؟! ثم لا يطيق بقاء بعيداً عن أصحابه وأحاديثهم حول كؤوس الشاي، فلا يلبث أن يركب دابته ويعود إلى بيت القرية. فإذا كان اليوم التالي رجع إلى أسرته في طولكرم. ولبث على ذلك وقتاً حتى انهارت صحته. ثم فارق الدارين معاً: دار طولكرم، ودار القرية، إلى الدار الآخرة! عساه قد وجد راحته أخيراً!

أما جدتي فلبثت مع أبنائها في طولكرم، وعمّرت حتى توفيت عام 1972. وإذا كانت أمي، مثل كل الأمهات، خير النساء وأطيبهن قلباً وأعظمهنّ حناناً، وأكثرهنّ تفانياً وإنكاراً للذات، فكذلك كانت جدتي! وليس حضورها في وجداني وذاكرتي بأقل من حضور أمي. ولا أرفع نشيد المدح لإحداهما إلا بقدر ما أرفعه للأخرى، عليهما من الله سلام.

ولا أذكر جدتي إلا وهي جالسة على سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الغنم وفروته، فإن لم تكن في صلاة فهي في ذكر الله بين الصلاة والصلاة. وكانت ملامح وجهها تنم عن سكينة داخلية عميقة، فهي في سلام دائم مع ربّها ومع نفسها ومع الناس، ومع الحياة ومع الموت الذي لا مفر منه. فكنت إذا قلت لها على مجرى الكلام المألوف «الله يخليك يا ستي»، انتفضت كأن أفعى قد لدغتها، وتقول: «لا تدع علي يا حبيبي». فأقول: «إنما أدعو لك يا ستي»، فتقول: «بل هي دعوة علي، ما حاجتي بطول العمر، وأنا أتعجّل لقاء ربي». لم تكن تقول ذلك تبرماً بالحياة ولا احتجاجاً عليها، ولا تعجلاً لموت يريح من شقاء الدنيا. ولكنها النفس المطمئنة التي استوفت مهمتها في الحياة وأصابت حظها منها بحلوها ومرها، وأتمت ميراثها في ذريتها، وليس وراء ذلك إلا عودة الروح إلى بارئها، وقطرة الماء إلى بحرها.

عاشت جدتي دينها في دنياها دون أن تصحب معها مجلدات الفقه والتفسير والحديث، ودون أن تلم بشيء من علم الأصول وعلم الجرح والتعديل ومصطلح الفقه وأسباب النزول ومجادلات علم الكلام وخصومات السلفية والصوفية. حسبها من دينها أنها شهدت الشهادتين واستوفت أركان الإسلام صلاة وصياماً وحجاً وزكاة، وزادت على ذلك من النوافل ما استطاعت تقرباً واحتساباً، وأمسكت لسانها عن الخوض في الناس فلم أسمعها قط تذكر أحداً بسوء، ولم يكن عندها من متاع الدنيا وأعمالها ما يمكن

مكتبة الربيعي أحمد

أن تظلم به أحداً. وكانت من أحن الناس على الفقير والضعيف واليتيم والأرملة. فإذا عصر زيتون أرضنا في القرية وجيء به إلى بيتنا في طولكرم، لم نأكل منه حتى تخرج منه حق العائل والفقير.

ولكن جدتي كانت تطوي صدرها على حزن مقيم وإن لم يكن ليكدر صفاء نفسها وسكينة روحها. فهي من أسرة معروفة محترمة من قرية عتّيل الواقعة في قضاء طولكرم، والمجاورة لقرية «باقة الشرقية». ومع ذلك لم يكن لها من عائلتها تلك إلا قرابات بعيدة. تتزاور وإياها بين الفينة والأخرى. فلا ثمّ أخ ولا أخت ولا عم ولا عمّة ولا خال ولا خالة. قضوا جميعاً وهي في أول العمر أو مطلع الصبا. وكانت تروي لنا بفخر واعتزاز عن إخوتها السبعة الذين كانوا فرسان القرية وزينتها ونخبة أجوادها في زمان كان فيه الجود مفقرا والإقدام قتالاً. فذهبوا جميعاً، الواحد تلو الآخر، وهم في عز الشباب. ومنهم من خرج في أمر عظيم من أمور المروءة، ثم انقطعت أخباره، ولم يعرف مصيره، ولا بأي أرض مات ودفن. وكأنه تاه في أرض النسيان ولم يعرف طريق عودته منها. ومنهم من أخرج من قريته على رغم أنفه في «سفر برلك» أيام الأتراك العثمانيين، ليحارب في أرض بعيدة غريبة، ولم يترك أثراً خلفه، وما كان في وسع أحد أن يتتبع أثره ليصل إلى مستقر مصيره. وقد تغري المخيلة الدرامية بأن نبني له حكاية ينجو بها من حروب الخنادق في مكان قصيّ من أرض البلقان، إلا من جراح أقعدته عن العودة إلى دياره في فلسطين، أو حيل بينه وبين العودة زمناً حتى ألف مكانه الجديد ـ وتزوج من تلك الديار البعيدة فاستقر فيها، وأنجب ذرية ما تزال قائمة متصلة حتى الآن، لا تعلم شيئا عن جذورها العربية الفلسطينية، أو أنها ورثت من ذلك خبراً غامضاً يفتقر إلى اليقين، فلا يغري بالبحث عن الجذور. ولعل مفارقات الأقدار أن تجمع بين أحدنا وأحدهم في شارع من شوارع استنبول بين زحمة الناس، فتتقاطع الطرق وتحتك الأكتاف دون أن يدري أحد الطرفين أنه يصادف قريبه البعيد في لحظة خاطفة تتباعد بعدها الأقدام حاملة كلاً منهما إلى مشاغل عمره ومآلات مصيره وبقية روايته الشخصية!

وبالفعل، كان خيالي يصل إلى شيء من هذا حين تقص علي جدتي من خبر أخيها الذي ذهب في «سفر برلك» ولم يعد. فكنت أعرض عليها هذا الاحتمال. لم لا، ولم يعلم أحد مصيره يقيناً؟! ولم تكن تعلق إلا بابتسامة خفيفة مشوبة بالتأمل والحزن، وتذهب في

مكتبة الربيعي أحمد

شرود بعيد. ثم أدركت أن هذا الاحتمال وإن كان موغلاً في الخيال، يبعث فيها من الحسرة أكثر مما يبعثه الاستسلام ليقين الموت. فالنهايات المفتوحة في قصص الغياب والتيه التراجيدية تورث من الحزن والحسرات أضعاف ما تورثه النهايات المغلقة بالمصير المحتوم! وقد قيل (اليأس إحدى الراحتين). فالأمل فيها لا يطال يؤبّد الشقاء. أما اليأس منه فيعين على النسيان ويحرر من أسر الماضي. وأما الراحة الأخرى، فهي الموت.

لم يبق من ميراث الفرسان السبعة، إخوة جدتي، إلا طيف الأسى المقيم فيها، والفخر بمصائر تليق بالفرسان على ما تورثه من حسرات، وشيء من أخلاق أولئك الفرسان ومروءاتهم تستظهر في أختهم الوحيدة الباقية: جدتي!

كانت على الرغم من سكينتها العجيبة وصفائها الأخاذ، أعلى همة من جدي- حسب رواية الأسرة عنه- وأكثر استعدادا لاحتمال التكاليف العاطفية لطلب البعيد والأفضل والأجمل.

فكانت تشجع أبناءها على المغالبة والدفاع عن حقوقهم وكرامتهم، وعلى ارتياد الصعب وصعود الجبال والسعي في مناكب الأرض ليأكلوا من رزق الله ويبلغوا غاياتهم، وإن كان الثمن نأيهم عنها. وهي بعد أشد الناس حباً لأبنائها وعطفاً وحناناً. وكنت أسمعها تدعو ربها فتقول: (اللهم لا تسقني بعد حسرة على أحد من أهل بيتي). ولم تكن مصائر إخوتها هي المصدر الوحيد لحسراتها المقيمة. إذ وضعت بضعة عشر مولوداً، لم ينج منهم إلا هؤلاء الأبناء الثلاثة وأختهم. أما حسرتها الكبرى فكانت على ولدها «محمد» الذي قضى في عز الشباب وهو في زهاء العشرين من عمره. وكان كما يقال أكثر إخوته وسامةً وطموحاً.

لم أدرك عمي هذا، رحمه الله. وكان في بيتنا سدّة منسية، فكنت أصعد إليها وأزحف إلى داخلها مستطلعاً ما فيها من أكوام الكتب القديمة وأعداد مجلّة الرسالة من أثر عمي الأصغر محمود إبراهيم الذي كان من نخبة المتعلمين الذين استكملوا تعليمهم المدرسي في مدارس القدس، قبل أن يتم تعليمه الجامعي في جامعة لندن ويحصل على درجة الدكتوراه ثم يصير عميداً لكلية الآداب في الجامعة الأردنية بعد تأسيسها بأعوام. فكنت أغرق في مقالات طه حسين والعقاد وأحمد أمين وعلي الطنطاوي وسواهم من كتاب مجلة الرسالة.

مكتبة الربيعي أحمد

وفي أحد الأيام عثرت في السدة على صورة فوتوغرافية قديمة حسبتها لعمي محمود. فعجلت بها إلى جدتي مستشاراً. فلما نظرت فيها فاضت عيناها من الدمع فوراً وشرقت بغصتها، وأنا في حيرة من الأمر، حتى تبين لي أنها صورة عمي محمد المتوفي لا عمي محمود، وكان أحدهما أشبه الناس بالآخر. وقد لمت نفسي أشد اللوم لأني هيّجت حسرات جدتي على فقيدها العزيز. وإن طريقة الناس في التعامل مع ذكرى الميت العزيز لتختلف باختلاف الثقافات وتتغير مع الزمن. فالآن إذا مات عزيز من الأسرة، احتفظت بما يستحضر ذكراه من صور ونحوها. أما في الثقافة الشعبية تلك الأيام، فكانت الأسرة تحرص على إخفاء ما يبعث الذكرى ويهيج الحسرات. وكذلك كانت أسرتي التي أعقبها موت عمي محمد وهو في ميعة الصبا أسىً لم يخفف منه إلا تطاول الدهر، وأدركه فيهم من الجيل الجديد من لم يدرك عمي محمد. وقد علمت أن عمي محمود الذي كان أقرب الإخوة سناً إلى أخيه محمد، كادت تذهب نفسه حسرات عليه عقب وفاته. فمكث طريح الفراش أياماً طوالاً أسفاً على أخيه، حتى صار على جدتي أن تتغلب على جرحها العميق وتلملم قلبها المتفطّر، لتواسي ولدها الآخر خشية أن يلحق بأخيه. فكانت تنشده الله والرحم ألا يعقب حسرتها بأخرى مثلها. ثم صار من دعائها الراتب أن يجنبها الله من أبنائها الباقين حسرة أخرى.

على مثال الأم الفلسطينية الأنموذج، كانت جدتي السنديانة القديمة المورفة التي تلتف حولها الأسرة، وتسند ظهورها إليها، وتستظل بظلها. وكان احترام أبنائها لها ديناً. وكان والدي أشدّهم وأحدّهم مزاجاً، ولكنه كان وقّافاً عند أمه إذا نهته عن أمر من الغضب يهمّ به، أو أمرته بقبول شيء قد امتنع عنه. وما كانت تفعل ذلك بلهجة الأم المتحكمة، فذلك أبعد شيء عن شخصيتها. كان يكفي أن تتدخل برأيها، فيقف عنده. وبالطبع، كنا ندرك ذلك إذ كنا صغاراً فنعوذ بها من غضبات الوالد، أو نستشفع بها لحاجتنا عنده. فننجو من الأولى، ونبلغ غايتنا من الثانية.

ولكم كنت أحب أن أستلقي عندها فأسند رأسي إلى ركبتها، ويحلو لها أن تمسّد شعري الخشن، وترقيني بالدعاء والذكر. فإذ ألم بي عارض من مرض أو نحوه، كانت تفعل ذلك وفي كفها قبضة من ملح، فإذا فرغت من الرقية، نثرت الملح الذي تعتقد أنه امتصّ من جسمي السوء العارض في الهواء. ورجت أن يكون ذلك آخر ما نخشى ونحاذر!

مكتبة الربيعي أحمد

وعلى مثال الجدة المألوف، كانت مستودع الحكايات الشعبية التي نسميها في فلسطين «الخرّيفيّات»، وكنا نلح عليها أن تعيد علينا قص الحكاية للمرة الألف دون أن نملّ. وفي كل مرة جديدة كنا نذهب مع الحكاية إلى تخوم سحرية بعيدة، ولا يخفق القص المكرور في أن يخلق فينا عنصر التوتر والتشويق في انتظار أن تنجلي حقيقة المكر أخيراً، فينتصف المظلوم من الظالم.

لعلّ جيل جدتي وأمي آخر وريث للقصص الشعبي بعد أن تقلّب إرثه الشفوي عصورا طويلة بين الأجيال. سكتت الرواية الشفوية أخيراً. وخلف من بعد ذلك الجيل خلف أضاعوا ذلك الميراث القديم، إلا ما يجمعه الباحثون المختصون للقلّة من الدارسين والمهتمين.

غابت «جبينة» و «حديدون» و «فريط الرّمان في صواني الذهب»، و «علي بابا» عن مخيلة الأجيال الجديدة، وحل محلها «سندريلا» و «الجميلة النائمة» و «ذات الرداء الأحمر» و «سنووايت»، عند شطر كبير من هذه الأجيال: أولئك الذين يتاح لهم الاتصال بمصادر الثقافة الغربية من خلال الكتاب المصور المترجم، أو بلغته الأصلية، فضلاً عن وسائل الإعلام الحديثة الأخرى. لم يعد البطل الشعبي يعتمر العمامة أو الكوفية ويتجول في فضاء الشرق بقبابه الذهبية ومآذنه المشرئبة نحو السماء وأسواقه المزدحمة الضيقة، وإن شاء امتطى بساط الريح متنقلاً بين بغداد الرشيد، وقاهرة المعز، وبلاد السندباد. ولم تعد الأميرات مقصورات في الخيام أو وراء المشربيات وهن يرتدين سروال الحريم الموشى بالذهب والقميص المقصب ويعصبن رؤوسهن بمناديل الحرير التي تتدلى منها دنانير الذهب.

تبدلت الأسماء والأماكن والصور والبيئات. فالبطل الأمير الآن يتجول في عالم القلاع المنتصبة على رؤوس الجبال والقرى التي تنام على سفوحها بيوتها الخشبية ذات السطوح المائلة، والغابات الكثيفة الخضراء التي تستوطنها ساحرات يمتطين المكنسة ويطرن بها أنى شئن، ويلبسن السواد ويعتمرن قبعة مدببة مطرزة بالنجوم، ولهن أنوف محدّبة وحواجب كثة، وقد تخلّعت أسنانهن إلا من سن أو سنين طويلين ظاهرين. ثمة عربات تجرها الخيول، وصالات واسعة فخمة لحفلات الرقص في قصور الملوك والأمراء والسادة، وثمة أميرة حبيسة في برج القلعة، تنتظر فارسها المخلص الذي ستدلي له شعرها من كوة البرج ليتعلق به...

مكتبة الرمحي أحمد

سمه إن شئت عولمة الثقافة المتغلبة، أو التغريب. سيّان.

ولا بأس من تبادل الثقافات الشعبية بين الأمم والشعوب. فإننا إذا تفحصنا بناها العميقة وجدنا أنها تنطوي على قيم كونية ودلالات مشتركة تستمد من الفطرة الذهنية التي فطر الناس جميعاً عليها، ومن التجارب الإنسانية المتشابهة على الرغم من اختلاف البيئات والظروف والتواريخ الخاصة. ولكن البأس أن تنقطع سلسلة الرواية لقصصنا الشعبي، فيضيع بذلك تراث غني، وجزء من تاريخ الذاكرة الشعبية ورموز الهوية الثقافية التي تتعرف بها الشعوب والأمم.

في الغرب أيضا، لم تعد الرواية الشفوية وسيط النقل، بعد التطور المتراكم الذي حدث في مجالات الطباعة ثم المواد السمعية البصرية. ولكن القصص الشعبي ورموزه وأجواءه بقيت حاضرة في خيال الأجيال المتعاقبة والذاكرة الشعبية الممتدة من خلال كتب الصغار المصورة والأفلام السينمائية والأعمال المسرحية ووسائل الترفيه المختلفة التي لا تتوقف عن إعادة إنتاج تلك القصص وشخصياتها بأساليب أكثر جذباً وتأثيراً وأوسع انتشاراً حتى غدت جزءا من التراث الإنساني بجملته. بل كان علينا أن ننتظر هوليود كي تبعث بعض تراثنا الشعبي وشخصياته مثل علاء الدين وعلي بابا والسندباد، في معالجات جديدة لا يسعها أن تتحرر من الصور النمطية التي أنتجها العقل الاستشراقي الذي لم يكتشف الشرق بقدر ما شيّد صورته على وفق ما تمليه علاقات القوة المختلة بين الغرب المتغلب والشرق المغلوب.

أنجزت جدتي دورها في نقل ذلك التراث، وأدت أمانتها التي ضيعناها في جملة ما ضيّعنا. فطوبى لها وحسن مآب.

المعارف التي بدأت في اكتسابها في مجالات الأدب والتاريخ والفلسفة أثناء حياتي في طولكرم، لم تنتصب حاجزاً بيني وبين جدتي الأمية. فبقيت أفزع إليها وأتولى إلى ظلها في كل نهار ومساء، أستمد من سكينتها ما يخفف عني بعض ما أجد من أسباب القلق والتأزم والضيق بمدينة صغيرة خيل لي غرور الثقافة المبتدئة وطموح الإبداع أنها أصغر مني، قبل أن أكتشف في زمن لاحق أنّ الشجرة مهما تكبر وتشتد على سوقها فإنما تستمد من جذورها، وقبل أن أدرك أن المعارف الجديدة لا تمنحنا من الأجوبة أكثر مما تولد من الأسئلة.

مكتبة الربيعي أحمد

بلغني نبأ وفاة جدتي، حين كنت في أول أعوام دراستي العليا في جامعة لندن: عام 1972. هزني الخبر من الأعماق. حاولت أن أكتب حزني، ولكنه كان أكبر من العبارة، وهي أكبر من ادعاءات الشعر وإطار الصورة وحجم المرآة. وليس يسع تلك السنديانة العظيمة إلا قلبي ووجداني وذاكرتي التي تحتضن إرثها الدائم. غاية ما استطعت أن أفعله وفاءً لذكراها بعد حين من الدهر، أني ألقيت بعض ملامح شخصيتها على شخصية «أم أحمد» في «التغريبة الفلسطينية». ولما كان السنديان الفلسطيني متشابهاً رأى المشاهد الفلسطيني في «أم أحمد» مثال الأم الفلسطينية. تلك التي سوف نراها فيما بعد تحتضن جذع زيتونة قديمة كما تحتضن ولداً يوشك أن يتخطّفه الغزاة «المارون بين الكلمات العابرة» وإن استباحوا إلى حين لحمنا ودمنا وقمحنا.

2. الوالدان

لم يلبث والدي بعد أمه إلا أربعة أعوام حتى لحق بها بعد أن أنهكه المرض وأقعده عن عمله. وكنت قد فرغت قبل شهرين فقط من دراستي في جامعة لندن وعدت للتدريس في الجامعة الأردنية. وقد تمكنت من زيارته في طولكرم عقب عودتي من لندن. لم يكن بعض الرجل الذي كانه في عافيته. إذ إن تهالك البدن يستصحب معه تهالك الشخصية و«أناها». أين الرجل القوي الصلب الصارم المهيب الذي كنا ونحن صغار إذا سمعنا زحف خطاه عائداً من دكانه، سكنت حركتنا وأوى كل منا إلى ركنه أو فراشه؟ أين الرجل الذي انتظمت حياة الأسرة زوجة وولداً على إيقاعه؟ أين الرجل الذي كان إذا شوهد مقبلاً في الشارع سارعت النساء إلى إصلاح خمرهن على شعورهن لما عرفن من صرامته في أمور الدين؟ أين الرجل الذي كان ظله ليكاد يخفي أمي عن الأنظار وحتى عن نظرها إلى نفسها، فليس لها حيّز خارج حيّزه، ولا أمر في نفسها خارج أمره، فلكأنها عرض من جوهره، وتبع من توابعه وأثر من آثاره، فلا تتعرف إلا به؟

ذهب ذلك الرجل وحطمته الأمراض وسلبته بصره وإرادته حقاً. وقد صار الآن أمره كله إلى زوجه، تقدّر له تقديراً وتدبّر له تدبيراً، وتدير حياته أو ما بقي منها على وفق حكمتها ونظرها ورأيها. فيا لمفارقة الأقدار. أخيراً غدت أمي وليّة الأمر واستردّت ظلها وإرادتها، واكتشفت قدراتها الكامنة المطمورة، ولكن في أسوأ الظروف، ولقاء ثمن باهظ،

مكتبة الربيعي أحمد

وفي وقت متأخر لن يتيح لها أن تستعمل تلك القدرات وتلك الإرادة في تحقيق ذاتها وتشييد روايتها الخاصة. حين كان والدي في عافيته، أسلمت إرادتها إلى إرادته كرهاً، والآن وقد أفقده المرض إرادته في نفسه، اقتضى الوفاء والعشرة الطويلة والأخلاق النبيلة والمروءة والتذمم، أن تعيره إرادتها طوعاً، لتكون عينه التي يبصر بها عوضاً عن بصره المنطفئ، وسمعه الذي يسمع به، ويده التي يعمل بها، وساقه التي يمشي بها. فمن ذا الذي قصر أخلاق الفرسان على الرجال؟ ومن ذا الذي جعل المروءة حصراً عليهم دون النساء؟

حين تقع الزوجة فريسة المرض المزمن المقعد، يلتمس الناس عذراً للزوج، أن يتزوج أخرى تقوم على خدمته وتلبي حاجته. لا ينظرون في حاجة الزوجة المقعدة بقدر ما ينظرون في حاجة الزوج المعافى أن تذهب عافيته سدى ولما يقض بعد لبابته!! أما إذا كان الوضع على الضد من ذلك فحاجة الرجل المريض أيضا هي محل الاعتبار والحكم الأخلاقي على زوجته. بعبارة موجزة: حاجة الرجل في صحته أو مرضه، سيّان، هي مناط العلاقة بين الزوجين.

وتلك، لعمر الله قسمة ضيزى! بل إن الثقافة الاجتماعية السائدة لتذهب أبعد من ذلك، حين تلزم المرأة زوجها ميتاً، فإذا تزوجت بعده سلقوها بألسنة حداد وإن كانت لا تزال في ميعة الصبا. أما زواجه بعد وفاة الأولى فحق لا تخاصم فيه.

على أن تسلّط أبي رحمه الله، قبل أن يقعده المرض، لم يكن ليصدر عن طبيعة فظّة أو قلب غليظ. فقد كان من أعمق الناس ديناً وأعفهم لساناً. وكان غاية ما يرجو من الدنيا أن يخرج منها كفافاً لا عليه و لا له، وألا يّضل فيها ولا يُضل، وألا يزلّ أو يُزل، وألا يظلِم أو يُظلم، وألا يجهل أو يجهل عليه. وكان من تقوى الله وخوف الحساب أنه كان إذا وقع به شيء من الضُّر مهما صغر، راجع عمل يومه ليرى أين أخطأ في جنب الله فظلم نفسه أو غيره حتى عوقب بذلك الضر. وقد شهدته مرة وقد انخرق بنطاله خرقاً صغيراً بمسمار بارز من خشب الدكان، فوقف متأملاً يتساءل: ترى مالذي جنيته على نفسي اليوم؟ ثم حمد الله تعالى على أن عجل له العقوبة ليطهّره من ذنبه، فدفع عنه ما كان أعظم.

ولقد تفضي التقوى ببعض الناس إلى اعتزال الناس. فذلك عندهم أحرى بأن يجنبهم ما يمكن أن يقع في المخالطة من أسباب الظلم والخطأ. كذلك كان والدي أقرب

مكتبة الرمحي أحمد

إلى التوحّد والعزلة. فلما قرر بناء منزلنا انتبذ لنفسه في طولكرم مكاناً قصياً خالياً، ليكون أبعد عن الصّخب وما يمكن أن يخالطه من بذيء القول وحصائد اللسان التي تكب الناس على مناخرهم في النار. فما هي حتى صارت النكبة، وصار المخيم جارنا.

لا لم يكن تسلّط أبي قسوة متأصّلة. ولكنه كان ابن ثقافته الريفية الذكورية. وإذ يستدخل أحدنا الثقافة الاجتماعية السائدة، فإنها تصبح عينه التي يبصر بها ولا يبصرها، ويحسب أن ما يراه هو من طبائع الأشياء ونواميس الحياة التي لا تخضع للسؤال. وفضلاً عن الثقافة العامة، تتواطأ ظروف معينة لتخلق لكل أسرة مزاجاً خاصاً. وكان مزاج أسرة أبي يميل إلى المحافظة التقليدية الصارمة، وإن شئت فسمّه التّزمت، وينزع إلى الجد في كل شأن، ويترفع عن المزاح والتظرّف واللهو مهما يكن بريئاً. فهو عندهم مما يشتبه بالهزل والمسخرة. وكل ذلك لا يليق بأولي الألباب والدين ولا بالنفوس الكبار التي تتعب في مرادها الأجسام.

وكان الإخوة الثلاثة على اختلاف ما بين شخصياتهم يتسمّون بحساسية مفرطة تجاه كل ما يجرح الكرامة والأخلاق والدين. ولا يطيق أحدهم كلمة فظّة أو طرفة جريئة. بل إنهم كانوا ليرون أن الهزل إن راق لأحد من الخلق، فإنه لا ينبغي أن يروق لمن ضاع وطنه. فليس بعد ضياع فلسطين إلا الجدّ والحزن وخليط من التجهّم والكآبة!

وكنت أجيز لنفسي أحياناً أن أصف مزاجهم الطهوري ذاك بسخرية يرضونها مني، فأقول «لا يحتاج والدي وعمّاي إلى مراجعة كتب الفقه والشريعة لتعريف الإثم: فكل ما سرّ قلبك واستخف فؤادك فاعلم أنه من الإثم أو من شبهاته. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام!».

على الضد من ذلك، جاءت أمي من أسرة مدنية حيفاويّة متوسطة. وعلى الرغم من أنها كانت من أسرة محافظة ترتدي فتياتها غطاء الوجه، فإن تعريفها لمفهوم المحافظة لم يكن ليؤثم الفرح والإقبال على الحياة ومتع التنزه والسياحة الترفيهية وسماع الموسيقى والأغاني ومشاهدة العروض السينمائية أحياناً، والاستجابة لنداء البحر وشاطئه.

انتزعت أمي من عالمها الحيفاوي البهيج مرة واحدة وهي ما تزال في الرابعة عشرة من عمرها، لتتزوج أبي وتدخل في عالم آخر: جدّه جد، وهزله جد!

مكتبة الرمحي أحمد

«سقى الله أيام حيفا»! لم تكن تقولها فقط بحسرة الفلسطيني على بلاده الضائعة المضيعة المسلوبة بعد النكبة، ولكن أيضا بحسرة من سلبت منه طفولته ووعودها ومناديلها الملوّنة بيد الأهل قبل العدوّ. فقدت أمي شاطئ حيفا قبل أن يفقده الآخرون، فلما صارت النكبة، لجأت أسرتها جميعاً إلى لبنان وبقيت هي مع أسرتها الجديدة في طولكرم.

أقدّر أن السنين الأولى من زواجها كانت قاسية موحشة، وهي تتعلم بحكم الضرورة كيف تنقض غزلها الحيفاوي أنكاثا، لتغزل عوضاً عنه ما يمليه زوج صارم، يعتقد بصدق أن سلطانه المطلق دين، وخضوعها دين بالقدر نفسه. فإن شاءا أن يستبقا الخيرات على طريق الفردوس، أحكم من سلطانه، وأوغلت في خضوعها، حتى تفنى عن نفسها لتوجد فيه، وتغيب عن ذاتها لتحضر في ذاته!

ثم ما لبثت أن تعلّمت قواعد اللغة الجديدة التي ليس في معجمها بحر ولا نزهة ولا سياحة ولا ترفيه ولا حتى زيارة اجتماعية إلا ما ندر. أصبح سور بيتنا حدود العالم، وليس وراءه إلا شياطين الإنس والجن يقعدون للنساء في كل مرصد.

وما حاجة الزوجة إلى ما وراء السور، وقد انطوى لها في داخله العالم الأكبر مختزلاً في الزوج والولد؟! ومن جديد يتواطأ الخطاب التقليدي على تجميل القبيح وتزيين القهر والإلغاء. فتسمع قائلهم يقول: إن حجب المرأة عن الحياة هو غاية التكريم والتعظيم. فهي الدرة المكنونة وحبة اللؤلؤ المصونة في محارها، ألا تبتذل عند تزاحم الأقدام، وألا يصيبها من قَذَر الدنيا ما يصيب الرجل المسكين الذي فرض عليه أن يكدح فيها ويغالب عليها، بينما تقعد هي في البيت معززة مكرمة يأتيها رزقها رغداً من كد زوجها. أما احسنهم طريقة، فإذا شاء أن يعلي من قَدْرِ المرأة عند غلاظ الأكباد، وأن يدعوهم إلى تكريمها، ذكرهم بأنها مصنع الرجال! ثم أعقب ذلك بالسؤال البلاغي: وهل المرأة إلا أم الرجل، وأخت الرجل، وبنت الرجل؟ وأي رجل يرضى سوء المعاملة لأمّه أو أخته أو ابنته، حتى يرضاه لزوجه، وهي هؤلاء جميعاً؟!

نعم خطيب القوم ومعلمهم! لولا أنه نسي أو تناسى أن المرأة تلد المرأة أيضا، وأنها أخت المرأة وابنتها كذلك. وأنها قبل ذلك وبعده إنسان ينبغي أن يتعرّف بذاته كما يتعرّف الرجل. ولكن الخطاب الذكوري السائد لا يبلغ هذا الأفق مهما يجتهد بعضه في الترفّق

مكتبة الرمحي أحمد

والتّجمل. فكرامة المرأة من كرامة الرجال الذين تنسب إليهم أباً وأخاً وابناً وزوجاً، والإساءة إليها إساءة لهؤلاء جميعاً. فإن لم تكن هذه أسباباً كافية للإحسان إلى المرأة والترفق بها، ذكرنا خطيب القوم العتيد بأن إصلاح أمر المرأة وتقويم اعوجاجها لا يكون بالشّدة، فالاعوجاج أصل فيها لا حيلة لها في ذلك، وهي من مادّة القوارير، فإن جئت تقومها بالشدة انكسرت، فلا تصلح لذي خلّة من بعد. فارفق بها - رعاك الله - رفقك بالقوارير الهشّة، وأوسع لها من صدرك وحلمك ما ينبغي أن توسع للطفل الذي لم يبلغ الرشد والتمييز، ولا تحاكمها محاكمتك للرجل كامل الأهلية والرشد، فتظلمها بطلب ما لا تطيق وما لم تقدّر له.

ذاك أحسنهم طريقة، فكيف بغيره، والعياذ بالله؟!

أي تكريم للمرأة هذا الذي يجعلها موضوعاً لا ذاتاً، وعرضاً لا جوهراً.

وأي صون للمرأة هذا الذي يسكت صوتها ويغيّب اسمها؟ فإذا ذكر الرجل زوجه أو أخته أو ابنته حاذر أن يبوح باسمها حفظاً من كل شيطانٍ مارد! وكان غاية ما يطعن به الفتى منا أن يذكر أحد زملائه اسم أخته على مسمع من الآخرين، فيثور الدم في عروقه وينتفخ شرفاً، ويقبل على العراك إقبال من يكره الحياة ويحب الموت!

فلله ما تفعل الثقافة إذ نستدخلها فتصير العين التي نبصر بها ولا نبصرها!

وإلا فما بال هؤلاء القوم يخفون أسماء نسائهم غيرة وحميّة، وهم يقرؤون في كتاب الله سورة مريم، ويحدّثون عن مآثر خديجة وفاطمة وعائشة؟!

الخطاب الثقافي يستبد بالنظر، فلا يرينا إلا ما يرى لنا، ويحجب عنا غيره. يستوي في ذلك الغالب والمغلوب، والقاهر والمقهور، فيخضع الثاني لحكمه، ويستمد الأول سلطانه منه، وكلاهما يحسب أنه يحسن صنعاً. ولكن ذلك ليس قدراً مقدوراً ولا حتماً مقضياً. فالتدافع والتغيّر سنة من سنن التاريخ والمجتمع والثقافة، فإذا نضجت الظروف ووقع القول، نشأت خطابات جديدة تتحدى نظم المعاني القديمة، وتجعلها موضوعاً للنظر بعد أن كانت آلته.

ولكن أمّي لم يسعها إلا أن تنصاع لحكم أبي المطلق وثقافته وطبعه، فلم تكن المقاومة من طبعها، وكانت أصغر سناً وأقل تعليماً من أن تجادل عن نفسها وحقوقها.

مكتبة الربيعي أحمد

وكان الصمت سلاحها الأقوى، وربما الوحيد. فإذا غاضبها أحد تشاغلت عنه بالعمل على ماكينة الخياطة وأخذت في الغناء لنفسها، وأصمّت سمعها عما تكره.

لم يكن والدي يمارس سلطانه بأي ضرب من الإساءة اللفظية. فما كان ذلك من خلقه، ولو كان فما كانت أمي لتحوجه إلى شيء منه، وهي أشد الناس حياءً وأقلهم طلباً وأكثرهم صبراً وأطيبهم نفساً وأرفقهم خلقاً. فلم أسمعه قط يخاطبها بكلمة قاسية. ولكني، في المقابل، لم أسمعه يوماً يخاطبها بكلمة عاطفية رقيقة. إذ ليس في معجمه من ذلك شيء. ولعلّه قد استقرّ في وعيه أن الكلام العاطفي يشتبه بالميوعة التي لا تليق بالرجل، وأنه قرين الأغاني والسينما والمراهقين. ولكنه على الرغم من ذلك كان متعلقاً بها، مهما يكن تعريف التعلّق. وكان ذلك يتجلّى منه بالسلب لا بالإيجاب. فإذا غابت عنه ولو لأيّام معدودات في إحدى الزيارات النادرة لأهلها في بيروت، بدا تائهاً كأنه يعوم في فراغ وقد غابت شواهد عالمه التي يعرف بها مكانه ووجهته. ومكث شارداً حائراً مضطرباً، ينتظر عودتها على أحر من الجمر. هل كان ذلك شاهد حب يغني فيه الحال عن المقال، أم شاهد الحاجة إلى الأليف المألوف، والسكن المريح، والشريك المدبّر؟! لا أحسب أني أستطيع أن أجزم يوماً بجواب. فعلم ذلك عند ربي في كتاب، لا يضلّ ربي ولا ينسى.

ولكني أعلم أن هذا الضرب من التعلّق حمّلها عبئاً ثقيلاً. فكان يأبى أن تفارقه لأي سبب، إلا في أندر الحالات، وبعد أن تتدخل جدتي التي لا يسعه ردّها.

وكما كانت جدّتي -رحمها الله- شفيعنا إلى الوالد فيما نتّقي أو نرجو، كانت كذلك لوالدتي. وكذلك كان عمي محمود (أبو جهاد) بمثابة الأخ البديل لها، وكان أبي لا يردّ له طلباً ولا يخالف له رأياً. وكان رجلاً براً بكل أسرته: صغيرها وكبيرها. وكنّا جميعاً نفزع إليه في كل نازلة، فلا يخيب لنا رجاءً، ولا يدّخر عنّا عطاءً. ولمّا رأى أمي تكدّ في غسل الثياب بيدها، أهداها غسالة كهربائية قبل أن تصبح من لوازم البيوت. وكان لها الوسيط الذي ترجى وساطته، والحَكَمُ الذي تُرْضى حكومته. فلا عجب أنها كانت تقدمه على إخوتها الذين باعد التهجير بينها وبينهم، ولم تدرك من رعايتهم ما أدركت من رعايته، وهي التي فارقتهم إلى بيت الزوجية حين كانت في الرابعة عشرة من عمرها.

ومع تعاقب الإنجاب، وجدت أمي سلواها في أبنائها. فهؤلاء إذ تبذل نفسها لهم فإنها لا تبذلها خضوعاً وانصياعاً، وإنما تبذلها حباً ورضى وحناناً. وإذ انصرفت عن نفسها

مكتبة الربيعي أحمد

لهم، فإنما تنصرف عن نفسها لنفسها. فهم نبتها وحيّزها الذي لا ينازعها أحد قسمتها فيه. وإن كان لابد من توزيع أنصبة البر بالوالدين، فأمك، ثم أمك، ثم أمك ثم أبوك. فتلك قسمة الرحمن دون خلقه، وعلى الأبناء عبء الامتثال فريضة واجبة.

وما كان تعلقنا العاطفي الخاص بأمنا، وقربنا منها وتقديمنا لها، بحكم الفريضة الواجبة فقط، وإنما كان كذلك بحكم الواقع.

لا ريب أن والدي كان محباً لأبنائه أشد الحب، وكانوا مدار حياته ومعقد رجائه ومنبع فخره. ولكنه من جديد كان أسير طبعه وعاداته ومزاجه السوداوي. فلا يحسن التواصل معهم ولا التعبير عن مشاعره نحوهم. فرأوا من ظاهر صرامته أكثر مما رأوا من باطن محبته وإشفاقه، إلا إذا ألمّ بأحدهم عارض من مرض فيستعلن حبه بالقلق الشديد عليه والسهر على رعايته حتى يتعافى. ولأمر ما، كنت إذا رأيت أبي يحنو عليّ في وعكة تصيبني، يغلب علي الشعور بالخجل، وكأني لا أريد أن أبدو ضعيفاً في نظره ونظري، ولا أدري كيف أتفاعل مع الجانب الرفيق الرقيق الذي لم آلفه منه في غير هذا الحال.

كان يطيل الجلوس وحده في دكانه صامتاً متأملاً عابساً منقبضاً. فإذا عاد منها عاد إلى طعامه ومنامه. وليس بين هذا وذاك مجال للتواصل مع أبنائه، بل كان وقع أقدامه عائداً في المساء، إذ كنا ما نزال صغاراً، إيذاناً بأن نأوي إلى فراشنا. فلا أذكر يوماً أننا اجتمعنا على مائدة إلا وقت الإفطار في رمضان، إذ لا مناص من اجتماع الأسرة. ولا أذكر أننا كنّا نلتف حوله نتبسط في الكلام ويفضي بعضنا إلى بعض.

أنجب أسرة كبيرة: سبعة ذكور وخمس إناث، وعاش على الرغم من ذلك وحيداً. وإني لأذكر ذلك بحزن غامر، على ما فاتنا منه وما فاته منّا. بل إنني لا أستطيع التحرر من شعور عميق بالذنب، لأن حضوره في ذاكرتي ووجداني دون حضور أمي وجدتي وعمّي.. رحمه الله وغفر له.

وفي المقابل، كان لأمي منا أضعاف ما لأبي: نباسطها، ونصارحها، ونسرّ إليها، ونقبلها وتقبّلنا، ونمازحها، ونضمها، وقد نبكيها ثم نجتهد في أن نرضيها.

مكتبة الربيعي أحمد

هنا في حيّز الأمومة كان لها الحضور الأول، والسهم الأعلى. ولكن، هل يغني الحضور في الأمومة على نبلها وسموّها عن حضور المرأة في ذاتها لذاتها؟ لماذا يكون عليها ألا توجد إلا في غيرها بوصفها زوجاً أو أماً؟

لماذا يكون عليها أن تلوذ بدور الأم من دور الزوجة الضعيفة!

منذ وقت مبكر كنت أسخر من الصورة النمطية التي ترتسم للأمومة في الأفلام السينمائية ومقالات التعبير التي ينشئها تلاميذ المدارس وفي عروض الحفلات المدرسية بمناسبة عيد الأم ونحو ذلك. ثم صارت تستفزني أكثر مما تثير سخريتي.

في هذا السياق، تتجرد صورة الأم من كل أثر للأنوثة وصخب الجمال وحيوية الشباب. وكأن الأمومة لا تكتمل إلا بنقص الأنوثة، أو أنها وظيفة لا تصلح إلا لمن استقالت من أنوثتها. فهي تبدو مكتهلة حتى في شبابها، شاحبة الوجه حزينة الملامح، بسيطة الثياب، بطيئة الحركة، سريعة الدمعة، تسدل حجابها على كتفيها حتى في بيتها. وكأنها قد فرغت من صلاة أو تهمّ بها. لا تتحدث إلا بصوت خاشع يوشك أن يرتجف برنّة البكاء. ولا نراها إلا مودّعة أو مستقبلة تستصحب دموعها في الحالين. وأكثر كلامها الدعاء للأبناء، وأكثر عملها دعوة الأبناء إلى الطعام، أو السهر على المرضى، أو الاستفسار من الولد على ما أهمه من أمر الدنيا حتى اعتزل في غرفته وبدا عليه الهم والغم وطول التفكير! وهي في كل ذلك لا تشكو إلا مما يشكو منه غيرها، ولا ترجو إلا ما يرجوه أحبابها لأنفسهم. فحزنها من حزنهم، وسعادتها من سعادتهم، وليس وراء ذلك شيء. وإن نقص من هذا كله شيء، فإنما ينقص من أمومتها.

أما مقالات التلاميذ في درس التعبير عن الأم، فلا تحتاج إلى كدّ الذهن. فالكليشيهات الجاهزة المكرورة قد أنجزتها مسبقاً. وخير ما تستفتح به عبارة: «الأم شمعة تحترق في سبيل أبنائها»، أو شيء من هذا القبيل مع التأكيد على أن الأم إذ تحترق احتراق الشمعة فإنها لا ترجو بذلك عوضاً ولا جائزة. ثم تلحق بذلك الأسئلة البلاغية الفذّة: «كم سهرتِ لأنام، وجُعت لآكل، وتعبت لأرتاح...؟»، ثم لا يتنبه كاتبنا، التلميذ الألمعي، إلى أن هذه الأسئلة وإن قصد بها أن تكون شهادة لبذل أمه وتفانيها وإيثارها، فإنها شهادة عليه وتهمة تدمغه بالأنانية. فكيف يرضى لنفسه، وهو الابن البر أن يؤثر

مكتبة الرمحي أحمد

نفسه على أمه وهو قادر، فيتركها تجوع لكي يشبع، وتكد وتتعب ليرتاح. أفما كان من البر أن يقدمها على نفسه، وهو الذي يحب أن يظهر بين زملائه بالقوي الشديد الصّرعة؟!

ولكن، ما عليه إذا كان هذا الكلام الغث يبلغه العلامة المنشودة؟ فبقدر ما يزيد من هذه الأوصاف العاطفية التي تكافئ بين شقاء الأم ونبل رسالتها، تزيد علامته. شقاء الأم بطولتها. هذه هي الرسالة المضمرة! ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

أما الأشد إزعاجاً، فهو ما يقع في العروض والحفلات المدرسية، حين يكلف الطفل أو الطفلة أن يلقي قصيدة في الأم. وتعمل المعلمة على تحفيظ الطفلة وتدريبها على طريقة الإلقاء مع التلوين الصوتي والحركي. فترى الطفلة بعد ذلك قد اعتلت المسرح وطفقت في الإلقاء بأسلوب استعراضي شديد المبالغة والتكلف. فإذا ألقت صدر البيت لوحت بيدها اليمنى، ثم إذا أتبعته بالعجز، لوّحت بالأخرى، ثم إذا خرجت إلى البيت التالي لوحّت بالاثنتين معاً. وطاب لها - على وفق تدريبها - أن تكرر الكلمة الأولى أو العبارة الأولى من البيت، قبل أن تستأنف. وترفع المسكينة عقيرتها بالصوت حتى تغلبها البحّة، وتغلّف أداءها بالانفعال العاطفي الشديد حتى ليختنق صوتها بما يشبه البكاء. فالغاية العظمى أن تبكي وتستبكي الحضور. فإذا مسحت إحدى الأمهات الحاضرات دمعة بمنديلها، فقد بلغنا الغاية.

البكاء قرين الأمومة! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأوشك أن أقول إن تدريب الأطفال على هذا النوع من الأداء وهذا النوع من المعاني هو ضرب من الإساءة للطفولة، فضلاً عن كونه ابتذالاً لصورة الأمومة.

لِمَ ينزع هؤلاء إلى ضرب ستار حديدي بين المرأة الأم والمرأة الأنثى والمرأة الزوج والمرأة المتمكنة والمرأة العاشقة والمرأة المعشوقة؟ لماذا ينبغي أن يستقل كل وجه من وجوه المرأة هذه عن الآخر، وكأنها لا تجتمع في نفس واحدة وإطار واحد؟ فإذا شئنا أن نرسم لها صورة الأم جردناها من كل مظاهر الزينة واخترنا لها ألواناً شاحبة، وجعلنا لها نظرة كسيفه؟ وإذا اخترنا في سياق آخر أن نرسم لها صورة المرأة الأنثى الفاتنة ضجت الصورة بالألوان والتمع بريق الحياة في العينين واشياً بالرغبات المضمرة: رغباتها ورغبات من يرسمها!

مكتبة الربيعي أحمد

وإذا شئنا في سياق ثالث أن نرسم لها صورة المرأة المتمكنة الناجحة المنخرطة في العمل العام ألبسناها ثياباً رسمية مسترجلة، وألقينا عليها ملامح الصرامة والاستبداد والتشبه المنفر بالرجال؟! أما أقبح الصور، فتلك التي ترسم للمرأة الناشطة في الحركة النسوية، إذ تعطّل من كل مظهر من مظاهر الأنوثة، وكل أثر من آثار الأمومة، فلا هي للرجال ولا هي للنساء، وكأن الرسالة المضمرة هنا: أنها ما اختارت هذا الطريق وهي قادرة على غيره، وما دافعها إلا الإحباط واليأس من أن تصيب شيئا من حظوظ المرأة الأخرى!

عمّ يتساءل هؤلاء الرجال: ماذا تريد المرأة؟ وكان الأجدر أن يتساءلوا: ماذا يريدون منها؟!.. حارت الألباب وضلّت الحكمة!

وعوداً إلى صورة الأم الوادعة الشاحبة الكسيفه النظرات السريعة الدمعات، التي يحلو للبعض تشبيهها بالشمعة التي تحترق لتضيء لأبنائها، أتساءل: من ذا الذي حكم عليها أن تحترق لتضيء، وتفنى لتعطي؟ أفلا يسعها أن تمنح من نفسها وتأخذ لها في الوقت نفسه؟

أفلم أقل في غير موضع أن الصور الذهنية التي نخترعها، والاستعارة التي نحيا بها تستقل عن الواقع، وتحجبه عن النظر؟ هل صحيح أن الأم المتفانية لا تشكو أحياناً ولا تغضب ولا تحتج على ثقل أعبائها ومطالب أسرتها، وقلة تعاونهم معها، واعتبارهم إياها أمراً مفروغاً منه؟! أفما سمع أحدنا أمه تنعى حظّها وتخاصم ولدها وتشكو إلى الله ما تجد، وقد يبلغ بها الغضب أن تدعو على نفسها أو حتى على ولدها، فإذا سكن عنها الغضب استغفرت الله وعادت سيرتها الأولى تدعو له؟!

وليس ينتقص هذا من أمومتها شيئاَ، ولا من حقيقة بذلها وتفانيها، وإن كان يذكر بأنها إنسان ذو وجوه أخرى، وأنها لا تستمرئ إنكار الذات وتعذيبها شرطاً للبذل، ولا تحرص على الاحتراق شرطاً للإضاءة، ولا على الفناء شرطاً للعطاء!

تلك هي الأم خارج كليشيهات النصوص المبتذلة ومُثُل الأساطير المخترعة. وكذلك كانت أمي، غير أنها كانت مثل كل الأمهات ... خير الأمهات!

قضى والدي نحبه. وبكته أمي بكاءً صادقاً.. واستوحشت لغيابه لا ريب، ولكنها لم تفتقد سلطته! عدّدت من مناقبه ماهو جدير به. ثم إذا انقضت أشهر الحزن والدهشة

مكتبة الرمحي أحمد

الأولى، صارت إذا ذكرته، افتتحت بالدعاء: سامحه الله، واختتمت بالتأكيد على أنها تسامحه دنيا وآخرة.

أما أنا، فما يزال منذ ذلك الحين، يلازمني شعور بالذنب لأني لم أستطع اختراق الحاجز الذي ضربه أبي على نفسه في حياته، ولا أستطيع أن أستحضره في أحلامي بعد موته! فإذا بلغت باب سورنا في جولة الحلم المعهودة، لم يظهر له طيف، وظهر طيف أمي عند باب البيت، قبل أن أستفيق على خدعة الحلم وحيلة الرغبات المقهورة.

لم تلبث أمي طويلاً بعد أبي حتى غزتها العلل من السكري إلى تصلّب الشرايين. وكان أشد ما تخشاه أن يعجزها المرض كما أعجز أبي، فتصير عالة على غيرها. فكانت تدعو الله أن تموت واقفة على حين غرّة، ولا تتساقط أنفساً. وقد أجيبت دعوتها.

ففي ليلة من ليالي عام 1986، قامت من الليل على بعض الألم في صدرها. وما هي حتى تَقَبَّضَ صدرها وتثاقلت أنفاسها، واشتدت بها الأوجاع. ومع ذلك أشفقت أن توقظ أحداً من أهل البيت فتفسد عليه هناءة نومه، ذلك مبلغ ما طبعت عليه من الإيثار. ثم استفاق بعضهم على آهاتها المكتومة. وفي الطريق إلى المستشفى أسلمت الروح إلى بارئها وهي بعد في التاسعة والخمسين من عمرها.

كنت ما أزال راقداً في فراشي صباح ذلك اليوم في عمّان، حين رنّ جرس الهاتف. تناولت السماعة بتثاقل، وإذ بالمتكلم زوجة أخي الكندية تخاطبني من كندا. واستشعرت شيئا من القلق أن تبادر هي بالمهاتفة دون أخي.

حيتني بتحية الإسلام مع لكنة أجنبية، وسارعت أنا إلى السؤال عن الحال. أجابت:

– لست بخير.

وانفجرت بالبكاء فوراً. فارتج قلبي بالنذير. وانصرف عقلي إلى أخي أحسب أن المصيبة فيه. فقلت فزعاً:

– ما الأمر؟

أجابت:

مكتبة الربيعي أحمد

- أم فيصل. توفيت الليلة! أنا آسفة. اتصلوا بنا من طولكرم وأخبرونا. وطلبوا منا أن نخبرك، إذ هم لا يستطيعون الوصول إليك عبر الهاتف. لعلّك تستطيع أن تعبر الجسر إلى طولكرم نهار هذا اليوم فتشهد الجنازة والدفن بعد صلاة العصر.

شعرت بأثقال من حديد تشدّ معدتي على غير إرادة مني. وانطفأت شمس الصباح قبل أن تبدأ رحلتها، وصمت الكون إلا من ذلك الأزيز الغامض البعيد المراوغ الذي تظنه صوت الأبديّة، ولا يأتيك إلا بغتة، فإذا أصخت السمع توارى فيَ الحجاب.

كنت أعلم أنها عليلة. ولكني مع ذلك لم أتوقع إطلاقاً أن يكون أجلها قريباً. وحسبت أن العلاج كافٍ للسيطرة على مرضها المزمن. ولذلك كان النبأ عظيماً، وكانت صدمتي على قدره.

أدركت جنازتها بشق الأنفس مروراً بإجراءات الجسر المذلّة. فالعدو المحتل يأبى إلا أن يحاصر حزنك كما يحاصر فرحك.

في المقبرة زادني التأمل حزناً على حزن. فقبل أعوام، كنت تلميذاً صغيراً في المدرسة العمرية الابتدائية أعلى التلة التي تقوم عليها المقبرة. فإذا انقضت ساعات الدراسة عجلت إلى بيتي بعيد العصر في مثل هذا الوقت، لأثوب إلى حضن أمي، وخبز أمي. وكنت أمر بجانب المقبرة مقبلاً إلى المدرسة أو مدبراً عنها، وكانت وعود الحياة والصبا وألفة المشهد تصرف عن نظري وحشتها. والآن ها هي أمي تثوب إلى حضن الأرض، وأنا بيدي أوسّدها التراب. ولا يهون علي بعض ما أجد من الأسى، إلا إيماني بأنها، ككل البشر، خلقت من هذه الأرض التي تودع الآن فيها، ومنها تعود بأمر الله تارةً أخرى. فالأرض ليست بعيدة عن السماء، والنزول فيها أول الصعود منها. وكثيراً ما يكون باطنها خيراً من ظاهرها!

فرغنا من شعائر الدفن، وتلقينا أول العزاء عند القبر الجديد. وآن أن ينفض ركب الجنازة. وكنت قد عزمت في نفسي أن أتخلف عنهم وأقيم عند قبر أمي بمفردي ساعة أو ساعتين، أؤنسها بتلاوة القرآن والدعاء، وأستكمل معها طقوس الوداع الأخير على نحو شخصي حميم لا تتيحه الرسوم الجمعيّة: هي وأنا فقط، ابن لأم، وربّما كذلك أم لابن! وإذ أخذ الناس في الإدبار تراجعت عنهم إلى القبر، وجلست القرفصاء. وما إن بدأت

مكتبة الربيعي أحمد

بالهمس، حتى شعرت بيد تجذبني بقوة. كان أحد أقاربنا الكهول. وكان له عليّ سلطان السنّ ومودة أبي الراحل. قال بنبرة قاطعة حازمة:

- قم يا ابن أخي.

وقد ظن الرجل أن الجزع قد أخذ مني كل مأخذ، حتى ألزمني القبر إذ تفرق الناس. وأشفق أن تذهب نفسي حسرات تفجعاً وأسفاً.

حاولت أن أشرح له أني اخترت هذا عن بينة واضحة وغاية في نفسي أريد قضاءها. وما هو بالجزع الذي يضل العقل ويخلّ بالرأي. فما زاده بياني إلا إصراراً. فغلب على إرادتي بسلطان السن والمودّة. حتى في أخصّ المشاعر واللحظات لا يسعك أن تنسحب إلى حيّزك الشخصي حتى يقتحمه عليك غيرك، هكذا الناس في بلادي.

مضى على وفاة أمي حتى الآن، ستة وعشرون عاماً. وقفت عند سن التاسعة والخمسين، وتركتني أتجاوزها في السن!! ومع ذلك فما يزال طيفها منذ ذلك الحين ماثلاً في ذاكرتي بوجهها الشاحب ونظرتها الكسيفه الوادعة وحيائها العجيب حتى مع ولدها، وتعففها عن الطلب. وكأنها لم تمت إلا البارحة. أما في أحلامي المكرورة التي تنتهي بي عند منزلنا وباب السور، فما زلت أطرق الباب، لأرى طيفها من بعيد يخرج من باب البيت القائم في وسط الحديقة، ثم لا يبرح ذلك المكان. فمتى يكتمل المشهد، فتتابع سيرها إلى باب السور وتتلقى ولدها العائد من زمن التجارب والاختبارات والخيارات المرهقة؟!

3ـ العمان

علمنا الإخوة الثلاثة، أبي وعماي، معنى التضامن والتراحم الأسريين على الصعيدين العاطفي والمادي، وفي السراء والضراء، وفي حالي التداني والتنائي. فعلى الرغم من أن كلاً منهم قد كون أسرته الخاصة، فإن الأيام لم تزد الصلة بينهم إلا قوّة ورسوخاً، فكانوا حقاً كالجسد الواحد، يصح جميعاً أو يعتل جميعاً. وكان ما بينهم مزاج من الحب والإيثار والاحترام. وما سمعت أبي يدعو لنفسه وولده في قنوت الفجر إلا ويدعو بمثله

مكتبة الربيعي أحمد

أو بأحسن منه لأخويه وذريتهما. ثم امتد كل منهم بهذه الصلة والرعاية إلى أبناء أخويه، فكان يسعى في أمرهم سعيه في أمر أبنائه إذا اقتضى الأمر، ويتابع سيرة كل واحد منهم خطوة خطوة، ويحمل هم المهموم منهم حتى تزول غمته، ويحتفي بإنجازه احتفاءه بإنجاز ولده، ويعتز باللامع منهم اعتزاز أبويه به.

لم يكن بينهم أثارة من أنانية، أو مما يكون أحياناً بين الإخوة من تنافس قد تخالطه الغيرة. وكان عمي الصغير أبو جهاد فخر أخويه وأسرته منذ تفتح وعينا على الحياة. فهو الذي استطاع أن يصعد في مدارج العلم حتى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن وتقلب في المناصب المرموقة حتى استقر أستاذاً جامعياً من طراز رفيع، يحظى باحترام خاص من أقرانه وطلبته، لغزارة علمه وحسن أدائه وسموّ أخلاقه. فكان اعتزاز أخويه بنجاحه أعظم من اعتزازه هو به، إذ لم يزده العلم إلا تواضعاً.

أما عمي مصطفى (أبو نزار)، الذي يتوسط أبي وعمي أبا جهاد، فقد انتقل بتجارته وأسرته مبكراً إلى مدينة الزرقاء في الأردن، أملاً في أن تنمو تجارته بالنمو السكاني السريع للزرقاء، بفضل وجود معسكرات الجيش الأردني قريباً منها. وقد نمت الزرقاء فعلاً، ولكن تجارة عمي لم تنم بنموها. فقد كان ينقصها شيء غير النمو السكاني وتوسع السوق. كان ينقصها الموهبة التجارية والمخيلة الاقتصادية عند عمي! والحق أن أسرتي لم تخلق للتجارة ولا تملك عقلية التاجر وأساليبه. وما اختار أبي وعمي أبو نزار طريق التجارة إلا لانعدام الخيارات الأخرى. إذ لم يصيبا حظاً من التعليم يكفي للعمل الوظيفي أو التعليمي وأصابا منه ما يكفي لتضيق عليهما القرية وأسلوب عيشها. فماذا بقي لهما إلا أن يجربا حظهما في التجارة الصغيرة، فكانت بقالة أبي التي لم تكبر أبداً ومحل عمي لبيع الملابس الجاهزة الذي لم ينتفع كثيراً بنمو السكان في الزرقاء. وكيف له أن يزدهر وصاحبه يجهل اتجاهات «الموضة»، ولا يعني نفسه بمعرفتها، ولا يختار منها إلا ما يوافق معياره الأخلاقي، ولا يفتأ بحسه المتطهر ينعي فساد الزمان وذهاب الحشمة في مظهر النساء. فهذا قصير كاشف، وهذا ضيّق يفصل البدن، وهذا رقيق يشف عما تحته.

أما الملابس الداخلية، فلا مساس! بل كان يغيظه ما يرى من «موضات» الرجال الجديدة، كالبناطيل الضيقة حيناً وبناطيل «الشارلستون» حيناً آخر. فكلها علامات

مكتبة الربيعي أحمد

الميوعة والتشبه بالغرب المنحط. وإلى ذلك، لم يكن ليتقن فنون الإقناع التي يمكن أن يخالطها بعض الكذب والتضليل والغرر.

وفي أول أمره، كان له شريك محترم أمين. وما لبث هذا الشريك أن أدرك أن عمي يصلح أن يكون أخاً وصديقاً وخلا وفياً، ولكنه لا يصلح أن يكون شريكاً. فانفصل عنه بمعروف وإحسان، واستقل بتجارته التي توسعت وازدهرت وربت. فقد كان له من الموهبة في التجارة ما لم يكن لعمي، وكان أقدر منه على صنع توازن معقول بين مقتضيات التجارة و مقتضيات الدين والخلق.

ومع ذلك كان عمي هذا، أكثر تبسطاً وحيوية وانفتاحا وإقبالا على الناس من أخويه، ويستخفه من الحياة ما لا يستخفهما، حتى إن جدتي رحمها الله كان تصفه «بالفرفحينه»، وهي كلمة عامية من الفرح. فقد كان أدنى إلى حسن الظن بالناس، وإلى تصديق وعود الحياة، وإلى مزج الجد بالمرح، وإلى الإفصاح عن عواطفه لمن يحب. ولقد كان تبسطه ذاك مما يجذبنا إليه، فلا نتحفظ معه تحفظنا مع أبينا، ونفضي له ويفضي لنا على سعة منه ورحابة صدر.

ولما كنت أدرس في الجامعة الأردنية كنت أزوره في محله في الزرقاء بين الفينة والأخرى فيأنس بي وآنس به، ويحتفي بوجودي أشد الاحتفاء، ويرجو أن يمسكني عنده أطول وقت ممكن. ولما رأى أني أستأذن في الرجوع بعد ساعة أو ساعتين، ظن أن سبب تعجلي إلحاح الرغبة في التدخين. وكان يعلم من ذلك ما لا يعلمه أبي. وكنت أربأ بنفسي أن أدخن أمامه احتراماً وتأدباً. وإذ استأذنته في المغادرة يوماً ألح علي أن أدخن عنده فأطيل الجلوس معه. فلما رأى امتناعي حرجاً، قدم لي سيجارة منه، وكان ينفرد عن أخويه بالتدخين. فامتثلت على تردد وحرج ما لبثا أن تلاشيا مع دخان السيجارة الثانية! وكان جل حديثنا في السياسة وهو الذي ينام ويصحو على قضايا وطنه وأمته العربية والإسلامية شأنه في ذلك شأن أخويه. وكان أكثر كلامه في هجاء الحكام العرب وعمالتهم وخياناتهم وتفريطهم. لا يستثني أحداً. وكان يختزل رأيه فيهم في عبارة ظريفة، فيقول (هؤلاء الحكام إذا تبادلوا المديح فكلهم كذاب. وإذا تبادلوا الاتهامات فكلهم صادق، ولا يصدقون في غير ذلك). فمن شاء منهم الآن أن يأخذه بكلامه، فليرسل عليه شرطته إن استطاع!

مكتبة الربيعي أحمد

بعد سنوات أقلع عمي أبو نزار عن التدخين. وبالتدريج بدأ يغلب عليه مزاج أخويه المتحفظ. وفي آخر سنيّ عمره بدا وكأنه استدار على هيئة أبي تشدداً وتزمتاً إلا من بقايا مرح وتبسط تعاوده بين الفينة والأخرى. وقد قاوم دخول جهاز التلفاز بيته أعواماً، حفظاً لنفسه وأسرته من حبائل الشيطان وغواياته. وما زال أبناؤه يلحون ويضغطون حتى استجاب على كره منه. فكان إذا دخل البيت وأسرته تشاهد مسلسلاً، أرسل نظرة إلى الشاشة بطرف عينه، وقد اكتسى وجهه بملامح النفور والاشمئزاز، وغمغم بالنكير على الشاهد والمشهود! ومضى على ذلك زمناً، حتى بدا كأنه قد ألف الحال، فكف عن التعليق. وأعان على ذلك حاجته إلى مشاهدة نشرات الأخبار والبرامج الدينية.

شهد وفاة أخويه الأكبر والأصغر، قبل أن يلحق بهما عام 2002. ولئن فاتني حضور جنازة أبي وجنازة عمي الأصغر أبي جهاد، فلم تفتني جنازة عمي أبي نزار. وكان قد قال لي قبل أعوام: «إذا مت يا ابن أخي. فلتكن أنت من يلحدني في قبري». كان ذلك مبلغ محبته لي. فلما صرنا إلى الدفن، استأذنت ابنه الأكبر، وهو رفيق الطفولة وخل الوفاء، أن أعمل بوصيته تلك التي لم يسمعها أحد غيري. وهكذا كان. فلما أتممنا الدفن أردت أن أفعل عند قبره ما لم يسعني فعله عند قبر أمي: فأتخلف عن الناس إذ ينفض ركبهم، وأونسه بتلاوة القرآن وقتاً. وقد نجحت هذه المرة وأعانني على ذلك ابن عمي نزار، الذي مكث معي حتى فرغنا، وعدنا معاً.

سلام على عمي أبي نزار، وطوبى له وحسن مآب!

أما عمي محمود إبراهيم (أبو جهاد)، أستاذ الأدب العربي الفذ، الذي كان إذا تحدث تداعت إلى لسانه لغة القرآن الكريم، تمده ببلاغة مرسلة مطبوعة لا تكلف فيها، فذاك كان في حياتي العم والأخ الأكبر والمعلم الأجل والخل الأوفى. وقد شاء الله تعالى أن تقترن حياتي بحياته، وتتداخل سيرتي بسيرته، فألزمه حتى آخر عمره، لا تزيدنا الأيام إلا قرباً.

تعهدني صغيراً قبل أن يتزوج وينشئ أسرته الخاصة، وأغدق علي من محبته ورعايته فوق ما يغدق الأب الحاني على ولده. وأدرك ميولي الأدبية والإبداعية مبكراً وأنا بعد في الصفوف الابتدائية، فآمن بها مصدقا، وأرشدني كيف أرعاها حق رعايتها حتى تستغلظ وتستوي على سوقها، وعلمني الاهتداء بنجوم الأدب الخالد لمعرفة الوجهة والطريق في

مكتبة الرمحي أحمد

رحلة البحث عن صوتي وذاتي. فكأنه كان يدلني علي، ويرشدني إليّ. ثم فارقنا للعمل في إحدى الدول العربية بضع سنين، أعقبها بالسفر إلى لندن لاستكمال دراساته العليا في جامعتها، حيث حصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية الشهيرة التابعة لجامعة لندن. وكان يتقن الإنجليزية بأساليبها الكلاسيكية الرزينة. ويعرف من اللاتينية ما يكفي لفهم نصوصها. فجمع في ثقافته بين المشرق والمغرب، وتجاور في وعيه وذائقته الأدبية شكسبير والمتنبي. وكان شغوفاً بالترجمة بين آداب العربية والإنجليزية. لاسيما ترجمة النصوص العربية القديمة إلى إنجليزية تحاكيها في سماتها الكلاسيكية أسلوباً وإيقاعاً على وفق نظام الإنجليزية وموروثها الأدبي، حتى ليكاد النص المترجم يبدو أصيلاً في موطنه اللغوي الجديد، لا يدل على هجرته إلا ما ينطوي عليه من إشارات ثقافية وتاريخية تخص وطنه الأول.

وعلى الرغم من اجتماع الثقافتين العربية والإنجليزية في وعيه وذائقته، بقي وفياً أعظم الوفاء لهويته الحضارية العربية الإسلامية، بل كذلك لقيمه الريفية التي نشأ وشبّ عليها. فإذا خالطته لم تجد في سلوكه ومزاجه العفويّ أثراً من مظاهر التغريب والاستلاب الثقافي الاجتماعي. وهنا تكمن المفارقة!

محمود إبراهيم، ابن الريف الفلسطيني، والرجل المحافظ في أسرة محافظة، ينتقل إلى لندن ويقيم فيها أعوام دراسته، في النصف الأول من عقد الستينات من القرن الماضي: عقد الثورات الشبابية والتحرر الجنسي والتمرد على المؤسسة التقليدية، والأدب الغاضب، وصرعات الثياب القصيرة والهيبز والخنافس، ومع ذلك كله لا يبدو أن الرجل قد اختبر شيئاً من الصدمة الحضارية وصراع القيم والثقافات وإشكالات العلاقة المركبة بين الشرق والغرب - تلك التي ما زالت منذ رفاعة الطهطاوي حتى الوقت الحاضر تمثل موضوعاً رئيسياً في أشكال الثقافة العربية المعاصرة من الأعمال الفكرية إلى الأعمال الأدبية! وما زالت الاستجابات الفكرية لها تتراوح بين قطبي الاستلاب وجلد الذات من جهة، والتقوقع الثقافي ورفض الآخر من جهة أخرى، وبين هاتين المنزلتين منازل من التوفيق والتلفيق والمواقف المشروطة.

ذهب محمود إبراهيم إلى لندن، ثم عاد منها كما ذهب، يحمل في داخله هويته الحضارية العربية الإسلامية لم يمسسها سوء، وقريته الفلسطينية لم تتغير ألوانها. فلا فتنته

مكتبة الربيعي أحمد

جاذبية الغرب القاتلة عن نفسه وهويته، ولا احتاج إلى التحصن من تهديدها وراء جدر مغلقة، ولا عاد بأسئلة وجودية مشكلة حول العلاقة بين الخصوصيات الثقافية والقيم الإنسانية الكونية. وظل المتنبي متجاوراً في وعيه وذائقته مع شكسبير، ووليم وردزورث مع الشابي، والكوميديا الإلهية مع رسالة الغفران، دون كدّ ولا تكلف. فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها. والاستزادة من الحكمة والمعارف والعلوم ومناهج البحث والتفكير والتحليل والنقد، هي ما ذهب محمود إبراهيم إلى لندن في طلبه، وقد عاد بها. وكفى الله المؤمنين القتال!

لم يعن نفسه باختبار أساليب الحياة و أنماط الثقافة الشعبية ومنظومات القيم السائدة. ولم يشعر بأن المجتمع الغربي يضغط عليه ليغير جلده شرطاً لقبوله. ولعل إقراره العفوي بسنة الاختلاف والتعددية باعتبارهما جزءاً من الشرط الإنساني، قد أعفاه من أزمة الخيار بين الاستلاب و الانغلاق. فكلا الاستجابتين، على ما بينهما من تناقض ظاهر، ترتدّ إلى أصل واحد ينكر سنة الاختلاف والتعددية، فإما أن تذوب بالآخر، وإما أن ترفضه بإطلاق وتنسحب داخل أسوار «الغيتو» الثقافي الذي تنتمي إليه؛ إما أنت فقط، والآخرون هم الجحيم، وإما الآخر فقط وثقافتك هي الجحيم! أما الإقرار بمبدأ التعددية فيسمح لك أن تكون نفسك دون أن تشترط لذلك نفي الآخر، ويسمح للآخر بالحضور في عالمك دون أن يهدد حدوده وسيادته.

وبكل عفوية وبساطة لم ير محمود إبراهيم في تقدم الغرب المادي والعلمي والتقني شهادة لسموه الأخلاقي وتفوقه القيمي كما رأى الكثيرون من أقرانه. كما أنه لم يتخذ من انحطاطه الأخلاقي وتاريخه الاستعماري حجة لتزيين الواقع العربي الإسلامي المعاصر وتبرئته من وصمة التخلف الذاتي. فليس علينا أن نختار بين اتهام العوامل الذاتية وتبرئة الغرب الاستعماري، وبين الاكتفاء باتهام العوامل الخارجية الاستعمارية وتبرئة الذات. فإن كان لابد فإن العلاقة بين البعد الذاتي والبعد الخارجي في خلق أسباب التخلف والضعف هي علاقة تشارط لا تفاصل. فكلاهما يرفد الآخر ويغذيه ويعززه.

وعلى أي حال، لم يذهب محمود إبراهيم إلى الغرب ليكتشف وجهه الاستعماري البغيض، فقد خبره ورآه في أبشع صوره في وطنه وفي عقر قريته النائية المجهولة. ولكن

مكتبة الرمحي أحمد

أعمال شكسبير وكيتس وبليك ووردزورث وديكنز وشو لم تلهم قرارات الخارجية البريطانية وجحافلها الغازية. بل إن الأدب الإنساني الرفيع الذي تجاوز خصوصية المكان والزمان، إلى الأفق الإنساني، أحرى به أن يلهم المقهورين والمغلوبين إذا أحسنوا قراءته وتأويله.

ولذلك كله ذهب محمود إبراهيم إلى لندن بلا مخاوف ولا أوهام، وعاد منها بلا أزمة هوية ولا أوهام. وظلّ وفياً لهويته الحضارية التي تقرر أن الاختلاف والتعددية ناموس إلهي ومشيئته ربانية وآية دالة على عظمة الخالق:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:118].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم:22].

وتحث على طلب الحكمة أنّى كان مصدرها، وتحرض على السعي في مناكب الأرض، وتدعو إلى العدل في الأحكام حتى مع الخصم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:8].

بل تدعو إلى ما هو فوق الإقساط، وهو بر الآخر المختلف الذي لم يقاتلنا في الدين ولم يخرجنا من ديارنا ولم يغصب حقوقنا: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:8].

ولكنها في الوقت نفسه تدعو إلى مغالبة البغي والظلم: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى:39].

فلا معنى للبر قبل تمام العدل، أو مع العجز عن صون الحقوق ومناجزة الظلم. ويستوي في التهمة ظلمك للآخر أو ظلمه لك؛ كما يستوي في القيمة الأخلاقية برك بالآخر الذي لم يعتد عليك، ومقاومة عدوانه إذا أوقعه بك. فالمرجع الإسلامي النقي إذ يقر بسنة الاختلاف، فإنه يؤكد قيمة العدل المطلق التي ينبغي أن تقطع حدود الاختلاف في الدين والعرق وغيرهما. ففي هذه القيمة يأتلف المختلف، ويتوحد المتنوع المتعدد ويجتمع الناس على صعيد.

مكتبة الربيعي أحمد

أما التخالف والاختصام في العقائد، فلا يفصل فيه إلا صاحب السلطان يوم القيامة: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:69].

فإن اجترأ البشر على الفصل فيها بشوكة الغلبة والإكراه، فكأنهم نازعوا الله سلطانه الذي اختص به نفسه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:25-26].

أما في الدنيا: فلا إكراه في الدين، ولكم دينكم ولي دين. ولنا أن نذكر دون أن نسيطر ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:21-22]. وتبقى الحقوق وحدها مدار الصراعات والنزاعات البشرية بين ظالم ومظلوم، وبينهما أمور متشابهات. وحق على المسلم أن ينحاز للمظلوم وإن كان «الآخر»، وأن يكف يد الظالم وإن كان من قومه وأهله.

وذلك قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:135]، وقول الرسول الكريم ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل يا رسول الله، نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما. قال: تمنعه من الظلم، فذلك نصرتك له). وبغير ذلك يصبح «الآخرون» أغياراً يجوز في ظلمهم وانتقاص حقوقهم ما لا يجوز مع الذات الجمعية، على مذهب الشعب المختار. وذلك ما أنكره القرآن الكريم على بني إسرائيل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:75].

بهذه المعاني ذهب محمود إبراهيم إلى لندن، وبها عاد. فحفظته من أن يكون كمن هلك في الغرب: محباً غالياً، أو مبغضاً قالياً. وكان يدرك، فضلاً عن ذلك، خطر التجريد والتعميم والتنميط والإطلاق في النظر إلى الهويات الحضارية، على أنها ماهيات ثابتة ساكنة متجانسة لا تاريخية قسرية جبرية، تعتقل جميع المنتمين إليها بسلطتها القاهرة، فتعيد إنتاجهم على قالب واحد ونمط ثابت، وتقيمهم على طرائق واحدة من السلوك والرؤية، على تعاقب الأزمان! وهذا هو جوهر الخطاب الاستشراقي الذي اصطنع به الغرب صورة الشرق في سياق علاقات القوة والغلبة. وهو فهم سقيم للحضارات والثقافات. فلا الشرق شرق واحد ثابت، ولا الغرب غرب واحد ثابت، ولا ثم عقل ثقافي ثابت لا

مكتبة الرمحي أحمد

تاريخي لهذا وذاك. وجدير بنا نحن ضحايا الخطاب الاستشراقي ألاّ نعيد إنتاج أسسه الفلسفية في نظرتنا إلى الغرب وحضارته وثقافته.

ويجب أن نعترف أن بعض أهم الأعمال الفكرية التي فككت الخطاب الغربي الاستعماري ومفهوم المركزية الغربية ، قد أنتج في الغرب نفسه.

حين غادرت طولكرم إلى عمان للدراسة في الجامعة الأردنية كان عمي أبو جهاد قد استقر فيها أستاذاً في الجامعة نفسها. ومضيت على أثره أدرس اللغة العربية وآدابها، فكان في جملة أساتذتي المرموقين الذين تتلمذت لهم. ثم اخترت أن أتابع دراستي العليا في علوم الصوتيات واللسانيات في جامعة لندن حيث درس من قبل. وإذ حصلت على درجة الدكتوراه عدت لأعمل إلى جانبه في التدريس الجامعي في كلية الآداب في الجامعة الأردنية. ومنذ ذلك الحين لم نفترق حتى وفاته، فكان لي كما قلت: العم والأخ الأكبر والمعلم الأجل والخل الأدنى. ولم يكن أحدنا يصبر على فراق صاحبه، فنلتقي كل يوم في الجامعة والبيت، وأرافقه في جل ما يخرج إليه من أمر. ولا يعزم أحدنا على شأن حتى يستشير صاحبه. وقد اختصني دون العالمين بنفثات صدره وبوح فؤاده، وكان -فيما عدا ذلك- من أقل الناس بوحاً وأحرصهم على حفظ دواخله من اختلاس النظر وإلقاء السمع.

هذه العلاقة الحميمة على نحو استثنائي، تركت في نفسي أثراً عاطفياً عظيماً. فليس من المألوف أن تبلغ العلاقة بين العم وابن أخيه هذا المبلغ، فتسمو العمومة على الأبوة نفسها. وحين شرعت في كتابة نص مسلسل «صلاح الدين الأيوبي» في مطلع الألفية الجديدة، توقفت طويلاً عند العلاقة الخاصة بين صلاح الدين وعمه شيركوه، وهي علاقة تفوق على ما كان بين صلاح الدين وأبيه، أو بين شيركوه وولده. بل كان لهذه العلاقة الشخصية المميزة نتائج عظيمة وتداعيات هائلة في التاريخ العام للأمة الإسلامية في صراعها مع الفرنج الغزاة. فحين أنفذ نور الدين زنكي شيركوه إلى مصر الفاطمية أول مرة، أصر على أن يصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين دون ولده. على الرغم من تردد صلاح الدين. ولم يكن قد ظهر منه شيء كثير من المواهب العسكرية والسياسية التي سوف تظهر منه لاحقا وتغير وجه التاريخ الإسلامي. وكان السباق على السيطرة على

مكتبة الرمحي أحمد

مصر بين زنكي و الفرنج محموماً. وقد أدرك الطرفان أن من يحوز مصر، بلد العدد والعدة، يحسم مستقبل الصراع لمصلحته في بلاد الشام مستقبلاً. وعاد العم وابن أخيه من رحلة مصر الأولى إلى الشام بعد أن أبلوا في مصر بلاء حسناً. ولكن الخطر الفرنجي على مصر بقي قائماً. وكان لابد من حملة أخرى يقودها شيركوه. وهي الحملة التي سوف تستقر في مصر هذه المرة وتنتهي بتوحيدها مع الشام. ومن جديد ألح العم على ابن أخيه أن يصحبه فيكون وزيره ونائبه. وكان صلاح الدين هذه المرة أشد كرهاً للخروج من المرة السابقة. وما زال عمه يلح عليه حتى أخرجه معه وهو لذلك كاره. وكان من نتيجة ذلك أن ملك صلاح الدين مصر بعد وفاة شيركوه فيها، ثم ملك معها الشام بعد وفاة زنكي. ولم يوقفه شيء بعد ذلك حتى حرّر بيت المقدس، فأمن مكانه في التاريخ الإنساني والعالمي واحداً من أعظم القادة وأنبلهم، ودخل في المخيلة الشعبية الأوروبية نفسها محاطا بهالة من المجد والسمو والشهامة.

لم اقرأ العلاقة الحميمة الخاصة بين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين بحيدة عاطفية. فوجدتني أكتبها بكل ما يحمل صدري من مشاعر خاصة تجاه العمومة في أروع صورها وأسمى معانيها، كما تجلت في تجربتي الخاصة مع عمي محمود. وبالطبع، لم يكن بيننا وبين شيركوه وابن أخيه من الشبه إلا تلك العلاقة الحميمة. ووجدت في كتابة العمل مناسبة كي أحتفي بها احتفاء ذاتياً وألقي عليها من وجداني ما جعلها شأناً خاصاً. وكذلك الكتابة على كل حال، لا تخلو من البعد الذاتي وإن كانت مادتها من التاريخ العام. ولقد كان محمود إبراهيم عالماً في فترة الحروب الصليبية، وما نشأ فيها من آداب، وكان له السهم الأعلى في تدريس المواد الجامعية ذات العلاقة، وألف فيها وأشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه في موضوعاتها. وما كان شغفه بهذا المجال شغفاً علميا خالصاً، ولكنه كان يصل ماضي الغزو الفرنجي بحاضر الغزو الاستعماري الصهيوني. ومع إدراكه أن التاريخ لا يكرر نفسه بشروطه الموضوعية كلها فإنه كان يؤمن أيضا بأن التاريخ يستبطن نواميس عامة وإن اختلفت تجلياتها الموضوعية من عصر إلى عصر، وأن حقب التاريخ ليست روايات مستقلة، بقدر ما هي فصول في رواية مفتوحة وأن التاريخ يمكن أن يكون ملهما للمغلوبين على نحو ما يستلهمونه. فالتاريخ الماضي لا يحضر بنفسه ولا ينطق عن ذاته، وإنما يستحضره الناس في حاضرهم، ويستنطقونه على وفق مواقفهم وآمالهم وقضاياهم. فهو بهذا المعنى إنجاز للحاضر!

مكتبة الربيعي أحمد

كان عمي محمود ماثلا في مخيلتي وأنا أكتب عملي الدرامي التلفازي «صلاح الدين»، ولكنه لم يكن حاضراً ليشهده فقد توفاه الله قبل ذلك بعامين. ولو شهده لتلقاه بعقله وقلبه وروحه، فكان ذلك جائزتي المعنوية العظمى عنده. ولكن الله شاء.

وعلى الرغم مما كان بيننا من أواصر القربى والمودة والرفقة الحميمة، فقد كنا- بخلاف ما يتوقع الناس- مثال الرفيقين المفارقين. نلتقي فيما يفرقنا، ونفترق فيما يجمعنا! ولذلك كنا واحداً في نصفين، يجذب أحدهما إلى الآخر ما يستكمل به ذاته. فقد كان في تكوينه معيارياً صارماً، يطلب النظام في فوضى الأشياء، فإن لم يجده سعى في إنتاجه. وإن لم يجده ولم يتمكن من إنتاجه ضاقت نفسه بفضاء لا انتظام فيه ولا حدود، فانصرف عنه إلى ظل اليقين وإلى فضاء داخلي لا اضطراب فيه ولا عواصف. ومع ذلك فإن نزوعه الإنساني العميق وشعوره الدائب بالمسؤولية الأخلاقية تجاه العالم والآخرين، كانا يحفظان عليه توقه للناس ولما يتحرك خلف السياج، فيبقى متردداً بين المثال الذي يطلب ويثوب إليه، والواقع الذي يمور بالحياة بكل التباساتها ونقائصها وغواياتها. وربما أقام معظم الوقت في المساحة بين هذا وذاك، فأورثه الأمر روحاً قلقاً وشعوراً عميقاً بالغربة، يتواريان وراء هدوئه الظاهر وسمته النبيل.

وفي المقابل، كنت - وما زلت إلى حد ما - ألتمس الجمال في الفوضى والمفارقات، وأحب ركوب العواصف، وأتبرم بثبات الأشياء وانتظامها الصارم، وأضيق بإشارات المرور وقوائم الأخطاء الشائعة التي يلح عليها الأصوليون، ولا أقر لعصور الاحتجاج بسلطتها القاهرة. وربما أغوتني لغة الشعر فأسلمت نفسي لها ولموجها العارم. وربما أغرتني مفارقات الألفاظ وتداعيات المعاني بحبك طرفة تلامس خطوط عمّي الحمراء، وتهز مثاله هزاً رفيقاً. ومن فرط البراءة والنقاء والتطهر، لا يلتقط الطرفة فوراً، فإذا التقطها بعد ثوانٍ أفصحت ملامحه أولاً عن الدهشة بل قل: الصدمة، وما تلبث الصدمة أن تتحول إلى ضحكة عريضة تستعلن في وجهه لا في صوته، فكأنه يغالب توقه الداخلي للضحك والإنطلاق، بكل ما تفرض عليه معايير الرزانة في عالمه المثالي.

ولذا كنا مثال الرفيقين المفارقين. فكان في جوانب كثيرة ما لم أكنه، وكنت في جوانب أخرى ما لم يكنه. وذلك ما جعلنا واحداً في نصفين، ينزع أحدهما إلى الآخر نزوع البحر إلى البر، والبر إلى البحر، ونزوع الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل.

مكتبة الرمحي أحمد

كان طائر صباح، يستيقظ من أول الفجر. ولعله قد ورث هذه العادة من منبته الريفي الذي لم يفارقه أبداً، حتى بعد أن درس في لندن، وجاب مدن العالم الصاخبة بالأصوات والأضواء. وكنت -وما زلت إلى حد ما- طائر ليل. وما كان ليألف هذا مني ويرضى به على طول العهد به، فكان يرى فيه عدواناً صارخاً على الطبيعة والفطرة التي فطر الله عليها الناس. وربما خرج في احتجاجه علي من معيار الطبيعة إلى معيار الدين، فذكرني بالمعنى القرآني إذ جعل الله الليل سباتاً والنهار معاشاً. وما كنت لأعارض هذا المعنى، ومع ذلك كنت أحاول عبثاً أن أقنعه بأن الطبيعة نفسها تلزمني خلاف ما تلزمه، وأنه قد ثبت بالدراسة العلمية أن الناس صنفان من حيث الساعة البيولوجية المركبة فيهم. فمنهم طيور ليل، ومنهم طيور نهار. ولعل هذا من باب التقاسم الوظيفي الذي تمليه الطبيعة. فأنا أحرس أحلام الليل وأستدفئ بالنجوم، وهو يوقظ الشمس في الصباح، ويطفئ مصابيح الدجى. عبثاً كنت أحاول إقناعه بهذا فكان يصر على أنها محض عادة سيئة كتدخيني. وربما هاتفني من الصباح في وقت يعلم فيه علم اليقين أني نائم ليحدثني في أمر لا تلزم معه العجلة، فأرد في صوت أبالغ في ثقله، لعلي أبلغ شيئاً من نفسه اللوامة، وأحرك عنده بعض الشعور بالذنب. وقد كان حريصاً على اجتناب الذنوب في كل شأن، إلا هذا. فقد كان يراه من عنده معروفاً وقربى. أما عبء الذنب فعلى نائم الصباح ورفيق الليل!

ينتمي عمي محمود إلى جيل كان عليه أن يسلك طريقاً شديدة الوعورة، وكان عليه أن يمهدها للأجيال التالية في الوقت نفسه. وإذا كانت الدراسة الجامعية قد غدت الآن جزءاً من سيرة ذاتية مكتوبة سلفاً منذ ميلاد الفرد في أوساط واسعة، فقد كان الوصول إلى مدارس المدينة في ذلك الجيل طموحاً يحتاج إلى قدر عظيم من العزيمة والجهد والتضحية. وكان على أبناء ذلك الجيل أن يمشوا أميالاً طوالاً ويقطعوا ودياناً تفيض بأمطار الشتاء ليصلوا إلى المدرسة. وما كان في وسع الكثير من الأسر الريفية العادية أن تعلم أبناءها جميعاً. فكان عليها أن تستثمر في الابن الأصغر وأن ينصرف إخوته الأكبر إلى العمل، وأن يعلقوا على تقدمه و إنجازه مستقبل الأسرة جميعها وطموحها في الحراك الاجتماعي. وأي عبء ثقيل! وكان محمود إبراهيم أصغر إخوته، فكان له أن يفيد من هذا التقاسم الوظيفي، بقدر ما كان عليه أن يتحمل عبء مسؤولياته صغيراً وكبيراً. إلا أنه

مكتبة الرمحي أحمد

حين سما إلى المهمة وأقام عليها عمره كله، لم يكن عطاؤه غير المحدود لأسرته الممتدة مدفوعاً بشعور الواجب الأخلاقي حسب، وإنما كان مدفوعاً بالحب الخالص والعاطفة النبيلة في المقام الأول. فكان، يعلم الله، يؤثر على نفسه وربما على أسرته الصغيرة الخاصة، من أجل أسرته الممتدّة، فصدق عليه قول الشاعر: (أقسم جسمي في جسوم كثيرة...) وأشهد أني ما عرفت رجلاً أبر برحمه وأسرته من ذلك الرجل.

وإذا كان على جيل محمود إبراهيم أن يلاحق نجمة بعيدة، وأن يغالب العواصف نحو غاياته وطموحاته، فقد كان عليه أن يشهد بعيونه فلسطين تضمر أمام البصر بقدر ما تكبر في الوجدان والضمير والمخيلة. وعند محمود إبراهيم لم تتحول النكبة يوماً تاريخاً ماضياً، ولم تتحول مآسيها إلى أرقام باردة وصور رتيبة مكرورة، وإنما بقيت حاضرة متوهجة حارقة في وجدانه على مدار اليوم والسنة. ولم يكن يستشير فيها معجم الإيديولوجيا ومرجع المعادلات السياسية والتحليلات النظرية والأدبيات الحزبية. كان المرجع روحه ووجدانه ولون جلده ورائحة التراب وذاكرة المكان، بل شرط الوجود نفسه. فإذا شاهد على التلفاز صورة من قمع الاحتلال، فاضت عيناه بدمع يستعصي على الكتمان، وربما غلبه النشيج المرّ. لم يحمل بندقية، ولم يكن رجل خطابات وبيانات وأنشطة تنظيمية، ولكني أشهد أنه كان يبذل لوطنه بصمت ما يرتقي إلى معاني الجهاد.

من جانب آخر، كان فضاء حياته ووجوده الإنساني والروحي ممتدا بين حدين: الجامع والجامعة! ولم تكن المشاكلة اللفظية بينهما في وعيه ووجدانه إلا صورة خارجية للمشاكلة المعنوية، فما عرفت أستاذاً مثله أحب الجامعة وعمله فيها. وكان يبكر إليها ويفتتح أبوابها حتى في أيام الإجازة الصيفية التي لا يدرس فيها. ولم يغره منصب قط خارجها مهما تكن امتيازاته. كانت الجامعة مثابته وعشقه.

ولذا كان من أقسى المهمات على أسرته حين اشتد به المرض وأثقل ساقه ولسانه في الشطر الثاني من عقد التسعينات أن تشير عليه بالاستقالة. فمن يملك أن يطلب من السمكة أن تغادر بحرها ومن البحر أن يفارق زرقته، ومن الطائر أن يتخلى طوعاً عن جناحيه، ومن الفارس أن يترجل عن جواده، ومن الجواد أن يكف عن الصهيل؟ كان ذلك أشبه بدعوة مبكرة للموت، وللرحيل قبل الرحيل. ولكن، كان لابد مما ليس منه بد. فصاحب البيان المعجب لا يكاد الآن يبين. وما الذي يبقى للمعلم إذا بطأ به لسانه الذي

مكتبة الربيعي أحمد

يبلغ به علمه؟ فقد تفاقم تأثير الجلطات الصغيرة الخفية في دماغه. ومع ذلك بقي الرجل يغالب ويكابر ويأبى أن يتخلف عن مواعيده اليومية مع المتنبي والشريف الرضي والبحتري وأبي تمام والجاحظ والتوحيدي والقاضي الفاضل وابن القيسراني. فصار على أسرته أن تتدخل لأول مرة فتفاتحه بفكرة الاستقالة التي تلزم بها الضرورة. وكان أن أسندت المهمة إلي. ألم أكن الطفل الذي تعهده صغيراً، وبقي خله الأدنى كبيراً؟ ألم أكن مستودع أحزانه وأسراره؟ ألم يستعهدني من سيرته ما كان يطوي عليه جوانحه؟!

وبدأت بالتلميح دون التصريح. وما كان تلميحي ليخفى على ذكائه. ولكنه كان يؤثر الصمت ويشيح بوجهه بعيداً كأنه يشيح عن موت ماثل أمام ناظريه. ومكثنا على ذلك زمناً حتى بلغ به المرض مبلغاً لا يجوز معه إلا التصريح. فقاومه وقتاً آخر بأسلوب الصمت نفسه إلا من ابتسامه شاحبة تستعصي على التأويل. فلما بدا أخيراً أنه استجاب لرأيي، عرضت عليه أن أكتب عنه نص استقالته، لأعفي يده المرتجفة من مهمة ثقيلة، بل لأعفي روحه المتعلقة بالجامعة من كتابة نعيها. ولكنه أبى. ولم أفهم السر في ذلك حتى التقيت صديقه وصديقي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، وكان رئيساً للقسم فأطلعني على نص الكتاب. ولم يكن استقالة على الحقيقة وإنما كان طلب استعفاء من مهمات التدريس في الفصل القابل وحده من تاريخ الكتاب. وكأنه كان يريد أن يبقى الباب مفتوحاً أمامه عسى أن يسترد عافيته في تلك الأثناء. فيعود في الجامعة سيرته الأولى.

وما كان النهر ليعكس مجراه حتى يصل مصبه الأخير، الذي هو نبعه الأول! فما إن اعتزل العمل وقرّ في البيت، حتى اشتد به المرض فأعجزه عن الكلام نهائياً إلا من غمغمات نجتهد في تأويلها. ثم بدا أن مصابيح وعيه بالعالم من حوله تنطفئ الواحدة تلو الأخرى حتى فقد القدرة على التمييز، وصارت نظراته تطيش عن الوجوه وتذهب في الفراغ. ومع ذلك لم نغيّر عاداتنا اليومية معه إذ تلتئم الأسرة من حوله كل يوم، فلا ندري هل يسمعنا ويعي كلامنا في محبس المرض المعجز وإن لم يكن في وسعه التجاوب أم أنه يعوم في فراغ الصمت والعتمة فلا يعلم من بعد علماً شيئاً؟ وما زلنا حتى الآن بعد مرور زهاء ثلاثة عشر عاماً على وفاته لا نحير جواباً. ولكن مهلاً... مرّة واحدة... مرّة واحدة فقط، عاد إلى عالمنا من تخوم البرزخ وقفار التيه للحظة خاطفة قصيرة.

مكتبة الربيعي أحمد

كان متمدداً على الأريكة كالعادة ينظر في الفراغ، وكانت إحدى بناته تراجع مع ابنتها الصغيرة درساً في قواعد العربية، فأخطأت ونصبت ما حقه الرفع. وإذ به ينتفض في مكانه كالطائر الذبيح، فيدير وجهه المضطرب وهو يطلق صوتاً مبحوحاً ويحرك يده بعلامة الاعتراض والإنكار. فأدرك الجميع أنه يصحح، فلما صححت ابنته من فورها سكنت جوارحه، وعاد إلى محبسه يحدّق في الفراغ. وكانت تلك صحوته اليتيمة وآخر عهده بالتواصل مع الآخرين، إلا أنني كنت أدخل عليه في كل يوم، فأقبل جبينه ويده، فيأخذ بالمسح على ذراعي بأسلوب يتراءى لي معه أنه على نحو ما يحس حضوري، أو هكذا شبّه لي توق النصف إلى تمامه. ثم أتاه اليقين، ولما يتجاوز الخامسة والسبعين من عمره.

بلى قد انتهت سيرته وانقضى أجله وتم كتابه وانقطع عمله إلا من عمله الممتد في طلبته، وفي الأجسام الكثيرة التي قسّم جسمه فيها، فلا تذكره إلا بالدعاء الحسن، والشهادة له عند الحق والخلق. والخلق شهود الحق!

وإني لأكاد أسمع الآن شدة صفيره «بالصاد» وهو يحاضر. وكانت تلك سمة متميّزة في كلامه، يلتقطها طلبته ويحاكونها كلما أرادوا تقليد أدائه. ولما كان جلّ حديثه معهم عن «النص» الأدبي، فقد كان صفير الصاد المميّز لا يفتأ يتردد في محاضراته. وإنه ليحيل الآن إلى صفير القنابر وطيور الصباح التي كان يوقظها أو توقظه. ولعلّه يطير معها، بعد أن تحرر من جسد أبلته نفسه الكبيرة، ولعلّها تصفر عنها وعنه في كل صباح محومة بين مئذنة الجامع وسقوف الجامعة، حيث تفقد التاء المربوطة قدرتها على التمييز بين روح يستلهم العقل، وعقل يستلهم الروح.

ونعم يا عمّاه، «يبقى النص» مفتوحاً للقراءة والتأويل، ويبقى «الصوت» ملتبساً بالصّدى، والصباح ملتبساً بالصداح!

نعم يا عمّاه ، قد استقلت من الحياة، دون أن تستقيل من الجامعة. أما ابن أخيك: الرفيق المفارق، فأبى إلا أن يفترق عنك في هذه أيضا، فاستقال بعدك من الجامعة طوعاً، وفارقها فراق غير وامق دون أن يلتفت وراءه. بعد أن ضاق بقميصها الحديدي فآثر أن يمتطي الريح يطوف في أرض الله ذات الطول والعرض.

مكتبة الربيعي أحمد

سلام على محمود إبراهيم، وجزاه الله جزاء المحسنين.

أعقب الإخوة الثلاثة بضع عشرات من البنين والحفدة، هم أشبه بزمانهم منهم بآبائهم. وتلك لعمر الله شهادة للآباء أنفسهم، ولكنهم أورثونا قيم التراحم والتكافل والوفاء والشعور العميق بالواجب نحو الأدنى والأقصى، والانتماء الراسخ للأرض التي أنبتتنا جميعاً. وتلك شهادة أخرى لهم.

رحمهم الله جميعاً.

مكتبة الرمحي أحمد ***@ktabpdf***تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

أيام الجامعة: وقت للعلم ووقت للحب

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. بين كتاب الدرس وكتاب الأنثى

حين غادرت طولكرم في أيلول من عام 1966 للدراسة في الجامعة الأردنية في عمّان، لم ألتفت ورائي. كنت فتىً في الثامنة عشرة من عمري أستقبل من عمري أكثر مما أستدبر، ولم تكن طولكرم في ذلك الحين تنتمي إلى مستقبلٍ أتطلع إليه، ولا إلى ماضٍ أحنُّ إليه. وخيل إلي غرور الشباب أنها أصغر مني وأنها لم تكن أكثر من مقدمة لرواية شخصية توشك أن تبدأ فصولها.

كان عمر الجامعة الأردنية أربعة أعوام فقط، وقد خرّجت فوجها الأول. وعلى نحو ما فقد اختارتني ولم أخترها. ففي جيلنا والذي سبقه كان المألوف والمأمول الالتحاق بالجامعات المصريّة. وكنّا نتعجّل الأيام لبلوغ تلك الغاية. فنقيم في ظل عبد الناصر، ونجاور نجوم الأدب والفن الذين شغلوا الدنيا وملأوا الأسماع: طه حسين والعقّاد والحكيم ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، وأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، ومريم فخر الدين وسعاد حسني ونادية لطفي.... ومن يدري، فقد يسعفنا الحظ فنرى بعضهم عياناً دون وساطة من وسائل الإعلام، فنعود بقصص ومواقف نغيظ بها الحاسد ونسرّ بها المحبّ. أفلم نكن نصغي بكل تلهف إلى بعض العائدين من الدراسة هناك، يقصون علينا من أخبار تجاربهم ومغامراتهم ما نصدّق بعضه ونكذّب بعضه؟ فليكن أن عبد الناصر كان شديد التواضع. ولكن، يجب أن نكون على قدر هائل من السذاجة والتسليم لنصدّق أنّ صاحبنا الرواي قد التقاه في بيته مع بعض أصحابه، وتناولوا العشاء معه على مائدته التي لم تزد على «الكشري» و «الطرشي»! أما قضاء سهرة في بيت سعاد حسني فيمكن أن نكتفي منها بالشك. وأما حضور حفلة لأم كلثوم فأمر ممكن لمن يسعه شراء بطاقة الدخول.

مكتبة الربيعي أحمد

وعلى أي حال، لم يكن الشك في صدق الرواية ليفسد علينا متعة السماع، وبخاصّة إذ يحرص الراوي على أن يطعم كلامه بشيء من اللهجة المصرية، وحسبه من مصر أنه يدرس فيها، وأن في وسعه أن يتجوّل في المواقع التي صورتها الأفلام السينمائية والأعمال الروائية. ومن ذلك حرم جامعة القاهرة نفسها الذي كان مسرحاً لكثير من المشاهد السينمائية حيث يلتقي العاشقون، ويحلم الحالمون، ويغني المطربون، ويتنافس المتنافسون، ويتظاهر الوطنيّون، وحيث يتفوق في نتائج الدراسة الطلبة الفقراء الكادحون، ويخفق بالضرورة أبناء الذوات المستكبرون!

ومثل حرم الجامعة، ضفاف النيل، وسيدنا الحسين وخان الخليلي وزقاق المدق، وسائر العوالم الشعبية التي نقل نجيب محفوظ أجواءها في رواياته. ففي زمن الفنون والآداب السردية، البصرية منها وغير البصرية؛ كثيراً ما تصبح الصورة الذهنية أصلاً ومرجعاً للواقع، فيستمد هذا قيمته الرمزية ومعانيه منها. فأنت تذهب إلى سيدنا الحسين وخان الخليلي بحثا عن عالم نجيب محفوظ، ويستثيرك من تلك الأماكن ما تصدّ عنه في أماكن أخرى: الزحمة الخانقة، والأزقة الضيقة، والباعة المزعجون، والمتسولون الذي لا يكفون عن الملاحقة والطلب، والصخب الشديد والأصوات المرتفعة والمقاهي الشعبية المكتظة ذات الكراسي والطاولات المهترئة، وكؤوس الشاي التي مرت قبلك على مئات الأفواه ولا تدري مستوى نظافتها. كل ذلك يبدو لك قادماً من كتب روايات محفوظ ومن الأفلام السينمائية، فتنخرط فيه سعيداً منبهراً، وكأنه عرض فولكلوري أعدّ بعناية ليحاكي عالم محفوظ الروائي وعالم السينما! هكذا في أزمنة الحداثة، يصير الواقع في وعينا تشخيصاً للتشخيص، وتمثيلاً للتمثيل، ومحاكاة للمحاكاة، فكيف إذن لا نتلهف على الدراسة في القاهرة حيث تحدث الأشياء الكبيرة والمثيرة؟ وكيف لا نغبط من سبقنا إلى أم الدنيا وصندوق عجائبها؟!

ولكن، لم يكن من المقدّر أن أمضي على أثر السابقين إلى مصر. فثمّة جامعة وطنية الآن في الأردن. وقد أهلتني نتائجي الدراسية في الثانوية لمنحة من وزارة التربية والتعليم، ومن الطبيعي أن توفد أمثالي إلى الجامعة الوطنية.

على أن الجامعة الأردنية الفتيّة لم تتركنا نشعر بخيبة الأمل. فما هي حتى وجدنا فيها جلّ ما كنا نتطلع إليه من تجربة الحياة الجامعية، وكل ما جعلنا نشعر بأننا محظوظون إذ

مكتبة الرمحي أحمد

أتيح لنا الالتحاق بها. فالحرم الجامعي قطعة ساحرة من الطبيعة وهندسة الإنسان. إذ أقيمت الجامعة مكان مدرسة زراعية على أرض واسعة تزدحم فيها الأشجار الحرجية، وتقطعها طرقات داخلية وأرصفة أنيقة. ولم يمض على تأسيس الجامعة بضع سنوات حتى صار لها سمعة علمية تعليمية رفيعة، بفضل نخبة متميزة من الأساتذة المرموقين: ثلّة من أهل البلد السابقين في التعليم العالي، حين كان الحصول على درجة الدكتوراه غاية لا يبلغها إلا أفضل العقول، وثلة أخرى من خيرة الأساتذة المصريين والسوريين. وقد حرص الآباء المؤسسون بقيادة رئيس الجامعة الأول الدكتور ناصر الدين الأسد على أن يبدؤوا بالجامعة من حيث انتهت الجامعات العربية الأخرى، وأن يقتبسوا من تجارب الجامعات الغربية المرموقة التي درس فيها كثير منهم. فكأنها ولدت تامة في مستواها التعليمي، فكانت أعوامها الأولى عصرها الذهبي.

ولسوف ندرك بعد حين أنه قد صح فيها القول المأثور: ليس بعد التمام إلا النقصان.

وكما أن مستوى الجامعة يتقرر بمستوى أساتذتها، فإنه يتقرر أيضا بمستوى طلبتها. وكان هؤلاء من نخبة خريجي الثانوية في المملكة الذين فازوا بمقاعد الجامعة المحدودة بناء على التنافس الحر بمعدلاتهم المرتفعة لا غير. ولما كان عدد الطلبة محدوداً فقد كان بوسع الأساتذة أن ينفقوا وقتاً ثميناً في قاعة المحاضرة في الحوار والتفاعل الفكريين مع الطلبة، وأن يشجعوا التفكير النقدي الحر واستقلالية الرأي والبحث العلمي. فلم يكن التعليم قائماً على التلقين، وكان لأبحاث الطلبة نصيب هام في أعمال التقويم. ومن جهة أخرى فإن أجواء الستينيات كانت حافلة بالتيارات الفكرية والسياسية المتنافسة، وأصبحت الجامعة مسرحاً للمجادلات الفكرية والعقدية، ولم تكن بعيدة عن رياح الثورة العالمية والثورات الشبابية وحركات الاحتجاج والتمرد التي اجتاحت المجتمعات الغربية، لا سيما جامعاتها و أوساط الطلبة فيها. إلا أنها تكيفت في بيئتنا الجامعية العربية مع أسئلة الواقع العربي وقضاياه الملحة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية وقضايا التحرر والوحدة والنهضة والعدالة الاجتماعية. كل ذلك تجسد في حراك طالبي نشط وفعال. وبدا أن الجامعة تبشر حقاً بأن تكون منطلق تيارات التغير والتقدم في المجتمع على الجملة، وأن تعد قيادات جديدة شابة في المجالات المختلفة،

مكتبة الرمحي أحمد

تكون طليعة التنمية الشاملة. وكنت ترى الطلبة في حرم الجامعة مندمجين في حوارات فكرية ومجادلات سياسية. وكان العالم يبدو بريئاً واعداً مفتوحاً على الاحتمالات الكبيرة.

وكنا نعتقد حقاً أن في وسعنا أن نغير العالم ليكون أكثر بهاء وجمالاً ونبلاً وعدلاً وشجاعةً، وأن المستقبل ملك أيدينا، وأن أحلامنا تنتظر القطاف.

لا تزيد المسافة بين طولكرم وعمان على تسعين كيلو متراً، ومع ذلك كانت النقلة من المدرسة إلى الجامعة واسعة جداً على الصعيدين العلمي والاجتماعي.

تحررنا من سلطة التلقين والحفظ الأصم وكتب المناهج المدرسية التي لا تتسع للتفكير النقدي والمواهب الفردية والأنشطة غير الصفية والاتصال بمصادر الثقافة والمعرفة المتنوعة. وذهب المعلم الذي كان يضيق بآرائك واجتهاداتك فلا يرى فيها إلا تحدياً لسلطته المعرفية وعدواناً مقصوداً على هيبته. هنا في الجامعة، ليس في وسعك فقط أن تعبر عن نفسك وتحاجج عن رأيك، ولكنك تثاب على ذلك أيضا، وقراءاتك الخارجية لك لا عليك، ونشاطك في المكتبة كنشاطك في قاعة المحاضرة. أما مواهبك الأدبية والفنية فمحل الرعاية والتقدير. هكذا كانت الجامعة في أيامها الذهبية التي أدركتها مبكراً.

كان من حظ الجامعة أن يكون مؤسسها رجلاً كبيراً وعالماً موسوعي الثقافة في اللغة العربية وآدابها. وقد أوتي من سحر البيان ما إن تحدث أطرب سامعه حتى كاد أن يشغله ببلاغة اللسان عن المسألة التي جاءه فيها. ولقد رأيت من علماء العربية وأدبائها من يجيد الكتابة، فإذا تحدث شفاهاً خيب ظنك. أما ناصر الدين الأسد فلا يكافئ أسلوبه في الكتابة إلا أسلوبه في الكلام. وكانت الفصحى البليغة تجري على لسانه عفواً دون تكلف، يزيد من جمالها وتأثيرها صوت جهوري فخم. فإذا أضيف إلى هذا كله قامة منتصبة وسمت مهيب وحضور قوي آسر، فقد اكتملت له آلة التأثير.

كان قوي الشخصية من غير غلظة، وليناً هيناً شديد التأدب من غير ضعف. فأسس الجامعة بمزاج من العقل والحكمة والهيبة والتودد واحترام الآخرين. ولذلك أجمع الناس أساتذة وطلبةً وإداريين على محبته وتقديره وإجلاله، لذاته قبل منصبه. فقد كبر المنصب به أكثر مما كبر هو بالمنصب.

مكتبة الرمحي أحمد

وفضلاً عن دوره القيادي في تأسيس الجامعة إدارة وأقساماً وكليات وبرامج دراسية، فقد كان له الفضل مع نخبة السابقين معه في صيانة التقاليد والقيم الجامعية التي صار لها طابع كوني، ومن ذلك «قدسية» الحرم الجامعي أن تستبيحه قوة من خارجه مهما يكن الظرف، واستقلال الجامعة عن الإملاءات الخارجية، وحق الطلبة في الحراك السياسي والفكري والأنشطة العامة في إطار الأنظمة والقوانين دون تدخل من أحد، وحقهم في المشاركة في شؤون الجامعة التي تخصهم من خلال مجلس منتخب بأسلوب ديموقراطي حر.

وقد ظل ناصر الدين الأسد أميناً على هذه القيم والتقاليد حتى في أكثر الظروف السياسية قلقاً واضطراباً في الأعوام الثلاثة التي أعقبت هزيمة حزيران عام 1967، وما شهدته من صعود المقاومة وحراك الفصائل المختلفة في الوسط الطلابي، وما أفضت إليه هذه التحولات من توترات أمنية انتهت بكارثة «أيلول الأسود» عام 1970.

على الرغم من تلك الضغوط الهائلة، تمكن ناصر الدين الأسد من حماية استقلال الجامعة ومنع حرمها، واستمر في الوقت نفسه في ترشيد الحراك الطلابي المتصاعد بالحكمة والموعظة الأبوية الحسنة والتفاهم والتواصل والحجة والإقناع والمودة. فلم تحمله الظروف الضاغطة يوماً على خلع جلده الحضاري الأكاديمي، ليكشف عن وجه السلطة الفظة. فأثبت بذلك أن أخلاقه النبيلة طبع متأصل فيه لا مظهر خارجي يتجمّل به في ترف الظروف العادية الهادئة.

وفي ظني وتقديري أنه لم يستقل من رئاسة الجامعة بعد زهاء ثمانية أعوام من ولايته الأولى لها إلا حين تبين له أن الظروف السياسية والأمنية العامة عقب أيلول من عام 1970، قد تعدت قدرته على إدارة الجامعة بطريقة متوازنة تحفظ عليها استقلالها وتقاليدها.

كان عروبياً أصيلا بدون ضجيج الشعارات الثورية الرنانة، ومسلماً وسطياً منافحاً عن تراثه الإسلامي وهويته الحضارية. وأشهد أنه قد برئ بتكوينه الفكري ومزاجه الشخصي من أية شبهة من شبهات التحيز الجهوي أو التعصب الديني والمذهبي. فكان الجميع عنده سواء، لا يتفاضلون إلا بالكفاءة وحسن الخلق. فلم يكن غريباً أن يحظى باحترام الجميع ومودتهم على اختلاف منابتهم وخلفياتهم العقدية والسياسية والاجتماعية.

مكتبة الربيعي أحمد

كان يحلو له أن يخرج من مكتبه في الجامعة ليتجول في طرقاتها وساحاتها بين الطلبة، فيتوقف مع هذا أو ذاك في حوار قصير وتعليق ظريف. فيستشعر الطلبة قربه منهم على ما فيه من هيبة. فيزداودن له حباً وتقديراً. وكان يعرفني بشخصي وأنا بعد في السنة الأولى. فإذا رآني توجه إلي فحيا وسأل واستفسر، وربما أطرى على نص منشور لي، وبشرني بمستقبل زاهر في مجالات الإبداع الأدبي والأكاديمي. وقد يذكر عمي محمود إبراهيم، زميله في الجامعة وفي قسم اللغة العربية وآدابها، ثم يذكر خالي الطبيب محمد صفوري الذي درس معه في الكلية العربية بالقدس، قبل أن ينتقل كلاهما للدراسة الجامعية في القاهرة، فاختار خالي الطب ونبغ فيه ثم أقام وعمل في الكويت، واختار هو الآداب ونبغ فيها. وما يزال كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» أثراً كلاسيكياً عظيماً. فلا يذكر طه حسين وكتابه «في الأدب الجاهلي» ونظريته في النحل والانتحال، إلا ويذكر معه «مصادر الشعر الجاهلي» الذي لم يؤلف خير منه في وضع المعايير العلمية الصارمة لتحقيق الشعر الجاهلي وتوثيق مصادره ونقد روايته وتمييز صحيحه من منحوله، حتى ليصح فيه القول «قطعت جهيزة قول كل خطيب». لا أجد طريقة لإنصاف ذلك الرجل الكبير أفضل من القول: قد أتعب الرؤساء من بعده. فكان أول عصور الجامعة عصرها الذهبي تحت رئاسته. ولم يكن بعد التمام إلا النقصان!

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأذكر من سحر بيانه وقوة لسانه موقفاً طريفاً وقع لنا معه. كنا طائفة من الطلبة النشطاء سياسياً. وقد احتجزت الأجهزة الأمنية بعضنا. فعزمنا على التظاهر والدعوة إلى الإضراب عن الدراسة حتى يفرج عن المحبوسين. وعلم الرئيس بذلك، فدعا إلى لقاء عام معه في مدرج سمير الرفاعي. فاجتمعنا قبل اللقاء لنوحّد موقفنا ونتواصى به. فقال قائلنا: لا يفتننكم ناصر الدين الأسد بسحر بيانه وبلاغة لسانه وحلاوة كلامه عن أنفسكم وما أنتم عازمون عليه. فاصبروا على موقفكم ولا تتفرقوا أشتاتاً يخذل بعضكم بعضاً ويناقض بعضكم بعضاً، فتفشلوا وتذهب ريحكم. ثم مضينا إلى اللقاء نتذامر. وما هي حتى دخل الأسد وصعد المسرح. واتجهت إليه الأنظار وعم الصمت في انتظار كلامه فلا تسمع إلا همسا. وكان من عادته إذا اعتلى المسرح ليخاطب الجمع، أن يبدأ فيثني مكبر الصوت ثم ينحّيه جانباً. فما حاجة الأسد ذي الصوت الجهير إلى آلة تعينه؟ ثم بدأ خطابه

مكتبة الربيعي أحمد

بالثناء على دوافعنا وغاياتنا التي هي عين دوافعه وغاياته وإن اختلفت الوسائل. وأكد لنا أنه يبيت الليل أرقاً على «أبنائه» المحتجزين كأنما كحلت عينه بعوار. ولو أن ولده «بِشراً» كان مكانهم لما حمل من هَمِّه أكثر مما يحمل من هم هؤلاء، وأنه لن يطيب له عيش ولن يغمض له جفن ولن يدّخر جهداً ولا دالّة له عند الدولة حتى يفرج عنهم ويعودوا إلى مقاعد الدراسة معززين مكرمين رافعي رؤوسهم لا يضرّهم ما فاتهم من الدراسة.

فهل يجد له من أبنائه الطلبة على الحق معيناً؟ وليس الإضراب عن الدراسة بمبلغهم شيئاً مما يطلبون ويطلب، وما هم بضارين من أحدٍ إلا أنفسهم وجهوده المبذولة الموصولة، فهم بذلك كجاذع أنفه بيده ليغيظ غيره.

وما زال يتحدث متنقلاً بين حجة القلب وحجة العقل، حتى استلّ سخيمة الصدور وأتى بالطلبة إلى رأيه طائعين. فما أدرك القوم أنه ألقى عليهم من سحره حتى خرجوا من اللقاء، ونظر بعضهم في وجوه بعض: أهذا الذي تواصيتم به؟

ولكن، لم يكن ثمّة سبيل للرجوع. فقد أعطوا وعودهم لقاء وعوده، وكان الرجل صادق الوعد!

في السكن الجامعي نزلت في غرفة واحدة مع أعز صاحبين لي منذ أيّام الابتدائية في طولكرم، ولم نكن نفترق معظم الوقت. وكثيراً ما كنت أتخذ من أحدهما أو كليهما حجة غياب أمام والدي في أيام مراهقتي حين أذهب إلى دار السينما وحدي وأتأخر في العودة إلى البيت إلى ما بعد غياب الشمس. وكانت السينما في ملّة والدي واعتقاده أقرب شيء للحانة الليلية، كما كان غياب الشمس عنده إيذاناً بمنع التجول. فإذا جمعت بين السيئتين فتلك لعمر الله قاصمة الظهر. ولكن حبال الكذب قصيرة كما يقال.

- أين كنت حتى هذا الوقت؟

- مع صاحبي «فلان»

- حقاً؟

مكتبة الربيعي أحمد

- حقاً.

- ولكن «فلان» جاءنا يسأل عنك؟

- ....

ذهبت تلك الأيام، وشبّ الصبي عن الطوق. وهو الآن طالب جامعي يعيش مع صاحبيه في حرم الجامعة، دون رقابة أبويّة. يقرر مع أصحابه أين يذهب ومتى؟ وهو فوق ذلك شاعر يشار إليه بالبنان، وما لا يدركه في الواقع يدركه في المخيلة الشعرية. وإن لم تكن هذه الحرية المكتسبة كافية للانتصاف من أيام الرقابة الأبوية الصارمة ورقابة المجتمع المحافظ، فليرني الرقباء الآن أصول وأجول في بيئة لا تشكو من قلة الفتيات، وقد سقطت أسوار الفصل بيننا، وزالت الحواجز المضروبة التي لم تكن تسمح بأكثر من النظرة والابتسامة عن بعد، وعلى وجل من الواشي والرقيب، وتفرض اختزال مشاعر الحب والوجد والشوق في رسالة حذرة تقذف من فوق الأسوار العالية، وربما وقعت في اليد الخطأ.

الآن لحظة الحقيقة، إذ يختفي مثال الأنثى الساحرة الذي كان خيالنا يلقيه على كل من نهوى أو ننجذب إليه من النساء، مهما تختلف الأسماء والألوان والطبائع، لتحل محله ذوات متفردة مختلفة متمايزة، بعضها أكثر سحراً من ذلك المثال المجرّد المتخيّل، وبعضها دونه بمنازل متفاوتة. فهذه فتاة فائقة الجمال. ولكن جمالها لا يعوّض عن ضحالة تفكيرها أو تقلب مزاجها أو استكبارها أو حدّة طبعها. وهذه أخرى أقل جمالاً، ولكنها أكثر جاذبية مع ما جمع لها من جمال النفس ورقة القلب وزينة العقل.

الآن في حيز الواقع والتفاعل اليومي، تتعارف الأرواح أو تتناكر، وتتفاعل كيمياء النفوس والأمزجة أو تتنافر. تستوي في ذلك علاقات الإناث مع الذكور(العاطفية وغير العاطفية)، وعلاقات الذكور مع الذكور، وعلاقات الإناث مع الإناث. وما يخفيه الادعاء والتكلف والتظاهر، تكشفه اختبارات الأيام.

الواقع يمكن أن يكون أجمل من الخيال، ويمكن مؤكداً أن يكون أقبح. والحياة فيه مجازفة لا مفرّ منها. ولكنها تبقى أقلّ ضرراً من العيش في الأوهام، مهما تتغلف بغلالة السحر والفتون.

مكتبة الرمحي أحمد

وهنا أيضا سوف نكتشف أن العلاقة بين الجنسين لا تتعرف فقط بدافع الجاذبية العاطفية بين الذكر والأنثى، فإما أن يؤلف بينهما الحب، وإما أن ينصرف كل منهما عن الآخر إلى عالم جنسه. لم لا يفضي التفاعل الاجتماعي اليومي حول شؤون الحياة إلى كل أنواع العلاقات الإنسانية من تعارف وتناكر وتدافع وتعاون، وصداقة، وإعجاب، ونفور ومودّة وتنافس مرير حول المصالح والأفكار؟ ففي نهاية المطاف، ذلك ما يجعل الأنثى ذاتاً فاعلة كذاتك، لا موضوعاً سلبياً يشتغل عليه نظرك وقلبك وعقلك ورغباتك وأهواؤك وأوهامك، وتصوغه شعرا بديعاً وترسمه لوحة رائعة، وتشيد منه أمثولة متعالية من الجمال والفتنة. لا عزاء للأنثى في أن تكون موضوع أغنيتك أو قصيدتك أو لوحتك، بينما تختص أنت بدور المغني والشاعر والرسّام. ثم تنسى أنها تعاينك كما تعاينها، وتزنك كما تزنها، وتشيّدك في وعيها ووجدانها كما تشيّدها، وتقوّضك كما تقوّضها. وربّما غنتك كما تغنيها ورسمتك كما ترسمها.

ليست الأنثى في واقع الحال تلك الأمثولة التي يشيدها الشعراء من مادّة رغباتهم وأشواقهم، ولا الشيطان الذي يشيّده العقل الشعبي الذكوري من مادة مخاوفه وشكوكه. فكلاكما يرتدّ إلى مادة واحدة ونفس واحدة ألهمت فجورها وتقواها، وهي على الخيار في أن تزكّيها أو تدسّيها، وليس الفرق بينكما إلا ما تقتضيه رقصة الحياة التي لا تتم إلا بالزوجية.

ليست الأنثى أجمل منك إلا بقدر ما تصوّرها الذكورة الراغبة في زوجها، ولا هي أقبح منك إلا بقدر ما تصورها الذكورة المستبدة أو الخائفة أو المحبطة. وكذلك أنت منها. لا تراك أجمل منها إلا بقدر ما تصوّرك لها الأنوثة الراغبة، ولا أنت أقبح منها إلا بقدر ما تصورك لها الأنوثة المحبطة أو المقهورة. كلاكما يتعرّف بالآخر حسناً أو قبحاً، رَغَباً أو رَهَباً. ولذلك كانت العلاقة بينكما مترددة أبداً بين الحب والحرب. وليس بين الكلمتين من فرق إلا تلك الراء. ولك أن تحيل شكلها إلى انحناء السيف، أو انحناءات جسد الأنثى! ألا ترى إلى الشاعر قد وحّد بين التماع الرمح وبارق ثغر الحبيبة المتبسم، فودّ تقبيل الموت افتتاناً بأجمل ما في الحياة؟! وإلى الشاعر يتحدّث عن مقاتل العشاق بسهام العيون الفاتنة؟!

ولكن مهلاً! لا يحسبنّ أحد أن الخطاب الذكوري الذي يجعل الأنثى موضوعاً لا ذاتاً يعزز دائماً سلطة الرجل وخضوع الأنثى.

مكتبة الرمحي أحمد

فلقد تعرف المرأة جيداً كيف تجعل ذلك مصدر قوة لها. فليكن هو الرائي وهي المرئي، هو الطالب وهي المطلوب، هو المغني وهي موضوع الأغنية، هو الراغب وهي المرغوب به. أفلا يعلم أن الراغب رهين رغبته، وأن الطالب أسير مطالبه، فهو أضعف من المطلوب والمرغوب به حين يكون هذا الأخير صاحب الإرادة في نفسه وهو الذي يملك مفاتيح البذل وأقفال المنع؟

وهل ينسى الذكر أن الطالبين والمغنين والراغبين يتزاحمون حيث توجد الأنثى الرائعة، وأن عبء إثبات الأهلية يقع عليه، وأن لها سلطة المفاضلة والمحاكمة والقياس والتقويم، عندئذ تنقلب الأدوار، فالرجل الذات يصبح منفعلاً والمرأة الموضوع تصبح الفاعل. والحال أن الرجل ذات تطلب موضوعها، وأن المرأة ذات تملك ذلك الموضوع. فكيف لا تكون في هذا السياق هي الأقوى؟

فهل نعجب إذن حين نرى الشاعر يغني المرأة فيجعلها القاتل دائماً بلا سيف إلا من رموش العين، ويجعل نفسه صريعها وإن كان الفارس المدجج بالسلاح!

في الجامعة سأرى مصارع العشاق بعين لا تخدعها ادعاءات الذكورة، وسأرى المرأة تمارس سلطتها بعين لا تخدعها رقة الأنوثة.

هذه أجمل فتاة في الجامعة: قوام العارضات، وبياض ناصع كاللجين، وشلال من الشعر الذي يتقلب بين السواد والشقرة كما تشاء له صاحبته، وعينان تقتلان ثم لا تحييان قتلاهما. إذا تهادت في مشيتها التوت نحوها الأعناق «حتى تتوجع ليتا وأخدعا». وكانت لا ترتدي غير التنورة القصيرة التي تكاد تبدي أكثر مما تخفي. ثم تتعمد أن تجلس على مقعد خشبي أمام مسرح سمير الرفاعي على حدّ ساحة الجامعة حيث يتزاحم الطلبة. ثم تضع ساقاً فوق ساق فترتفع تنورتها شبراً آخر. وتبدو منصرفة كل الانصراف عن عيون الشباب التي تكاد تخرج من محاجرها؛ وما تخفي صدورهم أعظم! يتوقف الكلام في السياسة والفلسفة والثورة العالمية واليسار واليمين والامبريالية، وتتأجل القضايا الوطنية إلى موعد آخر، حتى تسكن ثورة الهرمونات المتأججة التي تعطّل العقول وتفسد الآراء والأحكام.

لعلك قد أطلقت حكمك الأخلاقي حتى هذه النقطة. ومع ذلك فللرواية لاحقة هامة. فهذه الفتاة كانت إلى جانب جمالها الأخّاذ، من أكثر الطالبات تفوقاً في الجامعة،

مكتبة الرمحي أحمد

وكانت قبل ذلك من أوائل الثانوية. وهي من خلفية اجتماعية «بورجوازية» معروفة لا يساميها في ذلك إلا أقل القليل من سائر الطلبة إناثاً وذكوراً. وأهم من ذلك كله في هذا السياق أنها كانت أكثر فتيات الجامعة صدوداً عن مخالطة الشباب. فلم أرها يوماً في صحبة أي منهم ولو لحديث عابر.

لا يغرها من الشباب وسامة ولا عبقرية ولا موهبة إبداعية ولا صيت ولا شخصيّة قياديّة ولا ادعاءات ثقافية أو سياسية. لا شيء من ذلك يستخفها. فكانت متفرّدة متوحدة مكتفية بذاتها تنضح ثقة واعتداداً وترفعاً.

فلماذا إذن كانت تستعرض فتنتها وهي أشد الطالبات عزوفاً وترفعاً عن صحبة الشباب؟

القوّة! سمّها إن شئت «القوة الناعمة»، وامتلاك القوة يغري باستعمالها واختبار تأثيرها. وليمت من شاء بغيظه، وليرجع غيره بحسراته، وطوبى لمن عرف حدّه فوقف عنده!

ولا يتعارض هذا مع كل ما قلنا في مواضع سابقة، وما يقال عن استبداد الثقافة الذكورية وحقوق المرأة المنقوصة. ولكن الظواهر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، لا سيما العلاقة بين الجنسين، أكثر تعقيداً وتركيباً وتنوعاً من أن تختزل في تلك الثنائيات الحدية المتفاصلة: الذكر الذات الفاعلة المتسلطة، والأنثى الموضوع السلبي الخاضع المشيّأ. وكثيراً ما تتخفى القوة وراء الضعف، والضعف وراء القوة. والإنسان مزاج من الإثنين. وفي ظني أن القوة الخالصة المطمئنة لا تكون إلا مع الاستغناء الخالص عن الآخر. أما حين تتوجه بالرغبة والحاجة، كما هي في العادة، فإنها تبقى هشه وإن بدت صلبة متحكمة. ولقد يصح القول هنا أن المتحكم بالآخر محكوم بحاجته إليه ورغبته فيه. ولذا قد تزداد السلطة عنفاً مع تنامي الخوف من تآكل السيطرة ومعها فرص إشباع الرغبات والحاجات المستبدة التي لا تتحقق إلا بالآخر ومعه. فيكون استبداد السلطة هنا نتاج استبداد الرغبة بصاحب السلطة، فهو مستبَدّ به: الحب والحرب من جديد.

وفي أحيان أخرى كثيرة، لا سيما في البيئة المحافظة، قد لا يكون الخوف من تبدد فرص إشباع الرغبات وتحصيل الحاجات وقضاء الأوطار دافع تشديد السلطة والسيطرة

مكتبة الربيعي أحمد

على الآخر، إنما هو الضد من ذلك تماماً: الخوف من استبداد الرغبة نفسها ومن مخاطر مآلاتها حين تصطدم بروادع الدين والقيم والرقابة الاجتماعية. وبدلاً من أن يتحمل الذكر عبء التحكم بنفسه ورغباته، يتجه إلى تغييب موضوع الرغبة(الأنثى) وحجبها وراء جُدر مشيدة ليحمي نفسه منها! فهي سلطة دفاعية يحكمها الخوف!

وعلى ذلك، فإن السلطة الذكورية تتغذى بالخوف من الشيء ونقيضه: الخوف على فرص الرغبة، والخوف منها!

هل يبدو من هذا كله أن الذكورة قوة خالصة والأنوثة خضوع خالص؟! لعلنا نحتاج إلى أن نفرق بين «القوة» و«السلطة». فالسلطة وإن بدت أكثر عنفاً وفجاجة واستعلاء، فإنها أكثر افتقاراً إلى موضوعها الذي تشتغل عليه، ما يجعلها تتوجه بالمخاوف والشعور بالتهديد. وكل ذلك يخفي قدراً من الضعف والهشاشة. أما القوة فأكثر استقلالاً واكتفاءً وثباتاً ورسوخاً وثقة وترفاً واطمئناناً، وأقل توجهاً بالمخاوف والشعور بالتهديد. ولذا فإنها لا تستعرض نفسها بصورة فجة. وإنما تعمل بطرق غير منظورة وتتخفى بالصور الجميلة والعقلانية والترشيد إذ تمارس إكراهاتها وتحكمها. وهذا هو الفرق بين نظم السيطرة والتحكم في المجتمعات الغربية الديموقراطية الحديثة، ونظم السيطرة في المجتمعات التقليدية الدكتاتورية. فالأولى خفية متلطفة ذات وجه إنساني، ومع ذلك فهي أكثر فاعلية وقوة وثباتاً ورسوخاً. أما الثانية فهي فجة فظة منظورة مباشرة عنيفة، لا تفتأ تستعرض أذرعها وأسلحتها القمعية لتردع أي محاولة لتحديها. ومع ذلك فهي أكثر هشاشة وأقل تمكناً ورسوخاً وقدرة على السيطرة على العقول والأفئدة وتوجيهها. وينطبق هذا الفرق على طبيعة الهيمنة الذكورية في المجتمعين الغربي والشرقي، إذ تبدو في الغرب أقل فظاظة وأكثر تلطفاً وخفاءً. وقد يصح القول إن الذكورة هناك أقل تسلطاً في الظاهر وأكثر قوة في الباطن، لإنها لا تتغذى بالمخاوف من تبدد فرص الرغبة المتاحة في مجتمع الحرية الجنسية، ولا بالمخاوف من استبداد الرغبة ومخاطرها على الروح والقيم الدينية. فهي أكثر طمأنينة واسترخاءً. ولكن يخطئ من يظن أنها قد تلاشت وفقدت قدرتها على التحكم والسيطرة. بل يخيل إلي أن خطاب الحرية الجنسية قد أسهمت الذكورة بقدر عظيم في تشييده لتضمن المزيد من فرص إشباع الرغبة دون قيود أو اشتراطات من الجنس الآخر، ودون أن تضطر الذكورة إلى استعراض سلطتها الفجة. ففي تلك المجتمعات

مكتبة الربيعي أحمد

يمارس خطاب الحرية الجنسية ضغوطاً اجتماعية ونفسية قاهرة على الفتيات بصورة خاصة منذ سن مبكرة كي ينخرطن في النشاط الجنسي وإلا لحقت بالواحدة منهن وصمة اجتماعية تهدد عضويتها في الجماعة. وبينما يتمتع الذكر ويتفاخر بغزواته، يكون على الأنثى أن تتحمل وحدها ما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة كالحمل المبكر ورعاية الطفل، وهي نفسها ما تزال في عمر الطفولة. توصم المراهقة إذا امتنعت عن النشاط الجنسي، وتوصم إذ ينتهي بها الأمر إلى الحمل و الولادة! والذكر حر طليق خال من المسؤولية.

وقد يعترض البعض، بأن مجمل كلامنا السابق يفترض أن الذكر يختص بالرغبة دون الأنثى. والحال أن الفرق يكمن في طبيعة الرغبة ودورها وغاياتها. فالذكر أكثر اندفاعاً وراء رغبته وارتهاناً لها. وقد يطلب الإشباع في ذاته. فلا تقترن الرغبة دائماً بالعاطفة والمودة والسكن. أما الأنثى فتطلب الرجل كلاً واحداً، وذاتاً إنسانية متكاملة، ولذلك تقترن الرغبة عندها بالحب والعاطفة في معظم الأحيان. من الذي يتحدث في الغالب عن خوفه من الفتنة ورغبته في الزواج لكي يعصم نفسه، ويستخدم ذلك وسيلة للضغط على الآباء كي يبحثوا له عن زوجة، حتى قبل أن يستكمل متطلبات الحياة الزوجية؟ ألا يمكن القول إن الذكر في كثير من الأحيان يرغب في المرأة لأنه يرغب في الجنس، وأن الأنثى في المقابل ترغب في الجنس لإنها ترغب في الرجل؟

لعله لهذا السبب نزعت الثقافة الذكورية دائماً إلى تجريد الأنثى والكلام عنها بوصفها طبيعة وماهية مطلقة ذات جاذبية قاتلة. أو هي مزاج من الأضداد: نار تستضيء بها وتستدفئ بها وقد تحترق بها، أو سحابة تلوح في الأفق فلا تدري أهي عارض ممطرك أم ريح فيها عذاب شديد! ولذلك ما يزال الذكر الحائر يتساءل منذ دهور: ماذا تريد المرأة؟ ثم اختزل حيرته بالقول: لا عيش لنا معهن، ولا عيش لنا بدونهن!

أما الأنثى في المقابل فتنزع إلى الحديث عن ذكر مخصوص بعينه، عن ذات مفردة لا ماهية وجوهر.

ألا يؤكد مجمل كلامنا السابق أن العلاقات الاجتماعية والإنسانية بعامة، والعلاقة بين الجنسين بخاصة، أكثر تعقيداً وتركيباً وتنوعاً والتباساً من أن تختزل في ثنائيات القوة والضعف، والذات والموضوع ، والهيمنة والخضوع؟

مكتبة الربيعي أحمد

في محيط الجامعة شهدت مختلف أنواع العلاقات والنماذج الإنسانية من الجنسين، بعيداً عن الصور الذهنية النمطية ومفاهيم الطبائع المطلقة، والماهيات الثابتة، والثنائيات المتفاصلة.. وبعيداً عن الأساطير المؤسسة للمرأة المثال والمرأة المكيدة، والمرأة المتلونة التي تتقلب في ساعة واحدة بين الفصول الأربعة: بين الإقبال والإدبار، وبين الانبساط والانقباض، وبين الفرح والاكتئاب، وبين رقة الفراشة وشراسة النمرة الضارية، وبين قر الشتاء وحر الصيف!

وما على الشعراء لو مضوا في صناعة هذه الأساطير وإعادة إنتاجها؟ والأساطير على كل حال ليست بلا معنى، فهي تمثيل رمزي للواقع كما يتصوره الوعي الأسطوري. وعليه فهي تقول عن الوعي الذي ينشئها أكثر مما تقول عن موضوعها الخارجي.

وهكذا فإن الأساطير الشعرية عن الأنثى لا تصف حقيقة المرأة بقدر ما تشي بأحوال الشعراء المتقلبة بين النرجسية الذكورية والانتصارات الموهومة وغير الموهومة والمخاوف والخيبات والانكسارات والرغبات المتحققة والمحبطة.

ورب قائل يقول: لِمَ لم تصنع المرأة أساطيرها الشعرية عن الذكر والذكورة كما صنع الرجل عنها؟ ولم لم تنتج من الآداب والفنون عنه بقدر ما أنتج عنها؟

بلى، أوضح الأسباب تواطؤ الثقافة الذكورية المهيمنة على إسكات صوت المرأة وتغييب ذاتها وتشييئها واستحضارها بوصفها موضوعاً في المقام الأول. ولكني أعتقد أن هذا ليس السبب الوحيد. فحتى، حين تسترد صوتها، فإنها لا تنزع إلى أسطرة الذكورة. فالأسطرة قرين التنميط والتجريد وأوهام الكلام عن الطبيعة المتأصلة والماهية المطلقة.

وهذه بدورها تتغذى بمطلق الرغبة التي لا تتقيد بالعواطف الحميمة تجاه فرد بعينه. وبقدر الارتهان لسلطة الرغبة تكون المخاوف منها وعليها. والرغبات والمخاوف هي منبع الأساطير. وكل ذلك ظاهرة ذكورية بامتياز.

ولكن، مهلاً! فثمة تطور لافت حدث في الآونة الأخيرة. فإذ تمكن خطاب التحرر الجنسي ومراكز إنتاج الجسد في الغرب من حمل المرأة على استدخال مفهوم الرغبة المنطلقة كما هي عند الرجل، بدأنا نلحظ لأول مرة اتجاه وسائط الإعلام والإعلان ومراكز صناعة الصورة إلى تشييء الذكر بما هو جسد وموضوع للرغبة، ثم تسليع جسده على نحو تسليع

مكتبة الرمحي أحمد

المرأة! فنرى تلك الوسائط تمطرنا بصور الشباب يستعرضون أجسامهم الرياضية المثالية، ويرتدون من الملابس أو يخلعون منها، ما يبرز جاذبية السلعة الجسدية التي تروج لنفسها ولغيرها من السلع الموجهة إلى سوق النساء. وازدهرت حول هذا طائفة من صناعات الجسد الذكوري فضلاً عن الأنثوي: النوادي الرياضية، صناعات الأجهزة والثياب الرياضية، والمواد الصحية ومواد بناء الأجسام والعضلات... وحتى المجلات الإباحية الموجهة لاستهلاك النساء، ومادتها أجسام الرجال الجذابة. وفجأة وجد الذكور أنفسهم يرزخون تحت ضغوط نفسية متواصلة إذ يقارنون أجسامهم بتلك النماذج التي تعرضها وسائل الإعلام في كل حين. وربما أدى ذلك بالكثيرين منهم إلى الشعور بعدم الأمان وضعف الثقة باجتياز امتحان المواصفات والمعايير التي تجريه الأنثى لهم، وفقاً لتلك المراجع المثالية!

أخيراً يستكمل الزمان دورته، فيكاد الذكر والأنثى أن يستويا مثلاً، ويصير الذكر كما المرأة. ويتجرع من الكأس المرة التي طالما شربت منه الإناث تحت وطأة الترويج الإعلامي التجاري للجسد الأنثوي المثالي غير الواقعي، كما يتمثل في أجسام عارضات الأزياء النحيلة، وملكات الجمال وفتيات الإعلان والممثلات الفاتنات! ولم يعد من غير المألوف أن تعلق الأنثى بإعجاب على الجمال الذكوري العابر دون أن يحمل ذلك أي دلالات عاطفية أو يطعن بالضرورة في وفائها لشريكها والتزامها الأخلاقي ونضجها العقلي. هل ينبغي أن يكون هذا التحول سبباً لاحتفال المرأة الساعية إلى المساواة؟! لا أعتقد أن المساواة في التسليع والتشييء انتصار لقضية المرأة. فالضحكة الأخيرة لمراكز تصنيع الرغبة والجسد التي وسعت سوقها لتشمل الجنسين معاً! وهذه.. ما يزال يهيمن عليها الذكور.

على الرغم من أن ظاهرة تسليع الجسد الذكوري تطور حديث، فإن ذلك لا يعني أن الذكر لم يكن قبل ذلك يتجمل للأنثى بمظهره، أو أن الأنثى لم تكن لتطلب الوسامة وحسن المنظر في الرجل. ولكن متطلبات المظهر الذكوري لم تكن لتقارن بمتطلبات المظهر الأنثوي. ومن ثم كانت الضغوط على الذكر في هذا المجال أقل بكثير من الضغوط

مكتبة الرمحي أحمد

على المرأة. فالثقافة السائدة تقرن الجمال والزينة بالنساء. بل إن مبالغة الرجل في تحسين منظره قد تنقلب عليه، فيظن به التشبه بالنساء والميوعة والتفاهة معاً. فالحكم الأول على الذكر مخبره لا مظهره! يكفي أن يكون مقبول الشكل ليطمئن على نفسه من هذا الباب.

ولكن.... لا راحة للرجل!.. كما أنه لا راحة للمرأة!

فإذا كانت الثقافة السائدة تسترخي مع الرجل في معايير المظهر، وتشتد مع الأنثى، فإنها في المقابل تشتد مع الرجل في معايير المخبر وتسترخي مع الأنثى بالمقارنة. وليس على الرجل أن يتجمل للمرأة بمظهره تجملها له، ولكن يبقى عليه أن يتجمل لها بعقله وكرمه وشجاعته وشهامته ومروءته وأخلاق الفروسية، التي تختصر جميعها بمفهوم «الرجولة». فعليه يقع عبء إثبات قيمته بهذه المعايير. وإنه لعبء ثقيل! وإذا كان جمال المظهر منحة إلهية في المقام الأول، فإن تلك القيم المشيدة للرجولة - حسب الثقافة السائدة - تنسب مسؤولية حضورها أو غيابها إلى شخصية الرجل نفسه. ثم إن الجمال الحسي يعلن عن نفسه، ولا مجال للادعاء فيه. أما جمال المخبر الرجولي فيمكن فيه الإدعاء والتظاهر والتكلف والكذب، ولو إلى حين، حتى يصدقه الاختبار أو يكذبه!

وهذا بعض ما شهدته حقاً في العلاقات بين الجنسين في أثناء دراستي في الجامعة الأردنية. رأيت الفتيات أقل تظاهراً وادعاء واستعراضاً وتكلفاً، وأكثر واقعية وقرباً من الأرض في الإفصاح عن شخصياتهن وفي التعبير عن أنفسهم. ورأيت الكثير من الذكور -في المقابل- يكدحون في تزيين أنفسهم للفتيات بادعاءات الثقافة والمواهب الإبداعية والشجاعة والقوة الجسدية والمعنوية والمواهب القيادية والنضال الوطني، وحتى القلق الوجودي والتأمل الفلسفي وشقاء الوعي المتوقد، وأحزان الشاعر الحساس!! أما تجربة السجن في قضية سياسية وطنية فتلك قيمة كبرى مضافة، تقدم بين يدي المناضل العتيد عند الأنثى المنشودة.

وهكذا يمكن أن تتخفى المغازلة بالكلام الفلسفي والسياسي والأدبي. ويمكن أن يكون الكتاب الذي يحمله الطالب بيده جزءاً من عدة الاستعراض، كما يستعرض الطاووس ريشه والعيون المرتسمة عليه في سياق تنافسه على الأنثى!

مكتبة الرمحي أحمد

لا أقصد التعميم بهذا، ولا أنتقص من إخلاص المخلصين وصدق الصادقين والتزام الملتزمين واجتهاد المجتهدين حقاً وصدقاً في الأمور الوطنية والثقافية والإبداعية في محيط الجامعة في ذلك الحين. ولقد تختلط الغايات فيكون عند الإنسان من هذا وذاك. وقديماً امتزجت الفروسية بالغزل، وربما صاح الفارس باسم حبيبته إذ يقبل على الحرب، وربما رفع منديلها قبل المبارزة في أوروبا العصور الوسطى، وربما ساح في البلاد محارباً باسمها! وربما أيضا قتله الإقدام في سبيل إثارة إعجابها!

وما أبرئ نفسي..

لا، لم أر الطالبات بصورة عامة ينزعن إلى هذا النوع من التجمل الاستعراضي بسمو الشخصية، ولا إلى التظاهر بما لم تكنه إحداهن. بل لم يكن مثل هذا ليغرهن طويلاً. وحتى لو كان حقاً وحقيقة فإن تلك الصفات الرفيعة في الشاب يمكن أن تثير الإعجاب، ولكنها لا تغني عن المتطلبات الواقعية في شريك العمر، حين يجد الجد ويقترب الحسم في مصير العلاقة. فما نفعها بعبقرية لا يعرف مآلها في سوق العمل والكسب، أو بشاعرية هائمة في سماء الكلمات، أو بقلق وجودي ليس تحته إلا الريح، أو بنضال سياسي ثوري محفوف بالمخاطر! كل ذلك لا ينشئ بيتاً آمناً وحياة مستقرة.

ولذا كانت العلاقات العاطفية في الجامعة كثيرة، وما صمد منها حتى نهاية أعوام الدراسة قليل، وما أثمر زواجاً بعد الجامعة أقل، وما نجح من تلك الزيجات أندر! وفي جل الأحيان كانت الفتاة لا الفتى، من يتخذ القرار بإنهاء العلاقة!

فأي الفريقين أقرب إلى الواقعية والعقلانية؟ وأين ما تدعيه أساطير الذكورة من أن المرأة أكثر انجرافاً وراء العواطف والأوهام؟!

ورب قائل يقول: إن صح وصفك ذاك، فإنه دليل على أن المرأة أقل اهتماماً وانشغالاً بالقضايا العامة والمعاني العظيمة والغايات السامية!

وهو وهم آخر. فلا الرجل يكتفي بالزواج من القضايا العامة ولا المرأة منصرفة عنها إلى مطلب الزواج وتدبر المعاش. والزواج على كل حال، ليس مسألة هامشية عند الجنسين على السواء، وليس على أحد أن يختار بين العام والخاص. ولكن، لكل أشراطه، ولا تغني أشراط أحدهما عن أشراط الآخر.

مكتبة الربيعي أحمد

وقد شهدت في فتيات الجامعة مختلف النماذج والأنماط: الذكية اللامعة والمتوسطة الذكاء ومن هي دون ذلك؛ الناشطة في العمل الوطني والسياسي التي تبذل دون ضجيج أومعه والمنصرفة عن هذا كله؛ المثقفة القارئة والبسيطة الساذجة، قوية الشخصية وضعيفة الشخصية، اللطيفة والعدوانية، المتواضعة والمتكبرة..

ولقد تحضرني هنا حادثة طريفة وقعت معي.

كنت في السنة الثالثة. وكنت زعيم الحركة الطلابية في الجامعة والضفتين تحت مظلة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية. كما كنت معروفاً في الأوساط الأدبية والثقافية في الأردن وخارجها من خلال إسهاماتي المنشورة. بل كنت أيضا عضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين.

كل ذلك يدعو إلى الاعتداد بالنفس، إن لم يكن الغرور!

جاءني أحد الزملاء وأخبرني أن له قريبة تدرس الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية في بيروت. وأنها فتاة مهتمة بالأدب والثقافة، وأنها في إجازة في عمان. وقد سمعت بي وقرأت بعض نصوصي، وتحب أن تلتقيني إذا رغبت في ذلك، لقاء تعارف وحوار في اهتماماتنا الثقافية المشتركة. وافقت مرحباً وضربت لذلك موعداً في حرم الجامعة.

ذهبت إلى اللقاء مرفوع القامة متهيئاً لاستعراض ثقافي مدهش وقد ارتسم المشهد المقبل في خاطري مسبقاً. لن تمضي بضع دقائق على بدء الحوار حتى أكون قد بهرتها عن نفسها وعصفت بعقلها وأفكارها عصفاً جميلاً، لتعلم أن العيان أعظم من الخبر وإن كان الخبر معجباً، وأن رؤية المعيدي خير من السماع به، وإن كانت السمعة شديدة الحسن!

والتقينا أخيراً. كانت فتاة نحيلة رقيقة هادئة الملامح، حتى كدت أشفق عليها لأول وهلة. وبالفعل، لم تمض دقائق حتى وقعت الدهشة، بل الصدمة. ولكن، بخلاف النص المتخيل في ذهني، لم أكن أنا مصدر الإدهاش والإبهار، إنما كانت هي!

لم أعرف حتى ذلك الحين فتى ولا فتاة في مثل ثقافتها الواسعة العميقة. فكلما تزينت لها باسم شاعر أو أديب أجنبي، أو استشهدت بشيء من نصوصه، جاءتني بخبره

مكتبة الرمحي أحمد

وخبر نصوصه كلها. وما كنت قد قرأته مترجماً، كانت قد قرأته في نصه الأصيل باللغة الإنجليزية، ومعه ما دار حوله من دراسات وآراء نقدية، وما أحاط به من ظروف عامة وخاصة، ومكانه في التيارات الأدبية، وقد يحيل الكلام عنه إلى كتاب آخرين، سمعت ببعضهم ولم أسمع بالآخر. وكانت تتحدث بعفوية ودون تكلف أو ادعاء. و وجدتني أكدح لأجاريها. فسمعتي التي سبقتني إليها على المحك. فلأوازن ما تعرفه ولا أعرفه، بما أعرفه ولا تعرفه. وكان جل معرفتها بالآداب الأجنبية. فاستدعيت أدباء العربية وكتابها عبر التاريخ لمساعدتي: السياب، صلاح عبد الصبور، أحمد عبد المعطي حجازي، أدونيس.... و.... نعم: شعراء المقاومة: محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد، وكانوا قد اشتهروا في ذلك الحين وانشغل الناس بهم؛ كذلك نجيب محفوظ وقبله طه حسين والعقاد والحكيم. فإن كان هؤلاء أدنى إلى أن يعرفوا فلأضرب في عمق التاريخ ميمماً شطر الجاحظ والتوحيدي والمتنبي وأبي العلاء، ولأقف على الأطلال مع امرئ القيس وطرفة، ولأتصعلك مع الشنفرى وعروة بن الورد وتأبط شراً! ولأتصوف مع ابن الفارض وابن عربي والحلّاج! وأخيراً، لماذا أذهب بعيداً إلى غيري وأنسى نفسي؟! الفتاة مثقفة وباحثة وناقدة، ولكنها ليست أديبة. فلأقدم لنفسي بإنتاجي الأدبي، ولها أن تبدع في قراءته وتحليله! باختصار عدت من اللقاء أكثر تواضعاً وكل رجائي أن أكون قد خرجت من امتحانه كفافاً لا علي ولا لي!

لم أر تلك الفتاة الرائعة بعد ذلك. ولا أعلم أين هي من الأرض. وأعجب أني لم أسمع بها على تطاول الأيام في الأوساط الثقافية والأكاديمية، ومن يدري لعل التقصير في هذا مني!

تلك تأملات فكرية في كتاب الأنوثة والذكورة، تداعت من الوقوف على ذكرى اللقاء الأول المباشر مع الأنثى في حرم الجامعة، في زمن كان فيه هذا التحول أشبه باكتشاف أرض جديدة تعد بقدر ما تنذر. وقد تمنحك من فرح الحياة ولو إلى حين، وقد تخلفك كسير القلب ليس في يدك إلا قبض الريح. ولكن ، بعيداً عن التأملات الفكرية

مكتبة الرمحي أحمد

العامة، ما الذي اختبرته في تلك الأرض الجديدة على الصعيد الشخصي؟ هل كان البرق الذي لاح في أفقها البعيد بشيراً بغيث يروي من عطش قديم، أم أنه لم يكن غير برق خلّب يعشي الأبصار ولا يعقبه إلا الريح والغبار!

2. حكاية حب بلا خاتمة

على الرغم من مظهر الاتزان واحترام الذات والحياء الذي زرع فينا، قضيت وصحبي نصف السنة الأولى ننظر ونتملى ونقارن ونوزع درجات الحسن والجمال وندرس احتمالات التعارف والارتباط العاطفي بهذه أو تلك، فَيَهُم أحدنا ثم يحجم وقد راوده الشك في حسن الخيار، وخشي من الندامة التي تأتي مع العجلة. وقد يبدو له في الصباح أمر ثم يبدو له غيره في المساء. قد تشابه الحسن علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون! فلنتمهل في عجم عيدان الخيزران حتى يجد أحدنا أرقها عوداً و أطيبها نشراً. فالزاد كثير، وما نستقبل من أيامنا الجامعية أكثر مما نستدبر.

لكأننا في بستان زهور تنتظر القاطفين، وعبء الاختيار على القاطف للزهرة. أو لكأن الفتيات طرائد تنتظر أن يفرد الصياد واحدة منها ليسدد إليها سهامه. وواقع الحال أن السهام تنطلق من عيون المها على غير هدف مقصود، فتصرع من تصرع، وهن غافلات عن صرعى الغواني، ينمن ملء جفونهن وهم يتقلبون على مثل الجمر، يسامرون النجوم ويستعجلون الصباح، أليس الصبح بقريب!

ولكن ، دع عني التواضع الكاذب، فقد أوتيت موهبة في جذب اهتمام الفتيات دون تقحم أو اندفاع. وفي جعبتي أوراق رابحة في طقوس التنافس الذكري على الأنثى العزيزة: الشعر والثقافة والتفوق الدراسي والنشاط السياسي والموهبة القيادية في وقت كانت فيه هذه الأمور جزءاً قيماً من عدة الجاذبية، قبل أن يأتي زمان تصبح فيه عبئاً على صاحبها في رقصة الغزل! فلا شيء يدعو إلى الشكوى أو ضعف الثقة، ولا حاجة للاجتهاد في التعويض عنه بجمال المخبر! وحتى الشعر الخشن القطط يمكن أن يصبح علامة مميزة تحال إلى الصورة الذهنية المرسومة للعباقرة والمفكرين والموهوبين! ومن كان في صحبة آينشتاين وشعره الكث فلا ينبغي له أن يشكو! وحتى إهمال المظهر والملبس والقيافة يمكن أن يُضْفى عليه معنى رمزي حسن، ليعبر عن انشغال الشخصية بالأنبل

مكتبة الربيعي أحمد

والأعظم والأجمل، لا عن ضعف الذوق والجهل بالموضة، أو قلة الموارد المالية! من جديد، إنها معركة التفاوض على المعاني والعلامات، وامتحان القدرة على فرض المعاني التي تخدم أغراضك! وأزعم أنني بارع في هذا المجال! فإذا أضفت إلى ذلك كله هالة من الغموض والتأمل فقد اكتملت لك صورة الشاعر الأديب المفكر الحساس المختلف! ولكن لا تبالغ بها فَيُظَن بك الخَرَقُ الاجتماعي وانعدام مهارات التواصل مع الآخرين!

لا عجب إذن أن تلمع نجوميتي في مجتمع الطلبة في وقت قصير، وبخاصة أنه كان مجتمعاً صغيراً في تلك السنين الأولى من حياة الجامعة الأردنية. ووجدتني أجتذب أهتمام عدد من ذوات الحسن والأناقة، وقد تبادر إحداهن إلى تقديم نفسها للتعارف، ربما بعد رسائل متبادلة من الذبذبات الخفيّة!

إحداهن كانت فتاة رقيقة أنيقة لافتة الجمال. وكنت آنس بها وتأنس بي وقد أرضى إقبالها عليّ غروري وزادني ثقة بنفسي. لم نتعجل في إعطاء علاقتنا معنى عاطفياً مباشرة، وإن بدا أنه يتنامى من جهتها يوماً بعد يوم. ولما كنت أعيش في السكن الجامعي، وبعيداً عن عمّان حيث تسكن هي، فقد تطوعت بأن تأتيني بالصحف اليومية والمجلات الدورية وحتى ببعض الاحتياجات الشخصية كأدوات الحلاقة. حاولت أن أثنيها عن ذلك، فأصرت. وكان واضحاً أن ذلك من إشارات التقرب العاطفي، في غياب التعبير المباشر. في أحد الأيام فاجأتني بما لم أكن أعلم عنها، وذاك أنها مخطوبة لأحد موظفي الجامعة وأن الخطة أن يتزوجا ثم يسافرا معاً إلى الولايات المتحدة ليكمل دراساته العليا نحو درجة الدكتوراه. ولم يكن هذا بيت القصيد، وإنما ما أعقبه من بوح حذر متحفظ يفيد أنها الآن في حيرة وشك من مشاعرها تجاه الرجل، وتخشى أن تظلمه وتظلم نفسها بالمضي في مشروع الزواج به، وأن عواطفها قد تكون في مكان آخر، ملمحة إلي بطريقة تنبئ ولا تلزم. ثم سألتني الرأي والمشورة، وكأنها تطلب مني بوحا عاطفياً مباشراً يعينها على القطع في الأمر.

كنت منجذباً إليها على نحو ما. ولكن مشاعري نحوها لم تكن قد تطورت إلى مستوى الحب، وإن بدا لي أنها تمضي في ذلك الاتجاه. وحتى لو كانت قد بلغت ذلك المبلغ، فكيف لي أن أتحمل تلك المسؤولية الأخلاقية الثقيلة، فأكون السبب عن صرفها

مكتبة الربيعي أحمد

عن خطيب مؤهل وزواج وشيك، وأنا بعد في الشهور الأولى من سنتي الجامعية الأولى ولا أدري أين تمضي بي الأقدار، وما يكون من أمري وأمرها بعد سنين. وعلى الرغم من أنني لم أكن بعيد عهد بالمراهقة وأوهامها واندفاعاتها العاطفية، غلب علي نداء العقل والمروءة. فتجاهلت تلميحها إلي وكأني لست طرفاً في هذا الموقف، ثم اجتهدت في صرفها عن الفكرة، وإقناعها بأن ما طرأ على مشاعرها ربما كان وهماً عارضاً لا يبنى عليه قرار مصيري. أما مشاعرها نحو خطيبها فينبغي أن تختبرها وتزنها دون تدخل عامل خارجي يغلب أن يكون سحابة صيف!

لم تلبث طويلاً حتى اختفت بعد ذلك الحوار من حياتي ومن الجامعة. ولم يخلف غيابها شعوراً بالفقد والأسى في نفسي. وقد نسيت اسمها الأول بعد تلك السنين وبقي اسمها العائلي في ذاكرتي. فلماذا لم يختف طيفها من فضاء الذاكرة حتى أملى عليّ هذه الكلمات؟

ربما لأن بعض اللحظات الجميلة الشاردة التي انصرمت على عجل تظلّ تطوف كالأشباح في مكان انقصافها المبكر وتغوي بالسؤال القديم: ماذا لو؟

وربما لأن الإعجاب يمكن أن يكون أطول عمراً من العشق المحموم لقلة شروطه واختباراته!

وربما لأن خياراتنا في عالم موازٍ قد اتخذت سبيلاً آخر نحو مصير مختلف! وربما لأن الرغبة التي لا تتحقق هي الرغبة التي تبقى حيّة تتوارى في ركن قصي من الوعي، ولا تصعد إلى السطح إلّا وهي ترتدي قناعاً! أما انقضاء الرغبة فيعني موتها! شعور بالرضا المؤقت يعقبه شعور بالفراغ إلا أن تتجدد الرغبة. ولو أن رغبات الإنسان تحققت جميعاً لغدَت الحياة موحشة كئيبة؛ فليس ثمة ما يتطلع إليه من قابل أيامه، وليس ثمة ما يحلم به، ولا ما يحفز المخيلة التي تبدع الآداب والفنون العظيمة! الرغبة مادة الحلم، وغذاء المخيلة، وقاطرة الحياة. لكأن ذلك من شقاء الإنسان ومفارقات وجوده: قضاء الرغبة لذة تطفئ شعلة، وإحباطها ألم يوقدها فتضيء!

أين تلك المرأة من الأرض الآن وقد جاوزت الستين مثلي؟ ولو تقاطعت طرقنا لما استطعت أن أميّزها، ولن تكون الفتاة التي عرفتها في ذلك الماضي البعيد. ولو التقينا الآن

مكتبة الربيعي أحمد

لذهب الواقع الماثل بالطيف الذي لم يكبر عن التاسعة عشر، وذهب معه طيف الفتى الذي يقف معها في الصورة القديمة.. الفتى الذي كنته ، ويكتبه الآن هذا الكهل الذي صرت إليه!

انقضى النصف الأول من سنتي الجامعية الأولى دون أن يجد قلبي ضالّته مع وفرة الاحتمالات!... لو كان الأمر بالخيار!

ولكن فكرة المقارنة والانتقاء في هذا المجال هي محض ادّعاء، وتتناقض ابتداء مع فكرة «الوقوع» في الحب!

الحب يجدك ولا تجده؛ يختارك ولا تختاره، ولا تميّزه حتى يقع لك.

كان الطقس ما يزال بارداً وغائماً، وبقايا الثلج التي جاءت به موجة سابقة تتوزع هنا وهناك في طرقات الجامعة وأرصفتها وساحاتها، حين كنت أشق الطريق الذي يفضي إلى بوابة الجامعة الرئيسة حاملاً حقيبة ثيابي، لألتقي أمامها بصاحبيّ اللذين سبقاني إليها، فنستقل سيارة الأجرة عوداً إلى طولكرم لأول مرة منذ أن غادرناها إلى الجامعة، لنقضي إجازة نصف السنة.

حين صرت قريباً من مدرج سمير الرفاعي، حيث أنعطف من هناك إلى البوابة، وقع بصري عليها.

كانت تجلس وحدها على حافة الحاجز الحجري أعلى الدرج المؤدي إلى المدرّج، وتضع على رأسها طاقية صوفية تقيها البرد.

لم أكن قد رأيتها سابقاً، ولم يصعقني منها جمال باهر لأفسر به تلك الهزة التي اعترتني، كما انتفض العصفور بلله القطر. كان شيء كالتيار الكهربائي يمتد منها فيسري في كياني وهي غافلة عني تمام الغفلة، لم أختبر مثل هذا الشعور من قبل، ولم تصنع فتاة بي مثل الذي صنعت دون نظرة منها، ولا سلام ولا كلام!

أدركت في تلك اللحظة أن شيئاً غامضاً شديد الخصوصية قد حدث لي، وأن الأقدار قد ساقتني إليه علي غير إرادة منّي، وأن أثره سيقيم طويلاً في روحي..

مكتبة الرمحي أحمد

إذا احتكمت إلى معايير العقل فإن عليّ أن أقف دون تسميته أو وصفه بالحبّ لأول نظرة.. فهي لم تكن حتى نظرة متبادلة!

فإن لم يكن، فما معنى ذلك الانجذاب العاطفي الطاغي الذي غمر كياني ولم يتراخ وأنا أتابع طريقي مبتعداً نحو الموعد المضروب مع صاحبيّ، ولا خف أثره وأنا أتأمل الطريق من عمان إلى طولكرم من زجاج السيارة، فأرى صورتها تنطبع على الشجر والحجر والجبل والوادي، ثم لا تغادرني في أيام الإجازة حتى انقضائها!

حين أتأمل في أثر تلك اللحظة ومعناها في ضوء ما أعقبها، لا أستطيع إلا أن استدعي الحديث الشريف (الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف) ثم أذهب في تأويله إلى عالم آخر خارج الزمان اجتمعت فيه الأرواح قبل تجسّدها في عالم الشهود المادّي حيث امحت من الوعي مشاهد ذلك العالم الروحي، إلا من أثر بعيد غامض.. فمن تعارف منهم في عالم الروح على حبّ ومودّة وتآلف، ثم التقوا في هذه الدنيا، سرت بَينهم طاقة جذابة لا يدرك كنهها!

إذا صحّ ذلك، فإن ما يبدو لنا حباً لأول نظرة قد يكون حباً أقدم من الحياة نفسها!

أو لعلّ رواية كل منّا مكتملة خارج الزمان، حيث لا ماضٍ منصرم، ولا حاضر راهن، ولا مستقبل مغيّب. إنما يقع تسلسل الأحداث وتعاقبها في داخل الزمان وأهله. فإذا كان ذاك فإن ما يقع لنا في أول الرواية معطوف على نهايتها وإن لم نعلمها، وبذلك تستمدّ البداية أثرها العاطفي الطاغي من فصولها التالية المقدورة ومآلاتها الأخيرة من قبل أن تتكشف لنا تباعاً.

ما إن انقضت الإجازة ورجعنا إلى الجامعة حتى قررت إدارة السكن الجامعي للذكور والإناث تنظيم حفلة مشتركة، وطلب مني أن أمثل سكن الطلاب في اللجنة التي شكلت لهذه الغاية، وكان سائرها من سكن الطالبات الذي كان يضمّ أضعاف عدد الطلاب.

لأمر ما، وقع في نفسي أنني سألتقي بتلك الفتاة في اجتماع اللجنة المضروب في أحد مكاتب شؤون الطلبة. وقد كان كما حدثتني نفسي. وهذه المرة شعرت بأن الماء قد التقى على أمر قد قَدِر، وأن قنوات الطاقة الغامضة قد اتصلت بيننا على موجة واحدة.

مكتبة الربيعي أحمد

كانت تشع بالثقة وقوة الشخصية واستقلالها مع فطنة لافتة. وهناك عرفت أنها قد وهبت صوتا جميلاً قوياً في الغناء.

وما لبث الاجتماع أن تحوّل إلى جلسة اجتماعية، فطلب مني أن أقرأ من شعري ففعلت، وشعرت أني بلغت به من نفسها شيئاً. ثم طلب منها أن تغّني، فغنت مقطعاً أو أكثر من أغنية أم كلثوم الشهيرة «رق الحبيب» فتجلّت وأبدعت وبهرت.

وعلمت عندئذ علم اليقين أني صرت عاشقاً، وأني منذ اليوم غير الفتى الذي كنته في الأمس، ولسوف تبقى تلك الأغنية أعواماً طوالاً تبعث في نفسي الشجى وتثير المواجع كلما سمعتها. لا لأنها تحيل إلى حب قديم جارف ذهب مع الريح دون أن ينجز وعوده، ولكن لأنني سوف أكتشف متأخراً أنه، على غير علم مني، كان منذ البدء بلا وعود!

أما في ذلك الحين، فقد كان لقاؤنا الأول ذاك فاتحة علاقة عاطفية جامحة جموح العاصفة، متقلبة تقلب البحر بين المد والجزر، وبين الهياج والهدوء. أما أنا فقدمت لها نفسي بلا شروط، فلم أزن تعبيري العاطفي بزنة تعبيرها ليكون كفاءً، ولا توقفت لحظة أتدبّر في اختلاف البيئة التي جاء كل منها وأثره المحتمّل في المآلات، فقد كنت من أصول عائلية ريفية، وبلدة طولكرم التي ولدت ونشأت فيها كانت هجيناً رائعاً من الريف والمدينة، ويمكن أن يزعم أبناؤها أنها جمعت أحسن ما في المدينة وأحسن ما في الريف.. أما هي فقد جاءت من بيئة مدنية خالصة، ساد الاعتقاد أنها تترفع عن أهل الريف، حتى تراكم تراث شعبي من النوادر السّيارة التي اختلقها كل من الطرفين للقدح في الآخر وفي صنع صورة نمطية سلبية له. فاختص الفلاح نفسه بصورة الشجاعة والكرم والدين والصدق والبراءة والصبر والاحتمال والإنتاج، ونفي ذلك كله عن الآخر المدني ثم أثبت له صفات الكبر والاستعلاء والجشع والاستغلال والمكر والبخل وغلبة القيم المادية على القيم الأخلاقية. وفي المقابل اختص ابن المدينة نفسه بالتحضّر والنظافة وحسن التصرف والفطنة، ثم رمى الفلاح بالسذاجة والتخلّف وسوء المظهر والسلوك. والصور النمطية بطبيعتها ظالمة تقوم على التعميم والمبالغة وتغذي التحيزات العنصرية المقيتة. ولكن ترفّع أهل المدينة على أهل الريف ظاهرة عامة لا يمكن إنكارها، وقد كانت كذلك في فلسطين حين كان البون واسعاً بين حياة الريف البسيطة وحياة المدينة الأكثر تطوراً، حتى استطاع

مكتبة الربيعي أحمد

إقبال أهل الريف على التعليم أن يضيق الفجوة، وإن لم يردمها تماماً. فالقيم الثقافية الشعبية السائدة لا تزول فوراً مع زوال أشراطها الماديّة.

لا، لم أتوقف لأتدبّر في تلك الفروق البيئية بيننا ولا في أن أسرتها ميسورة أكثر من أسرتي.. فما كان لذلك العشق الطاغي أن يستصحب معه غير نفسه وغير العاشقين الفردين، وقد بدا لي أنه أكبر من الريف والمدينة معاً، وأعظم من أن يكون مفتقراً إلى شيء خارجه، كذلك كان لي من الثقة بنفسي ومواهبي ووعود المستقبل ما يغنيني عن أي اعتبارات أخرى، ومثل ذلك ثقتي بشخصية الحبيبة المستقلة وذكائها وتفرّدها وتجرّدها من إملاءات التقاليد الاجتماعية السقيمة. وحين اختارت أن تزور بيتنا في طولكرم بعد احتلال عام 1967 وتتعرّف والدي وأسرتي، في غيبتي القسريّة عن بلدي، لم أر في ذلك إلا استجابة جريئة لقواعد المحبة و إعلاناً بارتقائها إلى مستوى حميمي أعلى. ولم يخالط ذهني أبداً في ذلك الحين أن الزيارة قد تكون لها مآرب أخرى، أعني تقييم بيئتي الأسرية ومنبتي، دون أن يجبّ ذلك المعاني الجميلة الأخرى الآنفة الذكر. ولو كان كذلك، فهو حقّها ولا تثريب عليها.

نعم وهبتها نفسي بلا شروط، ومعها شعري الذي فجّر حبها ينابيعه، حتى كانت القصيدة تتلو القصيدة يمدّها نهران عظيمان: فلسطين والحبيبة، وكلاهما يحيل إلى الآخر ويشتبه به، فلا أستطيع أن أحرر قصيدتي لأحدهما دون الآخر. ذلك طبع المحبة، يستدعي بعضها بعضاً، بخلاف ما درجت عليه الأغنية العربية التي لا تصرف المحبة للحبيب إلا بصرفها عن غيره، حتى الأهل!

كذلك كنت في تلك العلاقة العاطفية المحمومة.

أما هي.. فلا أجد ما أصف به حالها أحسن من كلمات أغنية شاعرية جميلة للمغني شارلز أزنافور *Charles Aznavour* بعنوان «هي» She ، غناها أولاً بالفرنسية، ثم جعل لها نسخة إنجليزية، ومنها هذه المعاني المترجمة:

ربما كانت الوجه الذي لا يمكن أن أنساه

.. أثراً من المتعة أو الحسرة

مكتبة الربيعي أحمد

قد تكون كنزي، أو الثمن الذي عليّ أن أدفعه

ربما كانت الأغنية التي يتغنى بها الصيف

.. أو رعشة البرد التي يأتي بها الخريف

وقد تكون مائة من الأشياء الدامعة

.. على مدى يوم واحد

قد تكون جمال الوحش

المجاعة والوليمة

وقد تجعل من كل يوم فردوساً أو جحيماً

يمكن أن تكون مرآة أحلامي

.. ابتسامة تنعكس في ماء الجدول

وهي التي تبدو دائماً سعيدة بين الجمع

.. ويمكن أن تشي عيناها بالوحدة والاعتزاز بالذات

لا تسمح لأحد أن يراها باكية

ربما كانت الحب الذي يبقى ويدوم

.. ويمكن أن يصير ذكرى تأتيني من أشباح الماضي

لعلّ هذا الوصف الحافل بالتناقضات بعضاً من الصورة الذهنية النمطية التي ابتدعها العقل الذكوري للأنثى المتقلبة المزاج، ولكنها تصف الحالة الخاصة التي أتحدث عنها. بلى، كانت تلك الفتاة الفصول الأربعة في فصل واحد، أو شهر واحد، أو أسبوع واحد،... وأحياناً في يوم واحد! تتقلب بين الانبساط والانقباض... بين التعبير العاطفي الواضح وضوح الشمس والتعبير الغامض الحائر الملتبس التباس المساء: تفيض عواطفها حيناً كأنها النهر في مواسم المطر، وتشحّ فجأة كأنها النهر في مواسم الجفاف.. تتسع أحياناً وسع الحياة، ثم تضيق ضيق العبارة عن الفكرة الكبيرة. تقبل حيناً إقبال من لا يلتفت

مكتبة الرمحي أحمد

وراءه، ثم تبطّئ كأن شبحاً خفياً من الماضي يدعوها من خلفها وتخشى أن توغل في البعد عنه فتضلّ طريق الرجعة. تريد أن تبقي الباب من أمامها مفتوحاً لتحتفظ بحرية الخروج منه متى تشاء، ولكنها في الوقت نفسه لا تريد أن تغلق الباب وراءها لترجع منه أنى تشاء. ترق حيناً كأنها اليمامة، حتى إذا ظننت أنها توشك أن تقف على كتفك، مدّت جناح الصقر وانطلقت بعيداً فوق ذرى الجبال حتى لم تعد تراها، وخلّفتك تتساءل: هل مسكنها هنا عندك، فهي الآن في رحلة مؤقتة تستكشف بها تلك الجبال، أم أنها تسكن هناك وهي ترتحل إليك منه لتكون معك، أم أن لها مسكناً هنا ومسكناً هناك فلا تثوب إلى أحدهما حيناً حتى يدعوها الحنين إلى الآخر.

وما بالي أصبر على هذا وأنا الممتلئ بثقة أخشى أن تتاخم الغرور، وأرى الدنيا مبسوطة بين يديّ، ولا يحدني إلا سقف السماء ومنازل النجوم، وما عقمت أم الزمان فلم تلد غيرها من النساء الرائعات اللواتي يلقن بعشقي وشعري ويليقان بهن؟!

بل هي الثقة بالنفس وسلطان العشق الطاغي في عصر البراءة ذاك ما أملى عليّ الصبر. فعشق بهذه القوة لا يمكن أن يذهب سدى أدراج الريح، ولا يمكن أن يبذل عبثاً، وإلا فالحياة نفسها عبث. وحريٌ بعشق مثل هذا أن يحرّك الجبال ويطوي المسافات ويستدعي الفراشات ويفجر الينابيع من الصخر ويؤلف بين الصقر واليمامة، ويعيد الأيائل الشاردة إلى موطنها. وأين تجد فتاتي عشقاً كهذا يرسمها شعراً أبقى من الحياة، وأين تجد عاشقاً شاعراً مثلي سيقول في زمان آخر:

النيل ينبع من شراييني، فلا ثم امرأة

ذاقت على عجل هواي

إلا وظلّت جمرة ظمأى تراودها، ويحملها الحنين إلى حماي

إذن استعيري أيتها اليمامة جناح الصقر وطيري أنّى شئت، فإن هواك عائد لي.. فكل الأرض مملكتي، أورثنيها العشق أتبوأ منها حيث أشاء!

ذلك هو شقاء الشعر وروعته معاً.. يسمو بالحياة إلى عالم أكثر جمالاً وصدقاً ونبلاً وبراءة، ثم يلتبس عليه الحد الفاصل بين الواقع والمتخيّل.. وقد ينقطع في المتخيّل عن

مكتبة الربيعي أحمد

الواقع.. فلا يرى الثاني إلا بعين الأول.. يصبح التمثيل الرمزي المتجاوز الذي يصنعه الوعي الشعري مرجعاً للواقع الذي جاء منه. عندئذ لا يكشف الشعر حتى يحجب، ولا يثبت حتى ينفي، ولا يسمو بالحياة حتى يسمو عنها بعيداً في فضاء المخيلة والحلم. لكأن الشاعر لم يخرج من ضيق الحياة ونقائصها إلى ملكوت الشعر، إلا ليتيه في فضائه المفتوح! تلك هي المملكة التي أورثها العشق للشاعر. لا تمطر سماؤها خراجاً ولا تؤوي أرضها يماماً، إلا كلمات. وجبالها ووديانها ومروجها ويمامها وأيائلها.. كلمات! رائع. سوف تنحدر كلماتك كالنهر من ملكوتك الشعري إلى ملكوت الواقع حيث الناس هم الناس، تمجد إنسانيتهم وبؤسها. وسوف يجدون في كلماتك بعض العزاء وبعض الأمل، وسوف يتنوّرها السارون في دجى الليل الطويل، ويغالب بها المقاتل من أجل الحرية خوفه، ويستعيرها الأسير جناحاً، ويتقرب بها العاشق من معشوقه. وربما صدحت بها اليمامة التي هيأت لها عشاً عندك، وظننت أن هواها عائد لك أنى طارت في الآفاق. وسوف يأخذ كل حاجته من شعرك، ثم تُجْزى به عندهم إعجاباً وتقديراً.. أيضا: كلمات! ولكن هذا كله لا يورثك مملكة الواقع تتبوأ من أرضها حيث تشاء، حتى تقول لليمامة واثقاً: طيري أنى شئت، فإن مرجعك إليّ!

فأنت والحبيبة في اختبار العشق على صعيد، لكل منكما ذاته وحساباته ومزاجه وذاكرته ومعاييره وأسراره وجوانبه المعتمة وحيّزه الشخصي الخاص.. لا الثقة الزائدة بالذات ولا المواهب التي تحب أن تتعرف بها ولا سلطان العشق الطاغي الذي ينبعث من روحك ولا البراءة المقيمة فيك، ولا كل الشعر الجميل، يضمن لك المآلات التي تتطلع إليها حتى تصبر على تقلب الحبيبة بين المد والجزر كل ذلك الصبر.

فرب يوم يأتي في قابل الأيام، تعلم فيه علم اليقين أن اليمامة التي غادرتك إلى الجبال البعيدة المحاذية للأفق، لن تعود إليك هذه المرة من رحلتها. وسوف تكتشف متأخراً -بأثر رجعي-، أن خليط الثقة الزائدة بالنفس وبسلطان العشق في زمن البراءة، قد لا تكون لك، وإنما عليك، وأنها قد تحجب الرؤية في النهار المشمس، وقد تكون السبب في هفوة الحكيم، ونبوة السيف، وكبوة الجواد!

بلى، إنها الحكمة المتأخرة التي تعيد قراءة الوقائع بعد حين من انقضائها، حتى وإن كان القارئ شريكاً رئيسا في تلك الوقائع، فهو يقرأ قطعة من حياته عاشها دون أن يحيط

مكتبة الرمحي أحمد

بكل أبعادها ومعانيها. وأتعجّل هنا لأبذل للقارئ نصيحة من وحي تلك الحكمة المتأخرة، فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه. وهذه هي النصيحة: إذا كنت في علاقة عاطفية، ورأيت من الحبيبة تقلباً لا مسوّغ له بين المد والجزر، والوصل والهجر، والقرب والبعد، والإقبال والإدبار، والمغاضبة والمصالحة، والبسط والقبض. فلا تتعلل بالأماني، واعلم أن النهاية محتومة، وأن تلك العلاقة لا تحمل معها مواعيد تستأهل الصبر والانتظار، وأن زيادة القرب والإقبال منك لا تزيد الطرف الآخر إلا تخوفاً و تحفظاً وانقباضاً وتحوّطاً خشية التزام ما يفضل -لأمر ما- أن يبقى مُعلّقاً مفتوحاً على الاحتمالات، فإن شاء أخذ وإن شاء ترك، وإن ذلك كله يرتد إلى اعتبارات مسكوت عنها، يعلمها الطرف الآخر وتجهلها أنت. وما هكذا تكون شروط العشق والمحبّة. فليس يقرّبك من الحبيب المتردد أن تبذل له «قيراطين» إذا رعاك بقيراط، ولا أن تراه بعينين إذا رآك بعين واحدة، كما تقول الأغنية البائسة. ولكن في الحب كما في الحرب، انبذ لحبيبك وخصمك على سواء، ولا ترض من الحبيب إلا ما ترضاه له من نفسك، وما لم يرض بأقل منه الشاعر القديم (المثقب العبدي):

أفـــاطمُ! قبـــلَ بينـــكِ متِّعينـــى   ومنعـــكِ مـــا ســـألتُ كـــأنْ تبينـــي

فَـــلا تَعِـــدي مَواعِـــدَ كاذِبـــاتٍ   تمـــر بهـــا ريـــاحُ الصـــيفِ دوني

فـــإنِّى لـــوْ تخـــالفني شـــمالي   خلافـــكِ مـــا وصـــلتُ بهـــا يمينـــي

إذاً لَقَطَعتُهـــا ولقُلـــتُ: بِينـــي   كـــذلكَ أجتـــوى مـــنْ يجتـــويني

فإن وجدت في هذه المعاني حدّة لا توافق مزاجك، فلا أقل من قول الشاعر الآخر:

بَســـطَتْ رَابِعَـــةُ الحَبْـــلَ لَنـــا   فَوَصَـــلْنَا الحَبْـــلَ منهـــا مـــا اتَّسَـــعْ

ومن ساوى نفسه بحبيبه فما ظلم: بسط على قدر البسط، ومدٌ على قدر المد.

ذلك أدنى إلى شروط المحبة ودوامها. فإذا تم لك ذلك، ونمت آمناً ألا يذهب عشقك جُفاء كزبد السيل، فزد بالفضل على العدل كما تشاء، فإن خراجه العاطفي والمعنوي في هذه الحال، راجع إليك حقاً!

مكتبة الربيعي أحمد

فإن لم تفعل، فأبشر بمرارة قاسية تكافئ ما كان عندك من توقعات كبيرة موهومة، وعلى قدر خيبة الأمل فيما حسبته قريباً وهو عنك بعيد!

بلى، إنها حكمة متأخرة. أما في زمن البراءة ذاك، فقد مضيت في بذل عواطفي بلا حدود. ولم أربط بين تقلب الحبيبة وحساسيتها المفرطة التي يمكن أن تفضي إلى فراق مؤقت، وبين عواطفها نحوي. فالعواطف ثابتة لا ريب فيها. أما التقلب و الصدود العارض فمشكلة في المزاج وطبائع الشخصية وفرط حساسيتها، أو ربما لأن شيئاً ما في عالمها الداخلي وتجاربها الماضية يثير فيها مخاوف من القرب العاطفي الحميم، لا قبل لها بطردها: أن ينتهي بخيبة الأمل وآلام اختبرت مثلها في الماضي وتحذر أن تقع فيها من جديد، وبذلك يكون صدها المفاجئ المؤقت تعبيراً عن زيادة الحب لا نقصانه، وإلا لِمَ تعود بعد ذلك أكثر إقبالاً من ذي قبل؟ أو ربما تخشى أن يكلفها الارتباط بعض استقلالها وحريتها فتنقلب مشاعرها على من تحب ولا تغفر له ما اقتضاه الارتباط منها. أو لعلها هذه الأسباب مجتمعة!

ولا أبرئ نفسي، فقد يبدر مني ما يسوء على غير قصد، ويصادف منها حساسية مفرطة، أو يثير مخاوفها.

شيء واحد لم أكن لأفرط به من اجل تلك العلاقة مهما يكن الثمن: الكرامة واحترام الذات. لم أبادر مرّة واحدة إلى نوبة من نوبات الهجر والفراق، ولكنني في المقابل لم أبادر مرة واحدة إلى وصل ما انقطع إلى حين، حتى تبادر هي بنفسها. مهما يكن الشوق عظيماً ومبرحاً.

على هذا مضت علاقتنا زهاء عامين ونيّف. وفي هذه الأثناء عصفت بنا أحداث عظيمة وتحولات عميقة: هزيمة حزيران وجحيم الاحتلال وانكسار الأحلام ثم انبعاثها من جديد في المقاومة، وكل ما طبع الستينات بصورتها الباقية في «أرشيف» الذاكرة: الثورة العالمية، حركات التمرد، مظاهرات الشباب الغاضب، القبضات التي ترتفع في الفضاء متحدية المؤسسة التقليدية السائدة، موسيقى «البيتلز» وشعورهم المميزة، موجة «الهيبز» الداعية إلى استبدال الحب بالحرب والوردة بالرصاصة، الحركات السوداء في أمريكا وأيقونة مارتن لوثر كنغ واقفاً يخطب في الألوف: «عندي حلم» I have a dream،

مكتبة الرمحي أحمد

قبعة جيفارا ونجمتها الحمراء وجثته المثقوبة بالرصاص، ماوتسي تونغ وسحر الكاريزما الثورية التي تخفي جنون العظمة والاستبداد، بطولات الفيتكونغ الملهمة وجرائم الجنود الأمريكيين والجحيم البرتقالي الذي تسعّره قنابل الطائرات الحربية الأمريكية في غابات فيتنام، ونظرة الرعب في عيني شيخ فيتنامي ناحل في إحدى قرى القش قبل أن تريحه رصاصة الجندي الأمريكي من قسوة الانتظار، تظاهرات الحركة المناهضة للتورط الأمريكي في فيتنام في مواجهة خراطيم الماء وقنابل الغاز والرصاص المطاطي وهراوات الشرطة الأمريكية في الشوارع وحرم الجامعات؛ مسرح العبث ومغامرات التجريب في الآداب والفنون؛ بناطيل «الشارلستون» والسوالف الطويلة التي شحنت في مجتمعنا بدلالات رمزية تتجاوز مجرد الموضة إلى صراع الأجيال والقيم والانتماءات، الفساتين القصيرة (الميني جيب) التي تصلي الشباب بسوط من عذاب الرغبة المكبوتة!، أدب المقاومة الذي ردّ إلينا عصافير الجليل التي كدنا أن ننساها.

كل ذلك تجاور في أفق الوعي والمخيلة لجيل محيّر بين القلق وعدم اليقين والأمل في صنع عالم جديد شجاع. وفي هذا الفضاء الملتبس اكتسبت «موضات» المظهر واللبس معاني سياسية، بينما اتخذت بعض المواقف والتيارات السياسية، عند شطر من الشباب على الأقل، شكل «الموضة»!

في زحمة تلك الأحداث والتحولات والأنشطة التي تمخّضت عنها، بقيت مساحة العشق ثابتة وتزيد. وكان التفاعل النشط مع الظروف العامة المتغيّرة، يعجّل في نضجنا بوتيرة أخاذة. فلا ينقضي عام دراسي حتى أنظر ورائي فأرى بعد ما بيني وما كنت عليه قبل عام فقط، حتى بدت أيام طولكرم التي غادرتها منذ عامين أو ثلاثة بعيدة بعد الشاب من طفولته، والكهل من شبابه. والنضج يلزمك أن تواجه خيارات كانت مؤجلة أو غائبة. والخيارات التي تتبناها لا تأتي بغير ثمن، فهي تزيد تعريفك تخصيصاً، فيرضى بك من يرضى بمشربك، وينكرك من ينكره، قد عرف كل أناس مشربهم. ومن ذلك خيار الدين والتديّن. وهو موضوع سأفصّل فيه لاحقاً. حسبي الآن أن أقول إن حسّي الديني قد بدأ بالنمو تدريجياً منذ سنتي الثانية في الجامعة، حتى إذا دخلت في الثالثة كانت السفينة قد استقرت على الجودي وتمكن الدين والتدين في نفسي واستظهر في جوارحي ونظرتي إلى الأشياء والعالم من حولي، وعلى الرغم من أنني تابعت نشاطي السياسي في المقاومة

مكتبة الرمحي أحمد

ونشاطي الثقافي الشعري، ولم يكن التزامي الدين التزاماً تنظيمياً على أي وجه، ولم يتقمّص الصورة التقليدية للمتدين، فإنه أعاد رسم الكثير من العلاقات وأعاد تعريف الكثير من المعاني في وسط ثقافي سياسي أيدولوجي لم يكن ليرحّب كثيراً بصورة المتدين، وتحمله الدوغما الإيديولوجية على الاستقطاب الحاد والتفاصل الفج والإقصاء المعنوي المتبادل.

لم تعلق «الحبيبة» على ذلك التحول المشهود الذي دندن به كثيرون، وتجنب كلانا الخوض والجدال فيه، ولم تكن الفتاة ضد الدين على كل حال، ولكنه في ذلك الوقت لم يكن ذا حضور واضح في أفكارها ومزاجها وأسئلتها. على أن السكوت على خياري الديني وما ترتب عليه من تغيرات، في الوقت الذي تكلم فيه الآخرون، كان في ذاته موقفاً يشي بالتحفظ وشيء من الانقباض. وما كنت لأخطئ في قراءة نظراتها وملامح وجهها وصمتها.

فالصورة الذهنية السائدة للتدين لا تنسجم كثيراً مع الصورة الذهنية للشاعر والثوري والمفكر المستنير والعاشق الرومانسي، في وقت كان فيه صوت اليسار هو الأكثر جهراً وضجيجاً. ولذا أحسب أنه كان عليها أن تغالب شعوراً خفياً متنامياً بالاغتراب عني، يخفف منه أني لم أزل ذلك العاشق المتفاني، وأن الشعر لم يمسك ينابيعه المتدفقة مني، ولا أقلعت سماؤه عن المطر.

لا أدري كم أسهم تحولي الديني في توسع الفجوة بيننا! ولكن نوبات البعد الطارئة زادت وتيرتها عدداً وطولاً في خريف تلك العلاقة.

على الرغم من أنها تصغرني ببضعة شهور، فقد كانت متقدمة علي سنة في الدراسة الجامعية. فهي الآن في السنة الرابعة، إذ أنا في الثالثة. وقد أدركنا منتصف السنة، وما هي حتى تتخرج من الجامعة وتخلّفني وراءها. فماذا بعد؟ إلى أين نمضي من هنا؟ وما مصير هذه العلاقة العاطفية المحمومة المتقلبة التي أنفقت فيها بعضاً من زهرة شبابي وعصارة روحي وشعري، ونمت منها أحياناً على وردٍ عابق، وأحياناً على جمرٍ حارق!

عندما كنت أحدث نفسي بهذه الأسئلة كنت وحيداً. فقد كان قد وقع بيننا خلاف أعقبه غيابها عني. ولم يكن هذا غريباً في ضوء التجارب السابقة. ولكنه طال هذه المرة كما لم يطل من قبل. ولو سئلت عن سبب الخلاف لما وسعني التذكر، ولكنني أعلم أنه لم يكن خلافاً على مبدأ ولا على خيار يطلبه أحدنا ويرفضه الآخر. وكيف له أن يكون كذلك

مكتبة الربيعي أحمد

وليس بيننا إلا العواطف والمشاعر. على أن بعدها الذي طال هذه المرة بدا مختلفاً، فقد سبقه شرود وبرود. وقد تهيّأت له بغير ما كنت أتهيّأ لسابقاته.

جزء مني يقول: لعلها النهاية، واليمامة التي فارقتك إلى الجبال البعيدة لن تعود هذه المرة. فوطّن نفسك على فراق لا لقاء بعده. ولكن، هل يعقل أن تقع النهاية دون إعلان بها ودون وداع صريح يليق بليالي العشق و الترقب والانتظار الموجع! وجزء آخر مني يقول: إنما هي واحدة من نوع سابقاتها وما تلبث اليمامة أن تعود إليك من رحلتها المؤقتة.

وقد صدق جزئي الثاني!... ولم يَكْذِبْني جزئي الأول!

أحسب أنه كان يوماً من أيام الربيع الرائقة، وكان الهواء منعشاً والشمس رضية رحيمة. وكنت أجلس وحدي على مقعد خشبي في مكان ما من حرم الجامعة، وقد ذهبت في تفكير وتأمل عميقين صرفاني عن مراقبة الطلبة من أمامي وحولي. فجأة سمعت صوتها العذب الذي طالما عشقته..

- أنت هنا إذن؟

كان وجهها متألقاً منبسطاً رائقاً كشمس ذلك النهار الربيعي. اجتهدت أن أتمالك نفسي لأخفي أثر الهزة التي سرت في كياني وأكتم صيحة السعادة التي ترددت في أرجاء روحي. وتابعت دون فاصل:

- ما زلت أبحث عنك في كليتك وقسمك دون جدوى، حتى وجدتك هنا.

ما أجمل هذا! أخيراً دعاها داعي الشوق والصبابة، فلكأنها في حيويتها وعفويتها لم تفارقني إلا ساعة من نهار أو ضحاه. بلى، أنا هنا يا سيدتي الجميلة، ما زلت منذ وقت أطالع الأفق مترقباً عودة اليمامة الشاردة، ولم يخطر لي أنها تفاجئني من خلفي.

دارت أمامي نصف دورة استعراضية:

- ما رأيك؟

وحين رأت حيرتي استدركت.

- أعني هذا «الفستان»، أحببت أن أريك إياه، فهل يعجبك كما أعجبني؟

مكتبة الربيعي أحمد

وماذا عسى أن يكون جوابي، وكل شيء في تلك اللحظة جميل، فكيف بالجميل الجميل.

جلست إلى جانبي على المقعد الخشبي. وكالعادة لم نأت على ذكر الفراق الأخير، فكأنه لم يكن. كان يكفينا أن نلتقي من جديد، لنصل من أمرنا ما انقطع، ونستأنف من حيث افترقنا. فلا عتاب ولا اعتذار.

لا أذكر الآن سياق الحديث الذي كنت فيه، حين قلت بأسلوب عفوي عارض، كأنني أقرر أمراً ثابتاً مفروغاً منه، أو تحصيل حاصل لا شك فيه:

- مهما يكن من أمر، يبقى أن أحدنا يحب الآخر.

تغيّر وجهها قليلاً، ولم تتأخر في الرد لأنها تريد أن تفرغ منه بسرعة وتختصر الحرج:

- الحقيقة أن العلاقة قد انتهت. أنا آسفة!

مرّة أخرى، تمالكت نفسي أن يظهر في جوارحي أثر الصدمة التي لم تفلح كل المقدمات والإنذارات السابقة في تخفيف وقعها. واستدعيت قول الشاعر:

وتجلـــدي للشـــامتين أريهـــم أنّي لريـــب الـــدهر لا أتضعضـــع

إذن، لم تعد اليمامة إلا لتقول: وداعاً، وتنهي بذلك عصر الحيرة وأيام الاحتضار. وما حديث «الفستان» إلا تمهيد وديباجة لتخفيف فظاظة المفاجأة.

اكتفيت بابتسامة باهتة هي أقرب إلى تعبير الأسى والأسف، دون الفجيعة. وهززت رأسي هزة القبول الممزوجة بالثقة والكبرياء:

- هو ذاك إذن. وداعاً.

ولم أزد. ولِمَ أزيد، وليس الحبّ موضوعاً للتفاوض؟ وإن التفاوض في هذا الموقف يثلب الكرامة دون أن يفضي إلى شيء. والثقة التي أملت علي أن أصبر على تقلب الحبيبة سابقاً هي التي تثبّت فؤادي الآن وتعينني على التجلد فلا أتضعضع لريب النهاية وتهمس في داخلي: ستعلم هذه الفتاة غداً أي فتىً قد أضاعت!

مكتبة الرمحي أحمد

لم تلبث بعد ذلك أن مضت في حال سبيلها، وخلّفتني على المقعد الخشبي أحدّق في الأفق البعيد بلا انتظار، وقد غاب عن سمعي ضجيج الحياة من حولي إلا من طنين مختلط متموّج، وغابت صور الناس فهم كالأشباح الضبابية التائهة المتداخلة. لم أعجب من ألم النهاية، ولكني عجبت من النشوة الغامضة التي امتزجت به. كيف يجتمعان؟! ألم تقل العرب: اليأس إحدى الراحتين! ليس علي بعد اليوم أن أكابد قلق الحيرة والانتظار وعدم اليقين بما يأتي به اليوم التالي. فالنهاية أهون من انتظارها. وبوسعي منذ اليوم أن أحرر خياراتي من عبء المجاهيل!

خسرت حلماً جميلاً، ولكني لم أخسر مصنع الأحلام، نفسي!

ومع ذلك لم أتحرر بسرعة من الشعور بالأسى والمرارة، ولا من طيف العواطف القديمة التي لا ترتحل فوراً بقرار من أحد. زاد من ذلك أنها كانت نهاية بلا تعليل. وما كنت لأطلب التعليل، فهو يشتبه بالتفاوض. حسبي أن أرد ذلك إلى تقديرات عملية من جانبها غلبت على العواطف وأنذرتها بضعف فرص التوافق في الطبع والمزاج والعادات والأفكار إذا مضت العلاقة إلى مستقرها ومستودعها بالزواج. وهذا أوان مواجهة القرار المؤجّل وقد أشرفت على التخرج من الجامعة. وحساب «القرايا» العاطفية ليس كحساب «السرايا» العملية. وإلى ذلك فإن القلوب تتغير والعواطف تتبدل. وليس عليها شرط ولا مستعتب.

قد تكون هذه العلل: كلها أو بعضها، حقيقية قائمة. ولكني سوف أكتشف بعد حين من الدهر، علة أخرى خفية ربما أسهمت في تضخيم العلل الأخرى. وعندئذ تتجدد المرارة، ولكنها هذه المرة ليست مرارة الفقد وخسارة الحلم الجميل، إذ لم يبق من ذلك شيء، إنما هي المرارة التي يخلّفها الشعور بانتهاك براءتك حتى لتشتبه بالغفلة، واستلاب ذكرى جميلة أبت أن تفارق مع فراق الحبيب.

احتجت إلى ثلاثة شهور أو أربعة بعد ذلك الوداع السريع، لأتحرر تماماً من آثار النهاية، وعبء الأشواق القديمة. أنا الآن حر طليق أستقبل من أيامي خيرا مما استدبرت دون أن يبطئ بي أمل كاذب، أو يشدّني شيء من ورائي. وليس علي أن أسوغ خياراتي لأحد أو أتكلف التوفيق بينها وبين الصورة التي يراني بها الآخرون، فأفوز بنفسي وبهم معاً. فلا ينبغي لأحد أن يُعَرّفني غير نفسي، فخذ أو فدع. متديّن لا يمنعه تديّنه من

مكتبة الربيعي أحمد

الإصغاء إلى عرائس الشعر يرفعن النشيد إلى العشاق والمقهورين والمناضلين من أجل الحرية والعدالة، وشاعر لا تمنعه ادعاءات التميّز والتفرّد من أن يخلع نعليه قبل أن يدخل المسجد ليركع مع الراكعين ويسجد مع الساجدين.

على الرغم من أنني تحررت تماماً من اعباء ذلك الحب وأشواقه، فإنني لم أسمح للنهاية المرة أن تنزع صورة الفتاة المعلقة على جدار الذاكرة، أو أن تطفئ المصباح الذي يضيء من فوقها هناك. لقد صارت جزءاً من الماضي الجميل الذي لا أنشد رجوعه، ولا أرجو اختفاءه من معرض الذاكرة.

وفي الشهور التي أعقبت لقاءنا الأخير، نشر ديواني الأول «قصائد في زمن الفتح» عن دار العودة، ولقي نجاحاً كبيراً. وقد أجريت بعض التعديلات عليه قبل نشره في ضوء انقضاء علاقتي بتلك الفتاة: غيرت عبارة «الإهداء» التي كانت لها قبل ذلك بحروف اسمها الأولى، وأسقطت من بعض القصائد ما كان في الأصل يحيل إليها بلفظ الحبيبة أو الصديقة، وما كان ذلك ليغير شيئاً عند عامة القراء، فالحبيبة معنى عام وليس اسم علم. ولكنني قصدت بهذا التغيير حاجة في نفسي قضيتها، إذ أبعث رسالة إلى الشخص الوحيد الذي يفهم معناها. أردت أن أكافئ مبادرتها إلى إعلان النهاية بمبادرة تالية مني، ولكن بطريقتي الخاصة. ها أنذا أسدل الستار ولا رجعة. ومن عادة الصبور الذي يبسط حبله حتى النهاية ما بقي عنده مثقال ذرة من أمل، أنه إذا استوفى وسعه واستيأس وذهب صبره سدى، انكسر كأسه فلا يجبر أبداً، وأدبر إدبار الأبد:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

انقضت السنة الجامعية، وتخرّجت الفتاة، بينما صعدت أنا إلى السنة الرابعة.

وعلمت أنها التحقت بجامعة الاسكندرية لإكمال دراستها العليا لدرجة «الماجستير»، وبينما كنت أتقدّم في سنتي الجامعية الأخيرة، فوجئت برسالة تصلني منها. أعدت قراءتها مرات عدة، لأفهم ما تقول السطور وما بين السطور. كان الأسلوب متلطفاً وحذراً في آن. وفي معجم المودة متسع لمعاني الإعجاب والتقدير والألفة والصداقة والحب الإنساني والحب الرومانسي والعشق والهيام.

مكتبة الربيعي أحمد

فمنه ما يصلح لها جميعاً، ويخصّصه السياق، ومنه ما لا يصلح إلا لبعضها دون الآخر. فلك أن تختار من الألفاظ ما يحتمل وجوه التأويل دون أن تلزم نفسك: المودّة دون المحبّة، والمحبّة دون الحب، والحب أكثر تعميماً من العشق والغرام.

قرأت في سطور رسالتها معاني «المودّة» الباقية والتقدير الدائم والإعجاب المقيم وحضوري في أفكارها، ورغبتها في الاطمئنان علي ومتابعة أخباري، وتمنياتها لي بسعادة تسعدها.

وقرأت بين السطور ما يشي ببقية من العواطف القديمة. أو هكذا أحببت أن أقرأ. فالقراءة بطبيعتها ليست بريئة، والنص الذي نريد يلقي بظله على النص الذي نقرأ، فنكتب إذ نقرأ، ونقرأ إذ نكتب.

غمرتني مشاعر مختلطة متناقضة. فمن جهة دغدغت الرسالة شعور «الأنا» عندي: ليس نسياني بالأمر السهل، وما أنا بالفتى الذي تعفي الريح على آثاره، ولا بالذي يضيعه الحبيب أو القريب دون أن يمضه السؤال المؤرق: ماذا فعلت؟ وأي فتى أضعت! ومن جهة أخرى أرقني الأمر أن يستدرجني إلى بداية جديدة لا أرغب الآن فيها، وأن يبعث في نفسي جمر العواطف القديمة فأكتوي بها من جديد ولم أكد أبرأ من حروقها. وغير ذلك ضرني أن يحتمل الموقف معنى أن مشاعري أمر مفروغ منه يؤخذ منها ويترك على ما يرى الطرف الآخر ويختار. ولربما أغرى بهذا الظن ثباتي القديم في وجه التقلبات، وأني لم أكن المبادر إلى القطيعة النهائية، وأنها فاجأتني وأنا مقيم على عواطفي. فإن لم يكن شيء من هذه المعاني، فما معنى الرسالة وقد انقضى الأمر؟ أصداقة بعد حب؟! ليس هذا ممكنا في مذهبي.

لا يغيّر الحب صفته بعد انقضائه، إنما يخرج من فضاء الواقع الراهن، إلى فضاء الذاكرة. وإن تحوله عن صفته السابقة إلى صداقة قائمة، يذهب بمكانه ومكانته في منازل الذكريات.

مهما يكن، فقد رددت على الرسالة بمثلها، إلا أنني حرصت على أن أجرد كلامي من أي إيحاء عاطفيّ، وكأنه لم يكن بيننا شيء من ذلك أبداً. ولو قرأ الرسالة شخص لا علم له بمرجعها، لما استقرأ شيئاً منه. ثم توالت الرسائل بيننا على هذا النحو، إلا أن رسائلي كانت تزداد تحفظاً وبروداً، بقدر ما كانت رسائلها تزداد إيحاءً وتلويحاً على حذر.

مكتبة الرمحي أحمد

كنت أقترب من نهاية عامي الجامعي الأخير، حين تلقيت منها رسالة تفيد بأنها ستزور عمان قريباً، وأنها ترغب في لقائي!

لا يا سيدتي، لا أظن أنها فكرة حسنة. وما الغاية؟ نستدعي الذكرى لعلّها تنبعث حية من تحت الرماد كطائر الفينيق؟ نقف على أطلال الماضي لنلقي عليه الرثاء الذي يليق به ونعذب أنفسنا بالحنين؟ أم نتكلف السكوت عنه، ونمضي في حديث الصداقة والصديق وطرق الدنيا التي تتقاطع وتتباعد؟ قد اخترت أنت أن تسدلي الستارة، وكان ذلك حقاً لأي منا منفرداً، والآن حقي في الخيار: ألا ترفع الستارة من جديد. ولقد كان لك الأولى، فلي هذه الثانية والأخيرة. فقد استوفيت سبلي من قبل، وأدّيت نذري ولم أقبض غير الريح. والحاضر والماضي عندي كمرج البحرين يلتقيان، ولكنّ بينهما برزخاً لا يبغيان.

هل قرأت في اقتراح اللقاء أكثر مما عنت حقاً؟! لا أستطيع الجزم الآن. ولكن ذاك ما فهمته في ذلك الحين.

حرصت كل الحرص أن أصوغ ردّي بأسلوب شديد التلطف وغير مباشر، فأعبّر عن تحفظي على فكرة اللقاء تلميحاً لا تصريحاً، ودون أدنى قدر من الفظاظة، معولاً على فطنتها في فهم مقاصد الكلام. وقد فهمت. فانقطعت الرسائل وماتت فكرة اللقاء.

ولكن، حدث لقاء غريب غير متوقع مع شخص آخر!

في عصر أحد أيام الربيع عام 1970، كنت في غرفتي في سكن الجامعة، حين جاءني أحد الزملاء يخبرني أن شاباً من الخارج جاء يسأل عني.

استقبلت الشاب في غرفتي متعجباً متسائلا من يكون. إذ لم أره قبل الآن. كان طويلاً ووسيماً وأنيقاً يضرب إلى شقرة. وما جلس حتى بدأ بالكلام معرّفاً بنفسه.

- أنا «فلان».. وقد تركت «فلانة» -وذكر اسم الفتاة إياها- تنتظرني في السيارة، وجئت للقائك في كلام أرجو فيه الصراحة.

لمع اسمه في ذهني فوراً، وأدركت الموقف قبل أن يكمل. كانت الفتاة قد ذكرت اسمه لي بطريقة عابرة مرة واحدة، في سياق مصارحة بريئة عن ماضيها العاطفي. فقد عرفته أيام المدرسة، وكان بينهما علاقة عاطفية ما، وقد انتهت. فلم ألق لذلك بالاً. فأنا

مكتبة الربيعي أحمد

كذلك أحببت من قبل. بل إنني اعتبرت بوحها بخبر الماضي ضرباً من الحرص على علاقتنا الحاضرة ألا يكدّرها شيء من الكتمان والأسرار، وتعبيراً حميماً عن الثقة ومتانة العلاقة والشعور بالأمان فيها.

والآن أسمع اسم الشاب مرة ثانية بلسانه إذ يعرّف بنفسه، ويذكر أنها في رفقته السّاعة، وأنه قد جاءني على علم منها، وأنها في انتظار عودته من لقاء المصارحة هذا؟

في ضوء هذه الإشارات، لم أكن في حاجة لسماع المزيد كي أفهم أن الحب القديم بينهما قد تجدد. وعلمت منه أنه يدرس في جامعة الإسكندرية حيث تدرس الآن. إذن، فقد تجدد لقاؤهما هناك ومعه علاقتهما العاطفية القديمة.

لا بأس. ولكن ما شأني أنا، وقد انقضى ما بيننا وسكن سعي الدهر بيني وبينها؛

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ولم يتأخر الشاب في الشرح، فقد كان متعجلاً ألا يتخلّف عنها طويلاً وهي في انتظاره. وأشهد أنه كان لطيفاً متأدباً صريحا.

فهمت منه أنه يريد أن يطمئنّ مني بصورة قاطعة، أنه لم يبق من علاقتي بها شيء. فقد بدت مترددة بعض الوقت. وكانت قد صارحته بما كان بيننا من علاقة مضت وانقضت، وعلى الرغم من ذلك ما فتئت تستحضرني في كلامها، ثم لا تدّخر كلمة من معجم المديح والثناء والإعجاب والتقدير في وصفي، حتى بدا أنني رجل خارق، (قالها بالإنجليزية: Superman). والآن قد استقرت العلاقة بينهما بعد تردد. ولكن صدى وصفها لي بتلك الأوصاف ما زال يتردد في أذنه، ويخشى أنه ينمّ عن أثر عاطفي موصول. فهو يطلب اليقين الذي ما بعده شك ولا سؤال، حتى لا تشوب علاقته بها بعد الآن شائبة!

علم الله أني في تلك الساعة لم أجد في نفسي نحو الشاب إلا مشاعر التفهم والتعاطف. فوجدتني أجتهد وسعي في طمأنتة أن الصلة بيننا قد انقطعت تماماً ومضى كل في سبيله، ولا ينبغي أن يراوده في ذلك شيء من الشك. ثم رأيت أن أتزيّد ولو على حساب نفسي، فقلت:

-حتى ما كان منها سابقاً، لا أجزم الآن أنه كان حباً، لعله كان أقرب إلى الإعجاب بالشاعر فيّ، لعلّها أحبت صورة لا شخصاً، فإن كان هذا هو الحال في أيام

مكتبة الرمحي أحمد

العلاقة الخالية، فكيف وقد انقضت منذ وقت واستوفت أجلها، فنم مطمئناً أن عواطفها كلها مصروفة إليك، لا ينازعك عليها أحد في نفسها.. وفقكما الله.

هزّ يدي بقوة وهو يودعني مع ابتسامة لطيفة. ومضى ولم يُعقب.

نزلت جالساً على حافة سريري غارقاً في التأمل، أقلب النظر في هذا الموقف الدرامي المفاجئ السريع وأستجلي أبعاده. وخالطني شيء من الإشفاق على الشاب، أن يجد نفسه في حاجة إلى شهادة حبيب سابق ليطمئن باله وتسكن هواجسه، فما هكذا تبنى العلاقات العاطفية المتينة التي تشترط الثقة بالنفس وبالحبيب. هذان رجلان أحبا الفتاة نفسها، أما الأول فأعماه فرط الثقة ان يرى نذير المصير، وأما الثاني فيغالب ضعف الثقة فهو في شك مريب، فأين ينتهي به وبها المصير! ولئن تعجبت من قراره أن يلقاني لتلك الحاجة، فقد كان موقفها عندي أعجب إذ أقرته على تلك الخطوة، وقعدت من ورائه تنتظر النتيجة، وكيف سمحت لنفسها أن تتواطأ معه على مفاجأتي بالأمر الواقع دون أن تقدم لذلك بموعد مسبق لي الحق في قبوله أو الاعتذار عنه. أتراها تعتقد أني أمر مفروغ منه ولها ترف التصرف معه كيف تشاء؟! وما أرادت حقاً من ذلك اللقاء الذي كان بوسعها أن تمنع وقوعه؟ أحقاً أرادت أن تعين صاحبها على التحرر من مواقفه وشكوكه حتى يستقيم لها وتستقيم له وينطلقا معاً إلى مستوى جديد في علاقتهما؟ ولكن ما معنى تلك الرسائل التي وصلتني منها، وكان آخرها اقتراحاً باللقاء آثرت اجتنابه؟ ومن الواضح أن علاقتها الجديدة بذلك الشاب لم تبدأ بعد انقطاع الرسائل واليأس من إمكانية اللقاء المقترح. بل إن وقت اللقاء المقترح الذي لم يتم، هو الوقت نفسه الذي فاجأني فيه الشاب بزيارته! فهل يلومني أحد بعد إذا اعتقدت أن بعض غرضها من لقاء الشاب بي أن تنتصف لنفسها مني أن رددت اقتراحها ورغبت عن لقائها وإن كان ذلك بأحسن عبارة وأكثرها تلطفاً؟ هل زاد من صدمتها باعتذاري أنها رأت فيه انتقاصاً لكبريائها، وهي الدرة الفريدة المطلوبة المرغوبة، وأنها ألفت مني قبل ذلك عشقاً بلا حدود، فكانت صدمتها على قدر ما خالف موقفي توقعاتها؟! فإن كان ذلك فقد أرادت -ربما إلى جانب غايات أخرى- أن تستعرض عندي حبيبها الجديد / القديم عقاباً وفاقاً. ويلحق بذلك أنها كانت حقاً مترددة في علاقتها بالشاب، تتجاذبها مشاعر من الماضي ومشاعر من الحاضر، حتى إذا وقعت مني تلك الخطيئة حسمت أمرها وطلبت ثأرها، فظننت أنها

مكتبة الربيعي أحمد

تصيب بذلك اللقاء عصفورين: تطمئن صاحبها اللاحق، وتعاقب صاحبها السابق، وتجمعهما في اختبار تترقب نتائجه التي سترضيها على أي الوجهين: فإن أكدت استمرار حبي لها سرّها ذلك ولم يضرّها عند صاحبها الجديد، فهي في حلّ مني على كل حال.

بل أحرى بصاحبها أن يشعر بلذة الفوز في تنافس الأنداد على الجائزة العظيمة؛ وإن نفيت أن يكون قد بقي في نفسي شيء من العواطف القديمة، سرّ ذلك صاحبها وزاده إيماناً ويقيناً وإقبالاً والتزاماً. وفي ذلك خير أيضا.

أمطري أيتها السحابة أو أمسكي، ففي السحابة الأخرى غنى!

أعترف أنني وقد بلغت بالتفكير هذا المبلغ شعرت بشيء من الغضب. ولكني لم أتركه يتسلّط علي. فقد تغلب عليه شعوري بالرضا الذاتي أنني تصرفت بما تقتضيه المروءة والوفاء وإنكار الذات، فلم أكتف بتأكيد انقطاع العلاقة حتى شككت في وصفها بالحب من جانب الصاحبة، منتقصاً بذلك من حضوري العاطفي في نفسها في السابق، فكيف الآن؟!

ظننت أني بذلك قد استوفيت مطالب المروءة والنبل، وأن هذا سيقع منها موقع التقدير. وعلى الرغم مما كان في موقفي من إنكار الذات بحق، فأعترف أن «الذات» لم تغب تماماً. فحين وصلت في تفكيري إلى أن أتخيّل الوقع الجميل الذي سيحدثه موقفي في نفسها أحببت أن أتخيّلها تهمس لنفسها: أيّ فتى! أي فتى أضعت!

ولكنها لم تهمس بذلك أبداً.

بعد يوم أو يومين من ذلك اللقاء، وصلتني رسالة مقتضبة منها، تبلغني حكمها في اختبار اللقاء:

(كنت أظنك أكثر نبلاً)

لم أصدّق بصري فيما قرأت.

على ما كان في قصّة هذه العلاقة من منعطفات ومفاجآت، كانت هذه هي الصدمة الحقيقية. فقد افترقنا على مودة واحترام. والآن تهمة فجّة في الوقت الذي كنت أنتظر فيه شكراً وثناءً وتقديراً! ما الذي دعاها إلى ذلك؟ كان من الطبيعي أن ينصرف تفسيري إلى الشاب نفسه، فهو الراوي الوحيد لما وقع في اللقاء وما بدر مني فيه. وما كان ليخطئ

مكتبة الرمحي أحمد

فهمي، فقد كنت واضحاً وكان متعقلاً. فلا يبقى إلّا أنه حرّف موقفي وكلامي عن بينة ليبلغ من نفسها ويسيء إلي. أيكون ذلك حقاً؟!

حتى هذه اللحظة، أي بعد ثلاث وأربعين سنة من تلك الواقعة، ما زلت أجهل ما جرى بينه وبينها بعد ذلك اللقاء، وما نقل إليها من كلام، فلا أملك تفسيراً آخر، إلا أن يكون قد ساءها ما ظننته حسناً، وهو الانتقاص من قوة عواطفها نحوي أثناء العلاقة. وقد حسبت أني بذلك أحسن صنعاً ولو على حساب كبريائي، من أجل سعادتها، كما يليق ببطل من أبطال الأفلام المصرية الميلودرامية القديمة، حين ينكر المحب ذاته منسحباً من حياة حبيبته لتفوز بحياة أفضل مع محب آخر! فيفوز الثاني بها، ويفوز الأول بالعبارة الخالدة: «أنت أنبل من عرفت»!

ولم أعن نفسي بالرد عليها شارحاً مدافعاً عن نفسي، ومستفسراً منها عن السبب في ردة فعلها القاسية. فلأول مرة يغلب علي الغضب والرغبة في الانتصار لنفسي. أفلم يكفها أنها دبّرت مع صاحبها أن يقتحم عليّ سكينة وحدتي وأن يعلن عن نفسه وعلاقته بها دون تمهيد أو استئذان أو موعد مسبق؟!

وهكذا رددت عليها لأول مرة بكلمات قاسية ما كنت لأتخيّل أن أخاطبها بها. فقد وصفت كلمات رسالتها «بحساء المرضى». وكانت قد اقترحت في تلك الرسالة العجفاء أن ترد علي رسائلي القديمة لها قبل انقطاع العلاقة. وكانت قطعاً أدبية شعرية أذبت فيها قلبي ومواجدي، وبلغت العشرات. فقلت لها في ردي: هذه لم تعد رسائلي. فإني الآن أنكرها وأتبرأ منها. وإذ صارت كذلك فأولى بها النار. أطعميها إياها.

وقف الأمر عند هذا الرد، وساد الصمت.

لم يطل الوقت طويلاً حتى سمعت أنها تزوجت بالشاب.

ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى سمعت أن الطلاق وقع بينهما، وأنه كان طلاقاً مراً.

ولا أدري حتى الساعة ما الذي أفسد العلاقة بينهما بتلك السرعة. وهل كان قرار الزواج مدفوعاً بردّة فعل متسرّعة غير عقلانية، فلم يصمد لاختبار الواقع؟

تخرجت من الجامعة صيف عام 1970، وعينت معيداً بعد أخذ ورد، وصدر ديواني الثاني «وشم على ذراع خضرة» عن دار العودة في بيروت، عام 1971، وحظي

مكتبة الرمحي أحمد

بثناء وتقدير غامر. ثم أوفدت عام 1972 لإكمال دراستي العليا نحو الدكتوراه في «كلية الدراسات الشرقية والإفريقية» بجامعة لندن. وتزوجت في الأثناء من الفتاة التي ستكون شريكة عمري كله في سرائه وضرائه. وحصلت على درجة الدكتوراه في «علوم الصوتيات واللسانيات» عام 1976، وعدت عقب ذلك للتدريس بالجامعة الأردنية وفاء بالتزام الإيفاد. وما إن عدت حتى عجلت بالسفر إلى طولكرم لزيارة الوالدين والأهل، كان والدي قد بلغ منه داء «السكري» مبلغاً خطيراً، فقد معه بصره، وأخذ يعيث بكليتيه وكبده وقدميه، منذراً بنهاية قريبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولم أقم هناك إلا أياماً قليلة، قضيتها في نقل والدي إلى مستشفى المقاصد وتأمين العناية الصحية الممكنة له. وقد صارحني الطبيب المختص بالحقيقة المرة. قد اتسع الخرق على الراتق ولا رادّ لأمر الله.

لم يكن بوسعي أن أمكث طويلاً، في ظل برنامجي التدريسي.

كنت أقف في أحد الصفوف الطويلة في مركز العبور الذي تديره سلطات الاحتلال على الجانب الغربي من جسر «دامية» على نهر الأردن، في انتظار دوري لختم البطاقة، قبل الصعود إلى حافلة تنقلنا إلى المركز الأردني على الجانب الشرقي من الجسر. وهناك.. لمحتها - نعم، صاحبتي القديمة! إياها تقف في صف آخر أمام نافذة أخرى، وكان دورها متقدماً وأحسبها قد رأتني كما رأيتها.

وحين فرغت من إجراءات العبور، وبلغت الحافلة، رأيتها قد سبقت إلى الجلوس فيها، وقضى الله أن يكتمل عديد الركاب بالشخص الذي يتقدّمني، فلم أصعد إلى تلك الحافلة، وانثنيت إلى التالية. وغابت الفتاة عني.

أثارت رؤيتها ذكرى الأيام الخالية، وإن لم يكن قد مر عليها إلا زهاء سبعة أعوام. لم أجد في نفسي منها أثراً من مرارة أو غضب - على ما كان منها في الخاتمة. ولأمر ما وقر في نفسي بأنها لابدّ أدركت بعد ذلك خطأها في الحكم علي، وأنه قد تبين لها الحق والحقيقة، وربما عاودها الهمس: أي فتىً أضعت! أو على الأقل، أي فتىً ظلمت!

توفي والدي بعد وقت قصير، وأدركت عزاءه في طولكرم مع عمي محمود إبراهيم، ولم ندرك دفنه. ووصلتني برقية عزاء منها طيبت خاطري حقاً.

مكتبة الربيعي أحمد

ثم دعيت إلى قراءة شعرية في مدرج سمير الرفاعي بالجامعة. وألقيت قصيدة ملحمية مطولة بعنوان «سيرة عبد الله بن صفية»، ستكون إحدى قصائد ديواني الثالث: «تغريبة بني فلسطين» الصادر عن دار العودة عام 1979. ولأمر ما أيضا، وقع في نفسي أن الفتاة بين الحضور وإن لم يلتقطها بصري في المدرج المليء بالحضور. ولم يخطئ ظني. فبعد يوم أو يومين وجدت على مكتبي مغلف رسالة، أدركت فوراً من الخط الذي كتب به اسمي أنه منها. فضضت المغلف متلهفاً وقرأت رسالتها القصيرة، تقول فيها إنها استمعت إلي ألقي القصيدة في المدرج، واني كنت رائعاً كعادتي إلا أنها أحست أثراً من شعر مظفر النواب الذي كان قد ملأ الأسماع في ذلك الحين، وأني من أنبل من عرفت. وأنها إذ تتمنى لي التوفيق والرضا والسعادة، فسوف تمضي في طريقها الذي قدر لها.

«من أنبل من عرفت»! إذن فقد أدركت ما كان في حكمها السابق من ظلم وتجنٍ. وها هي الخاتمة اللائقة تجُبُّ ما قبلها، وإن تأخرت سبع سنين. ولكن أن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً. وغمرني شعور بالرضا في تلك الساعة.

ولكن، هل هي الخاتمة حقاً!

أما أنها آخر الصلة، وختام الوقائع، فنعم.

وأما أنها آخر القراءات لقصة من قصص الماضي، فلا.

هل كان سردي السابق مطابقاً تماماً للواقع الذي كان؟

هكذا بدا لي الأمر لبضع سنين بعد تلك الخاتمة، حتى التمعت في ذهني فجأة قرينة حجبها عني فرط البراءة والثقة إلى حين، على الرغم من وضوحها، ومن شأن إدراكها أن يغير من مسار القصة في السرد والقراءة. وأحسب أن العين الخارجية لا تخطئها في أول وهلة، ولكن الإنسان حين يقرأ نفسه، يصبح أمرين معاً: الذات والآخر الموضوع، الرائي والمرئي، وليس من الهين أن يمنع تداخلهما، فتلتبس الرؤية ويحتجب جزء من الحقيقة. فكيف إذا تواطأ عليك خليط البراءة والثقة؟!

كما يفيد السرد السابق، اعتقدت إلى حين أن قرارها الإلتحاق بجامعة الإسكندرية بعد حصولها على درجة البكالوريوس من الجامعة الأردنية، كان خياراً مستقلاً لم يمله أي

مكتبة الربيعي أحمد

اعتبار خارجي. ثم اتفق أن صاحبها القديم قد اختار الدراسة في الجامعة نفسها، دون ترتيب مسبق بينهما، فالتقيا هناك على غير ميعاد. فتجددت العلاقة العاطفية القديمة بعد انقطاعها التام سنين، وقد فصل بين قديمها وحديثها علاقتي بها، فكانت عواطفها خالصة لي على الرغم من تقلبات القرب والبعد والخصام والوئام ولعبة التعريفات والتوصيفات، ثم انقضى ما بيننا كما ينقضي الكثير من العلاقات العاطفية دون تدخل من أحد. فصارت في حلّ أن تبدأ حباً جديداً. وقضت الحظوظ أن تجتمع مع صاحبها القديم على غير ترتيب أو ميعاد. فكان الذي كان!

أليس هذا ما يفيده سردي السابق؟! وهكذا كان فهمي لبضع سنين!

ابتسم أيها القارئ، وظن في نفسك خيراً أن أدركت في لحظة ما احتجت أنا، بطل الرواية، إلى سنين طويلة لأدركه. واسخر ما شئت من تعلّات البراءة والثقة وملابسات الذات والموضوع، واختر لي بدلا منها ما شئت من تسميات وتعريفات أخرى. أهذا الذكي الفطن الأديب الأريب النجيب؟! أهذا الذي أنفق عمره في التحليل والتأويل والتفكيك وقراءة العلامات والمنطوق والمسكوت عنه؟! يا حسرة على العباد! قد يرون البعيد ويخطئون رؤية القريب المحتجب بقشة. فليتواضعوا قليلاً ولا يغرنهم بأنفسهم الغرور.

وإذن فأي خاتمة تلك، وقد كان للرواية نسختان مختلفتان: واحدة عندي، وواحدة عندها. أما التي عندي ففيها بطلان رئيسان فقط التقيا على حب عاصف في زمن البراءة، ثم فرقت بينهما الأيام: هي وأنا. وأما التي عندها فثلاثة أبطال: هي، وأنا.. وهو! ونسختها أصح من نسختي!

لا، لم يكن للمصادفة سهم في لقائهما في جامعة الإسكندرية، إنما كان عن بينة وتدبير وترتيب. وهنا بيت القصيد الغائب الذي يغير مسار الرواية وتأويلها. فإن صح ذاك، فقد كان ظلّه دائماً معنا - تراه ولا أراه. لم تكن مجرد علاقة في الماضي انقضت مع انقضاء أيام المدرسة قبل أن تلقاني، كما توهمت أو أوهمت. ولم يكن قلبها خلياً حين بدأت علاقتنا، ولم تقطع مع الماضي تماماً حين نمت علاقتنا واهتزت وربت، وظننت أني قادر عليها. ولعل دخولي في المشهد قد عصف باستقرار عالمها وسكينته. ولا أقول إنها كانت تتلاعب بعواطف الإثنين، ولكنها وجدت نفسها منقسمة بين عهد قديم وعهد جديد،

مكتبة الرمحي أحمد

فلا تقوى على نسخ الأول بالثاني، ولا على الجمع بينهما في كتاب واحد. فإذا أقبلت على الجديد دعاها القديم، وإذا التفتت إلى القديم ناداها الجديد أن أقبلي ولا تخافي، ولربما كابدت وعانت ما لم يعانه أي من الصاحبين منفرداً. ولعلها رأت في كل منا ما لم تر في الآخر. فهنا سحر الكلمات وغوايات الشعر ومغامرات الوعي وحوارات الفكر وأرق الأسئلة وأحلام السفر إلى مواقع النجوم! وهناك في المقابل أمان البر الثابت والمزاج الاجتماعي المشترك، ويقين الطرق المألوفة والشروط الناجزة. ومن يدري، لعلي أعنتها في آخر المطاف على نفسي فبدر مني على غير قصد ما زادها شكاً بقدرة الكلمات على ردم الفجوة بين عالمين مختلفين. فإذا جاء الوعد الحق واقترب موعد تخرجها من الجامعة، كان لا بد من الحسم في مصير العلاقة.

فلا يبقى الحب مشروعاً مفتوحاً بلا خاتمة.

وهنا تغلب حساب «السرايا» العملية على حساب «القرايا» العاطفية والمعنوية، وكان الشاب الآخر ما يزال واقفا في الظل عند المنعطف، ينتظر عودة الصاحبة إلى الشرفة لتلوح له. وقد كان. والموعد جامعة الإسكندرية! ثم إذا صارت معه، انقلب الموقف وصرت أنا الغائب الحاضر، فلا تنظر أمامها إلا لتلتفت خلفها، ولا تستقر على حال. فكانت تلك الرسائل الحذرة التي انتهت باقتراح اللقاء الذي لم يقع، ووقع غيره على الوجه الذي قصصت.

ذلك إذن بعض السر في مزاجها المتقلب وترددها بين القرب والبعد وإيثارها ترك الأمور معلقة دون إلزام أو التزام.

وتلكم هي القصّة في نسختها الثانية التي عثر بها وعثر عليها تفكيري ذات لحظة استرجاع. وتلك مرارة انتهاك البراءة -نعم البراءة- والثقة وصورة الماضي.

وبذلك قضى الله أن يظل الكتاب مفتوحاً بلا خاتمة مريحة. فالنسخة الثانية في القصة كما سردتها بنيت على قراءة متأخرة لأدلة ظرفية طاغية، وهي حافلة بألفاظ الظن: «لعله ولعلها»! فمهما تبلغ من اليقين، تبقى في حاجة إلى إقرار الطرف الآخر الشريك. ورب قائل يقول: ما باله قد مكث طويلاً في هذه القصة سرداً وتأملاً وتحليلاً وتأويلاً، وقد تباعد ما بينه وبينها ولم يلق منها خيراً كبيراً ولا شفى منها غلة عاشق؟!

مكتبة الرمحي أحمد

ربما لأن غياب الخاتمة على نحو ما ذكرت قد أبقى الكتاب مفتوحاً.

ولكن الأهم أنه كان على ما لابسه من مرارات وتحولات ومفاجآت وتقلبات كان حباً عظيماً ملك علي نفسي فترة عزيزة من حياتي. فكان منه غنى، في تجربة الحياة، وكان منه شعر أنتجني بقدر ما أنتجته. وها هو من جديد قد منحني مادة للكتابة امتزج فيها السرد والبوح والشعر والتأمل الفلسفي، وأعطاني إجازة قصيرة من زمن الكهولة الحاضر، إلى زمن الشباب الماضي. فلماذا لا أحييه، وأضيء له شمعة في معرض الذكريات. وهل الإنسان إلا ذاكرته؟ فإذا ذهبت ذهب!

لا بأس إذن، سأرفع لها -على الرغم من كل شيء- ذلك النشيد الذي نذرته لكل النساء اللواتي عشقت على عجل أو على مهل!

إذ أهم الآن بالإنصراف من هذا الركن في معرض الذكريات، يقع بصري على صورة معلقة إلى جانب صورة الفتاة التي قصصت سيرتي معها.. من علّقها هناك على الحائط، وأنا قيّم المعرض، ولا أحد غيري يملك مفاتيحه؟! لابد أن يكون عقلي الباطن.. «أنا» في وجودي الموازي المتواري المنفي في عالم الظل والعتمة، ولا يتجول إلا في عالم الأحلام وقد ارتدى قناعاً..

إنها صورة فتاة أخرى: سمراء جميلة هادئة رقيقة شفافة؛ أنيقة بلا تكلف، جذابة بلا ادعاء، وعلى وجهها طيف ابتسامة غامضة كابتسامة الموناليزا، ما بالها تضيء الآن بينما يتخافت الضوء على الصور الأخرى؟

هكذا عادتها.. طاقة ناعمة، حين يطلق غيرها طاقة قوية ترجّك رجاً فلا تشحنك حتى ترهقك..

وطاقة دائمة،حين يستهلك غيرها طاقته الهادرة.

نسمة هادئة طرية، حين يعبر غيرها كالريح العاصفة فلا تعرف هل تسلم نفسك لها أم تتقيها..

مكتبة الرمحي أحمد

غيمة ربيعية لا تحجب ضوء الشمس، ولكنها تخفف من لفحها، حين يكون غيرها غيمة داكنة تملأ الأفق، فلا تعد إلا بقدر ما تنذر.

جدول عذب دائم الجريان، حين يكون غيرها نهراً هادراً لا ترجو فيضانه إلا بقدر ما تخشاه.

موسيقى ناعمة خافتة في الخلفية تمسد مشاعرك وأنت منشغل عنها بأمر جلل آخر، ولا تتنبه إلى جمالها وأثرها فيك إلا حين تتوقف!

آخر من يدخل إلى خشبة المسرح، وآخر من يخرج منه.

من هي هذه الفتاة الرائعة الغامضة، وما هي مني، وما أنا منها لتملي علي الآن أن أكتبها بهذه اللغة، وقد أوشكت أن أغادر هذا الركن من معرض الذاكرة دون أن أتنبه إلى صورتها المعلقة، حتى أضاءت بضوء ناعم، مع تخافت الضوء على الصور الأخرى!

لا أدري يقيناً. أو أنني أتجنب أن أدري، أو أنني أدري وأخشى أن أبوح وأسمّي وأصف وأُعَرِّف. ذلك أننا حين نسمّي الشيء فإننا ننتجه ونشكله. الأسماء هي الأشياء.

نعم، كانت صاحِبَةً قريبة من صاحبتي التي سردت قصتي معها آنفاً -وكانتا بمثابة الصاحبتين المتفارقتين- لا تشبه إحداهما الأخرى، إلا أنهما جاءتا من منبت اجتماعي واحد.. وقد واكبت علاقتي بصاحبتها، والأرجح أنها كانت تقف في موضع مشرف ترى فيه أبعاد القضية في جانبيها، فترى الغائب المغيّب عني .. ولعلها أعرف الناس بمدى تطابق النسخة الثانية المنقحة التي قصصتها من واقع الحال. وتحدثني نفسي أنها كانت متعاطفة معي حين تقارن ثبات موقفي العاطفي بتقلب صاحبتها. وربما كانت ترى صبري بعين الإعجاب والتعجب معاً: الإعجاب بقوة العشق الصادق غير المشروط، والتعجب من سطوته الجائرة التي تحجب الرؤية حتى عمن أوتي في غير ذلك بصراً حديدا!

نعم، صارت كذلك صديقتي، آنس بها وتأنس بي. ولعلها كانت المعجبة الأولى بشعري ومواهبي، فقد كانت كتلة من الأحاسيس المرهفة والذوق الصقيل. وأذكر أنني دُعيت مرّةً خارج الجامعة لقراءة شعرية، يعقب عليها ناقد معروف. ولما كان النقد في ذلك الحين مسكوناً بهاجس التصنيفات المدرسية من منظور إيدولوجي يساري، فقد

مكتبة الربيعي أحمد

وصف الناقد ذاك شعري بالواقعية الرومانسية. وكان مصطلح الواقعية مقدساً، ومصطلح الرومانسيةِ مدنّساً، فالأول يحيل إلى الإشتراكية والثاني إلى المزاج البرجوازي. وقد سيق تصنيف الناقد الشعري في سياق يوحي بأنني قاربت ولم أسدد تماماً، ولكنني في الطريق إلى التحرر من آثار الرومانسية إن شاء الله («إن شاء الله» هذه من عندي). ويبدو أن هذا التعريض بالرومانسية قد أغضب تلك الصديقة، فمن ذا الذي يتهم الرومانسية، وهي تحيل إلى منابع الحب وعواطفه الصافية، إلا أن يكون غليظ القلب والكبد! وقد علمت من الناقد نفسه فيما بعد، أن الفتاة قد واجهته بعد انقضاء الندوة، واشتدت في جداله عني، على ما في طبعها من رقة ولطف، حتى ظن الرجل أنها «عشيقتي» حسب لفظه، وأن دفاعها كان دفاع الحبيب الغيور على حبيبه وإنجازه.

لا، أخطأت يا صاحبي ليس بيننا إلا الصداقة والمودة والتقدير والإعجاب المتبادل! ولكن، لماذا قلت ذلك في نفسي فقط، ولم أعلنه لصاحبي الناقد بكلام قاطع صريح، وتركته على ظنونه!

أهي «الأنا» التي تحب أن يتكاثر عشاقها ولو في أوهام الآخرين؟!

أم أن وصفه ذاك قد أصاب مني موقعاً غامضاً خفياً لا أريد أن أتبصره أو أن أسميه فيحرجني أمام نفسي؟

هل التقط صاحبي الناقد من طريقة كلامها وانفعالها ما تحجبه في فؤادي اعتبارات أخرى واضحة!

بلى، أحس بيننا طاقة ناعمة، وذبذبة هادئة، ونسمة طرية رائقة، وجدولاً عذباً. وموسيقى ناعمة خافتة.. وظلاً يخفف من لفح الشمس، وأنساً حذراً يهون من كدر الحياة.. وثمة في الأفق البعيد من ورائنا قوس قزح يكاد أن يحتجب وراء الضباب الناعم!

ولكن، ألا تكفي في وصف هذا كله كلمات المودة والألفة وانسجام العقول والأفئدة؟ وهل يمكن أن يكون أكثر من ذلك وأنا أحب صاحبتها كل ذلك الحب الصاخب؟

نعم، ليكن. أستطيع أن أقولها الآن بلا حرج ولا خجل. مشاعر الإنسان كالشعر الحقيقي، يستعصي على تصنيفات النقاد في خانات مدرسية جاهزة وقوالب حديدية:

مكتبة الربيعي أحمد

واقعية اشتراكية، وواقعية جديدة، وورومانسية.. أو هي دراما مركبة تتقوم بالأبعاد المتعددة المتقاطعة المتجاذبة المتنافرة، والرغبات المعلقة والرغبات المطمورة، والصراعات بين ما تمليه الطبيعة وما تمليه الثقافة، بين نداء العقل ونداء العاطفة؛ بين ما يتولد في وجدانك بغير إرادة منك، وما تلزمك المروءة والأخلاق والتذمم دفنه، ثم لا تعلم أنك دفنته في مكان يتوارى فيه دون أن يموت، هناك في باطن وعيك، في وادي الطيوف والأشباح. وإنه ليستمد قوته وديمومته من وجوده في ذلك الخفاء المحفوظ من العواصف والأنواء، بينما يمكن أن تموت الرغبات المعلنة والمشاعر الصريحة والعلاقات المكشوفة لك وللناس وللعواصف معاً.

ولذلك، إذ أقف الآن أمام صورة هذه الفتاة الجميلة، تعاودني تلك الطاقة الناعمة الدائمة، والنسمة النقيّة الطرية، والموسيقى الهادئة الخافتة وخرير الجدول العذب، والغمامة الرقيقة التي لا تحجب الضوء الرائق المنبعث من الصورة.

وأراني أهمس: في حياة أخرى... من يدري؟ ربّما...

ثم أجدني بلا تدبير ولا تفكير أدندن بذلك النشيد الذي نذرته لكل النساء اللواتي عشقت، على عجل أو على مهل، في السر أو العلانية، أو حتى فيما هو أخفى من السر، ذلك الذي يستخفي حتى عن صاحبه في أغوار صاحبه، إلى أن يتباعد الزمان ويسكن الغبار، وتزول الروادع، وتأمن دواعي المروءة والأخلاق ألا يحيف عليها البوح، فتأذن به!

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

حزيران: هزائم الوعي بعد الهزيمة

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. الصدمة الأولى: مشروع شهادة خائب

كان الوقت زهاء العاشرة صباحاً حين خرجت من آخر اختيارات نهاية العام الدراسي الأول لي في الجامعة في الخامس من حزيران عام 1967، لأجد الطلبة في هرج احتفالي. وأي سبب أدعى إلى الاحتفال من الحرب الواعدة الموعودة! كان الكثيرون يعتقدون أن الحرب ترادف النصر والتحرير، وأنه لم يكن بيننا وبين العودة إلى حيفا إلا إرادة الحرب المؤجلة، وقد وقعت الآن. فكنت ترى الطلبة يتبادلون التهاني والحرب في أول ساعاتها، ويتنازعون دعوات الغَداء في كرمل حيفا بعد أيام، وقد وصلت رائحة البحر إلى أنوفهم، وتناهى ضجيج الموج إلى أسماعهم!

كل تلك المجادلات في الفكر والسياسة والفلسفة والأدب، لم تحصن الكثير من أصحابها من الانجراف مع العواطف والأوهام، ولم تؤهلهم للنظر العقلاني في شروط النصر والهزيمة. وكان على الجميع أن ينتظروا حتى ينقشع الغبار عن حقائق الهزيمة المروعة في أيام معدودات، فيكتشفوا الحكمة بأثر رجعي كالعادة، فيرجعوا على ما كان بالتحليل والنقد حتى جلد الذات. كان الإعلام العتيد يتحدث عن الحرب المظفرة التي تشنها الأمة العربية الثائرة بينما تجلس الأمة متسمرة عند أجهزة المذياع تتابع الأخبار، وتتصايح بهجة مع كل خبر يفيد بإسقاط عدد جديد من طائرات العدو، وقد آثرت تعطيل قدرتها على إجراء حسبة بسيطة يمكن أن تظهر أن مجموع ما تم إسقاطه حتى الآن يفوق كل التقديرات حول ما تملكه «إسرائيل» من طائرات حربية. ولكن من ذا الذي يجرؤ على التساؤل والتشكيك فيتهم بأنه من الطابور الخامس الذي يريد أن يخذل الأمة الثائرة وهي في معمعة حرب التحرير المشتعلة عبر المذياع وحوله.

وإذ بدأت منذ اليوم الثالث تتسرب أنباء حذرة مثيرة للقلق، بدات عملية الإنكار تعمل عملها، وإذ بالكثيرين يتحولون إلى خبراء في استراتيجيات الحروب وتكتيكاتها

مكتبة الربيعي أحمد

ومصطلحها. فهذا الذي يقال عن تقدم الجيش الإسرائيلي في الجبهات ما هو إلا فخ ذكي استدرجوا إليه ليحاط بهم من خلف ومن أمام، وعن أيمانهم وشمائلهم ثم لا يجدوا لأنفسهم مفراً ولا منجداً ولا نصيراً! وما المقصود بخط الدفاع الثاني؟ أهو بضع عشرات الأمتار أم ماذا؟ وحين تبين الجواب، تبين معه حجم الهزيمة: ذهبت سيناء، وذهبت الجولان، وذهبت الضفة الغربية وغزة، وذهبت القدس! ومعها:

خسرت حلماً جميلاً

خسرت لسع الزنابق

وكان ليلي طويلاً

على سياج الحدائق

في اليوم الخامس، كنا نحن الطلبة في الجامعة قد أدركنا شيئاً وغابت عنا أشياء. أدركنا أننا على وشك خسارة الحرب، وغاب عنا أن الخسارة قد وقعت حقاً وأن الضفة والقدس قد صارتا تحت الاحتلال وأن الجيش الأردني ينسحب على غير تنظيم وهدى إلى ما وراء النهر. فالحرب ما تزال دائرة، وقد تكون سجالاً. عندئذ قررت جماعة منا، وأنا فيهم، أن نتطوع مع الجيش الأردني للذهاب إلى الجبهة والمشاركة في الدفاع عن القدس!

لم نعن أنفسنا بالسؤال عن شروط التدريب الكافي للمشاركة في القتال. حسبنا أن معظمنا يعرف كيف يستعمل البندقية الإنجليزية القديمة، وأن جميعنا يملك العزيمة وروح القتال والاستشهاد. وإذا احتاج الأمر إلى يومين آخرين من التدريب، فلا بأس، على ألا يتأخر موعدنا مع أسوار القدس الشريف!

ذهبنا جماعة إلى مركز قيادة القوات المسلحة في منطقة العبدلي في عمان وعرضنا أنفسنا عليهم فرحبوا بالعرض. وما هي حتى كانت شاحنة عسكرية تحملنا إلى معسكر للجيش في أطراف مدينة المفرق.

كنت أحمل ورقة وقلماً. وفي الطريق كتبت وصيتي وأخفيتها في ثيابي. ولم تكن غير شهادة عاطفية شعرية، رجوت أن يجدها أحدهم إذا كتبت لي الشهادة، فتكون آخر ما يذكره الناس من الشاعر الشهيد!

مكتبة الرمحي أحمد

وصلنا معسكر المفرق، وجمعنا عند البوابة من الداخل لاستكمال إجراءات التسجيل التي طال وقتها. في أثناء الانتظار كنا نحمل بأيدينا أجهزة «الترانزستور» نستمع إلى الأخبار. ثم جاءنا النبأ العظيم معلناً وقف إطلاق النار وانسحاب الجيش الأردني إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن!

عندئذ صرنا في حيرة من أمرنا. فما جاء بنا إلى هذا المطاف تطوعاً إلا هدف المشاركة في القتال. فإن كان هذا قد توقف، وصارت الضفة والقدس تحت الاحتلال الإسرائيلي، فما يمسكنا بعد هنا في هذا المعسكر؟! بعد تشاور قصير بيننا قرّ عزمنا على مراجعة الجند المسؤولين عن إجراءات التسجيل، فإن ثبت لنا أنه لا سبيل الآن إلى الذهاب إلى جبهات القتال، فلا حاجة لنا بالبقاء هنا.

ولكن دخول المعسكر ليس كالخروج منه! (بالمعنى الحرفي هذه المرة!)

اختارني القوم ناطقاً باسمهم. وإذ راجعت الجندي المسؤول في المسألة، ثار غضبه ولم يترك شتيمة ولا تهمة إلا أنزلها بنا، لكأنه يخاطب جندياً نظامياً يتولى يوم الزحف ويعطي دبره للعدو، ويكشف الثغرة التي هو عليها حتى ليكاد القوم أن يؤتوا من قبله! صدمني موقفه أيما صدمة. قلت:

-إنما نحن طلبة من الجامعة، جئنا متطوعين بمحض إرادتنا لغاية واضحة، فإن كان السبيل إلى تلك الغاية ما يزال قائماً، فذلك ما كنا نبغي. وإلا فقد انقضى مسوغ وجودنا هنا.

فما زاده كلامي إلا غضباً وسباباً. وبدا من بعض شتائمه غيظ مكنون من طلبة الجامعة على الجملة، استشعرت منه أثراً من الغيرة ومن الجانب الطبقي، ولعله كان يستمد من صورة ذهنية عامة تصم طلبة الجامعة بالميوعة وتحيطهم بالشبهة الأخلاقية التي يلقيها المجتمع المحافظ على بيئة الإختلاط بين الجنسين، وبخاصة في ذلك العهد المبكر من عمر الجامعة.

هذه الآن فرصته ليمارس علينا سلطته وفق قواعده: فلتذهب كتبكم وادعاءاتكم وكلامكم المنمق وسراويلكم الضيقة إلى الجحيم. هنا نعلمكم ما لا تعلمكم إياه الجامعة:

مكتبة الربيعي أحمد

الخشونة التي تلزم الرجولة. وإن لم يكن ثمة قتال، فثمة أعمال أخرى في المعسكر: الكنس والتنظيف والخدمة وحفر الخنادق، فضلاً عن التدريب العسكري.

أسقط في أيدينا فلا ندري على أي الجنبين نميل: صدمة الهزيمة المروعة أم هذه الورطة التي صرنا إليها.

من رحمة الله بالناس اختلاف الناس. ففي مقابل ذلك العسكري الفظ الغليظ القلب، اقترب مني جندي آخر بحذر شديد، وهمس قائلاً بلهجة مفعمة بالتعاطف:

-إذا رأيت العقيد رئيس المعسكر قد وصل، فامض إليه بالمسألة. فإنه رجل طيب متفهم، وهو صاحب الأمر.

قبل أن يصل العقيد، وصل ضابط آخر برتبة رائد. كان حسن الطلعة، يتحدث بلهجة أهل المدن وبأسلوب مصقول ينم عن خلفية تعليمية. فظننت به خيراً. وقلت في نفسي: أحرى بهذا أن يتفهّم حالنا وأن يتعاطف معنا.

كان تقديري ذاك خطأً جسيماً. فالمظاهر خداعة. ولقيت منه أشد مما لقيت من العسكري الأول. لم يمطرنا بوابل من الشتائم الفظة، ولكنه عمد إلى الإهانة والاستهزاء. فكان ذلك أشد مضاضة.

ثم وصل العقيد ودخل مكتبه، ولحق به ذلك الرائد.

طرقت عليه الباب مستأذناً ودخلت. وبدا لي من ملامحه ولهجته أنه رجل بدوي بسيط على الرغم من رتبته العالية. وكان كما وصفه العسكري الثاني الذي نصح بمراجعته: رجلاً طيباً متأدباً خفيض الصوت قليل الكلام. فتلقاني بأسلوب حسن. وشرحت له المسألة فأنصت بكل هدوء. وقرأت في وجهه تعاطفاً أبوياً.

وعلى الضد منه، كان الضابط الآخر (الرائد) ينظر إلي شزرا وازدراءً. وما إن فرغت، حتى طلب مني العقيد أن أنتظر في الخارج قليلاً حتى يروّي في الأمر ثم يستدعيني. وقد فعل. وأعطى الإذن بتسريحنا. فاجتهدت في شكره مكرراً بحرارة: «شكراً! شكراً! شكراً!». وأبى الرائد إلا أن يعقب بمزيد من الأذى، فكرر من ورائي هازئاً: «شكراً! شكراً! شكراً!».

مكتبة الربيعي أحمد

ومازلت من ذلك الحين كلما ذكرت تلك الواقعة، أتساءل حائراً: ما الذي دعا البعض إلى معاملتنا معاملة الفارين من الجندية أو الفارين يوم الزحف، ولم نكن إلا طائفة من طلبة الجامعة جاؤوا بأنفسهم طوعاً ليستشهدوا على أبواب القدس، وهم لا يكادون يحسنون استعمال البندقية. فلما تبين لهم ألا قدس ولا قتال، لم يكن أمامهم إلا العودة إلى جامعتهم ومساكنهم، ليجدوا وقتاً لبكاء الوطن المحتل واستيعاب صدمة الهزيمة المروعة، وإعادة النظر فيما كان وفيما سوف يكون، وربما كذلك للبحث عن فرصة أخرى للشهادة؟!

ومن جديد، فإن الناس معادن أجناس. ولا يصح الحكم فيهم إلا بوصفهم أفراداً. فذلك العقيد الطيب وذلك العسكري الناصح هما ردّ الحياة على ذلك الرائد المتعجرف وذلك العسكري الآخر الفظ. والاختلاف والتدافع بين الأضداد ضرورة وسنة ورحمة.

لن تكون تلك الواقعة آخر العهد بذلك الرائد!

فإذ مرت شهور ذلك الصيف الثقيل، وبدأ العام الدراسي الجديد، نظمت الجامعة مع القوات المسلحة برنامجاً لتدريب طلبة الجامعة. ومن كان الضابط المشرف؟! نعم. الرائد نفسه!... ولكن، مع الكثير من التعديل الذي توجبه بيئة الجامعة. فهو هنا في غير سلطانه، وقد تغيرت قواعد «الاشتباك»! فتغير السلوك. فبدا الرجل شديد التهذيب والترفق. ولم يكن يباشر عمليات التدريب بنفسه، وما كنت أراه في مواقع التدريب. ولكنه كان يحرص على تناول العشاء أو الغداء في الصالة الخاصة بطلبة السكن الداخلي من الذكور والإناث. فيجلس إلى طاولة المشرفة الاجتماعية المسؤولة عن سكن الطالبات، ومعها في العادة أخريات. فيأتي متجمّلاً متأنّقاً مرة ببزته العسكرية ومرة بملابس مدنية أنيقة! ولا احسب أنه ميزني مستذكراً واقعة المعسكر. ولم أعنّ نفسي بتذكيره. وكنت أكتفي بإرسال نظرة إليه من مكاني في صالة الطعام بين الفينة الأخرى لأقرأ ملامحه وإيماءاته وتجمله المصطنع وأقارن بالشخص الذي أمعن في إهانتنا بلا مسوغ في مكان آخر وظروف أخرى وجمهور مختلف!

أهي الازدواجية والنفاق الاجتماعي؟ أهي سلطة الأنثى تخرج أحسن ما فيك، وربما أخرجت أسوأه؟ ربما. ولكن علم الاجتماع الحديث يعلمنا أيضا أن قدرا من هذا هو

مكتبة الربيعي أحمد

من طبيعة التفاعل والسلوك الاجتماعيين. إذ إن جانباً من نشاطنا التفاعلي الاجتماعي يقوم على إدارة المظهر (Appearance Management) وفقاً للمعايير القيمية والاجتماعية المقبولة، ولعلاقات القوة بين أطراف التفاعل، وسياق الحدث الاجتماعي والمشاركين فيه. ولذلك كثيراً ما تختلف شهادات الناس في الناس باختلاف سياقات تفاعلهم وظروفها وعواملها وعناصرها. ولذلك أيضا ثمة فرق بين الخطاب الخارجي العام والخطاب الداخلي الخاص. ولولا ذلك الفرق لصار التفاعل الاجتماعي صعباً وحافلاً بالمنازعات والمشاحنات والتدابر والتخاصم. فهو إذن ضرورة اجتماعية ما بقي في حدود معقولة. فإذا تجاوزها صار نفاقاً مرذولاً وازدواجية قبيحة. ولكن، مالقدر المقبول، وما القدر المرذول؟

يطول الجدال في هذا. ولكن الإنسان يبقى على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره. والآخرون بدورهم يميزون في آخر المطاف، مهما يجتهد الفرد في الإخفاء.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

2. نقد الاستشراق الذاتي

كانت الشهور التي أعقبت هزيمة حزيران من أقسى الأوقات التي مر بها جيلنا. وعلى قدر الأوهام المتفائلة كانت الصدمة المروعة. فترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ولكن ضياع الأوطان شديد. بكينا كثيراً، وشتمنا أنفسنا كثيراً. ثم استعنا على أنفسنا بالسخرية السوداء. فهذا يقدم تمراً لآخر فيشكره الآكل قائلاً: تقطفه غداً عن أمه إن شاء الله! يعني أن الهزيمة التالية ستردنا إلى جزيرة العرب فنقطف التمر عن نخله! وذاك يقص عن الرجل الذي وجد حذاء عسكرياً متروكاً في أرض سيناء، فلما لبسه وجد نفسه يركض مدبراً لا يعقب على رغم أنفه.

كفر البعض بعد إيمان، وآمن البعض بعد كفر. حمّل البعض وزر الهزيمة للدين، وحمل آخرون وزرها لقلة الدين. بعض خصوم المد القومي الناصري احتجوا بالهزيمة على خصمهم العقدي والسياسي، وبعض أنصار المد القومي الناصري نسبوها إلى مؤامرات الخصوم الداخلية والخارجية. والكثير من القوميين وأنصار المد القومي بدأوا في مراجعة فكرهم ليكتشفوا بحكمة متأخرة أنه لا قبل لأي فكر قومي أن يبرأ من داء

مكتبة الرمحي أحمد

الفاشية، إلا أن تخلعه على الجملة وتلبس ثوب الأممية الماركسية! وانقسم آخرون كالعادة بين من يتهم الغرب الاستعماري ويبرئ الذات، وبين من يتهم الذات ويبرئ الغرب، وبين من يتهم الذات والغرب معاً.

وقد بلغ بالبعض أن حمّل أم كلثوم بعض المسؤولية عن الهزيمة، إذ أسهمت في تخدير الإنسان العربي بغنائها وتطريبها. ورأى آخرون أن الكبت الجنسي هو الداء ورأس البلاء، فلو كان لجندنا أن يفرغوا طاقتهم الجنسية اولاً، لنفروا للحرب خفافاً لا يثقلهم إلى الأرض شيء.

وهكذا تكاثرت كتابات النقد الذاتي تكاثر الأكلة على قصعتها، والسكاكين على البقرة المحتضرة. وخرج بعضها من نقد الذات إلى كره الذات وجلدها والتيئيس من صلاحها. وتناسى بعض المفكرين الماديين ما ينص عليه مذهبهم من أن الثقافة بنية فوقية ترتكز على البنية الاقتصادية والمادية التحتية الناظمة الحاكمة. فأمعنوا في رد اسباب الهزيمة إلى المنظومة الثقافية والقيمية السائدة المتخلفة التي بدا أنها المحدد الناظم للمجتمع والسلوك الفردي والجمعي.

وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك، فأخذوا بالحديث عن عقل ثقافي عربي ثابت يعيد إنتاج التخلف والانحطاط بحكم طبيعته المتأصلة وجوهره ومكوناته. وتلك هي الحتمية الثقافية، في مقابل الحتمية المادية. لكأن الثقافة معطى خارجي موضوعي متجاوز لصيرورة التاريخ، ولها سلطة جبرية على أبناء تلك الثقافة، فهي تحدد أنماط سلوكهم واستجاباتهم مسبقاً على نحو نمطي ثابت. ولا حيلة لهم في ذلك. وليس هذا الفهم إلا جوهر الخطاب الاستشراقي العنصري المنبثق من مفهوم الذات الأوروبية المركزية. وإذا كان إدوارد سعيد قد عمل على تفكيك الخطاب الاستشراقي الغربي بعد حين، فإن الذي لن يتنبه إليه المثقفون العرب هو ما أسميه بالاستشراق الذاتي. والحال أن بعض المفكرين العرب والمسلمين قد استدخلوا الخطاب الاستشراقي الغربي ومنهجه، فغدوا يرون مجتمعهم وثقافتهم من خلاله، ويعرفون أنفسهم بتعريفاته. ثم يطيب لهم أن يردوا للغرب بضاعته. فإذا خاطبوه بأمور بلادهم ومجتمعاتهم وثقافتهم وحضارتهم، أسمعوه ما يتفق مع توقعاته وصوره الذهنية المسبقة. وظنوا أنهم بذلك يحظون عنده، ويفوزون بعضوية

مكتبة الربيعي أحمد

ناديه، فزادوا رأيه ضلالاً واختلالاً. وليسوا بذلك إلا الصورة الأحدث والأرقى للمخبر المحلي البدائي الذي كان علماء الأنثروبولوجيا الأوائل يعتمدون عليه في جمع مادتهم البحثية عن المجتمعات البدائية «الغرائبية». فقد كان عالم الأنثروبولوجيا الأوروبي يذهب لدراسة المجتمعات «البدائية» البعيدة بتوقعات مسبقة عن غرائبها وعجائبها المدهشة، قياساً بثقافة مجتمعه المعيارية. فهو يبحث عن المغاير، ويتوقعه ويجده! وكانت وسيلته الأولى في جمع مادته عن المجتمع وعاداته وتقاليده ونظمه الاجتماعية وقيمه ونظرته للعالم، أن يختار واحداً أو أكثر من المجتمع نفسه يجيب عن أسئلته ويمده بالمعلومات والتوصيفات. وسرعان ما أدرك «المخبر المحلي» informant بذكاء لا يقل عن ذكاء الأوروبي الوافد أن ما يطلبه هذا الأخير هو الغرائب المفارقة لمألوفه. فصار يخترع له ما يوافق رغبته ومطلبه وتوقعاته. والمحصلة دراسات مضللة لا تطابق الواقع المدروس.

مفكرو الاستشراق الذاتي العربي ليسوا بمنأى عن هذا الموقف الذي يتغذى عندهم بكره الذات والرغبة في جلدها والتبرؤ منها، وهذه بدورها تتغذى بالهزائم والإحباطات والانكسارات وأوضاع التخلف والانحطاط والتبعية.

لم يكن غريباً أن تبعث هزيمة حزيران المدوية هذه النزعات. فلم يقف كتاب الاستشراق الذاتي عند الواقع القائم، حتى عادوا إلى التاريخ القديم، فكل يبحث عن محدد ثقافي قديم ينسب إليه انحطاط الحاضر. يتوقف الحديث عن التجزئة القطرية والفساد والاستغلال والاستبداد والعمق الإمبريالي للمشروع الصهيوني والعلاقة الشرطية المتبادلة بين الطغاة والغزاة، وتغييب الشعوب، ونهب الثروات والتنمية العرجاء ونحو ذلك، فهذه في ذاتها نتائج وامتدادات لجرثومة ثقافية قديمة لا سبيل إلى الشفاء منها. فجأة نكتشف أن الذي كان يدير الحرب في حزيران هو «الغزالي» ومنهجه العرفاني غير العقلاني الذي غلب على الجنرال العقلاني البرهاني «ابن رشد» وأزاحه عن سدة القيادة مع مباركة الجماهير الباطنية المضللة! فكانت الهزيمة. ويصيح آخر: بل هو أحمد بن حنبل وتعطيله منهج الرأي والعقل وإعلانه سيادة النص والنقل، ومن خلالها كان يملي على جنرالاتنا خطط الحرب أو النوم عنها!

ويرشدنا آخرون إلى أن البلاء في اللغة العربية الفصحى الجامدة العاجزة عن تمثيل المفاهيم العلمية والتقنية والنقدية والعقلانية، وإذ هي حامل لنظم المعاني الثقافية، فإنها

مكتبة الربيعي أحمد

تحدد وعي الناطقين بها وطريقة تفكيرهم ورؤيتهم للعالم والأشياء. فتعطل تفكيرهم النقدي وتضخ فيهم ذاكرة البداوة القديمة المؤبدة، وتحيلهم إلى ظاهرة صوتية وتغريهم بزخارف البلاغة وأساليب الخطابة الانفعالية التي لا تحرك غير الغرائز والاستجابات السطحية! أما كيف تمكن فلاسفة الاستنارة هؤلاء من التعبير عن أفكارهم النقدية العقلانية حول اللغة العربية باللغة العربية نفسها، وكيف استطاع مرجعهم العقلاني البرهاني «ابن رشد» أن يخلف لنا إرثه باللغة نفسها، فلا يجيبنا أحد منهم!

حار دليلنا مع الأفكار النقدية المتناقضة. فمرة يعاب على ثقافتنا الاجتماعية إلغاء الفردية التي تأسست عليها في الغرب حقوق المواطنة والحريات المدنية واحترام خيارات الفرد مرة، ومرة أخرى يعاب عليها غياب قيم العمل الجماعي المنظم وتقدم المصالح الفردية الأنانية على الصالح العام.

لا شك أن هناك الكثير مما ننتقده في ثقافتنا الموروثة والسائدة. ولا شك أن الانحطاط ليس وليد ساعة، وأن له جذوراً ممتدة في عمق التاريخ. ولا شك أيضاً أن حركات التنوير والإصلاح والتجديد الفكري شرط أساس في النهضة الشاملة. ولكن مشكلتي الكبرى مع الكثير من تلك المراجعات النقدية أنها تنطلق من فهم نظري مخطئ للثقافة ودورها في الحياة الإنسانية والاجتماعية. فهي تتعامل مع الثقافة بوصفها حقيقة خارجية موضوعية ساكنة ثابتة مستقلة عن وعي أفراد المجتمع الذين ينتمون إليها، وأن لها بذلك سلطة قسرية خارجية على تفكيرهم وأنماط سلوكهم واستجاباتهم. فهي تعيد إنتاجهم جيلاً وراء جيل على وفق نمط مكرور لا انفلات منه، وتعتقل عقولهم وأفئدتهم ونشاطهم داخل حدودها الصارمة. ومن ثم يبدأ الحديث عن عقل ثقافي ذي ماهية ومكونات ثابتة، ربما نشأ في لحظة تاريخية معينة ولكنه بعد ذلك صار متجاوزاً للتاريخ وشروطه. بل صار يحيط بالتاريخ ويعيد إنتاجه بالقالب نفسه وإن تغيرت المظاهر الخارجية السطحية! وهذا الفهم في جوهره هو القول بالحتمية الثقافية! وهو يرتد إلى الاتجاهات الوضعية Positivism في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهي الموسومة بالنزعة الإطلاقية Absolutism والاختزالية Reductionism والاتجاهات المدرسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تبرأ من الإيديولوجيا. والاتجاه الوضعي هذا هو اكثر الاتجاهات تمثيلاً للفكر الرجعي اليميني المحافظ الذي يعطل دور الأفراد الاجتماعيين

مكتبة الرمحي أحمد

ونشاطهم الإبداعي في التفاعل المتبادل مع ثقافتهم العامة بما يخدم مصالحهم وأغراضهم وفق السياقات المتغيرة، ويركز في بعض فروعه على قيمة الخضوع لمعايير النظم الثقافية السائدة شرطاً للحفاظ على العضوية الاجتماعية ومكتسباتها. وينتهي في الكثير من الأحيان إلى نظرة عنصرية للثقافات المغايرة غير الأوروبية ومكتسباتها. فهي لا تعطي النظم الثقافية المختلفة قيمة نسبية متكافئة. إذ تبقى الثقافة الأوروبية المرجع المعياري الكوني ذا القيمة المطلقة الذي تقاس به الثقافات الأخرى قرباً أو بعداً عن الحق والحقيقة!

وهنا تكمن المفارقة. فالكثير من الكتاب العرب الذين قدموا مراجعات نقدية للعقل الثقافي العربي كانوا يساريين وليبراليين يتحدثون باسم التقدمية والحريات، ولم يتنبهوا إلى أن منهجهم في توصيف «العقل الثقافي العربي الثابت» يرتد إلى الاتجاهات الوضعية الإطلاقية الاختزالية الأكثر رجعية ويمينية في مناهج الدراسات الإنسانية والاجتماعية! ولم يتحرروا من فكرة مركزية الذات الأوروبية وهم يعاينون ثقافتهم ويعيدون إنتاج المفاهيم المؤسسة للخطاب الاستشراقي العنصري! أذكر في هذا السياق مجلساً جمعني على غير معرفة شخصية بزعيم إحدى المنظمات الفلسطينية الأكثر يساريّة. وطرح عليه أحد المثقفين الحضور سؤالاً، فمكث في الإجابة عنه أكثر من ساعتين. فشرّق وغرّب في وصف أسباب الانحطاط العربي مقارنة مع شعوب الغرب الأوروبي والشرق الأقصى. فما زاد على التعليل بالمحددات الثقافية الخالصة. فالبروتستانتية أدعى إلى التقدم من الكاثوليكية، والكاثوليكية أدعى إليه من الأرثوذكسية، والبوذية وما تقدم كله أدعى إليه من الثقافة العربية الإسلامية! وكنت أستمع حائراً في الرجل: هذا المنظر الماركسي العتيد يتحدث بلغة فكرية أقرب إلى ماكس فيبر منه إلى خصمه العقدي الكبير: ماركس! فما إن فرغ من تحليلاته حتى وجهت إليه السؤال عن هذا التناقض الكامل مع مرجعه العقدي المادي. فبهت الرجل! ولم يقل في التخلص من الحرج كثيراً! وكيلا نبخس ماكس فيبر حقه فإنه بالطبع أكثر عمقاً وتعقيداً من هذه التحليلات الاختزالية. وقد أسس للاتجاهات التأويلية في علم الاجتماع التي تترك مساحة للنشاط التفاعلي التأويلي الإبداعي لأفراد المجتمع في تعاملهم مع مراجعهم الثقافية، وذلك في مقابل وضعية دوركهايم الفرنسي وبارسونز الأمريكي. ولكن، منهج ماكس فيبر مع ذلك لا يخلو أحياناً من التناقض. وقد يقع أحياناً في فخ الوضعية

مكتبة الربيعي أحمد

والحتمية. ومثال ذلك كلامه عن الحضارة العربية الإسلامية، التي لم يبتعد في توصيفها عن الطرح المادي.

والحال أن الثقافة ليست حقيقة موضوعية قارة في العالم الخارجي، ولا هي ماهيّة ثابتة مستقلة عن وعي أفراد المجتمع والفاعلين الاجتماعيين، فتكيفهم وتنمطهم على غير إرادة منهم في قالب واحد متجانس مكرور. إنما هي ظاهرة ديناميكية وعملية نشطة وصيرورة متغيرة، تستوطن الوعي الذي يوظفها من خلال نشاطه التأويلي في خدمة أغراضه ومصالحه ومواقفه حسب سياق التفاعل الاجتماعي. والثقافة بهذا ظاهرة فردية وجمعية معاً. فهي من جهة لا توجد خارج وعي الأفراد، ومن جهة أخرى فإن صفتها الجمعية تتمثل في أن أعضاء الجماعة يستدخلون في وعيهم مرجعاً ثقافياً مشتركاً يصدرون عنه في تفاعلاتهم اليومية، ويخلق عندهم الشعور بالهوية الثقافية الاجتماعية الواحدة. علاقة الأفراد بنظم المعاني الثقافية المستدخلة في وعيهم علاقة تفاعلية متبادلة. فمن جهة تسهم في تشكيل وعيهم ونظرتهم إلى العالم وتمدّهم بالمعاني والرموز التي يمثلون بها العالم الخارجي، ولكنهم من جهة أخرى يسلطون عليها نشاطهم التأويلي فيعدلون فيها ويكيفونها ويضيفون إليها ويعيدون تعريف بعضها بما يتوافق مع حاجاتهم المتغيرة والمتعارضة في سياق التفاعل الاجتماعي اليومي. فلا تشكل وعيهم إلا بقدر ما يعيدون تشكيلها. وبها يحقق أعضاء المجتمع وظيفتين ضروريتين في الوقت نفسه على الرغم من تنافرهما. ففي سياق التفاعل الاجتماعي بينهم يستدعون المعاني من المرجع الثقافي المشترك لخلق الشعور بالتوافق والانتماء إلى المجتمع نفسه ممثلاً برموزه ومعانيه الثقافية المشتركة، فبدون ذلك ينقطع التفاعل الاجتماعي وتنهار قواعد التواصل ويقع التفكك الاجتماعي. ولما كانت الحياة الاجتماعية أيضا تنطوي على تعارض المصالح والمواقف والمواقع والأغراض، فإن أطراف التفاعل تتخالف فيما تنتقيه وتستدعيه من المرجع الثقافي المشترك لتنزله على الموقف الاجتماعي تعريفاً وتأويلاً لخدمة غاياتها المتعارضة. ففي معظم الأحيان لا يكون الخلاف على القيمة نفسها بوصفها المجرد سلباً أو إيجاباً، ولكن الخلاف يكون في إنزال هذه القيمة أو تلك على الواقعة الاجتماعية الفعلية أو تعريفها. لا خلاف على القيمة الإيجابية للشجاعة والكرم ولا خلاف على القيمة السلبية للتهور والبخل مثلاً. ولكن الخلاف بين من يعرف نشاطاً ما بأنه شجاعة ومن يعرفه بالتهور، ومن يعرف نشاطاً

مكتبة الربيعي أحمد

بالكرم ومن يعرفه بالسرف والبطر، ومن يعرف نشاطاً آخر بالبخل ومن يعرفه بالاقتصاد! وهكذا.

ومن هنا يتمثل الصراع على الواقع بمسائله الصغيرة والكبيرة في الصراع على المعاني والمفاهيم والخطابات والروايات المتعارضة، فكل يحاول فرض تعريفه وتأويله وروايته وخطابه.

لكن، هذا الصراع التأويلي ليس متكافئاً بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع الواحد، ولا بين المجتمعات والثقافات. فالنتائج تخضع لعلاقات القوة في آخر المطاف. الأقوى معرفياً ومادياً واجتماعياً هو الأقدر على فرض تعريفاته ومعانيه وتأويلاته، ومن ثم التحكم والتوجيه والسيطرة. أهو جهاد مشروع أم إرهاب؟ أهو نضال أم تخريب؟ أهو احتلال واغتصاب أم حقوق متنازع عليها؟ أهو غزو ثقافي واستلاب أم تبادل ثقافي وانفتاح؟ أهو إعتدال أم إذعان؟ أهو ثورة أم تمرد وشغب وفوضى؟ أهي حرية الرأي أم إساءة عنصرية وخطاب كراهية وتحريض؟!

هنا تصبح اللغة والخطابات والمعاني موضوع الصراع ومسرحه، لا وسيلته فقط! وهنا يمكن أن يصبح الصراع على المعاني صراعاً على الوجود. ويمكن للمعنى أن يصير قاتلاً، ويمكن أن نحيا بالاستعارة أو نموت بها.

ولكن، على الرغم من سلطة الخطاب السائد المهيمن، فإنه يخلق شروط نقيضه، وفي لحظات تاريخية معينة، يمكن أن تنشأ خطابات تحررية جديدة تغير وجه الواقع. ليس الإنسان إذن آلة صماء تشغلها الثقافة، أو منتجا واحدا تصنعه آلة الثقافة. الثقافة تغذي الاجتماع الإنساني، وتغذي الصراعات في إطاره، وكلا الوظيفتين ضرورة وشرط إنساني.

وعلى الرغم من أن الثقافة لا تمتلك تلك السلطة الحتمية التي تنتهي إليها بعض الإتجاهات الوضعية، ولا تنفك عن مجمل الظروف والشروط المادية، إلا أنها ليست مجرد انعكاس آلي للشروط المادية، فهي تملك قدرا من الاستقلال النسبي والفاعلية الذاتية. وفي سياق التفاعلات الاجتماعية وصراعات التأويل والتعريف وصيرورة التاريخ تسقط بعض المعاني، وتضاف معانٍ جديدة، وتتعدل معانٍ أخرى. وكل ذلك يتجسد في المعجم اللغوي وأساليبه..

مكتبة الرمحي أحمد

نحن نقرأ الجاحظ مثلاً ونفهمه. وقد نتوقف عند بعض الألفاظ الغريبة التي سقطت من معجمنا المعاصر وعند بعض المعاني الخاصة بعصر الجاحظ وبيئته. ولكن، ماذا لو عاد الجاحظ من العالم الآخر ليقرأ بعض كتاباتنا المعاصرة! هل سيفهمها بقدر ما نفهم كتبه القديمة؟ ماذا يفعل بهذا الحشد من المفاهيم التقنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية الحديثة؟ ألا يشير ذلك إلى أن المعاني الثقافية في صيرورة دائمة على الرغم من إحساسنا بالتواصل التاريخي الثقافي من الماضي إلى الحاضر؟!

وإذن فالحديث عن عقل عربي ثقافي ثابت ننسب إليه واقع التخلف والانحطاط هو من نوع الخطاب الاستشراقي العنصري. والأسوأ منه البحث عن محدد واحد من الموروث الثقافي لنفسر به الحاضر وهزائمه.

لكأن قدرنا أن نراوح بين الثنائيات المتفاصلة المتطرفة: بين اتجاه تغريبي عدمي يدعونا إلى الانسلاخ عن هويتنا الثقافية الحضارية واستنساخ النموذج الغربي، واتجاه ماضوي يدعونا إلى استنساخ ماضي الذات. وكلا الاتجاهين يصدر عن ذهنية متشابهة وإن بدا أنهما متناقضان. فكلاهما تقليد واستنساخ: تقليد ماضي الذات، أو تقليد حاضر الغير. والغائب في الحالين هو حاضر الذات المستقلة الفاعلة المنتجة التي لا تتصل بالماضي إلا بقدر ما تمتد به وتفارقه، ولا تنفتح على الثقافات الأخرى إلا بقدر ما تحافظ على استقلالها وتميّزها، فتأخذ في سياق شروطها التاريخية، لا في سياق التبعية المادية والثقافية. فهكذا أخذت اوروبا من الحضارة العربية الإسلامية لنهضتها. وليس صحيحاً ما يعتقده البعض من وجود علاقة سببية مباشرة بين إنجازات الحضارة العربية الإسلامية والنهضة الأوروبية.

فالحال أن شروطاً بنيوية ذاتية أطلقت حركة النهضة، وأطلقت معها قدرة أوروبا على الإفادة من الحضارة العربية الإسلامية ومنجزاتها، بعد أن كانت منغلقة على نفسها، مقطوعة الصلة حتى بالموروث الإغريقي نفسه الذي جعلته فيما بعد قاعدتها الكلاسيكية، ثم بعد أن أعادت توطينه في الوعي الأوروبي، خلقت شرط الإمكان لتجاوزه دون أن تتجرد من انتسابها إليه.

لا، لم يكن الغزالي وابن حنبل والشافعي وابن سينا والكندي والفارابي حاضرين في وعي الجنرالات والمستبدين الذي قادونا إلى الهزيمة. ولم يكونوا كذلك حاضرين في

مكتبة الربيعي أحمد

وعي الجماهير المغيّبة التي كانت تتجمع حول المذياع لتتابع أخبار الحرب. ولو كانوا حاضرين حقاً لكنا أحسن حالاً. فالوعي الحقيقي بالماضي يرتبط بالوعي بالحاضر. وغياب الوعي يشمل الماضي والحاضر معاً. ومن شروط تجاوز الماضي استحضاره أولاً، كما استحضرت أوروبا النهضة الموروث الإغريقي قبل تجاوزه. وذاك ما يغفله مفكرو الاستشراق الذاتي فيما يغفلونه. كان ابن رشيد أرسطياً بامتياز. وقد تجاوزت أوروبا أرسطو نفسه، ولم يشفع له وصف «البرهاني»، دون ان تسقط قيمته في تاريخ الفكر والفلسفة.

لا تتعرف الشعوب والأمم إلا بهويتها الحضارية والثقافية. وهي لا تبيد سلالياً في العادة. ولكنها تبيد إذا تحللت ثقافتها وذابت في غيرها وصارت طي النسيان. هكذا كان مصير الشعوب التي كانت ثم بادت. ولكن الحفاظ على الهوية الثقافية لا يكون بالانغلاق والجمود، وإنما بالتطوير والامتداد والمحافظة على حيوية الإنتاج المعرفي.

كتاب الاستشراق الذاتي لا يطبقون معاييرهم الانتقائية الإقصائية على تاريخ الفكر الأوروبي كما يطبقونها على تاريخ الفكر العربي الإسلامي. فهذا أفلاطون، أبو الفلسفة المثالية العرفانية يعاصر أرسطو البرهاني. ويحتفي العالم بكليهما بوصفهما التجلّي الأسمى للحضارة الإغريقية المؤسسة. ولم يقل لنا أحد إن الفكر الأفلاطوني قد أزاح أرسطو البرهاني، فمهّد بذلك للدخول في عصور الظلام والانحطاط! الدخول في عصور الظلام صحبه تغييب الموروث الإغريقي بجملته، أفلاطونه وأرسطه وسقراطه من قبل!

وكما يعرف دارسو الفلسفة المتعمّقون فإنه إذا كانت أوروبا النهضة قد تجاوزت أرسطو، فإن أفلاطون أثبت قدرة أعظم على البقاء والامتداد، حتى قال فيه من قال: (ليست الفلسفة بعد أفلاطون إلا هوامش عليه). وهل يذكر مفكرو الاستشراق الذاتي أن الفيلسوف اسبينوزا الذي كان من أعلام الفلاسفة العقلانيين إلى جانب ديكارت، كان أيضا ذا رؤية صوفية روحية؟ ومع ذلك فهو مع أقرانه من فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر قد أسهموا في التأسيس للفكر الأوروبي في العصور الحديثة. ولا نسمع من يقول أنه قد أسهم في تعطيل العقل الأوروبي ومن ثم في انتكاس الحضارة الغربية الحديثة وتعطيل حيويتها الممتدة.

وهل يعلم مفكرو الاستشراق الذاتي أن أبا الحركات العرفانية الباطنية، واحد من أعظم العلماء المهندسين المتقدمين في تاريخ الحضارة الإغريقية، وهو فيثاغورس الذي كان

مكتبة الربيعي أحمد

أول من أسس أكاديمية سرية التنظيم لتعليم الفلسفة الطبيعية والباطنية العرفانية معاً في مستعمرة إغريقية في جنوب إيطاليا، وكان تنظيمها قائماً على مراتب متصاعدة، فلا يدخل المريد إلى مرتبة أعلى حتى يستكمل تأهيله الباطني الذي يعدّه لاستقبال مستوى أعلى من الحكمة الباطنية، في ظل مراسيم طقسية خاصة! ومنه امتد الخط العرفاني إلى أفلاطون ثم أفلوطين، فالهرمسية والغنوصية، وربما إلى الحركات الباطنية العرفانية الصوفية الفيضية التي ورث بعضها بعضاً عبر العصور، وتمكنت من إعادة إنتاج نفسها عبر الثقافات والأديان المختلفة في الشرق العربي الإسلامي ثم الغرب الأوروبي!

وهل يعلم أصحابنا أيضا أن أعظم عقل علمي في التاريخ الإنساني كله إسحق نيوتن، الذي أسس للعلم الحديث بجملته، كان خيميائياً هرمسياً يصرف القدر الأكبر من نشاطه الفكري سراً في توظيف الحكمة الباطنية القديمة الموروثة لاكتشاف «شيفرة» الكتاب المقدس ومعانيه الباطنية الكونية واستطلاع المستقبل من خلال القيم العددية للحروف، ووضع تنبؤات عن مصير العالم وتاريخ القيامة وفقاً لحساباته تلك؟!

لا أحسب أن نيوتن قد توصل إلى معادلاته الشهيرة في الجاذبية والحركة بمساعدة حجر الفلاسفة في التراث الخيميائي، ولا بالمعارف الباطنية والرياضات الروحية والأرقام السحرية! ولكن هذه في المقابل لم تعطل جهوده العلمية الخالصة واكتشافاته الرياضية الطبيعية التي غيرت نظرة الإنسان إلى العالم والكون والطبيعة إلى الأبد. ذلك أن كلاً من النظامين: العرفاني الباطني، والعلمي التجريبي، كان يشتغل عنده على مستوى ظاهراتي مستقل عن الآخر في طبيعته وأسئلته وغاياته، ومن ثم في منهج مقاربته.

وعالم الفيزياء المعاصر المؤمن بالله والغيب، لا يتدخل إيمانه بالغيبيات في استعماله للمناهج العلمية التجريبية في دراسة الظواهر الطبيعية، وفي إجراءات مختبره. ولقد شهدت على شاشة التلفاز عالماً هندياً حصل على جائزة نوبل في الفيزياء، يغطس في نهر الغانج المقدس عند الهندوس على سبيل التطهر، شأنه في ذلك شأن الملايين من الفقراء والأميين. وكان يقول: أعلم أن الماء هنا شديد التلوث، ولكنني أشعر حقاً بالنقاء إذ أغمر نفسي فيه. من جديد، لا أحسب أن جهوده العلمية التي جلبت له جائزة نوبل قد تمت باستدعاء الآلهة شيفا Shiva، أو براهمان Brahman، أو فيشنو Vishnu.

مكتبة الربيعي أحمد

فلم هذا الإلحاح الساذج عند بعض كتاب كره الذات العرب على أن التقدم العلمي المنشود رهينة التخلي عن الإيمان بثقافة الدين والغيبيات. الا يبدع في العلوم إلا الملاحدة؟ وهل رأيت الطبيب المؤمن يعالج السرطان بالرقية، بينما يعالجه الطبيب الملحد بالأشعة والجراحة والكيماوي؟ ألا يعلم هؤلاء أن مجتمع الولايات المتحدة الأكثر تقدماً في العلوم و«التكنولوجيا»، ما يزال يغلب عليه الإيمان بالدين، بل ما يزال السحر والشعوذة والتنجيم فيه صناعة كبرى بملايين الدولارات أو أكثر، فترى قراء الطوالع والمنجمين يعلنون عن خدماتهم على شاشات التلفاز، ويعدونك بأخبار سارة عن حياتك الغرامية ومستقبلك المهني. وفيهم مؤسسات وشبكات يعمل فيها أعداد من المنجمين يستقبلون اتصالات المراجعين. وقد رشح في الأخبار أن ريغان، رئيس الولايات المتحدة الأسبق، كان يستعين بإحدى المنجمات. بل تسربت بعض الأخبار التي تفيد أن المخابرات المركزية الأمريكية قد جرّبت الإفادة من هؤلاء، وحقق الكونغرس في الموضوع ليُقوم مداه وكلفته وجدواه!

كل هذا يحدث بينما يتابع العلماء جهودهم في المختبرات بمناهجهم العلمية الصارمة. الحياة الإنسانية أكثر تعقيداً من أن يوجهها ويشكلها بعد واحد طارد لغيره. فلقد تتجاور الأضداد والنظم التفسيرية التي تشتغل على مستويات مختلفة متوازية من الظواهر، ولن تتوقف أسئلة الإنسان عن الطبيعة وما وراءها، ولا بحثه الموجع عن المعاني والغايات الكبرى.

من تجليات الحيوية الحضارية ظهور تيارات فكرية ومعرفية ونظم تفسيرية متدافعة مختلفة، يتحدى بعضها بعضاً ويجادل أحدهما الآخر، فيدفع إلى توليد غيره أو إلى التعديل عليه. فالحضارة التي أنتجت الفلاسفة الطبيعيين في أيونيا (غرب الأناضول الآن) هي التي أنتجت أفلاطون وأرسطو، والحضارة التي أنتجت الغزالي هي التي أنتجت ابن رشد، والحضارة التي أنتجت ديكارت العقلاني هي التي أنتجت فرانسيس بيكون وجون لوك التجريبيين، والحضارة التي أنتجت كانت وهيجل المثاليين هي التي أنتجت ماركس المادي، وهي كذلك التي أنتجت ماكس فيبر التأويلي ودوركهايم الوضعي. وكل هؤلاء في مجموعهم تعبير مشرق عن إنجازات الفكر الإنساني في سعيه إلى الاستبصار والمعرفة والتقدم. وليس يعرف أحدهم إلا بالآخر والسياق الحضاري العام الذي أنجبهم.

مكتبة الرمحي أحمد

أما التخلف الحاضر الذي نحن فيه فلم ينجب نظيراً معاصراً للغزالي ولا ابن رشد، إنما أنجب ذهنيات إقصائية انتقائية، تدّعي لنفسها امتلاك الحقيقة المطلقة؛ وتفتقر إلى المنظومات المتكاملة، فتكتفي بانتقاء ما يؤيد أحكامها المسبقة وغاياتها الإيديولوجية، وهي تتقلب بين كره الذات وتقديسها؛ بين التبرؤ من الماضي وتوثينه وبين الاغتراب في حاضر الغير والاغتراب في ماضي الذات. وكل هذه الثنائيات، على ما يبدو من تناقضها، ترتد إلى منطلقات ذهنية مشتركة، فيصح أن تجمع في وصف «الإطلاقية» و «الاختزال» والإقصاء. تعرف ذلك بالسمات التالية:

-ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة دون الآخرين، سواء أكان ذلك بدعوى الفكر العلمي المطابق للحقائق الموضوعية القارة في العالم الخارجي المادي، أم بدعوى تطابق الفكر مع مقاصد الوحي والمعرفة اللدنية التي لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها. النتيجة واحدة في الحالين: تشريع إقصاء الآخر ذي الوعي المزيف والمشوّه والمنحرف.

-النزعة الاختزالية التي ترد الظواهر الإنسانية والتاريخية المركبة إلى محدد واحد، أو بضعة محددات قليلة، سواء أكانت مادية أم ثقافية.

-المنهج الانتقائي التجزيئي الذي يذهب إلى مادته بنتائج مسبقة ورواية ناجزة، باحثاً عما يؤيدها، فيعزل اختياراته عن سياقها العام، وينطق من يشاء، ويسكت من يشاء، ويستحضر من يؤيده، ويغيّب من يخالفه. وكثيراً ما تؤدي الانتقائية إلى التناقض، وبخاصة عند أنصاف المثقفين الذين يتعيشون على قراءة النصوص الحديثة قراءة سطحية، لا تستبطن منظومتها المعرفية ونظامها التفسيري. فنرى أحدهم يقتبس من إدوارد سعيد في آن، ثم يقتبس من محمد عابد الجابري في آن آخر، دون أن يدرك أن منهج سعيد هو على الضد تماماً من منهج الجابري وصنوه محمد أركون واستخلاصاتها. وترى آخر ينعى تعطيل العقلانية والبرهانية في تاريخ الفكر العربي لصالح عرفانية الغزالي التي أفضت إلى غيبوبة العقل. ثم تراه في سياق آخر يستدعي نصاً صوفياً باطنياً للنفري، مشيداً بشعريته العالية ورؤيته الكونية، ويراه مثالاً للنص الإبداعي الذي تواطأت المؤسسة الثقافية الدينية الرسمية على تغييبه. ولقد يستدعي كذلك الحلّاج والسهروردي المقتول ورموزاً باطنية أخرى ليمجّد إبداعها الذي عملت المؤسسة التقليدية على اغتياله. والحال أن

مكتبة الرمحي أحمد

مذاهب هؤلاء العرفانية الباطنية الفيضية الحلولية لتكاد تبدي الغزالي مفكراً مادياً بالقياس والمقارنة!

كل ما في الأمر أن صاحبنا المثقف العتيد نقل عن الجابري الذي حرّضه على الغزالي العرفاني، ونقل عن أدونيس الذي عظم له النفري العرفاني الباطني. والأرجح أنه لم يقرأ أعمال الغزالي إلا ما نقل عنه الجابري وأمثاله، ولا عرف النفري إلا من نقول أدونيس، فأحب أن يتجمّل بهذا وذاك دون أن يدرك التناقض في أحكامه.

-ولقد نضيف إلى السمات السابقة التي يتعرف بها الفكر الإطلاقي الإقصائي المتطرّف، مهما يكن مرجعه العقدي، القول بالحتميات الثقافية والمادية، وما تستتبعه من الروايات عن نهاية التاريخ والفردوس الأرضي الذي تمتلئ فيه الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، سواء أكان ذلك بانتصار الطبقة العاملة النهائي وزوال الطبقات، أم بمجيء المهدي المنتظر المؤيد من السماء. أم بالعودة الثانية للمسيح عند الأصولية المسيحية المتهودة. ولا بأس أن يحلم الإنسان بوعد الخلاص. ولكن مثل هذه النبوءات يمكن أن تتحول إلى نبوءات تسعى إلى تحقيق ذاتها Self-fulfilled Prophecy بالعنف والاقصاء. فالفردوس الأرضي الموعود لابد أن يسبقه جحيم غير مسبوق. والآخرون هم الجحيم!

لعل عيب الغزالي أنه لم يتهم بالزندقة التي كان يمكن أن تشفع له عند بعض هؤلاء! فلم يشتط اشتطاط الحلوليين الهرمسيين الغنوصيين، وبقي منضبطاً بأحكام الشريعة. فاجتمع في رفض عرفانيته فريقان ضدّان: أهل النص والنقل، وأهل الفلسفة والبرهان. والحق أن الغزالي لم يحصر هجومه على الفلسفة الأرسطية الرشدية، ولكنه هاجم الفلسفة االسائدة في عصره على الجملة باتجاهاتها الأرسطية والأفلاطونية والأفلوطينية العرفانية. وكان في هجومه متفلسفاً من طراز رفيع وإن شاء أن يتبرأ من مناهج الفلاسفة في الوصول إلى الحقيقية. والذي يقرأ كتاباته بتعمّق بريء من الغرض المسبق، يجد حجاجاً عقلياً عميقاً، ونصوصاً تعلي من قيمة العقل والتعقل. فلم يكن الرجل أقل تفلسفاً ممن سلط عليهم نقده. ولعل المشكلة في تعريفه للفلسفة، فلم يفرق بين نقده لمناهج الفلاسفة في عصره، ونقد الفلسفة بإطلاق. وكان حريصاً أن يبرئ تصوفه

مكتبة الربيعي أحمد

من أثر الفلسفة الأفلوطينية الإشراقية الفيضية وما تحمله من التباسات لا تنسجم في مذهبه مع الشريعة. ولست أسوق هذا انحيازاً للغزالي ضد ابن رشد. فأنا منحاز لهما معاً ولكل مفكر وفيلسوف أغنى الفكر الإنساني، بصرف النظر عن موقفي الفكريّ الخاص. إذ لم يتوقف تاريخ الفكر الإنساني عند الغزالي وابن رشد، كما لم يتوقف عند أفلاطون وأرسطو، لكي نقيم عند أحدهم. ولكن غايتي تفنيد التفسيرات الساذجة التي تسعى إلى نسبة الانحطاط والهزائم إلى محدد ثقافي قديم، ونزعة الإقصاء التي تمتد إلى تاريخنا الماضي وموروثه مقرونة بنزعة ثاريه سعدى بكره الذات، ويمكن أحياناً أن تستبطن خلفية طائفية أو جهويّة مضمرة!

لم تكن عرفانية الغزالي هي التي أزاحت برهانية ابن رشد الأرسطي، فأدخلتنا في غيبوبة طويلة استيقظنا منها على هزيمة حزيران 1976. كما أن أفلاطون لم يكن هو من أزاح أرسطو في تاريخ الفكر الغربي منذ عصر النهضة. فالذي أزاح أرسطو هو تطور الفكر العلمي لا العرفاني. ذلك أن أرسطو قدم تصورات عن العالم الطبيعي ما لبث التطور العلمي منذ عصر النهضة أن تجاوزها. أما الاتجاهات الفكرية التي طرحت أسئلة ذات طابع ميتافيزيقي، أو تتعلق بطبيعة المعرفة وموضوعها، وطبيعة الواقع، والأخلاق والجمال. فبقيت ممتدة في صيغ واتجاهات فلسفية جديدة تتناسب مع تطور تاريخ الفكر.

ثم ما هو مفهوم «البرهان» الذي جعل قريناً للعقلانية دون العرفانية؟

يبدو أن الكثيرين من المثقفين والكتاب العرب قد خلطوا بين عدد من المفاهيم الاصطلاحية الفلسفية وبين معانيها في الاستعمالات العامة. فالبرهان يحيل عندهم إلى التفكير العلمي السببي الذي يتعامل مع العالم المادّي المحسوس وإلى التفكير العقلاني. فيقترن وصف العقلاني بالعلمي المادي الطبيعي، في مقابل التفكير الغيبي الذي يحال بدوره إلى الميتافيزيقا! وكل ذلك تخليط يدركه أي دارس جاد لتاريخ الفلسفة والفكر.

الميتافيزيقا في المصطلح الفلسفي ليست رديفاً لمفهوم التفكير الغيبي غير العقلاني في الاستعمال العام. فهي فرع هام من الفلسفة يدرس طبيعة الواقع Reality وتكوينه ووظائفه وتنظيمه بصورة عامة، ويركز على تلك الجوانب من الواقع التي لا يمكن ملاحظتها وقياسها بصورة مباشرة، فيدخل في ذلك موضوع الألوهية والفضيلة. ولو

مكتبة الربيعي أحمد

أقصينا الميتافيزيقا من الفلسفة بعامة والفلسفات العقلانية بخاصة لأسقطنا بذلك مادة عظيمة من تاريخ الفكر الفلسفي. فجل الفلاسفة العقلانيين العظام تحدثوا في الميتافيزيقا بالمفهوم السابق، وفي مقدمتهم أرسطو العقلاني «البرهاني»!

ذلك أن العقلانية *Rationalism في المصطلح الفلسفي لا تتقابل* مع الميتافيزيقا، ولكنها تتقابل تحديداً مع الاتجاهات التجريبية المادية الطبيعية التي ترى أن العالم الخارجي المادي المحسوس المتعين هو موضوع المعرفة ومصدرها وأن التجارب والوسائط الحسية هي السبيل إلى المعرفة *Empiricism*. وقد استمدّت هذه الاتجاهات من تطور العلوم الطبيعية ومناهجها في العصور الحديثة المبكرة، وتميز بها الفلاسفة البريطانيون بصورة خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وفي مقدمتهم جون لوك، وقبله فرانسيس بيكون.

أما الفلاسفة العقلانيون فقالوا بأسبقية العقل والأفكار والمثل المجردة على العالم المحسوس وانطباعاته وتجاربه ووسائط استقباله. ولم يروا في الحواس وسيلة يعوّل عليها في استقبال حقائق الواقع وتمثله. فالعقل عندهم لا يبدأ صفحة بيضاء تنطبع عليها معارفنا عن العالم الخارجي من خلال الوسائط الحسية. وإنما هو مجهز بقدرات واستعدادات فطرية للتعقل والتفكير والتأمل والاستنباط والحجاج المنطقي تتجاوز المحسوس الذي يمكن أن يكون خادعاً مضللاً. كما تقرر تلك الجبلّة العقلية، حدود المعرفة الممكنة وموضوعها. والتفكير الرياضي يدخل في نطاق التفكير العقلاني المجرّد. وجل الفلاسفة الأوروبيين العظام في العصر الكلاسيكي (القرنين السابع عشر والثامن عشر) يندرجون في العقلانية من ديكارت إلى اسبينوزا ولايبنز وبيركلي حتى كانت المثالي، ثم تبعهم هيجل ونيتشه في القرن التاسع عشر، وما زال هذا التيار العريض ممتداً حتى الوقت الحاضر. والتفكير الفلسفي المثالي Idealism يندرج فيه. لم يطرد أي من هؤلاء الفلاسفة العظام من جنة «البرهان» لأنه تجاوز عالم الحس والمادة والتجريب. كما لم يطرد أفلاطون ثم أفلوطين العرفاني الفيضي قبلهم بقرون، ولا كيركجارد الوجودي الذي تلاهم في القرن التاسع عشر وتركزت فلسفته على العلاقة الوجودية مع الله القائمة على وثبة الإيمان الخالص.

مكتبة الربيعي أحمد

فالبرهانية ليست حصراً على الفلسفات المادية والاتجاهات الحسية والتجريبية التي استرفدت مناهج العلوم الطبيعية. ولكن «البرهان» في تاريخ الفكر نوعان: استنباطي عقلاني Deductive ذو طبيعية رياضية منطقية، واستقرائي Inductive ذو طبيعة مادية تجريبية. فالأول اقترن بالفلسفات العقلانية و الرياضيات، والثاني بالفلسفات المادية والعلوم الطبيعية. بهذا المعنى كان الغزالي برهانياً عقلانياً بقدر ما كان عرفانياً معتدلاً، ولا تناقض.

3. القمر الساقط في قاع البئر

لعلي قد استطردت طويلاً في التعليق النقدي على جانب من الاستجابات الثقافية لصدمة الهزيمة، التي خرجت من نطاق النقد الذاتي إلى جلد الذات والتبرؤ منها... وعززت تياراً ما يزال ممتداً حتى الوقت الحاضر، أطلقت عليه «الاستشراق الذاتي»، ومضى فيه أنصاف المثقفين يلوكون الكلام على غير هدى أو بينة.

فلنذر هؤلاء يختصمون في الأسباب الثقافية لتخلفنا المؤبد و هزائمنا المحتومة! فما لبث صوت المقاومة الفلسطينية المتصاعد أن طغى على كل الأصوات، في ذلك الصيف من عام 1967، لنجد فيه الرّد الحقيقي على الهزيمة، وطوق النجاة من اليأس والإحباط.

حالت ظروف الحرب والاحتلال دوننا ودون أهلينا وديارنا في الضفة الغربية. فأقامت الجامعة الأردنية لطلبة الضفة مخيماً على جانب من أرض الجامعة. ولما كان السكن الداخلي الذي أقيم فيه يغلق في أثناء العطلة الصيفية، فقد كان علي أن أنضم إلى زملائي في المخيم الطارئ المؤقت حتى تستأنف الجامعة عملها التدريسي في العام الدراسي الجديد. وقد جهد عمي محمود إبراهيم في إقناعي بالنزول في بيته مدة الصيف. فأبيت متعللاً بأنني أجد السلوى في الإقامة بين زملائي في المخيّم، وإلا قتلني الهم والضجر. وكنت صادقاً في ذلك بعض الصدق. إذ لم تكن هذه هي العلة الوحيدة. فقد كنت شديد الحياء، أستثقل أن أحل ضيفاً في منزل غير منزلنا وإن كان لعمي، أحب الناس إلي وأقربهم إلى نفسي. فإن لم يمنعني الحياء منه، منعني الحياء من زوجه، وإن كانت من أحب الناس لعائلة زوجها وأرعاهم لهم، ولسوف تكون لي بمثابة الأم الثانية أو الأخت الكبيرة الحانية، تعاملني وتقدمني كبعض ولدها، وهو ما أعانني على تجاوز حيائي ذاك بعد حين لأقيم عندهم في عطل الصيف التالية في السنين الثلاثة الأخرى من دراستي الجامعية. بل صرت آلف ذلك

مكتبة الربيعي أحمد

ألفتي لبيتنا في طولكرم، فإذا انقضت أشهر الصيف وعدت إلى السكن الجامعي الداخلي، شعرت ببعض الغصّة.

أما في صيف الهزيمة ذاك، فقد حملني الحياء والتحرج على أن أختار شظف العيش في مخيم الطلبة على راحة منزل عمي في جبل اللويبدة الأنيق الهادئ، على الرغم من إلحاح عمي المتكرر. وكان مرتب المنحة الدراسية من وزارة التربية والتعليم، وقدره عشرون دينارا في الشهر، لا يصرف لشهور العطلة الصيفية. وقد أجرت الجامعة لطلبة المخيم المنقطعين عن أهليهم مصروفاً لا يزيد على خمسة وسبعين قرشاً في الأسبوع. وهو مبلغ زهيد، حتى بمقاييس تلك الأيام. على أن الجامعة كانت تقدم لنا وجبات متواضعة تعد في المخيم نفسه. وكان بعضنا يحمل الآخر في ما يأتيه من رزق من هنا وهناك. ومن جديد كان علي أن أغالب عمي محمود ابراهيم وهو يحاول جاهداً أن يمدني بالنقود، فأوهمه بكل ما أوتيت من قدرة على الإقناع بأن لدي من النقود ما يفيض عن حاجتي مما ادخرت من مرتبات المنحة ومما توفره لنا الجامعة، وليس وراء ذلك إلا الترف. وبالطبع لم أكن صادقاً. ومع ذلك فقد كان يفلح أحياناً كثيرة في دس النقود في جيبي على ما أبديه من صد وتمنع. فيكون شركة بيني وبين زملاء الخيمة.

وقد نزلت مع آخرين في خيمة في مقدمة المعسكر وكان أحد زملائي فيها من قرية «يعبد» من قضاء «جنين». وهي قرية مشهورة بزراعة التبغ الممتاز الذي يمدح بلونه الأشقر بعد تجفيفه وفرمه. وكنا نسميه التبغ العربي مقارنة «بالافرنجي» الذي يأتي جاهزاً في علب السجائر. ويقبل عليه الفلاحون الذين لا يرضون عنه بديلاً، فيجعلون منه في علب من المعدن، مع أوراق اللف الخاصة به، فيلفونه بأيديهم ويلصقون ورقه بريقهم. وهو أرخص من السجائر الجاهزة في العلب المصنعة. وقد كنت مدخناً شرهاً منذ وقت مبكر، وأتذرع بمختلف الأسباب والدواعي للزيادة فيه. فلابد منه مع قهوة الصباح ليعتدل المزاج بعد الاستيقاظ من النوم، ولابد منه قبل النوم حتى لا توقظني الحاجة إليه. ولابد منه مع التوتر والانقباض والخبر المزعج، ولا تكتمل الفرحة إلا به. وهو كذلك المعين على الضجر، وعلى التفكير العميق والدراسة المجهدة والحوار الساخن والتفاعل الاجتماعي. وأكثر ما تكون الحاجة إليه وقت الكتابة! فهل بقي من الحياة حال لا تدعو إلى التدخين! وكنت أدخن سجائر العلب الجاهزة وأتخير أوسطها ثمناً وجودة. فما لي طاقة

مكتبة الربيعي أحمد

بشراء الفاخر منها. وبوسعي في غالب الوقت أن أتجنب أردأها. وكان أوسطها سجائر «كمال». وأحسن منها سجائر «ريم»، تفوقها سجائر «غولد ستار» ، وأعلاها سجائر «فيلادلفيا»، وكلها صناعة محلية أردنية. فإذا ضاق بي الحال تواضعت بالخيار إلى أدناها، وهي سجائر «لولو» التي كان يروج لها في الإذاعة بعبارة «رخيص وكويس وابن ناس». ولا يصح من هذه العبارة إلا صفة «رخيص»! فلا هو «بالكويس» ولا «ابن الناس»! ولكن لا شرط لمن لا يملك ترف الخيار! وفي تلك الأوضاع المادية التي كنا عليها في مخيم الطلبة المؤقت لم يعد عندي ترف اختيار سجائر «لولو» نفسها في وقت صارت فيه الحاجة إلى السيجارة أشد من أي وقت مضى. وأي سبب أدعى إلى التدخين من مرارة الهزيمة وضياع الأوطان والانقطاع عن الأهل وكل ذلك الجدال في تفسير ما كان، وفي اقتراح ما ينبغي أن يكون!! ثم جاءنا الفرج بطريق زميل الخيمة «اليعبدي». فقد استطاع والده أن يرسل إليه مع بعض النازحين من الضفة كيساً كبيراً من التبغ العربي. ولا عجب. فقد كان أهل يعبد الذين يتعيشون من زراعة التبغ قد ألفوا استهلاكه كما ألفوا بيعه، فيرضون لأبنائهم ما يرضونه لأنفسهم، ولا حرج. وارتضى الزميل «اليعبدي» أن يشركنا في غنيمته حباً وكرامة، فكان يلف لي وله مؤونة اليوم.

كنا نقضي جل الوقت في الحديث عن الهزيمة وأسبابها، وعن الحنين إلى الديار التي صارت بعيدة وكانت قبل اليوم قريبة. ولقد يتغنى بعضهم بشيء من «الميجنة» و «العتابة» و «زريف الطول» و «المُعَنّى» فيزيد الحنين ضراماً. أوحقاً لحقت القدس ورام الله وبيت لحم وطولكرم وجنين ونابلس بأخواتها حيفا ويافا وعكا واللد والرملة والمجدل...؟ هل نرى أهلنا يوماً، أم إنه الفراق القسري حتى آخر العمر؟

هيجت الأحزان شاعريتي كما لم تكن من قبل. فكنت إذا جن الليل أخرج من المخيم إلى حيث تنتصب بعض مصابيح الجامعة، فأجلس هناك وأكتب في ضوئها، حتى اجتمعت لدي مجموعة كبيرة من القصائد التي جَبَّتْ ما قبلها من القصائد المكتوبة قبل الهزيمة. فقد تغير الحال، وما كان منسجماً مع الوضع السابق، قد تخطاه الواقع الجديد.

في الخيمة المجاورة لنا، كان يقيم بضعة طلاب، بينهم شاب من مخيم «نور شمس» القريب من طولكرم. وما هي حتى لحظت أن فاجعة الهزيمة قد استولت عليه حتى

مكتبة الربيعي أحمد

ذَهَبت باتزانه، فاضطرب كلامه واختلف سلوكه وزاغت نظراته. فأدركت قبل غيري أن الشاب يوشك أن ينهار عصبياً وأن يفقد رشده. ولكن من حولي طردوا وساوسي، وأحالوا الأمر إلى عظم الصدمة التي لا ينجو من تأثيرها أحد، وإن اختلفوا في الدرجة. وما يلبث الشاب أن يسترجع توازنه ويثوب إلى نفسه.

ولكنه لم يثب، وصحت فيه مخاوفي. فقد صحونا عليه في جوف الليل يصيح بكلام غريب لا ترابط فيه ولا معنى. وعندها تيقن الجميع أن الشاب قد انهارت قواه العقلية، فعملوا ما استطاعوا على تهدئته، ثم إخبار المسؤولين. ونقل إلى مصح للأمراض العقلية، ولم أره بعد ذلك أبداً.

وكان مما سمعته منه وهو يهذي متخبطاً العبارة التالية (مع التفصيح):

- القمر سقط في البئر، ونسوان الحي ينشلنه.

استوقفتني العبارة، ووجدت فيها صورة شعرية فذة، لولا أن سياق الحال والمقال الذي صدرت فيه كان سياق التخليط العقلي. وأعترف الآن أنني سرقت الصورة من صاحبها إذ جعلتها بعد ذلك في إحدى قصائد مجموعتي الشعرية الأولى التي صدرت عن دار الطليعة عام 1969 بعنوان «قصائد في زمن الفتح»، أما القصيدة فهي بعنوان «عن الحب والحزن والأطفال». في سياق الحال والمقال الشعريين اكتسبت الصورة قيمتها الفنية الجمالية الشعرية، وخرجت من اللامعقول في الكلام العادي إلى المعقول الشعري! فالانزياح عن مألوف العلاقات الدلالية بين المفردات في نظم الكلام، هو سمة جوهرية من سمات الأسلوب اللغوي الشعري المفارق، وهو منبع الصورة والاستعارة. ولكن الانزياحات قد تقع في كلام الطفل وفي هذيان من تخبل عقله، فلا يُرَى فيها إلا دليل على غياب المنطق والإدراك السليم. أما في السياق الشعري فيتسم الانزياح بالقصدية وينتظم في سياق بنيوي مترابط، فلا يفارق المألوف الدلالي في الكلام العادي إلا ليحدث عنصر المفاجئة الفنية ويشحن المفردات بدلالات جديدة في الوقت نفسه. على أن بعض ما نقرؤه من الشعر الذي يحب أصحابه أن يدرجوه في «الحداثوية» (ولا أدري لحرف الواو في هذه الكلمة أصلاً من بناء اللغة العربية)، يستتر وراء مفهوم الانزياح هذا، ليقدم لنا كلاماً هو أقرب إلى هذيان المُتَخَبَّلين منه إلى الشعر. فليس أسهل من أن يأتي الإنسان بكلام يفارق

مكتبة الربيعي أحمد

المألوف اللغوي، ولكن يبقى السؤال عن مكانه من بناء القصيدة الكلي وسياقها ومنطقها الداخلي، مما يكشفه التحليل الأسلوبي. وعلى أي حال فقد قيل «الفنون جنون»!

لهذه القصيدة التي أدمجت فيها عبارة صاحبنا المسكين الذي انهارت قواه العقلية تحت وطأة الهزيمة وعواقبها، قصة أستطرد بها هنا.

فقد سافرت إلى بيروت أواخر عام 1968 فيما أذكر أو ربما كان ذلك اوائل عام 1969. وقررت هناك أن أعرض القصيدة على أدونيس لعله ينشرها في مجلة «مواقف» التي كان يصدرها ذلك الحين، وكان تحظى بمنزلة رفيعة في أوساط الكتاب والأدباء والمفكرين والمثقفين. وكان النشر فيها امتيازاً لا تحظى به غير النصوص الإبداعية المتميزة فكراً وأدباً. وكان شعار المجلة الشهرية حرية الفكر والإبداع (أو شيء بهذا المعنى). وبالطبع، لم أكن أعرف أدونيس شخصياً. وكنت ما أزال طالباً في أوائل السنة الثالثة من دراستي الجامعية. وقد ترددت كثيراً قبل أن أمضي إلى مكتبه على غير معرفة سابقة وبلا وسيط يقدمني إليه. وخشيت أن تكون محاولتي ادعاء لمستوى لم أرق إليه بعد، فأكون قد وضعت نفسي في موقف حرج. ولكني تغلبت على ترددي وحيائي أخيراً وذهبت إلى مكتبه فلم أجده. فتركت القصيدة عند بعض العاملين معه ليقدموها إليه، على أن أعود فأقابله في اليوم التالي. ولما عدت للقائه، بادرني بالخروج من مكتبه بحرارة وحماس، ليعبر لي فوراً عن مدى إعجابه بالقصيدة التي قرأها وفوجئ بمستواها، وأنها ستنشر في عدد الشهر التالي. أما عدد الشهر الجاري فقد اكتملت مواده، وأعلنت أسماء كتابه في عدد الشهر الذي سبقه.

وحين صدر عدد الشهر الذي جرى فيه اللقاء، انتشيت أيما انتشاء حين قرأت اسمي بين أسماء الكتاب الذين سوف تنشر نصوصهم في عدد الشهر التالي. وكانت عادة المجلة أن تعلن في آخر صفحات العدد الصادر عن كتاب العدد التالي. «نصي» في مجلة مواقف؟ بدا لي أن قامتي قد استطالت شبراً أو شبرين، أو أن الغيوم قد صارت قريبة من يدي! فلتعرف الفتاة التي كنت أحب، أي فتى حظيت بغرامه!

وانتظرت عدد الشهر التالي على أحر من الجمر. قد أبرقت أولاً وبقي أن تمطر.

ولكنها لم تمطر!

مكتبة الرمحي أحمد

صدر العدد التالي ولم تكن قصيدتي فيه!

ما الذي حدث؟ ولماذا؟ أهو خطأ ما أم ظرف طارئ أجل النشر؟

ولكني لم أجد اسمي بين أسماء كتاب العدد التالي. كيف وقد عبر الرجل عن إعجابه بالقصيدة بغير تحفظ، وأعلن عن نشرها فكان ذلك بمثابة التزام يقتضي الوفاء؟!

لم أحاول الاتصال بالمجلة لأسأل عن السبب. ولكني ما زلت أتساءل حتى اليوم: هل أعاد الرجل قراءة النص فغير رأيه في قيمته، أم بلغه شيء من أمر صاحبه الفكري والعقدي صرفه عن نشر نصه؟! وكان من هذا كثير في زمن الإيديولوجيا الطاردة التي تحاكم الأغنية في ضوء حكمها السابق على المغني. وليس في وسعي الجزم. ولكن الراجح عندي أن غياب القصيدة على ذلك النحو لم يكن بسبب السهو أو الإهمال!

مكتبة الرمحي أحمد **@ktabpdf** *تيليجرام*

مكتبة الرمحي أحمد

زمن المقاومة والأيديولوجيا

(فوق التل .. تحت التل)

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. في معسكر الهامة

فلندع إلى حين جدال المثقفين والكتاب، ولنعد إلى مخيم الطلبة في الجامعة الأردنية عقب هزيمة حزيران 1967. ولنا أن نتأول شعرياً عبارة ذلك الشاب الذي فقد عقله «القمر سقط في قاع البئر، ونسوان الحي ينشلنه». فقد بدا لنا فعلاً أن قمر الأحلام والآمال قد هوى إلى قاع سحيق، ثم بدا لنا أن المقاومة الصاعدة وحدها يمكن أن تنشله وترده إلى السماء!

وإذن، فما الذي يقعدنا في ذلك المخيم المزدحم الكئيب نتجادل في الهزيمة وأسبابها، ثم يحتدم الجدال في «الإيديولوجيات» التي ينبغي أن نتولاها وصولاً للنهوض، فإذا أعيانا الجدال، استدعينا صور الوطن الضائع في موّال بلدي مشبع بالحنين!! لماذا لا نيمّم بدلاً من ذلك شطر المقاومة المقيمة في سوريا ذلك الحين، فنصيب حظاً من التدريب على حرب العصابات، ثم نرى كيف يمكن أن نسهم في حركة المقاومة.

وهكذا تواطأت عصبة منا على هذا الأمر. وكنا زهاء عشرة على الأقل، فيما أذكر. والتقينا شاباً سبقنا إلى تلك الغاية. فعرض أن يقودنا إلى وجهتنا: معسكر الهامة خارج دمشق. وهو معسكر تدريب لحركة فتح. وقررنا أن ندخل الأراضي السورية تسللاً عبر الحدود الأردنية السورية بالقرب من مدينة الرمثا الأردنية الحدودية، فنتجنب نظر السلطات الأمنية الأردنية.

سلكنا طريق مهرّبي البضائع بين البلدين في جوف الليل، حتى وصلنا مدينة درعا السورية الحدودية. ومن هناك تدبرنا أمرنا إلى دمشق. فنزلنا سائر الليلة في فندق رخيص بئيس كل اثنين في غرفة. وقبل أن نستأنف في نهار اليوم التالي إلى معسكر الهامة، التقينا في

مكتبة الرمحي أحمد

الفندق نفسه ملازماً من فتح عرفنا أنه أحد مدرّبي المعسكر. كان شاباً وسيماً شديد التأدب واللطف، هادئ الملامح، قليل الكلام، يكتسي وجهه بابتسامة وادعة. فبدا لنا مقدمة طيبة لما نحن مقبلون عليه.

قبيل العصر كنا قد وصلنا المعسكر، ووجدنا أعداداً كبيرة من المتطوعة الجدد قد سبقونا إلى المكان، فاقتعدنا الأرض بينهم في الفسحة أمام بوابة المعسكر، في انتظار اجراءات التسجيل والدخول والانتظام، وتشمل إجراء مقابلات قصيرة حول الخلفية والعمل والغاية ونحو ذلك. وكان يجلس إلى جانبي شاب نشط كثير الحركة والكلام. فلما تبادلنا الحديث أعلن لي بغير تحرج أنه يأتي للتدريب في المعسكر للمرة الثالثة. وإذ سألته عن الداعي إلى ذلك أجاب ضاحكاً مستخفاً: «أستزيد من التدريب، وأجد طعامي هنا!». شعرت بالصدمة والامتعاض من وجهين. أما الوجه الأول، فهو أن المعسكر يفتقر إلى التنظيم والتدقيق. فكيف يستطيع هذا الشاب أن يعود إلى المعسكر بين أفواج المتدربين مرات دون انتظام والتزام، ودون أن يتبين الأمر للمسؤولين؟ وهل التدريب مفتوح لمن شاء متى شاء دون غاية ولا متابعة؟ وأما الوجه الآخر، فهو اهتزاز الصورة المثالية الرومانسية المرتسمة في الذهن عن المقاومة والمقاومين والفداء والفدائيين، وهي صورة النسك والنقاء الثوريين، حيث لا مكان إلا لمن استدبر لعاعة الدنيا ومنافعها، وحمل دمه على كفه وطلب إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة! وهذا شاب قد وجد في المعسكر وجباته المجانية، وكفى بذلك عنده سبباً لمعاودة التدريب!

لن يطول وقت الصدمة. فما يلبث أحدنا أن يعقلن ما يهز المثال المتخيل، بالهبوط منه إلى الواقع الإنساني. فليست المشكلة في وجود أناس على شاكلة ذلك الشاب في حيّز المقاومة، ولكن المشكلة في افتراض نقائها من أمثاله واشتراط ذلك عليها. فإذا ظهر خلاف ذلك انهارت المصداقية على الجملة. أما التواضع الواقعي في سقف التوقعات ومعيار التقويم والقبول فأحرى به أن ينقذ المشهد والشاهد والمشهود من تداعيات خيبة الأمل. ليس ثمة مجتمع متطهر مهما تكن طهارة قضيته ووضوحها. ولسوف نرى في قابل الأيام ما هو أشد نكيراً من شاب وجد في مجتمع المقاومة فرصته لتناول وجبات مجانية. وسوف نعزّي أنفسنا بأن الثورات العظيمة الماجدة التي أنجزت وعودها لم تبرأ من الوصوليين والمتكسبين والمندسين والمتخاذلين واللصوص والخونة وصراعات المناصب

مكتبة الربيعي أحمد

والمكاسب والزعامات والأجنحة و«الأجندات» الخاصة. فكان عليها أن توزع جهدها بين مواجهة التحديات الداخلية ومواجهة العدو الخارجي، بنفس القدر من العنف أحياناً. ولم يمنعها ذلك من إنجاز النصر. فتلك طبائع الاجتماع البشري مهما يكن نوعه. وسوف نمضي مستقبلاً في التسويغ والاعتذار والتأسي والتعزي على هذا النحو، حتى يكثر الكلام عن التجاوزات، ويقول القائل: ما بال هذه التجاوزات التي تتعذرون بها قد زادت حتى بدت كأنها القاعدة؟ وما حدود التجاوزات المعقولة المنسوبة إلى طبائع الأشياء والثورات؟!

أخيراً فرغنا من إجراءات التسجيل والدخول إلى المعسكر مع دخول الليل. وارتجل كل منا لنفسه اسماً حركياً ينادى به مسبوقاً بلقب الفدائي. ولا أذكر الآن الاسم الحركي الذي اخترته لنفسي. ولكني لم ألبث في قابل الأيام أن انصرفت عنه إلى اسمي الحقيقي بعد انخراطي في التنظيم. وشاء «العريف» المناوب في ليلتنا الأولى أن يشرك بعضنا في نوبات حراسة المعسكر أثناء الليل بعد إرشاد سريع لكيفية استعمال البندقية البلجيكية التي نعرفها لأول مرة. وهي بندقية ثقيلة تحتاج إلى جهد لسحب أقسامها. وكنت بين الذين اختارهم العريف لهذه المهمة على أن أبدأ نوبتي عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل لمدة ساعتين، ثم يعقبني آخر. وحدد موقع حراستي في المعسكر في مكان قريب من بوابته ومن حده مع الشارع الاسفلتي الممتد أدناه. وأدهشتني نبرته العرضية المتعجّلة في التوجيه بالأمر، فقد قال:

- إذا اقترب احدهم من المعسكر فأنذره، فإن لم يستجب فأطلق النار!

هكذا بكل بساطة!

أحمد الله أني لم أتعرض لمثل ذلك الاختبار. فلا أدري ما كان يمكن أن أصنع.

أعطي كل منا غطاءين، يفترش أحدهما على الأرض، ويتغطى بالآخر مدة نومه. وعلى الرغم من أن الصيف لم يكن قد انقضى فقد كان الجو في «الهامة» بارداً في الليل. وهكذا تواطأ برد الليل مع وعورة الأرض تحتي ضد استغراقي في النوم، فلا يكاد يغلب علي النوم والتعب حتى أستفيق. ولبثت أغالب النوم فيغلبني حتى اقترب مني شبح في الليل لا أستبين ملامحه. قال:

مكتبة الرمحي أحمد

- فدائي! انهض. دورك في الحراسة.

وقبل أن أتبين كان قد سلمني بندقيته واختفى في جوف الظلام.

لم أنظر في ساعتي ولم أكن في حال أستطيع معه تقدير الوقت الذي انقضى منذ بدأت في مغالبة نفسي على النوم. فوقفت في مكاني حارساً على وفق الترتيب والتوجيه.

شعرت بإرهاق شديد من قلة النوم وشدة البرد، ولم تكن آثار المشي الطويل عبر الحدود الأردنية السورية قد زايلتني، فزادتني تعباً على تعب. ولكن، ما كل هذا من بلاء الفدائي الذي اكتسبت صفته منذ دخولي المعسكر! فصبراً آل فلسطين، فإن موعدكم القدس! وكان أشد ما أخشاه تلك الساعة أن يقع لي الاختبار المخيف: أن يقترب أحدهم من المعسكر، فيكون علي أن أقوم بالإنذار قبل إطلاق النار!

أرسلت نظري في عتمة الليل بعيداً، فرأيت كوّة مضيئة لأحد البيوت. فذهب خيالي إلى دفء البيت وما فيه من السكينة والطمأنينة. واستدعيت بيتنا في طولكرم التي غدت تحت الاحتلال، وفيها والداي وجل إخوتي الذين حيل بيني وبينهم. وهأنذا الآن أرتجف من البرد واقفاً وقد أخذني الإعياء كل مأخذ، وأحاذر اختبار «الإنذار ثم إطلاق النار». غبطت أهل ذلك البيت البعيد الذي لا أرى منه في جوف الليل إلا الكوة المضيئة، وتصورتهم نائمين في مضاجعهم يحلمون بما يأتي ولا يأتي. فاشتعلت في نفسي نار الأسئلة الوجودية التي لا تليق بالفدائي. لماذا كتب على شعبنا الفلسطيني أن يحرم مما تتمتع به الشعوب الحرة المستقلة وتعتبره أمراً مفروغاً منه؟ لم يكون علينا أن نخجل من مراودة الأحلام الذاتية الصغيرة خشية أن تكون من حساب الأحلام العامة الكبيرة؟ لم يكون علينا أن نمجّد الموت بوصفه سبيل الحياة؟ لم لا نستطيع أن نمجد الحياة إلا باعتبارها مشروعاً مؤجلاً يعترضه الموت الجميل!! لماذا يكون علينا أن نعطي الدم معاني رمزية جميلة تحيل إلى شجرة الحرية والحياة الكريمة التي لا تسقى ولا تنمو إلا بدم الشهداء؟ لم يبقى المنجل معطلاً حتى تسبقه البندقية لتوطئ للأجيال القادمة حمله؟ لم علينا «أن نحيط الحب بالكره وأن نكسو ندى الورد غباراً» كما يقول درويش؟ لم علينا أن نخجل من كتابة شعر غزلي خالص حتى نمزج بين المرأة والوطن فلا يدري القارئ الحدود بينهما؟ لم يكون الشعر الرومانسي عندنا تهمة تصم الشاعر بالانشغال بالذاتي عن الوطن؟ لم ننهمك أكثر من غيرنا في السؤال عن العلاقة المتوازنة المقبولة بين الذاتي والعام؟!

مكتبة الربيعي أحمد

توقف سيل الأسئلة، حين تناهى إلى سمعي صوت شجي يغني:

رِيمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ
لَمّا رَنا حَدَّثَتني النَفسُ قائِلَةً ... يا وَيحَ جَنبِكَ بِالسَهمِ المُصيبِ رُمي
جَحَدتُها وَكَتَمتُ السَهمَ في كَبِدي ... جُرحُ الأَحِبَّةِ عِندي غَيرُ ذي أَلَمِ

كان الصوت يأتي من الشارع الاسفلتي أدنى السفح الذي يقوم عليه المعسكر. وكان يتدانى إلى سمعي رويداً حتى تبين لي أن صاحبه رجل يعبر الشارع ممتطياً حماره. ما الذي أبقاه خارج بيته حتى الساعة من هذا الليل الطويل؟ وعلى الرغم من شجو الصوت فقد كان يخالطه ثقل يشي بأن صاحبه مخمور. ابتسمت متعجباً من المفارقة: رجل مخمور لم يجد ما يستعين به على سرى الليل إلا أن يغني من قصيدة دينية لشوقي صدحت بها أم كلثوم: نهج البردة! وحمدت الله من جديد أنه تابع سيره في الشارع حتى غاب في جوف الليل ولم يعرج على المعسكر ليختبر حزم الفدائي الجديد وقدرته على إطلاق النار إذا أخفق الإنذار! وثمة فرق عظيم بين سهم الحبيب الذي استقر في جنب العاشق فكتمه في كبده حباً وكرامة، وبين رصاصة البندقية البلجيكية الثقيلة المنذورة للعدو!

مر الوقت ثقيلاً كأنه الدهر، حتى أقبل علي شبح في الظلام بخطى سريعة واثقة وصوت حازم عرفت أنه صوت العريف المكلف بتوزيع نوبات الحراسة. قال:

- فدائي! انتهى وقت نوبتك. هات البندقية!

قبل أن أتنفس الصعداء، رأيت العريف يتفرس في وجهي متعجباً. قال:

- أنا لم أسلمك البندقية. فمن فعل؟

لم أفهم مغزى السؤال، حتى أكمل قائلاً:

- متى موعد مناوبتك؟

قلت:

- الثانية بعد منتصف الليل.

قال:

مكتبة الربيعي أحمد

- فالآن هي الثانية!

- ماذا؟ وهذا الذي كنت فيه منذ وقت؟

هز رأسه ونفخ بغيظ، وقال:

- ألم تنظر في ساعتك؟ قد خدعك «السافل». كيف تسلمت منه البندقية؟ كيف فاتك أنني من يستلم البندقية من الفدائي الذي انتهت نوبته، وأنا من يسلمها للتالي؟

عندئذ فقط تبين لي الموقف. كان الذي سلمني البندقية صاحب النوبة السابقة على نوبتي وقد تهرّب من وقت نوبته. وكل الوقت الذي قضيته في الحراسة كان وقت نوبته. والآن فقط يبدأ وقت نوبتي حسب الترتيب المسبق. قلت معتذراً للعريف:

- هذه أول ليلة لي في المعسكر. وإني لأفترض الأمانة وحسن النية والأخلاق في كل من ينزل في هذا المعسكر.. أليس معسكراً للفدائيين؟

قال:

- لا تفترض شيئاً. فليست أصابع يدك على سوية واحدة، وعلى الفدائي أن يكون حذراً متحفزاً أكثر من غيره. وقد يتدفق علينا المتطوعون والمتدربون. ولا نملك جهازاً نكشف به أخلاق الناس. هل تستطيع ان تميز وجهه إذا رأيته؟

- لا، فقد استغفلني على عجل في عتمة الليل، وأدبر بالسرعة التي أقبل بها. ولكن ألا تميّزه أنت؟ ألا تسجلون أسماء المناوبين مع المواقيت؟

قال بضيق وحرج:

- سنفعل من الآن فصاعداً. أعترف أن ثمة فوضى مع تضخم أعداد المقبلين علينا والمهمات. إننا نتعلم من التجارب.

قلت:

- فإن لم يكن. ألم تسلمه البندقية بنفسك كما تقول في بدء نوبته، قبل أن يغرني بها؟

نفخ من جديد:

مكتبة الرمحي أحمد

-كما قلت. تزاحم القادمون، ولا أستطيع تذكر الوجوه جميعاً. ولكني سأحاول. أما والله لو تذكرته لأجعلنه يزحف على ذراعيه المعسكر كله بضع مرات، حتى يتسلخ جلده. ولكن أمرك إلى الله. ليس بوسعنا الآن أن نفعل شيئاً إلا أن تتابع الحراسة في موقعك مدة نوبتك المقررة.

وهكذا كان. ساعتان أخريان من الوقوف والإعياء ورجفة البرد والتساؤلات الوجودية، وصدمة ثانية في أول عهدي بالمقاومة والعمل الفدائي!

لم تطل دورتنا التدريبية غير بضعة أيام. إذ لم تكن غير دورة ابتدائية. فمن شاء بعد ذلك أن ينخرط في العمل العسكري مع جناح «العاصفة»، دخل في دورات تدريبية أطول وأصعب. ومع ذلك ركضنا وقفزنا وزحفنا وتسلقنا، وغنينا مع العريف المدرب:

فوق التل
تحت التل
اسأل عنا الريح تندل.

وتدربنا على أنواع جديدة من البنادق أزرت بالبنادق الإنجليزية القديمة التي لم نعرف غيرها من قبل. وصارت أسماء البنادق الرشاشة الجديدة علامة على عهد جديد من المقاومة: السموبال، تومسون، كارلو بور سعيد، وأفضلها تلك البندقية السحرية التي سترتبط بالحركات الثورية في العالم كله: الكلاشنكوف بنوعيها: ذات «الأخمص» الخشبي الثابت، وذات «الأخمص» المعدني القابل للطي، وهي المفضلة عندنا. ولسوف نبالغ في استعراض خبرتنا بتلك الأسلحة فنصف آلية عملها وميزاتها ونقاط ضعفها، ونقارن بينها ونسمي أقسامها بأسمائها، لمن لا شأن له بها ولا يعنيه أمرها ولا ينفعه العلم بها، ولا يضره الجهل بها. فالإنسان صانع الرموز، بها يمثل نفسه وعالمه، وبها يتجاوز بالأشياء المادية وظائفها الأصلية إلى معانٍ أخرى. فالثياب التي تسترنا وتقينا عوامل الطبيعة، تصبح رموزاً دالة على خلفياتنا الاجتماعية والطبقية والثقافية والجمالية وحتى العقدية. والسلاح الذي لا يراد به إلا الدفع ومناجزة العدو، ما يلبث أن ينضاف إلى رموز الذكورة والرجولة، وحتى التجمل للأنثى!

مكتبة الرمحي أحمد

ولن يبرأ بعض الأدباء في ذلك الوقت من الاستعراض الفج لأسماء البنادق الجديدة في نصوصهم لتحظى بختم أدب المقاومة! على أن الإسراف والتكرار كفيلان باستهلاك نفسهما وموضوعهما، حتى يكتسبا سمة هزلية تدعو إلى تجنب الاستعمال حتى مع وجود المسوغ.

كان طعام المعسكر الرديء أشد علي وعلى بعضنا من الركض الطويل والتسلق والزحف في المخاضات. فعجبت من ذلك الشاب الذي يتكلف جهد التدريب المكرور من أجل وجبة «بامية» رأيت طباخ المعسكر يفتح حباتها ويزيل منها الدود قبل أن يلقي بها بالقدر. ولم يكن في وسعك أن تعتذر عن تناول الوجبة امتعاضاً من القذارة والطعم. فلا يليق ذلك بخشونة الفدائي الذي قد تلجئه الضرورة إلى ما هو أغلظ من هذا. فإذا رأى العريف سلوكا كهذا، أضاف إلى صحيفة الطعام بعض التراب، ثم ألزم «الفدائي» بتناولها، فإن أبى أرهقه بعقوبة الزحف.

وقد رآني الملازم الوسيم اللطيف المتأدب الذي التقيناه بالفندق ليلة وصولنا إلى دمشق، أنظر في صحن «البامية» ذاك ولا أسيغ تناوله. فأدرك ما أنا فيه من الرغبة في التخلص منه. فابتسم بوداعة وأعانني على غرضي دون أن يتنبه أحد. فزدت به إعجاباً.

أما الطباخ «أبو محمد»، فكان طريفاً مسلياً لا يتوقف عن الكلام وقص نوادره وبطولاته. ولم يكن ليقتصد في المبالغات ليقنع السامع بصدق الرواية. ومع ذلك لن يصرفنا الشك في صدقه عن الاستماع إليه، والتسلي بقصص مغامراته وعنترياته. فقد كانت موهبته في القص وخلق عناصر الإثارة والتشويق والمفاجأة أعظم من موهبته في الطبخ. وما لا يدركه الفعل ربما أدركته المخيلة الخصبة!

في إحدى الليالي زارنا «أبو اللطف» -فاروق القدومي- لجلسة في التوجيه السياسي. وقد شعرنا أن حضوره امتياز خاص نستطيع أن نضيفه إلى تجاربنا الفذة. فها نحن نجلس وجهاً لوجه مع أحد مؤسسي «فتح» وعضو في لجنتها المركزية. وكان وهج المقاومة قد ألقى على قيادة فتح هالة من الضوء في خيالنا. وبدأنا نردد أسماء القادة المؤسسين في مجالسنا وأحاديثنا وعلى رأسهم «الختيار» أبو عمار. أما من ظفر برؤية أحدهم واستمع منه فقد ظفر بمأثرة يستطيع أن يدل بها ويوهم الآخرين أن له قدما وسابقة في

مكتبة الربيعي أحمد

المقاومة المقدسة! فإن قال: كنت في جلسة مع «الختيار» أو صلاح خلف (أبو إياد)، أو أبو اللطف، وقال كذا وكذا، فما كذب! إلا أنه أغفل القول أنه كان في لقاء عام، وأنه كان في جمهور الحاضرين الذين لا يعرف القائد أسماءهم ولن يذكر وجوههم فرادى بعد خروجه! فإن لم يكن ذلك ضرباً من الكذب المباشر، فهو ضرب من التدليس والإيهام، وهو كثير في الناس.

تحدث «أبو اللطف» عن منطلقات الحركة وأهدافها وبرنامجها ووسائلها مؤكداً أن حرب التحرير الشعبية استراتيجية «لا تكتيك»، وأن هدفها النهائي تحرير كامل التراب الفلسطيني لا الأراضي المحتلة في حرب حزيران فقط، ولا إزالة آثار العدوان كما يدور الآن في الإعلام الرسمي العربي. فالحركة انطلقت قبل حزيران 1967 بعامين، ولم تغير هزيمة حزيران أهدافها. وقد آن للشعب الفلسطيني أن يمسك زمام المبادرة ويتقدم الجميع في حرب التحرير كي لا تتصرف الأنظمة الرسمية بقضيته الوطنية بعد أن ثبت عجزها وإخفاقها. على أن هذا لا يعني أن الشعب الفلسطيني وحده قادر على تحرير فلسطين من النهر إلى البحر بدون عمقه الشعبي العربي. فالمقاومة الفلسطينية هي بمثابة رأس الحربة، أما جسم الرمح فالأمة العربية. وهذا يقتضي العمل على تحشيد الشعوب العربية وراء الثورة ومعها. وبقدر ما تنجح المقاومة في تحقيق انتصارات ميدانية تنجح في توسيع قاعدتها الشعبية العربية في اتجاه فلسطين، وهذا بدوره يدفع إلى إحداث تغييرات ثورية جذرية في النظام السياسي العربي. وكل ذلك يعبر عن الارتباط العضوي بين مشروع التحرير ومشروع النهوض العربي والتغيير الثوري، بحكم الضرورة الموضوعية وطبيعة المشروع الصهيوني ووظائفه في المنطقة العربية وكالة عن القوى الإمبريالية المتحكمة.

كلام جميل مقنع. ولكننا سوف نكتشف في قابل الأيام أن تطبيقه العملي أكثر صعوبة وتعقيداً مما كنا نظن. وسوف تخفق المقاومة في تجسيده وترجمته لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية. وبدلاً من أن تكون محرك التغيير في النظام العربي، سوف تنتهي إلى الاندماج به، وما كانت تخشاه من تصرف الأنظمة العربية بالقضية الفلسطينية على حساب هدف التحرير الشامل، سوف تمارسه بنفسها تحت شعار «القرار الفلسطيني المستقل». وكأن استقلال القرار الفلسطيني -بافتراض تحققه فعلاً- يعفي من السؤال عن محتوى هذا القرار ونتائجه قياساً بالأهداف الوطنية الفلسطينية التي انطلقت المقاومة بدءاً من أجل تحقيقها!

مكتبة الربيعي أحمد

قبل أن نغادر المعسكر، جلست مع أحد المسؤولين السياسيين الذي سجل بعض المعلومات عني وعن مكان إقامتي ليصار إلى الاتصال بي لاحقاً في عمان من أجل ترتيبات العمل التنظيمي، بخاصة في الوسط الطلابي.

لاحقتني صدمات معسكر «الهامة» بعد عودتي إلى عمان وانتظامي في الدراسة الجامعية من جديد. كان أولها قصف الطائرات الحربية الإسرائيلية للمعسكر. أما أشده وقعاً فكان خبراً يتعلق بذلك الملازم اللطيف الوديع الذي كان أول من لقينا في ذلك الفندق البئيس في دمشق، ثم كان من لطفه وتفهمه أن ورّى عني حين تخلصت من صحن البامية في المعسكر، قتل الشاب! ولكنه لم يقتل في الغارة الإسرائيلية على معسكر «الهامة». ولا في عملية فدائية. إنما نفذ فيه حكم الإعدام بعد أن ثبت تورطه في التجسس للعدو!

فيا لله كم تخدع المظاهر! وكم يتقمص الشيطان وجهاً وسيماً وديعاً!

لم أتلق الخبر من مصدر رسمي مسؤول في الحركة. وإنما رواه لي بعض المنتسبين. وما أزال حتى الآن أمني النفس وأتعلل بالآمال: لعل الخبر لم يكن صحيحا، أو أنه قد التبس على ناقله فخلط بين الأشخاص فلم نكن نتحدث عن الشخص نفسه، وأن ذلك الملازم ما يزال يعيش في مكان ما مخلصاً لقضيته، أو أنه استشهد في سبيلها. وما عندي وسيلة لقطع الشك باليقين، وقد تباعد ما بيني وبين ذلك الزمان، ولم أمسك اسمه في ذاكرتي حتى في ذلك الوقت البعيد، وإنما كنت أعرفه بالصفة والزمان والمكان. فإذا كان قد وقع الوهم في شأنه، فليت في وسعي أن أحرر ذاكرتي من بقعة معتمة، ربما وقعت هناك بطريق الخطأ البشري الخالص.. وهو كثير في رواية الأخبار! على أني أدرك أن هذا ضرب من المستحيل.

2. متاهات الأيديولوجيا: الفصائل والقبائل

مضى على عودتي من دورة التدريب تلك بضعة شهور، وكنت في سنتي الجامعية الثانية، حين جاءني زائر مجهول إلى سكني الجامعي. عرف نفسه بأنه المهندس عبد الفتاح من حركة فتح وأنه جاء ليتابع معي ما تم الإتفاق عليه في معسكر «الهامة» من أمر تأسيس التنظيم الطلابي التابع للحركة. وعلمت منه أن الحركة قد بدأت تعمل على نقل قيادتها ومؤسساتها إلى الأردن. كان الرجل جمّ التأدب، قليل الكلام، شديد التواضع. فلم يعلن

مكتبة الربيعي أحمد

عن مركزه القيادي في الحركة. وما كنت أعرفه ولا سمعت باسمه حتى ذلك الحين في قيادات فتح. وأدهشني أن أعلم بعد ذلك أنه عضو مؤسس في اللجنة المركزية للحركة إلى جانب قادتها التاريخيين.

كان هذا لقاءنا الوحيد. فقد صار اتصالي بغيره. وبعد الكثير من مشكلات التواصل والتنسيق وتقاطع الجهود والمرجعيات التنظيمية، تمكنت مع نخبة من الإخوة من بناء قيادة التنظيم الطلابي وقواعده في الجامعة الأردنية، فضلاً عن مؤسسات التعليم العام. واختارتني لجنة القيادة الطلابية رئيساً لها، ولم نجد صعوبة في اجتذاب الطلبة إلى الانتماء إلى الحركة، بل كانت الصعوبة في الانتقاء والاستيعاب. فقد صار لكلمات المقاومة والعمل الفدائي وحركة فتح والعاصفة جاذبية سحرية، وصار الانتماء إليها امتيازاً معنوياً يسعى إليه الكثيرون بلا تردد، وفي هذه الأثناء كانت قيادة فتح ومؤسساتها تزحف إلى داخل الأردن بدون إعلان.

مضى على لقائي الوحيد بالمهندس عبد الفتاح بضعة شهور. وكنت في قاعة المحاضرة في درس لعمي محمود ابراهيم، حين طرق الباب طرقاً خفيفاً قبل أن يفتح ويظهر عنده أحد مسؤولي فتح ممن كان لي صلة بهم. فاستأذن في أن يراني على انفراد للضرورة. وأمام باب القاعة أخبرني أن المهندس عبد الفتاح قد توفي في حادث سيارة وأن صلاة الجنازة ستكون في جامع الحسين الكبير في وسط عمان، حيث يجتمع هناك كل قادة فتح الذين صاروا في الأردن وعلى رأسهم «الختيار» أبو عمار، ومن هناك ينطلق الحشد برمته لتشييع الجنازة إلى المقبرة في السيارات مع إظهار السلاح، لتكون المناسبة إعلاناً بانتقال قيادة المقاومة وقواعدها الرئيسة إلى الأردن. وطلب مني أن أخرج من الساعة إلى الجامع لهذه الغاية.

عدت إلى قاعة الدرس واستأذنت عمي محمود ابراهيم في المغادرة، ولم أفصل له في السبب. فأذن وقد بدا على وجهه الامتعاض. ثم عذرني لاحقاً حين علم السبب. وبدا فخوراً.

منذ تلك الواقعة وحتى خروج المقاومة من الأردن إلى لبنان بعيد أيلول الأسود عام 1970، لم يعد المشهد العام في الأردن كما كان من قبل. فقد انتشرت مظاهر المقاومة

مكتبة الربيعي أحمد

والسلاح في كل مكان، واتسعت القواعد التنظيمية على نحو متسارع، وتوالدت الفصائل وتزاحمت وإن بقيت فتح الحركة الرئيسة، وتطورت مؤسسات المقاومة وتفرعت وتضخمت لتدير جملة الأنشطة العسكرية والتنظيمية والسياسية والإعلامية والثقافية والمالية والأمنية وحتى القضائية! وما هي حتى استحوذت فتح والفصائل الأخرى على منظمة التحرير الفلسطينية لتكون الإطار الجامع لمكونات الحركة الوطنية والمقاومة.

وبوصفي رئيساً للتنظيم الطلابي، صرت عضواً في لجنة قيادة عمان التي تولى رئاستها سميح أبو كويك المعروف بلقب «قدري»، وكان عضواً في لجنة قيادة الإقليم. ثم أضيف إلى مهماتي عضوية لجنة التعبئة والتنظيم، كما أسندت إلي مهمة التوجيه السياسي فيما سمي المنطقة الوسطى التي تشمل السلط والبقعة وصويلح. ثم أضفنا إلى ذلك كله «اتحاد طلبة الضفتين» الذي توليت رئاسته كذلك، ولم تقتصر عضويته على المنتمين إلى فتح أو غيرها من فصائل المقاومة. وقبل ذلك أنشأنا مجلساً مشتركاً لقيادات التنظيمات الطلابية التابعة للفصائل المختلفة برئاستي أيضا تحت مظلة الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية، وبذلك صار لي ارتباط مباشر برئيس الدائرة: فاروق القدومي الذي أعلمني فيما بعد برغبته في استحداث قسم للإشراف على تنظيمات الطلبة الفلسطينين في مختلف دول العالم مستقبلاً على أن أتولى المسؤولية عنه كذلك. ولكني سأترك «فتح» قبل أن يحدث ذلك.

كانت معركة الكرامة فيصلاً في اتساع قواعد المقاومة ومؤسساتها، إذ أقبل عليها الناس زرافات ووحدانا. فليس كالانتصارات والإنجازات الميدانية وسيلة للإقناع والتحشيد والتعبئة. وكانت المعركة تجلياً أسمى للتضامن بين الجيش الأردني والمقاومة، قبل أن يفسده النزاع بينهما حتى الصدام، فيما بعد. فيُغَيّبُ كلا الطرفين دور الآخر في انتصار الكرامة، أو يهمشه على الأقل. وهو شاهد آخر على دور النزاعات والصراعات في تحريف رواية التاريخ، أو تنازع الروايات. والحقيقة التي لا مراء فيها أن كلا الطرفين قد أبلى بلاءً حسناً بوسائله وطرائقه. ولا ينبغي لجهد أي من الطرفين أن ينتقص من الآخر. ففي منازل المجد متسع للجميع، كما في منازل الخيبة والخمول والهزيمة!

تضخم أعداد المنتمين إلى التنظيم، على ما يمثله من نجاح ومكاسب، يحمل معه تحدياته ومسؤولياته وضرائبه الباهظة. فلقد تقصّر المؤسسات القيادية عن مواكبة التوسع

مكتبة الربيعي أحمد

بالضبط والربط والسيطرة والتأهيل السياسي والسلوكي وفرز الغثاء والزبد. فتكثر الأعشاب الضارة، ويصبح الكم على حساب النوع!

وهكذا يبدأ الحديث عن التجاوزات التي تزيد ولا تنقص، ويجتهد البعض في التماس المعاذير والتعلات والتفسيرات والتأويلات التي يذهب بعضها إلى طبائع الاجتماع البشري، وبعضها إلى طبائع الثورات الشعبية، وبعضها إلى حدود القدرة البشرية. وبعضها إلى عامل الوقت الذي من شأنه أن يهذب ويشذب ويميز الخبيث من الطيب، حتى يذهب الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الناس! فإذا انقطعت سبل التسويغ والتفسير، سمعت من يقول: إن الأضرار التي يمكن أن تترتب على محاولة التطهير الحازم يمكن أن ترجح المنافع، وقد تفضي إلى صدامات وانقسامات وانشقاقات مهلكة تصب في مخططات القوى المضادة التي تتربص بالجميع الدوائر، فإذا أكل الثور الأسود فلربما صار الثور الأبيض مكشوفاً لمصير مماثل، ولات حين مندم!

لقد صارت تلك الفترة من تاريخ المقاومة جزءاً من الماضي، وإن بقيت آثارها حتى الآن. ومن شأن التاريخ ألا يتمثل بواقعه الموضوعي مستقلاً عن الوعي الذاتي ونشاطه التأويلي المحكوم بالتحيزات الفكرية والسياسية والعقدية. فيصبح روايات متدافعة في فضاء تحبكه علاقات القوة. ولقد تتغير تلك التحيزات والعلاقات، فتتغير معها الروايات بأثر رجعي. ولقد أمرنا بأن لا نكتم الشهادة، (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه)، وحسب الشاهد أن يتوخى النزاهة والصدق ما استطاع ، دون أن يزعم أن روايته تنفرد عن سائر الروايات في مطابقة الواقع الموضوعي، فترتد إلى ادعاءات احتكار الحقيقة ووصم الآخرين بالوعي الزائف!

ومن المفارقات في هذا السياق أن أصحاب القرار في الصدامات الدامية قد يكونون أسرع من قواعدهم وجماهيرهم في التصالح واستدبار الماضي، بل حتى التوافق والتحالف، مع تغير الظروف والمواقف السياسية، بينما تستقر الآثار والتداعيات في الذاكرة الشعبية، وتخرج من الاعتبار السياسي الظرفي المتغير إلى الاعتبارات النفسية والاجتماعية والثقافية، ومنها إلى تدافع الهويات! فها هي «أوسلو» أخت «وادي عربة». وها هو مشهد المصافحة الشهير بين ياسر عرفات وإسحق رابين في حديقة البيت الأبيض، يشهد عليه مباركاً الملك حسين. فأين هذا المشهد من مشهد الصدام القديم بين

مكتبة الربيعي أحمد

المقاومة التي تقدم نفسها طليعة للتحرر والتغيير، والنظام الأردني المتهم بالتواطؤ على تصفية المقاومة وأهدافها! فإن كانت تلك هي المآلات، فلماذا تحمّل الجميع التكاليف الباهظة لتلك البدايات المغايرة؟! ورب قائل يقول: ما أوصلنا إلى تلك المآلات إلا التواطؤ الدولي والإقليمي لإجهاض المقاومة حتى لو برئت من الأخطاء الفادحة والتجاوزات. ورب قائل آخر يرد: أفما كان هذا جزءاً من طبيعة الصراع؟ وهل ظننتم في أي وقت أن تكف القوى الدولية والإقليمية المضادة أيديها عنكم حتى توغلوا في طريق التحرير والتغيير معاً؟! وأي نظام عربي رسمي سيرضى أن تسحبوا البساط الشعبي من تحت قدمية دون أن يقاتل عن نفسه، أو يرضى طوعاً باحتمال تكاليف ردود الفعل الإسرائيلية والدولية لتمدد المقاومة في بلده وانطلاقها منه؟!

بلى، كان من طبيعة الصراع أن تتواطأ القوى الإقليمية والدولية على ثورة شعبية تتناقض بالضرورة مع النظام الرسمي العربي تناقضها مع إسرائيل والقوى الدولية التي تقف ورائها. ولكن ذلك لا يعفي من المسؤولية عن الإخفاق في إدارة الصراع وفق ضروراته وحساباته، وعن الأخطاء والتناقضات الفادحة التس سهلت مهمة القوى المضادة، وأتاحت لها استعداء شطر من الشارع الشعبي على المقاومة، ليأخذ الصراع شكل حرب أهلية، وتلك لعمر الله قاصمة الظهر! ثم إذا فقدت المقاومة خيمتها الأخيرة في لبنان، بدأت مرحلة جديدة من المراجعة والحكمة المتأخرة. أما بعضهم فاكتفى برثاء البطل التراجيدي النبيل الذي تحالفت عليه ظروف قاهرة لا قبل له بها، فرضي مرغماً «بالهم وإن لم يرض الهم به». واستعار البعض قصة يوسف الصديق التي تواطأ إخوته عليه دون أن يسعه التبشير بخواتيم القصة. فلا أحد عشر كوكباً ولا واحد وعشرين سوف يسجدون ويستغفرون في القصة الجديدة! إنما هو يوسف الفلسطيني الذي يعتذر الآن عن حلم جميل ظنه رؤيا حق كفلق الصبح، ليكتشف أنه لم يكن قابلاً للتحقيق في ظل الظروف المعقدة للقضية الفلسطينية في المرحلة الحاضرة على الأقل. فإن كان لابد من الحفاظ على الحلم الفلسطيني القديم، فلا مفر من ترحيله إلى مستقبل غير منظور، أما الآن فساعة مواجهة الحقيقة واللجوء إلى العقلانية والواقعية السياسية لإنقاذ ما يكفي إنقاذه! أما الحقيقة كما يروج لها الفرسان المترجلون ومعلمو الحكمة المتأخرة، فهي أننا كنا مخطئين حين ظننا أننا نستطيع أن نحقق أهدافنا خارج النظام الدولي كما تصنع الثورات في العادة،

مكتبة الربيعي أحمد

وأن القياس بالثورات الفيتنامية والجزائرية والكوبية كان قياساً مغلوطاً. فلا معدى إذن عن الاحتكام إلى النظام الدولي ومحاولة الاندماج به على وفق شروطه ومحدداته. وبالضرورة كان هذا إقراراً بسقوط استراتيجية الكفاح المسلح والمقاومة، على الرغم من كل التأويلات المراوغة. ولن يجد رئيس السلطة الفلسطينية (أبو مازن) حرجاً، بعد زهاء عشرين سنة على بدء العملية السياسية الفاشلة، من أن يصرح على شاشة التلفاز أن المقاومة لم تعد خياراً وأنه لا جدوى منها، حتى مع انسداد الأفق السياسي!

(الحرب لم تعد خياراً) هكذا تكلم النظام العربي الرسمي.

(المقاومة لم تعد خياراً) هكذا تكلمت السلطة الفلسطينية.

هذا التوافق، هو أبلغ تعبير عن اندماج الحركة الفلسطينية بالنظام الرسمي العربي الذي بشرت قديماً بأنها ستكون الطليعة المحركة لتغييره من خلال تعبئة القواعد الشعبية العربية حول القضية المركزية: قضية فلسطين! فما أبعد اليوم من البارحة!

هل كان هذا التحول انقلاباً مفاجئاً أملته المتغيرات السريعة في موازين القوى الإقليمية والدولية؟ أم كان عملية متدرجة أسهمت فيها العوامل الذاتية إسهام العوامل الخارجية؟ أزعم أن المقاومة منذ سنواتها الأولى بعد عام 1967، كانت ما سوف تكون! فبدلاً من أن تتجاوز التناقضات العربية كما ينبغي لثورة شعبية تبشر بواقع جديد، ما لبثت أن بدأت في إعادة إنتاج الواقع العربي بكل تناقضاته ومشكلاته على الصعد السياسية والفكرية والاجتماعية، ومن ذلك:

- الاستبداد والتسلط على مستوى القيادة.

- والصراعات الداخلية على المراكز والمواقع، ولعبة الاستقطاب والتجاذبات بين التيارات ومراكز القوى المختلفة، ومقايضة المواقف بالمكاسب!

- والروح الفئوية والعصبوية، التي يصبح معها الانتماء إلى التنظيم أشبه بالانتماء إلى القبيلة التي إن غوت غوى الفرد فيها، وإن رشدت رشد! وما هي حتى يغفل الفرد عن حقيقة أن الحركة وسيلة جمعية لتحقيق أهداف عامة هي أصل شرعيتها، فتصبح الحركة غاية في ذاتها ويصير مجرد الانتماء إليها علامة النجاة والخلاص، كشأن الفرقة الناجية.

مكتبة الربيعي أحمد

وهذا يفسر لماذا يستمر الانتماء للعشيرة الحركية حتى بعد أن ترتد على استراتيجياتها وأهدافها الأولى، وربما مرجعها العقدي. وأذكر هنا أن هاني الحسن قد تحدث في هذا الأمر في لقاء معه عام 1968، حين عاب على أغنية ثورية ذائعة في ذلك الحين يقول أحد أبياتها: (أنا ابن فتح ما هتفت لغيرها.....) فأشار إلى المغزى الفئوي في العبارة وعبر عن خشيته من أن يزاحم الولاء للحركة الولاء الوطني لفلسطين والأهداف التي قامت الحركة من أجلها. ولقد كان محقاً!

والروح الفئوية المستفحلة لابد أن تفضي إلى نزاعات فئوية تشغل عن الهدف الوطني الكبير. وكان من ذلك ما لا يمكن إنكاره.

-يضاف إلى ذلك اختراق الأنظمة العربية ساحة المقاومة، إما من خلال منظمات وفصائل تابعة لها، وإما من خلال أجنحة وتيارات وقوى داخلية في الحركة نفسها. وهو ما نقل شطراً من تناقضات الواقع العربي السياسي الرسمي إلى حيز المقاومة. وتناقضات الأنظمة العربية ليست بمنأى عن تناقضات القوى الدولية.

وإذ لم يكن بوسع المقاومة أن تتحرك في فضائها المستقل عن الظروف الموضوعية السياسية المحيطة بكل تناقضاتها وتجاذباتها، فقد طوّر «الختيار» مهارات خاصة في القفز عن حبال التناقضات، والتنقل بين الرمال المتحركة، حتى صار مضرب المثل في هذه اللعبة. فولّى لكل وجهة سياسية سفيرها المقبول حسب خلفيته الفكرية السياسية: فهذا اليساري رجله عند موسكو، وهذا البعثي السابق رجله عند سوريا، أو عند العراق، وهذا الناصري الهوى رجله عند عبد الناصر، وهذا المصنف في اليمين سفيره عند السعودية. ولم يعدم من يسفر له عند الغرب الرأسمالي الامبريالي!، لنعلم بعد حين أن ثمّة من تولى له فتح خطوط مع العدو الإسرائيلي نفسه منذ وقت مبكر في سبعينيات القرن الماضي!

وتلكم مهارة ملتبسة، سوف يبقى الناس مختلفين في تقويمها ووصفها. فمن قائل: هي ذكاء ودهاء سياسيان، أملتهما الحاجة إلى جميع الأطراف المتناقضة والخشية منها جميعاً في الوقت نفسه، ومن قائل: هي لعبة تذاكٍ خطيرة، لا تلبث أن يذهب سحرها، وتنتهي بانهيار ثقة الأطراف المختلفة بصاحبها! فمن يطلب أن يكسب الجميع، على ما بينهم من تناقض، ينتهي بأن يخسر الجميع!

مكتبة الربيعي أحمد

وقد صارت تلك الصفة في «الختيار» مصدراً للطرائف والنكات التي يلتبس فيها معنى الإعجاب بمعنى النقد. فمن ذلك أن الرجل كان يؤدي مناسك الحج، فلما بلغ الجمرات ليرمي الحصى تبرؤا من الشيطان، رفع يده بالحصاة، ثم أمسك وتوقف. فسئل في ذلك، فأجاب بلكنته المشوبة باللهجة المصرية: (أصلي ما بحبش أقطع حبالي مع حد)!

وبالفعل، استطاع الرجل بعد حين أن يصل حباله مع الشيطان الإسرائيلي من أجل موطئ قدم في الفردوس الفلسطيني (!!). وقد كان له من ذلك موطئ قدم حقاً. ولكن في جحيم الحصار الإسرائيلي لمقره في رام الله الذي انتهى باغتياله مسموماً على الأرجح. ولعل اغتياله بتدبير الشيطان الصهيوني نفسه الذي لا يعد إلا غرورا، أن يبرئه من وصمة فاوست!

بلى، كانت المقاومة ما سوف تكون منذ سنواتها الأولى بعد عام 1967، وإن ظلّت أعراض السقم تتوارى إلى حين خلف نبل القضية ودم الشهداء وحلم الشعراء ووعود الثورة العالمية وحركات التمرد التي طبعت عقد الستينات مباشرة بعالم جديد شجاع. وقد ذكرت بعض الأعراض، وتركت بعضها. ولكني لن أترك الحديث عن عرض آخر لا يقال فيه الكثير في العادة، وإن كان ظاهرة عربية عامة ما زالت حتى الآن تسهم في تغريب القواعد الشعبية عن النخب السياسية المنظمة، وإن ظننا إلى حين أنها انحسرت منذ أواخر الثمانينات بعد أن بلغت ذروتها في عقد الستينات الذي يصح في وصفه أنه عصر «الأيديولوجيا».

نعم إنه خلل التعامل العصبوي المغلق النزق مع الإيديولوجيا، أو(الدوغما) الإيديولوجية. والحال أن مصطلح «الإيديولوجيا» المعرّب مايزال ملتبساً في الاستعمال. ويساق في الغالب على نحو يرادف معنى العقيدة السياسية، أو المرجع العقدي الذي يستهدي به صاحبه في قراءة الواقع والتاريخ وتفسير حركتهما، ومن ثم في وضع الاستراتيجيات والسياسات المختلفة للتعامل مع الواقع. فثمة إيدولوجيا ماركسية، وأخرى قومية، وثالثة إسلامية، ورابعة ليبرالية، وهكذا. وربما خرج البعض بتوليفة تجمع بين جوانب من عقيدة وأخرى. على أن أصل المصطلح قد تولّد في الفكر الماركسي المادي

مكتبة الربيعي أحمد

ليشير إلى الأنماط الفكرية العقدية التي تنتجها الطبقات المستغلة المهيمنة لتمويه الواقع القائم وتزييف الوعي وتضليل الجماهير وصرفها عن الوعي بطبيعة العلاقات الطبقية التي تستلبها حقوقها. فالإيديولوجيا بهذا التعريف هي نقيض الفكر المطابق للواقع الموضوعي المادي الذي هو حصراً: الفكر الماركسي. ولذا فإن أي ماركسي حقيقي سيرفض أن توصف عقيدته بالإيديولوجيا التي يراها على النقيض من فكره المادي العلمي. وبهذا التعريف الماركسي ثمة نسب اشتقاقي ودلالي بين الأيديولوجيا Ideology والفكر المثالي Idealism، فكلاهما من جذر واحد: ideas، أي الأفكار، فيحيل مصطلح Idealism إلى الفلسفات المثالية التي ترى النشاط الفكري مستقلاً عن الواقع المحسوس وسابقاً عليه ومتجاوزاً له، بخلاف ما تقول به الفلسفات المادية، ويحيل مصطلح الأيديولوجيا Ideology إلى العقائد الفكرية التي تحرّف صورة الواقع في الوعي لتصرف عن تغييره.

على أن الذي غلب في الاستعمال العربي الدارج ذلك المعنى العام الذي ذكرناه آنفاً، فلم يميز بين الماركسية وغيرها في وصف الإيديولوجيا. وربما اكتفى البعض بالتمييز بينها بصفة لاحقة تعظّم أو تبخّس، فهذه إيدولوجيا تقدمية، وتلك رجعية، وتلك فاشية، وقس على ذلك.

على أنه حين ضاق البعض بالصراعات الإيديولوجية في عقد الستينات وهيمنة اللغة الإيديولوجية على الجدال الفكري والسياسي، ألقوا عليها جميعاً معنى التعصب والتحيز العقديين بما يفضي إلى أحكام نظرية مسبقة تكيّف صورة الواقع وتشكلها على نحو تعسّفي انتصاراً للمرجع الإيديولوجي على حساب الواقع نفسه. ومن هنا دار جدال آخر حول السؤال التالي: هل يمكن أن يبرأ أي نص أو خطاب أو موقف فكري وسياسي من التحيزات الإيديولوجية سواء أكانت معلنة أم مضمرة؟ ثم خلص البعض إلى أن رفض التدخل الإيديولوجي في النص هو موقف إيدولوجي في ذاته! فلا فكاك من الإيديولوجيا وإن ظن الفرد أنه بريء من توجيهاتها. إذ إن محتوى الوعي يتوسّط بين الواقع وتمثيله الفكري وتصوره الذهني، فيؤول الإنسان الواقع على وفق نظم المعاني المستقرة في وعيه. وهذا بالفعل، أقرب إلى طبيعة الشرط الإنساني كما ستبرز الفلسفة الظاهراتية Phenomenology التي سوف تمتد إلى العقل الثقافي المعاصر متأخراً منذ

مكتبة الربيعي أحمد

أواخر الثمانينات، باسمها المباشر أو ببعض تجلياتها. ولكنها سوف تتجنب مفهوم الإيديولوجيا بكل التباساته وظلاله السيئة في الاستعمال العام. فليس ثمة وعي زائف وآخر مطابق للواقع الموضوعي المستقل عن الوعي. فادعاء المطابقة وصفة الإقصاء والزعم باحتكار الحقيقة المطلقة. وإنما الحقائق نسبية اجتهادية، نقارب بها بقدر المستطاع، وبما هي كذلك فإنها ليست ثابتة ساكنة. والثابت الوحيد فيها تدافعها في مسرح الحياة الاجتماعية، ومن شأن التدافع أن يسهم في التطوير الديناميكي للفكر والواقع معاً. وهنا تسقط ثنائية الواقع والتمثيل الفكري الذهني له. فالتمثيل هو الواقع ذاته، وهو موضوع الصراع ومسرحه، والواقع ليس معطى خارجياً ثابتاً مستقلاً عن نشاط الأفراد الفكري والعملي، وإنما نحن من نشيد الواقع ونعيد إنتاجه في كل آن، على وفق نظم المعاني المشتركة من جهة، والمتدافعة من جهة أخرى. فإذا سقطت المسافة بين الواقع والتمثيل الذهني التصوري له لم يعد من معنى للحديث عن تمثيل مطابق للواقع، وآخر إيدولوجي مزيف. فكلها مقاربات نسبية متغيرة على نحو ديناميكي نشط. ولذا فإن الأصح من مصطلح الإيديولوجيا مصطلح النظام التفسيري Paradigm. فالواقع الموضوعي لا ينعكس في وعينا بصورة آلية، ولكن بوساطة النظام التفسيري التأويلي الذي نعاين به ونتبناه. وهو أقرب إلى معنى الاجتهاد الفكري، بكل ما يحمله من تواضع، وأحرى أن يبتعد بنا عن «الدوغما» و «التعصب» وادعاءات احتكار الحقيقة بما تستتبع من نزعة الإقصاء والنفي المتبادل، وأجدر كذلك بأن يبقى الباب مفتوحاً للإضافة والتعديل والتغيير. بعبارة موجزة: الواقع الذي نعيش فيه هو الواقع الذي ننتجه ونعيد إنتاجه من خلال التفاعل الجدلي النشط بين نظم المعاني والنظم التفسيرية التي نرى بها، ومعطيات العالم الخارجي الذي يشيدنا بقدر ما نشيده!

هذه المقاربة الظاهراتية تنتمي إلى تيار فكري فلسفي عريض يوصف بالتيار التشييدي Constructivism الذي يعترف للفاعلين الاجتماعيين بدور أساسي نشط في إنشاء الواقع وإعادة إنتاجه، في مقابل تيار آخر عريض يوصف بالإطلاقية Absolutism والوضعية Positivism، ويجعل الواقع الخارجي الموضوعي حقيقة مستقلة عن وعي الإنسان ونشاطه التأويلي، ويكاد في أكثر اتجاهاته تطرفاً أن يجعل الفرد آلة صماء يشغلها الواقع الخارجي بغير وعي منه.

مكتبة الربيعي أحمد

ومع المقاربة الظاهراتية تلك، دخل في الفضاء الفكري الثقافي العربي متأخراً أيضا مفاهيم الخطاب التي أسس لها الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو. وهو يستوعب المقاربة الظاهراتية التشييدية ولكنه يرتفع بها إلى مستوى أكثر شمولاً واستيعاباً ولا يتوقف عند الفرد، كما يعاب أحياناً على الظاهراتية. ولكنه يتجاوز جملة من الثنائيات التي توزعت على الاتجاهات الفلسفية والاجتماعية، ومنها ثنائية الفرد والمجتمع، وثنائية التمثيل االفكري والبنى الاجتماعية، وثنائية الذات والموضوع. فالخطاب منظومة معرفية تتمثل في الرموز والمفاهيم والأفكار، وفي جملة الإجراءات والممارسات والمؤسسات والبنى الاجتماعية التي تعرف الأشياء وتنتجها وتدير أبناء المجتمع وتشكل وعيهم ورؤيتهم وتمارس سلطتها عليهم. والخطاب لا يتشكل خارج علاقات القوة التي يسهم في إنتاجها وتسهم في إنتاجه في الوقت نفسه. ولقد يبدو أن الخطاب يعتقل أبناء المجتمع ووعيهم في شبكته السلطوية القاهرة، ويعطّل خياراتهم الفردية الحرة. ومن هنا اشتبه عند البعض مع الفلسفة البنيوية، وما هو كذلك. فهو ليس بنية خارجية مستقلة عن نشاط الوعي. الخطاب مسرح علاقات القوة وموضوعها وأداتها معاً. وهو يخلق شروط إنتاج خطابات جديدة تتحدى الخطابات السائدة إلى أن تنجح في القطع معها، وإن كان الخطاب -أي خطاب- بطبيعته يحمل معه آليات إكراهاته وسلطته. فالحرية الفردية المطلقة تبقى وهماً يتناقض مع شرط الاجتماع الإنساني.

وفي المقابل لا يتوقف سعي الإنسان إلى الحرية. وسيرة التاريخ هي رواية التحرر من سلطة خطاب ما، وخلق سلطة لخطاب آخر. وما هذا إلا تعبير عن أزمة التجاذب والتنافر والمساومة بين الحاجة الإنسانية إلى الحرية الفردية وحاجة الإنسان نفسه إلى الاجتماع البشري الذي لا يمكن أن يبرأ من علاقات القوة وتجلياتها في الخطاب.

ولما كان الخطاب يتجاوز ثنائية الواقع الموضوعي وتمثيله الفكري المعرفي، إذ هو الواقع نفسه ذاتاً وموضوعاً، فلا معنى أيضا للحديث عن وعي/ خطاب مطابق للواقع مقابل خطابات تزيف حقائق الواقع الموضوعي. الكلمات، بما هي مفاهيم، هي الأشياء! والدوال هي المدلولات. وكل هذا يسقط مفهوم الإيديولوجيا التي تحيل إلى وعي زائف في الفكر الماركسي!

مكتبة الرمحي أحمد

وجد الكثير من المثقفين العرب في هذه المفاهيم الظاهراتية والمعرفية (الإبستمولوجية) فرصة للتحرر من التباسات مصطلح الإيديولوجيا وابتذاله. وكرر بعضهم القول: الإبستمولوجيا (فلسفة المعرفة) لا الإيديولوجيا. إلا أن بعض هؤلاء أخطأ الفهم من جديد، وتوهم أن الإبستمولوجيا بريئة من التحيزات المسبقة التي تنطوي عليها الإيديولوجيا وتفضي إلى تحريف صورة الواقع. فعادوا بذلك سيرة التقسيم الماركسي بين فكر مادي ماركسي مطابق للحقائق القارة في الواقع الموضوعي، وإيدولوجيا تسهم في تزييف الوعي وتعميته عن الواقع، إلا أن الإبستمولوجيا في هذه الحالة قد حلت محل الفكر الماركسي في ادعاء الحقيقة الموضوعية. وما هكذا مفهوم الخطاب في ابستمولوجيا فوكو حيث الخطاب المعرفي ليس مجرد تمثيل للواقع حتى يطابقه أو يزيغ عنه، إنما هو الواقع نفسه. فليس ثمة وعي مزيف وآخر غير مزيف، إنما هناك خطابات تتنازع على تشكيل الوعي والواقع معاً، وليس لأي منها قيمة حقية صدقية مطلقة متعالية، ولكن صيرورتها ومصائرها تتقرر في إطار علاقات القوة والسيطرة المتغيرة. وهنا نلمس الأثر النيتشوي المنبعث في مقاربات ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية!

بعد هذا الاستدراك في تحرير المصطلح، أعود إلى الأجواء السياسية التي طبعت فترة صعود المقاومة بعد عام 1967 وما لابسها من مشكلات محبطة ألقت بظلالها القاتمة عليها. ومن ذلك عملية الاستقطاب الإيديولوجي الحاد التي عمقت الانقسامات والولاءات الفئوية الضيقة على حساب المشروع الوطني الجامع، وأضرت بالصورة الذهنية للمقاومة في الشارع الشعبي العريض، وفتحت الباب للقوى المضادة للتحريض على المقاومة والتشكيك بأجندتها (وأنا هنا أستعمل مصطلح الإيديولوجيا بالمفهوم الذي استقر عليه في الاستعمال العام ليشمل مختلف التيارات الفكرية والعقدية السياسية ومنها الاتجاهات اليسارية الماركسية والقومية مثلاً).

وليس من الغريب في الحركات الوطنية الثورية أن تتنوع التيارات والأجنحة والتنظيمات على أسس فكرية عقدية. ولكن المشكلة في أن يزاحم الولاء الإيديولوجي الولاء الوطني الجامع ويصبح الانتصار للإيدولوجيا مقدماً عند البعض على الانتصار للقضية الوطنية. بعبارة أخرى تتمثل المشكلة في أن تصير الأيديولوجيا في ذاتها موضوع النضال وغايته، بدلاً من أن توظف في خدمة القضايا الاجتماعية والسياسية باعتبارها

مكتبة الربيعي أحمد

مرجعاً فكرياً يستهدي به أصحابه في قراءة الواقع ومن ثم في العمل على تغييره، ثم تكون النتائج العملية حكماً عليه. فالأصل أن الناشطين يختارون تياراً عقدياً سياسياً دون غيره، لاقتناعهم بأنه يقدم المنهج الأصوب في فهم الواقع وتحليله والتعامل معه وصولاً إلى تحقيق الأهداف والغايات الوطنية العليا. أما تحويل المنطلق الإيديولوجي إلى غاية في ذاته، بصرف النظر عن مردوده العملي، فلابد أن يقود إلى الاغتراب النخبوي عن الجماهير، وإلى الإسراف في التنظير على حساب الممارسة، وإلى تعالي الإيديولوجيا عن الواقع والجمهور، وإلى التناحر العصبوي والتفاصل وإقصاء الآخر. فإن لم يأخذ الإقصاء شكلاً مادياً، أخذ شكل القمع والابتزاز المعنوي من خلال معجم متضخم من وصمات التبخيس والاتهام والتشكيك والتصغير: فهذا فكر غيبي ظلامي، وهذا رجعي، وهذا يميني يخدم البرنامج الإمبريالي، وهذا فاشي، وهذا فكر بورجوازي مضاد للثورة، وهذا يسار طفولي، وهلم جرا. ولا يتوقف الأمر عند هذا، حتى يصل في أحيان كثيرة إلى تهم التخوين والعمالة، وحتى يوضع الخصم الإيديولوجي في خندق واحد مع العدو الغازي والمحتل.

شهدنا الكثير من هذه الظواهر المختلة في عقد الستينات، وفي مشهد المقاومة السياسي حتى بدا أن القضية الوطنية تكاد أن تصير وسيلة لترويج الإيديولوجيا عند شطر من الناشطين وليس العكس. وكلما قلّ العمل على ساحة النضال ضد العدو الغازي، زاد التنظير.

وبلغ من سطوة تلك التصنيفات بين تقدمي ورجعي، أن تنازع القوم، على اختلاف تنظيماتهم ومنطلقاتهم الفكرية، صفة التقدمية. فاجتهد البعض من غير التيارات اليسارية في إعادة تعريف الكلمة لتحريرها من الاحتكار اليساري الماركسي. فقال قائل فتح مثلاً: لا تقاس التقدمية بالفكر النظري، وإنما مناطها مدى الفعل والفاعلية والإنجازات العلمية في ساحة المقاومة والكفاح المسلح ضد العدو المحتل. وبهذا المقياس تكون «فتح» مثلاً أكثر تقدمية من غيرها، وإن لم تتبن العقيدة الماركسية. وآثر آخرون أن يجمعوا بين الخيرين: الانتماء التنظيمي إلى فتح، والانتماء الفكري إلى الماركسية. وكانت فتح قد أعلنت نفسها منذ انطلاقتها حركة وطنية جامعة مفتوحة لكل الوطنيين المخلصين الذين يلتفون على برنامجها بصرف النظر عن خلفياتهم العقدية السياسية. أما التنازع

مكتبة الربيعي أحمد

الإيديولوجي فمؤجل إلى ما بعد تحقيق الهدف الوطني الأكبر: تحرير الوطن الفلسطيني وقيام الدولة الفلسطينية عليه.

وأذكر أنني كنت أتمشى في الجامعة الأردنية مع أحد أعضاء المكتب السياسي للجبهة الديموقراطية التي انشقت عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكان في زيارة للجامعة. فبدا لي أن أسأله:

-الجبهة الشعبية [illegible] الفكر الماركسي، وأنتم كذلك، فما الذي دعاكم إلى الانشقاق عنها وتشكيل فصيل مستقل، وكلاكما ماركسي هدفه تحرير فلسطين؟

فما زاد على أن قال:

-الجبهة الشعبية وإن كانت تقدم نفسها بوصفها حركة ماركسية، لم تتمكن من التحرر تماماً من فكر البرجوازية الصغيرة.

وأشهد أني مازلت حتى الآن أقلّب هذا الجواب في ذهني كلما ذكرته فلا أفهم له معنى. ولعلّ المشكلة في فهمي لا في الجواب!

على الرغم من أن «فتح» كانت كبرى فصائل المقاومة، فإن صوت اليسار الماركسي على صعيد الفكر السياسي والنشاط الثقافي كان الأعلى والأكثر جاذبية في أوساط النخب ومن يرغب في الانضمام إلى ناديهم. فمن لم يتحدث به اقتناعاً وانتماءً أو رَغَباً، استعاره نفاقاً ورَهَباً أن يوصم بالرجعية واليمينية والتخلّف. وكانت اللغة اليسارية تستمد بعض قوتها من مناخ الثورة العالمية وحركات الاحتجاج والتمرد التي اجتاحت العالم في ذلك الحين، ومن نماذج الحركات الثورية الملهمة ورموزها التي غدت إرثاً عالمياً: الثورة الكوبية وجيفارا وكاسترو، الثورة الفيتنامية وهوتشي منه، وقبل ذلك ثورة ماوتسي تونج في الصين، وقبلها جميعاً أم الثورات: الثورة البلشفية ولينين وتروتسكي. كذلك كانت تستمد من مناخ الحرب الباردة التي بدا أنها قسمت العالم إلى فسطاطين لا ثالث لهما، الكتلة الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفييتي، والكتلة الغربية الإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة التي تقف بكل ثقلها وراء وكيلها الصهيوني الغاصب. وليس أمامك إلا أن تختار الانحياز لأحد الفسطاطين، فإن لم تكن مع هذا الجانب، فأنت بالضرورة مع الآخر! ومن ذا الذي يرضى أن يشتبه موقفه السياسي بالموقف الأمريكي؟

مكتبة الرمحي أحمد

وإلى جانب الظروف السابقة، فإن انحسار المد القومي الناصري بعد هزيمة حزيران، قد ترك فراغاً تمددت فيه اللغة الماركسية اليسارية في أوساط النخبة السياسية والثقافية. وما تحول حركة القوميين العرب الناصرية إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ذات الوجهة الماركسية، إلا التعبير الأقوى عن هذا التطور السياسي.

تزاحمت مفردات المعجم الماركسي على ألسنة النخب السياسية والثقافية والملتحقين بها: البروليتاريا، الطبقات الكادحة والمسحوقة، الرأسمالية، البورجوازية، البورجوازية الصغيرة، الصراع الطبقي، الديالكتيك (الجدلية)، المادية التاريخية، التقدمية، الرجعية، الواقعية الاشتراكية في الأدب....

وفي الوقت الذي لا يمارس فيه الماركسيون والمتمركسون الجدل ضد التيارات الأخرى، ينفقون الوقت في الجدال الماركسي - الماركسي، أي بين النسخ والتيارات الفرعية الماركسية المختلفة، وكل يدعي وصلا بماركس وإنجلز ولينين، ويتهم الآخر بالتحريف والهرطقة ويدعي لنفسه تمثيل العقيدة الأرثوذكسية القويمة. ويأتي مع الجدال أمثلة تاريخية من الشرق والغرب، وتستدعى مراجع مختلفة، بينما يتضخم المعجم في الأثناء، حتى تكتسب اللغة الماركسية سمة هزلية يستثمرها المتطرفون لإضحاك جلسائهم وجمهورهم. فيؤلفون نصوصا تزدحم فيها المصطلحات التي تنتهى بياء النسبة والمصدر الصناعي، والتي تساق في سرد واقعة من التوافه والعاديات، فيكون التقابل بين فخامة المفردات السمينة المتزاحمة وتفاهة الموضوع مصدرا لخلق الأثر الكاريكاتيري المضحك!

ودون أن نقع في خطيئة التعميم، فإن شطراً من شريحة الشباب في الوسط الجامعي مثلاً قد انجذبوا إلى التيارات الماركسية انجذابهم إلى «الموضة» في ذلك الوقت، وربما خلطوا بين مظاهر «الموضة» الماركسية ومظاهر حركات التمرد الشبابية في الغرب الرأسمالي التي اتسم بعضها (كالهيبز) بالعبثية والعدمية وشعارات التحرر الجنسي والحب بدلاً من الحرب، والورد بدلاً من الرصاص. وهي ظواهر عدتها مراجع الماركسية الكبرى، حارسة العقيدة القويمة، من ظواهر الانحطاط في المجتمع الرأسمالي! فإذا امتحنت هذا الضرب من الشباب لم تجد عنده غير قائمة من المصطلحات والألفاظ المستعارة، لا ترتد إلى منظومة فكرية متكاملة كما ينبغي للماركسي المتمكن. وخروجاً من

مكتبة الرمحي أحمد

الحرج الذي يسببه الغلو المقترن بالسطحية والضحالة والمزايدات، ابتدع الماركسيون الراشدون مصطلح «اليسار الطفولي» لوصف هذه الظواهر.

كلام أقل عن هدف تحرير فلسطين، وكلام أكثر في كل شيء آخر، يمتد إلى التاريخ العربي الإسلامي والأدب والفنون، في قراءات سطحية اختزالية انتقائية متعسّفة تنتهي بأحكام قطعية قسرية، أكثرها أحكام إدانة ونفي. وإذ بأبي ذر الغفاري يقف وحيداً خارج بستان قريش يبشر «بالمانيفستو» الشيوعي قبل ظهوره بأربعة عشر قرناً. والمتنبي ليس أكثر من نخاس في سوق العبيد لا يستحق القراءة، والحشاشون يعلنون ثورة الفقراء والكادحين والمنبوذين، وخالد بن الوليد مجرم حرب. فلا نامت أعين الأبطال المزيفين! أين هم من لينين وتروتسكي وماو وهوتشي منه، وكاسترو، وجيفارا!

المغيبون المغربون في هذا الجدال الثوري التنويري هم مادة الثورة نفسها: الكادحون من العمال والفلاحين الذين لا يكادون يفقهون لمنظري الماركسية حديثاً، فإن فقهوا منه شيئاً فهو الطعن في عقائدهم ورموزهم الدينية والتاريخية. وكفى بذلك تغريبا لهم، دونه تغريب العامل في المجتمع الرأسمالي عن السلعة التي ينتجها لمستغلّه الرأسمالي، دون ان يكون له منها نصيب! كيف يمكن استقطاب هؤلاء ليكونوا وقود الثورة والتغيير بذلك الخطاب النخبوي الذي يستفز مشاعرهم الدينية العميقة التي يطوون عليها جوانحهم ويذبون عنها بأرواحهم؟

وما الذي كان أولئك المتمركسون يرجون تحقيقه حين ملأوا جدران عمّان بملصقات تحمل صور ماركس وإنجلز ولينين مع رمز المنجل والقدوم؟ في الوقت الذي كانوا فيه يهاجمون رموز التاريخ العربي الإسلامي؟ وهل من وسيلة لإحباط أي هدف شعبي وطني عادل ونبيل في المجتمع العربي الإسلامي أقوى من أن تضع الناس بين خيارين لا ثالث لهما: فإما دينهم وهويتهم الحضارية، وإما الهدف الشعبي الذي فيه تحررهم وصلاح أمرهم! فلست بالغاً شيئاً بهذا إلا أن تغرب الناس عنك وتحرضهم عليك، وتصرفهم عن الهدف الذي قد يكون في ذاته حقاً وعدلاً وصدقاً. ولسان حالهم: «إن كان ذلك الهدف لا يتحقق إلا بنبذ الدين كما تزعم، فلا حاجة لنا به ولا بك».

وكم من قضية عادلة كاد بعض دعاتها أن يفسدوها ويلبسوها على أصحابها، حين قدموها في خطاب تغريبي يتحدى المشاعر الدينية بإطلاق ويهدد الهوية الثقافية، فانقلب

مكتبة الربيعي أحمد

عليها من يفترض أنها قضيتهم! فإن الناس لا يفرقون بين المغني والأغنية، فإن كرهوا المغني انصرفوا عن الأغنية، وتشككوا في المقاصد والغايات. أما الإخلاص الحق للأهداف الوطنية والاجتماعية فيقتضي احترام الحساسيات الثقافية واستثمار مكونات الهوية نفسها وتطويرها والامتداد بها وتوجيهها وتوظيفها لتعبئة الناس نحو الأهداف العامة. والهوية الثقافية على كل حال، كما بينا في مواضع سابقة، ليست معطى خارجياً ساكناً ثابتاً قسرياً. ولكنها حقيقة ديناميكية، تخضع لعوامل التغيير والتعديل والإضافة والتأويل حسب الشروط التاريخية، وتسمح بتدافع الفهوم والتأويلات في فضائها، بين تأويلات تحرض على التغيير والتنوير، وأخرى على ضد الأولى.

وكم من البرامج الإنمائية أخفق في نهاية المطاف لأنه التبس بالتغريب، فانصرف عنه الناس الذين هم وسيلته وغايته معاً. فليست الغاية مقاتلة «الناطور»، وإنما هي «جني العنب» كما يقول المثل الشعبي. وذلك ما أخطأته بعض الفئات اليسارية والليبرالية على السواء.

ومما زاد الطين بلة كما يقال، عجز الكثيرين من أهل اليسار عن التوفيق السوي بين البعد الأممي والبعد الوطني في سياق القضية الفلسطينية. فإذا كانت المقاومة الفلسطينية تنتظم في حركة التحرر العالمي من الإمبريالية، فهل يكون مدار الصراع مع العدو الصهيوني هو نظامه السياسي المرتبط بالإمبريالية، ووظائفه في الوكالة عنها؛ وبذلك يستوي مع الأنظمة المحلية الموصومة بالرجعية والانحياز للولايات المتحدة؟! هل تنتهي المشكلة بتحول الجميع عن المركز الامبريالي إلى الاشتراكية فنكون إخوة في الانسانية ورفاقاً في العقيدة السياسية، وننسى اغتصاب الوطن؟ أين صفة العدو الاستيطاني الإحلالي التوسعي الذي اغتصب الأرض وشرد أهلها؟ وأين هدف تحرير الوطن الفلسطيني من ذلك العدوّ بغض النظر عن طبيعة نظامه و وظائفه! وهل ينبغي أن نميّز بين الإسرائيلي الاشتراكي وسائر الإسرائيليين وكلهم سواء في تحقيق المشروع الصهيوني واغتصاب الأرض؟ هل يستقيم أن يتحالف الاشتراكيون التقدميون في إسرائيل والوطن العربي ضد الرجعية العربية والإسرائيلية على صعيد؟! ولم كان الاتحاد السوفيتي أول من اعترف بإسرائيل إذا كان المشروع الصهيوني جزءاً من المشروع الاستعماري الامبريالي؟ أم أنه لم يكن كذلك في أول أمر اسرائيل ثم تحوّل إلى المركز الإمبريالي الأمريكي فحقت عليه العداوة بهذه الصفة تحديداً!

مكتبة الربيعي أحمد

لا شك أن المشروع الصهيوني لم يكن لينجح في تحقيق أهدافه إلا بانتظامه في المشروع الاستعماري الدولي، ولا شك كذلك أن «إسرائيل» في أحد وجوهها دولة وظيفية تقوم بدور الوكيل المتقدم للقوى الإمبريالية في المحيط العربي الإسلامي، فضلاً عن اغتصاب الوطن الفلسطيني. ويقضي هذا التوصيف بأن تجمع استراتيجية المواجهة بين مطلب التحرير ومطلب التحرر والنهوض العربيين، للعلاقة الشرطية المتبادلة بينهما.

وكل ذلك يستدعي أطراً فكرية لتوصيف شروط التخلف والتبعية والهزيمة، ثم شروط النهضة والتحرر والتحرير. ولكن لا ينبغي لهذا أن يصرف النظر عن الطبيعة الاستيطانية الإحلالية للعدو الصهيوني، وأن موضوع الصراع معه هو الوطن المغتصب وحقوق الشعب الفلسطيني فيه، لا يغير من ذلك دين المغتصب أو عرقه أو ارتباطاته الخارجية أو عقيدته السياسية. ولا ينفي ذلك أن يتسلح المقاتل من أجل الحرية والتحرر بعقيدة توجهه وتحفزه وتهديه في سعيه نحو الهدف الوطني الذي ينتظم في الأهداف القومية. فمن الطبيعي مثلاً أن يتوجه المسلم الملتزم بعقيدته الدينية التي توجب عليه الجهاد ضد الغزاة، وأن يعبّي الناس بها. ولكن موضوع الصراع ليس دين الغازي، وإن وظفه الغازي لخدمة مشروعه، إنما هو الغزو والاحتلال واغتصاب وطن الغير.

باختصار، ليس من الصواب القفز عن الوطني إلى الأممي، ولا تكييف الهدف الوطني واختزاله وفقاً لمواقف المراجع الدولية الأممية وتعريفاتها وحساباتها كما كان الحال مع الاتحاد السوفييتي. على العكس من ذلك، ينبغي أن يكون الهدف الوطني والقومي هو الناظم للعلاقة مع الأممي والإنساني. وهذا ما اخطأه الكثير من الماركسيين واليساريين العرب بدءاً من قرار التقسيم عام 1947، حتى شاعت العبارة الساخرة «إذا أمطرت السماء في موسكو، فتح الشيوعيون العرب مظلاتهم في الوطن العربي»! وكل ذلك شاهد على تحوّل «الإيديولوجيا» من منهج وأداة فكرية سياسية موظفة لفهم الواقع وتغييره، إلى موضوع النظر والعمل في ذاتها لذاتها، وكأن مجرد الإيمان بها والانتماء إلي تيارها هما الغاية الأخيرة. وبذلك تنشغل التيارات السياسية بالصراعات الإيديولوجية فيما بينها، بدلاً من أن تصرف جهودها في خدمة الأهداف الوطنية وفي ترجمة أفكارها إلى برامج واقعيّة، يكون الناس شهداء عليها وحكماً.

مكتبة الربيعي أحمد

ومن شأن الاستغراق في الصراع الإيديولوجي أن يفضي إلى الاقصاء المتبادل، وإلى إثبات الذات سلباً لا إيجاباً، فبدلاً من أن تثبت ذاتك بما تحققه من إنجازات على أرض الواقع، تثبتها بتشويه صورة الآخر المغاير والطعن في مقاصده وارتباطاته. فإذا حقق الآخر من الإنجازات ما عجزت عن تحقيقه، لم يسعك أن تراجع نفسك وأفكارك وبرامجك السياسية، لترى أين أصاب وأين أخطأت، ولم بلغ من الناس ما لم تبلغ. ولكن يسعك أن تنسب إنجازاته إلى ما يدينه ويشكك فيه وفيها وينذر بما يعقبها من مخاطر وخيمة وتكاليف باهظة، بل يسعك أن تتهم خيارات الشعب نفسه الذي رضي من خصمك العقدي ما لم يرض منك. فأنت ترى ما لا يرون. وتلك لعمر الله وصفة الاستبداد الذي تزعم أنك تفرّ منه. والمستفيد من ذلك كله الغزاة والطغاة الذين يسّرهم أن تنشغل تيارات المعارضة بالصراع الأيديولوجي فيما بينها، بدلاً من أن تستبق الخيرات في مواجهتهم، ثم يكون الاحتكام إلى الشعب الذي هو الغاية و الوسيلة معاً. ولعل هذا كله أن يفسر لنا الإخفاق في العمل الجبهوي الذي يمكن أن يجمع تيارات مختلفة على قضايا جامعة ملحة. بل قد يبلغ الأمر حدّ التشفي بالمنافس الإيديولوجي إذا ما خصه الطغاة بالبطش. فالصراع على الإيديولوجيا مقدم أحياناً على الصراع على واقع يتناهبه الطغاة والغزاة.

كنت مقرباً من تنظيم الطلبة الشيوعي في سنتي الجامعية الأولى وإن لم أكن عضواً منظماً فيه. ومع بدء العام الدراسي الجديد في أكتوبر عام 1967، أي بعد هزيمة حزيران ببضعة شهور، دعيت إلى لقاء مغلق في أحد البيوت نظمه زملائي الشيوعيون احتفالاً بذكرى الثورة البلشفية.

وكنت قد كتبت قصيدة بهذه المناسبة لألقيها في اللقاء الذي حضره أحد قادة الحزب الشيوعي البارزين، وهو فلسطيني من الضفة الغربية. وقد تحدث الرجل عن الوضع السياسي بعد هزيمة حزيران وتداعياتها. وتطرق بطبيعة الحال إلى المتغير الجديد وهو المقاومة الصاعدة. ولم تكن بعد قد انتقلت قيادتها إلى الأردن، وكنت في بداية ارتباطي بها. فذكر هدف المقاومة المعلن، وهو تحرير كامل الوطن الفلسطيني. ثم علق على ذلك قائلاً:

مكتبة الربيعي أحمد

- هذا هدف غير واقعي.. و.. غير صحيح!

لو اكتفى الرجل بالوصف الأول، لجاز أن يحمل كلامه على الظروف الدولية والإقليمية القاهرة واختلال موازين القوى، ولو إلى حين. ولكن أن يتبع ذلك بحكم أخلاقي ينكر على الفلسطيني حلمه في العودة والتحرير وحقه التاريخي في وطنه كلّه، ويثبت ضمناً للإسرائيلي حقاً في الوطن الفلسطيني المغتصب، فتلكم هي السوأة!

خرجت من اللقاء نادماً أشد الندم على اقترافي تلك القصيدة! وكان ذلك آخر عهدي بزملائي الشيوعيين في الجامعة.

بعد حين، وقد تعاظمت المقاومة ومؤسساتها واستحوذت على منظمة التحرير الفلسطينية، أسس الحزب الشيوعي منظمة صورية مسلحة باسم «أنصار» لم يكن لها حضور فاعل في ساحة المقاومة، وإنما كان الهدف منها أن يكون للشيوعيين تمثيل في منظمة التحرير، ثم ما لبثت تلك المنظمة أن ذهبت مع الريح.. بدون نعي أو رثاء!

بعد أقل من سنة على تلك الواقعة، أتيح لي أن ألتقي في حيفا (نعم حيفا) شاباً بدأ نجمه يسطع في سماء الشعر، ولن يلبث حتى يصير أيقونة شعرية فلسطينية وعربية تملأ الأسماع وتشغل الناس. وكان ما يزال عضواً في حزب «راكاح» الشيوعي الإسرائيلي.. فكان بيننا حوار طويل في الشعر والأدب والثقافة والوطن والسياسة والمقاومة.. وأسمعني والحضور من شعره الجديد ما يشعل السنديان الفلسطيني في القلب وما يقتحم الروح دون سؤال عن الهوية «الإيديولوجية» للمرسل أو المستقبل. ولكنه حين تحدث في السياسية والقضية الوطنية وآفاقها، قال كلاماً لا يبتعد كثيراً عما قاله ذلك القيادي الشيوعي في عمان. فكان شعره منه ومنا، وله ولنا؛ وكان كلامه خارج الشعر منه ومن الحزب، وله وللحزب. فبقي الأول كعادة ما تبدعه الروح، وذهب الثاني على عادة الريح العابرة!

3. في حيفا ، مع محمود درويش وسميح القاسم

في أوائل صيف عام 1968، استصدر لي والدي تصريحاً لزيارة طولكرم. وعلى الرغم من نشاطي التنظيمي السياسي مع «فتح» وتحذيرات بعض الأصدقاء، جازفت بالزيارة التي كانت الأولى للضفة وطولكرم بعد الاحتلال. ولم ألق شراً غير شر الإجراءات المذلة على الجسر ورؤية جنود الاحتلال يصولون ويجولون في الوطن.

مكتبة الرمحي أحمد

في ذلك الحين لم تكن السلطات الاسرائيلية لتسمح لأهل الضفة بعبور خط الهدنة أو ما يسمى بالخط الأخضر لزيارة فلسطين المحتلة عام 1948، بينما كان بوسع العرب الفلسطينيين وراء الخط الأخضر أن يزوروا الضفة، فأقبلوا على ذلك زرافات ووحدانا بلهفة الباحث عن أصوله وامتداداته وشقه المغيب قسراً منذ عام 1948. وكان أن ألتقيت شاباً من بلدة أم الفحم جاء لزيارة بعض أقاربه المقيمين في مخيم طولكرم في جوار بيتنا.

أقبل أحدنا على الآخر إقبال الجزء على تمامه أو إقبال الشقيقين الشتيتين اللذين جمعهما أخيراً ما فرقهما أولاً: الغزو والاحتلال. وعلمت منه أنه عضو في حزب «راكاح» الشيوعي. ولكنه كان أحرص على تأكيد هويته العربية الفلسطينية منه على هويته الحزبية، فلم يكن حديثه ليرشح بشيءمن المرجع الحزبي، ولكنه كان ينضح بمعجم القرية الفلسطينية وبيادرها وزيتونها وسنديانها وأهازيجها وأساطيرها، بلهجة ريفية موغلة في خصائصها القديمة، وكأنها قد تجمدّت على ما كانت عليه قبل عام 1948؛ ولربما كان ذلك عن رغبة مطمورة لا واعية في تعليق الزمن نفسه على حال الوطن قبل اغتصابه والشروع في ترجمته إلى العبرية. والحق أن الشاب كان عاملاً بسيطاً لم يصب حظا كبيراً من التعليم والثقافة كي يخوض في جدل فكري حول المادية التاريخية والجدلية والتغريب بالمفهوم الماركسي. وكان كغيره ممن التحقوا بالحزب الشيوعي لأنه كان منبر المعارضة الوحيد المتاح في ظل الحصار المضروب على أبناء فلسطين وراء الخط الأخضر. ثم أفضى الكلام إلى ذكر محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد. وكان شعرهم قد بدأ في اختراق الحصار ليصل إلى أسماعنا وقلوبنا. وكنا نظن قبل ذلك ظلماً وجهلاً، أن الوطن السليب قد غابت معالمه عمّن مكث فيه، فتاهوا في غابة العناوين والأسماء الجديدة، وبقي حاضراً في وعي من نفوا عنه. لكأن الوطن غائب في وعي الحاضر فيه، وحاضر في وعي الغائب عنه! وها نحن أخيراً نتحرر من هذا الوهم إذ يبلغنا صوت الوطن السليب يتكلم بالعربية الناصعة من خلال قصائد مشبعة بروائح زهر البرتقال الحزين ودخان «الطوابين» وسائر مفردات الأرض التي تستعصي على الترجمة. فاحتفينا بالشعر والشعراء احتفاءنا بالمقاومة التي واكب صعودها صعودهم. فكأنهم وإياها قد خرجوا من مشكاة واحدة، فنسبناهم إليها: شعراء المقاومة. كان شعرهم متوهجاً في ذاته، ولكنا كذلك أسقطنا عليه وهج المقاومة، فزاده ذلك ألقاً، ولكنه ما لبث أن صار عبئاً عليهم، كشأن الحب القاسي

مكتبة الرمحي أحمد

الذي قد يسرف في المنح، ولكنه كذلك يحد من انطلاق الذات ونموها ونضجها وفق خياراتها وشروطها الخاصة. والشعر الفذ يطلب القارئ ويقاوم سلطته في الوقت نفسه، وينطلق من السياق الظرفي المتغير ويأبى أن يعتقل داخل حدوده. يريد أن يكون راهنا الآن.. وغداً.. وفي كل حين.. هنا.. وهناك. فلا ينغلق على قراءة يمليها سياق معين، فإذا غاب السياق، غاب معه النص!

وهذا ما أدركه محمود درويش مبكراً بذكائه وبتوجيه موهبته ومخيلته الشعرية الذاهبة إلى آفاق بعيدة. فأنكر ذلك الحب القاسي الذي يمنح أكثر مما يجب، ليستلب في المقابل أكثر مما يمنح، على المدى البعيد.

فاجأني الشاب حين قال:

- هؤلاء رفاقنا في الحزب.

كنت أعرف أن توفيق زياد عضو في «راكاح» ورئيس لبلدية الناصرة. ولكن معلوماتي عن محمود وسميح كانت مختلفة. فقد كان مرجعنا الرئيس عنهم كتاب غسان كنفاني عن شعراء الأرض المحتلة الذي أخبرنا أن محمود وسميح عضوان في حركة «أرض» القومية، وأنهما في السجن ذلك الحين. ولكن الشاب صحح قائلاً:

- بل هما عضوان في حركة «راكاح». وهما ليس في السجن، ولكنهما يقيمان في حيفا ويمارسان نشاطهما السياسي والثقافي هناك، وإن كان ثمة قيود على حركتهما. فمحمود لا يستطيع مغادرة حيفا بغير إذن من السلطات الإدارية، أما سميح فقد فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله من المساء حتى مطلع الفجر.

ولما رأى مدى اهتمامي ولهفتي قال:

- إن شئت، رتبت لك لقاء بهم في حيفا!

قلت:

مكتبة الربيعي أحمد

- كيف، وسلطات الاحتلال لا تسمح لأبناء الضفة بعبور الخط الأخضر؟

قال بكل ثقة:

- لا عليك. أستطيع أن أزوّر بعض الوثائق.. والإجراءات الأمنية على نقاط العبور ليست بتلك الصرامة والدّقة بعد. فالعدو مايزال يعيش نشوة الانتصار السهل المدوي في حزيران، فهو مطمئن إلى قوته وقدرته وإلى ضعفنا وخوفنا. أما نحن وراء الخط الأخضر، فإن طول مخالطتنا للعدو قد ذهب بخوفنا منه، فلا نُفْرط في تقدير قوته ولا نُقَلّل. ولكنا نعرف جيداً كيف نعبر من ثغرات نظامه.

وهكذا كان.

من شاهد مسلسل «التغريبة الفلسطينية» ربما يذكر مشاهد «رشدي»، ابن «خضرة» والعبد شهيد ثورة الثلاثينات، وهو يعبر الخط الأخضر بعد احتلال الضفة عام 1967 بمساعدة شاب من فلسطين المحتلة عام 1948، ليرى أمه التي فرقت النكبة بينهما، فخرج مع أخواله إلى المنفى حيث أقاموا في مخيم طولكرم، وبقيت أمه وراء الحدود، وانتهى بها الأمر إلى الإقامة في «أم الفحم».

تلك المشاهد بنيت من تجربتي تلك.

وهل تذكرون حي المحطة المحاذي للحدود في طولكرم، وذلك الشارع القديم المطّل الذي كان يمتد وراء الحدود، وكان يبدو موحشاً وقد أدى هجره إلى خراب إسفلته وانبثاق العشب والنبات من شقوقه، ويكاد ما تسفوه الريح أن يخفي أثره؟! قد استعاد الآن حياته القديمة، فهو طريق العبور بين طولكرم وأرض البرتقال الحزين، لمن صار بوسعه العبور.

أخيراً ها أنذا أعبر الحدود التي كنت في الماضي أقف على بعد أمتار منها، أحاذر أن أخطئ الحسبة فأسقط عندها قبل الأوان.. الحدود التي كنت أرسل بصري عبرها إلى خط الأفق الغربي فيرتد البصر حسيراً لا من بعد المسافة، ولكن من قربها مع بعد المنال. وأجدني أغبط رفوف الطيور الميممة شطر الغرب، وأتمنى لو تعيرني جناحها!

مكتبة الربيعي أحمد

وجدتني أنظر في كل اتجاه، وقد غمرتني حالة أشبه بالنشوة الروحية والوجد الصوفي.. غبت عن نفسي وحضرت في الأرض.. وامحت ذاتي لتتجلى في شجرها وحجرها.. لكأني أسمع أنفاسها.. أم هي تتنفس الآن برئتي؟ أينا يمنح الآخر المعنى؟ أينا يكتب الآخر؟!

التقيت أولاً محمود درويش مع عدد من رفاقه في أحد البيوت في حيفا، على أن نتنقل بعد دخول الليل إلى بيت سميح قاسم. أما توفيق فلم يكن بوسعه القدوم من الناصرة ففاتني لقاؤه.

هاكم إذن محمود درويش أمامي يتحدث بنفسه عن نفسه. ولما كنت أدرك أنني السابق إلى لقائه الشخصي قادماً من خارج فلسطين، وأن المعلومات التي وصلتنا عنه وعن رفاقه لم تكن دقيقة، فقد رأيت أن هذه فرصة ثمينة لنقل صورة أمينة واقعية تمثل سبقاً هاماً في الوسط الثقافي والأدبي العربي. فاستأذنت في تدوين الحوار، ورحّب محمود بالفكرة. وكانت النية أن أتصل بغسان كنفاني عقب عودتي إلى عمان لأرسل إليه مدونة الحوار فيتصرف بنشرها كما يرى.

كنت قد بدأت أنتظم في صلاتي ذلك الحين. ولما حان موعد الصلاة قمت لأدائها في ركن من الغرفة المليئة بأعضاء من الحزب الشيوعي، وأسرع أحدهم فجاءني ببعض الصحف وفرشها أمامي، واجتهدت في تحديد جهة القبلة، وأعان على ذلك بعض الحاضرين اعتماداً على الجغرافيا وحدها! ولم أر في وجوه القوم ما ينم عن دهشة الاستنكار، في وقت كانت فيه الصورة الذهنية للمثقف والمبدع تنأى بنفسها عن «شبهة» التدين وممارسة الشعائر الدينية. فإن لم يكن المبدع ملحداً حقاً، تحرج أن يعلن إيمانه أو أن يترجمه إلى شعائر منظورة، فيخرج بذلك عن قالب الصورة الذهنية السائدة، ويصبح التحاقه بنادي المبدعين محل نظر ومراجعة!

تحاورنا في كل شيء: الشعر والأدب والثقافة والسياسة والهويّة والمقاومة ومستقبل الصراع وآفاقه ومآلاته الممكنة. كنت أصدر عن منطلقات فتح وأهدافها واستراتيجية الكفاح المسلح، وكان محمود يصدر عن مرجعيته الماركسية الحزبية. وكان مما قاله إنه حين التحق

مكتبة الربيعي أحمد

بالحزب الشيوعي ابتداءً لم يفعل ذلك إيماناً بالماركسية، ولكن لأنه يوفر له مساحة للنشاط السياسي المعارض، ليس متاحاً لغيره. ومع الوقت تحول ذلك إلى إيمان عقدي. ثم أنكر على غسان كنفاني أن يقرأه قراءة قومية، متوجهاً بفكره القومي حين كان غسان في حركة القوميين العرب، قبل تحولها إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وإلى الفكر الماركسي. وتوقف محمود في حديثه عند قصيدته الشهيرة في ذلك الحين: «سجل أنا عربي» التي حظيت بانتشار واسع ودارت على الألسنة حتى صارت بمثابة نشيد وطني قومي. فقال:

- لم أصدر في هذه القصيدة عن موقف قومي عروبي. إنما كانت صرخة تحدّ للدولة الإسرائيلية التي ما زالت تعمل جاهدة لطمس وجودنا ومحو هويتنا الثقافية. ونحن بقينا في وطننا. فلما عجزت إسرائيل عن التخلص منا مادياً، سعت إلى تذويب هويتنا الوطنية العربية. وما كان إخوتنا خارج «إسرائيل» يتعاملون معه بوصفه أمراً مفروغاً منه، كان عندنا أمراً نضالياً نكدح من أجله. ليس عندنا ما عندكم من وفرة الكتب العربية. فكنا إذا سقطت في أيدينا قصاصة من صحيفة أو مجلة عربية أو كتاب تعاملنا معها تعاملنا مع اللقيا الثمينة، واحتفينا بها احتفاءنا بجذورنا الضارية في تراب وطننا. نحن عرب فلسطينيون مضطهدون محاصرون داخل وطننا، وهويتنا الثقافية عربية، والدفاع عن وجودنا يعني الدفاع عن هويتنا تلك وتحدي الدولة الإسرائيلية العنصرية بها. وهي حقيقة موضوعية لا عقيدة سياسية. وتلك وحدها رسالة «سجل أنا عربي» وسياقها، أما العروبة والعرب....

وهنا أطلق محمود شتيمة قاسية ليس بوسعي أن أدونها.

قلت:

- تريدني أن أنقل هذا الموقف إلى غسان كنفاني ليصحح قراءته وفاق ذلك؟

قال بلا تردد:

- نعم، افعل.

بدا لي محمود مزاجاً غريباً من الصفات المتدافعة المتغالبة: حياء تغالبه صراحة حادة، وتواضع يغالبه إحساس قوي بالذات كشأن المبدعين. إذا مدح ظهر عليه الحياء

مكتبة الربيعي أحمد

الشديد حتى كأنه قد ضاق بالمدح. ولكن لا يتبع ذلك أنه يتقبل النقد بصدر رحب. ولربما كانت حدته في التعبير عن رأيه من مادة حياته. لكأنه يقاوم أن يلجمه الحياء عن قول ما يريد، فيدلي برأيه مرة واحدة بلا تردد ولا مواربة ليتحرر بسرعة من عبء الحياء. كذلك بدا لي أن فرديته الطاغية تقاوم أن يحاصرها الآخرون بتوقعات وتعريفات مسبقة من عند أنفسهم لا تطابق تعريفه لنفسه، حتى وإن كانت في عرف أصحابها تحمل معاني الإطراء والتقدير. فهو لا يرضى أن يكون غير نفسه، ولا أن يكون الإعجاب به رهينة لصورة موهومة، فإذا انقشع الوهم اهتز الموقف منه ومن شعره.

لكأن لسان حاله: هذا أنا وهذا شعري، فخذ أو فدع! وكان يدرك ان موهبته الفذة وقيمته الشعرية كفيلتان وحدهما بالوصول إلى حيث يريد من ذائقة القراء وأفئدتهم، بدون الحاجة إلى الاتكاء على ركائز خارجية من نوع ما يرضي الجمهور. بل إنه سيضيق ذرعاً بلقب شاعر المقاومة، لأنه يسند شعره إلى غير قيمته الذاتية، ويعلق استقباله على سياق خارجه. ولذلك كله، لم يتردد في تبديد بعض الصورة التي رسمها له غسان كنفاني بلغة حادة، في لقائي ذاك معه.

وعلى الرغم من أنه أطرى على المقاومة الصاعدة، فإن رأيه في حل القضية كان منسجماً مع موقف الحزب الشيوعي. نعم، لن ننسى الظلم التاريخي الهائل الذي وقع على الشعب الفلسطيني باغتصاب وطنه وتشريد أهله وإقامة دولة إسرائيل على الوطن الفلسطيني، وسنبقى سدنة الذاكرة وحراس الهوية، وسيبقى الوطن الفلسطيني وطننا مهما تتغير الأسماء والعناوين، ولكن دولة إسرائيل قد صارت واقعاً وجزءاً من النظام الدولي، وليس من الممكن إزالة هذا الواقع. ولكن الحلّ التاريخي يكمن في تحول منطقة الشرق الأوسط كلها إلى النظام الاشتراكي مع انتصار الاشتراكية العالمية على النظام الرأسمالي الامبريالي كما تحتم نواميس التقدم التاريخي. فإذا وقع هذا، صار الناس كلهم في المنطقة أمة واحدة من الاشتراكيين تتجاوز حدود الهويات القومية والوطنية.

هكذا تحدث محمود في ذلك اللقاء.

وكان من الطبيعي أن أدخل معه في جدال طويل، أراحنا منه الشعر. فقرأ إحدى قصائده من ديوانه الأخير في ذلك الوقت: «آخر الليل». وإذ إن الشعر الحقيقي بطبيعته

مكتبة الربيعي أحمد

الجوهرية لا يكون بوقاً مباشراً للإيدولوجيا، فإن ما اختلفنا عليه خارج الشعر، تلاشى داخله. فهناك، في النص، حضرت فلسطين نفسها بدون تعريف إيدولوجي، وحضرنا فيها جميعاً بغير قسمة أو تصنيف، وكان الشعر الجميل دليلنا إليها وإلينا، بل حضر معنا الروح الإنساني الباحث عن حريته ومعناه، دون أن يشترط علينا إسقاط أسمائنا وهوياتنا وألواننا وألسنتنا من أجل هوية متعالية هلامية تسبح في فراغ لا شواهد فيه!

انتقلنا بعد دخول الليل إلى منزل سميح قاسم. وحسبي من الكلام الذي قاله موقف واحد أنقله الآن. قال بنبرة قاطعة، وهو بين رفاقه في الحزب:

-أما أنا فالتحقت بالحزب الشيوعي الإسرائيلي لسبب واحد فقط: أن أجد نافذة للمعارضة لا أجد غيرها. هكذا بدأت، ومازلت على ذلك، لم أغيّر. فأنا أولا وآخراً عربي عربي عربي. وهذا وطني فلسطين، جزء من الوطن العربي. ونضالنا هنا له شقّان: أما الأول فهو النضال من أجل حقوقنا المدنية في داخل الكيان الصهيوني، وأما الثاني فهو نضال تاريخي طويل يندرج في نضال الشعب الفلسطيني كله من اجل استرداد حقوقه الوطنية التاريخية، وفي نضال الأمة العربية كلها من أجل التحرر والاستقلال والنهوض ومواجهة المشروع الصهيوني.

هكذا تحدث سميح القاسم آنذاك. وكان كلامه برداً وسلاماً على قلبي! وهذه شهادة للتاريخ، لا دخل لها في الموازنة الفنية بين الشاعرين!

حين ودعت القوم، لحق بي أحد الحاضرين، وهمس في أذني بحرارة عاطفية، كأنه يحاذر أن يسمعه أحد، قال:

-سعدنا بلقائك سعادتنا بلقاء شطرنا الغائب.. وددت أن ألحق بك إلى الضفة ليمتد اللقاء ويتسع.. ولكن الظرف لا يسمح. ولكن دعني أقل لك هذا.. أنا عضو في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، نعم.. ولكن دعك من بعض ما سمعت.. الحقيقة أنه حين يقع الاختبار، فكل الأفكار والتنظيرات والانتماءات الفكرية والسياسية تصبح هوامش عرضية ويتجلى ثابت واحد جامع: الانتماء إلى هويتنا الفلسطينية، وإيماننا بأن هذا وطننا الذي غصبناه، وحلمنا باسترداد حقوقنا الوطنية فيه.. وحين نشبت حرب حزيران،

مكتبة الربيعي أحمد

وأوهمنا الإعلام العربي أن الجيش السوري يقترب من بيسان، وأن ساعة التحرير قد دقّت، وجدنا أنفسنا قد نسينا كل التنظيرات والانتماءات السياسية، ولم يعد يعنينا إلا هدف التحرير وأن نجد وسيلة للمشاركة في معركة إنجازه، ولو لم يكن لدينا إلا قبضاتنا وصدورنا العارية!

أثبتت الأيام بعد ذلك أن ما همس به ذلك الشاب هو الحقيقة القارّة في صدور الفلسطينيين وراء الخط الأخضر. وأحسن من يعرفها العدو الإسرائيلي نفسه!

حين عدت إلى عمّان ومعي جملة الأوراق التي دوّنت عليها وقائع اللقاء وما دار فيه من حوار، مع صور جديدة لمحمود درويش وسميح القاسم، بادرت فوراً إلى الكتابة إلى غسّان كنفاني أعلمه بالأمر، وأنني سأرسل إليه المادة بعد إعادة نسخها بخط واضح وترتيب مناسب. ولم أكن على معرفة شخصية مباشرة بالرجل. ولكنه ردّ علي بحماس يستعجلني.

ولكنني لم أتعجل! بل إنني قررت فجأة ألا أمضي في الأمر، وأن أحجب المادة عن النشر! ذلك أنني حين أعدت تقدير الموقف أدركت أن المادة ستحدث صدمة لكثير من القراء في مناخ الحساسيات السياسية السائدة في ذلك الوقت. والأرجح أن ينقلب الموقف علي، فأتهم بالتحريف والتزييف وتقويل محمود -بصورة خاصة- ما لا يمكن أن يقوله، مستغلاً صعوبة التثبت من صحة الكلام. ومن طبع الناس أن يواجهوا ما لا يحبون بالإنكار ما استطاعوا، وأن يدافعوا عن الصورة الرمزية المرتسمة في أذهانهم دفاعهم عن عالمهم. فآثرت السلامة. وقدّرت أن الحقائق سوف تعرف من طريق آخر.

بعد زهاء سنة من ذلك اللقاء، وقعت الصدمة المؤجلة، حين شارك محمود وسميح في الوفد الشيوعي الإسرائيلي إلى مؤتمر الشباب في صوفيا تحت العلم الإسرائيلي. فقامت الدنيا ولم تقعد، واحتدم الجدال في الوسط الثقافي والسياسي بين منكر ومدافع. ونشط الإعلام اليساري العربي في الدفاع والتسويغ والتأويل، حتى هدأت العاصفة بالتدريج، واستطاع الشعر الذي ازداد تألقاً وتأثيراً مع الزمن أن يقدم بين أيدي الشعراء شهادة مغايرة للموقف السياسي الحزبي الذي تراجع إلى الهوامش الغائمة.

مكتبة الربيعي أحمد

ثم ما لبث محمود درويش أن غادر الدولة العبرية إلى الوطن العربي، وكأنه آثر وضوح الغربة في المنفى على التباسات الغربة داخل الوطن، حيث تملي عليه الظروف الخاصة أن يعيش في حيز يملأه نقيضان في الوقت نفسه: وطنه الذي ينتمي إليه ودولة الغزاة التي لا ينتمي إليها. فإذا مشى في وطنه لم يكن له مفر من أن يعبر من أبواب الدولة وردهاتها وشروطها ومعاييرها وقوانينها. فإذا احتضن شاهداً من شواهد الوطن الذي يعرفه، وجد عنده شاهداً من شواهد الدولة التي ينكرها وتنكره. فيخشى أن يكون قبول ما يكره ثمناً مفروضاً لما يحب. ولعله قد وجد بعد ذلك أن المعادلة نفسها تلاحقه في الواقع الجديد، فاختار أن تكون إقامته الحقيقية في الشعر نفسه. فهناك فقط ليس لأحد سلطة عليه ولا شروط إلا شروط مخيلته وسلطان لغته. وهناك سيكتب نفسه لا الآخرين، وإن كانت نفسه ممتلئة بهم، ولكن على وفق خياراته وشروطه لا على وفق شروطهم وخياراتهم، ولسوف يتوجه بحبه لهم، لا بإملاءات حبهم القاسي له. ولسوف يجعل من العسير عليهم أن يجدوه في موقع سياسي واضح وقاطع في سياق الجدل المواكب لتطورات المواقف السياسية لمنظمة التحرير التي صار عضواً في لجنتها التنفيذية، وانتهت في أوسلو إلى أبعد مما أخذ عليه حين كان عضواً في حزب «راكاح» الإسرائيلي وظهر في الوفد الإسرائيلي إلى مؤتمر الشباب في صوفيا بلغراد تحت العلم الإسرائيلي! فله في الشعر متسع يعفيه من إعلان المواقف بلغة مباشرة لا ترضي طرفاً إلا باستفزاز طرف آخر. وهو لا يريد أن يُعَرَّف بغير شعره. ولغة الشعر الحقيقي بطبيعتها تأبى أن تعتقل في العارض الظرفي، أو أن تنغلق على محمول دلالي محدد. وهذا ما يجعلها مفتوحة على مستويات مختلفة متجددة واسعة من القراءة، بل حتى ادعاء القراءة ممن لا يحسن القراءة!

فإذا سئل عن «أوسلو» اعتصم بلغة الشعر التي تسع الأضداد، وتحيل العارض إلى سؤال وجودي:

- «إنني الآن أخشى على الماضي، لا على المستقبل!»

ثم له أن ينام ملء جفنيه عن شواردها، ليسهر الخلق جراها ويختصموا!

هل معنى ذلك أنه مع «أوسلو»، أم هو ضدها؟! أم أنه ليس معها ولا هو ضدها؟

مكتبة الرمحي أحمد

أهو مضطر إلى قبولها بالاعتبار السياسي الواقعي الظرفي القاهر، دون أن يصادق عليها وجدانه وذاكرته وحلمه باعتبار الحق الذي لا ينبغي أن تتغير روايته، ولا أن يعاد تعريفه وفقاً لما يمكن أن يتحقق منه؟ هل المعنى أن الدولة على جزء صغير من فلسطين التاريخية هي الممكن واقعياً، ولكن حدود الوطن الفلسطيني ليست حدود الدولة الفلسطينية؟ ومع ذلك تبقى الخشية أن يكون ثمن الدولة مصادرة الذاكرة وتغييب رواية الماضي، التي هي رواية الوطن والحق التاريخي. فإذا تغيرت الرواية تغير تعريف الوطن. والأشياء باقية ما بقيت معانيها وتعريفاتها في الوعي والوجدان!

وللشاعر الفذ عادات في توريط من يختزلون شعره بقراءات ضيقة مجتزأة هيأت لها مسبقاً تحيزاتهم الفكرية.

قبل أن ينتقل محمود درويش من حيفا للعيش في الوطن العربي، كان مدخل أستاذنا عبد الرحمن ياغي إلى نص درويش هو انزراعه في تراب الوطن، مقارنة مع شعراء المنفى. وما يفتأ يستدعي من قصيدته: «يوميات جرح فلسطيني»، قوله:

لا تقولي ليتنا نركض كالنهر إليها.. لا تقولي
نحن في لحم بلادي وهي فينا

وقوله:

أيها الجرح المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
إنني العاشق والأرض حبيبة!

فلما حمل درويش حقيبته وغادر أرض الوطن الفلسطيني، وثار جدال آخر في الأوساط الأدبية والثقافية حول تلك المفارقة، لم يجد ياغي حرجاً أن يدافع ويسوغ بنفس القوة والثقة والحدة، قائلاً لنا في قاعة الدرس:

- «الوطن ليس مجرد جغرافيا كما يفهم بعض السذج. الوطن قضية أولاً. ومكان القضية الوعي والوجدان، فأينما ذهب ابن القضية حمل معه الوطن بين جوانحه!» وليست

مكتبة الرمحي أحمد

المشكلة في مدى صحة هذا المعنى مجرداً، ولكن في دلالات توجيه الكلام ومقاصده. وإنه ليقول بهذا عن القائل أكثر مما يقول عن موضوعه، ومستقبل الكلام أذكى من أن تفوته مقاصده التي تتعدى معناه المجرد. وعلى أي حال، فقد كانت شعرية محمود في غنى عن مثل هذا التسويغ. ولسوف يتابع مشروعه الشعري ويرتاد به آفاقاً جديدة بعيدة، يسقط فيها الفارق بين الذاتي والإنساني، وبين الحبيبة والوطن. ولسوف يكون فيه متسع لك ولخصمك. وسوف تتباعد المسافات بين أوله وآخره، حتى يكون بين «سجل أنا عربي» و «الجدارية» بعد المشرقين وبعد المغربين. ومع ذلك سيبقى القارئ العادي يحيل آخره الصعب على أوله السهل فيحمله القديم الذي استوطن وجدانه إلى الجديد الذي يتحدى ثقافته الشعرية وقدرته على القراءة، فلا يخلي المكان للنخبة فقط. ولو أن درويش وقف عند قديمه لخسر القيمة المتجددة وتلاشى حضوره المتألق مع الزمن، ولو أنه بدأ من حيث انتهى لحضرت القيمة ولم يحضر من القراء غير النخبة الضيقة. ولكن درويش نجح فيما أخفق فيه الكثيرون في أزمنة الشعر الأخيرة: حضور القيمة الفنية الفائقة وحضور الجمهور العريض، بينما أوغل شعراء آخرون في طلب الجديد على مطية واهنة من الموهبة، حتى انبتوا عن القارئ في متاهات الشكل الأعمى، وإن المُنْبَت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى. لا شعر ولا قارئ. وإذ رأو المسرح فارغاً لم يجدوا ما يتعللون به إلا فك الارتباط بين الشعر والجمهور، فيقول بعضهم:

- «أنا لا أكتب للجمهور. الجمهور كذبة كبرى!»

ويقول آخر:

- شعري لا يأتي من الحاضر، ولكن من المستقبل، وفي المستقبل يقيم قارئي المؤجل الذي سيكون مؤهلاً لقراءته!

ويكتفي آخرون بنعي جمهور الشعر، ويعلنون موت «القارئ» بدلا من موت الشعر والشاعر!

ولي كلام آخر في المصير البائس للشعر وقد بلغ نهاية تاريخه! ولكنه مُرجأ إلى موضوع آخر.

مكتبة الرمحي أحمد

يبقى أن أقول في موضوع درويش أن لقاءنا في حيفا عام 1968 كان لقاءنا اليتيم، فلم أحرص على لقائه مرة أخرى حتى حين أقام في عمّان في سنواته الأخيرة. ففضلاً عن العزلة النسبية التي اخترتها لنفسي منذ وقت مبكر، فقد شعرت بأن بيننا عالماً من الاختلاف والتعارض في المشرب والمزاج الفكري والنفسي على المستوى الشخصي. ولما كان كلانا ممن لا يجامل بأفكاره وآرائه وشديد الغيرة على معتقداته فقد رأيت أن اختلاف ما بيننا يمكن أن يفسد للود قضية. فآثرت أن يكون اللقاء في النص مستقلاً عن صاحبه. وذلك على كل حال ما يطلب المبدع. يكفيه من الأصدقاء عدد قليل. ولا يكتفي من قرائه أبداً. فهو حاضر ما حضر نصه. ومع كل قراءة جديدة يولد النص من جديد باعثاً معه مبدعه. وهاكم القاعدة الذهبية: لا تقرأ النص في ضوء منشئه كيلا تبخس قيمته بعين السخط أو أن تبالغ فيه بعين الرضا. ولكن، اقرأ النص في النص، وإن كان لابد فاقرأ المبدع كما يتمثل لك في نصّه. فإن النص يشف عن حقيقة مبدعه، كما يحدث في أرض الأحلام.

لا يعنيني من درويش كلامه لي في حيفا في ذلك اليوم من عام 1968، فهو عندي آراء عابرة في كلام عابر. ولكن تعنيني منه تلك النفثة الشعرية المحرورة التي لونت وعود أحلامي، بقدر ما أقّضت مضاجع الغزاة حين وصفتهم بالعابرين في كلام عابر، والمارين بين الكلمات العابرة، وطالبتهم بأن يخرجوا من لحمنا وقمحنا وخبزنا، وينصرفوا.

تلك القصيدة عن الغزاة المارين بين الكلمات العابرة، ليست كلاماً عابراً! وإن آثر درويش ألا يثبتها في ديوانه الذي تلاها، لسبب ما يترك مجالاً للتساؤل والتخمين! أما القول بأنها كانت نفثة غاضبة تغلبت فيها حرارة الموقف على القيمة الفنية، ولذلك لم يثبتها الشاعر في ديوانه التالي، فهو في مذهبي وذائقتي وثقافتي الشعرية حكم جائر، حتى لو كان قائله الشاعر نفسه! بل أحرى بتلك القصيدة أن تتصدر مشروع درويش الشعري، فتكون بوابة العبور إلى عالمه. فهي قبس من أوله السهل ومن آخره الممتنع، لا يضل فيه القارئ العادي ولا يغترب فيه القارئ الناقد؛ ويحضر فيه الحلم الفلسطيني متحرراً من وطأة قارئ عالمي بعيد يشترط تكييف الرواية الفلسطينية واختزال الحلم كي يمنح سمعه وبصره وفؤاده... وجوائزه الأدبية العظمى!

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

رحلة التدين

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. هواجس النفس ووثبة الإيمان

تابعت نشاطي السياسي مع فتح عبر السنتين الثانية والثالثة وشطر من الرابعة من دراستي الجامعية، على الرغم من أن مشاعر الاغتراب في محيط الحركة كانت تتنامى في نفسي مع توالي الأيام، بخاصة منذ أواسط السنة الجامعية الثالثة، بينما كنت أشهد الظواهر السلبية تتفاقم مع الزمن وتنذر بمآلات تتعارض مع وعود البدايات.

ومع ذلك مكثت حيناً من الدهر أغالب نفسي وأحاججها بدواعي الاستمرار التي لم تكن كلها بريئة من هوى النفس. فالثورة ليست كلها تضحيات وإنكاراً للذات.

وليس عجيباً أن تخالط أهواء الزعامة فتى في زهاء العشرين قد اكتسب من الثورة سلطة تنازع سلطة الجامعة على طلبتها. فإذا حزب أمر كبير من حراك الطلبة كان على إدارة الجامعة أن تجتمع بي على صعيد للتفاوض والتفاهم والتوافق. أما بعض أساتذة الجامعة فصار لي بمثابة الصديق المكافئ، نلتقي خارج صفوف الدرس فنتحدث في شؤون السياسة والثورة والفكر والأدب والثقافة. ونشارك معاً في المناسبات والأنشطة الثقافية والأدبية العامّة. وما العجب وقد حملني إنتاجي الشعري والنقدي في هذه الفترة إلى واجهة المشهد الأدبي. فصدرت مجموعتي الشعرية الأولى بعنوان «قصائد في زمن الفتح» عام 1969 وأنا بعد في السنة الثالثة من دراستي الجامعية الأولى، عن دار «الطليعة» المرموقة في بيروت. فكانت المجموعة من أحسن الكتب مبيعاً حسب قائمة مجلة «الحوادث» اللبنانية لشهور عدة. وفي الفترة نفسها انتخبت عضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين الناشئ الذي انضم إلى عضويته عدد من أبرز أساتذتي في الجامعة. وإن هذا ليحيل إلى مفارقة طريفة. ففي الأيام الأولى من التحاقي بالجامعة

مكتبة الربيعي أحمد

الأردنية أواخر عام 1966، كان ثمة لقاء إرشادي عام في قاعة سمير الرفاعي في الجامعة، حضرها عميد كلية الآداب: الدكتور عبد الكريم غرايبه. وهو أستاذ مرموق في التاريخ. وكان له من اسمه نصيب. فكنا نراه غريب الأطوار بعض الشيء. وعلى عادة الطلبة، كنا ننفخ في تلك الغرابة ونبالغ في وصفها، ونأتي بقصص ومواقف دالّة عليها، ثم نجعلها علامة على ذكاء الرجل الحاد وعلمه الغزير الذي يصرف ذهنه عما يدور حوله من الأمور العادية. فهو مثال الصورة النمطية للأستاذ الجامعي الشارد الذهن. فيزعم أحدنا أنك إذا صادفته فألقيت عليه التحية، لم يتنبه لتحيتك حتى يصير بعيداً عنك. والحق أن الدكتور غرايبة كان يميل إلى المفارقات في رواية التاريخ وفي شؤون الحياة والسلوك الإنساني. فيأتيك برأي يصدم التوقعات ويفارق المعروف المألوف. ويروي ذلك بأسلوب طريف ظريف ساخر، ثم يتركك تقلب الأمر في ذهنك، لا تدري جده من هزله. وقد تحسبه لا يعرفك أو أنه قد نسيك لما يظهر من شرود ذهنه، لتجد أنه لم يفته شيء من خبرك.

عوداً إلى ذلك اللقاء الإرشادي العام في قاعة سمير الرفاعي، في مستهل دراستي الجامعية. فإذ خرجنا من المكان تزاحمنا أمام بابه، وأحاط عدد من الطلبة بالدكتور غرايبة يلاحقونه بأسئلة فاتهم طرحها في اللقاء. وكان عندي سؤال خاص. فشققت طريقي إليه وهو يحاول الانفلات من زحمة الطلبة حوله، وألقيت عليه سؤالاً ساذجاً:

- ترى هل يمكن أن تتولى الجامعة طبع مجموعة شعرية لشاعر من طلبتها؟

فأجاب بسرعة وهو يمشي مبتعداً دون أن ينظر إلى وجهي:

- فليأت طالب بديوان جدير بالنشر أولاً، وله علينا أن ننشره عندئذ!

لم يفرحني الجواب! فقد قيل بنبرة من يعلم علم اليقين أنه لن يطالب يوماً بالوفاء بتعهده، لأن شرط الوفاء لن يتحقق. فأنى لطالب أن يأتي بديوان شعر يستحق النشر؟! فما هو إلا من أوهام الفتيان الذين يحسبون أنهم على شيء، وما هم كذلك.

بعد زهاء سنتين ونصف من ذلك الموقف، صدر ديواني الأول كما أسلفت. ولا تثريب على الدكتور غرايبة. فما كنت عنده في تلك اللحظة غير صوت في زحام الأصوات.

مكتبة الربيعي أحمد

وهكذا لبثت حيناً أنازع نفسي على الخروج من «فتح» فتغلبني دواعي البقاء: الذاتي منها والعام، حتى بلغت حداً شعرت معه أن بقائي فيها مع تباعد الرؤية والمزاج الفكري يوشك أن يكون ضرباً من الازدواجية والنفاق، وأن التنظيم صار بمثابة قميص حديدي يثقل أنفاسي. وعلى اي حال، فإن فضاء الوطن وقضيته يبقى أوسع من فضاء التنظيم، والجماعة الوطنية أكبر من العشيرة التنظيمية. وهكذا حسمت أمري في مطلع عام 1970 (وكنت في السنة الرابعة من دراستي الجامعية الأولى)، وغادرت فتح، التي تعرفت في بدء أمرها بهدف التحرير الشامل لكامل التراب الوطني من خلال الكفاح المسلح، حتى إذا أكمل زمانها دورته، صدقت فيها النذر التي لمحتها مبكراً، حين انحسر فضاؤها إلى فضاء غرف المفاوضات المغلقة في أوسلو وأخواتها، فأعادت تعريف نفسها بحكمة متأخرة على لسان رئيسها الثاني: الكفاح المسلح عبث، وليس لي من صفد إلا النظر! وبين التعريف الأول، والتعريف الأخير ألوف الشهداء والأسرى الذين طلبوا من صفد وحيفا وعكا أكثر من مجرد النظر!

قبل خروجي من فتح، وبينما كنت أزداد اغتراباً في الأجواء الأيديولوجية والتنظيمية الغالبة، كنت أوغل تدريجاً في طور جديد من حياتي الفكرية والروحية، سوف يمتد معي وأمتد به أبد العمر. وذاك هو التديّن. فقد بدأت أعيد اكتشاف إيماني الديني ومنزعي الروحي، ومعه أعيد اكتشاف نفسي.

لم أكن ملحداً في أي وقت قبل ذاك. ولكن عدم الإلحاد لا يعني تمام الايمان بالضرورة، حتى تظهر آثار الايمان في وعي الإنسان ووجدانه وتصوراته وجوارحه وعلاقاته. فكم من شخص لا يستحضر إيمانه إلا حين يسأل: هل تؤمن؟ فيجيب: نعم. ثم يمضي في شأنه غافلاً كل الغفلة عن معنى الإيمان وحقيقته وتجلياته وشروطه واختباراته. فالإيمان يزيد وينقص، وهو منازل ودرجات. وعمل الجوارح يُصَدِّق أو يُكَذِّب. وأحسب أنه قد مرّ علي ردح من الزمان لم يكن هاجس الدين يلاحقني فيه كثيراً، وإن لم أخل منه إطلاقاً. والحال أني كنت بعيداً عن فرائض الدين بعدي عن نواهيه ومحرماته. فلا طاعة ولا معصية. ولقد يستيقظ إيماني بالسلب أكثر منه بالإيجاب. فلا

مكتبة الربيعي أحمد

تحرّكه الموعظة، بقدر ما يحركه التأذي من كلام أو موقف ينال من المقدس بطريقة فجة. وكان من هذا كثير في أيامنا تلك. وبعضه من أثر اليسار الطفولي الذي لم يتلقف من الفكر الماركسي إلا بعض العناوين العامة، فلا يجد ما يَتَنَفَّج به إلا شتم المقدسات.

ومداخل الناس إلى الدين والتدين كثيرة كمخارجهم منها. ولا أحسب أن أحداً يحيط بها جميعاً لما يختلط فيها من الدوافع والمؤثرات العاطفية والفكرية والتربوية والاجتماعية ومخاضات الحياة المتقلبة وضغوط الظروف العامة والخاصة، وغير ذلك من العوامل والهواجس والتأملات التي تتحرك في أغوار النفس وخلجاتها التي تكاد تخفى عن صاحبها نفسه. فما هي بالحسبة الرياضية أو التوليفة المنطقية التي يمكن التنبؤ معها باتجاه المسار ومآلاته بقدر كاف من الثقة واليقين. وما قد يدفع بعض الناس في اتجاه الدين والتدين ربما دفع آخرين بعيداً عنهما، كشأن الابتلاءات والصدمات العاطفية. كذلك التدبر العقلي قد يفضي إلى أحد النقيضين. فمن السذاجة أن يختص المؤمنون المتدينون أو غير المؤمنين خيارهم بالتدبر العقلي دون الطرف الآخر. وقد يكون الزعم بالتدبر والعقلانية تسويغا متأخرا بأثر رجعي لخيار الإنسان قرباً من الدين أو بعداً عنه. وعلى الرغم من أن البيئة التربوية الأسرية تسهم بقدر كبير في تكوين الفرد ومزاجه، فإنها ليست ضمينا بالمآل. فقد يلد المتدين أو الملحد نقيضه. بلى، ربما جاز أن نتحدث عن «وثبة الإيمان» (كما سماها الفيلسوف الوجودي المؤمن «كيركجارد») التي تتخطى البراهين المادية. ولكني أزعم أن الالحاد ينطوي على وثبة مماثلة، وإن ادعى صاحبها أن غياب البرهان المادي هو البرهان، واحتج بأن عبء البرهان على المثبت لا المنكر. ثم إذا استقر هذا او ذاك على خيار احتج له بما شاء من أدلة العقل وشواهد الكتاب الطبيعي والكوني!

والحال أن ما يبدو تحولاً مفاجئاً في الموقف من الدين إقبالاً أو إدباراً ربما كان نتاج رحلة نفسية طويلة متدرجّة من التأزم والقلق والشكوك والأسئلة والمخاوف. وهي تسترفد مصادر كثيرة متنوعة مختلطة، ويصحبها صراعات نفسية ومغالبات ومدافعات، والكثير من الحوار المأزوم مع الذات والآخر المباشر والمفترض، بل كذلك مع الخالق سبحانه! فلا أحسب أن الانسان يبيت مؤمناً ويصبح كافراً، أو يبيت كافراً ويصبح مؤمناً.

والناس في هذا الأمر منازل ومذاهب وطرائق شتى. فثمة من حسم أمره واطمأنت نفسه بالإيمان أو الالحاد، فهو مقيم على أحدهما لا يهتز له طرف ولا يفارقه برد

مكتبة الربيعي أحمد

اليقين، وربما خرج بمعتقده من الحيز الخاص إلى العام فاجتهد في الترويج له والدعوة إليه ومفاصلة الآخر عليه. وثمة من لم يفارقه الإيمان يوماً وإن لم يملك عليه نفسه. فهو يذكر واجباته طوراً، وينشغل عنها تارة أخرى بشواغل الحياة والعمل والطموح والصبابات، ثم ما يزال يميل إلى مزيد من الالتزام حتى يستوي على الطريقة وينغمر في دواعي الدين.

ومن الناس من يجتهد في تجاهل الموضوع، وإن لم يكن قلبه خلياً من الإيمان، ليفر من مواجهة ذاته وتبعات خياره على أي جنب يميل، مؤثراً أن يرجئه إلى وقت آخر غير معلوم. فلا هو يرغب في أن يتحمل الآن تكاليف الدين ولا هو مطمئن بالإنكار والاستدبار. وإنه ليضيق بحديث الدين كيلاَ يضعه وجهاً لوجه مع ما يؤثر التغافل عنه. وما يزال يرجئ حتى ينقضي العمر وهو على ذلك.

وقد تعجب من إنسان إذا ووجه بسؤال الدين والإيمان لم يتردد في الإفصاح عن إيمانه ويقينه، وربما شاب جوابه نبرة احتجاج وغضب، أن ينطوي السؤال على مظنة التشكيك. فإذا سئل بعد ذلك: لم لا تظهر حقيقة إيمانك في الشعائر المفروضة، اكتفى بدعاء الهداية لنفسه وطلب الدعاء من غيره. ومن هؤلاء من يجد مخارج أخرى من ذلك التناقض الظاهر بين دعوى الإيمان والانصراف عن الشعائر، فيلح على نقاء قلبه وسريرته واستقامة أخلاقه وحسن معاملته للآخرين وحرصه على حقوق الخلق ومجانبة الظلم؛ ثم يؤكد أن ذلك هو جوهر الدين ومعياره وغاياته ومقاصده، فمن بلغ فيها ما بلغ فقد استبرأ لنفسه ودينه عند الله. أما التقصير فيما عدا ذلك فالله يغفره. وهو أجل وأعظم وأكبر وأرحم. وقد ترى بعض هؤلاء يفاضل بين متعبد منافق لا تصرفه عبادته عن الظلم وأكل الحقوق ونفاق السلطان، وبين آخر مقصر في مجال العبادة والشعائر، ولكنه لا يظلم الناس فتيلاً ويحسن في الأرض ويسارع في الخيرات. فأي هذين أولى برحمة الله وقبوله؟ وكأنه لا يسع الإنسان إلا أن يكون أحد هذين: إما عبادة مع سوء معاملة وخلق، أو حسن معاملة وخلق مع الانصراف عن العبادة. أما أن الدين يفرض الجمع بين هذين الأمرين، فلا يحضر في مثل هذا الحجاج. وما ذاك إلا من قبيل الحيل الذهنية النفسية، لخلق الشعور بالرضا الذاتي ومدافعة الشعور بالذنب. فإذا تسامع بعضهم بما يطعن في سلوك بعض المتدينين أو فكره أو فهمه المنحرف المتطرف للدين، ظن بنفسه خيراً على سبيل المقارنة، وحسب أنه بذلك يقيم الحجة لنفسه، بقدر ما يقيمها على الطرف الآخر،

مكتبة الربيعي أحمد

وتغافل عن حقيقة أن حجة الدين، عند من يؤمن به، تقوم على الطرفين، وأن الحجة على أحد الطرفين ليست بالضرورة حجة للآخر، وأن الأصل محاكمة الذات بمعايير المثل الأعلى، لا بالمقارنة مع النماذج الناقصة. والحق أن المتدينين ليسوا ملائكة معصومين، وأن منهم من لا يستوي ظاهره مع باطنه، ومن يعمل بغير ما يقول، ومن يغلو في دينه غير الحق، ومن يحتال لأهوائه وأغراضه ومصالحه بالتأولات المنحرفة. ولكن إطلاق الحكم على ذلك النحو ظلم فادح ومخرج مرذول. ومنطق الاحتجاج بتلك الطريقة للخروج من أزمة الشعور بالتقصير منطق فاسد. ولعل المنكر بإطلاق أكثر انسجاماً مع نفسه.

وليس بوسعنا أن نشق على الصدور أو نطلع على خفايا النفوس وما يدور في أغوارها البعيدة المكنونة. وثمة مسافة ما بين ما يعلنه الإنسان من نفسه وما يطوي عليه جوانحه من الهواجس والشكوك والتساؤلات. يستوي في ذلك المؤمن والملحد. وكما أنه قد يعرض للمؤمن أحياناً شيء من التساؤلات ووساوس النفس في لحظة عابرة، يسرع إلى طردها مستغفراً، فإن من غير المؤمنين من يعرض له بعض ذلك في معتقده، ويخشى أن يكون على باطل. وربما كان مرد ذلك أثراً من التربية الدينية في مراحل النشأة، يعززه الخوف من الأجل وما يعد به الدين من الحساب إذا صدق الوعد. فالرهان عظيم، والمجازفة هائلة!

ويحرص هؤلاء على إخفاء تلك الهواجس العابرة. على أني استمعت إلى بعض البوح النادر في هذا السياق. فهذا تشارلز برونسون الإنجليزي، أحد أكبر أثرياء العالم وصاحب شركة طيران Virgin المشهورة، لا يخفي إلحاده. وهو يهوى المغامرة الخطرة. وقد شاهدته على شاشة التلفاز يروي كيف وجد نفسه في إحدى مغامراته وقد أحاط به الموت من كل جانب ولا حيلة له. فلما انقطعت به الأسباب وظن أنه هالك لا محالة، شخص إلى السماء يخاطب الله، فيقول: «إن كنت موجوداً حقاً فأنجني من هذه!» وقد نجا. ولكنه ظل بعد ذلك مقيما على إلحاده، ولم ينسب نجاته إلى من توجه إليه بطلب النجاة! وليس من الصعب عليه أن يفسر تلك اللحظة العابرة بالحاجة النفسية التي تقول عن النفس البشرية أكثر مما تقول عن عالم الغيب.

ولا يبرأ الموقف من الدين من تأثير جماعات الضغط المحيطة بالفرد ومزاجها الثقافي العام والصورة الذهنية التي تنتجها لنفسها وتلزم بها المنتسبين إليها أو من يتطلع

مكتبة الربيعي أحمد

إلى الدخول في ناديها. فثمة جماعات مهنية ومتخصصة تطور ثقافة فرعية خاصة بها، ونظماً من المفاهيم والمعاني والقيم، تصبح علامة عليها وجزءاً من هويتها الجمعية التي تنماز بها، فيكون على المتسبين إليها أن ينتظموا فيها، وأن يكيفوا خطابهم وسلوكهم على وفق تقاليدها المسبقة شرطاً مضمراً لاكتمال عضوية الفرد فيها. فمجتمع العلوم الطبيعية في الغرب مثلاً لا يترك حيزاً للخطاب الديني بصورة عامة، ويقاوم بشدة أن «يتلوث» خطابه العلمي التجريبي بمعاني الإيمان والدين والميتافيزيقا. ولا يعني ذلك أن العلماء على مذهب واحد من الإلحاد، فقد أظهرت بعض الاستطلاعات أن قرابة النصف منهم يؤمن بوجود خالق(وهي مع ذلك نسبة محدودة إذا ما قيست بعامة الناس الذين أظهرت استطلاعات أخرى في الولايات المتحدة أن زهاء تسعين بالمئة منهم مؤمن بالله على نحو ما)، ولكن أولئك المؤمنين من العلماء يصمتون في الغالب عن إيمانهم ويلزمون الخطاب التقليدي السائد في وسطهم العلمي، على حين أن كثرة من أقرانهم غير المؤمنين لا يجدون حرجاً في التعبير عن إلحادهم إذ يدمجونه في خطابهم العلمي ويرونه معطى ضرورياً لنماذجهم العلمية التفسيرية. على أن الإيمان بوجود إله خالق هو غير التدين بدين معين كالمسيحية أو الإسلام. والمجتمع العلمي الذي نتحدث عنه أكثر تسامحاً مع مطلق الإيمان منه مع التزام دين معين يجتهد العالم المتدين به أن يوفق بينه وبين العلم في موقف معلن.

ولذا يميل العلماء المؤمنون بصفة عامة إلى الإيمان بوجود إله خالق حسب، لا يتدخل في التاريخ وحياة الناس، فهو كمن صنع الساعة ولف ضابطها ثم تركها تعمل وحدها وفق تصميمها الداخلي. والمؤمن على هذا النحو يقف دون التدين بدين معين، وهو ما يطلق عليه بالإنجليزية Deist ، في مقابل من يسمى Theist الذي يلتزم ديناً بعينه يعتقد أنه الحق، وأن الله على صلة دائمة بخلقه وأن له فعلاً دائماً في التاريخ. ولقد كان أعظم رجلين في تاريخ العلوم مؤمنين. أما أحدهما، وهو نيوتن، فكان من النوع الثاني، إذ كان معتقداً بالمسيحية والكتاب المقدس، وإن خلط ذلك بالإرث الروحي الباطني الخيميائي الهرمسي، فكان ينفق شطراً كبيرا من جهده في استبطان «الشفرة» الباطنية للكتاب المقدس فيما أسلمه إلى نبوءات حول موعد القيامة. وأما الثاني، وهو اينشتاين، فقد كان من النوع الأول: Deist.

مكتبة الرمحي أحمد

ولعل القطيعة النسبية بين الخطاب العلمي والخطاب الديني في الغرب، مردها إلى إرث الصراع التاريخي المعروف بين المجتمع العلمي والكنيسة في عصر النهضة ومطلع العصور الحديثة. وفي رأيي أن عداء الخطاب العلمي للإيمان والدين بإطلاق لا يبرأ من «الدوغما» الإيديولوجية وإن تقنع بلغة العلم التجريبي، و «الدوغما» العقدية تنطوي على قدر كبير من «الاختزالية» Reductionism. أما النظر «الظاهراتي» Phenomenological فيمكن أن يفضي إلى الاعتدال والشمولية. فالفكر الديني يشتغل على مستوى ظاهراتي مختلف عن المستوى الظاهراتي الذي يشتغل عليه العلم، ولكل مستوى منهما موضوعه ونظامه التفسيري Paradigm وأدواته المنهجية وغاياته. إذ يستوي العالم المؤمن والعالم غير المؤمن في منهج البحث العلمي، ولهما بعد ذلك أن يفترقا حول أسئلة الدين وموضوعها.

2. الخطاب الديني والخطاب الأدبي: الود المفقود!

وإذا كان هذا شأن مجتمع العلوم الطبيعية في الغرب، فإنه ألصق عندنا بمجتمع الشعراء والأدباء كما اختبرته. ولما كنت أنتمي إليه فقد كان علي أن أقاوم أحكامه المسبقة وضغوطه المعنوية - المضمرة والمعلنة - في رحلة الإيمان والتدين، وأن أجازف بامتيازات الانتظام في قوالبه للتغريد خارج السرب!

وليس من النادر أن تجد من هؤلاء من يؤمن بالله، ولكن النادر أن تجد فيهم متدينين يلتزمون شعائر الدين، أو يستظهرونه في خطابهم. بل يحرص أكثرهم على التجرد من شبهة التدين خشية أن يوصم أحدهم بالتخلف والتقليد والفكر الرجعي الظلامي ونحو ذلك مما يتعارض مع الصورة النمطية للمبدع المحلق في فضاء الحداثة والحرية، المفارق للسائد والمألوف بوعيه وحساسيته وسلوكه ولغته، حتى بمظهره أحياناً. ولقد ترى بعض ضعاف الموهبة يتقمصون هذه الصورة الذهنية ليعلنوا انتماءهم إلى نادي الإبداع الأدبي والفني، ثم لا يبلغون من الإبداع إلا تلك الصورة. وهي وإن أريد بها أن تعبر عن مفارقة القوالب العامة، فقد غدت في ذاتها قالباً نمطياً جاهزاً ينحشر فيه من ظنّ بنفسه إبداعاً.

ولنا بعد ذلك أن نتساءل: ذاك هو الشكل، فأين المحتوى؟ أو: ذاك هو الإناء فأين الطعام؟! والحق أن القالب النمطي، مهما يكن مصدره وغايته ومادته البشرية، هو نقيض

مكتبة الربيعي أحمد

«الفردية» التي يدعيها المتسبون إلى نادي الإبداع، مع كل ما يقترن بمفهوم «الفردية» من معاني التحرر والتميز والخصوصية!

وفي ظني أن المبدع الذي يختار التحرر من ذلك القالب النمطي الجاهز للمبدعين، يتمتع بقدر أكبر من الشجاعة والفردية وروح التحرر، وإن بدا أكثر انسجاماً مع مجتمعه العام. ذلك أن هذا الخيار قد يكلفه الاغتراب والعزلة عن نادي المبدعين، ويعرضه إلى قدر من التجاهل والاضطهاد والتهميش -وربما السخرية كذلك- من أقرانه في ذلك النادي، ولا يعتدل ميزانه إلا أن يفرض نفسه على المشهد الإبداعي بأعماله المتميزة التي يتنامى الوعي بقيمتها مع الزمن.. هل السبب في نفور المجتمع الأدبي الفني الإبداعي من صورة التدين أن الوعي الإبداعي يبلغ من العمق والرقي ما يتجاوز أوهام «العامة» الغيبية والدينية وما يصحبها من شعائر وطقوس؟! ذلك في رأيي ادعاء نخبوي، وضرب من الغرور والاستعلاء، لا نجد نظيراً له عند المفكرين والباحثين وأصحاب المشاريع الفكرية الجادة، وهم أكثر علماً ومعرفة منهجية منظمة من جل المنتسبين، حقاً أو زوراً، لمجتمع الإبداع الأدبي والفني.

واقع الحال -كما أراه- أن المزاج العام المغترب عن الدين في الوسط الأدبي ليس ثمرة لانتصار الوعي الإبداعي على «الخرافة»، بقدر ما هو استجابة لسلطة التقاليد السائدة في الوسط الأدبي والصور الذهنية النمطية التي اختلقتها الطائفة الأدبية عن نفسها لتمتاز بها عن سائر الناس وتشكل بها هويتها الجمعية الفرعية. وبذلك يكون الموقف من الدين جزءاً من الخطاب الذي تنتجه الجماعة عن نفسها، وتمارس من خلاله سلطتها وإكراهها .

ومن جديد فإن المجتمع الأدبي الفني الإبداعي أكثر تسامحاً مع الإيمان المجرد منه مع شعائر التدين التي لا تنسجم صورتها الذهنية النمطية التقليدية الموصومة بالرجعية مع صورة المبدع المفارقة للعام والمألوف والتقليدي. بل أذهب إلى القول إن الخيال الإبداعي العام في هذا المجتمع أكثر تسامحاً مع لغة الإيمان المسيحي منه مع لغة الإيمان الإسلامي. ولا علاقة لهذا بالاعتقاد نفسه أو بالحقيقة الدينية، ولكنه يتعلق من جديد بالصورة الذهنية وروافد الخيال الأدبي. فرموز الإيمان المسيحي تحيل إلى الغرب الجذاب

مكتبة الربيعي أحمد

أكثر مما تحيل إلى أصولها الشرقية، والغرب يحيل بدوره إلى التقدم والحداثة في مقابل التخلف والرجعية؛ كما أن توظيف الرموز المسيحية من جانب المبدع المسلم لا يلتبس بشبهة التدين، بقدر مايستدعي معنى الانفتاح وعدم التعصب. وإلى جانب ذلك فهو يحيل إلى الآداب الغربية العالمية التي أسست لتوظيف تلك الرموز، قبل أن يستعيرها الشعر العربي الحديث منذ خمسينات القرن الماضي. ولذا تجد منها في ذلك الشعر أكثر مما تجد من الرموز الإسلامية؛ وإذ اتجه الشعراء العرب المحدثون إلى توطين الظاهرة في التراث المحلي، آثر الخيال الشعري العربي أن يعود إلى مصادر عربية وشرقية غير إسلامية من المجتمع الجاهلي إلى أساطير الهلال الخصيب القديمة. فإن استرفد التاريخ والتراث الإسلاميين، تجنب ما يحمل دلالات دينية في إطار التيار الديني الإسلامي العريض والتقليدي، Main - Stream Islam، وآثر رموز التصوف والباطنية وما يوصف بالزندقة؛ ربما لاقترانها بمعاني التمرد والاحتجاج والخروج عن المؤسسة الدينية التقليدية أكثر من اقترانها بالمعاني الدينية الإسلامية.

ومع أن التصوف أكثر إغراقاً في الغيبيات وأشد انفصالاً عن الواقع المادي والاجتماعي والسياسيّ في مجمله، فإن الصورة الذهنية للتصوف تبقى في الخيال الابداعي وخطاب المجتمع الأدبي أكثر جاذبية من الصورة الذهنية للتدين التقليدي الشعائري التي تحيل إلى الحركات الاسلامية والشيوخ التقليديين والفكر الرجعيّ في الوعي الأدبي والإبداعي. ولذا لا بأس في أن يستعير الأدباء والشعراء لغة الصوفية، بل أن ينتسب من يشاء منهم إلى التجربة الروحية الصوفية التي يمكن أن تأخذ طابعاً فلسفياً شمولياً كونياً متجاوزاً، يقطع حدود الأديان، ويبتدع لغة رمزية شعرية مفتوحة على التأويلات، يتعالى بها على لغة الشعائر والطقوس والعبادات والشرائع المخصوصة، فيصير أكثر إنسجاماً مع لغة الشعر نفسه. ومن هنا كان احتفاء كثير من الشعراء والأدباء المتنسبين إلى الحداثة بشعريّة النصوص الصوفية.

خلاصة القول. إن الصورة الذهنية المشيدة لطائفة الشعراء والأدباء، والتي تتقوم بالحداثة والتمرد على المؤسسة التقليدية ومفارقة العادي والمألوف، لا تترك حيزاً للتوافق مع الصورة الذهنية للتدين والمتدينين. فإذا تعرف أحدهم بالأولى، حرص على أن ينأى بنفسه عن شبهات الثانية، وإلا صارت عضويته في نادي الإبداع الأدبي محل نظر،

مكتبة الرمحي أحمد

وقد تعززت هذه الظاهرة في أجواء الستينيات والسبعينيات في القرن الماضي، مع هيمنة الخطاب اليساري في المشهد الأدبي والنقدي العربي متجاوراً في الحيز نفسه مع خطاب الحداثة المستعار من الغرب الرأسمالي كما تجاور بابلو نيرودا اليساري مع ت. س. اليوت الحداثي شعراً، الكاثوليكي اليميني فكراً. ومما زاد في تعزيز الظاهرة أن المتدينين والإسلاميين من جهتهم لم يقدموا نموذجاً إبداعياً واحداً يشار إليه بالبنان. حتى بدا كأن من شرط الإبداع مفارقة الدين والتدين! ولعل هذا يرجع إلى أن الوعي الديني الإسلامي المعاصر لم يميز بين طبيعة الخطاب الديني الفكري والدعوي المباشر، وطبيعة الخطاب الشعري الأدبي، وظن أن الثاني يجب أن يوظف للأول على نحو مباشر. وفاتهم أن الخطابات الأدبية لها أدواتها ومفرداتها وأساليبها التي تتعرف وتمتاز بها، وأن هذه الأدوات الفنية تتعارض بطبيعتها الجوهرية مع لغة الوعظ المباشر والترويج الإيديولوجي، سواء أكان ترويجاً لعقيدة دينية أم إلحادية، وأن التجني على القيمة الفنية الجمالية ينطوي بالضرورة على إحباط رسالة النص نفسها، فالرسالة في الأدب لا تتحقق إلا في البناء الفني الإبداعي نفسه. وإذا كان السؤال المتقدم في النصوص الفكرية هو «ماذا يريد النص أن يقول»، فإن السؤال في النص الأدبي هو عن كيفية القول وهناك بالضبط تكمن الرسالة المتوارية.

هذا كله أسهم في خلق بيئة أدبية إبداعية حديثة تنفر من لغة التدين ومظاهره؛ وفي فرض صورة ذهنية نمطية للمبدع تتعارض مع صورة المتدين، فتمارس سلطتها وإكراهاتها المسبقة على المنتسبين إلى نادي الإبداع كي يتكيفوا في قالبها. فإذا أخذنا بعين الاعتبار قوة الدين الظاهرة والمستترة، فلكم تساءلت: كم من أعضاء ذلك النادي عانى من أزمة التعارض الداخلي بين إيمان ديني يطوي عليه جوانحه ولا يستطيع التجرد منه، وما زال يلح عليه أن يعلن به في خطابه وعمل جوارحه، وبين امتثاله للقالب المرسوم للمبدع الحداثي الذي لا يتوقع منه أن يبدأ كلامه بالبسملة، أو يرى داخلاً إلى المسجد وخارجاً منه! لا أملك الإجابة عن ذلك التساؤل. فالأدباء لا يفصحون ولا يبوحون في هذا الشأن. ولعل البوح فيه يحتاج إلى قدر من الشجاعة أكثر من شجاعة البوح بأسرار التجارب التي تتحدى التقاليد والقيم العامة، في بعض السير الذاتية. فالأولى قد تستجلب تهمة الرجعية، بينما تجد الثانية من يحتفل بها احتفاله بقيم التمرد والرفض والشجاعة الأدبية والحرية! ولكنني أذكر أن إكراهات المجتمع الأدبي والثقافي قد أملت على بعض من أعرف

مكتبة الرمحي أحمد

أن يكتم إيمانه ومقتضيات إيمانه، ويحتال على كتمانه بطرق شتى. فإذا كان في مجلس ما، وأديرت كؤوس الخمر، امتنع عن الشرب، ثم إذا سئل في ذلك تعلل بأوجاع معدته كيلا يعرف عنه أنه لا يشربها تأثماً من حرمتها! وأعرف كذلك من ينفر من لغة الدين، وبالقدر نفسه تستفزه لغة الإلحاد الفجة الفاقعة. فهذه باحثة فذة وشاعرة حديثة من الرعيل الأول، قدمت خدمات جلى للأدب العربي، بخاصة في مجال ترجمته إلى الإنجليزية، وبقيت تتمتع بذهن حادّ ونشاط لافت. وكنت في لقاء معها في بيت أخيها الفخم، وتسجيلات تلاوة القران الكريم مسموعة في البيت دون انقطاع. ثم وجدتها تنفخ متبرّمةً أن صاحبة البيت لا تتوقف عن تشغيل المسجل بالتلاوة وترفع الصوت حتى يتردد في أرجاء البيت، وأن هذا يستدعي صورة المآتم ومجالس العزاء القائمة. ثم انخرطنا في حديث الأدب والشعر والبحث، وساقنا الكلام إلى ذكر أحد الشعراء المعروفين المثيرين للجدل وحظوظه من الفوز بجائزة نوبل. فأبدت نفورها الشديد من مواقفه وأفكاره المعادية للإسلام على نحو مستفز. ثم دار الكلام بيننا حول مشروع بحث تخطط له عن «الفردية والجمعية» في الفكر الإسلامي، وأدليت ببعض الأفكار حول الموضوع. وكان من الطبيعي أن أحيل إلى النصوص القرآنية. فاستشهدت ببعض الآيات ذات العلاقة، فبدا أنها فوجئت بتلك الشواهد كأنها لم تعرض لها من قبل. ولحظت دمعة صامتة تنزلق من عينيها!

ثمة أمثلة أخرى عرضت لي من هذا القبيل لا يتسع المجال لذكرها. ولكنها من جديد تغري بالتساؤل عما يدور ويتلاطم في تلك المنطقة الخفية المجهولة من وعي الإنسان ووجدانه وخلجات نفسه، من حديث الإيمان والدين، والقلق الذي تورثه تلك المساحة بين المعلن والمضمر أو بين إملاءات الإيمان الملحة عند البعض، وإكراهات القالب النمطي المسبق الذي تختلقه جماعة فرعية معينة لنفسها، ثم تفرض على أعضائها تقمصه. هذا مجال للبوح لم يطرق كثيراً! وعلى أي حال، إذا كان معنى «النفاق» ينزل على من يظهر غير ما يبطن تحت وطأة المزاج العام الذي يحيط به، فإن للنفاق وجهين متعارضين ظاهراً، متماثلين جوهراً. فلا فرق عندي بين من ينافق الخطاب الديني بغير ما يبطن رغباً أو رهباً، ومن ينافق الخطاب اللاديني بغير ما يبطن أيضا، رغباً أو رهباً. والإكراه المعلن أو المضمر في الدين أو ضد الدين، قبيح مرذول بمعيار الدين نفسه ومعيار القيم الإنسانية سواء.

مكتبة الرمحي أحمد

وفضلاً عن الاعتبارات السابقة، فإن المزاج الفكري العام المتنافر مع صورة التدين في الوسط الأدبي والشعري، يتغذى كذلك في رأيي من عنصر الغرور والاستعلاء النخبوي المضمر، وإن لم يبده صاحبه. فحتى لو انطوى القلب على شيء من الإيمان فهل يسع هذا المبدع الشهير الفائق الذي ملأ الأسماع وشغل الدنيا، ولا يقبل من طلبات الظهور في وسائط الاعلام والمناسبات الأدبية والمهرجانات إلا أقلها، وإذا ظهر فجأة في مكان ما احتشد الخلق ينبه بعضهم بعضاً: أهو هو؟ وكثر الهمس والإشارات، وجهد البعض في الوصول إليه والتسليم عليه وإبداء الاعجاب، ثم عاد المحظوظ بالرؤية إلى قومه يقص عليهم الخبر- هل يسع مثل هذا أن يرى داخلاً المسجد لصلاة الجمعة على الأقل، فيخلع حذاءه كما تخلعه العامة والبسطاء والسذج والتقليديون! ثم يلتمس لنفسه مكاناً بين المصلين، فيقوم ويركع ويسجد كما يفعلون، ثم يجلس بين هذا وذاك ليستمع إلى خطيب المسجد الذي يغلب أن يكون ساذجاً ضعيف الرأي والحجة والبيان؛ وحتى لو كان خيراً من ذلك فإن طبيعة الموعظة وغاياتها والمستمعين إليها، تقضي بأن تخاطب أفهام الجميع على اختلاف شرائحهم الاجتماعية ومؤهلاتهم الثقافية، ثم إذا فرغ الخطيب ونزل عن المنبر وأقيمت الصلاة قام صاحبنا كغيره، وربما كان وقوفه بين رجلين من أصحاب اللحى الطويلة والجلباب القصير، الذين يحرصون على سدّ الفرج بأن يلامسوا بأقدامهم جوانب أقدام من يليهم في صف الصلاة من الجانبين! لا، لا يسع من بلغ في الأدب والشعر والفن هذا المبلغ من النجومية أو من ظن نفسه أهلاً لها، أن ينتظم في هذا المشهد الجامع، وإن كان فيه إلى جانب العامل وبائع الخضار وصاحب البقالة علماء وأطباء ومهندسون وأساتذة جامعات لامعون يملكون من المعارف والعلوم ما لا يملكه أولئك النجوم، ودرس بعضهم في أفضل الجامعات الأجنبية وربّما علّم فيها ردحاً من الدهر، ثم لم يستكبر أن ينتظم فيما ينتظم فيه العامل وبائع الخضار وصاحب البقالة من الصلاة الجامعة، تلبية لدواعي إيمانه ومقتضيات تدينه.

أما من لا يسعه ما يسع هؤلاء، فلربما وجد في ذلك دافعاً إضافياً لترجيح إنكاره للدين على الجملة، أو إعادة تعريفه على صورة ذاته، فيكون بذلك أكثر انسجاماً مع نفسه. ولست أعني بهذا أن تلك المواقف من الدين في الجماعة الأدبية تتشكل دائماً بتأثير الاعتبارات المذكورة آنفاً. فلا ريب أن هناك من اختار نبذ الدين والتدين عن اقتناع ذاتي

مكتبة الربيعي أحمد

عقدي بمنأى عن ضغوط الجماعة وإكراهات خطابها، كحال أمثاله في المجتمع العريض. ولكننا لا نستطيع إنكار هذا المزاج اللاديني الشائع في الوسط الأدبي وما يتصل به من ظاهرة الإقصاء والازدراء لكل ما هو ديني، وللآخر المتدين.

وإن ذلك لتبدي به النصوص الأدبية نفسها. انظر مثلاً في الأعمال السردية. فإما أن تجد الشخصية المتدينة مغيبة تماماً وكأنها ليست من حقائق الواقع ونسيج الحياة الاجتماعية، وإما أن يستحضرها العمل في صورة نمطية قبيحة تحيل إلى التطرف والجهل والانغلاق والرجعية، وربما أضفيت لها سمات هزلية تثير السخرية. وهذا لا شك ضرب من الإقصاء الإيديولوجي والقمع المعنوي الذي يكشف عن الازدواجية الطاغية بين خطاب الحريات المعلن والمواقف العملية في الواقع.

لماذا تحضر مبادئ حرية الرأي والتعبير والشجاعة الأدبية، في الدفاع عن أعمال تطعن في المقدس الديني، وتغيب مواقف الأدباء - إلا قلة منهم - من الحكام المستبدين في أوطانهم؟! فمن لا يطبّل للحاكم المستبد يصمت عن استبداده. فمن زاد على ذلك اكتفى بالتعميم والتجريد عن التخصيص. وثمة من يحكم الخطاب الإيديولوجي ليميز بين مستبد تقدمي وآخر رجعي، فينحاز للأول ويرفض الثاني. بل إن منهم من يفضل مستبداً علمانياً مهما يبلغ بطشه وقوته على نظام ديموقراطي يمكن أن يفسح لتيار سياسي إسلامي، وإن انتظم في قواعد اللعبة الديموقراطية واحتكم إلى صناديق الاقتراع والإرادة الشعبية الحرة. فما الذي يبقى من مبادئ الحريات والديموقراطية في ظل عقلية الإقصاء المغلقة التي يستوي فيها الأضداد: من يوصف بالتقدمية أو الليبرالية، ومن يوصف بالأصولية والرجعية؟ الإقصاء هو الإقصاء، والاستبداد هو الاستبداد مهما يكن خطابه السياسي والعقدي. والمستبدون ملة واحدة وإن اختصموا. وما الفرق بين أصولي متطرف يرفض الديموقراطية باعتبارها بدعة غربية تخالف مبادئ الدين، وتقدمي يرفضها بوصفها بدعة رأسمالية تتعارض مع مبادئ الاشتراكية العلمية وديموقراطيتها الاجتماعية، وليبرالي يشترط لها إقصاء أطراف معينة قبل الشروع في تطبيقها؟

في ملتي واعتقادي أنه لا ينبغي للخطاب الديني أن يكون شفيعاً لمستبد يدعي التزام الدين عند المؤمنين المتدينين، كما لا ينبغي للخطاب الثوري والتقدمي والعلماني أن يكون

مكتبة الرمحي أحمد

شفيعاً لمستبد آخر عند مؤيدي ذلك الخطاب. فالمستبد لا يتعرف إلا باستبداده، وليس وراء ذلك شيء من العقائد. أما لسان الحال: «مستبد عن مستبد يفرق»، فهو إجازة مطلقة للاستبداد. فلكل مستبد دعاته وجماعته وزبانيته و«بلطجيته». فلا نامت أعين المستبدين!

مجمل القول: إن شعارات حرية الرأي والتعبير والشجاعة الأدبية التي تحشد للدفاع عن عمل يستفز المشاعر الدينية، لا يصدقها الموقف من المستبدين المتألهين الذين يملكون مفاتيح البذل والمنع، والتقريب والتغريب، والترغيب والترهيب، والرضا والبطش، والرفع والحط. فهنا الاختبار الحقيقي للشجاعة الفكرية والأدبية: كلمة حق عند سلطان جائر! ومن المفارقات أن السلطان الجائر نفسه الذي يتقي أولئك النفر من الكتاب عذابه، أو يرجون ثوابه، قد يبدو أكثر مراعاة للحساسيات الدينية الشعبية، فيمنع عملاً أدبياً أو فنياً يطعن في المقدسات أو حتى عملاً يعظم رسالة الإسلام، ولكن في إطار فني مثير للجدل بين مؤيد ومعارض، مثل ظهور الصحابة في الدراما السينمائية والتلفازية. وما مثل فيلم «الرسالة» ومسلسل «عمر بن الخطاب» عن هذا السياق ببعيد!

ومن الطريف ما يتعذر به بعض الكتاب الذين نشروا أعمالاً تتضمن ما يطعن في المقدس بأسلوب مباشر فج مستفز، أثار حملة من الاحتجاج والغضب. فيقول أحدهم: ما أوردت هذا عن نفسي ولساني، إنما أجريته على لسان إحدى شخصيات الرواية، وليس ناقل الكفر بكافر! ولكم ما شئتم أن ترفضوا هذا «الأنموذج» في واقع الحياة وتلعنوه، أما أنا فأصور الواقع الاجتماعي بأنماطه المختلفة. وكان تعليقي: لا بأس. ولكن، هل كنت تجرؤ على أن تنطق شخصية روائية بسب القائد التاريخي الملهم في وطنك باسمه وبأقذع الألفاظ، حتى لو جعلت الكلام على لسان شخصية موصومة بالحقارة والنذالة والخيانة! وهل كان القائد التاريخي الملهم يقبل اعتذارك بمثل ما تعتذر به عن الطعن في المقدس؟ أم أن المستبد المتأله هو المقدس حصراً؟

3. التدافع: اختلاف وائتلاف

ليس اعتراضنا على حرية الاعتقاد والرأي. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. ولكن اعتراضنا ينصب على الازدواجية والنفاق وذهنية الإقصاء، وعلى أشكال الإكراه والقمع المعنوي والابتزاز الفكري الذي يمارسه الخطاب السائد في جماعة ما. فكل ذلك

مكتبة الربيعي أحمد

من سمات «الدوغما» العقدية، وتحكيم الصور الذهنية النمطية المرسومة «للذات» الجمعية، و «للآخر» الموضوع، عوضاً عن تحكيم النظر المعرفي (Epistemological) في الحقيقة الاجتماعية (Social reality) بوصفها ظاهرة يتحقق وجودها الواقعي واشتغالها في التاريخ والتنظيم الاجتماعي بفضل نشاط الوعي الذي يتمثلها ويمثل بها الواقع، فيعمل على إنتاجه وفقاً لذلك التمثيل. وعلى ذلك فإن عدم الإيمان، لا ينبغي له أن ينفي الظاهرة الدينية بوصفها حقيقة اجتماعية ثقافية فاعلة، بل لعلها أقوى الظواهر بقاءً وصموداً وتأثيراً عبر التاريخ. والمؤرخ العظيم ارنولد توينبي لم يكن مؤمناً بالحقيقة الدينية المجردة، ومع ذلك أسلمه النظر المعرفي إلى أن يضع الدين في مكان مركزي في المسار التاريخي. فإن أنت أقررت بذلك لم يسعك أن تخلط بين عقيدتك اللادينية وبين تعاملك الواقعي مع الظاهرة الدينية، فتحكم مبدأ الإقصاء والاجتثاث. وتلكم هي «الدوغما» التي تصبح منها العقيدة اللادينية ديناً معكوساً، لا ينكر الحقيقة المطلقة عند الآخر المتدين إلا بقدر ما يثبتها لنفسه. ثم لا يجد كلا الطرفين الضدين طريقة لإثبات حقيقته وإقصاء حقيقة الآخر إلا إعلان الحرب على الآخر، فيلتقيان فيما اختلفا عليه! والحال أنها حرب خاسرة بالمعيار العملي. فمن اشترط نقض الإسلام لتحقيق غاية إصلاحية تنويرية فقد حكم على مشروعه بالإخفاق وأحبط الغاية النبيلة نفسها مهما تكن ضرورة اجتماعية تحررية نهضوية بحق، إذ غرب وألّب عليها تلك الفئات نفسها التي يفترض أن مشروع التغيير موجه إلى تحريرها وإنهاضها. فإذا أقررنا أن الناس هم وسيلة التنمية وغايتها في الوقت نفسه، فإن الوصفة الكفيلة بإحباط مشروع التغيير والتنوير تتمثل في مصادمة حساسياتهم الدينية والثقافية الراسخة العميقة، حين يوضعون أمام خيارين متفاصلين: فإما عقيدتهم الدينية مع المظالم التي تقعدهم، وإما التحرر وصلاح الحال مع نفي الدين والمقدس! عندئذ ستجد جل هؤلاء يقاومون ما يهدد عقيدتهم ولو حمل لهم وعود التحرر والعدالة والنهضة والتقدم والازدهار! هذه في رأيي شروط موضوعية لا علاقة لها بعقيدة دعاة التنوير والإصلاح إيماناً بالدين أو انكاراً له. فمن كان مخلصاً حقاً لأهداف التحرر والنهوض لم يسعه تجاهل الشروط الموضوعية والمصادر الثقافية للمجتمع وهويته، فيكون كالمنبت: لا أرضا قطع، ولا ظهراً أبقى، أو كمن انشغل بمقاتلة الناطور عن بلوغ العنب كما يفيد المثل الشعبي، ويكون قد جعل «الإيديولوجيا» المجردة في ذاتها موضوع الصراع

مكتبة الرمحي أحمد

وغايته، عوضاً عن توظيفها في تشخيص الواقع وتغييره، ثم تقويمها ومراجعتها في ضوء النتائج والغايات العملية. والشواهد التاريخية المعاصرة في بلادنا ومنطقتنا كثيرة. فذاك شاه ايران الأخير لم يحسن تقدير قوة المشاعر الدينية في بلده وهو يعمل على تغريب المجتمع باسم التحديث والتطوير على طراز الغرب. وكانت النتيجة ثورة اسلامية شعبية شاملة عارمة انتهت بدولة الولي الفقيه و «الملالي». أما تركيا، فبعد أكثر من ثمانين سنة من النظام الأتاتوركي العلماني العسكري الصارم، والذي لم يكتف بعلمنة الدولة، فعمل بكل الطرق على علمنة المجتمع نفسه وتجريده من مصادر هويته الثقافية الإسلامية وعلى إلحاقه بالغرب، بعد هذا كله رأينا الإسلام ينبعث من جديد ويعبر عن نفسه سياسياً بالطرق الديموقراطية مع انحسار وطأة العسكر. وتلكم تونس، لم تفلح محاولات بورقيبة وخلفه زين العابدين في تغريبها وتهميش مرجعها الثقافي الإسلامي بوسائل القمع البوليسية. ذهب الرجلان وبقي الإسلام فاعلاً وموجهاً. أما الجزائر فقد غبر عليها أكثر من مئة وثلاثين سنة من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الثقافي معاً، ولم تختف آثاره السياسية بعد الاستقلال، ومع ذلك لم يقو ذلك كله على طمس الهوية الإسلامية للشعب الجزائري، بل ازدادت قوة في مواجهة التهديد، واتخذت بعض تعبيراتها أشكالاً متطرفة بعد حين.

وقبل الشيوعية المدعومة بالغزو السوفيتي في أفغانستان، لم يكن الشعب الأفغاني يعرف النمط الطالباني المغلق وأمثاله. فإن تهديد الهوية يؤدي إلى انغلاقها كما تؤكد التجارب المعاصرة. والتطرف ينتج نقيضه المتطرف أو يتشارط معه، وكلاهما يتغذى من الآخر. وبدلاً من أن تتدافع الأفكار في مناخ سلمي وديموقراطي يسلّم بالتعددية، وتستظهر في برامج عملية تصدّقها اختبارات الواقع أو تكذبها أو تدفع إلى مراجعتها وتكييفها، بدلاً من ذلك لا يأبه التطرف والإقصاء المتبادل بأن يضحي بالمجتمع ومصالحه من أجل الفكرة! فلا يكون التدافع بين الأضداد على تطوير الواقع واستباق الخيرات، ولكن على غلبة الفكرة بالإكراه، وليذهب المجتمع ومصالحه إلى الجحيم!

ليس عليك أن تكون مسلماً أو مؤمناً أو متديناً كي تقر بقوة الإسلام في الوجدان العام وفي التوجيه والتأثير، وبكونه مقوّماً أساسيا من مقومات الهوية الثقافية الحضارية العربية الإسلامية. وإنما تتعرف الشعوب والأمم بهويتها الحضارية، فيكون تهديدها تهديداً للوجود الجمعي نفسه، فلا غرابة أن تدافع الشعوب عن هويتها المهددة دفاعها

مكتبة الربيعي أحمد

عن وجودها، حتى لو استخفى التهديد في مشاريع تعد بالتحديث والتطوير والتقدم والنهوض والتحرر والعدالة.

وبطبيعة الحال لا يعني ذلك كله قبول الفكر الديني الموروث والمعاصر الذي أنتجه الوعي دون مراجعة وتجديد وتطوير. فلا ينبغي المطابقة بين الوحي واجتهادات البشر في فهم نصوص الوحي وإنزال معانيها على الواقع. وهي اجتهادات محكومة بالشروط التاريخية ومحتوى الوعي. فهي ظواهر ثقافية اجتماعية. وقد بينا في مواضع سابقة أن الثقافة حقيقة ديناميكية متغيرة ومتواصلة في خط صيرورتها، إلا أن تتحلل وتختفي، فتختفي معها الأمة التي تتعرف بها هويتها. وهي كذلك مفتوحة للنشاط التأويلي الذي يرفد التدافع الاجتماعي بين الأفراد والجماعات حول المصالح والأغراض والمطالب المتضاربة في الفضاء الثقافي المشترك نفسه. وبذلك ينتظم التدافع في الحدود الجامعة التي تصون التماسك الاجتماعي. وإلا كان التفكك الذي ينذر بانفراط الهوية الجمعية. فإن كان الأمر كذلك، فإن ضرورات المراجعة والتجديد والتطوير في الموروث الثقافي بعامة، والفكر الديني بخاصة لا تقتضي نبذ المرجع بجملته ولا إلى الانسلاخ من الهوية الثقافية على الجملة شرطاً للتقدم والتحرر. فالتأويلات والقراءات والخطابات الإسلامية المستنيرة أجدر بأن تدافع التأويلات والخطابات المتطرفة، دون أن تغرّب الجمهور العريض باسم التقدم. فالتقدم يفترض وجود موضوع تشتغل عليه مشاريع النهوض، أما نفي الموضوع نفسه فينقل الصراع والتدافع من قضية التجديد والإحياء والنهوض إلى قضية الوجود الذي يتعين في الهوية الثقافية والحضارية.

وإذن، فمن السذاجة والتبسيط المضلل أن يختزل بعضنا الصراع الفكري القائم بين فسطاطين: تيار علماني تغريبي وتيار إسلامي متشدد ماضوي منغلق، ليكون الخيار بين الرمضاء والنار! فلا الفكر العلماني ظاهرة واحدة متجانسة، ولا الفكر الإسلامي كذلك. وثمة خطابات إسلامية ودينية، ربما اختلفت فيما بينها أكثر مما يختلف بعضها مع بعض طروحات الفكر العلماني. وفي رأيي أن التدافع بين الخطابات الدينية والإسلامية المعتدلة والمتشددة، المستنيرة والمنغلقة، أهم في تداعياته المستقبلية من التدافع بين مجمل الخطابات الإسلامية من جهة ومجمل الخطابات العلمانية من جهة أخرى. على أن نزعة الإقصاء المتبادل والتنكر لمبدأ التعددية والتدافع السلمي وقبول الآخر، تفضي عادة إلى استقطاب

مكتبة الربيعي أحمد

حاد يحاصر الخطابات العقلانية المعتدلة المستنيرة في كلا الجانبين، لصالح الاتجاهات الإقصائية الأكثر تطرفاً هنا وهناك.

الدين إذن، كحال أي مرجع عقدي أو مصدر ثقافي، لا ينطق عن نفسه خارج نشاط الوعي الذي يتعامل معه. فالحاكم المستبد يمكن أن يستغله ليسوغ استبداده ويؤبده، ويقمع معارضيه. وفي المقابل يمكن أن يكون محركاً عظيماً للشعوب ضد الغزاة والطغاة. كذلك يمكن أن تستند إليه التيارات المتطرفة المنغلقة لتشريع القتل ونفي التعددية وتكريس التخلف، كما يمكن أن تستند إليه التيارات الوسطية المستنيرة، لتعظيم قيمة الحياة والإنسان، واحترام مبدأ الاختلاف والتعددية، ودفع عجلة التحرر والتقدم والتجديد والتطور والإنماء.

خلاصة القول أنه لا يصح الخلط بين الإسلام بوصفه عقيدة دينية يؤمن بها من يشاء وينكرها من يشاء، وبين الإسلام بوصفه حقيقة حضارية فاعلة نتدافع على طرق توجيهها وتوظيفها وترشيدها، ويجتمع فيها كل من ينتسب إلى الهوية العربية الإسلامية: المسلم وغير المسلم، المؤمن وغير المؤمن، والمتدين وغير المتدين. والفرد مجموعة هويات في الوقت نفسه، يجتمع في إحداها مع طرف، وفي غيرها مع أطراف أخرى، دون أن يلغي أحدها الآخر بالضرورة. أما من جعل هويته العقدية اللادينية أو غير الإسلامية قوة طاردة للهوية الحضارية العربية الإسلامية، فقد احتكم «للدوغما» بدلاً من النظر المعرفي، ووقع في الاغتراب والتغريب وتشتت الانتماء. وربما بحث عن مخرج «إيدولوجي» باقتراح هوية «أقلّوية» بديلة تتجرد من الإسلام، بل كذلك من هوية عربية لا يمكن تفريغها من مكوناتها الحضارية الإسلامية. فمن ذلك اصطناع هوية فرعونية، وأخرى فينيقية، وأخرى سوريّة تنغلق على الهلال الخصيب. ولا أدري كيف يمكن تشييد هوية فرعونية مثلاً، بلا لغة فرعونية متواصلة من الماضي إلى الحاضر، بكل ما تعنيه اللغة من محمولات ثقافية تشكل الوعي والنظرة العامة للحياة؛ وبلا تراث فرعوني حتى في الأدب والفكر والفلسفة يمكن الوصل معه والبناء عليه!

ذلك هو الفرق بين نخب التغريب الإقصائية، وبين مفكر وعالم فذ مثل إدوارد سعيد دفع عن الحضارة العربية الإسلامية بمنهج معرفي فلسفي اجتماعي عميق، كما لم

مكتبة الربيعي أحمد

يدفع باحث مسلم، وهو الذي لا يمكن اتهامه بالأصولية الإسلامية!! ولا شك عندي أن مثل هذا المفكر يحرج دعاة التغريب ومن يعيد إنتاج الخطاب الاستشراقي ويروّج لثقافة كره الذات العربية الإسلامية.

أما كاتب هذه السطور، فقد أنفق شطراً كبيراً من نشاطه الفكري عبر مسيرة الحياة يجادل عن العروبة والإسلام غلاة التغريب والعلمانية الفجة عن يساره، ويجادل عن العروبة والإسلام أيضا وقيم الحرية والتعددية والمواطنة المتكافئة غلاة الفكر الديني المتطرف عن يمينه! وفي كلا الحالين كان يصدر عن مرجع الهوية الثقافية العربية الإسلامية، وعن مصادر إيمانه كما يتعقل نصوصها، وعن مراجعه المعرفية العقلانية، وعن مقته الفطري للزيف والادعاء النخبوي والزعم باحتكار الحقيقة المطلقة على أي جنب كانت. ورب قائل يقول محتجاً للدين أو محتجاً عليه: ولكن الحقيقة الدينية عند من يؤمن بها هي بالضرورة حقيقة مطلقة. وهي كذلك حقاً عند من يؤمن بالوحي والتنزيل، وانا منهم. ولكن المشكلة ليست هنا. فكذلك الماركسي يعتقد يقيناً أن كل الإيديولوجيات وعي زائف، إلا الفكر الماركسي العلمي الذي يطابق حقائق الواقع الموضوعي.

المشكلة حقاً تتمثل في نفي سنة الاختلاف والتعددية والتدافع، بين العقائد وفي إطار العقيدة الواحدة. فترى من يطابق بين الوحي وفهمه للدين، فلا يقر بأن نشاط التأويل والاجتهاد يتوسط بين الوحي والوعي. فإذا تحدث أحدهم فإنما ينطق عن الوحي، ومن خالفه الرأي فقد خالف عن أمر الله وإن كان المخالف مسلماً مؤمناً ملتزماً. ومن ثم ينصب نفسه ناطقاً باسم الله، دون أن يعي أنه بذلك ينازع الله سلطانه في القضاء بين الناس وإنزالهم منازلهم من الجنة والنار، قبل يوم الحساب الذي اختص الرحمن به نفسه حصراً فقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد:40] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:25-26] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:69].

والحق أن سنة الاختلاف جزء من الحقيقة الدينية نفسها. فهي شرط إنساني وعلة وجودية كما شاء الله لها أن تكون: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ

مكتبة الربيعي أحمد

مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ...﴾ [هود:118-119] فمن عاند سنة الاختلاف فقد عاند المشيئة الربانية التي وجهت أيضا بأن يوظف الاختلاف في التنافس على استباق الخيرات بين المختلفين وسيلة للإقناع والتبليغ، لا على النفي المتبادل: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [المائدة:48].

كذلك فإن الاختلاف ناموس ينتج عمليه التدافع (لا التفاصل ولا الصراع) المسؤولة عن تطور المجتمع وتحضره وحيويته الدائبة: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:251].

وهل يكون التدافع إلا بين مختلفين؟ ووجود قوى متدافعه من شأنه ضبط الشطط والطغيان الذي يأتي مع تفرد طرف واحد بأسباب القوة والتمكن، مهما تكن عقيدته، فلا يحتاج إلى تقييد أفعاله واندفاعاته وغرائزه خشية العواقب وردود فعل القوى الأخرى. إذ لا يحد سلوكه رجاء من غيره ولا خوف منه. وذلك بعض ما أفهمه من الآية الكريمة ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق:6-7]. فالاستغناء هنا لا ينحصر في معنى تراكم الثروة، وإنما يعني ذلك استغناء الإنسان عن غيره، ومن ثم غياب شروط التفاوض الاجتماعي بين الناس على حاجاتهم المتعارضة والمتبادلة في آن، وفي إطار شبكة متداخله من الاعتمادية المتبادلة التي تفرض الاعتراف بالآخر والتشارط معه. وهو مايضبط اندفاعات الشطط والطغيان بحسابات المنافع والأضرار. وهذا الفهم يتطابق مع الأطروحة الرئيسية التي توصل إليها عالم الاجتماع الكبير الياس نوبرت في كتابه الكلاسيكي بعنوان «عملية التمدين» The Civilizing Process الذي يرصد فيه عملية التحضر التاريخية التي مرت بها المجتمعات الأوروبية من العصور الوسطى إلى الأزمنة الحديثة. ويخلص إلى أن تطور هذه العملية على صعيد تهذيب السلوك وكبح الاندفاعات العدوانية قد اقترن سببياً بنمو الدولة المركزية وبسط سلطتها العسكرية والاقتصادية على الأطراف الإقطاعية التي كانت قبل ذلك تتمتع بقدر واسع من الاستقلالية والاكتفاء

مكتبة الربيعي أحمد

الذاتي بعيداً عن سلطة الملك وحكومته. وقد صاحب نمو الدولة المركزية ترابط المجتمع الواسع في شبكة من الاعتمادية المتبادلة في الوظائف والأدوار المهنية والإنتاجية والحاجات والضرورات تكاملاً وتبادلاً. وعزز من ذلك ارتفاع وتيرة التخصص الوظيفي. ورافقه كذلك تطور مكافئ في آليات الضبط القانوني التي يصعب الانفلات منها، والرقابة الاجتماعية الأخلاقية والسلوكية. كل ذلك فرض على الفرد أن يضبط سلوكه ويهذب غرائزه ويكبح اندفاعاته الفردية وتصرفاته الفجة في ظل العواقب المتوقعة التي يمكن أن تهدد حاجاته المشروطة بالآخرين، إن لم تهدده بالعقوبة القانونية القاسية. فكان ذلك التطور سبباً أساساً في الارتقاء المدني والتوافق الاجتماعي.

وإذن فإن «التدافع» ينطوي على معنى الاختلاف في إطار الائتلاف، والاعتراف بالآخر والتشارط الوجودي معه بما يحدّ من شطط الإنسان وطغيانه إذا ما استغنى عن غيره فأمن ردود فعله. وليست الديموقراطية في نهاية المطاف إلا تنظيم سياسي لعملية التدافع في إطار قانوني سلمي ملزم للأطراف المتدافعة. وأما الإقصاء والاستغناء فهما مادة الاستبداد. ونفي الآخر المختلف والمخالف إلغاء لسنة التدافع التي لولاها لفسدت الأرض!

حريّ إذن بمن أنفقت شطراً كبيراً من جهدي الفكري أجادلهم عن يميني وعن شمالي أن يتمثلوا هذه الحقائق فيكفوا عن ادعائهم احتكار الحقيقة المطلقة ومحاولة فرضها على الآخرين بأشكال الضغط والإكراه المختلفة، وأن يتوقفوا عن محاولة إثبات الذات بإنكار الآخر، وتسويغها بوصمه، والاحتجاج لها بعورات الآخرين بدلاً من قيمتها الذاتية في استباق الخيرات. وأستطيع بكل ثقة أن أعدهم بأن الآخر لن يختفي على كل حال. ولن تخلو الأرض لأي فريق منهم، ولن يتحقق له الفردوس الأرضي الذي يحلم به حيث لا يرى غير صورته في مرايا الكون. وما فردوسه الأرضي المتخيل إلا جحيم الآخرين! فهل ينتهي الجميع إلى مقولة سارتر «الآخرون هم الجحيم»! وإذا كنا جميعاً آخرين بالنسبة إلى غيرنا، فلا ثم في الأرض إذن إلا الجحيم!

أعترف بأن هذه المعاني، التي تبدو لي الآن أمراً مفروغاً منه، لم تكن شاخصة بوضوح في وعيي حين بدأت أوغل في التدين متدرجاً منذ السنة الثالثة من دراستي الجامعية الأولى بالجامعة الأردنية.

مكتبة الربيعي أحمد

وكما ذكرت سابقاً لم أكن قبل ذلك خلياً من الإيمان، وإن كنت منجذباً إلى الفكر اليساري فترة من الوقت. وأحسب أن ما جذبني إلى الفكر اليساري جملة من الدوافع والمؤثرات. فمنها مفاهيم العدالة الاجتماعية التي لم تفارقني في حياتي قط، مهما تكن اللغة الفكرية التي تتمثل بها؛ ومنها بالطبع عداء الإمبريالية وأجواء الثورة العالمية التي ملأت العالم برموز الكفاح النبيل. وقد بدا في ذلك الحين أن هذه المعاني قرينة اليسار بصفة خاصة، فلا يمكن الفصل بينهما، ولا تكاد تجد لغة أخرى غير لغة اليسار للتعبير عن تلك المعاني. وفي ظل الحرب الباردة بدا أيضا أن العالم منقسم إلى فسطاطين لا ثالث لهما: فسطاط الإمبريالية والرأسمالية، وفسطاط اليسار الثوري. وتلتحق بكل منهما جملة من المعاني: فالصهيونية والاستغلال وقهر الشعوب ونهب ثرواتها، والتبعية والرجعية والعمالة والاتجاهات اليمينية ومؤامرات المخابرات المركزية الأمريكية والتدخل العسكري المباشر وغير المباشر، والفكر البورجوازي والتضليل الإيديولوجي كل هذه تلتحق بالفسطاط الأول، فسطاط الإمبريالية والرأسمالية. أما فسطاط اليسار الثوري في المقابل فتلتحق به معاني التحرر والعدالة الاجتماعية والثورة وتضامن الشعوب المقهورة والتقدمية والتفكير العلمي الواقعي المتحرر من أضاليل الفكر البورجوازي وفلسفاته المثالية. أما إذا قلت: يسعني أن أكون في صف العداء للامبريالية وما يلتحق بها والانحياز إلى مطالب التحرر والعدالة، دون أن أنتسب إلى المرجع العقدي لليسار الثوري الماركسي، ودون أن أتخلى عن مرجعي العروبي الإسلامي مثلاً أو عقيدتي الدينية، فلسوف تجد «الدوغما» الإيديولوجية تحاصرك بالأحكام القطعية الجاهزة، فإن لم تحملك على الفسطاط الآخر، وضعتك في منزلة ما بين المنزلتين قرباً أو بعداً من إحداهما. فأنت لم تتحرر تماماً من الفكر البورجوازي المثالي الذي يغذي الوعي الزائف، أو أن فكر البورجوازية الصغيرة المتردد المتأرجح المتناقض المتقلب بطبيعته يقصر بك عن بلوغ الموقف الثوري الجذري الكامل، أو أن معتقداتك الرجعية تصب في نهاية المطاف -بوعي منك أو بغير وعي- في مجرى الفسطاط الآخر حتى لو استشهدت في مقاومته!

الثوري الكامل هو الماركسي الكامل حصراً حتى لو كان إسهامه في الكفاح المسلح محدوداً وقاعدته الشعبية بين الكادحين الذين ينطق باسمهم صغيرة، وكانوا لا يفقهون حديثاً عن المادية الجدلية والمادية التاريخية والبورجوازية الكبيرة والصغيرة والكومبرادور

مكتبة الرمحي أحمد

والماركينتيلية، وتحركهم معاني الجهاد والاستشهاد أكثر من وعود الفردوس الأرضي الذي تُعِدّه حركة التاريخ الحتمية للكادحين. وإذ تتغذى «الدوغما» الفكرية بنقيضها، فإن التيارات الإسلامية والمتدينين الملتزمين بعامة جهدوا في تشكيل بعض مواقفهم ومفاهيمهم السياسية في سياق ردة الفعل للغة اليسار التي تعاملوا معها باعتبارها «رزمة» واحدة إما أن تأخذها بجملتها أو ترفضها بجملتها، وذاك ما أصر عليه اليسار نفسه!

فإذا كان اليساريون يلحون على اتهام التاريخ الماضي بالمسؤولية عن تخلف الحاضر فلنتجه إلى «أمثلة» الماضي وتنزيهه على الجملة وتفسير ما آلت إليه أوضاع الأمة من الضعف والهزائم والتبعية بالتخلي عن ذلك المثال الذهبي القديم؛ وإذا كان اليساريون يفسرون حركة التاريخ تفسيراً مادياً خالصاً، فلنركز نحن على دور القيم والأخلاق والأفكار المجردة؛ وإذا كان اليساريون يتحدثون عن صراع الطبقات فلنقلل نحن من أهمية ذلك ودوره في التاريخ، ولنتحدث بدلاً من ذلك عن صراع الأفكار والعقائد؛ وإذا كان اليساريون يركزون على التبعية الاقتصادية للمركز الامبريالي الرأسمالي، فلنركز نحن على الغزو الثقافي التغريبي الذي يهدد هوية الأمة. وإذا كان اليسار يميز بين اليهودية بما هى دين والصهيونية بما هى مشروع استعماري استيطاني ويرى أن الصراع معه صراع حقوقى، فلنتحدث نحن عن اليهودية العالمية ومؤامراتها السرية وعن اليهودي بما هو «ماهية» ثابتة لا تاريخية، وعن الصراع معه بما هو صراع ديني!

أما إذا قلت هذه المرة: ألا يسعني أن أكون مسلماً مؤمناً ملتزماً وفياً لهويتى العربية الإسلامية، دون أن يضر بإسلامي وإيماني أن يشمل مصطلحي الفكري مفردات مقاومة الإمبريالية والتبعية الاقتصادية والعلاقة بين الأطراف والمركز والصهيونية بما هي مشروع استعماري يتعرف بالغزو والاغتصاب والاستيطان والإحلال لا بدين الغزاة، والإقرار بدور العامل الاقتصادي المادي في الصراعات وحركة التاريخ إلى جانب عوامل أخرى، والانحياز للطبقات المسحوقة ضد الاستغلال الرأسمالي، ومراجعة التاريخ الماضى بنظرة نقدية لا تفضى إلى العدمية وكره الذات من جهة، ولا إلى «أمثلة» التاريخ ومطابقته مع مثال الوحي من جهة أخرى...؟! هنا أيضا سوف تجد الدوغما المقابلة تحاصرك بالأحكام القطعية الجاهزة لتصمك بالتلفيق والتوفيق والانتقائية والتناقض. فأنت امرؤ فيك شيء أو أشياء من الجاهلية! أما القول المأثور (الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق

مكتبة الرمحي أحمد

الناس بها) فلا يحضر في هذا السياق. فلا عجب إذن إذا اخترت أن تكون مفكراً حراً بعيداً عن «الدوغما» أن تجد نفسك تجادل عن يمينك ويسارك؛ فأنت إسلامي بين اليسار، ويساري بين الإسلاميين!

كذلك كانت الأجواء الفكرية السياسية حينما بدأت أميل إلى التدين تدريجياً في ذلك الزمان من سنوات الستينيات المتأخرة. ولم تكن رحلة سهلة. فالنادي السياسي والثقافي والأدبي الذي أحمل عضويته بكل ما يأتي معها من الامتيازات المعنوية لم يكن مضيافاً لمظاهر التدين كما قلت سابقاً، بل ربما كان قاسياً في أحكامه القيمية على المتدين. وما كان المتدين نفسه ليأنس بلغة العداء للدين واالمتدينين فيشعر بالغربة، وربما اتهم نفسه بالنفاق والازدواجية المحضة. كنت ما أزال «فتحاوياً» نشطاً، وزعيماً للحركة الطلابية وعضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين، وشاعراً معتبراً في الوسط الأدبي والنقدي، ونجماً متألقاً في الوسط الجامعي تؤهله كل تلك الصفات للفوز بإعجاب الطالبات اللواتي لم ينحسر إعجابهن مع ارتباطي بإحداهن في علاقة عاطفية ملكت علي نفسي ووجداني! فكيف لشاب طموح حقق هذا كله وهو بعد فتى جامعي أن يجازف بتلك الصورة الجذابة المتألقة وامتيازاتها المعنوية بالتحول إلى الالتزام الديني الذي سيعيد تعريفه وتصنيفه في نظر جمهوره ومعجبيه ومحبّيه، حتى في نظر الفتاة التي استوطنت قلبه وروحه وشعره ومخيلته وفجرت ينابيع إلهامه؟!

ولكن أعانني عليها طبع ينفر من الزيف والنفاق والمداهنة والمباطنة والازدواجية والادعاءات الكاذبة، وذات حرة تأبى أن تكيف حياتها وظاهرها وفقاً لمعايير الآخرين وتعريفاتهم وتوقعاتهم، وأن تنحشر في قوالب جاهزة، وأن تقايض مبادئها بأي مكاسب وامتيازات مادية أو معنوية. فالمكسب الأعظم هو أن تعيش في سلام مع ذاتك، حتى لو كان ثمنه استدبار الآخرين لك.

فأي فرق بين من يساوم على مبادئه من أجل تلك المكاسب المعنوية التي تمنحها وتمنعها سلطة خطاب ثقافي تحتكر مفردات الثورة والحداثة والتمرد، وبين من يساوم عليها نفاقاً للسلطان أو طلباً للمنافع المادية!

ثم أعانني عليها المصدر الديني نفسه، لكأن رسول الله ﷺ يخاطبني شخصياً إذ يقول (من التمس رضا الله بسخط الناس، رَضِيَ الله وأرضى عنه الناس، ومن طلب

مكتبة الربيعي أحمد

سخط الله برضا الناس، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس!) فاخترت الثانية، وكان كما قال رسول الله ﷺ.

ولكن هذا لم يحدث في وثبة واحدة، وإنما كان علي أن أغالب نفسي على أهوائها وأغراضها وكبرها النخبوي المتواري خلف حجاب اللغة الإنسانية النبيلة! فحتى حين، ظل الدين مستخفياً في ضواحي وعيي ووجداني، لا يستعلن في شعائر العبادة إلا قليلاً. فلم أكن منتظماً في صلاتي. ولكن، ربما حضرت صلاة الجمعة بين الفينة والأخرى، ثم لا أجد في نفسي حرجاً من أن أدعها إلى حين.

ولقد أثوب إلى الصلاة في مسكني فجأة إذا حزبني أمر من الخوف أو الرجاء، أطلب عون الله وألتمس الطمأنينة بذكره والتقرب منه، ولا تكون إحدى الصلوات الخمس المفروضة. فأقوم من الليل أصلي ما تيسر ركعتين إثر ركعتين، حتى يجتمع منها عشرات تصل أحياناً إلى المائة في الليلة الواحدة. وفي أثناء ذلك أجتهد في الدعاء إلى الله فيما أنا فيه من شأن، فلا يخيبني، وأنا الذي لم أقدم بالصلاة المفروضة قبل تلك النافلة، ولم أعزم بعد على الانتظام بها عقب ذلك. ولعله لو اطلع على عملي هذا بعض الشيوخ التقليديين لأفتى بأن صلاتي تلك تذهب سدى، حتى ألزم الصلاة الواجبة الموقوتة أولاً. ولكن الله تعالى أجل وأكرم من أن يفوض الناس التصرف بخزائن رحمته، وإذن لأمسكوا خشية الإنفاق! وفرق كبير بين مقبل بوجهه ومدبر بظهره وإن التقيا في الموضع نفسه من الطريق، فمناط الأمر النية والوجهة. فكيف لو عرف أولئك الضرب من الشيوخ أني كنت أستعين أحياناً على تلك الصلوات الطويلة الطارئة بشيء من الموسيقى الكلاسيكية الرفيقة أشغل بها جهاز الاسطوانات قبل دخولي في الصلاة على درجة وطيئة من الصوت، حتى لكأنها تأتي من مكان بعيد، فتعينني على التأمل والخشوع وطرد الملالة مع طول الصلوات وكثرة الركعات! وإذن لعلا نكيرهم وقال قائلهم: تلك لعمر الله السوأة الكبرى! أتجعل مزمار الشيطان حاديك في صلاتك تلك؟! ولكن الله أجل وأكرم وأحلم وأعلم. فكيف إذا عرفوا فوق ذلك أن الهم الذي حزبني حتى التجأت إلى الله فيه مستعيناً بالصلاة والدعاء، ربما كان أمراً يتعلق بحياتي العاطفية؟ لك أن تتخيل ردة الفعل حينئذ من قوم يؤثّمون الحب مهما يكن عفيفاً. ولكن الله أجل وأكرم وأحلم وأعلم. فلم يطل الوقت حتى تمكن الدين في عقلي ووجداني وجوارحي.. أو قل: حسن إسلامي وأقمت على الطريقة.

مكتبة الربيعي أحمد

4. على طريق الصوفية

لم يلبث التوجه الديني أن حملني إلى التّصوف ليصير دليلي -إلى حين- في رحلتي الروحية. فعكفت على قراءة الموروث الصوفي الإسلامي، وعرفت ابن الفارض والحلاج وابن عربي وعبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي والجنيد وابن عطاء الله السكندري والغزالي وغيرهم. ولما كانت الأدبيات الصوفية نفسها تحذر من التوغل في أرض التّصوف بلا دليل عارف، خشية أن يضل بك الطريق وتختلط عليك الإشارات، فقد التحقت بإحدى الطرق الصوفية التي يتولاها شيخ جليل مقدسي.

وكان مما جذبني إلى التصوف تلك اللغة الشعرية الكونية الغامضة ذات المحمول الدلالي الكبير المتجدد، وما يعد به التأمل الصوفي من اختراق الحجب المادية نحو الحقيقة النورانية المطلقة التي يتقوم بها الكون كله على ما فيه من التنوع والكثرة. كما جذبني إلى التجربة طابعها الروحاني الذاتي في علاقة الفرد مع الله، إذ يتصل الذاتي بالكوني دون تدخل الجماعات والمؤسسات الدينية التقليدية. كذلك فإن التجربة الصوفية تبدد غرورك الفكري النخبوي في سياق البحث عن الحقيقة الروحية.

وليس الأمر كما توهم البعض، خياراً بين منهجي البرهان والعرفان في مقاربة موضوع المعرفة إطلاقاً. فللمعرفة موضوعات ومستويات، ولكل موضوع ما يناسبه من منهج العرفان أو البرهان. فالبرهان يشتغل على الموضوعات المعرفية العقلانية والتجريبية، والعرفان يشتغل على موضوع الحقيقة الروحية الكلية. فلك أن تتنقل بين هذا وذاك في نشاطك المعرفي على وفق الموضوع، دون أن يبطل أحدهما الآخر. فإذا طلبت الحقيقة الروحية، فالبرهان ليس استدلالاً عقلياً ولا استقراء مادياً، ولكنه المعاينة والكشف والتذوق والخبرة الذاتية الخاصة المتجاوزة للخبرات المادية العامة المشتركة. ولذا فلا سبيل إلى نقل المشاهدات العرفانية الروحية إلى الآخرين بلغة لا يسعها أن تعبر إلا عن الخبرات العامة المشتركة. وكيف لك أن تصف للآخرين ذائقة لم يختبروها بأنفسهم، إلا أن تعمد إلى الترميز. والرمز لا ينغلق بطبيعته على معنى واحد محدد. على نحو ما، فإن الطريق العرفاني، من الناحية الفلسفية الابستمولوجية، يجمع بين النقيضين: الفكر المثالي Idealism في أعلى صُوَرِه، وضرب خاص من التجريبية، إذ يصر على أن المعرفة الروحية لا تتحقق

مكتبة الرمحي أحمد

إلا بالخبرة الذاتية والمعاينة المباشرة لا بالخبر ولا بالاستنباط العقلي. ولكنها تختلف عن المنهج التجريبي العلمي بكونها خبرة فردية ذاتية لا يمكن مشاركة الآخرين بها عن طريق الإثبات بالأدلة والبراهين العامة المتعارفة! فالذات هي العين الرائية، وهي مجال الرؤية الذي يسع العالم الأكبر.

أتحْسَبُ أنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ ... وفيكَ انطَوَى العالمُ الأكبرُ

فإذا كانت الرياضة الروحية هي سبيل العرفان الصوفي، فلن يميزك عن غيرك في هذه التجربة ما تعتد به من التحصيل العلمي والفكري والثقافي. ورب أشعث أغبر ذي طمرين لم يبلغ من المعارف العلمية بعض الذي بلغت، قد تقدمك أشواطاً في طريق الكشف الصوفي والحقيقة الروحية، وربما اتخذته شيخاً ومرشداً واتخذك مريداً!

وفي هذا كله تكمن جملة من المفارقات والالتباسات. فعلى الرغم من الطبيعة الذاتية للتجربة العرفانية الصوفية فإن التقاليد الصوفية كما قلنا تحذر من أن توغل في طريقها وحدك بلا دليل، فتضل السبيل وتلتبس عليك الأحوال والإشارات، وقد تخر صعقاً أمام تجليات نورانية لم تتهيأ لها ولم يتحصن قلبك لاحتمالها. فلا بد أن تسلك في إحدى الطرق الصوفية، وتتخذ لنفسك شيخاً عارفاً تكون له مريداً متدرباً، فيقودك في مدارج السالكين درجة درجة، ولا تدخل في طور جديد حتى تكون قد تمكنت من الأطوار السابقة وصرت مؤهلاً لاستقبال التجليات الجديدة وأسرارها الباطنية. ولكن، إذا كانت المعارف الروحية لا تدرك إلا بالتجربة الذاتية والمعاينة الشخصية المباشرة، فكيف للمريد أن يطمئن منذ البدء بأن شيخه من العارفين الواصلين حقاً حتى يسلم له قياده؟ وهل بوسع المبتدئ المتدرب أن يختبر مؤهلات معلمه، وهي في هذا الحال مما يقع خارج الإدراك حتى يبلغ المريد بعض ما بلغ شيخه، ولن يبلغه حتى يقوده الشيخ إليه!!

وإذن، فلا بد من التسليم بما تواطأت عليه الجماعة الصوفية من سمو الشيخ في مدارج العرفان ومواهبه الروحية وكراماته التي يتناقل أخبارها مريدوه شاهداً على ارتقائه واختصاصه واجتبائه!

والأرجح أنك لم تقدم على زيارة الشيخ بين مريديه في مجلس ذكر، إلا وقد تهيأت نفسك للتصوف وتقاليده، وسبقت إليك أخبار الشيخ وكراماته، فإذا دخلت المجلس

مكتبة الرمحي أحمد

غمرتك أجواؤه ورموزه وتقاليده حتى تجردك من معاييرك العلمية والمنطقية والنقدية، وتضعك في مزاج القبول والتلقي والتسليم. فالشيخ يتصدر المجلس، لا يخطئه بصرك لحظة دخولك. فأبصار الحضور تشخص إليه، يتلقفون كلماته القليلة العزيزة كأنها الدر المنثور، ويتنورون وجهه الذي يقسمون أنه يشع بنور اليقين. وقد يتخذ سمتاً مختلفاً في مظهره وملبسه وعمامته. وكلما دخل عليه زائر أو مريد نزل على ركبتيه أمامه ثم أخذ يده فتبرك بتقبيلها، فمن الشيوخ من يمنح يده بلا مقاومة، ومنهم من يحاول جذبها ببطء لا يفوت على المريد بركة التقبيل. وربما فاز المحظوظ بأن يمسح الشيخ على صدره داعياً. وإذا تحرك الشيخ في حاجة ابتدره القوم سراعاً، كل يرجو أن يفوز بأجر خدمته.

والمريدون مراتب على وفق طول الصحبة مع الشيخ والترقي في مدارج السالكين. فمنهم من ينوب عن الشيخ في غيبته، ويقود مجلس الذكر، وله حظ من الكرامات، ومنهم دون ذلك. قد عرف كل مرتبته.

ولكن، إذا قررت أن تخوض التجربة وتسلك مع السالكين، فكيف تختار شيخك وجماعته وطريقته من بين الشيوخ والجماعات والطرق الكثيرة؟ الأرجح أن تقودك المصادفة والعلاقات الشخصية وظروف الزمان والمكان. فما رأيت أحداً من المتصوفة إلا وهو يعتقد في شيخه أنه سيد العارفين الواصلين. ويسوق لك من أخبار كراماته ما يؤيد ذلك. فهذا يرى الملائكة صراحاً، وذاك يعاين عرش الرحمن، وذلك يرى النبي ﷺ وصحبه، وآخر تطوى له الأرض فيزور المسجد الحرام ويطوف بالكعبة ويرجع من ساعته! والمفارقة الأخرى، أن تقاليد التصوف وقواعده تنص على أن صاحب الكرامة الحقة لا يبوح بكرامته ولا ينبغي له، فهي عطية خاصة من الله، وإلا وقعت عليه شبهة الغرور والادعاء وحضور الذات. وكل ذلك حجاب! فكيف إذن يتأتى للمريدين أن يعلموا بتلك الكرامات ويتداولوها بينهم وبين الناس، ويحتجوا بها على وصول الشيخ ومكانته؟

لست أدري! ولكن، بدا لي بالتجربة أن الاعتقاد بالشيخ والتسليم بارتقائه الروحي يوطئ للاعتقاد بكرامته وليس العكس. فالكرامات التي يتناقلها المتصوفة أخبار وروايات، لا يقوم عليها دليل مشهود. ومع ذلك فإن الحكمة المتداولة في التراث الصوفي المعتبر تقول: إذا رأيت الشيخ يطير في الهواء، أو يمشي على الماء فليس ذلك دليلاً قاطعاً

مكتبة الربيعي أحمد

على صلاحه وسموه، حتى تتأكد من أنه منضبط بضوابط الشرع. على أن شطرا من عوام المتصوفة وغلاتهم لا يستحضرون هذه الحكمة. فالاعتقاد بالشيخ وكراماته وكشوفاته يرفعه فوق المساءلة والمحاكمة. فهو مصدر الأدلة لا موضوعها، يعرف الحق به بدلاً من أن يُعْرَفْ هو بالحق، وهو خاصة الخاصة الذين لا تنطبق عليهم بالضرورة أحكام العامة. وقد يبلغ الشطط ببعض غلاة المتصوفة أن يتراخوا في تحكيم المعايير الشرعية في شيخهم، فللعارفين الواصلين أحكام وأحوال خاصة لا يسع العامة أن يدركوا حقائقها وأسرارها. فأحسن الظن بشيخك حتى لو رأيت منه ما يمكن أن تأخذه على غيره. ومن الطبيعي أن يوطئ هذا الشطط إلى شطط أعظم عند نفو قليل من الصوفية، فيروا أن التكاليف الشرعية لا تلزم الشيخ وقد بلغ منها الغاية القصوى: مقام القرب والحب، إن لم يكن الاتحاد والحلول!

لا يحسبن القارئ من حديثي السابق أنني في لحظتي هذه أجمع التصوف في رزمة واحدة ثم أقذفها في سلة الجهل والتخلف والتحريف، متبرئاً من تجربتي الصوفية في مرحلة حساسة من مراحل سيرتي الفكرية والروحية. فليس التصوف كله على سوية واحدة سواء أحكمنا فيه معايير الشرع أم معايير العقل. فهو يتراوح بين الاعتدال والشطط؛ بين الانضباط بأحكام الدين والانحراف عنها؛ بين السعي الجاد العميق لمقاربة الحقيقة وصناعة الأوهام؛ بين منهج الزهد والتأمل والتجرد والرياضة الروحية من جهة والباطنية الغنوصية الحلولية الفيضية وتراث الهرمسية والخيميائية القديم من جهة أخرى؛ بين الفكر الفلسفي العميق والممارسات والاعتقادات الشعبية الساذجة.

يكفي أن نذكر أن النزعات والاتجاهات والمعتقدات الصوفية ظاهرة كونية قديمة تستوطن فلسفات وأديانا مختلفة عبر العالم، لنقدر أهميتها ونتعامل معها بجد واهتمام، فلا نختزلها في بعض المعتقدات والطقوس الشعبية، وذلك بغض النظر عن الموقف العقدي منها عامة أو من بعض أشكالها وتجلياتها. إذ نجد منها في الديانات الشرقية الكبيرة كالبوذية والهندوسية، كما نجدها في الإسلام والمسيحية واليهودية، وفي فلسفات مستقلة عن الأديان المعروفة وسابقة عليها. وعلى الرغم من أشكال الاضطهاد التي تعرضت له حركات باطنية صوفية في الشرق والغرب بتهم الزندقة «والهرطقة» والتجديف والتحريف، فقد استطاعت دائماً أن تعيد إنتاج نفسها في الخفاء عبر العصور. والظواهر ذات الطابع

مكتبة الرمحي أحمد

الكوني تنبثق في أغلب الأحيان من الطبيعة الإنسانية المشتركة وشروطها الوجودية. وفي حالة الظاهرة الصوفية، لا نستطيع أن نعزو صفتها الكونية إلى مصدر تاريخي ثقافي واحد، امتد أثره عبر التبادل الثقافي إلى مجتمعات وثقافات مختلفة. فليس بوسعنا مثلاً أن نتتبع خط علاقة تاريخية بين التصوف في ديانات الشرق الأقصى وفلسفاته من جهة، والتصوف الإسلامي والمسيحي واليهودي من جهة أخرى. وأبعد من ذلك العقائد ذات الطابع الصوفي عند سكان أمريكا الأصليين. على أن هذا لا ينفي أثر الفلسفة اليونانية في التصوف الإسلامي والمسيحي واليهودي، ولا التبادل الثقافي في هذا المجال بين أبناء الديانات الثلاث نفسها.

وعلى الرغم من أن الاتجاهات الصوفية الإسلامية الأكثر اعتدالاً وانضباطاً بقواعد الإسلام، اجتهدت في تأصيل نفسها في المرجع الإسلامي والتبرؤ من أي مؤثرات ومصادر خارجية غير إسلامية، أو سابقة على الإسلام، وتمييز نفسها عن الحركات الباطنية الغنوصية القائلة بنظرية الفيض والاتحاد والحلول، فإن البحث العميق يؤكد دور الفلسفات الصوفية اليونانية في ظهور التصوف الإسلامي باتجاهاته وحركاته المختلفة، إلا أن التصوف الشرعي التربوي المعتدل كان أكثر توافقاً وانسجاماً مع الأصول والقواعد الشرعية الإسلامية، وإن بقيت فيه آثار من الأصول الصوفية الباطنية القديمة.

وفي البحث عن أصول التصوف يواجهنا منذ البدء السؤال عن أصل كلمة «الصوفية» التي حار فيها الباحثون واختلفوا. فهي لم تكن معروفة في صدر الإسلام. ومن جديد اجتهد البعض في رد الكلمة إلى أصول عربية، كالقول إنها من «الصوف» الذي كان يرتديه الرعيل الأول من المتصوفة تقشفاً وزهداً، أو أنها من «أهل الصفة»، وهم طبقة من فقراء الصحابة الذين انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي. وقد تأكد لي بعد طول البحث صواب القائلين بأنها ترجع إلى كلمة «صوفي» Sophi اليونانية التي تعني الحكمة، وتمثل الجزء الثاني من كلمة الفلسفة Philosophy، أي محبة الحكمة.

وقد أسلمني البحث المتعمق على مدى سنوات طويلة إلى تتبع خط التقاليد الصوفية الباطنية الطويل من الأصول اليونانية إلى المسيحية والإسلام واليهودية. وهو خط يبدأ من فيثاغورس، الرياضي المهندس والفيلسوف وصاحب النظرية المعروفة التي

مكتبة الربيعي أحمد

نتعلمها في المدارس. فهو أول من أسس جماعة باطنية سرية تقوم على التراتبية المتدرجة في إطار المدرسة التي أنشأها في إحدى المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا في القرن السادس قبل الميلاد. وقد دمج فيثاغورس بين الأعداد الرياضية ونظرية المعرفة والحقيقة الوجودية المتجاوزة والنظام الأخلاقي. ولعله قد مهد بذلك لفكرة القوة الكونية السحرية الغامضة للأرقام من حيث أن الحقائق الكونية الظاهرة والباطنة تتقوم بها، فمن عرف أسرارها صار بوسعه أن يستغلها للتنبؤ بالمستقبل واستدعاء قوى روحية غيبية وفك «الشيفرات» الكونية المحتجبة. وسنرى هذه الفكرة تتجلى في ممارسات سحرية وخيميائية مختلفة، كما في حساب «الجُمل» وفي أوراق التاروت التي ما تزال شائعة في الغرب عند قارئي الطوالع، وفي عقائد القابالاه اليهودية الصوفية الباطنية. بل إن عالماً عظيماً مثل نيوتن وزع جهده بين التعامل مع الرياضيات تعاملاً علمياً تجريبياً غير وجه العلوم الطبيعية حين استطاع لأول مرة في تاريخ العلوم استكشاف القوانين الرياضية التي تنتظم وفقها الظواهر الطبيعية، وبين التعامل مع الأعداد الرياضية تعاملاً خيميائياً هرمسياً في محاولاته لاستكشاف المعاني الباطنية لنصوص الكتاب المقدس!

المحطة الثانية الرئيسية في الفلسفة اليونانية التي غذت الفكر الصوفي الباطني فيما بعد تتمثل في أفلاطون الذي أسس ثنائية الظاهر والباطن على المستويين الوجودي (الأنطولوجي) والمعرفي (الابستمولوجي). وهي الثنائية التي ستمثل مفهوماً مركزياً في الفكر الصوفي عامّة.

فالعالم المحسوس الظاهر ليس إلا انعكاساً شاحباً أو محاكاة مشوهة لعالم المثل المحتجب عن الوعي الإنساني. والعالم المحسوس لا يتقوم بذاته، وإنما بتلك المثل والحقائق الغيبية. والنفس قبل أن تحل في الجسد وتستوطن العالم المادي المحسوس، كانت تعيش في عالم المثل ذاك، أي في عالم الحقيقة، فلما حلت في الجسد، نسيت ما كانت فيه إلا من ذكرى غامضة هي التي تمكن الوعي من رؤية الوحدة في التنوع الظاهر، فتجمع الشجر المشهود مثلاً على تنوعه واختلافه وخصوصية كل شجرة مفردة، في معنى أو صنف واحد، تردّه جميعاً إلى مثال الشجرة في عالم المثل. فالظاهر إذن يشير إلى الحقيقة الباطنة أو الغائبة، وليس هو الحقيقة في ذاته. وإذا كان الأمر كذلك فإن السعي المعرفي يجب أن يتجه إلى اختراق حجب العالم الظاهر إلى عالم المثل الحقيقي الأصيل، من خلال

مكتبة الرمحي أحمد

التأمل الروحي والفلسفي والالتزام الأخلاقي. الحقيقة إذن متجاوزة بطبيعتها، ومن ثم فإن المعرفة تستدعي التجاوز بالضرورة.

سنجد صدى هذه الأفكار واضحاً جلياً في جملة من المفاهيم الأساسية الصوفية والباطنية الإسلامية وغير الإسلامية فيما بعد التي تتخذ شكل ثنائيات متقابلة:

عالم الشهود - عالم الوجود

عالم الحجب - عالم الحقيقة والكشف المعرفي

الظاهر - الباطن

التنوع الظاهر - الوحدة

الغياب (غياب الحواس والعالم المحسوس) - الحضور (في عالم الحقيقة)

المحو (محو العالم الظاهر) - الإثبات (إثبات الحقيقة الباطنة)

المعرفة المتجزئة - المعرفة الكلية

النسبي - المطلق

الفناء - البقاء (فناء الوجود المادي وبقاء الوجود الروحي، أو الفناء في الحقيقة الروحية المطلقة والبقاء بها).

في القرن الثالث الميلادي، سينقل أفلوطين أفكار افلاطون إلى آفاق فلسفية صوفية جديدة مع مفاهيم الفيض والإشراق التي ستردد بعض ذلك في التيارات الصوفية الباطنية. وفي الوقت نفسه تترسخ اتجاهات باطنية صوفية بأسماء وتجليات أخرى كالهرمسية والممارسات الخيميائية والغنوصية، وستجد طريقها للاستيطان في المسيحية لتشكل التقليد الباطني المستمر حتى الآن على هامش التاريخ المسيحي الغربي. كما ستعرف طريقها إلى اليهودية لاحقاً من خلال «القبالاه»، وإلى الإسلام من خلال الحركات الباطنية والصوفية المتنوعة فضلاً عن الفلسفات العرفانية بدرجات متفاوتة من الانسجام والتوافق مع الأصول والقواعد العقدية الإسلامية.

والحقيقة كذلك أن مصطلح «العرفان» في الصوفية الإسلامية يرتد إلى معنى الغنوصية Gnosticism وهي كلمة يونانية الأصل تعني العرفان تحديداً، ومنها الكلمة

مكتبة الرمحي أحمد

التي دخلت معجم الانجليزية Agnostic التي تعني الشخص غير العارف، وتشير اصطلاحاً إلى الشخص الذي لا يثبت وجود الله ولا ينكره، لانعدام البرهان على الوجود أو عدمه، إذ إن حرف (a) في اللغة الإنجليزية إذا سبق الصفة صار بمعنى النفي، فكلمة Gnostic بدون أن تسبقها (a) تعني العارف، فإذا أسبقت بحرف (a): Agnostic صارت تعني «غير العارف» بالمعنى الاصطلاحي المذكور آنفاً.

وقد صار مصطلح «الغنوصية» دالاً على المعرفة الباطنية بصفة عامة. وظهرت في القرون الأولى من تاريخ المسيحية فرقة غنوصية، دمجت الموروث الباطني الغنوصي اليوناني بالعقيدة المسيحية، وكما هو متوقع فقد اعتبرتها الكنيسة الرسمية هرطقة وتحريفاً، ودفعها الخوف من الاضطهاد إلى العمل السّري. وظل بوسعها أن تنتعش وتعيد إنتاج نفسها عبر العصور بأسماء وحركات سرية مختلفة. وأبرز تجلياتها كان في فترات متأخرة من العصور الوسطى في جنوب فرنسا بصفة خاصة في طائفة «البوغميليان» (Bogimilians) أولاً، ثم في طائفة «الكاثرز» (Cathers) التي حققت نجاحاً كبيراً في اجتذاب الأتباع حتى نظمت الكنيسة الكاثوليكية عملية استئصال كاملة لها في القرن الثاني عشر الميلادي. ثم اتهمت طائفة فرسان الهيكل (Knights Templar) في جنوب فرنسا أيضاً بالهرطقة وتبني عقائد باطنية منحرفة، ولقيت مصيراً شبيهاً بمصير الكاثرز. وإن صحّت الاتهامات التي وجهت لفرسان المعبد فالأرجح أن الأفكار الباطنية قد تسربت إلى هذه الطائفة أثناء وجودها في القدس وفلسطين في فترة الحروب الصليبية من العقائد الباطنية الإسماعيلية، لا سيما الحشاشين، على الرغم من أن فرسان المعبد كانوا من أشد المحاربين ضد الإسلام قبل ذلك.

على أن وقائع الاضطهاد والاستئصال ضد تلك الحركات لم يقض على الاتجاهات الباطنية في الغرب المسيحي، وإن دفع بها إلى التخفي والكمون، حتى تراخت قبضة الكنيسة مع التوغل في عصر النهضة وبداية العصور الحديثة، فخرجت من جديد إلى السطح في صورة اتجاهات فلسفية كالهرمسية، وفي جماعات باطنية مثل حركة الصليب الوردي (Rosicrucian) التي ظهرت في ألمانيا في مطلع القرن السابع عشر وإن ردت نفسها إلى أصول سرية سابقة تعود إلى القرن الخامس عشر، ويرى الباحثون أن مؤسسها Christian Rosenkreuz قد استمد أفكاره الباطنية من المصادر الصوفية الإسلامية في

مكتبة الربيعي أحمد

الأندلس. ويعتقد عدد من الباحثين الغربيين في الحركات الباطنية السرية أن «الماسونية» التي أخذت في النمو والانتشار منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت الوريث العالمي الجديد للجمعيات الباطنية السرية السابقة عليها. وكان نيوتن أحد أعضائها.

أما في اليهودية فقد تمثل الفكر الغنوصي الباطني في طائفة «القبالاه» التي جمعت خليطاً من الغنوصية والخيميائية وسحرية الأرقام، وما تزال قائمة فاعلة حتى الآن، تجتذب أعداداً من التابعين من اليهود وغير اليهود.

أما في الإسلام، فإن التفاعل الغني مع الإرث اليوناني قد شمل الاتجاهات الفلسفية العرفانية، وفي مقدمها الأفلاطونية والأفلوطينية، والأفكار الغنوصية والخيميائية الباطنية. وكانت النزعات الغنوصية قد استوطنت بلاد فارس قبل الإسلام وتجلت بصورة خاصة في عقائد الصائبة، وفي «المانوية» التي استمدت من المسيحية والزرادشتية في إطار غنوصي، وأسهمت ظروف الصراعات السياسية في القرنين الأول والثاني الهجريين، وما تطور عنها من طوائف دينية في تسرب الأفكار العرفانية والغنوصية الباطنية إلى الفضاء الإسلامي. وما لبث الفكر الباطني أن اقترن بالتشيع عامة، وبالفرق الإسماعيلية خاصة حتى بلغ مداه في العقيدة الدرزية التي خرجت من عباءة الإسماعيلية، والعقيدة النصيرية «العلوية» التي خرجت من عباءة الاثني عشرية. وفي الوقت نفسه تطور التصوف الإسلامي متأثراً كذلك بالموروث اليوناني الباطني القديم. وقد اتخذ أولاً شكل الزهد والتقشف والتجرد والانقطاع للعبادة، قبل أن تنمو فيه الأفكار العرفانية بدرجات متفاوتة من الاعتدال والغلو. فمنه ما كان أكثر انسجاماً وتوافقاً مع الشريعة الإسلامية، ومنه ما كان أكثر تعبيراً عن الفكر الغنوصي ومفاهيم الفيض الأفلاطوني. والحلول والاتحاد، وإن بقي ذلك في إطار إسلامي. ومن جهة أخرى توزعت النزعات الصوفية بين النخب الفكرية من جهة، والاتجاهات والممارسات والعقائد الشعبية من جهة أخرى، من خلال الطرق الصوفية المعروفة كالقادرية والشاذلية والرفاعية والنقشبندية وغيرها.

وعلى الرغم من أن الصوفية المعتدلة والطرق الصوفية المعروفة تحرص على تمييز نفسها عن الصوفية الفلسفية الفيضية الحلولية، فإنها في واقع الحال لا تفرق بين الشخصيات الصوفية الشهيرة في تاريخ التصوف الإسلامي من حيث مكان الأفكار

مكتبة الربيعي أحمد

الحلولية والغنوصية عندها. ففي مخيالها يجتمع الجنيد وبشر الحافي وإبراهيم بن أدهم والجيلاني والرفاعي والغزالي مع الحلاج وابن عربي على الرغم من أن الأخيرين ينتميان إلى الفكر الحلولي والفيضي. فإذا واجهت رجال الطرق الصوفية بنصوص من ابن عربي والحلاج تعبر عن معان حلولية، احتالوا على الأمر بطرق مختلفة، كالقول بأن الكلام لا ينبغي أن يؤخذ على ظاهره، وأن الخاصة فقط هم المؤهلون لفهمه. وقد يذهب بعضهم إلى أن ذلك الكلام منحول ومدسوس، ولا تصح نسبته إلى ابن عربي والحلاج. وقد يعترف البعض بأن الشخصية الصوفية المعنية قد باحت بما لا تطيقه أفهام العامة، لا سيما أن اللغة تعجز عن نقل المعارف الروحية المتجاوزة، فيقع بذلك الالتباس الذي يعذر به العامة، دون أن يطعن في عقيدة الصوفي صاحب المقالة! ولذا يروي الصوفية عن الحلاج أنه حين رفع للصلب بتهمة الزندقة، نظر إلى الناس الذين تجمعوا ليشهدوا صلبه، فقال: (أنا شهيد، وأنتم مجاهدون)!

في المرحلة الأولى من انخراطي في التجربة الصوفية كنت شديد الحماس في الدفاع عن التصوف دون تمييز، وفي تأصيله في الإسلام وتبرئته من المؤثرات والعقائد والمصادر غير الإسلامية، وفي ابتداع التأويلات التي ترفع عن بعض نصوصه ومقولاته تهم الغلو والانحراف عن العقيدة القديمة. نعم، لا نقول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وننزه الخالق عن المخلوق، ولكن في وسعنا أن نتحدث عن وحدة الشهود، أي أن الكون بكل ما فيه لا يقوم بذاته، وكله قائم بالله الواحد الأحد، وهو الشاهد على الحقيقة الربانية المطلقة، فإذا بلغنا من الكشف المعرفي الروحي ما نتجاوز به العالم المحسوس، غابت الكثرة الظاهرة، وحضرت الحقيقة الإلهية الواحدة المطلقة التي لا يقوم الوجود المشهود المتنوع إلا بها، أو التي تستبطنها مظاهر الوجود. كنا ننشد في مجالس الذكر:

والله مـــا هـــذا الوجـــود	إلا مشـــير للمعبـــود
فقـــم ونـــاد يـــا ودود	يـــا ظـــاهراً في كـــل شيّ
دع طـــرق الغـــيّ	الـــدنيا فَيّ
الكـــل يفنـــى	والبـــاقي حـــيّ

مكتبة الربيعي أحمد

ليس من الصعب أن نتلمس في عبارات هذه الأنشودة الصوفية الشعبية صدى من ثنائية أفلاطون: عالم الحقيقة والمثل المحجوب، في مقابل عالم الظل الدنيوي الظاهر (الدنيا فيّ أي فيء وظل). كما يمكن أن نرى ما يمكن أن يلتبس بفكرة الاتحاد والحلول (يا ظاهرا في كل شيّ)، وإن كنا نحملها على المعاني التي أوردناها آنفاً.

وفي وسعنا كذلك أن نبني على ثنائية الروح والجسد (أو جانب الوعي والجانب المادي في الإنسان كما صاغها ديكارت بعد قرون)، لنقول بأن فينا إلى جانب الوجود المادي الحسي قبساً من نور الله يتعلق بالروح (ونفخنا فيه من روحنا). ولمن خشي أن يفيد ذلك معنى الحلول، ذكرناه بأن النور ليس من ماهية الشيء ولا هو جزء منه وإن صدر عنه أو فاض منه، كالنور من الشمس.

ومن ثم فإن الوصول إلى مقام العرفان والسمو والإشراق والكشف والاتصال بالوعي المطلق، إنما يتحقق بتغليب ذلك القبس النوراني على حجب الجسد والمادة، من خلال التعبد والتقرب والتجرد والتأمل والتقشف، فإذا بلغ أحدنا ذلك، تحرر الوعي من محددات الحواس واخترق حجب العالم المحسوس، فاتصل بالوعي المطلق وانكشف عنه الغطاء فبصره اليوم حديد، وبلغ من العرفان وهو ما يزال حياً، ما لا يبلغه الآخرون إلا بالموت: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق:22]. وبذلك يصير العبد ربانياً يرى بنور الله. ومن جديد فإن هذه الرؤية تحليل إلى إشراقية أفلوطين من جهة، وإلى سبيل المعرفة الحقة عند أفلاطون من قبله.

وفي هذا الإطار، يمكن كذلك أن نتحدث عن الحقائق الكونية الشاملة العظمى التي تستكن وتحتجب في المخلوق الصغير، فإذا بحث في عمق نفسه بالطرق العرفانية وجدها تتسع وسع الكون، وكان اكتشافه لحقيقة ذاته اكتشافاً للكون كله، ذلك أن حقيقته الروحية هي نفخ من روح الله، أو قبس من نوره.

أتزعم أنك جرمٌ صغيرٌ　　　وفيك انطوى العالم الأكبر

وهنا أيضاً يذكرنا معنى البيت بعبارة مشهورة تنسب إلى شخصية أسطورية غامضة في الموروث الباطني اليوناني، وهي شخصية هرمس ثلاثي العظمة (Hermes

مكتبة الرمحي أحمد

Trismegistns)، والعبارة المعنية هي «في الأدنى كما في الأعلى» (As above so below). والمعنى أن الصغير يحتوي الكبير، وأن الحقيقة الكونية العظمى تستخفي في كل شيء مهما يكن صغيراً. وقد أسهم التراث الهرمسي إسهاماً كبيراً في الاتجاهات الباطنية في الغرب وفي محيط الإسلام.

ومن الواضح أن هذه المعاني يمكن أن تلتبس مع فكرة الحلول، وإن كان في الوسع تأويلها بما لا يتعارض مع عقيدة التنزيه. ومما يتصل بهذا المعنى نشيد استمعت إليه في مجالس الذكر الصوفية في الأيام الخالية، ومنه:

أنـــــت نســـــخة الأكـــــوان فيـــــك صـــــورة الـــــرحمن

فاتـــــل ســـــورة القـــــرآن باســـــــــــــــم الله

وأذكر أن منشد الطريقة، كان إذا طلب منه إنشاد هذه الأبيات، تردد خشية التباس معناها بمفهوم الحلول والاتحاد.

بلى أزعم أنني كنت بارعاً في التأويل بما يرفع التعارض في وعيي بين تلك المعاني الصوفية الملتبسة وأصول العقيدة والشريعة، فأرعى حول الحمى دون أن أقع فيه. أو هكذا بدا لي في ذلك الزمان. ولم يصرفني الانشغال الصوفي عن التعمق في العلوم الشرعية العامة، ولا عن الفكر الإسلامي المعاصر من الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا إلى حسن البنا وسيد قطب وغيرهم.

كما ذكرت سابقاً، بعد سنين من القراءة والبحث سوف يرجح عندي تأثير المصادر الصوفية والباطنية الغنوصية السابقة على الإسلام في مجمل التصوف الإسلامي والعقائد الباطنية فيه على اختلاف اتجاهاتها اعتدالاً وغلواً، وقرباً وبعداً من الأصول الشرعية والعقدية الإسلامية. فثمة فرق هائل بين صوفية ابن عطاء الله السكندري في حكمه المعروفة وبين العقائد الغنوصية الباطنية التي تمثلت في فروع من التشيع الإسماعيلي مثلاً، وفي العقيدة الدرزية والعقيدة النصيرية العلوية. وثمة فرق واسع أيضاً بين صوفية الغزالي التربوية الشرعية وصوفية ابن عربي الفيضية الإشراقية. ولعل الغزالي هو أهم مفكر قدم منهجاً صوفياً متوافقاً مع الأصول الإسلامية، ومتجرداً من الآثار المباشرة للفلسفة الفيضية والعقائد الغنوصية والمصادر غير الإسلامية بصفة عامة. ولذا عم تأثيره الاتجاهات

مكتبة الربيعي أحمد

الصوفية وغير الصوفية على السواء. وفي الوقت نفسه، غرّبه الجانب الصوفي في منهجه عن خط الفقهاء النقليين، بينما غربه جداله ضد الفلسفة عن خط الفلاسفة العقلانيين.

مع الإقرار بأثر المصادر السابقة على الإسلام في ظهور الاتجاهات الصوفية الإسلامية بقي سؤال هام راودني طويلاً: لو لم تكن هناك تلك المصادر السابقة على الإسلام في المنطقة التي امتد إليها وتفاعل مع موروثها، هل كان تاريخ الثقافة الإسلامية يخلو من الاتجاهات الصوفية؟

بعبارة أخرى: هل كان الموروث الصوفي والباطني السابق على الإسلام هو العامل الأوحد الذي أغرى الفكر الإسلامي بتوطينه في الإسلام وتكييفه معه، أم أن ذلك الموروث قد أمد جدولاً تخلق في الحيز الإسلامي على نحو ذاتي ابتداءً؟

ذكرت في موضوع سابق أن الأفكار الصوفية ظاهرة كونية تقطع حدود الثقافات والأديان، وإذا كان في الوسع تتبع خط من العلاقة التاريخية بين بعض الاتجاهات الصوفية في ثقافات وفلسفات وأديان معينة، فإنه ليس في الوسع ردها جميعاً إلى مصدر ثقافي تاريخي واحد أمدّ الثقافات المختلفة في العالم. وبذلك يمكن القول إن النزعات الصوفية متأصلة في الطبيعة الإنسانية الفطرية وإن استعانت بأشكال ثقافية مختلفة، أو عبرت عن نفسها في إطار الدين. فهي تتصل بالأسئلة الإنسانية الكبرى عن الحقائق الكونية والأصل الوجودي والعلاقة بين العالم المادي وما وراءه، وبين الخالق والمخلوق، وبين الكثرة والوحدة، كما تعبر عن توق الإنسان إلى التجاوز ومن ثم التواصل والتلاحم مع المنظومة الكونية بكل تجلياتها وتنوعها باعتبارها روحاً واحداً وإن كان محتجباً عن الحواس. كما أن المنهج الصوفي يؤكد العلاقة الذاتية الشخصية مع الله دون وساطة المؤسسة الدينية التقليدية ووصايتها، ويدخل الإنسان في حوار داخلي مستمر مع ربه فيبقى مستحضراً لمعاني الألوهية، وذلك غاية «الذكر»، (وهو ما يلح عليه الموروث الصوفي الإسلامي)، ومن ثم يقرب مابين الإنسان وربه (ومفهوم القرب أيضاً يحتل مكاناً مركزياً في التصوف)، فيصل إلى سوية متوازنة بين مفهوم التعالي الإلهي والقرب من الله، فالله وإن كان منزهاً عن صفات مخلوقاته، متعالياً في ملكوته، فإنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، ويعلم نجواه وجهره وسره، وما هو أخفى من السر. وإذن فإن تعالي الله لا ينفي قربه، ولكن الناس ليسوا على سوية واحدة من الوعي بذلك القرب المحتجب، إلا أن

مكتبة الرمحي أحمد

يدرب المرء بصيرته الروحية على اختراق الحجب بالذكر والتأمل والتعبد والزهد والسمو الروحي إلى مقام الكشف فيرى بعين الروح، لا الجسد، وبنور الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!

لعل هذه الأشواق الإنسانية الكونية هي منبع التجارب الصوفية والأصل في ظهورها في ثقافات وأديان مختلفة، وفي جاذبيتها العالمية التي جعلت العالم الغربي يحتفي بقصائد جلال الدين الرومي احتفاء منقطع النظير لم يقيده انتماء الرجل إلى الإسلام. كما كانت تلك الجاذبية مدخل الكثيرين في الغرب إلى إعتناق الإسلام عبر التصوف.

وإذن، فالأرجح عندي أنه كان من الطبيعي أن تتخلق النزعات الصوفية في الإسلام بصورة ذاتية، ثم وجدت التراث الصوفي الباطني السابق على الإسلام فوافق أسئلتها وتطلعاتها وتوقها، فنهلت منه بطرق وأقدار متفاوتة.

ومن جانب آخر لعبت ظروف الصراعات السياسية دوراً في تبني بعض الطوائف والجماعات للموروث الصوفي والباطني القديم، لتنماز به عن التيار الديني الرسمي العريض ومؤسساته، ولتوفر لموقفها السياسي المعارض غطاءً عقدياً في داخل الإسلام نفسه، وإن كان مخالفاً للعقيدة الرسمية. وهذا يفسر توجه بعض الحركات الشيعية المعارضة إلى دمج العقائد الباطنية الغنوصية بالإسلام، كما يفسر إسهام الفرس الخاص في نقل تلك العقائد وإنتاجها.

وبصرف النظر عن العوامل السياسية، فإن الجاذبية الكونية للأفكار والاتجاهات الصوفية على نحو ما ذكرنا يمكن أن ترتقي روحياً بالإنسان وتجعله أكثر صفاءً واتساعاً وتقبلاً للآخر المختلف، وأكثر استحضاراً للمعاني والمقاصد والغايات في الدين بدلاً من اختزاله في الشعائر والطقوس والمظاهر. ولكن تلك الجاذبية نفسها يمكن أن تتحول إلى «جاذبية قاتلة» كما اختبرتها في مشاهداتي وواجهتها في قراءاتي وبحثي في الفرق والطوائف. إذ إن الشرط المنهجي الأول الذي يدعو إلى تجاوز الحواس والمحسوس وصولاً إلى الكشف العرفاني والاتصال بالحقيقة الكلية المحتجبة وراء مظاهر الكون وتعدده وتنوعه، يمكن أن يتخذ حجة لتغييب العقل وبراهينه مع تغييب الواقع الملموس بوصفه حجاباً وعالم أشباح لا غير. ويسوغ هذا بمعان أخلاقية تربوية جذابة كالزهد والتجرد والانقطاع

مكتبة الرمحي أحمد

عن الشهوات والرغبات. وهذا يتعارض مؤكداً مع الوسطية الإسلامية التي تدعونا للسعي في الأرض وإعمارها وتعقل الكون وظواهره وقوانينه المسخرة من أجل الإنسان، واعتبار ذلك ضرباً من التعبد عند المؤمن. لماذا يجب أن يكون المنهج العرفاني طارداً للمنهج البرهاني والتجريبي، وكل منهما يعمل على مستوى ظاهراتي Phenomenological مختلف؟

وتعطيل العقل بدعوى المحو الذي يؤدي إلى الاثبات، والغياب الذي يؤدي إلى الحضور، والفناء الذي يؤدي إلى الوجود في المطلق، يمهد الطريق لصناعة الأوهام في مخيلة تهيأت نفسياً للتلقي والتأثر والقبول بلا سؤال. وبعض تلك الأوهام أكاذيب محضة قصدية يصنعها بعضهم ويصدقها آخرون، تسليماً لشخصية «كاريزمية» قادرة على التلاعب بالعقول وتوجيهها والسيطرة عليها. ألم يصنع الحسن الصباح لأتباعه فردوساً في قلعة «آلموت» أذاقهم من بعض طيباته وأشهدهم بعض عجائبه، ومناهم بحياة خالدة إذا قتلوا في سبيل الدعوة، فكان بعد ذلك إذا أمر أحد أتباعه أن يلقي نفسه من أعلى السور ليلقى حتفه، سارع إلى ذلك مسارعته إلى ذلك الفردوس الذي عاين طرفاً منه. وبعض الأوهام ليست كذباً مقصوداً بالضرورة، وإنما هي رؤى متخيلة. تصنعها الأشواق والرغبات والتهيؤات النفسية والانغمار العاطفي ثم يصدقها صاحب التجربة.. فالإنسان في هذا يرى ما يريد، ويخترع ما يحسب أنه اكتشف! أنى لنا أن نميز بين الكشف الحق والوهم المخترع وليس لنا دليل عليه إلا أن نصدق أو نكذب، نثبت أو ننكر! فنحن لسنا في صحبة الشاهد الذي انكشف عنه الغطاء أو حصلت له الكرامة، وإذا كان قد رأى فإننا لا نرى معه.

كنت في مجلس من مجالس الطريقة الصوفية التي دخلت فيها أواخر عقد الستينات، ولم يكن شيخنا حاضراً، فهو يقيم في القدس ويتردد على عمان حيث نقيم بين الفينة والأخرى. أما في غيبته فكان ينوب عنه في قيادة الذكر أحد المقربين المتقدمين في الطريقة. وهو تاجر بسيط محدود الثقافة والتعليم. وكان هذا مضطجعا يتكئ على وسادة ويتحدث. ولا أذكر الآن سياق الكلام حين سمعته يقول بنبرة عفوية: - أنا أزور مصر كل يومين تقريبا.

ولم يكن السفر بالأمر العرضي المتيسر في ذلك الحين. فعجبت من القول، كيف يتأتى للرجل أن يسافر إلى مصر ويعود كل يومين وكأنه يذهب من عمان إلى الزرقاء

مكتبة الربيعي أحمد

القريبة؟ وماذا عن تكاليف الطيران إلى مصر بهذه الكثرة العجيبة؟ فوجدتني ألقي عليه سؤالاً ساذجاً من باب تحصيل الحاصل:

-بالطائرة؟ تسافر إليها بالطائرة كل يومين؟

نظر إلي نظرة حائرة محيرة بين التعجب والاستنكار، ثم أجاب بكل ثقة ويقين مع ضحكة مشوبة بالسخرية:

-بطائرة ربنا!

يعني سفر الروح الذي تطوى فيه الأرض لصاحب الكرامة طيّاً!

كان ذلك الموقف أشبه بجرس المنبه.

هل كان الرجل يكذب متعمداً أم خيلت له أوهامه ما حسبه حقاً وصدقاً؟ لا أستطيع الجزم حتى هذه اللحظة، وإن كنت أميل إلى الافتراض الثاني. فقد كان الرجل ذاكراً متعبداً حسن السيرة، وما علمنا عليه من سوء، وإن شئت أن أحسن الظن بأثر رجعي، فلعله أراد الرؤيا الصادقة في النوم التي يعتقد أن الروح تتحرر فيها من قيود المادة والجسد فتطوف في آفاق الأرض وأمصارها!

في هذا الفضاء الملتبس الذي يستخفي فيه الحد الفاصل بين الحقيقة والوهم ولا دليل على العرفان إلا الخبر، تضفى على شيخ الطريقة هالة روحية غامضة آسرة. كيف لا وقد رفعت الحجب بينه وبين الله وتدفقت عليه الفيوضات الربانية، فهو يرى بنور الله وبعين المطلق، أي أن وعيه المتجاوز قد اتصل على نحو ما بالوعي الإلهي، أو أنه يستمد منه مباشرة. فإن لم يكن هذا قولاً بالحلول، فإنه لا شك يتاخمه ويلتبس معه ويحيل إليه بقدر ما. وهذا في رأيي يتصل بنزوع إنساني إلى تشخيص المقدس الإلهي وتقريبه إلى عالم الشهود الإنساني في صورة وسيط بشري أو أيقونة أو صنم. وهو مدخل واسع من مداخل الشرك الوثني عبر التاريخ، إذ يصطنع الإنسان رمزاً مادياً مشهوداً للمقدس الإلهي غير المشهود، كالوثن والأيقونه، وما تلبث قداسة المرموز إليه أن تنزل على الرمز نفسه فيكون التعبد عنده أو التقرب إليه سبيلاً إلى التواصل مع معناه، أي أن الدال يلتحم على نحو ما بالمدلول. ألم ينقل القرآن الكريم عن مشركي قريش قولهم في أصنامهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:3].

مكتبة الربيعي أحمد

فإن لم يعبر هذا المنزع الإنساني عن نفسه في الوثن والأيقونة، عبر عنها في تقديس الزعامات الروحية تقديساً يبلغ مداه في الغلو في عقيدة التجسيد والحلول، أو قارب ذلك بدرجات متفاوتة. ولذا نجد في بعض الأديان والعقائد أن رسل الدعوة وأئمتها قد تحولوا إلى موضوع الدين ومحوره وغايته، بدلاً من أن يكونوا وسائط تبليغه. أو بعبارة أخرى، تصبح الرسالة الدينية شهادة للرسل والأئمة بدلاً من أن يكونوا دعاتها وشهداء على الناس بها حسب. فيرتفع النبي إلى مستوى الألوهة باعتباره تجسيداً لها، وتصبح الإمامة -كما هي عند الشيعه- اصلاً من أصول العقيدة وركناً من أركانها إلى أن تصل بها بعض الطوائف الباطنية إلى تأليه الأئمة.

ومفهوم «الولي» في الصوفية الإسلامية بعامة، ليس بعيداً عن اشتغال هذا المنزع الإنساني، وإن لم يكن جميع المتصوفة على نفس القدر من الغلو فيه، ليقولوا مثل ما قال الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

هذه الأجواء الباطنية يمكن أن توفر بيئة خصبة لانتعاش نزعات البارانويا (أوهام العظمة) عند بعض أئمة الطرق الصوفية. فهم يرون الأتباع يقبلون أيديهم خاشعين، ويتبادرون إلى نعالهم إذا قاموا إليها، ويتبركون بأشيائهم لما اكتسبت من بركة صاحبها، ولا يخاطبون شيخهم إلا همساً وهم مطأطئو رؤوسهم إجلالاً. ولا يشرعون في عمل أو خطة حتى يستأذنوا صاحبهم فيعملوا بأمره، وليست مشورته كمشورة غيره من باب التدبير والنظر العقلي، ولكنها مشورة العارف الذي يرى الحقيقة فيحكم بها، وكأنهم بذلك يستخيرون الله فيخير لهم بما يعلم من الخير. وإذا طلبوا من الحياة أو الدين شيئاً سألوا الله بشفاعته ووساطته، وإذا وجدوا أنفسهم في أمر من الخوف أو الرجاء نادوا باسمه بدلاً من أن يدعوا الله مباشرة بلا وسيط. فإن لم يكن في الشيخ شيء من «البارانويا» أصلاً ربما تخلقت في نفسه، وإن كان فيه استعداد مسبق لها شبت وربت وتعاظمت. وربما صدق اعتقاد أتباعه فيه، وظن أنه ممن اختصهم الله واجتباهم كما اجتبى الأنبياء، فإن لم تكن نبوة فولاية تتاخم النبوة بغير وساطة الوحي. ويحتال الوعي على اللغة ليسوغ ويتأول. فالمعجزة للنبي والكرامة للولي، والعصمة للنبي والحفظ للولي، فإذا سألت عن معنى الكرامة لم تجاوز معنى المعجزة، وكذلك الحفظ لا يخرج عن معنى العصمة.

مكتبة الربيعي أحمد

ولكن الأخطر من هذا أن بعض الشخصيات الكاريزمية المدفوعة بجنون العظمة والرغبة العارمة في السيطرة والقيادة تجد في هذه البيئة الباطنية المستعدة للخضوع والتسليم والقبول والاتباع بلا سؤال ولا برهان مجالها المناسب لخلق أسطورتها حتى التألّه. يكفي أن تتسم بصفات كاريزمية قادرة على التلاعب بالعقول، وأن تتقمص لغة العرفان الباطني وصولاً إلى الادعاء بحلول الجوهر الإلهي فيها. وهي تبدأ في العادة من العقائد الشائعة المقبولة ثم ما تزال تدفع بها إلى آفاق جديدة حتى تبلغ غايتها. فهذا يزعم أنه باب الإمام الغائب في العقيدة الشيعية، وما هي حتى يكتسب من تفويض الإمام له - كما يدعي - بعض قداسة الإمام نفسه وعصمته وخوارقه واجتبائه واختصاصه، ثم ما هي حتى يصبح هو نفسه تجسداً لروح الإمام فيستظهر الإمام فيه بكل قداسته، ثم يعيد تعريف النبوة والإمامة لتصبح تجسيداً وتجلياً للجوهر الإلهي نفسه في أزمان مختلفة، وها هو الجوهر الإلهي أخيراً يتجلى فيه، ربما بمستوى أعظم من القوة والظهور بما يتناسب مع تطور الحضارة والوعي الإنسانيين. وإذ هو كذلك فإنه يملك الآن أن يقطع مع الشريعة السابقة وينسخها مؤسساً لدين جديد يرث ما كان قبله.

هذه ببساطة وإيجاز قصة البهاء والبهائية كما هي في نصوصه ونصوصها. ومن يقرأ في نصوص البهاء ورسائله يجدها حافلة باللغة الباطنية الغنوصية الحلولية الفيضية.

لا يستطيع الباحث المدقّق، مهما يكن معتقده: مسلماً أو مسيحياً، مؤمناً بدين أو غير مؤمن، أن يتجاهل أثر المسيحية وما فيها من مفاهيم التجسد، في الاتجاهات الباطنية الإسلامية. ولا يستطيع أن يتجاهل أنها أظهر في الطوائف الشيعية منها في السنة، وإن لم تبرأ الحركات الصوفية السنية من بعض آثارها ومعانيها. وليس من قبيل الصدفة أن الطوائف الباطنية التي تشكلت في سياق الإسلام وقالت بالحلول والتجسّد وتأليه الأئمّة، كالعقائد الدرزية والنصيرية العلوية والبهائية أخيراً، قد خرجت من بيئة التشيّع. فقد وطأ لها الحضور الطاغي للأئمة في المخيال الديني الشيعي والعواطف الروحية، وما ينسب إليهم من العصمة والخوارق وعلم الغيب والتفويض وأن الله يصرف شؤون الكون من خلالهم، حتى القول بأنهم الغاية من الخلق والكون، وأن الملائكة مسخرون لهم، وأن الأرض لا تخلو من الإمام قائم الزمان حتى تسيخ الأرض بما عليها وتكون القيامة. وإن صورة العائلة المقدسة في المسيحية لتتناغم مع الصورة المقدسة لآل البيت في العقيدة الشيعية.

مكتبة الربيعي أحمد

بل إنك لترى في بعض الصور المرسومة لعلي و ولديه الحسن والحسين أثراً من أسلوب الصور الأيقونية للعائلة المقدسة في المسيحية الأرثوذكسية.

من جانب آخر، لا نستطيع تجاهل الوشائج بين المخياليين الشيعي والصوفي السني. فالقول في أئمة الصوفية شبيه بالقول في أئمة آل البيت. وثمة في المخيال الصوفي عالم باطني مواز للعالم الظاهر تقوم فيه حكومة باطنية خفية على رأسها «قطب الغوث». وهو في المركز الأعلى من ذلك الهيكل التراتبي. ولا تخلو الأرض من ولي يحتل ذلك المركز، فلا يموت قطب إلا ويحل محله آخر بالاجتباء الإلهي الذي لا ندري كيف يتم بلا وحي منزل. ويليه مراتب منها مرتبة «الأبدال» وهم أربعون. وقد يصل الشطط إلى القول بأن الله تعالى يصرف شؤون الكون من خلال القطب. وفي رأيي أن هذه الصورة المتخيلة ليست إلا أثراً من نظرية الفيض والتفويض في الأفلوطينية والغنوصية، والقول بأن العقل الأول قد فاض بالعقل الثاني الذي فُوّض بخلق الأكوان المادية! والطرق الصوفية على أي حال تتنازع الادعاء بأن شيخها هو قطب الغوث دون غيره! فإذا أمعنا النظر وجدنا قدراً كبيراً من التطابق بين القطب عند الصوفية، والإمام قائم الزمان عند الشيعة.

ليس من الغريب أن يفضي تقديس أصحاب الطرق الصوفية لشيخهم أو إمامهم على نحو ما ذكرنا إلى تحول بعض الطوائف الصوفية إلى ضرب من الإقطاع الديني السياسي الذي تنتقل فيه زعامة الطائفة ومشيختها بالوراثة من الآباء إلى الأبناء عبر الأزمنة، دون اعتبار لأي معيار آخر غير الوراثة، كما هو حال المهدية والميرغنية في السودان.

وعلى المستوى الفلسفي فإن الفكر الصوفي القائل بوحدة الوجود وانتظامه جميعاً في روح واحد، يمكن أن يصل إلى مفارقة لافتة، إذ يدق الحد بين الروحانية الخالصة والمادية الخالصة في تعريف الوجود. ففي الوقت الذي تعمل فيه فكرة التجسد على تحويل الوجود المادي المتنوع إلى حقيقة روحية واحدة، فإنها تمثل الحقيقة الروحية في الوجود المادي حتى يصبح في مجموعه عين الحقيقة الإلهية. وهذا ما نجده في فلسفة اسبينوزا التي يمكن النظر إليها من زاوية معينة بوصفها مطلق المادية، ومن زاوية أخرى من وصفها مطلق الروحانية.

وفي العقود الأخيرة برز في العالم الغربي تيار تندمج فيه أشكال الثقافة الشعبية بالأفكار الفلسفية يعرف باسم «العصر الجديد» New Age . وهو خليط من الأفكار

مكتبة الربيعي أحمد

الباطنية الغنوصية والوثنية والسحرية والخيميائية. وبدلاً من أن تتوجه الأفكار الروحية إلى إله منزه متعال فإنها هنا تطابق بين الحقيقة الروحية المطلقة الغامضة وبين العالم الطبيعي الذي ينطوي على وعي كوني يتخلل أجزاءه ومظاهره ويربط بعضها ببعض. وفي هذا تستمد فلسفة العصر الجديد من العقائد الوثنية الأرواحية Animistic التي تضفي حياة وروحاً على كل الموجودات المادية، كما تستمد من العقائد الشرقية العريقة ذات البعد الصوفي Mystic. فتركز على وحدة الوجود ومفهوم الطاقة الكونية الواحدة التي تأخذ مكان الإله الشخصي. ثم تستعين على ذلك بنظريات الكم Quantum الفيزيائية الحديثة لتعطي تصوراتها تلك أساساً علمياً. فكل جسيم من مكونات الذرة مهما دق وصغر يرتبط بالشبكة الكونية الكاملة وله فعل في مجملها. والإنسان بالضرورة جزء من تلك المنظومة الطبيعية الروحية. فإن شاء لم يكن مجرد مستقبل لآثارها وعملها وكان فاعلاً متحكماً فيها، بل قادراً على استقطاب طاقتها وتوظيفها لغاياته على أن تكون غايات خيّرة إيجابية. فإن شئت أن تحقق السلام الداخلي ومعها حاجاتك المادية والنفسية مهما تبد بعيدة عن قدراتك المادية والعملية، فما عليك إلا أن تروض نفسك وفق برنامج معين من التأمل، لتتحرر من الطاقة السلبية وتبث بدلاً منها طاقة ايجابية تتّحد بقنوات الطاقة الكونية. فإذا نجحت في ذلك استجابت لك تلك الطاقة الكونية الحية القادرة المقتدرة لتمنحك كل ما تطمع إليه من الحاجات: الثروة والنجاح والشهرة والحب والصحة، فضلاً عن الصفاء الداخلي، كل ذلك بطريقة عجائبية لا تخضع لمعايير العقل المألوفة والتدبير والجهد العملي. وهكذا يبلغ الإنسان في التوحد مع طاقة الكون ما يبلغه الصوفي الباطني من التوحد مع الله حتى يصير عبداً ربانياً يقول للشيء كن فيكون! وتصبح الممارسة الروحية من خلال منهج «العصر الجديد» أنجع السبل لتحقيق النجاح المادي في هذه الدنيا: هنا والآن! ولم تعجب؟ انظر فقط إلى معلمي فلسفة العصر الجديد كيف حققوا ببيع كتبهم وأشرطتهم وعروضهم ثروات هائلة! فهم مثل حي على صواب ما يروجون له! الروح في هذا السياق تودع في حسابات البنوك. وهو ما يعطي معنى جديداً لعبارة الجمع بين الحسنيين!

ألا إنه خليط عجيب من المعتقدات الباطنية والهرمسية والخيميائية والوثنية والمفاهيم الفيزيائية الحديثة والثقافة الاستهلاكية المادية. وهو من جانب آخر جزء من

مكتبة الربيعي أحمد

ثورة ما بعد الحداثة على الموروث العقلاني الغربي الحديث الذي تأسس في عصر العقل Age Of reason وعصر الأنوار Enlightment، وثورة على اقتصاد الإنتاج لصالح اقتصاد الاستهلاك، وتوظيف مادي استهلاكي خالص لموروثات روحية قديمة لم تفقد سحرها وجاذبيتها ولا قدرتها على التشكل من جديد وفقاً لظروف الزمان والمكان والتقاليد السائدة.

كل ما سبق يظهر أن التقاليد الصوفية العرفانية المتواصلة عبر التاريخ فضاء واسع يجمع بين الحكمة العرفانية المعتبرة في تاريخ الفلسفة والفكر الإنساني، والمعتقدات الشعبية، و أوهام المخيلة، والتوق إلى الصفاء الروحي والتواصل مع الحقيقة المطلقة، والنزعات الإنسانية الكونية، والتوظيف السياسي والمادي للمعاني الروحية، والممارسات السحرية، والأفكار الخيميائية التي لا ينبغي إختزالها في محاولات تحويل المعدن الخسيس إلى معدن ثمين ولكنها تعني في الجوهر السمو بالوجود الروحي إلى مقامات عليا (وما رواية باولو كويلو: «الخيميائي» إلا رحلة تحول روحي لبطل الرواية حتى لحظة الإشراق والتجلي، ومن هنا كان عنوانها). وفي هذا الفضاء نجد بعض أعظم الفلاسفة والحكماء في تاريخ الأفكار: فيثاغورس، وأفلاطون، وأفلوطين، والغزالي وسبينوزا. وما كان هؤلاء حواة ولا سحرة ولا منجمين، ولكنهم كانو عقولاً عظيمة وأرواحاً نبيلة قلقة أرادت الحقيقة فسددت أحياناً وقاربت أحياناً أخرى، وأصابت وأخطأت، وتركت إرثاً حياً مفتوحاً للقراءة والتأمل. وفي الفضاء نفسه نجد تلك الشخصية الأسطورية: هرمس ثلاثي العظمة، ونجد الغنوصيين والخيميائيين والقابلاه والطوائف الباطنية في الإسلام والطرق الصوفية وابن عربي والحلاج والجيلاني والرفاعي والشاذلي والبدوي وجلال الدين الرومي وشمس تبريز ورابعة العدوية والحسن الصباح، وطائفة الكاثرز (المتطهرين) في جنوب فرنسا، وأساطير الباحثين عن الكأس المقدسة، وفرسان الهيكل، وطائفة الصليب الوردي، وطوائف الإقطاع الصوفي في بعض بلاد الإسلام، ومروجي العصر الجديد، والحواة وباعة الأحلام والأوهام وقارئي الطوالع، ومشايخ الطرق الصوفية الشعبية الذين يتعمم بعضهم بالأخضر، بينما يتمايل الأتباع والمريدون من حولهم على وقع الذكر، فمنهم من يطيح مصروعاً من شدة الوجد ومنهم من يبقى متماسكاً تحت

مكتبة الربيعي أحمد

الفيوض الربانية، فهو كالجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب. وهناك الأبله الذي يلاحقه الصبيان ظلماً وعدواناً في الطرقات، ثم يقال لك: ما هو بمجنون إنما هو ولي مجذوب، ضعف قلبه عن احتمال التجليات والفيوضات فخر لها صعقاً ولم يصح منها، أو هو كالفراشة التي اقتربت من مصدر الضوء حتى احترقت، أو هو كالعين التي تعرضت لنور قوي باهر فعشيت به، أو أنه ذهب إلى أرض الحقيقة والكمال والأبدية فلم يسعه الرجوع منها إلى أرض النقص والحجب والأشباح. فهو إذاً أولى بتقبيل يده والتبرك به من رجمه بحجارة الصبيان، أو الإشفاق عليه!

كيف تشق طريقك في هذا الفضاء المزدحم بالحكماء والشعراء والحواة والحالمين والواهمين، إلى منابع الحكمة التي تسمو بروحك وتطهر قلبك وتضيء بصيرتك وتشحذ سمعك وتتسع بجرمك الصغير ليسع العالم الأكبر، دون أن تضللك أصوات الحواة وباعة الأحلام؟ كيف تدرب سمعك لينتقي من زحمة الأصوات المختلطة ترانيم العشق الإلهي وأناشيد الوجد الصوفي وأصوات الحكماء الباحثين عن المعرفة والمعلمين الكبار المخلصين الذين أغنوا الوعي الإنساني، وتراتيل العبّاد والزّهاد والقائمين في جوف الليل يناجون ربهم ويدعونه سرا وعلانية، ويبسطون أجنحتهم للضعفاء والفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، ولا يَدّعون لأنفسهم اختصاصا ولا اجتباءً!!

بعبارة قصيرة، كيف تنطلق منجذباً كالفراشة نحو مصدر الضوء البعيد، دون أن تضللك الجاذبية القاتلة للنار وصواعق البرق الخُلّب، فتحترق بها وأنت تحسب أنك تحسن صنعاً؟!

لم تؤرقني هذه الأسئلة حين انخرطت في التصوف، إذ لم يكتمل المشهد إلا بعد سنين من البحث والتأمل في الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية وحضارات الشرق الأقصى. أما في ذلك الزمن البعيد فقد بدت لي الأمور أقل التباساً، وأعانني على ذلك مهارات التأويل. شاركت في حلقات الذكر، وبذلت قصارى جهدي في التركيز والتأمل، رجاء إلى أن أصل إلى حالة من الكشف، أغيب معها عن نفسي وأحضر في النور

مكتبة الربيعي أحمد

الإلهي. حاولت كثيراً. وكنت أرى بعض المشاركين تصيبه الرجفة ويصرع أرضاً ويتحدث بلسان غريب ليس من ألسنة البشر، حتى يتدخل الشيخ فيعينه على الثبات والسكينة. فأغبط المصروع على ما رأى حتى صعق به، وأغبط الثابت الراسخ لأنه رأى وكان له من القوة والاستعداد ما جعله كالجبال تحسبها ثابتة وهي تمر مر السحاب! فأمضي في المحاولة لعلي أبلغ بعض ما بلغوا.. ولكن وعيي دائم التنبه لما يدور حولي ويزدحم بالأسئلة والأفكار. فأرجع على نفسي باللائمة أتهمها بالقصور عن بلوغ ما يكفي من التجرد والذوبان في التجربة حتى أعبر الحد الفاصل بين عالم الشهود وعالم الحقيقة المحتجبة. حاولت وحاولت مراراً وتكراراً دون جدوى.

أخيراً حدث شيء!

بلى رفع الحجاب عن وعيي! ولكنه حجاب الأوهام....

لماذا أطلب ما لم يوجبه علي عقل ولا نقل.. ولم يؤثر مثله عمن هو خير مني: الصحابة أنفسهم؟

لماذا أقاوم ما طبعني الله عليه من التعقل والتدبر والتحليل والنقد والمساءلة والمراجعة والتفكير الحر؟

لماذا أُحّقر تلك الجوهرة الثمينة والمنحة الإلهية التي تسمى العقل وأسميها حجاباً وهي مناط التكليف وخلافة الله في الأرض وإعمارها والقراءة في كتاب الله المنزل وكتابه الكوني؟

لماذا أقهر طبيعتي التي تنفر من الانقياد الأعمى لفرد أو جماعة، سواء أكان ذلك الفرد قائداً سياسياً أم قائداً روحياً، ومهما يكن صوت الجماعة هادراً جارفاً؟

لاشيء يستفزني أكثر من عبارة: القائد الأب الرمز، ثم رفع صوره كالأيقونة في كل مكان، أو ذلك الهتاف الجماعي الغث له: بالروح، بالدم، نفديك يا........، أو الدوران معه دون سؤال أنّى دار، حتى لو انقلب من الموقف إلى ضدّه، ولسان الحال: لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وأنه يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، ولا يرينا إلا ما يرى ولا يهدينا إلا سبيل الرشاد!

مكتبة الربيعي أحمد

وشأن هذا في السياسة كشأنه في الطرق الصوفية، حتى قال قائلهم: لن تبلغ شيئاً حتى تكون مع الشيخ كالميت مع غاسله!

لا أستطيع، ولا أريد. ولسوف أدرك في وقت قصير أنني لا أصلح أن أكون فرداً في حزب أو جماعة منظمة ينتظر النشرة الداخلية الصادرة عن القيادة ليعلم الموقف من أمر ما؛ فإن لم يتقبله إيماناً واعتقاداً وتسليماً انصاع على قذى، حفظاً للعشيرة التنظيمية من أن تؤتى من العشائر الأخرى المنافسة على حمى العمل السياسي، حتى لو اتفق رأيه الشخصي في تلك المسألة المخصوصة مع موقف العشائر الأخرى!

كان ذلك أحد أسباب انصرافي عن «فتح» دون أن أنصرف عن العمل الوطني، مثلما كان أحد أسباب انصرافي عن الطريقة الصوفية، دون أن أنصرف عن البحث العرفاني وعما استقر في وعيي ووجداني من الحكمة الصوفية النقيّة الموافقة للشريعة. ولست أنكر بهذا ضرورة الجماعات والأحزاب والتنظيمات من حيث المبدأ، فهي في السياق الديموقراطي، من مؤسسات المجتمع المدني. ولكن ما أنكره ألا تفسح في نظامها وسياساتها مساحة كافية للفرد وحرية التفكير واختلاف الرأي والتعددية. وعلى أي حال، ما يصلح له بعض الناس، لا يصلح له آخرون. وكل ميسّر لما خلق له. والتنوع شرط إنساني واجتماعي. ومن ذلك طرق المعرفة.

في لوحة رافاييل الشهيرة التي تصور «مدرسة أثينا» يظهر أفلاطون وأرسطو في وسط مجموعة من فلاسفة الإغريق. أما أفلاطون فيشير بإصبعه نحو الأعلى، وأما أرسطو فيرفع يده إلى مستوى خصره ويتجه بها نحو الأرض. والصورة على هذا النحو ترمز إلى الفرق بين الحكيمين العظيمين: فبينما يرى أفلاطون أن حقائق الأشياء تقع خارج العالم المادي المشهود، أي في عالم المثل، يرى أرسطو أن حقائق الأشياء توجد في عالم التجربة من حولنا. لو أتيح لي ان أقحم نفسي في الصورة، على ما في ذلك من ادّعاء، لرفعت يدي اليمنى نحو الأعلى، ويدي اليسرى نحو الأدنى.

مكتبة الربيعي أحمد

المعيد

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

انقضت سنوات الدراسة الجامعية الأولى، وتخرجت عام 1970 متقدماً على دفعتي في جميع أقسام كلية الآداب بتقدير «امتياز» ولم تسمح الظروف السياسية والأمنية المضطربة التي كانت تتفاقم نحو أيلول الأسود، بتنظيم حفل التخرج التقليدي. فتسلمنا الشهادات من التسجيل فرادى دون طقوس احتفالية، وما كنت أتطلع إلى ذلك على أي حال. ماذا بعد التخرج الآن؟ كان ينبغي أن تكون النقلة هينة بلا مشكلات. إذ بدا تعييني معيداً في قسم اللغة العربية تمهيداً للابتعاث أمراً مفروغاً منه. نتائجي الأكادمية وإنجازاتي الأدبية التي تجاوزت الأردن إلى الوطن العربي، كلها تؤهلني لذلك. وكان الكلام على هذا في القسم والكلية والإدارة العليا قد سبق تخرجي.

ولكن شعوري بالطمأنينة سيواجه اختباراً شديداً يذكرني من جديد بألا آخذ شيئاً في الحياة باعتباره أمراً مسلّماً به، طالما ضمّ التفاعل الاجتماعي أطرافاً مختلفة الأغراض والحسابات، وكان التفاوض والتدافع بينها من سنن الحياة.

وعلى الرغم من أن الظرف السياسي المتوتر حمل معه بوادر الفرز الجهوي على أساس المنابت والأصول، فإن عوامل الفرز الإيدولوجي كانت ما تزال أقوى في ذلك الحين. وقد جاءت محاولات عرقلة تعييني معيداً في القسم من أطراف ترجع إلى المنبت الفلسطيني نفسه، ولكنها تغايرني في الانتماء الإيدولوجي. فقد تواطأ على تعطيل تعييني أستاذان أخوان في القسم، كلاهما ماركسي التوجه، وكان أحدهما رئيس القسم ذلك الوقت. والحق أنهما، أثناء الدراسة، لم يبخلا علي بالود الظاهر والتقدير ولا بالعلامات، فكنت عندهما كما عند غيرهما من الأساتذة متقدّماً على جملة الزملاء.

وفي السنتين الأولى والثانية من سنوات دراستي، وجدت منهما رعاية خاصة تتجاوز علاقة الطالب بأستاذه، لما كان لي من نشاط سياسي وأدبي وشعري معروف، أثمر

مكتبة الربيعي أحمد

ديواناً صدر عن إحدى أهم دور النشر في ذلك الحين وأنا بعد في السنة الثالثة، وكنت قد بلغت أن أكون عضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين الذي كان الأستاذان الإخوان عضوين فيه. فصار بيننا زمالة من نوع ما خارج صفوف الدرس، وصار لي عندهما كما عند غيرهما صفة غير صفة الطالب تؤهل لشيء من الصحبة والندّيّة. فلما رأيا تحولي إلى الالتزام الديني، وهما الماركسيان العتيدان، لم يرقهما ذلك مؤكداً، وإن لم يستعلن الحال في جفاء ظاهر أو معاملة سيئة. وأقاما على احترام موهبتي الأدبية وتقدير أدائي الأكاديمي دون انتقاص حتى تخرجت. ولكن الموقف مني طالباً وأديباً، غير الموقف مني زميلاً مخالفاً في الاتجاه الإيدولوجي ينضم إلى عمه المعروف بتدينه في القسم نفسه.

وفي سياق مجتمعاتنا، يفترض أن وجود عمي محمود إبراهيم أستاذاً في القسم ييسّر أمر تعييني. ولكن وجوده أملى خلاف ذلك، ظناً بأن اجتماع العم وابن أخيه يغير من ميزان القوة في تفاعلات الجماعة وقراراتها الإدارية غداً!

وما كان تحفظهما على تعييني ليأخذ شكلاً مباشراً فظاً. ولكنه توسل إلى ذلك اعتبارات عامة انقسم معها مجلس القسم فريقين، أما فريق الأخوين فيرى حاجة القسم العاجلة إلى تعيين أعضاء جدد في القسم، حاصلين على درجة الدكتوراه. وبذلك توفر الجامعة تكاليف إيفاد المعيدين للحصول على الدكتوراه وانتظار عودتهم للتدريس بعد بضع سنين. وما يفعل القسم في هذه الفترة وحاجته إلى أعضاء جدد في هيئة التدريس لا يمكن تأجيلها؟ فإذا عين من هؤلاء مع المعيدين الموفدين فقد زاد الحمل.

أما الفريق الثاني فرأى أن تعيين المعيدين وإيفادهم هو من سياسة الجامعات التي تسترجع بعضا من نخبة خريجيها المتفوقين ليسهموا في تجديد حيويتها. وحق لهذه النخبة أن تجد الدعم والرعاية. وإلى جانب ذلك فإن تعيينهم بغرض الإيفاد يدخل في خطة القسم لتأمين التخصصات التي يحتاج إليها حاضراً ومستقبلاً، ويندر وجود متخصصين بها بين المؤهلين من حملة الدكتوراه. ويضاف إلى ذلك أن المعيد إذا أكمل دراساته العليا، كان ملزماً بالتدريس في الجامعة التي أوفدته عدداً من السنوات المعلومات. أما العضو المؤهل مسبقاً فلا شيء يلزمه. فإن وجد فرصة أخرى كان له أن يستقيل إذا شاء. لم يفض النقاش في القسم إلى نتيجة حاسمة، وآثر الجميع تعليق الموضوع إلى أجل.

مكتبة الربيعي أحمد

وفي هذا الوقت، جاءني عرض لم أسع إليه اطلاقاً، من قسم اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت. وكان فيه ثلاثة من ألمع الأكاديميين والباحثين العرب في اللغة العربية وآدابها: الدكتور محمد يوسف نجم، الذي كان رئيساً للقسم، والدكتور إحسان عباس، وفقيه اللغة المعروف الدكتور محمود الغول. ولا أدري كيف فطنوا إلي وعرضوا علي أن أنضم إليهم بصفة مساعد بحث Graduate Assistant، أعمل مع إحسان عباس بمنحة شهرية، وفي الوقت نفسه أتابع دراستي العليا في القسم في برنامج الماجستير على نفقة الجامعة. شعرت بالاعتزاز أن هؤلاء الأعلام قد عرفوا قدري عن بعد، حتى منحوني تلك الفرصة. أهي سمعتي الأدبية التي غدت معروفة؟ أم أن رئيس القسم في الجامعة الأردنية (أحد الأخوين)، قد نصحهم بي ليتحرر من عبء النظر في قرار تعييني على مقولة «ابعد واسعد»؟! فتلكم هي الجامعة الأمريكية الذائعة الصيت، وأولئك هم الأعلام في الوسط الأكاديمي العربي، وتلك هي بيروت بضجيجها وحيويتها ومقاهيها الثقافية ودور النشر فيها. وبذلك يرجع الجميع إلى دورهم راضين مطمئنين. لا يجوع الذئب ولا تفنى الغنم.

فهل أقبل عرضاً ناجزاً في الجامعة الأمريكية، أم أنتظر قراراً غير مضمون النتيجة في الجامعة الأردنية؟

كان ثمة جانب سلبي في خيار الجامعة الأمريكية. إذ لم يكن فيها برنامج للدكتوراه، فكل ما يمكن أن أنجزه فيها الحصول على درجة الماجستير. ثم علي أن أتدبر أمري بنفسي. ولذا لم يصرفني عرضها عن متابعة المحاولة في الجامعة الأردنية. وبالتشاور مع عمي محمود إبراهيم، رحمه الله، استقر الرأي على ألا أفوت الفرصة السانحة في الجامعة الأمريكية في انتظار ما يمكن أن يأتي أو لا يأتي، على أن يستمر الدفع في الجامعة الأردنية، فإن أعطيت منها ما أطلب، قرت به عيني، وهان علي أن أستعفي من الجامعة الأمريكية عائداً إلى غايتي في عمان. واتفقت مع عمي أن يبرق لي بنتيجة القرار المؤجل، فإن كتب لي أن امكث حيث أنت، علمت أن الرجاء بالجامعة الأردنية قد انقطع.

وهكذا كان، وانتقلت إلى بيروت في صيف عام 1970. وعلى الرغم من أن «التنانير» القصيرة في عمان قد غَدَت أمراً مألوفاً ذلك الحين، فقد بدت عمان مقارنة مع

مكتبة الرمحي أحمد

بيروت محتشمة متبتلة! وكنت ترى في حرم الجامعة الأمريكية ما تراه في أي جامعة من جامعات أوروبا أو أمريكا نفسها: الهيبيز الذين يعصبون رؤوسهم بالمناديل. وما استطال او استعرض من بناطيل «الشارلستون» التي يلبسها الشباب، كأنه قد أخذ من تنانير الفتيات، فإذا جلست إحداهن في قاعة الدرس لم تذر للمخيلة ما تسرح فيه! وكان على المتدين المتأثم أن يستوفي طاقته ليغالب النفس الأمارة بالسوء. وقد يخرج من المعركة ليواجه سياط النفس اللوامة! ثم يواسي نفسه بأن ما فَرَطَ منه كان من «اللَّمَم»، وأن ربه واسع المغفرة. وفي حرم الجامعة أيضاً، رأيت لأول مرة شاباً يقبل فتاة في العلن. وما رأيت مثل ذلك من قبل إلا في الأفلام السينمائية. فظننت أن الأرض تكاد تسيخ تحت قدمي وأن جبال لبنان توشك أن تخر هداً!

على أن النقص في تنانير الطالبات، لم ينقص من مستوى الجامعة العلمي، ولا من حراك الطلبة السياسي.

وإذا كانت غابة السيقان العارية وتلك القبلة المعلنة قد صدمت مزاجي الريفي وحساسيتي الدينية، فقد كنت على موعد قريب بصدمة أخرى أشد، يجتمع على إنكار معانيها ذوو المروءة والمبادئ من المتدينين وغير المتدينين. فهي من قبيل خيبات الأمل بالطبيعة الإنسانية المتقلبة التي تتلون في أثوابها بتلون الوضع السياسي العام، ولا تمسك مبادئها إلا كما تمسك الماءَ الغرابيلُ، كما قال الشاعر القديم.

ففي أحد أيام إقامتي تلك في بيروت، تنبهت إلى أن إقامتي القانونية في لبنان تنتهي في اليوم التالي. وأن علي أن أمددها من فوري. ثم تنبهت إلى أن صلاحية جواز سفري الأردني قد انتهت، وأن علي أن أجدده أو أمدد صلاحيته في اليوم نفسه في السفارة الأردنية. وما تنبهت إلى هذا كله إلا عند توسط النهار، فلم يبق من ساعات العمل في السفارة إلا القليل، والمرجح ألا أدرك حاجتي في اليوم نفسه. وبذلك تصبح إقامتي غير قانونية، وقد يترتب عليها تعقيدات ضارة. فما عساي أفعل؟ ثم تذكرت أن لي في السفارة سنداً ونصيراً. فقد عرفت أن الملحق الثقافي الجديد فيها شخص كان بيني وبينه صحبة ومؤانسات ومطارحات أدبية وفكرية وشعرية حين كان مسؤولاً في مكتبة الجامعة الأردنية في أثناء دراستي فيها. وقد جمع بيننا الشعر والأدب والمواقف الوطنية والعروبية.

مكتبة الرمحي أحمد

وكان الرجل شاعراً. فكنا نلتقي بين الفينة والأخرى فيقرأ لنا ونقرأ له، ونتحاور في كل أمر من أمور الأدب والفكر والسياسة. وصلت إذن!

وهكذا هرعت إلى السفارة وبحثت عن مكتبه، وأنا أحسب نفسي محظوظاً، ودخلت عليه طلق المحيا باسم القسمات متهيئاً لاستقبال حافل، بل صاخب صخب الأصدقاء إذ يفاجئ بعضهم بعضاً على غير موعد بعد غياب! فمن كان مستلقياً قعد، ومن كان قاعداً وقف، ومن كان واقفاً أقبل، ثم ما يزالان يتعانقان ويتصايحان احتفاء بالمفاجأة السعيدة والجائزة غير الموعودة حتى يظن من حولهما أنهما أخوان فقد أحدهما حتى يئس الآخر من عودته وظن أنه هلك.. وها هو الآن يعود من أرض التيه!

–السلام عليكم.

قلتها متأنياً وأنا داخل عليه، واتخذت وضع من يعرض مفاجأته ليتمتع بوقعها على الآخر.

بلى، كانت مفاجأة كبيرة، بل صدمة عنيفة! ولكنها كانت كذلك لي، لا له.

–نعم؟! ماذا تريد؟

قالها بنبرة منكرة مستنكرة متعجلة متضجرة، دون أن يتحرك في مقعده، أو يغادر عبوسه، وكأنه لا يجهلني فقط، ولكنه لا يريد أن يعرفني، ويريد أن يتخلص من هذا المتطفل الثقيل.

لم أدر كيف أتصرف إزاء تجاهل الرجل وإنكاره لي، إلا أن أقول:

–أنا وليد سيف!

وكأني أذكره بصاحب قديم ربما شحبت صورته بعد دهر من الغياب، مع أنه لم يكن قد مر على آخر لقاء لنا إلا سنة أو أقل، وقعت في آواخرها حوادث أيلول الأسود الذي لم يكن لي ولا لصاحبنا هذا دور فيه!

لم يزد على أن كرر القول بأسلوب أشد تجاهلاً وإنكاراً وتضجراً، كأنه لم يسمع باسمي قط:

مكتبة الربيعي أحمد

-نعم!

أسقط في يدي وقد شعرت بأنني أهوي في وادٍ سحيق. وتراءى لي شبح أيلول الأسود منتصباً بيني وبينه. ثم تمالكت نفسي واعتدلت في وقفتي واتخذت هيئة المراجع العادي وكأن ما سبق كان نتيجة اشتباه الرجل عندي بآخر. ووجدتني أذكر مسألتي باقتضاب لا لشيء إلا لأتخلص من الموقف وأخفي خيبتي وصدمتي. فما كان منه إلا أن قال:

-مسألتك ليست عندي.

وكنت أعلم أنها لم تكن عنده، فما قصدته إلا ليعين في تعجيلها عند غيره. خرجت من عنده لا ألوي على شيء، إلا من طنين يملأ رأسي وشعور طاغ بالقهر والخيبة والمرارة. وقد استعاذ رسول الله ﷺ من قهر الرجال. وكادت تداعيات الموقف في نفسي أن تنسيني ما جئت به من حاجة ملحة. وكان وقت الدوام قد أوشك على الانقضاء حتى أدركني اليأس. ثم وقع نظري على باب مكتب كتب عليه: القنصل - السيد طاهر المصري!. لم أكن قد سمعت به من قبل. وما كان قد سمع بي مؤكداً. وما هي حتى قررت أن أطرق بابه وليس عندي شيء من الأمل في مساعدته تلك الساعة. كيف وقد انقضى وقت العمل في السفارة! ولكن لم يكن عندي ما أخسره بالمحاولة. وإذ دخلت عليه استقبلني بتهذيب جم يليق بالنفس النبيلة، وبالمسؤول المحترم الوفي لواجبات منصبه.. شرحت له مسألتي على عجل وفاجأتني استجابته. وكانت مفاجأة سارة هذه المرة هونت علي بعض ما لقيته من الصدمة السابقة و أعادت لي بعض ما فقدته مؤقتاً من الثقة بالروح الإنساني. فقد طمأنني الرجل فوراً، وأخذ على نفسه أن يتلبث في السفارة على الرغم من انتهاء ساعات الدوام حتى يقضي حاجتي ويحرر جوازي. وهكذا كان فعلاً.

ربما بدا ذلك جهداً صغيراً ومعروفاً عارضاً. فما هو إنجازاً وطنياً عاماً، ولا إنقاذاً لحياة مهددة بالهلاك. ولسوف ينساه فاعله في النهار نفسه. ولكن، لئن نسيه طاهر المصري من يومه، فقد ظل محفوراً في ذاكرتي ووجداني أبداً. فكما أن النار الكبيرة من مستصغر الشرر، فإن الروضة الممرعة من قليل الندى، والغيث العميم من مقدمات الرذاذ! وقيمة العمل الطيب الصغير قد تكون في دلالته على النفس الكبيرة. وما خطر لي أن القنصل

مكتبة الرمحي أحمد

الطيب النبيل الذي قصدته عرضاً في السفارة الأردنية في بيروت عام 1970، سوف يتردد اسمه على ألسنة الناس حين يصبح رئيساً للوزراء ورجل دولة من طراز رفيع يحظى باحترام الأطياف السياسية المختلفة. ولن تتاح لي فرصة لأستذكر أمامه تلك الواقعة.. وأجدد له الشكر والتقدير حتى هذه اللحظة!

أما صاحبنا الذي أنكرني، فقد أعقبني منه مرارة دامت طويلاً. ولم يكن موقفه ذاك في ذاته هو السبب. فكم يخيب الأمل في الناس فرادى، ولكم يجحدك من كنت تُرجّي وفاءه! ولكنه المعنى العام. إذ لم أجد تأويلاً لموقفه إلا ما خلّفه أيلول الأسود من إرث ثقيل شوّه شطراً من النفوس فلا ترى الناس إلا هويات جمعية متغايرة. وهذا موضوع يسكت عنه الناس في المحافل العامة، ويدندنون به في المجالس الخاصّة. وإن لم يستعلن بنفسه مباشرة، استعلن في غيره من شؤون الحياة والمجتمع. ولا نعدم بعض السفهاء وأهل الأغراض يجهرون بخطاب الكراهية والتعصب والتحريض بين الفينة والأخرى. تشابهت قلوبهم فتشابهت ألسنتهم. تعرفهم بلحن القول، وما تخفي صدورهم أعظم. وأخطر ما في هذا الأمر أن يتحول مع الزمن إلى ثقافة ومفاهيم موروثة، تستدخلها أجيال جديدة لم تشهد الظروف المؤسفة التي أفضت إلى هذا الإرث المظلم. وإذ تنصرف المشاعر العدائية فيما بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة، تنحسر عقيدة الصراع مع العدو الصهيوني، وينحسر معها الروح العربي، وتصبح الهوية القطرية والجهوية طاردة للهويات الأكبر. والأصل أن أحدنا جملة من الهويات في الوقت نفسه، فلا تطغى إحداها على الأخرى ولا تجور عليها، بل ربما انتظمت إحداها في الأخرى. فالهوية الانسانية لا تجب هويتك القومية، وهويتك القومية لا تَجُبُّ هويتك الدينية، والهويات القومية والدينية والعرقية لا تَجُبّ هويتك الوطنية، بل إن هويتك الوطنية لا تجب هويتك المهنية وهويتك العائلية، وهذه كلها معاً لا تجب هويتك الفردية. فإن وقع التعارض بين بعض الهويات، فاعلم أن الخلل فيك!

ولست أتعجل بلوم الساكتين عن مناقشة هذا الموضوع في العلن. فإني لأعلم أن الكلام العلني العام فيه سلاح ذو حدين، إذ يمكن في القضايا الحاسمة أن يزيدها ضراماً

مكتبة الربيعي أحمد

حتى يجعلها سجالاً. ولكن السبيل إلى معالجة المشكلة المتراكمة ينتظم في عملية الإصلاح السياسي الشامل التي تتضمن ترسيخ مفاهيم المواطنة والحقوق المدنية المتكافئة، بعيداً عن العصب التقليدية القبلية والجهوية والدينية والمذهبية، من خلال المؤسسات السياسية والثقافية والتربوية والإعلامية ومؤسسات المجتمع المدني.

كان الرجل الذي تنكر لي في السفارة من عائلة كريمة عرف الكثير من رجالها بمواقفهم القومية النظيفة. وحين كنا نلتقيه ونسامره كان على ذلك المذهب. فكانت فجيعتي بذلك الموقف ودلالته أشد. وكنت شاباً متأجج المشاعر لا يحب أن يغضي على قذى حتى ينتصف لنفسه. وقد بلغت الاهانة مني مبلغاً عميقاً. فقعدت كلما تذكرت الواقعة ألوم نفسي: كيف لم أردها على صاحبها في وقتها؟ ودعوت الله أن يهيء لي موقفاً يجمعني به من جديد، وتكون لي فيه اليد العليا عليه، فأصد عنه كما صدّ عني.

وقد كان كما رجوت! بعضه لا كله.

ففي عام 1971، نظمت مؤسسة ثقافية في بيروت (أحسبها نادي الثقافة العربية) الملتقى الأول للشعر العربي الحديث، فدعيت إلى المشاركة في ذلك الملتقى إلى جانب أهم أعلام الشعر الحديث: نزار قباني وأدونيس وصلاح عبدالصبور، وأحمد عبدالمعطي حجازي، وأحمد عفيفي مطر، وغيرهم. فكان ذاك أهم اعتراف بحضوري في المشهد الشعري العربي في ذلك الحين.

وإذ جاء دوري وصعدت إلى المنصة لإلقاء القصيدة التي أشارك بها، وعنوانها «أعراس»، نشرت بعد ذلك في مجموعتي الشعرية الثانية «وشم على ذراع «خضرة»» الصادرة عن دار العودة عام 1972، وقع نظري على الرجل جالساً في الصفوف الأمامية بين الحضور المستمعين. وما إن فرغت من إلقاء قصيدتي حتى ضجت القاعة بتصفيق حار، ثم إذا نزلت من المنصة أقبل علي من أقبل مهنئاً ومصافحاً يقول مثل ما قالته الصحافة الأدبية اللبنانية بعد أيام من أنني كنت مفاجأة الملتقى، وأن قصيدتي من أجمل ما ألقي فيه، بل ذهبت صحيفة النهار إلى تصدير تغطيتها بعنوان يقول: «وليد سيف: أذكى الشعراء الفلسطينيين»، بينما صَدَّرَتْ مجلة أخرى مراجعتها النقدية بعبارة «وليد سيف فضيلة الملتقى» وعلقت مقالة أخرى بالقول: «وليد سيف أحلى أعراس المؤتمر»، محيلة إلى عنوان قصيدتي!

مكتبة الرمحي أحمد

ها هو الرجل يشق جمع المهنئين نحوي، وقد بدا أنه استرجع الآن ذاكرته المفقودة سابقاً، فذكر ما كان بيننا من صحبة وأخوة ومؤانسات. هذه إذن هي الفرصة التي حلمت بها لشفاء ما في صدري من إهانته السابقة. بل هي أفضل من كل ما رجوته. فإن رددت له الصفعة الآن، فلتكونن على رؤوس الأشهاد من هذا الجمع المعروف والمتميز، وأنا في ذروة من ذرى النجاح!

ولكنني لم أفعل! وما كان بوسعي أن أفعل إلا في تخيلاتي السابقة. فليس ذلك في طبعي وجِبِلّتي حين يقع الاختبار. يمنعني الحياء والتذمم. وما أسرع أن تستل الكلمة الطيبة والموقف الحسن سخيمة صدري وكأنها لم تكن. ويكفيني وقوع القدرة على الانتصاف لنفسي حتى أرضى وأكف. فما إن وصل الرجل إلي مصافحاً حتى صافحته وعانقته. وكان ذلك آخر العهد به.

ولكنه لن يكون آخر العهد بالمتحولين الذين يبدلون تبديلاً!

وهكذا هي الدنيا وناسها: يد تجرح وأخرى تواسي. تجني من روضها ورداً وشوكاً، وتذوق بكأسها شهداً وصاباً، كيلا تأسى على ما تمنع، ولا تغتر بما تعطي، ولا تأمن فيها أمن الغافل ولا تحذرها حذر الموسوس. فقد صح قول الناس في الناس أنهم أجناس، تعرف منهم وتنكر، وتأخذ منهم وتدع. ولا ينبغي أن تحكم فيهم إلا بوصفهم أفرادا: فكذلك يحكم فيهم ربهم يوم القيامة (وكلهم آتية يوم القيامة فردا) - مريم 95 - حيث لا أنساب ولا عصبيات. وهم لا شك معادن كمعادن الذهب والفضة، فمن حسن معدنه فلا يضرك منه أن يختلف معك في الرأي. والنفس الطيبة كالأرض الطيبة تخرج ثمرها طيباً سائغاً بإذن ربها. والنفس الخبيثة كالأرض الخبيثة لا يخرج نبتها إلا نكدا.

عملت زهاء شهر أو يزيد في الجامعة الأمريكية مع الرجل الكبير إحسان عباس. الذي أحاطني بالمودة والاحترام والرعاية، كما ينبغي من عالم ذي خلق رفيع مثله. ولكن هواي بقي في الجامعة الأردنية. فمكثت في هذه المدة أنتظر خبراً من عمي يدعوني إلى العودة أو يقطع الرجاء بها، على ما اتفقنا عليه. وأخيراً أبرق لي يقول: «امكث حيث أنت».

مكتبة الربيعي أحمد

في صبيحة اليوم التالي كنت في عمان!

-ما رَجَعَكَ وقد أبرقت لك أن امكث؟ ألم تصلك برقيتي؟

قلت:

-بلى وصلتني. ولذلك رجعت. فما كنت لأسلم لهم بغير قتال، فأنزل عن حق أراه لي، يريد غيري أن يسلبني إياه بغير حق. ولئن تواطأ من تواطأ على ذلك، فإني وإن كنت الأصغر سناً والأقل تأهيلاً، لست غمراً مجهولاً بلا قوة ولا أنياب. ولي أنصار في داخل الجامعة وخارجها. ولك أكثر منهم وأعز نفراً.

هز رأسه مستجيباً ، وقد ألف عنادي فيما أراه حقاً، وحدة مزاجي إذ يستثار. وقد نجحنا حقاً في الضغط على القسم لإعادة النظر في الموضوع. فلما أسقط في أيدي المعارضين وأَعْيَتْهم الحجة المقنعة، أقر الجميع بمبدأ تعيين معيدين اثنين.

ولكن المسألة لم تنقض عند هذا. فقد وجد الأخوان طريقة للالتفاف على الموضوع وإضعاف فرص تعييني، فتقرر أن تعلن الجامعة عن الوظيفة ليتنافس عليها من شاء من حملة الماجستير والبكالوريوس، من خريجي الجامعة أو من غيرها، على أن يكون المتقدم حاصلاً على تقدير «جيد جداً» أو «ممتاز» ثم يتسابق هؤلاء في ثلاثة اختبارات: تحريري بالعربية وتحريري بالانجليزية، ثم مقابلة شفوية. ولكل منها قدر من العلامات. وبناء على النتائج يعين الأول والثاني معيدين، ليوفدا بعد عامين إلى جامعة بريطانية أو أمريكية. فأما الأول فيتخصص في علوم الصوتيات واللسانيات، وأما الثاني فيتخصص في «اللغات السامية» على ترتيب حاجة القسم.

لا بأس إذن. لا أحد يستطيع الاعتراض على مبدأ الفرص المتكافئة والتنافس الحرّ بالمؤهلات الشخصية، وإن كان المألوف تعيين الخريج المتفوق من أبناء القسم نفسه كفاء تفوقه، وقد تم اختباره على مدى سنوات أربع وعرف أساتذته شخصيته وخلقه ومزاجه ومواهبه الأخرى، فلا مجال للظن والمفاجآت التي لا تستبين إلا بعد وقت من الشخص الطارئ.

مكتبة الربيعي أحمد

ولكن «الخدعة» ليست هنا. فقد تقرر في تنظيم العلامات، أن يضاف لحامل الماجستير خمسون علامة فوق نتائج الاختبارات الثلاثة كفاء درجته التي يتقدم بها على حامل البكالوريوس. فهو يدخل الاختبارات وقد تقدم على منافسيه من حملة البكالوريوس بخمسين علامة من أصل ثلاث مائة علامة كما أذكر، أو فوقها. فكيف اللحاق به؟! وأنا بعد لا أحمل إلا درجة البكالوريوس!

دخلت على رئيس القسم، الأخ الأكبر (بالمعنيين: الحرفي، والرمزي الذي يحيل إلى رواية جورج أورويل بعنوان 1984) لأواجهه صراحاً. قلت:

-أين العدل في هذا الترتيب؟ لم يفتح المجال أصلاً لتقدم حامل البكالوريوس إذا كان القصد إقصاءه بالنتيجة العملية! أليس المفترض أن حامل الماجستير أكثر علماً في مجال المنافسة من حامل البكالوريوس؟ وإذ يتنافسان في الاختبارات نفسها، فينبغي أن يتقدم فيها الأكثر علماً والأعلى درجة. وكفى بذلك انتقاصاً من فرص حامل البكالوريوس لصالح حامل الماجستير. فهل تزيدونه على ذلك بمنحه خمسين علامة مقدماً؟ فما الذي أبقيتم من فرصي في هذه المنافسة؟ مسح على طرفي فمه كعادته، وحافظ على هدوئه وتأدبه المعتادين، وتعلل بكلام غير مقنع، وما كان ليرجع عن ذلك القرار.. قضي الأمر الذي فيه تستفتون!

وهكذا لم يكن أمامي إلا أن أتقدم للاختبارات مع غيري، وانتدبت لجان من القسم للتقويم وأعلنت النتيجة بعد أيام..

حصلت على المركز الأول بين المتقدمين جميعاً، من حملة الماجستير والبكالورويس.

وحاق المكر السيء بأهله.

لم أظهر بعد تعييني شيئاً من الضغينة، بل إنني لم أجدها في نفسي حقاً. قد كان ما كان، وأدركت غايتي بعد نضال على الرغم من كل الاحتمالات المعاكسة. والحق أنني لم أجد من الأخوين بعد ذلك أي مناكفة أو صدود. بل عادا سيرتهما الأولى في التعامل معي بالرعاية والود والدعم الاحترام. وكأن شيئاً من ذلك الموقف من تعييني لم يكن.

بعد زهاء أربعة عشر عاماً من ذلك الظرف، كنت قد مررت بأطوار مختلفة: أكملت دراستي في جامعة لندن، وعدت أُدَرّسُ في الجامعة، ثم فصلت بقرار سياسي مع

مكتبة الربيعي أحمد

خمسة من الزملاء صيف عام 1979، وعملت فصلاً دراسياً واحداً في جامعة الإمارات، ثم تفرغت للتأليف الدرامي، حتى دعاني الأمين العام لمجلس التعليم العالي الحديث النشأة للعمل معه، وذلك قبل أن يتحول المجلس إلى وزارة ذات قوة تنفيذية لتنظيم عمل الجامعات. وبعد طول مدافعة مع المؤسسات الأمنية التي اعترضت على تعييني في مؤسسة حكومية، وتدخل بعض المتنفذين - والمتنفذات! - رفع المنع عن تعييني في مجلس التعليم العالي تخصيصاً دون الجامعات، بضمانة أمين المجلس القوي الذي تولى قبل ذلك وزارات هامة، وكان له وزنه في الدولة.

دخل علي الأمين العام يوماً وبيده إحدى الصحف اليومية، وطلب مني أن أقرأ مقالة مخصوصة فيها بقلم سيدة تحمل درجة الدكتوراه في أحد فروع الهندسة من إحدى الجامعات الروسية، تشكو من أبواب العمل الموصدة في وجهها منذ تخرجها. وقال لي: انظر في الأمر، وإن شئت فادع السيدة إلى مقابلة، فإن وجدت فيها ما يشجع على استخدامها عندنا، أوصيت بذلك فعملنا به. قد جعلت الأمر إليك.

ابتسمت حين قرأت اسم السيدة. لم أكن أعرفها بشخصها، ولكني عرفت نسبها من اسمها. لم أتردد في دعوتها إلى مقابلتي، وأعجبني عقلها وأدبها وشخصيتها وخلقها الرفيع. فبادرت إلى التوصية بتعيينها فوراً، بل تنبهت إلى مالم تكن هي على وعي به، وهو أنه تخصصها يؤهلها لعلاوة خاصة تسمح بها الأنظمة، فأوصيت بها.

وهكذا كان. وقد أثبتت السيدة بعد ذلك أنها أهل للمنصب وأكثر. واكتسبت احترام الجميع: العاملين معها والمتعاملين مع المجلس الذي ما لبث أن تحول إلى وزارة، وما زالت تتدرّج في المناصب حتى بلغت مستوى رفيعاً. ولم يختلف أحد على كفاءتها وسمو أخلاقها وحسن معاملتها، بينما استقلت أنا من المجلس بعد بضعة شهور، واستقال أمينه بعد شهور أخرى.

ما الرابط بسياق سردي لحكاية تعييني معيداً وما خالطها من إعاقات متعمدة؟ تلك السيدة المحترمة هي ابنة الأخ الأكبر، رئيس قسمي السابق!

لا بد أنه حين عرف أن قرار تعيين ابنته قد صار إلي، أوجس في نفسه خيفة ألا أوصي به، كفاء ما لقيت منه في أمر تعييني قبل أربعة عشر عاماً. فلما انقضى الأمر على النحو الذي ذكرت، لقي عمي محمود إبراهيم أولاً، فأسهب في الثناء علي ممتناً وقال:

مكتبة الربيعي أحمد

-ابن أخيك هذا ذهب خالص!

وما هي حتى لقيني صدفة في طريق، فشد على يدي بحرارة صادقة شاكراً مقدرا. ووجدته يستدعي ذكرى تعييني القديم معيداً فيقول بلهجة أبوية حانية:

-لا تحسبن يا ولدي أني أردت بك سوءاً في ذلك الحين، ولكني آثرت أن يأخذ التعيين ذلك المجرى كيلا نتهم بالتحيز والغرض عند آخرين، وما فعلته إلا وأنا على يقين تام بأنك ستتقدم الجميع في النتيجة لما أعلم من كفاءتك العلمية وقدراتك. وقد كان كما توقعت.

تأثرت بكلامه الرقيق الدافئ. وشعرت بالرضا منه ومن نفسي. وما أرضاني من الكلام أنه كان مطابقاً للواقع، فإنه لم يكن كذلك. واسترجاعه - في ذاته - ينم عن هاجس قديم بعثه التقابل مع موقفي من تعيين ابنته. إنما أرضاني أنه ينطوي على اعتذار مضمر مستدرك. ومع ذلك لا أراني مستحقاً للشكر بمعايير المثل الخالصة، لو كنا جميعاً نعيش بها. فليس لأحد أن يملك مفاتيح المنع والعطاء على وفق أهدافه وأغراضه وتحيزاته وخصوماته، ولا أن يجزي ظلماً بظلم مثله فيكون وظالميه سواء. ولم تدرك السيدة إلا ما تستحق. فلا يشكر عليه من أداه لها، وإنما يذم من يمنعها إياه.

بدأت عملي معيداً، واتخذت له عدته ورموزه! حقيبة جلدية سميكة من لوازم العلم والعلماء ومدرسي الجامعات، فما لا تسعه الصدور، تسعه الحقائب! وكان لا بد أن أغير قليلاً من هندامي كي يتناسب مع الدور الجديد، دون مبالغة لا تنسجم مع مزاجي ولا مع إمكانياتي المادية. وكنت متلهفاً على أداء الواجبات التدريسية. وشعرت بخيبة أمل حين أعطيت مادة واحدة للتدريس هي «العروض» إضافة إلى «حلقة بحث» يجتمع لها نفر قليل من الطلبة. ولكني اجتهدت أن أبلي فيهما بلاء حسناً يملي على الطلبة أن يساووا بيني وبين أعضاء هيئة التدريس الذين يحملون الدكتوراه... على الأقل!

مع مادة واحدة «وحلقة بحث» لم يعد للحقيبة الجلدية الكبيرة السميكة حاجة عملية، ولكن لا بأس، تكفي القيمة الرمزية!

مكتبة الرمحي أحمد

حال المعيد طريف، وموقعه في السياق الجامعي محير. فهو بين الطلبة معدود بين المدرسين. أليس يحاضر ويختبر ويملك سلطة التقويم؟ والطلبة الذين اعتادوا على مخاطبة أساتذتهم بلقب «دكتور» قد يمنحون -بحكم العادة- اللقب للمعيد، ولأمر ما ينسى في كل مرة أن يصححهم! وهو بين المدرسين ما يزال في حكم الطالب. فإذا وقف بين الطلبة اتخذ سمت الأساتذة، وإذا خلا إلى الأساتذة ذهب عنه التنفج، وصار منهم كما طَلَبَتُه منه.

ولكني للحق لم أكن متنفجاً هنا، ولا خاضعاً هناك. فليس ذلك من طبيعتي. وكان لي من الثقة ما يغنيني عن الادعاء المتكلف، وعن الخنوع والاتباع. والحقيقة كذلك أن أساتذة القسم، وهم في الأمس أساتذتي، عاملوني معاملة الزميل. ولكني كنت أراقب بعض زملائي المعيدين في أقسام أخرى من كلية الآداب، كيف يتصرفون. فمنهم من كان على مذهبي من الانطلاق على السجية دون تكلف، ومنهم من بدا أن تشابه الحروف في لفظي «المعيد» و «العميد» قد التبس عليه. وإذ يدرك أنه في واقع الحال دون أعضاء هيئة التدريس، فإنه يعوض عن ذلك بزيادة الانتفاخ والتنفج بين الطلبة. وأذكر أني كنت مع نفر من هؤلاء الزملاء المعيدين نمشي راجعين من مقصف الجامعة، وإذ انهمر المطر علينا هرولت مع آخرين نفر من قدر الله إلى قدر الله، وتخلف عنا أحدهم يمشي مختالاً، منتصب القامة، منتفخ الصدر، مصعرا خده مشدود الملامح، لم يغير شيئاً من سرعته، فلما سألناه في ذلك قال: لا يليق بنا أن نبتذل أنفسنا بالهرولة أمام الطلبة! فإن كان هذا وهو معيد فكيف به مستقبلاً إذ صار عضو هيئة تدريس، ثم بلغ أن صار «عميداً» حقاً!

وذلك كله حين كان الأستاذ الجامعي يتصدر المراكز الاجتماعية والمهنية ويلهم طموح الطامحين المتميزين، قبل أن يجور عليه تقلب الأحوال فيصير إلى ما صار إليه الآن يغالب على الساعات الإضافية ليسدد فواتيره.

وفي المقابل، كان زميلي الذي عين معي في القسم، ويحمل درجة الماجستير، يؤثر السلامة أكثر مما ينبغي. وكان له تجربة سابقة مُرّة كلفتة عمله قبل أن يعاد إليه الاعتبار الذي يستحق بذكائه وتفوقه. ولكنه تعلم من التجربة المبالغة في الحذر والتوقي وتجنب المواجهات مع من هو أكثر منه قوة وتمكينا. وقد رآني يوماً أجادل عن رأيي في مسألة ما مع رئيس القسم وبعض أعضائه، فلما رجعنا إلى مكتبنا المشترك رأيته مضطرباً يقول:

مكتبة الربيعي أحمد

-مالك وجدالهم أيها الرجل، ونحن في وضع ضعيف حساس، لا نأمن أن يمسكونا في القسم ثم يوفدونا!

قلت:

-ليس الجدال عن الرأي خروجاً عن الأدب، ولا ينبغي له أن يفسد للود قضية. وعلى كل حال، أنا أتحمل مسؤولية تصرّفي، لا تُسْأَلُ عما أفعل ولا أُسْأَلُ عما تفعل. فأقم على مذهبك، وأنا أقيم على مذهبي.

فقال بأسلوب طريف ظريف:

-ولكنهم يجمعون بيننا في صفقة واحدة، فلا يستغنون عن أحد حتى يستغنوا عن الآخر.

لم أملك إلا أن أضحك، وتابعني في الضحك قائلاً:

-من جرب لسعة الأفعى، خاف بعد ذلك من جر الحبل.

تولى رئاسة الجامعة الدكتور عبد السلام المجالي، وكان قبل ذلك مديراً للخدمات الطبية الملكية في القوات المسلحة، فحمل معه شيئاً من الصرامة العسكرية. وكان أول رئيس يأتي من خارج الوسط الأكاديمي. وقد فرض على المعيدين في الأقسام المختلفة أن ينتظموا في برنامج دراسي معين في كلية التربية، ليكتسبوا معرفة بمناهج التربية وأساليب التدريس، فتكون لهم ردءاً في أدائهم التدريسي مستقبلاً إذ يتمون دراساتهم العليا وينضمون إلى هيئات التدريس المؤهلة.

وهكذا انقسم نهارنا بين التدريس والدراسة، فإن أغرى التدريس بعضنا بالاختيال والتَّغنّج، ردته صفوف الدرس إلى واقعه، وأدرك أن التشابه اللفظي بين «المعيد» و «العميد» لا يفيد أي تشابه في المعنى!

وأذكر أنني كتبت بحثاً في إحدى المواد التربوية عن التطوير التربوي، وأخذتني العزة بأفكاري الثورية ذلك الحين، فجادلت أن النظام التربوي بغاياته واستراتيجاته وسياساته، لا ينفك عن فلسفة الدولة التي ينتظم فيها وسياساتها، فإن كان نظام الدولة معبراً عن المجتمع حقاً، هان أن تعبر السياسات التربوية عن المجتمع وتطلعاته وخطط تنميته. فكيف بنا إذا كانت الدولة منفصلة عن المجتمع، تعبر عن مصالح النخب الحاكمة

مكتبة الربيعي أحمد

والطبقة المستفيدة منها؟ لن تخرج محاولات التطوير التربوي في هذه الحالة عن خدمة هذه النخب، التي لن تسمح بأكثر من تغييرات شكلية لا تمس الجوهر. وإذن فإن عملية التطوير التربوي الحقيقي في مجتمعاتنا العربية مشروطة بعملية التغيير السياسي الجذري لطبيعة هذه الأنظمة!

وكان هذا التحليل صدى لجدال أكبر بين التيارات السياسية الإصلاحية والتيارات الثورية الجذرية، وكنت منحازاً للخيار الثاني.

انفرد بي أستاذ المادة بعد أن قرأ البحث، وبدا مضطرباً بعض الشيء، وقال ناصحاً:

-لا تورط نفسك بهذه الأفكار أيها الفتى ولا تحرجنا معك! ألا ترى إلى الظروف الأمنية السياسية التي نعيش فيها بعد أيلول؟ والجامعة مليئة بعيون الدولة ومؤسساتها الأمنية، وأنت بالذات «صوفتك حمراء» أصلاً، وليس لك ركن شديد تأوي إليه، وما أهون أن يستغنوا عن عملك ولم تبلغ منه الغاية.

قلت:

-أفلا تصححني وتفند أفكاري من الناحية العلمية؟

قال:

-مالي وتفنيد أفكارك علمياً، فليس المستوى العلمي ما أخشى عليك. فقد أعطيت حجاجاً وجدالاً وبياناً.. ولكني أخشى عليك سوء العاقبة من أفكارك السياسية الخطيرة، ولا أستطيع أن أوافقك عليها فأعرض نفسي للسؤال. خذ بحثك الآن ولا تبد به.

نظرت إلى العلامة فوجدتها علامة الامتياز!

انقضى العامان المقرران لعمل المعيدين قبل ابتعاثهم إلى الخارج. وقد آن أوان الرحيل إلى بلاد الغرب في طلب العلم. وكان خياري «معهد الدراسات الشرقية والإفريقية» SOAS الشهيرة في جامعة لندن. فلم أتقدم بطلب إلى غيرها على ما في ذلك من مجازفة. وكان القبول صعباً والمنافسة على مقاعدها شديدة. ولكنني حظيت بالقبول.

مكتبة الربيعي أحمد

السفر إلى حاضر الغير..
وماضي الذات!

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد ktabpdf@تيليجرام

1. في لندن مع الإخوة الأعداء

منذ اللحظة التي نزلت فيها لندن في منتصف أيلول من عام 1972، أخذت أبحث عنها فيها، مسترشداً بالصور الذهنية المنطبعة في ذهني عنها من خلال السينما والتلفزيون والصحافة والكتب. إذ إن جيلنا يحتل منزلة بين المنزلتين: الأجيال التي سبقتنا وأجيال أبنائنا، من حيث الاتصال بمصادر الثقافة الغربية الشعبية وغير الشعبية، قبل الاحتكاك المباشر بها. فكنا نتابع الصرعات التي تنشأ في الغرب، والتيارات الفكرية، والتحولات الاجتماعية من خلال الوسائط الاعلامية والثقافية التي لم تكن متاحة بالقدر نفسه لمن سبقنا، وأتيح أضعافها لمن جاء بعدنا. فكانت «الصدمة الحضارية» أقل وقعاً مما اختبرت الأجيال السابقة وأكثر مما تختبر الأجيال الجديدة الآن.

وقد وجدت في لندن كل ما انطبع في ذهني عنها مسبقاً: فها هي السماء الملبدة بالغيوم، وها هو الضباب الذي صار قرينة لهذه العاصمة الكبيرة، وهاهي الحافلات الحمراء ذوات الطابقين وسيارات «التاكسي» السوداء الكبيرة، وها هي البنايات التاريخية العريقة، وها هو نهر التيمز وجسوره المشهورة.. ساحة ترافلغر Trafalgar Square ، ودوار بيكاديلي، وساحة ليستر، ومتنزه هايد بارك وركن الخطباء فيه، ومتنزه ريجنت، وشارع بيكر الذي يقيم فيه شبح شرلوك هولمز، وقصر باكينغهام وحرسه الذي يرتدي قبعة سوداء مرتفعة ينشد حزامها على الخدين وأدنى الذقن ولا تهزه الريح ولا محاولات السياح البائسة لتحريك ملامحه الجامدة، دار البرلمان في ويستمينستر، مسرح أولدفيك Old Vick الذي يستوطنه شيكسبير في أولدويش Aldwych..... الشباب العائد من مباريات كرة القدم وقد تعتعه السكر فعلا صوته بالنشيد ومعجم الألفاظ القبيحة..

مكتبة الرمحي أحمد

قطارات الأنفاق وأمواج الماضين إلى أعمالهم أو العائدين منها في ساعات الذروة، لا يكاد أحدهم يلتفت إلى الآخر.. المتشردون الذين يفترشون الأرصفة وقد اسودت وجوههم بالأوساخ وقتر المصانع.. كهول لم يسعهم أن يفارقوا عصر الامبراطورية في الملبس والمظهر، وشباب يردون عليهم بسمت «الهيبيز» وأطواق الخرز والشعور الطويلة والسوالف العريضة وبناطيل الشارلستون الشديدة الضيق إلا أدناها الذي يستعرض حتى يخفي القدم.. الصفوف المنظمة في مواقف الحافلات وحيث يقتضي الموقف ذلك، دون تدافع وخصومات.. و.. غابات السيقان العارية والأحذية النسائية ذوات النعال السميكة المرتفعة شبراً في آن! بلى عندنا من ذلك في بلادنا التي خلفناها وراءنا.. أعني الفساتين القصيرة «ميني جيب»، ولكن ليس بهذه الكثرة ولا بهذا القصر، فأين أذهب ببصري إذ أحمل نفسي على غض البصر تأثماً، وهي في كل مكان وفي كل ركن ومنعطف وشارع وساحة، فإن أشحت عن بعضها سقط بصري على غيرها، فكأني أفر منها إليها!.. ولا قبل لي بالمشي منكساً رأسي طوال الوقت، أو شامخاً ببصري إلى السماء! أعان الله الشاب الشرقي «الهجين حين يقع في هذه السلة من التين». ولا يحسبن أن وقوعه فيها يبيحها له يأكل منها كيف يشاء كما أوهمته الرغبات التي سبقته إلى تلك البلاد، والانطباعات المغلوطة المضللة. أما التحرر الجنسي هناك، فحقيقة لا ريب فيها، وبخاصة في عقد السبعينيات. أما أن بنات بني الأصفر لا صبر لهن على سمرة العربي وسحر رجولته التي لا تقاوم، فأسطورة كبرى صنعها المخيال المكبوت، والرغبة المطمورة في التعويض عن الشعور بالنقص أمام الغرب المتفوق. فما لم تحققه الفحولة المهزومة في ميادين الكفاح والتقدم، تحققه في المخادع! وهيهات هيهات. ثم إن موجة التحرر الجنسي هناك يكافئها استقلال الأنثى التي ترفض التعامل معها بوصفها بضاعة وموضوعاً، فهي طالبة مطلوبة، لا تغلب على نفسها، إلا أن تأخذ وتعطي بإرادتها، وعبر طقوس الغزل المتعارفة التي تمر بأطوار ومراحل متدرجة قبل أن تقسم حبة التين بينها وبين صاحبها. وبالطبع هناك استثناءات ولكنها لا تغير القاعدة.

تلك هي لندن إذن في صورتها الخارجية، لا تبعتد كثيراً عن انطباعاتي المسبقة. ولكن اتفاق الواقع مع التوقعات ليس ضميناً بالتكيف السريع حين تصير في داخل

مكتبة الربيعي أحمد

المشهد. ولذا كانت الأيام الأولى قاسية، ووجدت في نفسي من الغيوم الداكنة أكثر مما في سماء لندن. وأعترف أن الحس الديني يزيد «المتدين» شعوراً بالإغتراب.

أين منظر المآذن؟ وأين صوت الأذان؟ وأين رفقة المسجد، وأين صوت المنشاوي ومصطفى اسماعيل يتغنيان بالقرآن؟ وأين تحية الإسلام والسلام بين الناس؟ وأين لغة الخطاب المشحونة بالدعاء والمعاني الدينية؟ وأين دعوات الضيافة إلى البيوت، وحرارة اللقاء بين الناس؟ وأين صوت فيروز يتسلل إلى روحك ثم يطيف بها بين سطوح الكرميد ومنعطفات الطرق الريفية الضيقة، والشرفات التي يتدلى منها الياسمين، ويأخذك إلى مروج الأحلام وجيران القمر الذين أسهرهم الحنين إلى حب قديم؟ أين ذلك كله من قسوة أيلول، أقسى الفصول كما يقول ت. س. إليوت في «الأرض اليباب» The Waste Land في هذه المدينة الهائلة التي تطحن وجودك الإنساني، والتي صنعت مجدها المخجل من عظام الضحايا والثروات المنهوبة يوم كانت عاصمة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس؟

وحين يعضك الحنين إلى دنيا فارقتها، يبدو لك كل ما فيها جميلاً، تحيطه بهالة رومانسية ناعمة وتشحنه بدلالات رمزية عاطفية، بينما يبدو لك كل ما في مكانك الجديد قبيحاً فلا ترى فيه إلا النقائص والعيوب. تحسب كل صيحة فيه عليك لأنك عربي مسلم، وكل ما لا يجري على هواك أملته العنصرية، وربما الصهيونية! وتتناسى العنصرية المقيتة التي يمارسها العربي على العربي، والهويات المتقاتلة في بلادك، والاستبداد والفساد والمحسوبيات والعشائرية، وصراخ المقهورين في أقبية المؤسسات الأمنية.. تنسى ذلك كله، ولا تذكر إلا دفء العلاقات العائلية وقيم التكافل الأسري وأخلاق الإسلام. وإذ بك تقارن واقعاً بمثال بدلاً من أن تقارن واقعاً بواقع.

ليس بوسعك أن تدافع عن الاستبداد في بلادك، ولكن بوسعك أن تحط من الديموقراطية الغربية الزائفة الضالة المضلة!

ليس بوسعك أن تدافع عن التخلف المادي في بلادك، ولكن بوسعك أن تطعن في قيمة التقدم المادي في الغرب الذي لا يعتدل بالقيم الانسانية والروحية والأخلاقية، وهي ما تزعم أنها كثيرة عندك. وتنتهي بيقين يواسي نرجسيتك المجروحة: هذه الحضارة قد بلغت غايتها من التقدم المادي والانحطاط الأخلاقي، وليس بعد ذلك إلا الانهيار،

مكتبة الربيعي أحمد

ولسوف تمضي فيها سنن الحضارات الغاربة لتصبح أثراً بعد عين.. فأجل بصرك في هذا البنيان الفخم وهذه الأحياء العامرة وهذه الصروح العظيمة والمآثر العمرانية الصلدة، ثم امحها في ذهنك، وتخيل مكانها أرضاً يباباً تنعق فيها البوم، وتتجول فيها سباع الفلا، وقد انهار بنيانها وتشققت طرقها وانخسفت بها الأرض، وخلت من سكانها، ولا ثم غير الريح تصفر فيها وهي تسفو الغبار وتدحرج كرات الشوك.. فإن شئت أن تذهب في خيالك إلى أبعد من ذلك، فابعث بها الحياة من جديد على المثال الذي تحب.. ارفع بها المآذن على التلال المرتفعة وخط الأفق، وأورثها قوماً يشبهونك، وأنطقها بالعربية، في دورة أخرى لحضارتك تصل إلى حيث لم تصل إليها في دورتها الأولى!!

ولكنه مصير مؤجل..

أما في صباح اليوم التالي فسيكون عليك أن تنهض مبكراً، وترتدي ثيابك على عجل، وتهرول إلى محطة الحافلة أو القطار لتصل في الوقت المناسب إلى وسط المدينة حيث تقوم الكلية التي تدرس فيها على أيدي علماء كبار، سوف تفتخر يوماً أنك تلمذت لهم، وعلموك ما لم تكن تعلم. وفي الفراغ بين المحاضرات، تذهب إلى «كافيتريا» الكلية لتجلس مع بعض زملائك العرب، لتتجاودلوا في أمور السياسة ولتقارنوا بين الغرب والشرق. ويزعجك هذا الطالب المفتون بالغرب الذي لا يفتأ يعظم من شأنه ويدافع عنه بغيرة دونها غيرة الإنجليزي اليميني المحافظ، ويبخس الحضارة العربية الإسلامية كما لا يبخسها أوروبي عنصري ما يزال يعتقد أن الإنسان الأبيض الأوروبي يحتمل عبء تحضير الشعوب البدائية المتخلفة ولو كان بطريق الاستعمار! فإن ذكرت زميلك المستلب هذا بما صنعه الاستعمار في بلادنا، ودور الانجليز في دعم المشروع الصهيوني واغتصاب فلسطين، صرف المسؤولية كاملة إلى عجز العرب وتخلفهم. وإذ تستفزك مقارناته الجائرة، تستدعي كل معارفك التاريخية لتثبت سبق الحضارة العربية الإسلامية في الكثير مما أدركه الغرب متأخراً، ولا تستثني من ذلك المجال العلمي الذي جئت تتخصص فيه: العلوم اللسانية، فتحيل بعض الأفكار والنظريات الحديثة التي بدأت في الإطلاع عليها إلى ابن جني وعبد القاهر الجرجاني والخليل بن أحمد، معيداً توصيف أفكارهم بالمصطلح اللساني الحديث. وهكذا تجدك مرة تقارن واقعاً بمثال ومرة أخرى تقارن حاضراً بماضٍ. وقبل أن ينتهي الجدال يكون الوقت قد حان للمحاضرة التالية مع أستاذ لا يشبه ابن جني اسماً ولا رسماً

مكتبة الربيعي أحمد

ولا لساناً، ولكنه سيبدي اهتماماً صادقاً إذا حدثته ببعض أفكار ابن جني ذات العلاقة بموضوع الدرس. هذا إذا أسعفتك إنجليزيتك المتعثرة في شهور دراستك الأولى، في نقل الفكرة، فلم يلزمك ضيق اللغة بتقزيم الفكرة على قدها.

قدمت لندن، وأنا أحسب أن كفاءتي في اللغة الانجليزية جيدة. فقد حصلت على علامة الامتياز في مادة اللغة الإنجليزية التي درستها في برنامج البكالوريوس مع سيدة إنجليزية. وفي السنة الثانية من عملي معيداً التحقت بمعهد لتعليم الانجليزية في عمان، ودرست مستويات عدة متقدمة على معلمين إنجليز وأمريكان، وحصلت عندهم على أعلى الدرجات، حتى إن معلمة أمريكية علقت على إحدى أوراقي بالقول: من الواضح أنك متمكن من الانجليزية وأخطاؤك بسيطة ومحدودة! فلم لا أذهب إلى بلاد الانجليز واثقاً ألا أتيه في الترجمة!

انقشعت أوهامي بأسرع مما ينقشع الضباب في عاصمة الضباب. ثمة فرق كبير بين مهارة القراءة المتأنية التي يعينك عليها المعجم، ومهارة الكتابة التي يسعك أن تحبرها تحبيرا إذا أوتيت وقتاً كافياً واحتلت عليها بالأسلوب الشعري الذي يفارق بطبيعته مألوف اللغة اليومية، فرق كبير بين هاتين المهارتين ومهارات الاستماع والكلام. فالآن تتعرض للإنجليزية في بيئتها الحقيقية الطبيعية، ينطقها أهلها على عجل بلهجات مختلفة، يكاد بعضها أن يستعصي على بعض الناطقين بالانجليزية أنفسهم، والآن يتوقع منك أن تعبر عن أفكار معقدة بالكلام والحوار المتعجل الذي لا يملك ترف انتظارك وأنت تغالب صوغ العبارة السليمة. وإذ تخاف أن تخذلك العبارة، تزداد العبارة شروداً. فالخوف من الخطأ يفاقمه.

وثمة فرق آخر بين المعرفة اللغوية السلبية والمعرفة الإيجابية النشطة. فما تختزنه من المعجم وتفهمه من غيرك، لا يجري على لسانك حين تحتاج إليه، ولا يواتيك فوراً حين تستدعيه، حتى تنقله الممارسة اليومية من مستودع المعرفة السلبية الساكنة إلى مستوى الاستعمال النشط. ولا تبلغ مستوى الإتقان في استعمال اللغة، حتى ينصب تفكيرك على الفكرة والمعنى الذي تريد إيصاله وتتشكل العبارة تلقائياً وفقاً لذلك، فإذا توزع تفكيرك بين الفكرة و الوسيط اللغوي نفسه، اضطرب التعبير ولجأت إلى الترجمة عن العبارة في لغتك الأولى، ففسد التعبير والمعنى معاً باللغة الثانية!

مكتبة الربيعي أحمد

وهكذا وجدت نفسي في الشهور الأولى أداري نرجسيتي المجروحة أمام اختبار الواقع، وأغالب صعوبات السماع والحوار، فتكثر على لساني كلمات الاعتذار التي يرجى بها الاعادة: عفواً Excuse me. ومن أهل اللغة من يتسع صدره لك متفهماً، ومنهم من يظهر الضيق في وجهه وإن حاول أن يداريه. ومنهم من تنحبك عنده الدعابة الساخرة. وأذكر مرة أني كنت أبحث عن مكان ما. فاستوقفت أحد المارة أسأله أن يدلني عليه. وبدلاً من السؤال المباشر، صغت استفساري بأسلوب التقرير على نحو ما نفعل أحياناً بالعربية الدارجة، فقلت ما معناه:

-أريد الذهاب إلى المكان....

وسميت المكان. فما كان من الرجل إلا أن قال مع ابتسامة خبيثة:

-حسناً تفعل!

ولم أشاركه تقدير الدعابة. ولكنه استدرك بسرعة ودلني على الوجهة أخيراً.

ولكن هذه الصعوبات في التواصل اليومي العابر تهون إذا ما قورنت بالتحديات التي كان علي أن أواجهها في قاعة الدرس. فهناك يجري النقاش في أفكار علمية عميقة. وقد اعتدت في سالف عهدي أن أسهم في النقاش العلمي إسهاماً لافتاً، وأجادل عن أفكاري بأسلوب بين متدفق. والآن أجدني في الشهور الأولى من دراستي في لندن أتابع النقاش الذي يدور حولي فأفهم جله وتنشأ في ذهني أسئلة وأفكار أحسبها قيمة، ثم لا أجرؤ على المشاركة بها خشية أن يخذلني التعبير ويضطرب لساني، فأشعر بإحباط شديد لم أختبر مثله في دراساتي السابقة. فإذا اجتمعت بعد ذلك بزملائي العرب، وكلهم كان يحمل درجة الماجستير في اللغة الانجليزية فلا يجد بعض ما أجد من الصعوبة، رجعت عليهم بالنقاش الذي انحبس لساني عنه بالانجليزية، ليفيض الآن بالعربية، فتراهم بين إعجاب وتعجب، كيف لم أبسط تلك الآراء في المحاضرة، وكان من شأنها أن تنبه إلى أمور وتستدرك على أمور وتحفز التفكير بأمور. فأعتذر بضعف إنجليزيتي، فأنا بينهم الوحيد الذي جاء بدرجة في اللغة العربية لا الإنجليزية.

فإذا خلوت إلى نفسي بعد ذلك، استرجعت ما دار في المحاضرة من نقاش، ووجدتني أقول في نفسي بالانجليزية ما كان ينبغي أن أقوله في الملأ، فيأتيني التعبير الشارد

مكتبة الربيعي أحمد

المراوغ هيناً مبيناً. وأتخيل استحسان الملأ على الحال السابق الذي ألفته قبل أن أغترب في لغة ثانية. فيزيد شعوري بالإحباط!

كان البرنامج الدراسي الذي التحقت به في قسم الصوتيات واللسانيات في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، هو برنامج ماجستير الفلسفة M.Phil، وهي درجة أعلى من الماجستير MA ودون الدكتوراه. ولعلي كنت الوحيد الذي قبل في البرنامج وهو لا يحمل إلا درجة البكالوريوس. فسائر الطلبة يحملون الماجستير من جامعات أخرى. وكان نظام الكلية لا يسمح بالقبول في درجة الدكتوراه مباشرة حتى ممن حصلوا على درجة الماجستير، إذا كانت درجاتهم من جامعات غير بريطانية، حتى يسجلوا أولاً في برنامج درجة ماجستير الفلسفة، فإذا تقدم الطالب شوطاً كافياً في رسالته، وثبت للقسم والأستاذ المشرف أن مستوى بحثه وأدائه يسمو إلى مستوى الدكتوراه، رفع تسجيله إلى درجة الدكتوراه بأثر رجعي. فإذا فرغ من رسالته وتقدم للمناقشة، كان للجنة المناقشة أن تقرر منحه درجة الدكتوراه بلا تعديل، أو تشترط لها تعديلاً محدوداً أو تعديلاً رئيساً، أو تقرر أن البحث لا يستحق أكثر من درجة ماجستير الفلسفة، فيرد إلى ما بدأ به، أو تقرر عدم استحقاقه لأي درجة، فيبوء بالإخفاق التام.

وتزيد بعض الأقسام على ذلك، فتشترط أن تكون السنة الأولى من البرنامج سنة تأهيل عام في مجال التخصص Qualification، فيكون على الطلبة أن يدرسوا مواد معينة، ثم يتقدموا للامتحان فيها آخر العام الدراسي، فمن نجح تابع بحثه مع مشرفه، وإلا ألغي تسجيله جملة، وكان عليه أن يحاول من جديد في جامعة أخرى. وهكذا كان حال برنامجنا الدراسي في قسم الصوتيات واللسانيات. وبذلك وجدت نفسي أتنافس في البرنامج نفسه مع طلبة انجليز وأجانب، كلهم يحمل درجة الماجستير، ويتقن الانجليزية، إن لم يكن من الناطقين بها أصلاً. ومنهم من حصل على درجته تلك في تخصص الصوتيات واللسانيات، فهو على علم بمصطلحه ومفاهيمه الأساسية. وذلك بخلاف من كان مثلي، يدخل في حقل علمي جديد مستقل عن موضوع دراسته السابقة. وذلك أن اللسانيات مجال علمي مستقل بنظرياته ومناهجه ومفاهيمه وموضوعه. فهو لا يختص بلغة أو لغات معينة كالعربية أو الانجليزية. إنما موضوعه الظاهرة اللغوية الإنسانية على الجملة بكل جوانبها الشكلية والوظيفية والاجتماعية والنفسية والأنثروبولوجية. ولما كانت الظاهرة

مكتبة الربيعي أحمد

اللغوية بطبيعتها تتداخل مع جملة النشاط الانساني، فإن علم اللسان يتداخل مع حقول معرفية مختلفة: علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، علم النفس، الحاسوب، الفلسفة، النظرية النقدية والأدبية، الدراسات الثقافية.. الخ. ولذا فليس من الغريب أن يرفد هذا العلم الجديد نسبياً تلك الحقول المعرفية بمفاهيمه ومناهجه. فالبنيوية في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع، وما بعد البنيوية، والتفكيكية، والأسلوبية، والسميولوجيا (علم العلامات)، وتحليل الخطاب، وعلم النفس الإدراكي، وبنيوية كلود ليفي شتراوس في الدراسات الأنثروبولوجية، وبنيوية لاكان في التحليل النفسي، ونظرية تحليل الحوار Conversational Analsis في علم الاجتماع، والمنطق الشكلي، ومناهج تعليم اللغات الثانية، كل ذلك وغيره استرفد المفاهيم اللسانية الحديثة، وبنى عليها.

وبطبيعة الحال فإن للمتخصص بعد أن يستوعب الأصول النظرية والمنهجية، أن يطبقها في دراسة ظاهرة لغوية ما في أي لغة من اللغات، ومنها لغته الأولى.

وإذن فقد كان التحدي كبيراً حملت نفسي على النهوض له، فأسهرت ليلي في سنتي الأولى، وما إن جاء آخر العام واقترب موعد الاختبارات الفاصلة التي تقرر استمرارك في الدراسة أو إلغاء تسجيلك، حتى كنت قد استعدت ثقتي وأقبلت على الاختبارات دون وجل.

كانت الاختبارات ثلاثة: الأول تحريري في اللسانيات العامة، والثاني تحريري أيضاً في الصوتيات العامة، والثالث شفوي في الصوتيات التطبيقية.

لم أجد صعوبة تذكر في الاختبارين التحريريين. وبقي الثالث وهو ما يرهب الطلبة عادة. إذ يتعاقب الطلبة فرادى على الدخول إلى غرفة الاختبار، حيث يجلس أستاذ من عصر الامبراطورية يتصل سالفاه بشاربيه المنفتلين إلى الأعلى، وأمامه على المنضدة قائمة الرموز الصوتية الخاصة بالكتابة الصوتية، والتي تستوعب كل الأصوات المحتملة في لغات العالم. فيختار منها ما يشاء عشوائياً، فيصف لك الصوت على وفق التصنيفات الصوتية المقررة، وعليك أن تنطق الصوت على وفق ذلك. فإذا فرغ من هذا الشطر، عكس السؤال، فالآن ينطق لك الصوت الذي يمكن أن يكون في أبجدية أي لغة من لغات العالم مما تألف في لغتك أو لا تألف، وعليك أن تستجيب فوراً بتوصيف الصوت

مكتبة الرمحي أحمد

المنطوق وفقاً لمنهج التوصيف الصوتي المقرر في العلم. ولا مجال هنا للتردد والتفكير والتجريب. تسمع فتجيب فوراً فإما أن تصيب وإما أن تخطئ.

كنا نقف في الرواق المؤدي إلى غرفة الاختبار، فيدخل الواحد منا، فإذا خرج، دخل التالي. وكنا ننظر في وجوه الخارجين السابقين نقرأ فيها نضرة التفاؤل بالنجاح أو قترة الخوف من الإخفاق، ويكاد العربي المسلم منا يقول: «أنتم السابقون، وإنا إن شاء الله بكم لَلاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»، فلا تدري أي أصوات تكون نصيبك في الإمتحان، فكثير منها يعود إلى لغات غريبة، ومنها ما يثقل نطقه على غير الناطقين بتلك اللغات. وأخيراً جاء دوري. ولم يطل الوقت حتى خرجت باسم الوجه متهللاً يكاد أن يغلبني الضحك. سألني اللاحقون المنتظرون فقلت خيراً ولم أفصل. وما كانت رغبة الضحك عندي فقط لأني أجبت عن كل الأسئلة بلا خطأ واحد، ولكن لأن الأستاذ قد يسر علي مهمتي دون علم منه. إذ لم يتفطن إلى أن الطالب الذي يجلس أمامه عربي، فكان من الأصوات التي تحدى بها كفاءتي عدد لا بأس به من الأصوات العربية التي تثقل على اللسان الأجنبي كالأصوات الحلقية واللهوية والمطبقة، فجئته بتوصيفها ونطقها على نحو ما يحسن أبناء العربية أنفسهم!!

وهكذا انتهت سنة التأهيل الحاسمة على خير، وصار بوسعي أن أتفرغ لبحث الرسالة تحت إشراف الأستاذة العريقة وايتلي Whitely (ولا أذكر الآن اسمها الأول). وقد اخترت موضوع بحثي في علم الأسلوبية الذي يتناول تطبيق النظرية اللسانية الحديثة في دراسة لغة الأدب والشعر من حيث أن النصوص الأدبية هي أشكال من الاستعمال اللغوي، فتدخل في نطاق الدراسة اللسانية، وهي بذلك تمد النظرية الأدبية بأدوات منهجية لسانية صارمة بدلاً من التحليلات الانطباعية والأحكام الذاتية والإيدولوجية الفاقعة. وليس من غرض الدراسة الأسلوبية أن تنتهي إلى أحكام نقدية حول قيمة النص الأدبي، فتلك مهمة النقد الأدبي، ولكنها تنظر في العناصر التشكيلية اللغوية التي يتقوم بها النص، وتتوصل إلى تعميمات نظرية حول طبيعة اللغة الأدبية التي تنماز بها عن سائر الاستعمالات اللغوية.

وكان دافعي إلي اختيار هذا المجال الفرعي التخصصي في علم اللسان أن أجمع بين الخيرين: اللغة والأدب. وفضلاً عن ذلك فإن الدراسة اللسانية للغة الأدب لا تنحصر في

مكتبة الربيعي أحمد

جانب شكلي أو تطبيقي محدود من الظاهرة اللغوية، إذ إنها تشتغل على المستويات اللسانية المختلفة: الصوتي والصرفي والنظمي والمعجمي والدلالي، فضلاً عن أبعاد الخطاب الأدبي بما هو شكل ثقافي في آخر المطاف، وقد يدخل في ذلك «علم العلامات» Semiotics.

لم أكن بعيداً عن الإعداد لبحثي في أثناء السنة التأهيلية الأولى، فقد كان علي أن أعمل فيه وأراجع به الأستاذة المشرفة إلى جانب الأعباء الدراسية الأخرى المنتظمة. والآن وقد فرغنا من سنة التأهيل واختباراتها، فعلي أن أنصب على البحث، إضافة إلى برنامج من حلقات الدرس (Seminars) المتصلة في ميادين مختلفة من علم اللسان.

أدركت مبكرا أن علاقتي العلمية بالأستاذة المشرفة لن تكون رحلة سهلة. فإذ توسع إطلاعي على المناهج الأسلوبية المختلفة وتعمق، وتطورت قدرتي على المعارضة بين النظريات والمناهج المختلفة وتقويمها، بدأت في توليف المنهج الذي يوافق عقلي ورؤيتي العلمية. ولم توافق خياراتي المنهجية هوى في نفس المشرفة التي كانت أمينة على تراث أستاذها الشهير فيرث Firth ، الذي تنسب له مدرسة معروفة في علم اللسان، كان منشؤها في القسم نفسه الذي أدرس الآن فيه، ويعرف هذا الاتجاه المدرسي بمدرسة لندن اللسانية، وأحياناً: اللسانيات الفيرثية Firthian Linguistics نسبة إلى أصل المدرسة وواضع قواعدها. وكان من الطبيعي أن يتمسك الرعيل الأول من تلامذة فيرث بمنهج أستاذهم، اقتناعاً بقوته العلمية من جهة، واعتزازاً بتراث القسم الذي نشأت فيه تلك المدرسة من جهة أخرى. فكيف لطالب يتلمذ لهم أن ينصرف عن فيرث ومدرسته إلى نظريات ومناهج أخرى نشأت في بلاد أخرى، وهي عندهم أشبه بالهرطقة؟ وقد كان المنهج الذي ارتضاه عقلي ذلك الذي ينسب إلى حلقة براغ اللسانية الشهيرة في مجال الأسلوبية، وقد طعمته بعناصر من لسانيات تشومسكي التوليدية، وتشومسكي هو أعظم عالم في اللسانيات الحديثة منذ السويسري فرديناند دي سوسير. ولم تكن أستاذتي المشرفة لتميل إلى هذا أو ذاك. ولعلها كانت تشعر بثقة علمية أكبر بنفسها إذ توجه طالبها على أرض ملعبها المنهجي. ولم يكن ليكافئ حماسها لفيرث دون غيره، إلا حماسي للتوليفة المنهجية التي توصلت إليها عن بينة وتمحيص. وعلى كل حال، فإن الخيار بين المناهج ليس خياراً بين حق مطلق وباطل مطلق، وفي الحقول العلمية والمعرفية متسع لجدل النظريات والاتجاهات، وهو الجدل الذي يخلق شرط الإمكان لتولد اتجاهات جديدة،

مكتبة الربيعي أحمد

يفارق بعضها السابق كله، أو يستدرك عليه إضافة وتجديداً. فما بال مشرفتي العنيدة تضيق ذرعاً بغير ما تعتقده، وتضغط علي في اتجاه أفكارها ومنهجها؟ وكيف يسوغ لي أن أبني بحثاً كاملاً على منهج يرضي مشرفتي ولا يرضيني، حتى إذا حصلت على درجة الدكتوراه تنكرت له واتخذته ورائي ظهرياً؟

وإذ تفرغت للبحث بعد انتهاء السنة التأهيلية الأولى اتسعت هوة الخلاف المنهجي بيننا، فلا هي ترضى مني ولا أنا أرضى منها، ولا ثم مجال لتسوية منهجية. فكلما جئتها بمادة مكتوبة جديدة، لم تنظر في مدى انسجام التحليل مع الإطار النظري الذي اخترته، ولكنها تعود إلى الأصول المنهجية نفسها، فكيف ترضى بالفروع وهي تعترض على الأصول! وقد باحت لي يوماً بأنها، فضلاً عن موقفها المنهجي، لا تفهم كثيراً من مفاهيم «حلقة براغ» ولا لسانيات تشومسكي التوليدية! مضت السنة الثانية ونحن بين أخذ وردّ، لا نستقر على أمر جامع. وانتابني من ذلك همّ بالغ. فها هي سنة ثانية تنقضي وأنا لا أدري مصير بحثي، وأين ينتهي بي الحال مع مشرفتي، إلى أن تيقنت أني معها أمام طريق مسدود! فكيف العمل؟ ومن ورائي جامعتي الأردنية التي أوفدتني تتابع تقدمي في الدراسة!

كان لا بد أن أتخذ قراراً صعباً، يزيد من صعوبته ما ربينا عليه من الحياء، ومن إضفاء صفة شخصية على العلاقات الرسمية والمهنية. كان قراري الذي لم أعلمها به، أن أحاول الإنتقال إلى مشرف آخر. وكان في القسم أستاذ شاب منفتح على النظريات المختلفة لا يقيده الولاء لتراث القسم الفيرثي. وكنت قد قدمت في حلقته الدراسية بحثاً في الأسلوبية على المنهج الذي ارتضيته، فوافق مذهبه.

قابلته أولاً وحدثته في مشكلتي مع مشرفتي بنبرة نعدها في ثقافتنا العربية طبيعية وإن كانت صارمة، ويراها الإنجليزي في ثقافته الموصوفة بالبرود العاطفي، شديدة الاحتقان. وبينت له أني أمام طريق مسدود مع مشرفتي، ولا مخرج إلا بالانتقال إلى إشرافه، وإلا ألزمني الحال أن أترك الكلية إلى كلية أخرى، أو جامعة أخرى في بريطانيا. وقد يكلفني ذلك منحة الجامعة التي أوفدتني. فرأيته يبتسم ويقول ما معناه:

–هون عليك، لا داعي لكل هذا الضيق. لا مانع عندي من الإشراف عليك. دع الأمر لي وأنا أدبّره.

مكتبة الربيعي أحمد

قلت:

-ألا يقتضي الأمر أن أتقدم بطلب إلى رئيس القسم؟

قال:

-لا. دعه لي كما قلت.

في اليوم التالي التمسته في مكتبه لأرى ما صنع بموضوعي، وأنا على أحر من الجمر، فلم أجده. فجلست على مقعد خشبي في إحدى الردهات أنتظر ظهوره. وما هي حتى ظهر وعبر من أمامي مسرعاً دون أن يتفطن إليّ، فأسرعت خلفه أستوقفه للسؤال متلهفاً. قال:

-قضي الأمر.

قلت:

-كيف؟

قال بلهجة عفوية كأنه يلقي علي أمراً مفروغاً منه:

-تفاهمت مع رئيس القسم والسيدة المشرفة، وأنت من اليوم تحت إشرافي، وبذلك غيرنا قيود التسجيل. فليس عليك أن تفعل شيئاً.

في لحظة واحدة، انزاحت عن صدري صخرة ثقيلة، وغمرتني سعادة تفوق سعادتي حين حصلت على درجة الدكتوراه بعد سنة ونصف فقط من ذلك الموقف. فبعد أن قطعت شوطاً في الرسالة، رفع تسجيلي من درجة الماجستير الفلسفية إلى درجة الدكتوراه بأثر رجعي، بناء على مستوى البحث ونطاق موضوعه.

في أثناء دراستي في لندن أتيح لي أن أعمل بالقطعة مع القسم العربي في الإذاعة البريطانية، وكان لعمي محمود إبراهيم أصدقاء هناك من زمن دراسته في الجامعة نفسها. فيسروا لي ذلك العمل الحرّ الذي وفر لي دخلاً إضافياً أتاح لي حياة مريحة. فانتقلت

مكتبة الرمحي أحمد

للعيش في شقة حسنة في ضاحية هادئة من منطقة «سري» Surry جنوب لندن. وكانت معي الآن زوجي التي التحقت بي من عمان، فآنست وحشتي وساعدتني على التكيف في بلاد الغربة. والحق أنه لم تنقض السنة الأولى هناك حتى ذهبت عني وحشة الاغتراب الأولى، وكشفت لي لندن عن وجهها الجميل وذخائرها البديعة ومنحها الفنية، أنتقي منها ما يوافق هواي ومشربي ومطلبي، دون أن تفرض علي ما لا أرتضيه لنفسي أو تكلفني المساومة على مبادئي وعقيدتي وهويتي. فإن كنت تخشى على نفسك من فتنة غواياتها، فالأولى أن تخشى من نفسك على نفسك. فإنها لا تأتيك بنفسها تجرجر أذيالها وتقول: «هيت لك»، إلا أن تبحث بنفسك عنها في مظانها، وتؤدي لها فروضها. ففي لندن متسع للشاربين، قد عرف كل أناس مشربهم. هنا تتجاور مصانع اللذة والرغبة العارية مع مصانع الفكر والفنون والآداب. ومشربي أجده في المكتبات العظيمة والمتاحف والمسارح والمعارض الفنية، فضلاً عن المعاهد العلمية العريقة. فإن طلبت بعض الراحة والسكينة والاستجمام، فدونك الطبيعة البريطانية الخلابة ببسائطها الخضراء وتلالها وسهولها وبحيراتها الرائعة. وبين هذا وذاك يسعك أن تقيم صلاتك في المصلى الصغير الذي خصصته الكلية لطلبتها المسلمين، وحتى في ركن هادئ من المكتبة أو المتنزه العام، لا يضارك أحد في دينك. وليس عليك أن تداري التزامك الديني كيلا تخسر إعجاب مراهقي اليسار وأصولييهم، الذين خلفتهم في بلادك يتجادلون حول مواعيد نهاية التاريخ وقيام الفردوس الأرضي!

لا، لم يغرني وجه لندن الجميل بتناسي جرائم الاستعمار البريطاني في بلادنا، ولا حجب عني الوجه القبيح للرأسمالية الغربية والعنصرية الأوروبية البغيضة. ولكني سأجد في الغرب نفسه من هو أشد مني نكيراً على هذه الأمور. وسوف تزودني مصادر المعرفة هناك بأدوات فكرية ومنهجية جديدة لنقد التاريخ الغربي الاستعماري وتفكيك الخطابات الثقافية التي أمدته واستمدت منه. وسأدرك أن الغرب ليس ماهية واحدة متجانسة ثابتة أو قالبا نمطياً واحداً ساكناً، كما أن الشرق ليس كذلك وإن صوره الخطاب الاستشراقي الغربي على هذا النحو، وسوف يساعدني ذلك كله على التحرر من نزعة تعريف الذات والآخر بالمغايرة بينهما، فأنت ما ليس هو، وهو ما ليس أنت. ومن شأن هذا المنهج المضلل أن يفضي إلى نتائج متعارضة كلها خطأ. فثمة من يحجب عيوب الذات

مكتبة الرمحي أحمد

بعيوب الآخر، وثمة من يحجب عيوب الآخر بعيوب الذات. فالأول هو العربي الذي يداري نرجسية هويته المجروحة المهددة، فيمتنع بأسوارها المغلقة، ويعيش في مثال تاريخي متخيل، يحمله على كره الآخر المختلف الذي لا يرى فيه إلا تهديداً وبديلاً. والثاني هو العربي الكاره لذاته، المستلب المستغرب، فإن لم يكن هذا أو ذاك، وجدت من يرد محاسن الآخر الغربي التي لا تستطيع تجاهلها إلى مصادر عربية اسلامية تاريخية، فهي بضاعتنا ردت إلينا، ويردّ عيوب الذات إلى مصادر التأثير الغربية الظاهرة والباطنة؛ أحسن ما عند الآخر منا، وأقبح ما عندنا منه! وبذلك يعتدل الميزان!.. حقاً؟! فما دهانا إذن حتى قايضنا الآخر أسوأ ما عنده في الحاضر بأحسن ما كان عندنا في الأمس؟ وكيف تسنى له أن يبني على إنجازات ماضينا ما لم يتسن لنا أن نبني عليه؟ ولماذا ننقسم بين من يلتجئ إلى ماضي الذات ومن يلتجئ إلى حاضر الغير؟

من طبع الإنسان أنه إذا انتقل إلى ثقافة غير ثقافته، لم ير في المرحلة الأولى من المواجهة إلا الفروق والاختلافات. ولكنه إذا تعمق بعد ذلك في مجتمع الغربة بدأ يدرك المتشابه والمؤتلف. ومما لا ريب فيه أن الثقافات الإنسانية تختلف في جوانب شتى. وصحيح أن الثقافة التي ننشأ فيها وننتمي إليها تعمل على تشكيل نظرتنا للعالم وتعاملنا مع معطياته. ولكننا ننسى في خضم ذلك أن الثقافة ليست ظاهرة طبيعية لم يكن لنا شأن في إنتاجها، وإنما هي ظاهرة إجتماعية أنتجها الوعي الإنساني الاجتماعي لفهم العالم من حوله وتنظيم علاقاته به وبالجماعة التي ينتمي إليها. وإذا كان الوعي البشري يرتد في طرائق عمله وتفاعله إلى الطبيعة التي جبل عليها، وإذا كانت هذه الطبيعة واحدة عند الجنس البشري، فإن الثقافات التي أنتجها هذا الوعي لا بد أن تنطوي على بنى متشابهة ومتماثلة في مستوياتها الذهنية العميقة. هناك إذن بنى كونية تنطوي عليها الثقافات على الرغم من اختلافاتها الخارجية الظاهرة. وإلى جانب ذلك، فإن علاقتنا بالثقافة، كما ذكرنا في غير موضع سابق، علاقة تفاعلية ديناميكية، فبقدر ما تسهم في تشكيل وعينا، فإن وعينا يستثمرها بطرق إبداعية ويشتغل دائماً على تكييفها وتعديلها وتطويرها بما يخدم أغراضنا المستجدة والمتعارضة في إطار علاقات القوة وضرورات التفاعل الاجتماعي. ولذا فإن الثقافة، وإن كانت تجمع بين أبنائها، فإنها لا تحشرهم في قالب نمطي واحد. هكذا هي في الشرق والغرب اللذين لا يمنع تمايزهما وحتى تاريخ الصراع بينهما من

مكتبة الرمحي أحمد

التقائهما بأكثر مما يعتقد العنصريون وكارهو الآخر المختلف وكارهو الذات والمعتصمون خلف أسوار هويتهم المهددة!

وقد استطاع عالم الأنثروبولوجيا البنيوي كلود ليفي شتراوس في دراسة خاصة أن يكشف عن البنى الكونية العميقة المشتركة للحكايات الشعبية في ثقافات مختلفة. أما لسانيات تشومسكي الإدراكية Cognitive فقد ردت أصول الظاهرة اللغوية الانسانية إلى الطبيعة العقلية الفطرية عند الانسان بمطلقه. فهي قدرة تولد مع الانسان ثم يستعملها في اكتساب لغة مجتمعه. وإنطلاقاً من ذلك اشتغلت لسانيات تشومسكي على اكتشاف نحو كوني يجسد تلك البنى الذهنية الفطرية المشتركة في المستوى اللغوي العميق، على الرغم من الاختلافات الظاهرة على المستوى السطحي الظاهر. ولما كانت اللغة هي التمثيل الرمزي الأعظم للمعاني الثقافية، فيمكن القول: إن النحو الكوني يحيل إلى البنى الثقافية الكونية المشتركة. وتأسيساً على هذا الاتجاه يمكن أن نتجاوز ثنائية الطبيعة والثقافة وما بينهما من تعارض، حيث إن الأولى تجمع وتوحد، والثانية تفرق وتباعد.

ذلك بعض ما استفدته من دراساتي في لندن، ومن تفاعلي المباشر مع ثقافة الغرب. فكان أول ما عاينت تلك الاختلافات الظاهرة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الغربية. وهي اختلافات حقيقية، لا ريب. ثم إذا تجاوزت مرحلة الصدمة الأولى واستدخلت في وعيي اللغة الانجليزية وثقافتها المجتمعية، وتقمصت دور الباحث الأنثروبولوجي الذي يتبنى منهج المراقبة من خلال المشاركة: Participant Observation ، لا منهج المراقب الخارجي من موقعه في ثقافته المغايرة، بدأت أدرك مدى المؤتلف الانساني بين الثقافتين، على غير ما يعتقد دعاة العنصرية والتفاصل وكراهية الآخر أو كراهية الذات!

ولكن الجامع بين الحضارتين العربية الاسلامية والغربية الاوروبية أكبر من مجرد البنى الكونية المشتركة التي تستبطنها الثقافات الإنسانية المختلفة. فقد أسهمت حقائق التاريخ والجغرافيا في تشكيل علاقة مركبة أزعم معها أن هاتين الحضارتين هما أكثر الحضارات الإنسانية تبادلاً وتفاعلاً، وأن هذا هو الوجه الآخر للصراع بينهما. بل إن بعض ما غذى الصراع بينهما هو التنازع على المواريث نفسها وعلى نظم المعاني والرموز المشتركة، فضلاً عن التنازع على المجال الحيوي المتقارب المتداخل. فالغرب يؤصل

مكتبة الرمحي أحمد

حضارته في الإرث الاغريقي وفي المسيحية واليهودية. أما الحضارة الإغريقية فلم تكن في وقتها غربية بأي معيار، ولكن الغرب تبناها واستملكها بأثر رجعي منذ عصر النهضة. أما في زمنها فلم يكن مفهوم الغرب قائماً بالتقابل مع الشرق. وقد تطورت الحضارة الإغريقية في سياق تطور حضارات الشرق الأوسط وحوض المتوسط. وكان للشعوب السورية دور فيها. وكان لها موطن في غرب الأناضول فضلاً عن الجزر اليونانية. ولم يكن الإغريق يشيرون إلى شعوب الشمال الأوروبي إلا بالبرابرة. ومن خلال حملات الاسكندر المكدوني استوطنت تلك الحضارة مصر بصورة خاصة وعم تأثيرها منطقة الشرق الأوسط، حتى صارت الاسكندرية عاصمة الثقافة الهلينية. وفي المقابل لم يمتد أثرها إلى قلب أوروبا وشمالها، حتى ورثتها الإمبراطورية الرومانية التي امتدت إلى مصر والشام وشمال إفريقيا. ولعل الحضارة الرومانية هي الجذر التاريخي الحقيقي للحضارة الغربية على الرغم من هيمنتها على شعوب وثقافات وديانات مختلفة شرقية وغربية. وإذ تبنت الإمبراطورية الرومانية المسيحية في القرن الرابع الميلادي، غيبت الكنيسة بالتدريج الموروث الإغريقي الوثني إلا من المؤثرات الأفلاطونية والأفلوطينية في لاهوت أوغستين المسيحي. وإذ تخلت أوروبا المسيحية عن الموروث الإغريقي، انفردت بوراثته الحضارة العربية الاسلامية التي تزامن صعودها مع انحدار أوروبا إلى عصر الظلام الذي امتد زهاء ألف سنة. وإلى جانب التنازع على المجال الحيوي الجغرافي الذي نجح العرب في الامتداد فيه عبر بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، ولاحقاً عبر الأناضول، جرى التنازع على المعاني والأصول الدينية المشتركة. فالمسيحية واليهودية التي أخذ الغرب يعرّف حضارته وهويته بهما في مقابل الإسلام يرتدان إلى الشرق حيث موطنهما الأصلي. والإسلام قدم نفسه بأنه الوارث الحقيقي لهما، وأنه خرج وإياهما من مشكاة سماوية واحدة، وأن روايته عن تاريخهما وأصولهما ورموزهما هي الرواية الأصوب. فهو أولى بتلك الرموز والأصول من غيره.

وعلى الرغم من الصراعات العسكرية والسياسية الذي اتخذت طابعاً دينياً في الكثير من الأحيان، بل ربما بسبب تلك الصراعات، أفادت أوروربا من المنجزات الحضارية الإسلامية في أوجهها عن طريق الأندلس، وبلاد الشام أثناء الحروب الصليبية. وما إن أوشكت العصور الوسطى الأوروبية على الانقضاء، حتى بدأ الانفتاح الأوروبي

مكتبة الرمحي أحمد

على الموروث الإغريقي من خلال العرب والمسلمين في المقام الأول. وهنا أعادت اوروبا تعريف اليونان القديمة في ضوء تعريف اليونان المتأخرة بوصفها جزءاً من الغرب الأوروبي. فاستأثرت بملكيتها باعتبارها قاعدتها الكلاسيكية، وعملت على رفع المعارضة بينها وبين اللاهوت المسيحي. واتصل هذا التحول بصعود أوروبا نحو عصر النهضة والحداثة ثم الهيمنة، بينما انحدرت الحضارة العربية الإسلامية نحو الجمود والتخلف، إلى أن صار عليها أن تعتمد على الإنتاج المعرفي الغربي في ظل نظام عالمي يسيطر عليه المركز الغربي. وما وجودي في لندن للدراسة، إلا تعبير فردي عن هذا الوضع.

وهكذا نرى مدى المشترك الثقافي الحضاري بين الحضارتين، ومدى التبادل بينهما مع اختلاف الأدوار أو تعاقبها من الأخذ إلى العطاء؛ من الإعارة إلى الاستعارة. فهل نجد مثل ذلك بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الصينية أو حتى الهندية؟ أو بين الحضارة الغربية وحضارات الشرق الأقصى؟!

لهذا السبب استقر في العقلين العربي الاسلامي، والأوروبي الغربي، أن حضارة الآخر هي الحضارة البديلة لا الموازية، وأن صعود إحداهما رهين بتراجع الأخرى، إذ هما يتنازعان على الفضاء الحيوي والثقافي نفسه! الصراع إذن، هو الوجه الآخر للمعاني والرموز والأصول المشتركة.

بعد عشر سنين من حصولي على درجة الدكتوراه، التحقت زوجي بجامعة لندن أيضاً للحصول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع الطبي. وقد توقفت في دراساتها عند مسألة محيرة. فالمراجع تتحدث عن أربعة نظم طبية رئيسية في العالم، أهمها بالطبع نظام الطب العلمي الحديث الذي تطور في الغرب وعمّ العالم. ولكن ما يزال هناك نظام طبي صيني تقليدي، وآخر هندي يعمل بهما بقدر ما إلى جانب الطب الحديث السائد. وتذكر المراجع نظاماً رابعاً هو النظام الطبي العربي الذي يسمى كذلك باليوناني حسب اللفظ العربي Yunani ، وليس حسب اللفظ الإنجليزي Greek ، ما يدل على أنه مأخوذ من الأصول العربية. وكان السؤال: لماذا اندثر هذا النظام العربي اليوناني الذي تعده المراجع نظاماً مستقلاً، بينما بقي النظامان الصيني والهندي حيين مستمرين في الممارسة؟! وقد أفضى بها التفكير والتحليل إلى النتيجة التالية: في أوج الحضارة العربية الاسلامية

مكتبة الرمحي أحمد

تطور الطب العربي تأسيساً على الطب اليوناني، ثم انتقلت إنجازات الطب العربي إلى أوروبا. وإذ توقف الإنتاج المعرفي العربي في مجال العلوم الطبية مع الدخول في عصور الانحطاط، مضت أوروبا الناهضة في تطوير هذا الموروث اليوناني العربي نحو النظام الطبي العلمي الحديث. فهو إذن ليس نظاماً موازياً للطب الغربي الحديث، وإنما هو مرحلة من مراحل تطوره التاريخية من اليونان إلى العرب إلى أوروبا الحديثة. وكأن كلاً من الطرفين: العربي الاسلامي والأوروبي الغربي، يتابع من حيث انتهى الآخر.

وذلك شاهد آخر على عمق العلاقة التفاعلية التبادلية بين الحضارتين، كما لا نجد بينهما وبين الحضارات الأخرى.

2. الحوار الصعب والجاذبية القاتلة

منذ بدأت دراستي في جامعة لندن مطلع أكتوبر من عام 1972 حتى الآن، ألزمني التفاعل المباشر مع الغرب الحوار مع الذات والآخر، بعيداً عن الاختزال والتبسيط والأحكام المطلقة والتفكير المتوجه بالرغائب لا الحقائق. ولكن التحرر من هذه النزعات ليس بالأمر الهين. فالصور الذهنية للغرب في المخيال العربي تنطوي على الكثير من التعارضات الظاهرة التي تتغذى بالتحيزات المسبقة وتغذيها في آن. فثمة من يذكرك بأن الغرب يحترم الإنسان ويقدر قيمته بخلاف مجتمعاتنا العربية. ليذكرك غيره بأن الغرب عنصري استعماري يقدم المصلحة على القيمة الإنسانية، ويمكن أن يضحي بأبنائه الغافلين، فضلاً عن أبناء الشعوب المقهورة، في سبيل المصالح الرأسمالية والهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وتسمع من يقول إن الغرب يعظم من قيمة «الفردية» أصلاً للحريات المدنية وحقوق المواطنة المتكافئة، بخلاف مجتمعاتنا التقليدية التي تلغي الفرد في الهويات العصبوية.

وفي المقابل تسمع من يقول إن من أسباب قوة الغرب قدرته على العمل الجماعي المؤسسي، الذي ينتظم فيه الفرد من أجل الصالح العام، بخلاف مجتمعاتنا التي تغلب عليها الأنانية الفردية وتفتقر إلى قيم العمل المؤسسي الجماعي. وقد يقول آخر ناقداً: إن الفردية المفرطة في الغرب مسؤولة عن تفككه الأسري والاجتماعي. ورب آخر يقول: إن الفردية في الغرب وهم إيدولوجي اخترعته الثقافة الرأسمالية لإخفاء حقائق السيطرة

مكتبة الربيعي أحمد

والتوجيه والتحكم في العقول والأفئدة، فليس الفرد في الغرب إلا سن في عجلة الرأسمالية الهائلة.

والغرب واقعي عقلاني، بخلاف المجتمعات العربية والاسلامية التي تحتكم إلى الانفعالات والغرائز الجمعية والخرافة والتفسيرات الغيبية. وفي المقابل يذكرك البعض بأن الغرب مادي نفعي، يقدم الاعتبارات المادية على القيم والمثل والغايات الإنسانية والاعتبارات الروحية السامية.

الغرب مجتمع متقدم يبدع العلوم والمعارف والفنون التي أسهمت وتسهم في الارتقاء بالحياة الإنسانية، ومنها جوانب الصحة والبيئة والتطوير العمراني. ولكن تمهل.. فالغرب لم يتقدم إلا على حساب الشعوب المقهورة المنهوبة الثروات، وهو يوظف علومه وصناعته لتطوير أسلحة الدمار الشامل وتغذية الجشع الرأسمالي على حساب البيئة والانسان والمصادر الطبيعية!

ولكن، لا تنس أن الغرب قدم للعالم أنموذج الديموقراطية والحريات المدنية والتناوب السلمي على السلطة في مقابل الاستبداد الشرقي المقيت.

ربما! ولكن لماذا تغفل أن الغرب كان الحليف الأعظم للنظم الاستبدادية؟

بل إن ديموقراطيته عرجاء، إذ تبقى مصالح النخب الرأسمالية هي التي تتحكم حقاً بالقرار السياسي...

ليس الغريب أن تبرز هذه التعارضات في صورة الغرب، ولكن الخلل في انتقاء بعضها دون الآخر، واختزال الغرب فيه حباً أو كرها. وواقع الحال أن للغرب نصيباً من هؤلاء جميعاً. ويرتفع التعارض إذا تذكرنا أن مظاهر التقدم تشتغل على مستويات مختلفة حسب الظرف والسياق والغرض، ولا تحتكم بالضرورة إلى الأخلاق وقيم العدل. فهي تحيي أحياناً وتميت أحياناً، وقد تتزاحم فيها المنافع والأضرار في الوقت نفسه. وقد تنصرف المنافع إلى فئة والأضرار إلى غيرها. وتوظف العلوم والمعارف والتقنيات والاختراعات والاكتشافات لغايات نبيلة وأخرى مدمرة. بل إن التقدم نفسه الذي يغذي التفوق والسيطرة والاستغلال، يتغذى في الوقت نفسه بحصاد التفوق والسيطرة والاستغلال. فما كان الغرب ليتمكن من استعمار الشعوب الضعيفة دون تفوقه العلمي

مكتبة الرمحي أحمد

والتقني، ثم زادته الثروات المنهوبة قدرة على التطوير العلمي والتقني والتقدم المادي الذي زاده تمكناً بدوره. ولذلك وجدت الشعوب المستضعفة نفسها أمام مفارقة حادة: كيف تستعير من الغرب المتقدم نفسه ما يمكنها من التحرر من هيمنته، وكيف تنتفع بمنجزات حضارته دون أن تدفع ثمنه من حريتها واستقلالها؟

وإنك إذ تتجول في أحد المتاحف العظمى في لندن أو باريس أو نيويورك، فترى تراث الحضارات الإنسانية ومآثرها مجتمعة هناك، لتبهرك عظمة المكان الذي ضم تلك المآثر، وما وراء ذلك من تنظيم وإدارة وعلوم ودراسات وأبحاث وتقنيات، ثم ما يلبث أن يعكر صفو تأملاتك ومشاهداتك، أن تذكر أنه لولا الهيمنة والاستعمار لما آلت هذه المآثر إلى هذا المكان.

إن الوجوه المتعددة والمتضاربة لصورة الغرب في المخيال العربي والاسلامي، والعلاقة الملتبسة المركبة معه، و«جاذبيته القاتلة»، لتنتج جميعها أنماطاً مختلفة من ردود الفعل عند الطلبة العرب الوافدين والجاليات المقيمة هناك من مسألة الحوار. فثمة من يرفض الفكرة بإطلاق مشككاً في قيمة الحوار بين غالب ومغلوب. ويستوي عنده من يعادي القضايا العربية ومن يظهر تعاطفاً مهما يكن قدره. فملة الغرب واحدة. ومن يظهر تعاطفاً يبطن غيره. ولن يرضى القوم عنك حتى تتبع ملتهم!

وثمة من لا يمنعه عداؤه الشامل للغرب بلا تمييز من أن يقبل على الحوار إقبال المحارب. فليس همه أن يقنع ويغير الأفكار ويستجلب المؤيدين، بقدر ما يهمه أن يحرج ويسجل النقاط في مرمى الخصم ويستبرئ لدينه وعروبته وقضيته. فتراه يزبد ويرعد ويخاصم بأسلوب انفعالي عاطفي عدائي أمام حيرة الخصم المشوبة بالهزء أحياناً. فلا قطع أرضاً ولا أبقى ظهراً! فإن ذكرته بأن هذا الأسلوب ليس مما يسيغه الغربيون وأنه ليس ببالغ من عقولهم وأفئدتهم شيئاً به نظر إليك نظرة ارتياب، وربما اتهمك بالخرع والإذعان وتقديم التنازلات من حساب الحق والحقيقة اللذين يجب أن يعلوا على كل حساب!

وفي المقابل، تجد من يساوم حقاً على الحقوق العربية، محتجا بضرورة تكييف الخطاب على حد الذهنية الغربية وما يوافق قبولها. فيسرف في ذلك أشد الإسراف، حتى كأنه يستجدي من محاوره الغربي بعض التفهم والقبول، ولو بذل في ذلك ثمناً باهظاً من

مكتبة الربيعي أحمد

المبادىء والثوابت. فإن عاتبته في ذلك ألقى عليك محاضرة في العقلانية والواقعية السياسية، وشن حملة شاملة على العقل العربي الساذج الذي لا ينتفع بتجاربه الفاشلة، وما زال يحتكم للعواطف والانفعالات والأحلام والأوهام.

وبالطبع ثمة من يحسن الحوار فيقيم الحجة الدامغة بأسلوب عقلاني مقنع لا يضحي بالحقوق والمبادىء ولا يجامل على حساب الحق والحقيقة. وفي الوقت نفسه لا يمنعه نقد الغرب من الإقرار بعيوب الذات.

وبين هذه الأنماط منازل ودرجات. وتشيع بين العرب المواقف الدفاعية الاعتذارية التي تدفع إليها عوامل عدة. فمنها الشعور بعدم التكافؤ بين العربي والغربي. فالثاني يرى نفسه -ونراه- في موضع الخصم والحكم معاً. فهو القوي المتغلب الذي نسعى إلى استمالته وكسب تأييده ورضاه، ونجتهد في تحسين صورتنا عنده، وردّ ما يلابسها من التهم والشبهات. فالآخر يسأل ويستجوب ونحن نجيب ونسوغ ونفسر ونؤول. وأظهر ما يكون ذلك في الحوار الديني حول الإسلام: عقائده وتاريخه. وعلى الرغم من أن العربي المسلم يتورع في الغالب عن الخوض في العقائد المسيحية والجدال فيها، فإن الغربي لا يأبه أن يجادلك في الإسلام، لا سيما ما يتعلق بحقوق المرأة والحريات الدينية والمدنية والجنسية والجهاد وعلاقة الدين بالدولة والديموقراطية والعلمانية وحقوق الأقليات. وهو ينطلق عادة في استجوابه من افتراض أن قيم الثقافة الغربية الحديثة مرجع كوني مسلّم به، ومعيار مركزي يقاس به ويحتكم إليه.

أما ما يتعلق بواقع المسلمين واتجاهات الغلو والتطرف فيه، فيهون عليك أن تدينها بأكثر مما يدينها محاورك، وتبرّئ الإسلام منها. ولك أن تفسر ظهورها وانتشارها بعوامل تاريخية واجتماعية وسياسية وثقافية ذاتية، وأخرى خارجية أسهم فيها الغرب الإمبريالي نفسه بما أنزل في المشرق العربي والإسلامي من مظالم وما ترك من مرارات، دون أن تخرج بذلك من مستوى التشخيص والتفسير إلى مستوى التسويغ والتهوين. ولكن المشكلة هي اتهام الدين نفسه وعقائده ونصوصه على الجملة، تصريحاً أو تلميحاً. ومنا بالطبع من هو أجرأ على اتهام الاسلام نفسه من المحاور الغربي، بل قد يخص الإسلام دون الديانات الأخرى بأنواع التهم المختلفة. ويبقى شطر كبير ممن يرضى بمبدأ الحوار أصلاً، مستعداً

مكتبة الربيعي أحمد

للذب عن الإسلام وتبرئته من سوء الفهم الذي يخالط بعض أهله وآخرين من دونهم. ثم تجد من هؤلاء من يحمله الشعور بالضعف والحرج والرغبة الملحة في استمالة الآخر والفوز بقبوله على وفق معاييره، إلى الإسراف في خطابه الدفاعي الاعتذاري، فيُزَوّر نسخة من الإسلام يرضاها محاوره، ولا يرضاها المسلم الملتزم. إذ يختزل الدين في مفاهيم وقيم عامة لا تميزه ولا تُعَرّفه. وما تعسر عليه تسويغه لمحاوره من نصوص الدين الثابتة، يحيله إلى الاختلاف في التأويل، ويبالغ في ذلك أي مبالغة. حتى ليبدو النص الديني كله مما تشتبه معانيه. ويفوته أنه بذلك ينفي الدين من حيث أراد أن يثبته، وأنه يدفعه من حيث أراد أن يدفع عنه، ويتبرأ منه من حيث أراد أن يبرئه. فلا ثمة ثوابت ولا قطعيات ولا جوامع. فلكل أن يصطنع منه ما يوافق غرضه وهواه ورؤيته. فإن لم يسعفه اللجوء إلى مخرج التأويل أسعفه مفهوم النسبي التاريخي. فهذا الحكم أو ذاك ليس من ثوابت الدين ومبادئه وأحكامه المطلقة. ولكنه يحال إلى سياق تاريخي محدد. وقد انقضى ذلك السياق فانقضى معه الحكم!

والحق أن الفكر الإسلامي المعاصر أحوج ما يكون إلى معالجة هذا الموضوع الجوهري الشائك، فيميز ما بين المطلق الثابت والنسبي التاريخي وما يتقيد بسياقه الظرفي الماضي. وأعتقد أن الخلط بينهما واختلاف الرأي في ذلك من عوامل الخلل والصراع والغلو أحياناً. ولكن المبالغة في تعميم مفهوم النسبية والسياق في الخطاب الدفاعي الاعتذاري يفضي إلى نقض الأسس التي يتقوم بها الدين.

ويمتد هذا الاتجاه الاعتذاري الدفاعي إلى الحوار في قضايا السياسة والحقوق العربية، وفي مقدمتها قضية فلسطين. فعلى العربي أن يتبرأ من الإرهاب، دون أن يورط نفسه في إشكالية التمييز بين الإرهاب والمقاومة المشروعة، فهذا فخ ينطوي على الكثير من الالتباسات المحرجة عند إنزاله على الواقع! وعلى العربي أن يقرّ لإسرائيل بحقها في الوجود الآمن، إن شاء أن يكافئه المحاور الغربي «المعتدل» بالإقرار بحقوق وطنية للشعب الفلسطيني. فإذا أقر بذلك فلا وجه للرجوع إلى الماضي والجدال حول أصل القضية ووعد بلفور والمشروع الصهيوني الاستعماري لاغتصاب فلسطين وإنشاء وطن قومي لليهود مكان الوطن الفلسطيني. بلى، يمكن الحديث عن تشريد الشعب الفلسطيني واقتلاعه من أرضه، ولكن المطالبة بعودة ستة ملايين لاجئ إلى مواطنهم ومنازلهم

مكتبة الرمحي أحمد

الأصلية في فلسطين، يرجع بالحوار إلى حق الدولة العبرية في الوجود بوصفها وطناً قومياً لليهود، وكأنك تطلب أن تحقق بعودة اللاجئين ما لا تحققه القوة العسكرية. ويمكن الحديث عن المظالم التي تعرض لها الفلسطينيون بالتشريد والإحلال والاحتلال، ولكن يحسن أن تقدم لذلك بإظهار التعاطف مع ضحايا المحرقة النازية، والأفضل أن تعمم الكلام على محنة الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني بسبب الحروب والتعنت والتطرف على جانبي الصراع، ورغبة الشعوب في التعايش بسلام وبناء مستقبل أفضل للأجيال القادمة. فإذا قبلت ذلك كله فقد يلزمك محاورك أن تعترف بأن القيادات العربية والفلسطينية قد فرطت بفرص تاريخية لحل القضية بشروط أفضل مما تتيحه الظروف الراهنة، كالقبول بقرار التقسيم في حينه، وإذن لتجنبنا الكثير من الحروب والصراعات والمآسي والنكبات والنكسات! ألسنا نقبل الآن بأقل مما رفضناه في الأمس؟! فإذا قبلت بهذا الاستخلاص، انتقلت مسؤولية المآسي الفلسطينية إلى الجانب العربي والفلسطيني!! وهكذا ينتهي الضحية صاحب الحق إلى تقزيم حقوقه وتكييف روايته وفق شروط المحاور الغربي الذي يبدي استعداداً للحوار والتفهم والتعاطف في حدود تلك الشروط، وكل ذلك بدعوى مخاطبة الغرب بما يناسب عقله ومعاييره. بل ينسب الإخفاق العربي في كسب تأييد الرأي العام الغربي إلى قصور الخطاب الإعلامي والسياسي العربي الموجه إلى الغرب. وفي محصلة هذا الخطاب الاعتذاري الدفاعي تختزل القضية إلى تنازع على الحقوق بين شعبين وقوميتين حدث اتفاقاً أنهما يعيشان في حيز جغرافي واحد، وأن جوهر الحل يكمن في تعميم ثقافة التعايش والتعددية وقبول الآخر وتقديم تنازلات مؤلمة من الطرفين من أجل تلك الغاية السامية والهدف النبيل! وبذلك يتم اغتيال الرواية الفلسطينية، وتستوي الضحية والجلاد في أحسن الأحوال. والمشكلة لا تنشأ في سياق الحوار مع الصهيوني المتشدد الوقح أو اليميني المتصهين، وإنما مع المحاور الغربي «المعتدل» الذي يبدي قدراً من التفهم والتعاطف مع الحقوق العربية الفلسطينية حسب تعريفه لها وفي الحدود المقبولة عنده. فهو إذ يمشي في اتجاهك بضع خطوات يتوقع أو يشترط ضمناً أن تغادر موقعك العقدي والسياسي الأصلي في اتجاهه خطوات مكافئة. إذ لا يتوقع منه -في معظم الحالات- أن يتبنى رواية الحق الفلسطيني كاملة كأصحابها. ولكن المعضلة أنه إذ يتقدم نحوك بضع خطوات عزيزة فإنه يفارق الباطل المطلق نحو الحق دون أن يدركه، أما أنت،

مكتبة الربيعي أحمد

فإذ تفارق موقعك الأصلي نحوه، فإنما تفارق الحق المطلق في اتجاه التنازل والحقوق المنقوصة على نحو فادح. في الظاهر، تستويان مثلاً. وكلاكما يفوز بلقب المعتدل. وفي الحقيقة فإن التسوية بينكما هي تسوية في وسط الطريق بين الباطل والحق. فهو قد نزل عن الباطل قدراً مساوياً لنزولك عن الحق!

وقد رأيت في مشاهداتي وتجاربي أنماطاً إنسانية متشوهة أنتجها هذا الوضع بين العرب والمسلمين الذين عاشوا في الغرب. فمنهم من يعيش متأزماً إذ يحاور بخطاب يسترضي به محاوره الغربي ولا يمثل ضميره ووجدانه ومواقفه الحقّة. ومنهم من يختار التهرب من الحوار والمواجهة فينغلق على نفسه ويقيم في «غيتو» فكري اختياري. أما أشدهم تشوهاً فذاك الذي لا يجد مفراً من أزمة الازدواجية بين خطاب معلن مصمم للمحاور الغربي، وآخر مضمر يمثل عقيدته ووجدانه، ومن ضغوط مجتمع يرغب في الاندماج فيه والفوز بقبوله وفق اشتراطاته وتوقعاته، إلا بالتحايل على ضميره وعقله وفؤاده، فما يزال يفاوض نفسه ردحاً من الدهر حتى يقنعها أخيراً بوجاهة الرأي الآخر ومسوغاته، ويستعين على نفسه بمفاهيم العقلانية والواقعية والتعددية والقيم الإنسانية والليبرالية الغربية التي أنتجت التقدم الحضاري الغربي، في مقابل قيم التخلف والانغلاق الثقافي والفكري والعقدي العربي الإسلامي، ونماذج الاستبداد والتطرف والتزمت ورفض الآخر وأحادية الرأي والإقصاء في المجتمعات العربية والاسلامية. وما هي حتى يتقمص موقف الآخر الغربي، ويعود بكل الاتهامات على الذات. فإذا أطمأنت نفسه بذلك كله، شعر بالتحرر من عبء الضغوط السابقة، وصار في حلّ من القيود الداخلية التي كانت تحول بينه وبين التمتع بما يوفره الغرب من المتع واللذات. وربما تحسّر على الأيام المنصرمة التي هدرت دون اجتناء تلك اللذات بحكم العقائد الموروثة والتصورات المغلوطة! فيبالغ في الغب منها ليستدرك ما فاته منها، ويتزيد بها عن الغربي العادي المعتدل. وبتحول بجواره مع الغربي إلى الجدال الصدامي مع أبناء قومه ودينه بشراسة واستعلاء شديدين وبحماس المتحول إلى دين جديد. لم لا وهو الآن عضو نشط في نادي الثقافة الغربية المتفوقة! ولرب شخص من هذا النوع حسبت أنك تحرجه وتلجمه بأفكار ومواقف ومناهج فكرية وخطابات معرفية أنتجها الغرب نفسه، وتعارض الخطابات الاستعمارية والليبرالية والسياسية السائدة في الغرب، ويمثلها عدد من أبرز المفكرين

مكتبة الربيعي أحمد

العالمين الذي لا يمكن اتهامهم بالتحيز الإيدولوجي للإسلام أو العروبة، بل منهم يهود شرفاء خرجوا على المؤسسة العامة القائمة، مثل نعوم تشومسكي، فترى صاحبنا يجادل ضد هؤلاء كما يجادل يميني تقليدي ورث الخطاب الاستشراقي التقليدي. ويوزع عليهم تهم الفكر اليساري الغارب أو الشطط الفكري والعقدي! وحتى أفكار إدوارد سعيد، لا يجدون فيها إلا مصدر إزعاج وإحراج لما استقرت عليه أفكارهم واطمأنت إليه نفوسهم! وقد سمعت بعض هؤلاء يهاجم إدوارد سعيد، ويتهمه بالتطرف الفكري إذ يجحد جهود المستشرقين الذين قدموا خدمات جُلى للدراسات العربية والإسلامية. وبذلك يختزل معنى الاستشراق في الدراسات الأكاديمية التي أنجزها علماء غربيون في اللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي. وذلك بخلاف المعنى الإبستمولوجي (المعرفي) الذي عمل به سعيد. بل سمعت من يتهم إدوارد سعيد بأنه قدّم -دون أن يدري- حجّة للتطرف الإسلامي والقومي! وهو المسيحي الأمريكي ذو الأصول الفلسطينية العربية، فلا أصوله العربية جحدت هويته الأمريكية، ولا هويته الأمريكية جحدت أصوله العربية، وفوق هذا وذاك ظل مخلصاً للحق والحقيقة بقدر ما قرّبه عقله الفذ وضميره الإنساني إليهما.

وهكذا نجد نمطا من العرب والمسلمين المقيمين في الغرب، ترهقهم رقصة الإقدام والإحجام معه، وأزمة العيش بين خطاب يسترضي الغرب وآخر يمثل القناعات الحقيقية، كما ترهقهم ضغوط الإحراجات التي يواجهونها في مواقف الحوار والمخالطة، والازدواجية الناشئة عن تنازع الرغبات مع المبادئ والأخلاق، على طريقة المثل السوقي الشائع عندنا: «أريد منه وأبصق عليه» (بعد التفصيح)!. فيكون تبديل القناعات وتقمص الآخر أهون عليهم في نهاية المطاف ليكون أحدهم منسجماً مع نفسه، حتى يطمئن بذلك نفساً وتستقر عليه أفكاره. وينكر الدوافع الأولى التي وصلت به إلى موقعه الجديد.

ولقد يسره أن يرحب به عضوا في نادي الليبرالية الجديدة التي يختزلها الكثيرون من الليبراليين العرب في الحريات السلوكية الشخصية على الطراز الغربي (ليبرالية الويسكي والنساء كما وصفها البعض)، دون قيم الديموقراطية السياسية والاحتكام إلى صناديق الاقتراع. فالاستبداد الذي يوافق هواهم الفكري، وحكم العسكر، أفضل عند هؤلاء من ديموقراطية يشارك فيها خصومهم العقديون مع احتمال فوزهم عبر صناديق الاقتراع

مكتبة الربيعي أحمد

الديموقراطي. استبداد وليبرالية لا يجتمعان إلا في عقول عربية ألفت أن تجمع بين أسوأ ما في تقاليدنا وأسوأ ما في تقاليد الغرب! فلا هي نحن، ولا هي هم.

على أن هذا التصوير لا ينبغي فهمه على أنه رفض لقيمة الحوار وضرورته، ولا لمبدأ التواصل والتعارف والتبادل. وحسبنا في هذا ماسبق الكلام عليه في مواضع شتى. ولا ينبغي له كذلك أن يعني المصادرة على حق الإنسان في تشكيل قناعات جديدة، توصل إليها بمراجعات مستقلة وباجتهاد متجرد من الأهواء والأغراض والمصالح، وإن خالفناه بها. فقد يقع ذلك من الإنسان وهو في وطنه وبين قومه. وقد يتراوح بين تطوير أفكاره وتعديلها وبين تحولات جذرية. فكم من إنسان أصبح مؤمناً بما كان منكراً له، أو منكراً لما كان يؤمن به. فذلك حقه في حرية الفكر والموقف، ويحتمل عواقبه عند الله وخلقه، سواء أكان خيراً أم شراً. ولكن تغيير الخنادق وأهداف البنادق على وفق الأغراض والأهواء وأسباب الرجاء والاتقاء، فهو ما نسميه بالسقوط والردّة، كالذي كان من رجال كانوا يزايدون علينا بالفكر الثوري واليساري، فإذا رجحت كفة الغرب الامبريالي نكصوا على أعقابهم، ولم يكتفوا بالمراجعة الفكرية النزيهة التي تتوخى الحقيقة والحق، حتى انتقلوا بسلاحهم إلى الخندق الإمبريالي، وربما الصهيوني أو المتصهين، وباعوا ضمائرهم ومبادئهم بثمن بخس دراهم معدودة أو غير معدودة! وكل ما في الدنيا ثمن بخس للضمير والمبدأ.

وأختم بمثل من مشاهداتي: هذا رجل فلسطيني مكتهل التقيته عند صديق مشترك في نيوجرسي بالولايات المتحدة؛ كان قد عمل في الترجمة الفورية بين الإنجليزية والعربية في الأمم المتحدة شطراً طويلاً من حياته المهنية حتى تقاعد ومكث في تلك البلاد. فقال وهو يحاورنا: إن من نتائج العمل في الأمم المتحدة أنك تتعرض مباشرة لوجهات نظر المتخالفين والمختصمين في الشؤون السياسية الدولية، وكل يدلي بحجته ويقص روايته، فتتعلم مع الزمن أنه لا ثمة حق وباطل، أو مخطئ ومصيب. فكل يرى نفسه على حق من وجهة نظره، ولكل حقيقته وروايته. وأنت ترى المشهد من زواياه المختلفة بعين الطائر، فتتخلى عن الرؤية الأحادية المنحازة إلى رواية واحدة، وترضى بنسبية الحقيقة، وأنه لا يقين إلا بالخلاف، ولا حل إلا بالتنازلات المتبادلة. وليست القضية الفلسطينية استثناء !!

مكتبة الربيعي أحمد

وبذلك تختفي الفوارق بين الحق والباطل؛ بين الضحية والجلاد؛ بين المستعمِر (بكسر الميم) والمستعمَر (بفتحها)؛ بين الغازي والمغزو؛ بين الظالم والمظلوم؛ بين الغاصب والمغصوب؛ بين المحتل (اسم الفاعل) والمحتل (اسم المفعول)، بين المستكبر والمستضعف؛ بين حقل الذرة وحقل الألغام!

إن كانت هذه هي النظرة الإنسانية (أو الإنسانوية تبخيساً منا هذه المرة) فلبئست النظرة، ويا لتعاسة الإنسان وبؤسه!

وهذا الإفراط في تطبيق مبدأ النسبية يفضي إلى التفريط. انظر كيف تحول النموذج المعرفي النسبي عند العربي المستلب من سلاح فكري ضد خطابات التعصب والانغلاق وكراهية الآخر ومركزية الذات وادعاء الحقيقة المطلقة، إلى سلاح بيد القوي المتغلب المستبد لإخضاع الضحية وحملها على الإذعان والتنازل، وتغييب وعيها بحقها الثابت، وتمييع مواقفها ونضالها، حتى تصبح عقيدة النسبية المفرطة أفيون الشعوب المقهورة، وهي تحسب أنها تحسن صنعاً. فحتى لو فرض القوي خطابه وسلطته إلى حين، فلا أقل من أن تحافظ الضحية على روايتها وخطابها المقاوم، وتقوم حارساً على الذاكرة المهددة. فإذا غابت الذاكرة، غاب صاحبها وانقضى وجوده. يستوي في ذلك الفرد والجماعة.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

كنا ما سوف نكون

(سيرة الانحطاط قضية شخصية)

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. وما أنا إلا من غزية..

النظر في الآخر يلزمك النظر في ذاتك. ومنذ بدأ الاحتكاك الحديث بالغرب والعرب يتساءلون: لماذا نهض الغرب المتغلب وانحط العرب حتى صاروا تبعاً تتناهبهم الأمم وتتداعى عليهم كما تتداعى الأكلة على قصعتها؟ وهو سؤال لا يشكل هاجساً ملحاً مؤرقاً إلا عند أمة استدبرت إرثاً حضارياً عظيماً وأوغلت في حاضر بائس. فلا هي قادرة على نسيان حضارتها الغاربة، ولا هي قادرة على استئنافها والتأسيس عليها لصنع حاضر متقدم يحررها من عبء الانقسام بين كره الذات وكره الآخر، أو بعبارة أخرى، بين عبادة ماضي الذات وعبادة حاضر الآخر! وكلاهما يُغَيّب حاضر الذات الذي يصبح فضاء تتجاور فيه القشور الاستهلاكية المستوردة من الحداثة الغربية دون فاعليتها الإنتاجية المادية والمعرفية، مع تقاليد التخلف الذاتي الموروثة من ماض توقفت حيويته الحضارية منذ حين!

لم تتوقف الإجابات والاقتراحات والتأملات والاجتهادات منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى اليوم، وكثير منها معاد مكرور بصيغ مختلفة، وتتروح بين التأويلات الاختزالية الساذجة والتفسيرات الميتافيزقية والمحاولات الأكثر عمقاً. ولا يسلم الكثير منها من توجيهات الإيدولوجيا والأحكام المسبقة، أو من إعادة إنتاج الخطاب الاستشراقي، أو من الانزلاق إلى اقتراحٍ مُحَدَّدٍ واحد سواء أكان مادياً أم ثقافياً ينسب إليه الجمود والانحطاط.

وما زلت منذ اكثر من أربعين سنة أقلب الأمر على وجوهه المختلفة وأحاور نفسي وغيري والتاريخ والموروث الثقافي، حتى اجتمعت في وعيي جملة من العوامل التي يضيق هذا المقام عن التفصيل بها جميعاً. حسبي أن أذكر عدداً من أهمها في رأيي.

وأول ما يتبادر إلى ذهني منها «القبيلة» العنيدة التي أثبتت في سياق التاريخ العربي قدرة عجيبة على البقاء والاستمرار على حين اختفت تماماً في وقت مبكر من تطور الدولة

مكتبة الرمحي أحمد

الأوروبية، كما اختفت من المجتمعات والحضارات التي أنشأت دولاً مركزية قوية وتحولت من نمط الحياة البدوية إلى أنماط الزراعة والتجارة وما تلاهما، فحلت مكان العصبية الضيقة عصبية أكثر اتساعاً كعصبة الشعب والطبقة والعرق والدين. وحتى مفهوم السلالة الذي ميزت بها العائلات الملكية والارستقراطية نفسها عن سائر الناس، لم يكن ذا دلالة قبلية، وإنما كان يستند إلى سلطات الثروة والملكية والحكم في مجتمع الإقطاع الأوروبي. والأصل في السلالات الملكية والارستقراطية في شمال أوروبا ووسطها زعماء القبائل المتبربرة الغازية التي انساحت من شمال أوروبا إلى جنوبها وانتهت بالقضاء على الدولة الرومانية الغربية. وكان زعماء العشائر الغازية يتواطؤون على واحد منهم ليكون ملكاً، ويتوزعون الأراضي التي نجحوا في غزوها والاستيطان فيها، وما هي حتى تحولوا من زعماء عشائر إلى سادة الإقطاع، وانحلت العشيرة في تقسيمات النظام الطبقي الجديد المستقر.

في سياق التاريخ العربي الإسلامي، تتكشف صورة مختلفة وفريدة من نوعها، مقارنة بطبيعة البداوة والمجتمعات القبلية القديمة في مناطق أخرى من العالم. ولننظر أولاً في مجتمعات الجزيرة العربية قبل الإسلام التي لم تنتظمها دولة جامعة، لنرى جملة من المفارقات التي تميزها عن غيرها من أنماط البداوة والقبلية.

والصورة الذهنية التي تتمثل لنا عادة هي صورة قبائل بدوية بدائية تتعيش بالرعي والترحل والإغارة. وهي صورة بعيدة عن الدقة من وجوه عدة. فعلى الرغم من أن العصبة القبلية كانت طابعاً عاماً، فإن المجتمع العربي انقسم بين مناطق بدوية ومراكز حضرية تجارية أو زراعية مثل: مجتمع مكة التجاري، ومجتمعات المدينة والطائف وهجر والبحرين ووادي بني حنيفة في نجد والجزيرة الفراتية واليمن وحضرموت وأطراف الجزيرة الشمالية المقيمة على حواف الحضارتين الرومانية والفارسية. وإذن فإن نمط الاستقرار الزراعي والتجاري لم يؤد إلى إضعاف العصبة القبلية في المراكز الحضرية. ولعل تهديدات القبائل البدوية قد أسهمت في الحفاظ على قوة العصبة القبلية في تلك المراكز الحضرية، فضلاً عن عوامل التداخل والتفاعل والتبادل المستمرين بين سكان المناطق البدوية وسكان المراكز الحضرية. بل إننا لنجد في المراكز الحضرية تداخلاً وامتزاجاً بين نمطي الحياة البدوية والحياة الحضرية. فإلى جانب الزراعة والتجارة تحتفظ قبائل المراكز الحضرية بقطعان الإبل والماشية التي ينتجع بها الرعاة أماكن الرعي في البادية.

مكتبة الرمحي أحمد

ومن جهة أخرى، فإن الغالب على علاقات القبائل البدوية الكبيرة نفسها لم يكن الإغارة والنهب كما تمثل لنا الصورة الذهنية الشائعة. إذ كان لكل قبيلة أو تحالف من القبائل حمى خاصّ أشبه بوطن معروف الحدود، تمنعه من أي عدوان عليه. فهذه منازل بكر وهذه منازل تميم وتلك منازل غطفان، وقس على ذلك. وحركة الانتقال والرعي تجري عادة في حدود حمى القبيلة. وجل حروب العرب كانت بسبب النزاع على حدود الحمى ومجاله الحيوي. وكان الغزو من أجل النهب يحدث في ظروف ضيقة واستثنائية. ذلك أن توازن القوى بين القبائل الكبيرة القوية كان رادعاً عن مغامرة ستكون عواقبها وكلفتها أكبر بكثير من غنائمها. ولذا طورت القبائل مع الزمن نظاماً من التقاليد والأعراف الناظمة للعلاقات بينها لتجنب الصراعات الدامية، وأنتجت نخبة من الحكماء الذين يتولون الوساطة في النزاعات الناشئة، أو تلجأ إليهم القبائل المتخاصمة ليقضوا بينهم فيما اختصموا فيه. وقد تحولت تلك التقاليد والأعراف والمعايير الأخلاقية إلى ما يشبه الدستور الشفوي الذي ينظم علاقة الفرد بقبيلته، وعلاقة القبيلة بالأخرى. فإذا خرج الفرد على دستور قبيلته وتصرف وفق إرادته بما لا ينسجم مع قواعد الأعراف القبلية، فعرض قبيلته كلها للمسؤولية الباهظة التكاليف أمام القبائل الأخرى، عمدت القبيلة إلى خلعه وأعلنت بذلك، فارتفعت عنه الحماية القبلية التي تشترط التزام الفرد شرعة الجماعة في المقابل. ومن هنا برزت ظاهرة «الخلعاء» الذين عدوا في أنواع الصعاليك.

وإذن لم تكن الفوضى هي الغالبة على الحياة الاجتماعية القبلية التي طورت مع الزمن منظومة من المعاني الأخلاقية الحاكمة للسلوك، في مقدمتها المروءة الجامعة لمكارم الأخلاق. وقد عبر الرسول الكريم ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله (إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق)، وقال في حلف الفضول الذي وضعته قريش لحماية حقوق الوافدين إلى أرض الحرم ورعايتهم (لو أدركته في الإسلام، لدخلت فيه).

وبذلك يمكن القول إن كلا من المركز الحضري وحمى القبيلة البدوية كان أشبه بدولة صغيرة مستقلة معروفة الحدود، ينظم علاقتها بغيرها مرجع من التقاليد والأعراف والمعايير الأخلاقية.

من الواضح أن القبيلة العربية قبل الإسلام تتحدى كل هذه التصنيفات الأنثروبولوجية ومعايير تعريفها. فهي أولاً تعد بالألوف وعشرات الألوف. وعلى الرغم من أنها تقدم عصبتها على أي انتماء آخر، فإنها تدرك أنها تلتقي وغيرها من القبائل في أرومة

مكتبة الرمحي أحمد

واحدة هي الأرومة العربية التي تتقابل مع الأعاجم مثلاً. وقد قيل في معركة ذي قار: «هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم». بل إن التنظيم القبلي نفسه كان يندرج في مستويات ودوائر متدرجة من الروابط والعصب السلالية التي تقرر ظروف المنازعات والمنافسات تقدم أحدها على الآخر، من الأضيق إلى الأوسع. فهذه «بكر» مثلاً عصبة قبلية مستقلة، ومثلها «تغلب»، وقد ينشأ بينهما نزاع. ولكنهما إذ ترجعان إلى جد واحد، تجتمعان في عصبة أوسع هي عصبة «ربيعة». وهي فرع عظيم من العدنانية، تقابل فرعها الآخر «مضر» التي تنتظم في عصبتها الواسعة مجموعة أخرى من القبائل مثل قريش وتميم وهوازن وثقيف وغطفان وأسد. ثم إذا أملت الظروف اجتمعت العدنانية كلها بفرعيها الربعي والمضري في جذر واحد، في مقابل القحطانية اليمنية التي تتفرع إلى عصب قَبَلِيّة أخرى كثيرة. والعدنانية والقحطانية معاً هم جملة العرب الذين يميزون مجموعهم عن أمم الأعاجم.

ولما خرجت القبائل في جيوش الفتح واستقرت في الأمصار المفتوحة، اضطرتها ظروف المنافسة والمغالبة إلى الانتظام في العصب الواسعة العظيمة، فاجتمعت القبائل اليمنية في عصبة واحدة كبرى في مقابل العصبة القيسية التي ضمنت جل القبائل العدنانية. وحافظت ربيعة التي تتفرع كذلك من عدنان على عصبتها المستقلة مستغنية بأعدادها الكبيرة.

فأين هذا التنظيم القبلي الذي تندرج فيه العصب الأضيق في عصب أوسع حتى تصل إلى جامع الأمة والعرق واللسان الواحد والثقافة المشتركة، من مفهوم القبيلة أو المشيخة القبلية في التصنيفات الأنثروبولوجية؟

وإذا كانت الحياة العقلية في المجتمعات القبلية النمطية غير العربية تتسم بالبساطة والبدائية، فإنها كانت عند العرب بعيدة كل البعد عن هذا الوصف، كما ينبئنا الشعر العربي العظيم قبل الإسلام الذي أسس لتاريخنا الشعري حتى الآن، وما زلنا نعيد قراءته وتذوقه بمستويات متجددة من التحليل والتأويل، وكما ينبئنا ذلك المعجم اللغوي الهائل الذي كان اللسان العربي يصدر عنه. ومن المعروف أن المعجم ليس مجرّد قائمة من الألفاظ، وإنما هو شبكة من المفاهيم، واتساع المعجم يعني بالضرورة اتساع نظم المفاهيم والمعاني المتاحة لأبناء اللغة، والتي تشكل عالمهم الثقافي والعقلي، ومن ثم رؤيتهم للعالم والبيئة والأشياء والعلاقات. ينضاف إلى ذلك تلك الأساليب البلاغية الراقية التي كانت وما تزال تسحر الألباب. وخلاصة ذلك كله أن اللسان العربي بمعجمه وأساليبه

مكتبة الرمحي أحمد

وإيقاعاته كان مهيئاً لاستقبال النص القرآني المبين بلغة العرب. وهو أعظم شهادة على رقي اللسان العربي الذي يعبر بدوره عن مستوى الحياة العقلية المتقدم. وهو ما لا نجد نظيره في ثقافة المجتمعات القبلية التقليدية الأخرى.

إلى جانب هذا كله لم يكن عرب الجزيرة قبل الإسلام منقطعي الصلة بالأديان السماوية السابقة على الإسلام، إذ كانت الجماعات اليهودية تقيم بين ظهرانيهم، وكانت بدورها قد تبنت التنظيم القبلي. أما المسيحية فكانت تدين بها قطع من العرب داخل جزيرة العرب وعلى أطرافها: نجران، ومنازل المناذرة والغساسنة، وتغلب في الجزيرة الفراتية وغيرها، وحتى قبيلة طيّ في قلب نجد نفسها، إضافة إلى عدد من الأفراد الذين اختاروا المسيحية على أديان قبائلهم الوثنية. وثمة من تمسّك بجذور الحنيفية الإبراهيمية الموحدة بخلاف السائد من المعتقدات والطقوس الوثنية. وحتى الوثنية، فإنها لم تكن على طراز الديانات الوثنية السائدة في القبائل «البدائية»، فقد اعتبر جل العرب أن الأوثان وسائط تقربهم زلفى إلى الله كما ورد في القرآن الكريم، فهي تستمد قدسيتها مما ترمز وتحيل إليه. ولم تمنعهم تلك الطقوس الوثنية من أن ينسبوا أنفسهم وعقائدهم إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. فكان حجهم على ما وقع فيه من انحرافات وتحريفات أثراً من الحج الإبراهيمي، وقد علموا أن الكعبة من عمل إبراهيم وإسماعيل، وعرّفوا انفسهم بأنهم ورثتها.

أين هذا المشهد العقلي والثقافي من الحياة العقلية البسيطة للقبائل البدائية بالتعريف الأنثروبولوجي؟

ولا ننسى أخيراً أن البيئة التي احتضنت هذه المجتمعات القبلية العربية هي نفسها التي احتضنت قبل ذلك ممالك متحضرة متقدمة مثل مملكة سبأ، ومملكة الأنباط، ومملكة تدمر، وقبلها بعصور سحيقة ممالك عاد وثمود التي يقص عنها القرآن الكريم، وما كانت الذاكرة الجمعية العربية لتخلو منها. كما لا ننسى الشعوب السامية المعروفة التي خرجت من جزيرة العرب في العصور القديمة وأسست ممالك وحضارات هامة كالبابليين والأشوريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين.

خلاصة القول أن التنظيمات القبلية العربية لم تكن تعبر عن بيئة بدائية سواء من حيث البنية الاجتماعية أم من حيث الحياة العقلية والثقافية، ولم تكن مشروطة حصراً بنمط إنتاجي واحد بسيط، كما هي الحال في تعريف النمط القبلي التي مرت به مجتمعات

مكتبة الربيعي أحمد

أخرى تجاوزته إلى أنماط أكثر تطوراً وتعقيداً عبر التاريخ الاجتماعي، أو ما يزال قائماً في بعض مناطق العالم، لا سيما في القارة الإفريقية، أي أن التنظيم القبلي العربي كان قد أثبت قدرته على الاستمرار عبر التحولات المادية والثقافية وعلى إعادة إنتاج نفسه مع تغير الشروط الموضوعية التي ترتبط عادة بالنمط القبلي. ولعل هذا ما يفسر لنا - ولو جزئياً - عناد العصبة القبلية وثباتها عبر التاريخ الإسلامي حتى الوقت الحاضر، على الرغم مما شهده هذا التاريخ من تحولات كبيرة عبر القرون، وقدرتها على التقنع بالخطابات السياسية والدينية والعقدية الجديدة، فضلاً عن اختراقها للتنظيمات الاجتماعية والسياسية المتغيرة في قلب المجتمع المديني وهيكل الدولة نفسها.

توفي الرسول الكريم ﷺ وقد أسلم جل القبائل العربية في مراكزها الحضرية والبدوية. ولعل مقاومة قريش للدعوة الجديدة حتى فتح مكة كان أحد العوامل التي شجعت القبائل الأخرى على قبول الدعوة تدريجياً، إذ جرّدتها من شبهة الهيمنة القبلية القرشية، وأكدت في الوقت نفسه طبيعتها العقدية الكونية المتجاوزة للقبلية والعرق والأنساب والأحساب، ورضيت العرب بقيادة النبي الكريم ﷺ باعتبار النبوة والوحي والرسالة، لا باعتبار أي تعريف قبليّ. فها هم الأوس والخزرج ذوو الأصول اليمنية القبلية والخصوم التقليديون لقريش، يحتضنون الدعوة وينصرون النبي ﷺ في مواجهة قومه الذين أقاموا على الشرك ونصبوا له بالعداء والخصومة.

وقد كان عتبة بن ربيعة، سيد عبد شمس بن مناف، أحكم القرشيين حين دعا قريشاً أن تخلّي بين النبي ﷺ وسائر العرب، فإن قتلوه فقد كفوهم قتله بأنفسهم، وإن ظهر عليهم كان عزّه عزهم، وسادوا العرب به. ولكن القوم لم يأخذوا بنصيحته.

فلما توفي الرسول الكريم ﷺ وقد دخلت قريش في الإسلام، وتولى أبو بكر رضي الله عنه قيادة الدولة الناشئة، وهو من البطون الدنيا في قريش (تَيْم)، تغيرت الصورة في أذهان القبائل العربية. فقد تقدمت الصفة القبلية (القرشية) للحاكم والدولة على الصفة الروحية المقترنة بشخص الرسول الكريم ﷺ ورسالته الدينية الكونية. وبذلك رأت القبائل في حكم أبي بكر حكماً لقريش وفي دولته دولة لقريش. وفي الوقت نفسه لم يعلن معظم المرتدين تخليهم عن الإسلام ديناً، وإنما أعلنوا الامتناع عن تقديم الزكاة إلى الدولة، وهي الواجب الديني الذي يصلهم بها، على أن يخرجوها وينفقوها بأنفسهم دون تدخّل من سلطة مركزية. أما من ارتد عن الإسلام ديناً، فلم يرجع إلى ما كان عليه من عبادة

مكتبة الربيعي أحمد

الأوثان في الجاهلية، ولكنه التف حول مدع للنبوة من قومه يحاكي نبي الإسلام القرشي النسب، ليكونوا وقريش سواء، ويستغنوا بنبيهم وما يدعيه من الوحي عن نبي قريش ورسالته، ومن ثم ليستقلوا بأنفسهم عن دولة الإسلام الناشئة التي تقودها قريش. وثمة نوادر دالة على هذا البعد القبلي، ومنها ما يذكر عن رجلين من قوم مسيلمة الكذاب، أي من بني حنيفة (وهم من ربيعة) دخلا على مسيلمة وامتحناه ليعلما صدقه من كذبه. فلما خرجا من عنده، سأل أحدهما الآخر:

-ما قولك في الرجل؟

فأجاب:

-والله إني لأعلم أنه كذاب. ولكن كذّاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر (يعني النبي ﷺ).

ولعلّ أوضح تعبير عن البعد القبلي في حركة الردّة قول الشاعر:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وحتى في الجيش الإسلامي بقيت القبائل المسلمة محافظة على تجمعها وعصبتها القبلية. ولما تقهقر جيش خالد بن الوليد أمام جيش مسيلمة وبني حنيفة في اليمامة أول الأمر، لجأ خالد إلى استثارة الروح القبلي في إطار الهدف الإسلامي الجامع، فأمر بأن تحارب كل قبيلة تحت راية خاصة ليعرف من أين ينكشف المسلمون، فاستبسلت القبائل ألا تلحقها تهمة الانخذال أمام العدو، فيؤتى المسلمون من قِبَلِها، فكان النصر لجيش خالد. وبهذا يظهر أن العصبة القبلية لم تذب في الإطار الإسلامي، وإن كان في الوسع توظيفها للغاية الإسلامية الجامعة.

وحين أنشئت أول مدينتين جديدتين في دولة الإسلام، في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهما الكوفة والبصرة، لتكونا ثغرين عسكريين على حافة الجزيرة العربية تقيم فيهما جيوش الفتح، خصص لكل قبيلة حي خاص في كل منهما، وهو ما أسهم في تثبيت العصبة القبلية في إطار المجتمع الإسلامي نفسه.

مكتبة الربيعي أحمد

القضاء على حركة الردة، ثم اندماج المرتدين السابقين في جيش الإسلام وانصياعهم لدولة الإسلام المركزية، كل ذلك لم يقض على التبرم القبلي من حكم قريش، ولا الرغبة في الانتقاض عليه إذا واتت الفرصة، ولكن، تحت شعارات ودعوات سياسية إسلامية منذ الآن. فإن لم يعد بالإمكان الاستقلال عن الدولة المركزية، فلا أقل من التنازع على السلطان والغنيمة.

لم تكن الثورة على عثمان ﷺ التي انتهت بمقتله، إلا تعبيراً عن السخط القبلي من هيمنة قريش، نهضت به جماعات من قبائل لم يكن لها تقدم في الإسلام كما كان للمهاجرين والأنصار. وتواكب ذلك مع تراجع الحس الديني والحماسة الدعوية بعد انقضاء عهدي الخليفتين الأولين، كما حرّض عليه أن ضعف الخليفة وكبر سنّه ولينه الزائد قد أغرى بعض الشخصيات القرشية الأموية التي لم يكن لها سبق ولا بلاء في الإسلام بالتدخل في الحكم والتدبير، وفي مقدمة هؤلاء مروان بن الحكم.

وفي هذه الأثناء نمت فكرة التحزّب لآل البيت، لإضفاء معنى ديني مقبول على حركات الاحتجاج على حكم قريش. فآل البيت، وإن كانوا في الصدر من قريش نسباً، فإن قرابتهم للرسول ﷺ وانتماءهم إلى بيته ترفعهم في التصورات الذهنية عند الكثيرين عن الانتماءات العصبوية القبلية، وتفردهم عن سائر قريش باعتبارهم أثراً من الرسول ﷺ وورثة للنبوة والرسالة، يتعرفون بهما لا بالانتساب إلى قريش. وبذلك يصبح التحزب لآل البيت شعاراً دينياً مناسباً لكل ناقم على حكم قريش، وملجأ للمتمردين عليه، وإن كان من الممكن أن يكون المحرك الفعلي المضمر عصبوياً قبلياً، أو يكون على الأقل خليطاً من الاعتبار العصبوي القبلي والاعتبار الديني. ولذا فما أن فرغ الثوار من قتل الخليفة عثمان ﷺ حتى انحازوا إلى علي ﷺ وصار قادتهم قادة وأمراء في جيش علي ودولته، وفي مقدمتهم الأشتر النخعي.

وبخلاف ما أفضت إليه حركة التشيع عبر القرون الهجرية الثلاثة الأولى من تحولها من حركة سياسية خالصة إلى طائفة دينية إمامية ذات نشاط سياسي وعسكري أحياناً، ومن حصرها مفهوم آل البيت في أبناء علي وفاطمة ﷺ، بل كذلك حصرها سلسلة الأئمة بعد الحسين ﷺ في أبنائه والقول بعصمتهم من دون الناس ونصبهم من الله تعالى بنص الوحي، بخلاف ذلك كان مفهوم آل البيت في القرن الأول شاملاً لكل عمومة الرسول ﷺ وأبنائهم وحفدتهم. فتعددت شيع آل البيت وحركاتهم السياسية، ولم تقتصر

مكتبة الربيعي أحمد

على الحسين ﷺ. فهذا محمد بن الحنفيّة (وهو ابن علي من غير فاطمة) ينهض بحركته، وهو أول من قيل برجعته بعد وفاته. وتبدأ الحركة العباسية السرّية في وقت مبكر من زمن بني أميّة باسم آل البيت، وكانت البيعة تؤخذ سراً لإمامهم باسم «الرضا من آل محمد». ويجد فيها شطر من الأعاجم فرصة للثورة على حكم العرب ممثلين في خلفاء بني أمية، فكان الأعاجم عماد الثورة العباسية، ثم عماد دولتهم إلى حين.

وبقيت القبائل من غير قريش ناشطة سياسياً وعسكرياً تبحث لها عن قسمة أكبر من حكم قريش (كما نظرت إليه) في إطار الصراعات الدائرة. وعلى الرغم من أن الصراع العنيف بين حركة عبد الله بن الزبير والأمويين، كان بين طرفين من قريش نفسها، فقد انقسمت قبائل العرب بينهما، فانحازت اليمنية إلى الأمويين بقيادة مروان بن الحكم، وانحازت القيسية إلى عبد الله بن الزبير، وذلك في معركة مرج راهط الحاسمة التي انتهت بانتصار الجانب المرواني الأموي.

أما ثورة المختار الثقفي ضد بني أمية، التي حصدت أرواحاً كثيرة، فقد كان شعارها الثأر لمقتل الحسين ﷺ واستغلت الشعور العام بالذنب بين القبائل المقيمة في العراق لخذلانها الحسين، فسميت حركة «التوابين». ومع ذلك كانت دعوة المختار وحركته مرتبطتين بمحمد بن الحنفية، لا بأبناء الحسين نفسه. وحقيقة الأمر أن المختار قد استغل شعار آل البيت لأهدافه الخاصة، ووجد فيها ذريعة لحشد الناس من حوله، وغايته تقويض حكم قريش وبني أمية. ولا ننسى أن ثقيف في الطائف كانت من أهم المنافسين لقريش قبل الإسلام، ولم تسلم إلا بعد فتح مكة وانتصار المسلمين على هوازن وثقيف في معركة حنين. أما ثورة «عبد الرحمن بن الأشعث» ضد الأمويين فلم تكن بريئة أيضاً من الطموح القبلي، فهو من قبيلة «كندة» اليمنية وقد رأى أنه قد آن الأوان لتأخذ كنده العظيمة العدد مكانها من الحكم والدولة!

استصحب انتصار الدعوة العباسية، انتصار العجم على الدولة العربية الأموية. ولا شك أن صراع القبائل العربية على الحكم، والذي انتهى أخيراً إلى التنازع العنيف داخل الأسرة الأموية الحاكمة نفسها، قد أسهم في تقويض الدولة الأموية، ومعها تقويض دور العرب. فالدولة العباسية كانت في لحمتها وسداها دولة أعجمية، عمادها الفرس أولاً ثم الأتراك. وتراجع دور العرب منذ ذلك الحين في إدارة الدولة الإسلامية حتى صار على الهوامش، إلا أن الخلافة بقيت في العرب (العباسيين). وهؤلاء أنفسهم لم

مكتبة الرمحي أحمد

يلبثوا أن أصبحوا ألعوبة بيد العناصر الأعجمية، لا سيما الأتراك، ومع الزمن انحسر دورهم في القيمة الرمزية الروحية للخلافة. وبدءاً من «المعتصم» أسقط العرب من ديوان الجند، فارتد كثير منهم إلى منازلهم القديمة في جزيرة العرب، ومعها إلى البداوة. وظاهرة الردّة من الحياة الحضرية إلى البداوة ظاهرة فريدة تكررت في تاريخ القبائل العربية.

وهكذا نرى أن الإسلام الذي هزم امبرطوريتين عظيمين، وبنى امبراطورية واسعة امتدت من أطراف الصين إلى أقصى المغرب والأندلس، لم ينجح في تفكيك العصب القبلية العربية نفسها التي تمكنت من إعادة إنتاج نفسها في إطار خطاباته وتشكيلاته الاجتماعية والسياسية، وتغلب الولاء القبلي عند الكثيرين على الولاء للإسلام ودولته، أو أنهم اختلقوا ذرائع دينية وعقدية لتسويغ مواقفهم. وفي ضوء تجارب الدولة الأموية، اقتنع العباسيون أنهم لا يستطيعون أن يعولوا على جند القبائل العربية وولائهم لدولة الخلافة، بسبب تقدم الولاء للقبيلة على الولاء للدولة، واشتراطهم المحاصصة، وتطلعهم إلى المنافسة. وإذ لم يكن في الوسع خلق كيان عربي موحد تختفي منه الهويات والعصب القبلية، فإن إقصاء العباسيين للقبائل العربية وكسر شوكتها كان إقصاء للعرب على الجملة. لتأخذ مكانها عناصر أعجمية بعيدة عن حال الصراعات والمنافسات القبلية العربية، فأحرى بها ألا تدين لغير الدولة بالولاء، لتكون جيوشاً نظامية لا ائتلافاً قبلياً هشاً.

وحتى الدولة الأموية التي أسسها عبد الرحمن الداخل في الغرب الإسلامي عقب انهيار دولة بني أمية في المشرق، حذت حذو العباسيين في إقصاء القبائل العربية وكسر شوكتها والاعتماد بدلاً منها على عناصر أجنبية وهم الصقالبة ذوو الأصول الأوروبية على طراز مماليك المشرق.

وهكذا تعاقبت في المشرق الإسلامي سلالات أعجمية فارسية وتركمانية على الحكم الفعلي في دار الخلافة وفي أطراف العالم الإسلامي. فمن أتراك المعتصم إلى البويهيين الفرس إلى السلاجقة الأتراك. وفي مصر استقل الطولونيون ثم الإخشيديون بالحكم وكلاهما من الفرس، ثم الفاطميون العرب الذين قدموا من تونس والمغرب. وامتد سلطانهم إلى الشام، ثم ساد الزنكيون الأتراك في بلاد الشام ومصر معاً، وأعقبهم عليهما الأيوبيون الأكراد الذين كان جل جيوشهم من الترك، ثم أعقبهم المماليك البحرية ثم المماليك البرجية، وهم أيضاً عناصر أعجمية. وإلى جانب ذلك كله شهد العالم الإسلامي موجات أخرى من الغزو انساحت من الأطراف، ومنها ما بلغ دار الخلافة ومنها ما وقف

مكتبة الرمحي أحمد

دون ذلك: سامانيون وغزنويون وخوارزميون من الترك، وسلالات كثيرة أخرى تعاقبت بالغزو والغلبة على أجزاء من المحيط الإسلامي. ولم تكن موجات الغزو تلك مدفوعة بغايات عقدية وإن كانت شعوبها مسلمة. فلم تكن تختلف كثيراً عن موجات الغزو التي قادتها سلالات عرقية مختلفة عبر التاريخ لأغراض الغلبة والتمكن والتوسع بقوة العدد والعدّة. ولربما نهض بعضها بعد تغلبه واستقراره ببعض الإنجازات العمرانية والدعوية، فضلاً عن حملات عسكرية للذب عن المحيط الإسلامي.

أما الغرب الإسلامي فاستقل بتاريخه عن المشرق وتعاقبت عليه سلالات حاكمة من العرب والبربر.

ثم هيمن الأتراك العثمانيون كما هو معروف. وإذ خرج العرب من حكم العثمانين ورابطة الخلافة، دخلوا في الحكم الاستعماري الأوروبي الذي قسم المنطقة العربية إلى الدول القطرية المعاصرة على نحو ما هو قائم الآن في سياق نظام دولي (اقتصادي - سياسي) يفرض تبعية الأطراف (ومنها الأقطار العربية) للمركز الغربي. وهو ما عطّل شروط التطور الذاتي المستقل للأمة العربية، وألحقها بالشرط التاريخي للغرب المهيمن، من موقع التبعية.

في ظل هذه الصورة، لنا أن نتساءل: أين تاريخ العرب المتواصل المستقل وأين كيانهم العضوي في صيرورة التاريخ؟

غبر علينا زمان طويل ونحن نسأل: لماذا انحط العرب، ثم نجتهد في الإجابة عنه. ولا يخطر لنا أن سؤال التقدم والانحطاط يفترض أولاً وجود أمة ذات كيان عضوي سياسي له تاريخ مستقل تشتغل عليه شروط الصيرورة الحضارية. ثمة عرب، ولكنهم كما أوضح العرض المكثف السابق أخفقوا عبر التاريخ في تطوير كيانهم القومي العضوي ليكونوا أمة حقاً كشأن الأمة الإنجليزية والأمة الفرنسية والأمة الألمانية. بل أفلح كل من الترك والفرس في بناء دولة الأمة دون دولة العرب، على الرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا أهم الأعراق الفاعلة في تاريخ العالم الإسلامي.

وهكذا نجد أنفسنا الآن أمام واقع هجين:

-ثمة أمة عربية تشكل هويتها الجامعة عوامل الثقافة واللغة ولكنها لم تتمثل يوماً في كيان سياسي عضوي جامع. ففي الماضي فرقتها العصب القبلية والطائفية، وتغلبت عليها القوميات غير العربية في إطار العالم الإسلامي، وفي الحاضر تفرقت في كيانات

مكتبة الربيعي أحمد

قطرية تابعة تعلن انتماءها إلى أمة عربية تقطع حدود الأقطار العربية، ولكنها في الوقت نفسه تقوم بديلاً عن دولة الأمة التي تتطابق فيها الدولة مع الأمة القومية.

-ومن ثم فإن القومية العربية لم تكن في واقع الحال إلا فكرة معاصرة لم توطئ لها شروط تاريخية بنيوية. فهي أمل وحلم وطموح ومشروع غير ناجز.

بل يمكن القول إن العرب في واقع الحال هوية محيرة بين مفهوم الأمة القومية Nation ومفهوم العرق Ethnicity. والعرق يمكن أن يتوزع في كيانات وطنية أو قومية مختلفة، كما يتوزع العرق التركي مثلا بين تركيا الحديثة ودول آسيا الوسطى، أو كما يتوزع العرق الألماني بين ألمانيا والنمسا. وفي المقابل يمكن أن يتوزع في أقليات عرقية تعيش في كيانات وطنية أو قومية أخرى.

دولة الأمة ليس لها وجود عندنا. والأقطار العربية لا يمكن تعريفها بأنها دول قومية متمايزة تجتمع في العرق العربي. فكيف نُعَرّف الوجود العربي تمهيداً للإجابة عن سؤال الصعود والهبوط؟

وفي ظل العوامل الخارجية التي أسهمت في تكوين الدولة القطرية، في سياق التبعية للمركز الغربي الإمبريالي، عجزت هذه الدولة القطرية عن خلق حداثتها المستقلة والمنفتحة في الوقت نفسه على العالم، ومن ثم استوت كياناً هجيناً تتجاور فيه مظاهر الحداثة المستوردة من حاضر الغير المتقدم، وأنماط التقاليد والتشكيلات التقليدية الموروثة المنسوخة من ماضي الذات المتخلف والتي ما تزال قادرة على إنتاج نفسها في هياكل الدولة والمجتمع الحديثة. فما زالت العصب التقليدية من القبيلة والطائفة والعرق فاعلاً أساسياً في المجتمعات العربية، على حساب تطور مؤسسات المجتمع المدني الضرورية لقيام مجتمع المواطنة المتكافئة والديموقراطية والسلام الأهلي، وهي شروط أساسية للتقدم والإنتاج الحضاري. ثمة حكومات ومجالس برلمانية ومؤسسات على هيئة المؤسسات الغربية في ظاهرها، ولكن فحواها المحاصصة القبلية والطائفية والعرقية وعلاقات «المحسوبية» الطاردة للكفاءات الإبداعية. والحال أن هذه الهويات التقليدية المتصارعة حتى الاقتتال أحياناً، لا تعيق التقدم فقط، ولكنها تأخذ من رصيد الهوية الوطنية الجامعة حتى في حدود الدولة القطرية. ومن طبيعة هذه العصب أنها عابرة للحدود الوطنية القطرية فيمتد الولاء لها وراء الحدود من حساب الولاء الوطني.

مكتبة الربيعي أحمد

وحتى التنظيمات المدنية كالأحزاب والفصائل لا تسلم في كثير من الأحيان من اختراق العصب التقليدية لها. وبعضها نشأ ابتداء ليمثل «إيديولوجيا» طائفية تقاوم الهوية العربية الإسلامية، ومنها ما نشأ من منطلقات إيديولوجية قومية، ثم ما لبثت الطائفة أن امتطته لتحوله إلى واجهة تختفي وراءها. أما ما سلم من هذه أو تلك، فتهيمن على المنتمين إليه ذهنية العشيرة، ليصير الولاء له أقرب إلى طبيعة الولاء العشائري، غير المشروط بالغايات والمنطلقات العقدية والسياسات. فقد ينقلب التنظيم على منطلقاته وغاياته الأولى انقلاباً تاماً دون أن يهتز ولاء قاعدته التنظيمية. إذ يصير الولاء للعشيرة التنظيمية مقدماً على الغايات الوطنية التي نشأ التنظيم من أجلها ابتداء.

ولسان الحال من جديد:

وما أنا إلا من غزية إن غَوَت غَوَيْتُ، وإن ترشد غزية أرشدِ

ومن الطبيعي أن تتسم هذه الذهنية بالنزوع إلى إقصاء الآخر وإلغائه واستئصاله إذا أمكن. ذلك أن جور الولاء التنظيمي ذي الطبيعة العشائرية على الولاء الوطني، والميل إلى المطابقة بين التنظيم والوطن، يسهم في تغييب مبدأ المشاركة الوطنية والسياسية، ويجعل تعريف الذات الحزبية قائماً على مغايرة الآخر المختلف وكراهيته والرغبة في نفيه وتجريده من حقوقه الوطنية، بدلاً من مبادئ الشراكة الوطنية والتنافس السلمي على السلطة في ظل القانون والاحتكام إلى صناديق الاقتراع واحترام الخيارات الشعبية، واستباق الخيرات في الخدمة الوطنية باعتباره غاية في ذاته، وسبيلاً في الوقت نفسه إلى اكتساب الأصوات والدعم الشعبي. وبذلك تنصب النخب السياسية نفسها قيماً على الشعب، لا ممثلاً له، وتمنح نفسها حق النقض (الفيتو) للإرادة الشعبية التي تعبر عن نفسها من خلال صناديق الاقتراع. والمحصلة مجتمع الكراهية والانقسام والقنوط واستباحة دماء المخالفين الذي نعيش فيه الآن، والذي عبرت عنه الأغنية سيئة الذكر التي سمعناها وقت كتابة هذه السطور:

إحنا شعب وانتو شعب لِنا رب ولكم رب!!

ومن الطبيعي أيضاً أن يسهم هذا الحال في دعم أنظمة الاستبداد البوليسية العسكرية وتسويغها وتأبيدها. فأين في غير هذا العالم العربي ترتد النخب السياسية المعارضة (التي أسهمت في ثورة شعبية أسقطت مستبداً) على نفسها وثورتها لتتحالف مع

مكتبة الرمحي أحمد

قوى النظام السابق وتؤيد انقلاباً عسكرياً على شرعية الانتخابات والعملية الديمقراطية الوليدة لأن رياحها جاءت بما لا تشتهيه سفنهم، ثم تحرض على الإقصاء وسفك الدماء؟!

أين في غير هذا العالم العربي يترحم كثيرون على طاغية سابق، لأن ما جاء بعده أسوأ منه؟ وكأنه قد كتب علينا -دون العالمين- أن نتنقل بين الرمضاء والنار! أين في غير هذا العالم العربي يجادل كثيرون دفاعاً عن مستبد قائم، بحجة أن البديل هو الفوضى والانقسام والصراعات الدامية وانعدام الأمن؟

أين في غير هذا العالم العربي يفتتح الأكثر تعقلاً دفاعه عن نظام الاستبداد بالقول:

-لا أدافع عن النظام، ولا أنكر أنه ظالم ومستبد وفاسد، ولكن البديل سيكون أسوأ منه.

ولقد يتكرر القول في سياق التسويغ لنظام الاستبداد وبقائه:

-لسنا مؤهلين للديمقراطية بعد.

ولا يتساءل القائل:

-من سيؤهلنا للديمقراطية قبل التخلص من الاستبداد؟ أهو النظام المستبد نفسه؟

-وهل تترسخ ثقافة الديمقراطية إلا من خلال ممارستها؟

ألم تكن دعوى الاستعمار في تسويغ استمراره القول: إن الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) ليست مؤهلة بعد لحكم نفسها؟!

أين في غير هذا العالم العربي يكون النظام المستبد الضمان الوحيد للاستقرار والأمن، كما يوحي الكثيرون؟! ألا ساء ما يحكمون!

وهل الفوضى المحتملة بعد ذهاب الطاغية إلا نتاج ما قدمت يداه على مدى عقود طويلة من الفساد والإفساد وتخريب النفوس وزرع الأحقاد وتغييب العقول واستعباد أطراف وعصب لأطراف وعصب؟

يخوفونك من الغزاة إذا ثرت على الطغاة، وما علموا أن الطغاة هم شرط الغزاة، وأن الشعوب التي أذلها الطغاة غير مؤهلة لمواجهة الغزاة، وقد يصل ببعضها سوء الحال من الطغيان الداخلي أن تتساءل: ما الفرق بين الطغاة والغزاة؟ وقد ينحط بها الحال إلى الترحيب بالغزاة تحت وطاة اليأس؟

مكتبة الرمحي أحمد

ألم تر إلى البعض يتساءل، كم قتلت إسرائيل في حروبها مع العرب ومن الفلسطينيين تحت الاحتلال، وكم قتل الطغاة من شعوبهم في المقابل؟

ألا يأخذ رصيد العداء المتراكم ضد الطغاة من رصيد العداء ضد الغزاة؟ بل ربما جرؤ البعض على البوح المخيف، فيقول: ليت إسرائيل تخلصنا من هذا النظام أو ذاك؟

أليس هذا الخراب الأخلاقي بعض ما أنتجه الطغيان؟

أين في غير هذا العالم العربي الكاره لذاته ينحاز شطر من القوميين (نعم القوميون!) إلى المد الشعوبي في المنطقة العربية احتجاجاً على سياسات «الأعراب» المرتهنة للغرب، من باب أن عدو عدوي صديقي؟ أنضحي بالعروبة نكاية بالأعراب؟ ألسنا نحاكي بهذا ما وقع في القرون الأولى حين لم يجد بنو العباس طريقة للتخلص من المنافسات والتهديدات القبلية إلا بإهمال العرب على الجملة، وتقديم الشعوبية والأعاجم؟ ثم من قال إن عدو عدوي صديقي بالضرورة؟ ألا يجتمع على الفرد والجماعة عدوان في الوقت نفسه؟ وهل يكون حظنا الموازنة والاختيار بين غزاة وطغاة، وغزاة وغزاة، وطغاة وطغاة، ونظام فاسد ونظام فاسد، وولاء لأجنبي في الشرق وآخر في الغرب؟ لِمَ يكون الظلم والفساد في بلد ما مسوغاً للسكوت على الظلم والفساد والطغيان في غيره؟ ألا يسعنا أن نُحَكِّم المعيار نفسه لرفض هذا وذاك انحيازاً إلى الشعوب المغلوبة على أمرها والأمة المضيعة في كل البلاد؟

وهذه الأنظمة المستبدة التي يسوغ كل منها نفسه بفساد الآخر، ألم تتنقل بين التحالف والعداء في سنوات معدودات؟ فإن كان الفرق بينها فرقاً بين حق ننحاز إليه وباطل نرفضه، فما الذي جمع بينها في الأمس وفرق بينها الآن، وهي الأنظمة نفسها؟

فأي تقدم نرجوه لأمة ما زالت العصبيات التقليدية القبلية والطائفية طاغية فيها على الروابط المدنية، بل ما زالت قادرة على تفريغ الأطر المدنية الحديثة من محتواها لتستوطن فيها خلف واجهة الشعار القومي والعلماني نفسه، وما زالت تيارات وتنظيمات يفترض أنها مدنية علمانية تدار بذهنية العصبية العشائرية التي تمزق الجماعة الوطنية؟

ليس هذا الانحطاط إلا امتداداً لتلك العوامل العصبوية القديمة التي أجهضت تطور الوجود العربي إلى أمة ودولة وكيان عضوي واحد مستقل تعمل عليه شروط التطور الحضاري نحو مجتمع مدني قادر على استيعاب التعددية في إطار المواطنة المتكافئة.

مكتبة الربيعي أحمد

والحال أن الدولة القطرية نفسها ما تزال حائرة الهوية تحت ضغط الهويات العصبوية المتنازعة حتى الاقتتال أحياناً: القبلية والطائفية والعرقية والجهوية. فهذا يطلب حصته القبلية أو الجهوية من رصيد الجماعة الوطنية؛ وهذا يقاوم انتسابها للعروبة خوفاً على حقوق جماعته العرقية - القومية غير العربية؛ وذلك يقاوم هويتها الثقافية الإسلامية خوفاً على حقوق الأقليات الدينية، وربما قاوم هويتها العربية الإسلامية معاً لما بين العروبة والإسلام من تداخل وترابط. وأخيراً هناك من يغلب ولاءه الطائفي العابر للحدود الوطنية والقومية على ولائه الوطني والقومي. وكل ذلك يغري البعض بالالتجاء إلى الأجنبي الذي يتفق معه في محدد هويته الفرعية، لا سيما الدين و الطائفة.

وفي ظل هيمنة العصب التقليدية لا يمكن أن يتطور مفهوم الفردية الذي يقترن شرطاً بدولة المواطنة والحقوق المدنية والحريات. ومن جهة أخرى فإن الاستبداد في السياق العربي حتى لو كان شعاره علمانياً، يسهم في تعزيز هذه العصب من وجوه مختلفة. فقد يستعين ببعضها على بعض، أو يشغل بعضها ببعض عن التصدي له، حتى يدفعها أحياناً إلى الاعتصام به حَكَماً وضميناً بشوكته الأمنية. كذلك، فإن تغول السلطة التنفيذية في نظم الاستبداد، تلجئ الفرد إلى الاعتصام بعصبته بحكم الضرورة، لتقدم له حماية لا يقدمها له قانون عادل ولا سلطة قضائية مستقلة. وفضلاً عن ذلك، فإن نظام المحاصصة العصبوية يفرض على الفرد أن يعزز انتماءه لعصبته -حتى لو كان مثقفاً ليبرالياً من الناحية الإيديولوجية-، ذلك لأن حراكه الوظيفي نحو المناصب الهامة رهين بحصة عصبته، أكثر من اعتماده على عامل الكفاءة والإبداع. وهذا ما نراه بوضوح في كثير من المجتمعات العربية. إذ يجد المثقفون المتعلمون من أصحاب الكفاءات العالية الذين درسوا في جامعات الغرب، أنفسهم مضطرين إلى الانكفاء إلى عصبهم التقليدية تحت وطأة هذه الظروف، بدلاً من أن يكونوا طلائع التغيير نحو المجتمع المدني: مجتمع المواطنة والفرص المتكافئة والتنافس بالكفاءات. ومن نتائج هذا الوضع إحباط الكثير من الكفاءات الإبداعية التي لا تجد لها نصيباً في نظام المحاصصة، وهذا بدوره يؤدي إلى انحطاط قيم العمل الملازمة للمجتمع الحيوي المنتج، وإلى ضعف مفهوم المهنية والاحتراف Professionalism، في بيئة تسودها ثقافة العطايا والهبات والحصص والأنصبة والمحسوبيات والمكافآت المبنية على الولاءات عوضاً عن المواهب والكفاءات والخبرات. فقط قارن حال أخلاقيات العمل وقيمه في المجتمعات العربية بحالها في الغرب والصين واليابان وكوريا الجنوبية، بل

مكتبة الرمحي أحمد

كذلك في مجتمعات أقل تقدماً مثل تايلاند والفيليبين وفيتنام وماليزيا، وكلها تسير بخطى حثيثة متسارعة نحو النمو والتقدم.

فكيف نرجو أن نتقدم في ظل هذه الظروف والمحددات التي تكبل الإنتاج والإبداع والنهوض؟

إذا كان من الصعب أن نتحدث عن تاريخ سياسي مستقل متواصل لكيان عضوي عربي موحد، في سياق السؤال عن عوامل الانحطاط، فلربما كان الأصوب أن نتحدث عن عالم الحضارة العربية الإسلامية وأسباب انحدارها بعد صعودها المتوهج بينما صعدت الحضارة الأوروبية بعد عصور الظلام التي امتدت زهاء ألف سنة.

أما أنها عربية فلأن حاملها اللغوي الأول كان اللغة العربية. وقد أسهم فيها العرب إلى جانب شعوب أخرى دخلت في فضاء تلك الحضارة، لا سيما الفرس. وعلى الرغم من أن الإسلام كان قاعدتها الدينية الكبرى ، فإن المسيحيين واليهود أسهموا فيها كذلك ، وكانوا في البدء وسيط الترجمة عن الحضارة الإغريقية. والانتاج الحضاري يحتاج إلى حامل مجتمعي عضوي يعمل في مسار تاريخي موحد ومستقل نسبياً يراكم فيه إنجازاته الحضارية. فالحضارة الإغريقية تنسب إلى الإغريق، والرومانية تنسب إلى الرومان وإمبراطوريتهم على الرغم من اتساعها لشعوب كثيرة. وحين انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية، اختفى الكيان العضوي المركزي الذي تنطلق منه الفاعلية الحضارية. وواكب ذلك شروط أخرى دينية وثقافية أدت إلى الانقطاع عن الموروث الحضاري الإغريقي الروماني ، ودخلت معه أوروبا في عصر الظلام. أما النهضة الأوروبية وتقدمها إلى عصور الحضارة الأوروبية الحديثة فقد توافق ذلك مع تطور الكيانات القومية المركزية لتكون حواضن الإنتاج الحضاري مع إعادة الصلة بالموروث الإغريقي الروماني.

وفي المقابل ، وفرت دولة الخلافة العباسية إبان قوتها واستقرارها النسبي حاضنة مجتمعية للنشاط الحضاري ، جمعت بين مكوناتها اللغة العربية والإسلام. وبدا إلى حين أن هذه الحاضنة قادرة على إحتواء التعددية العرقية والثقافية في بوتقة حضارية واحدة، تتغلب فيها عوامل الجذب والتفاعل الإبداعي والثقافي على عوامل الطرد والتنافر والتدابر.

ولكن هذا الحال لن يطول كثيراً. فمع تفكك دولة الخلافة بدأ صراع متصل على الغلبة بين شعوب وأعراق إسلامية مختلفة على نحو ما ذكرنا سابقاً، إضافة إلى الصراعات

مكتبة الرمحي أحمد

الطائفية. وكانت المحصلة الأخيرة تفكك الحاضنة المجتمعية العامة للنشاط الحضاري، مع تغلب عوامل الطرد والتنافر على عوامل التفاعل الخلاق. فلم يعد في الوسع الحديث عن تاريخ إسلامي موحد. إنما هو منذ الآن مجموعة تواريخ لشعوب وسلالات وأعراق وقوميات لا تتقاطع إلا لتتباعد. فلكل منها روايته التاريخية المستقلة نسبياً وإن تداخلت بعض جوانبها في حيز مشترك أو متقارب! ولا ننسى إلى جانب ذلك دور الغزو الخارجي الصليبي والمغولي في تقويض مراكز الإنتاج الحضاري.

ومن الطبيعي أن يؤدي تفكك الحاضنة الحضارية ومسارها التاريخي الواحد إلى تخافت الإشعاع الحضاري تدريجاً. ومن المعلوم أن قوة الدفع الحضارية تتلبث وقتاً بعد الانهيار السياسي والتفكك البنيوي، كما حصل في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. فما إن دخل القرن السادس الهجري حتى كانت الشعلة قد خبت، وتراجع دور اللغة العربية بوصفها الحامل اللغوي الرئيس للحضارة العربية الإسلامية، وانحطت آدابها، واختفى الشعراء العظماء المبدعون، ومعهم كبار اللغوين والعلماء والفلاسفة. واختزل دور المؤلفين في وضع الشروح والهوامش على مؤلفات السابقين في أحسن الأحوال.

على أن الثقافة تتمتع بقدر من الاستقلال النسبي وليست مجرد انعكاس آلي للشروط البنيوية. وفي رأيي أن بعض العوامل الثقافية قد أسهمت في ذاتها في انحدار الحضارة العربية الإسلامية. ومن أهمها في تقديري تغلب المنهج المعياري (Normative/ Prescriptive) في الحقول الفكرية والمعرفية.

ليس في الإمكان أبدع مما كان:

وأعني بالمنهج المعياري ذلك الاتجاه إلى تقرير معايير ثابتة للصواب والخطأ ولما يمكن قبوله استناداً إلى نماذج تأسيسية سابقة لا يصح الخروج عليها. ومن هنا ظهرت فكرة عصور الاحتجاج في اللغة والأدب التي تنحصر في زهاء قرن ونصف قبل الإسلام، ومثل ذلك بعد ظهوره، وعصور الاحتجاج في العلوم الشرعية والدينية التي تمتد زهاء قرنين إلى ثلاثة قرون من ظهور الإسلام. وما بعد ذلك لا يصلح للتقعيد أو الاحتجاج، بل يعد انحرافاً عن الأصول المعيارية. وهنا يلتبس مفهوم الإبداع بالبدعة، والتجديد بالتوليد، والتحديث بالإحداث. فيقال في أساليب اللغة والشعر: هذا مولد، أي هجين خارج عن الأصول المعيارية المعتبرة. ويقال: أمر محدث ، أي أنه طارئ غريب لا يرجع إلى أصل مقرر.

مكتبة الربيعي أحمد

ومن الواضح أن هذا الاتجاه يؤسس للجمود والتقليد واستنساخ الماضي، ويبخس مظاهر التجديد والابداع، ويمنح المدونات الأولى سلطة معرفية قاهرة تملي على الآخرين ما قرره الأولون؛ ومع الزمن يغلق النشاط الفكري المعرفي عليها، باعتبار أن أصحابها قد بلغوا بها الغاية وفصل الخطاب وأتموا بها مادة العلم، وما غادروا فيها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها. فلا مزيد عليها بعد. رفعت الأقلام وجفت الصحف، وقضي الأمر الذي فيه تستفون!

وما زالت هذه الظاهرة الموروثة قائمة حتى الآن: تقديس الماضي ورجاله وعصور الاحتجاج. فمن أنت حتى تقول: هم رجال ونحن رجال؟ وما أنت قياساً بقامات «أسيادنا» العلماء الغابرين حتى تراجع عليهم بعض ما قالوا وقرروا؟! إن كان لا بد فارجع على آثارهم بالشرح والتفصيل. وإن كان لابد ففر من رأي أحدهم إلى رأي آخر منهم، فإنك واجد ضالتك بينهم. وتلك لعمر الله هي قاعدة الفكر الأصولي في تجلياته المختلفة.

فإن كان هذا هو الرأي في العلماء والمحققين الأوائل، فأكثر من ذلك بالضرورة تقديس مصادر الاحتجاج التي بنوا عليها، من روايات ورواة وأبطال لتلك الروايات والأخبار. وإنه لأثر من ثقافة عبادة الأسلاف الذين ألقينا عليهم شيئاً من قداسة الوحي، فأخرجناهم من النسبي التاريخي إلى المطلق. والمفارقة أن الأسلاف المؤسسين المبدعين لم يكونوا سلفيين، حين أبدعوا منجزاً غير مسبوق. وبدلاً من أن نحاكيهم في عملية الابداع التي استطاعوا بها تجاوز السابق، نحاكي منجزهم نفسه ونعيد إنتاجه دون إضافة أو مراجعة، بل ربما قصرنا دون فهمه فمسخنا معانيه وعزلناه عن سياق دلالاته.

وإن الاحتجاج بالروايات والأخبار ليكاد أن يحتل مساحة أوسع من الاحتجاج بالقرآن الذي ينفرد وحده بقطعية الثبوت المطلقة. وليس أقبح من الذريعة التي يتذرع بها كثيرون بالقول: «إن القرآن حمال أوجه». ويجهلون أنهم بهذا ينحون كتاب الله ويتخذونه وراءهم ظهرياً وإن زعموا غير ذلك. فكيف يسعنا أن نحتكم إلى القرآن في شؤون الدين إذا كانت معانيه ملتبسة تحتمل وجوهاً من التأويل لا يرجح أحدها على الآخر. ثم يستدعون مفهوم «المتشابه» بالمعنى نفسه ليسوغوا كثرة الاحتجاج بالروايات التي يمكن القطع بمعناها، وإن كان ثبوتها ظنياً مهما يترجح الظن. أما الشيعة فقد ذهبوا في هذا مذهباً بعيداً حين قالوا بضرورة وجود الإمام المعصوم الحجة. وذلك أن الناس يختلفون في فهم نصوص الوحي، وليس لهم من العصمة ما يمنعهم من الخطأ، فلا تقوم عليهم الحجة

مكتبة الرمحي أحمد

القاطعة المانعة بالنص وحده، فإذا صاروا إلى ربهم اعتذر كل منهم بما تحصل له من الفهم والتأويل. فلابد إذن من وجود إمام معصوم في كل زمان، يطابق علمه مراد الله، فيقيم بذلك الحجة على الناس، ولا عذر لمعتذر.

ولكن الإمامة والعصمة في ذاتهما موضوع خلاف انقسمت عليه الأمة. وليس عليهما دليل قاطع من الوحي، إلا من روايات وتأويلات عقلية. ثم إن فرق الشيعة تختلف في قائمة الأئمة بين اثني عشرية وسبعية إسماعيلية وزيدية. كما أن كلام الأئمة الذي يفترض أن تقوم به الحجة على الناس منقول إلينا بالروايات التي يأخذ بها الشيعة دون السنة، وقد يختلف الشيعة أنفسهم في صحة الثبوت لبعضها. ثم إن الإمام الأخير ما زال غائباً منذ قرون، فكيف يكون حجة علينا في غيبته الطويلة؟ أما الولي الفقيه المجتهد الذي ينوب عن الإمام الغائب فلا تثبت له عصمة، فليس له حجة الإمام الذي ينوب عنه. فأين نذهب، وقد ارتد بنا الحال إلى حصار الروايات والخلاف حولها والخصومة فيها.

وعلى الرغم من أن السنة لم يذهبوا مثل هذا المذهب، فقد أسرفوا في الاحتجاج بالروايات الظنية كما ذكرنا سابقاً. فإذا أمعنا النظر وجدنا أن جل خلافات المسلمين الدينية تتغذى بالروايات. ولما لم يكن في وسع أصحاب الأغراض والأهواء أن يبدلوا في كتاب الله، وجدوا سعة في الروايات يبتدعونها ويحتجون بها، وإن خالف بعضها صريح القرآن وأصول الدين، وناقض بعضها بعضاً. وانشغل المحققون بالسند وسلسلة الرواة دون المتن والمحتوى. فإن تعارضت النصوص في المحتوى تعسفوا في التأويل بما لا يجيزه حد اللغة، صيانةً للرواية أن يطعن في صحتها! ولا يوفر الكثير من الروايات وقود الخلافات بين المسلمين فقط، وإنما يجد فيها خصوم الإسلام نفسه مادة الطعن فيه. وبدلاً من أن نقطع عليهم الطريق فنسبقهم إلى نقضها وتبرئة الإسلام منها، أو تأكيد أنها ليست وحياً مقطوعاً بثبوته لتقام به الحجة للدين أو عليه، ترى الكثيرين منا يتمسكون بها تمسكهم بسلطة الرواية والنقل ورجال السلف. وتقديس الروايات من تقديس رواة السند، وأكثر من ذلك تقديس المروي عنهم ورفعهم فوق مصاف البشر والسياقات التاريخية، وتنزيههم عن الخطأ، وجعلهم تمثيلاً بشرياً مطابقاً للوحي والتنزيل. وهذا باب واسع من أبواب التحريف الديني عبر التاريخ. إذ بدلاً من النظر إلى الشخصيات الدينية المؤسسة على أنها وسائط تبليغ الرسالة السماوية، وأن عظمتها في بلائها وسبقها وتضحياتها، يجري الخلط بين الرسالة ومبلغيها وحامليها، حتى يصبحوا في المخيال

مكتبة الربيعي أحمد

والوجدان الدينيين جزءاً من العقيدة والرسالة، إن لم يصبحوا موضوعها المركزي. بعبارة أخرى، بدلاً من أن يكون هؤلاء شهود الحق والشهداء على الناس بالرسالة، تصبح الرسالة شهادة فيهم ولهم، وكأنها لم تتنزل إلا من أجلهم! وهو ما يفتح باب الشرك الظاهر والخفي على مصراعيه.

انظر كيف صار آل البيت عند الشيعة أصلاً من أصول العقيدة وموضوعاً مركزياً من مواضيعها ينماز على أساسه المسلمون بين مؤمنين حقاً وغير مؤمنين وإن شهدوا الشهادتين وصلوا وصاموا وحجوا وزكوا. فالإمامة عندهم ركن من أركان الإسلام، ولا يصح الدين بغير الإعتقاد به. وقد تسلم هذه العقيدة إلى القول بالتفويض، أي تفويض الله الأئمة ببعض سلطانه كالفصل بين الناس يوم القيامة إلى جنة أو إلى نار. ثم بلغ الغلو والشطط ببعض فرق الشيعة القول بألوهية علي (رض)، أو تجلي الله في الأئمة. وعلى الرغم من أن السنة ينكرون هذه العقائد أشد الإنكار، ولا يثبتون العصمة لأحد غير النبي ﷺ فيما بلغ عن الوحي. فإن الكثيرين منهم في واقع الحال يرفعون الصحابة فوق مستوى النقد، بل يحرمون الخوض فيما شجر بينهم من خلاف، وكأن علينا أن نكون مع الضدين في آن. حتى وضعوا حديثاً ينسبونه إلى رسول الله ﷺ، وما هو بحديث، ولا يصح منه سند ولا متن، وهو: «أصحابي كالنجوم. بأيهم اقتديتم اهتديتم».

أين هذا كله من موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع رجلا يقول (هذا رأي الله ورأي عمر)، فصعد المنبر غاضباً وخطب في الناس فقال: (لا يقولن أحدكم هذا رأي الله ورأي عمر، بل هو رأي عمر، فإن أصاب فمن الله، وإن أخطأ فمن نفسه، فلا تجعلوا خطأ الرأي سنة في الأمة)!

وهكذا نجد الماضي برواياته ورجالاته يستوطن حاضر المسلمين والثقافة الإسلامية ويعتقل الوعي والتفكير والوجدان والمخيلة، فنرى به ولا نراه، أي أنه جزء أساسي من الذات الرائية، بدلاً من أن يكون موضوعاً للنظر والمعاينة والمحاكمة. فقط نقل نظرك وبصرك بين القنوات والبرامج الدينية واحص كم يقع الاحتجاج بالروايات والرجال، وأخبار الماضي وكلام السلف، وهي بعد لا ترقى إلى أن تكون قطعية الثبوت، وحتى لو ثبتت فما هي بوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ إنما هي تاريخ رجال وأفكار وصراعات وخصومات. وأقبح ما في الأمر أن نستمد منها وقود الصراعات الطائفية والمذهبية والفكرية، ونرث منها عقائد الثأر والكراهية، فهل يعقل أن

مكتبة الرمحي أحمد

يصرح رئيس العراق وقت كتابة هذه السطور بأن الصراع الدائر في بلده إنما هو صراع بين أنصار الحسين رضي الله عنه وأنصار يزيد؟! إن هذا التصريح ليلخص كل ما أفضنا به آنفاً على نحو مكثف وفاجع في آن.

إن تغلب المنهج المعياري الذي اعتقل الفكر العربي الإسلامي فيما سمي بعصور الاحتجاج من شأنه أن يفضي بالضرورة إلى استقطاب حاد بين متطرفين: التقوقع في الماضي، أو القطيعة معه قطيعة عدمية. وعلى ما بينهما من تناقض، فإن كليهما يلغي التاريخ والذات وشروط الصيرورة والتقدم؛ وكلاهما يفضي إلى كره الذات. فالأول يحقد على حاضر لا يتطابق مع أنموذج الماضي كما تقرره عصور الاحتجاج ومعاييره، والثاني يحقد على ماضٍ يحمله مسؤولية انحطاط الحاضر. والأول يستوطن ماضي الذات، والثاني يستوطن حاضر الغير الذي لم يكن له سهم في إنتاجه. فإما تقليد لماضي الذات وإما تقليد لحاضر الغير. والغائب في كلا الحالين حاضر الذات نفسه! ألا يشيع في الجهود الأكاديمية العربية المعاصرة دراسة إنجاز معرفي عربي قديم في ضوء النظريات الحديثة التي أنتجها الغرب، كأن ندرس نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء النظرية اللسانية الحديثة، أو ابن خلدون في ضوء علم الإجتماع الحديث؟! «والحديث» تعريفاً غربي المنشأ. إذ لا نجد نظرية واحدة حديثة أسهم بها العرب والمسلمون في أي من العلوم الإنسانية مثلاً، كعلم الإجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، والنظرية النقدية والأدبية ، والعلوم اللسانية.

تفيد نظرية التطور المعرفي والفكري بأنه في أي طور تاريخي يسود في أي ميدان علمي نظام تفسيري عام Paradigm يشكل وعي المجتمع العلمي المتخصص ويوفر لهم الأدوات المنهجية لدراسة الظواهر ذات العلاقة وتمثيلها رمزياً وتوظيفها عملياً. ولكن هذا النظام له قيمة نسبية مؤقتة، فمع تراكم المعارف والاستكشافات، يتخلق في طور تالٍ نظام تفسيري آخر يحل مكان السابق تدريجياً إلى أن يصبح المرجع العام الجديد، وبه تتغير الرؤية والخطاب والأدوات المنهجية. ولكن تجاوز التالي للسابق، ما كان ليكون لولا أن السابق مهد له وخلق شروط إمكانه. وبهذا يكون الاحتفاء بالإنجاز الجديد «احتفاء» بالماضي الذي تقدمه وقدم له، فلا الماضي يعطل الصيرورة نحو الحاضر، ولا الحاضر يتنكر للماضي وينفي دوره التاريخي وإسهامه في صناعة حاضر تجاوزه. إنها الصيرورة في سياق تاريخي عضوي متصل منفصل في آن. فلنعم الوالد والولد، ولنعم السلف

مكتبة الربيعي أحمد

والخلف! وهذا هو تاريخ المعارف والعلوم في المجتمعات الحية المنتجة التي بوسعها أن تنتقد الذات دون أن تكرهها ماضياً أو حاضراً.

أما في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فإن المنهج المعياري وقف بالحقيقة عند عصور الاحتجاج باعتبارها حقيقة ناجزة ذات قيمة مطلقة ثابتة، واعتبر محاولة تجاوزها من باب التحريف والتوليد والإحداث والابتداع (من البدعة)، وربما أحاط بعض حقولها بسور من المعاني الأخلاقية والدينية المقدسة، ليعصمها من محاولات المراجعة والنقد والتجاوز. وحتى المعارف غير الدينية، فقد شملت في صفة التراث الإسلامي. ولا بأس في ذلك إذا كان وصف «الإسلامي» هنا يحيل إلى الثقافة والحضارة من حيث هما تاريخ وجهد بشري، ولكن المعنى يختلط عند الكثيرين بالمفهوم الديني على نحو مباشر أو غير مباشر. ويعزز من ذلك هاجس الخوف على الهوية المهددة المتحصنة في الماضي من حاضر غلاب ليس لنا، وما يتصل بهذا من شيوع نظرية المؤامرة، فإذا أعجزت بعضهم في نقد بعض المرويات ونقضها، سمعت من يقول: علينا أن نغلق هذا الباب حتى لا يكون مدخلاً إلى نقض السنة ومراجع التراث بجملتها، خدمة للمؤامرة الغربية التي تعمل لهذا الغرض. بل إن حركات التجديد في الشعر والأدب ووجهت بمقاومة عنيفة ممن اتهمها بأنها جزء من مؤامرة على اللغة العربية وتراثها، سبيلاً إلى تغريب الناس عن هويتهم الإسلامية في سياق الغزو الثقافي الجاري؛ وقل مثل ذلك في الفكر السياسي والموقف من الديموقراطية والحريات المدنية ومفهوم المواطنة.

فهل نعجب إذن من هذا الانحطاط المزمن القديم الجديد!!

لا بد هنا من ثلاثة استدراكات: أولها أن الارتهان للماضي لا يعني الوعي بالتاريخ العربي الإسلامي بوقائعه ومراحله، بل الغالب هو الجهل به إلا من بعض أسماء الأشخاص والوقائع الكبرى والعناوين العامة، دون علم بتفاصيلها أو حتى مكانها من السياق التاريخي، إلى جانب بعض الصور الذهنية الغامضة. وهذا للأسف ينطبق على معظم الناس، ومنهم المتعلمون، ويستوي في ذلك من يقدس الماضي ومن يدنسه. وأما الاستدراك الثاني فإن سلطة الماضي لا تعني وحدة المرجع والرواية (Narrative)؛ فالماضي ليس رواية واحدة. فكل ينتقي منه ما يوافق رأيه وهواه وغرضه وفهمه، ويختلق من ذلك روايته التي يخاصم بها رواية الآخر المختلف. الجامع بينهم هو تحكيم الماضي المتخيل، وهو نفسه رافد

مكتبة الربيعي أحمد

الصراعات والخصومات الممتدة من الماضي إلى الحاضر! أما الاستدراك الثالث فهو أن تسلط الماضي على الوعي الحاضر هو من مسؤولية هذا الوعي نفسه. فالماضي، بما هو ثقافة، ليس حقيقة موضوعية خارجية مستقلة تمارس إكراهاتها على الوعي قسراً دون إرادة منه. حضور الماضي على هذا النحو يقتضي من يستحضره ويعيد إنتاجه بسبب الجهل والعجز والكسل الفكري والخوف على هوية مهددة. فبقدر ما يسهم الماضي في إنتاج الواقع، فإن شروط الواقع نفسه تسهم في إعادة إنتاج الماضي وتوظيفه والتسلط به.

2. غياب التقنين

ثمة عوامل أخرى أسهمت في تجميد الفاعلية الحضارية العربية الإسلامية، ولكني سأكتفي هنا بالإشارة إلى عامل آخر منها أراه شديد الأهمية؛ وهو غياب اللوائح والمدونات القانونية العامة الملزمة قبل العصور الحديثة. ورب قائل: وما حاجتهم إليها وعندهم الشريعة يتقاضون بها، وهي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟ ونرد عليهم بأن أحكام الشريعة القطعية الثبوت والدلالة لا تشمل كل ما يمكن أن يختصم الناس فيه، أو كل ما تحتاج الدولة إلى تقييده وتقنينه. فثمة مساحات واسعة للرأي والنوازل الجديدة التي لم يرد فيها نص من قرآن أو سنة ثابتة. ومنذ وفاة الرسول الكريم ﷺ بدأ الحديث بين كبار الصحابة وقضاتهم عن النوازل المستجدة التي يفصل فيها بالرأي والاجتهاد. ومن الطبيعي أن يسترشد الرأي بقيم الدين ومقاصد الشريعة والمصلحة، فضلاً عن ظروف المسألة النازلة. وعلى الرغم من نفاذ حكم القاضي المكلف، فإنه لا يكتسب صفة الحكم الشرعي المقرر بدليل الوحي. فقد يختلف الرأي والحكم في المسألة النازلة الواحدة بين قاضٍ وآخر، وقد يتغير بتغير الزمان والمكان. والرأي بطبيعته قد يقع فيه الخطأ، فهو اجتهاد بشري لا عصمة له. وقد عبر عن ذلك الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحسن تعبير، حين جاءه رجل فقال: «تقاضيت عند علي ابن ابي طالب وزيد بن ثابت فقضيا بكذا». وكان عمر يقضي وكذلك علي وزيد في عهده. فقال عمر: «لو جاءتني المسألة لقضيت بغير ذلك». فقال الرجل: «ولم لا تفعل الآن وأنت الخليفة»؟ فأجاب: «هذه نازلة لا نجد فيها حكماً في كتاب الله ولا في عمل رسول الله. فنقضي بالرأي، ويستوي رأي عمر ورأي علي وزيد». أي أنه ليس لرأيه قيمة شرعية تعلو رأي علي وزيد، حتى ينقض رأيهما برأيه. ولذلك قال عمر رضي الله عنه محذراً من إعطاء رأيه قيمة الحكم الموحى به: «لا يقولن أحدكم هذا رأي الله ورأي عمر. إنما هو رأي عمر. فإن أصاب فمن الله، وإن أخطأ فمن

مكتبة الرمحي أحمد

نفسه. فلا تجعلوا خطأ الرأي سنة في الأمة»، أي لاتعطوا الرأي قيمة ثابتة مطلقة كقيمة الحكم الشرعي الذي نزل به دليل قاطع من الوحي. بل يرتد هذا الموقف إلى زمن الرسول ﷺ. فقد كان إذا بعث سرية أوصى قائدها فقال: «إذا سألك أهل حصن على أن تنزل فيهم على حكم الله ورسوله، فقل: إنما تنزلون على حكمي. فإنك لا تدري هل تصيب فيهم حكم الله أم لا».

فإذا كان ذاك شأن مقدمي الصحابة، وهم الأقرب إلى عهد النبوة، فكيف بالعصور التالية وقد اتسع المجتمع الإسلامي وازداد تعقيداً وتكاثرت فيه النوازل المستجدة التي لا سابقة لها في الشريعة المحكمة؟! ألم يتحدث العلماء والفقهاء أنفسهم عن باب المصالح المرسلة التي تقتضي أحكاماً لم تتقرر في الشريعة بنصوص قطعية، وعن باب التعزير في عقوبات لم ترد فيها حدود شرعية؟ لذلك وقعت الاختلافات في اجتهادات الفقهاء وفتاواهم وآرائهم، وتفرّعت المذاهب الفقهية. بل وقعت الاختلافات بين علماء المذهب الفقهي الواحد. وأقر العلماء مبدأ تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان وضرورات المصلحة. فإن لم يكن هناك تقنين لأحكام القضاة، صار للقاضي سلطة تقديرية أوسع من أن تضمن العدالة والانسجام والمساواة والتكافؤ، وأن ينضبط المجتمع بها على صعيد، فيعلم الجميع ما لهم وما عليهم، وما يترتب على أعمالهم من مسؤوليات قانونية رادعة.

وإذن ، فإنه حتى مع تحكيم الشريعة ، لا بد من التقنين ووضع مدونات قانونية موحدة تغطي المساحات التي لم ترد فيها أحكام شرعية وهي الأوسع، وتثبت من آراء الفقهاء المختلفة ما يرى أنه أقرب إلى المصلحة. وهذا بالطبع يقتضي وجود نوع ما من السلطة التشريعية.

وهنا لا بد من التفريق بين الشريعة والتشريع. فالأحكام التي لم يرد فيها نص قطعي، وإنما اقتضتها المصلحة والضرورة المستجدة، ليست شريعة في ذاتها، وإن كانت ملزمة بقوة القانون. إنما هي تشريع من اجتهادات المشرعين في ضوء تقديرهم للمصلحة. ولذلك يمكن أن تتغير مع تغير التقديرات والظروف. ومن خالفها خالف القانون لا أوامر الدين. وإلا وقعنا فيما حذر منه رسول الله ﷺ من نسبة الاجتهاد البشري الذي يخطئ ويصيب إلى الله سبحانه. وهو كذلك ما حذّر منه عمر كما أوردنا آنفاً. فالدولة يمكن أن تقيّد المباح نفسه بسلطة القانون على مقتضى الظروف والمصلحة، كالتعامل

مكتبة الربيعي أحمد

التجاري مع جهة خارجية معيّنة، أو الزواج من الأجانب. وهذا لا يجعل المباح أصلاً حراماً بالمعنى الديني، إنما يجعله ممنوعاً بالمعنى القانوني التشريعي.

.. المدونات القانونية الموحدة والملزمة ركن رئيس من أركان البناء الاجتماعي المتماسك وعامل حاكم في خلق النظام المؤسسي. كما أن المؤسسة القانونية التي تعمل بها هي واحدة من أهم وكالات الضبط الاجتماعي. وهي كذلك تعبر في العادة عن هوية المجتمع وفلسفته. فهي بعبارة مختزلة تسهم إسهاماً رئيساً في تعريف المجتمع. ولذا فإن افتقار المجتمع الإسلامي القديم إليها عجل بتفكك النظام الاجتماعي وكيانه العضوي بوصفة حاضنة النشاط الحضاري.

يضاف إلى ذلك كله، أن النظام الفقهي القضائي في تلك العصور لم يشتغل على تقييد سلطة الحاكم ولا على تنظيم الهيكل السياسي للدولة. فقد بقي السلطان مطلق اليد في فرض المكوس والتصرف في أموال الخزينة وفي إيقاع العقوبة بمن يشاء من مصادرة الأموال والنفي والتعذيب والحبس والقتل، على هواه دون رادع أو مسؤولية أمام أحد. وكان يكفي أن يسخط على أحد لأسباب شخصية لينكبه وينكب معه أسرته دون لائحة اتهام تعرض أمام القضاء. وما الحاجة إلى ذلك وقد جرى الترويج لفكرة «ولي الأمر» الواجب الطاعة وإن طغى وتجبر، إلا أن يعلن كفراً بواحاً!! فغاية ما يمكن أن يواجه به مواعظ وتوجيهات أخلاقية وتخويف من عاقبةَ الظلم المؤجلة إلى يوم الحساب! وفضلاً عن وجوب الطاعة لولي الأمر مهما يبلغ من الجبروت والبطش والطغيان، جرى الترويج لفكرة مساندة وهي أن «الفتنة أشد من القتل»؛ والمعنى أن الخروج على السلطان يفضي إلى فتنة ومفسدة أعظم من بغيه وظلمه. فهو أهون الشرين، وكأن المجتمع لا خيار له إلا الموازنة بين الشرور ودفع أحدها بآخر أشد منه. وهل ثمة ما يحصن الاستبداد والطغيان أكثر من هذا؟! وما يزال الترويج لهذه الفكرة الخطيرة قائماً حتى وقتنا الحاضر، يفيء إليها المستبدون ويذكر بها مشايخ ووعاظ كثيرون، فتوصف الثورات الشعبية وحركات الاحتجاج بالفتنة التي تساوي بين الجلاد والضحية، ويدعى الناس إلى تجنب الفتن التي لا تأتي بخير. ومعنى الفتنة يحيل إلى التنازع الذي يلتبس فيه الحق بالباطل وتراق فيه الدماء بلا جدوى وبلا طائل. فالأولى اجتنابها استبراءً للدين وحقناً للدماء. وهكذا نرتد إلى الذريعة القائلة: إن وضع الاستبداد القائم خير من البديل الذي ينذر بالفوضى وانعدام الأمن، وكأن الاستبداد شرط الأمن والسلام الأهليّ.

مكتبة الربيعي أحمد

وكما أن التاريخ الإسلامي لم يشهد تطور أحكام قانونية تقيد سلطة الحاكم، فإنه كذلك خلا من أحكام تنظم الهيكل الإداري للدولة وتحدد المسؤوليات والصلاحيات والعلاقات بين فروع الدولة ومؤسساتها. فالكل رهن بمشيئة الحاكم.

إن غياب التقنين على نحو ما ذكرنا كان عامل ضعف وانحدار كامن حتى في العصر الذهبي لدولة الإسلام. ومع تواطؤ عوامل الضعف والانحدار الأخرى ظهر أثره السيء بقوة مع تراخي الزمن.

وفي المقابل، نجد أن التقنين في تاريخ الغرب الأوروبي، كان عامل قوة كامنا، حتى في أحلك عصور الظلام. وقد تأسس هذا التقليد في القاعدة الكلاسيكية الإغريقية الرومانية. وكان عاملاً رئيساً في مأسسة الدولة والإدارة الحكومية. فمنذ ذلك الحين، كان ثمة مؤسسات مختصة بالتشريع ووضع القوانين الموحدة الملزمة، مثل مجلس الشيوخ في روما. وإذا كان الرومان لم يضيفوا الكثير إلى التراث الفسفي والفكري اليوناني، فإن أحد إسهاماتهم الرئيسة كان التطوير القانوني لتنظيم إدارة الجمهورية ثم الإمبراطورية، وتحديد الصلاحيات والمسؤوليات وهيكل الدولة ومؤسساتها.

ومن المعلوم أن المراجع القانونية في أطوار التاريخ الأوروبي منذ الرومان كانت تعبر عن طبيعة النظام الإجتماعي والسياسي والاقتصادي، وتُفَصَّل لخدمة مصالح النخب الحاكمة والهيكل الطبقي، وتفتقر من ثم إلى الشمولية والعدالة. ولكن وجود القاعدة القانونية بغض النظر عن مدى عدالتها. قد عمل على تعزيز دور القانون والتنظيم المؤسسي في الضبط الاجتماعي والاداري وتماسك الدولة. ومع التطور الاجتماعي الاقتصادي السياسي، تضغط القوى الاجتماعية الناشئة لتطوير القاعدة القانونية وتوسيع الدائرة الحقوقية نحو مزيد من العدالة والشمول، تعبيراً عن التحولات الاجتماعية. وكل ذلك يضمن التطور مع التواصل في سياق التاريخ الاجتماعي. تاريخ القوانين في أوروبا وتطورها، يرتبط عضوياً بتطور النظام الاجتماعي وتطور هياكل الدولة ومؤسساتها، وما كان لأوروبا أن تتحول تدريجياً إلى النظم الديموقراطية الحديثة بدون تطور القاعدة القانونية الناظمة للحياة السياسية والاجتماعية معاً.

هل خسرت قارئي في حديث النكد هذا عن جذور الانحطاط العربي الإسلامي، بينما هو يبحث عن الشخصي والذاتي فيما يفترض أنه سيرة ذاتية؟. ولكن، هل أنا إلا

مكتبة الربيعي أحمد

وعيي الشقي بأسئلة التاريخ والواقع والهوية والآخر؟ وما هي عندي برياضة ذهنية ولا نشاط فكري خالص. فبها أعيش وأحب وأكره وأخاصم وأغالب الكآبة والغضب والإحباط. وهي ما أواجه في الشارع ونشرات الأخبار وأنماط السلوك اليومي والعلاقات الاجتماعية والجامعات والأوضاع السياسية، مثلما أعاينها في سلوك الموظف الحكومي وعامل النظافة، وفي قيادة السيارات والتعامل مع البيئة والحيوان. لا ، ليست هذه قضية فلسفية أو فكرية نخبوية، إنما هي الواقع الذي نعيشه بكل تفاصيله: من اغتصاب الأوطان وتغلب الغزاة، إلى جرائم الطغاة، إلى فساد النخب ونهب الثروات، إلى وأد المواهب والكفاءات والحريات، إلى اضطهاد المرأة وتهميشها، بل وأدها معنوياً وربما قتلها جسدياً بدعوى الشرف الذي انحصر معناه فيها، إلى سفك الدماء في الساحات والميادين وأقبية الدولة الأمنية، إلى ظواهر الاقصاء المتبادل والكراهية والهويات الحائرة المتقاتلة...... هل هناك ما هو شخصي أكثر من هذا؟

وعيي هو ما يُعَرّفني. والمعاني التي تحتشد فيه تصور لي نفسي والآخر، وتحدد سلوكي وعلاقاتي ومزاجي وانفعالاتي وشهاداتي. وهي في النهاية إرثي. فأي ذاتي وشخصي أكثر من هذا؟

قديماً قيل: «اعرف نفسك» لتعرف غيرها. وهو صحيح. وصحيح أيضا أن النظر في الآخر المختلف يدفعك إلى استكشاف نفسك وتعريفها من جديد. ولأسباب تاريخية ذكرتها سابقاً كان الآخر الغربي دائماً هو مرجع المقارنة، في كتابات المفكرين كما في درج الكلام اليومي سواء. فما زال أحدنا إذا ذكر عيباً في مجتمعنا قارن بالغرب، وإذا ذكر عيباً في الغرب قارنه بثقافتنا. ومنذ وطئت قدماي أرض إنجلترا للدراسة وأنا بين استبطان التراث واستبطان الآخر؛ فتعمقت في دراسة التاريخ الأوروبي تعمقي في دراسة التاريخ العربي الإسلامي. لم يستلبني سحر الغرب أسلحتي الدفاعية لأبرئه من مسؤولياته التاريخية عن المصائب التي أوقعها بنا، محتجاً له بالقول الفج الشائع «إنما فعلنا ذلك بأنفسنا»؛ ولم يصرفني الجانب المظلم في تاريخه عن مواجهة المظلم في تاريخنا وواقعنا من أسباب التخلف والضعف. فلنا أن نوزع المسؤولية بين ظلم الآخر وظلم النفس، أو بين عامل الداء الخارجي الذي يغزو الجسم، والبدن الضعيف المناعة. ولنا أن نحاكم

مكتبة الربيعي أحمد

المغالبات التاريخية محاكمة أخلاقية. ولكن شروط التاريخ لا تحتكم إلى الأخلاق، وإذا كان من المفهوم أن الضعيف لا حيلة له، فإن القوي كذلك محكوم بقوته ولا حيلة له في مدافعة تيارها الهادر وجوعها المتزايد، فكلما ازدادت تضخماً زادت حاجتها للغذاء من رصيد الفقراء والضعفاء. ولا أحد يتخلى عن أسباب قوته تطوعاً لينقذ روحه. ولكنه يستطيع أن يحتال على ذلك باختلاق غطاء أخلاقي وقناع إنساني يخفي الوجه القبيح الفظ للقوة، ويجعلها أكثر فاعلية وجاذبية وقدرة على التحكم في العقول والأفئدة، حتى ليرحب بها الضحية، ويفتن بها المغلوب، فلا يجد ما ينحو عليه باللائمة إلا ذاته! في علاقات القوة لا يحتاج القوي المتغلب في معظم الأحيان إلى إفناء المغلوب، فهو الموضوع الذي تشتغل عليه القوة وتستمد منه أسباب بقائها. ولكنه يحتاج إلى إذعانه وعماه وغفلته وغياب صوته. والقوي هو الأقدر على خلق المعاني التى نرى بها. فتكشف وتحجب ما شاء لها منتجها!

القوة لا يحد من شططها إلا تدافع القوى.

القوة ليست هي الحق ولكن هي الحقيقة!

ولقد يستدعي هذا كله سؤالاً مرّاً: هل كان يمكن أن يكون في التاريخ غير الذي كان؟

وجوابي السريع: لا. ما كان يمكن أن يكون غير الذي كان، في ظل الشروط التي أنتجت ذلك التاريخ. وخير دليل على ذلك أنه كان ولم يكن غيره!

ولكن هذا الجواب لا يعفي الفاعل الإنساني من المسؤولية الأخلاقية التي تقررها الإرادة. وإذا كانت الإرادة الراهنة لا تشتغل على الماضي المنصرم، فإنها تستطيع أن تشتغل على الحاضر والمستقبل للانعتاق من إرث الانحطاط الثقيل، وإلا فنحن شركاء في صناعته، إذ نصر على إعادة إنتاجه وتأبيده أو بالأصح إنتاج أنفسنا به حاضراً ومستقبلاً. بل يكون إسهامنا فيه أقبح من إسهام من أورثونا إياه. فالماضي لا يتحدث بنفسه عن نفسه؛ إنما نحن من ينطق به وعنه! وإنه لا يصنعنا إلا بقدر ما نصنعه.

الوارث هو عين الموروث!

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

حياة أكاديمية متقلبة

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. صدمة العودة من لندن

لم أتلبث في لندن بعد مناقشة رسالتي للدكتوراه وحصولي على الدرجة إلا أياماً معدودات. فقد كنت متلهفاً على العودة إلى عمّان والالتحاق بجامعتي الأردنية وفاء بالتزامي العمل فيها ضعفي المدة التي قضيتها مبعوثاً على حسابها. وما كان الوفاء بذلك الالتزام دافعي الأول للتعجل. فقد كان بوسعي أن أتلبث أياماً أخرى. ولكن ما القيمة الاجتماعية للدكتوراه لشاب لم يتجاوز السابعة والعشرين إلا بشهرين أو ثلاثة في مجتمع غربي لا يعرفه فيه إلا أساتذته وعدد من زملائه ومعارفه! كان حامل الدكتوراه والأستاذ الجامعي في بلادنا ما يزال في قمة الهرم الوظيفي والاعتبار الاجتماعي. وحين كنا طلبة في الجامعة الأردنية كنا ننظر إلى أساتذتنا نظرتنا إلى الغاية التي نرجو أن نسمو لها. وحين عينت معيداً مع آخرين جعلنا القرب من الغاية أكثر تلهفاً وتعجلاً على بلوغها. ومخالطة السلاطين تغوي الخليط بالسلطنة نفسها! وكم من نديم أو وزير فقد رأسه حين استسلم لذلك الإغراء وتلك الغواية! وما علم أن الخطوات الأخيرة هي الفيصل، وأنها على ظاهر قلتها أصعب وأخطر من سفر الليالي الطويل الذي سبقها. ولكن ما لنا وللسلاطين! فنحن في حديث المقدور عليه من الطموح العلمي والمهني. وإن كانت المشاكلة بين لفظ المعيد ولفظ العميد، توهم الأول بقرب الموقع والمكانة!

ها أنذا قد تأهلت أخيراً لمزاملة من كان أستاذاً لي، وللمشاركة في اجتماعات القسم وقراراته من موقع التكافؤ والندية. وما علي أن أواجه وأخالف وأختلف دون أن أخشى العواقب على مستقبل إيفادي ودراستي.

والآن فقط يمكن أن أستمع إلى الطلبة ينادونني بلقب الدكتور دون أن أشعر بالحرج الذي كان ينتابني أيام كنت معيداً حين يناديني الطلبة بالدكتور، تزيداً أو جهلاً،

مكتبة الربيعي أحمد

فيطربني اللقب ويحرجني عدم الاستحقاق، وتنازعني نفسي الأمارة بالسوء أن أتغافل عن الخطأ بينما تدعوني نفسي اللوامة إلى التصويب. فلا يغلب علي حس النزاهة حتى يكون الطالب قد أدبر وصار الوقت متأخراً على التصويب! وكفى بالنية عذراً!

وهكذا حزمت حقائبي على عجل وودعت لندن أوائل عام 1976، مع زوجي وطفلي البكر خالد الذي كان له من العمر بضعة شهور.

وداعاً لندن. مربط خيلنا التي لا تعدو ولا تصهل إلا في المخيلة العربية الخصبة.

وداعاً أيتها المدينة التي تحجب جمالها بالضباب فلا تكشف عنه إلا لمن لم يحتجب عنها وصبر على برودها الظاهر!

وداعاً ساحة الطرف الأغر التي تمجد صقور الحرب، وتؤوي الحمائم!

وداعاً بيكاديللي سيركس وليستر سكوير وكوفينت غاردنز Covent Gardens وحتى سوهو التي كانت تؤوي الرذيلة والأرواح البوهيمية المتمردة واللصوص والنصابين وأشباه الفنانين والمبدعين الذين ظنوا أن الفن والإبداع لا ينبتان إلا في قاع المدينة وهوامشها المنبوذة وزواياها المعتمة بين المومسات والقوادين والتائهين والسكارى وبائعي اللذة الرخيصة العابرة! (وقد تمكنت بلدية لندن بعد سنين من تنظيف سوهو وجعلها منطقة سياحية محترمة، ولم يخسر الفن والإبداع الحقيقين شيئاً. وانقشعت أوهام أشباه الفنانين والمبدعين مع تطاول العمر، وقنعوا أخيراً بأن غاية ما يمكن أن يبلغوه هو تقمص صورة الفنان المتسكع على أرصفة الضجر، فخلعوا ثيابهم المهترئة، وعادوا يطلبون من الدنيا ما يطلبه الآخرون على وفق مؤهلاتهم).

وداعاً مصانع الفكر والحكمة والمعرفة والعقل: الجامعات والمكتبات والمتاحف والمسارح

وداعاً لندن..

ها أنذا أعود منك بعد أن قضيت أوطاري البريئة. أخذت حاجتي منك ولم أبعك روحي وانتمائي. فأنا الآن أشد حباً لوطني وأكثر انتماءً لهويتي العربية الإسلامية، دون أن يلزمني ذلك كرهك وجحودك. والحق أنك لا تشترطين على طلاب الحاجة منك أن

مكتبة الرمحي أحمد

يبيعوا أرواحهم للشيطان، إذ لا سلطان له عليهم إلا من اتبعه من الغاوين رغبة واختياراً. وأنا منك كما من كل ثقافة ومجتمع، ومن ذلك مجتمعي. آخذ وأدع. أعرف ما أعرف وأنكر ما أنكر. أحب ما أحب وأكره ما ينبغي كرهه صيانة لما نحب!

كنت أحسب أني تركت لندن ورائي وأنا في طريق العودة. ولكن ما إن خرجت من مطار المحطة في عمّان واختلف المشهد حتى حضرت ملء وعيي ووجداني ومخيلتي، أشد خضرة وأكثر عظمة وبهاءً. وأدركت لأول مرة أنها قد استعمرتني عاطفياً واستوطنت وجداني بلا قهر ولا إكراه! لم تعجلّت في العودة وكان بوسعي أن أطيل أيام الوداع!

وإذا كنت قد احتجت إلى عام كامل حتى أتكيف مع بيئة لندن حين حللت بها، فلسوف أجد أني في حاجة إلى ضعفي هذه المدة لأتكيف مع غيابها، وأتحرر من بعض سلطانها العاطفي، لا كله! ستجدني منذ الآن بغير تدبير، أسرف في المقارنات، فلا أستدعي من تجربتي في لندن إلا أحسنها، ولا أرى من وجوه لندن وإنجلترا إلا أجملها. فأين التعقيدات الإدارية في بلادنا من كفاءة الإدارة وتسهيلاتها هناك! وأين مستوى التعليم عندنا من مستواه هناك! وأين إعلامنا من إعلامهم، وفوضانا من نظامهم، وفنوننا الساذجة من فنونهم، ومكتباتنا من مكتباتهم، واحترام البيئة والنظافة العامة عندنا وعندهم، والتزام القوانين بيننا وبينهم.... وسوف أتجاهل في غضون ذلك الدهاء الإنجليزي الذي يلتبس عندنا بالخبث، والعنصرية الظاهرة أحياناً والمستترة أحياناً أخرى.

ولكي يبرأ المتمدح بالغرب على ذلك النحو من تهمة الاستلاب والاستغراب، فلا بد من أن يقدم للمديح الآتي بديباجة مكرورة يذم بها الاستعمار وتاريخه وما خلفه من مصائب ومرارات، ويدين السياسات الرسمية الراهنة وتحيزاتها ضد القضايا العربية، فضلاً عن الانحطاط الخلقي. فإذا ظن أنه تحصّن بذلك من التهمة انطلق في نشيد المدائح والذكريات الجميلة والشوق والحنين. وتمنى لو يعاد إيفاده ليبدأ من جديد في مجال علمي آخر! وغبط الموفدين الجدد الذين يستقبلون من الغرب الجميل ما استدبر. ولأول مرة، يبدو لقب «المعيد» الذي ينتظر الإيفاد، أكثر إغراءً من لقب «العميد»! ولربما استعان العائد المشوق في كلامه ومقارناته ببعض التعابير والألفاظ الإنجليزية التي يتبعها فوراً

مكتبة الرمحي أحمد

بترجمتها العربية خشية أن يضل فهم المستمع! ولربما فعل ذلك أحياناً لأنه استدخل المفهوم بالإنجليزية ابتداءً، فإذا استدعاه جاء عفواً بأصل لفظه الأجنبي، ثم استدرك عليه بالترجمة. وفي ذلك عذر. وفي أحيان أخرى، يستدعيه تجملاً واستعراضاً لأثر تحصيله العلمي وتجربته الدراسية في بلاد الغرب! وذلك قبل أن ينحسر سحر التحدث بالإنجليزية مع تزايد أعداد المتقنين لها من أبناء المدارس الخاصة والدارسين في جامعات الدول الناطقة بالإنجليزية، وكثير ممن أحاط بهم طائف العولمة أو «الأمركة» منذ نعومة أظفارهم.

وفي الشهور التي أعقبت عودتي من لندن، أسهمت ظروف عملية وموضوعية في تضخيم حنيني إليها ورغبتي في العودة لو استطعت إليها سبيلاً. إذ كانت الأردن في أواسط السبعينات من القرن الماضي تشهد طفرة هائلة في الطلب على العقارات شراءً أو استئجاراً، فاشتطت الأسعار مع زيادة الطلب على العرض. وبدت عمّان ورشة بناء. فإن بحثت عن شقة تستأجرها عز عليك أن تجدها. وإن وجدتها لم تطق القيمة المطلوبة. وقد نزلت ضيفاً على بيت عمي أبي جهاد (د. محمود إبراهيم) عند عودتي، ريثما أجد شقة أقدر على أجرتها. وحسبت أنني أبلغ حاجتي في أيام أو أسابيع معدودة. ولكن الأمر استطال شهوراً، حتى ضقت ذرعاً، وأفسد الحال عليّ اعتزازي بلقب الدكتور. فأي تفاخر لأستاذ جامعي لا يجد سكناً يؤويه! ولما نفد صبري بعد ستة شهور من العودة، وكنا قد دخلنا في الإجازة الصيفية، وجدت في الحال مخرجاً أخلاقياً للعودة إلى لندن، والتهرب من التزامي العمل في الجامعة الأردنية. ألم أتعجل العودة فور حصولي على الدرجة؟ ألم أبذل كل جهد مستطاع للعثور على شقة تؤويني وأسرتي الصغيرة؟ وهل ينبغي أن يكون لي عم محب في عمان يؤويني ريثما أجد سكناً مستقلاً؟! وما كان علي أن أفعل لو لم يكن لي مثل هذا العم في ظرف كهذا الظرف؟ بلى، قد بلغت عذري وألزمتني الضرورة التي تبيح المحظور، وغدوت في حل من إملاءات الوفاء بالتزامي تجاه الجامعة. وهكذا عزمت على الرحيل. وكانت تأشيرة إقامتي طالباً في بريطانيا ما تزال نافذة. وكانت لدي فرصة للعمل هناك.

تواطأت على الخطة مع زوجي. ولم نعلم بها أحداً، لاسيما عمي، تجنباً للحرج والضغوط. فإذا حان وقت الرحيل تظاهرنا بأنها زيارة حسب. ولكن بقيت مشكلة واحدة. إذ إن كفيلي في عقد المنحة والالتزام هو عمي نفسه. فإذا تهربت صار ملزماً بسداد ضعفي ما أنفقت الجامعة على دراستي. وما كنت لأعرضه لهذا مهما تكن الأسباب.

مكتبة الربيعي أحمد

المروءة تأبى والوفاء كذلك. ولذا اخترت مخرج الصدق مع الدائرة المسؤولة عن عقود المنح والتزاماتها في وزارة المالية. فقابلت المسؤول، وشرحت له الخطة وأسبابها دون مواربة، وأني لا أريد توريط كفيلي على أي حال، والبديل أن يتفهم الوضع فيوافق إن شاء على أن أسدد قيمة الكفالة تقسيطاً وفق النظام. فاستحسن الرجل الصدق، ووافق على العرض. وبذلك لم يبق إلا السفر.

ولما ذهبت إلى أحد المكاتب السياحية للحجز، أعلمني الموظف أن المقاعد كلها محجوزة في الفترة المحددة. ولا يملك الآن إلا أن يضيفني وزوجتي وطفلي على قائمة الانتظار، ولكنه طمأنني بأن الراجح تثبيت الحجز قبل الموعد. فما زال في الوقت متسع. وقبل أن أراجعه في الأمر وقد اقترب الموعد وأعددت له عدّته، فاجأني أستاذي الدكتور محمود السمرة، نائب رئيس الجامعة للشؤون الأكاديمية، بمكالمة هاتفية على هاتف منزل عمي، ليطلب مني مقابلته في مكتب رئيس الجامعة نفسه: الدكتور إسحق الفرحان. وأبى أن يبيّن لي غرض المقابلة. وعلمت عندئذٍ علم اليقين أن عمي قد اكتشف خطتي. وأن اللقاء المطلوب أمر بيت بليل بين عمي ورئاسة الجامعة.

حين دخلت مكتب الرئيس وجدت عنده نائبيه: الدكتور محمود السمرة والدكتور رشيد الدقر (نائب الرئيس للشؤون الإدارية)، و... نعم، عمي كذلك!

تولى الرئيس مخاطبتي بكل لباقة ولطف ومودّة. فبدأ بالثناء الغامر. ثم قال:

-ما خَبَرٌ بلغنا أنك تنوي السفر والتخلي عن عملك في الجامعة؟

فصدقته القول، واعتذرت بأسبابي، وأني لا أجد خياراً آخر. فكان مما قال:

-تعلم تقديرنا لك، وإعجابنا بك. وكان بوسعنا أن نستغني عن هذا اللقاء، ونكتفي بمخاطبة سلطات المطار لردّك منه بوصفك ملتزماً حسب النظام. ولكن ما كنا لنسلك هذا الطريق تقديراً لك. فآثرنا سبيل التفاهم والإقناع. ثم نترك الأمر لقرارك.

حاولت التهرب من إعطاء وعد قاطع بالرجوع عن قراري، على الرغم من إلحاح الدكتور السمرة بصفة خاصة. فاكتفيت بعبارة تحتمل التأويل وتعد بالخير.

ووجدتني بعد ذلك في حيرة من أمري لا أهتدي إلى رأي. ودعوت الله أن يختار لي. ولكني مع ذلك توجهت إلى المكتب السياحي قبل يومين فقط من موعد السفر، وقد

مكتبة الربيعي أحمد

أسلمت نفسي لإرادة الله. فإن وجدت أنه قد تم تثبيت الحجز، مضيت في خطتي، وإلا عدلت عن الخطة بجملتها. وشاء الله ألا يثبت الحجز. وكفى الله المؤمنين القتال.

بعد أسبوع فقط، وجدت شقة توافق القدرة والطلب. وتبدّد أمل الرجوع إلى لندن والاستقرار فيها. ولكن لندن لن تغادر مخيّلتي لوقت طويل. ففي كل يوم أسترجع تفاصيل المشهد اليومي الذي ألفته في إقامتي هناك، وكان يبدو لي أمراً مفروغاً منه حتى فارقته. فأمشي من بيتي في بلدة بيرلي Purley جنوب لندن، إلى محطة القطار، مروراً بالطريق المنحدر الذي تحفه الأشجار الباسقة من الجانبين إلى مركز البلدة، حيث دكان بائع الآيس كريم ثم سوبرماركت سينزبريز Sainsburys، لأقطع الشارع الرئيس مصعّداً، ثم ألتف إلى الشمال مع طريق فرعي يفضي إلى المحطة. وهناك دكان لغسل الثياب وكويها يملكه رجل مسن خدم في فلسطين أيام الانتداب، وصار بوسعه الآن بعد أن تحرر من التزامات الوظيفة أن يعبّر عن تعاطفه مع الشعب الفلسطيني ويقر بدور بريطانيا في خلق نكباته ومآسيه. وفي مجرى حديثه يستدعي بعض الكلمات العربية والتعابير الفلسطينية، ويذكر أسماء المدن والقرى التي خدم فيها. وإذ أجزم بصدق مشاعره، في تلك اللحظات، فإني أجزم كذلك أنها ما كانت لتردعه أيام خدمته شاباً في فلسطين عن النهوض بواجبات وظيفته بإخلاص وإتقان، مهما تكن جائرة بحق الشعب الفلسطيني. فالإنجليزي يحسن الفصل بين عواطفه ومواقفه الفردية الذاتية من جهة، وبين مقتضيات وظيفته مهما تكن متعارضة مع الأولى من جهة أخرى. فالإخلاص لدولته ولعمله فيها مقدّم على أي اعتبار ذاتي. وحديث الضمير مؤجل إلى ما بعد إنجاز المهمة. وليس عليه أن يلوم نفسه فيما لا يدخل في نطاق إرادته ومسؤولياته وتخصصه. فسياسة الدولة وقرارات الحرب والسلم من عمل الزعماء والساسة. واحترام الاختصاص والتراتب الوظيفيين من عقائد الدين المدني. وكل ذلك نتاج حداثة غربية اندمجت فيها مفاهيم العقلانية (أو الترشيد) Rationalism، بالبيروقراطية (ومعناها الأصلي التجرد من الاعتبارات الشخصية، وتحكيم اللوائح والنظم في العمل والإدارة. وذلك بخلاف ما آل إليه المعنى عندنا إذ يفيد التعقيدات الإدارية المفرطة)، والاحترافية Professionalism، والتخصص الوظيفي المجتمعي Differentiated Society. وبقدر ما أسهمت هذه المفاهيم مجتمعة في تقدم المجتمع الغربي وقوته، أسهمت كذلك في قسوته وجفوته ووحشته. فمطلب

مكتبة الربيعي أحمد

الكفاءة في الإنجاز يمكن أن يضحّي أحياناً بالاعتبارات الإنسانية والأخلاقية التي تلابس المهمة!

أجاوز موقع دكان تنظيف الثياب خطوات فقط لأنعطف يميناً نحو بوابة المحطة حيث يقف دائماً عجوز يخرّم التذاكر ويتحدث بلكنة الطبقة العاملة اللندية الثقيلة، وقد ألف أحدنا الآخر مع توالي الأيام. واعتاد أن يراني أصل راكضاً لاهثاً لأدرك القطار في الموعد. فإن فاتني كان على أن أنتظر نصف ساعة أخرى حتى يصل التالي. فيفوتني موعد المحاضرة أو اللقاء مع مشرفي. والإنجليز مشهورون بدقة مواعيدهم، حتى صاروا مثلاً، فإذا أراد أحد أن يشدّد على ضرورة التقيد بالوقت المضروب قال: «وقت إنجليزي» (English time). وغاية التسامح في تجاوزه زهاء خمس دقائق. وإلا صار الآخر في حلّ من موعده معك، والتثريب عليك.

أجلس في القطار أجفف عرق الهرولة. وكم من مرة أدركت القطار مع صافرة الانطلاق، فغامرت بفتح باب المقطورة والقفز فيها.

أصل محطة Charing Cross. فإذا كانت وجهتي بناية هيئة الإذاعة البريطانية في أولدويتش، مضيت إليها مشياً من المحطة على شارع ستراند، وإذا كانت وجهتي كلية الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن حيث أدرس، ركبت الحافلة إلى رسل سكوير Russel Square المجاورة للكلية التي تقابل بناية الإدارة المركزية للجامعة المسماة Senate House.

لم يكد يمضي يوم في العام الأول بعد عودتي من لندن، دون أن أسترجع في ذاكرتي مشاهد حياتي اليومية فيها، حتى ضقت ذرعاً بتسلطها على مخيلتي ووجداني، فبدأت أقاوم، فأنجح أحياناً، وأخفق أحياناً أخرى. حتى تحررت بعد حين. فالتعلق بالشيء ضرب من العبودية. وكفاني من العبودية إدماني على التدخين منذ كنت في السادسة عشرة من عمري. (وها أنذا الآن أدخن إذ أكتب هذا، فأشد ما تكون حاجتي إليه وقت الكتابة والنقاش والفرح والضيق! وهل مواقف حياتي إلا واحدة من هؤلاء؟!).

ومما أعانني على التحرر من تسلط لندن العاطفي عليّ تكرار زياراتي لها. فليس كالزيارة شفاءً للمشوق. وبعد عشرة أعوام على فراغي من الدراسة والإقامة فيها، سوف

مكتبة الرمحي أحمد

أعود إليها مقيماً تارة أخرى مصاحباً لزوجي التي التحقت بإحدى كليات جامعة لندن للحصول على الدكتوراه في علم الاجتماع الطبي. وبذلك يعتدل الميزان. صحبتني في دراستي، وها أنذا أصحبها في دراستها. وقد حسبت أني أسترجع في لندن أيامي الخوالي وأستأنف ما انقطع على كره مني. ولكن، هيهات هيهات! فإنك لا تعيش التجربة نفسها مرتين، وإذا انصرم الماضي فلا رادّ له، وليس له وجود إلا في المخيلة والذاكرة! فلا أنت الشخص نفسه، ولا العالم الذي اختبرته قديماً يبقى على حاله. فالآن أقيم ومعي ولدي خالد قد بلغ الحادية عشرة من عمره، وابنتي ليانة في الثالثة والنصف من عمرها. فإذا خرجت زوجي إلى كليتها كان علي أن أعتني بليانة وأن أنتظر بقلق عودة خالد من المدرسة مشياً. وعلى الرغم من أن المدرسة على بعد عشر دقائق من البيت مشياً أو نحو ذلك، فإن رداءة الطقس وسقوط الثلوج الغزيرة أحياناً يبعثان المخاوف والوساوس فلا تنقشع حتى أسمع طرقة الباب. وأسوأ من الطقس انتشار الجريمة في ذلك الحين من خطف الأطفال والفتيات والجرائم العبثية. أو هكذا كانت تطالعنا أخبار التلفاز اليومية، حتى تحسب كل صيحة عليك. لا، ليست هذه لندن التي عشت فيها سابقاً حين كان بوسع الفتيات أن يرجعن من الحفلات في جوف الليل، فلا يتلفتن وراءهن ولا عن أيمانهن وشمائلهن كلما سمعن وقع خطوات قريبة. والآن إذا وجدتني ماشياً على رصيف وأمامي فتيات، تعمّدت أن أنتقل إلى الرصيف الآخر، ثم غَذَذْتُ السير لأسبقهن فأبدد مخاوفهن.

وإن أنس من الأشياء فلا أنسى يوماً تساقطت فيه ثلوج عظيمة لم تشهد مثلها البلاد منذ أمد بعيد، حتى أطلقوا على الحال وصف «التجمد الكبير» Big Freez . وكنت أتابع الأخبار في المنزل، بينما كانت زوجي إيمان في كليتها وخالد في مدرسته. وما هي حتى أعلن أن الثلوج قد عطلت الطرق وأوقفت جلّ القطارات والسيارات. وهنا غمرني قلق شديد. ولم يكن ثمة هواتف جوالة في ذلك الحين. بل إن الكثير من خطوط الهاتف العادية قد تعطّل كذلك. وما كان بوسعي أن أفعل شيئاً إلا الدعاء والانتظار. ثم وصلت زوجي فتنفست الصعداء. ولم تكن فترة دوام المدارس قد انتهت، فانتظرت وصول خالد في موعده المعتاد بفارغ الصبر. فلما فات الموعد زاد قلقي، ولكني تعلّلت بأن الثلوج تبطّئ السير فلا داعي للفزع والجزع. وكتمت قلقي عن إيمان، فهي في العادة أدنى إلى المخاوف والوساوس مني، إلا أن تراني مطمئناً متماسكاً فتستقوي بذلك. فإذا رأت الآن قلقي

مكتبة الربيعي أحمد

تضخم عندها أضعافاً. ولكن بعد مرور وقت آخر لم يبق في القوس منزع. فهاتفت المدرسة مستفسراً. وهنا كانت الصاعقة. أخبرتني الموظفة أن المدرسة قد أعادت التلاميذ إلى بيوتهم قبل الموعد بساعات بسبب تفاقم الوضع الجوّي وتراكم الثلوج.

انهارت زوجي إلى الأرض باكية ضارعة. واتصلت فوراً بالشرطة. فوصل شرطي وشرطية بعد وقت بسيارة مجهّزة للسير على الثلوج، وقد بلغ بنا الجزع مبلغه، وتصورت في نفوسنا أسوأ الاحتمالات والكوابيس. وطفقت زوجي تنحو على نفسها باللائمة. فلولا رغبتها في استكمال دراستها العليا في لندن لما كنا هنا ولما كانت هذه المصيبة. وقد بلغ الهلع ذروته حين استخرج الشرطي استمارة تخص المفقودين ليملأها بالمعلومات. إذن فقد دخل ولدنا رسمياً في عداد المفقودين. وقليلاً ما يرجع المفقود.. حياً! وما إن بدأت في إعطاء المعلومات، حتى سمعنا طرقاً على الباب. فسارعت إليه برجاء الغريق في خشبة طافية. وهناك وجدت ولدي سليماً معافى، فتنازعت وأمه احتضانه، لكأن الله تعالى قد ردّه إلينا بعد أن ظننا كل الظن أنا فقدناه. وهو في دهشة وحيرة من الموقف، ومن وجود شرطيين في البيت. تدخل الشرطي فوراً وسأل:

–أين كنت، وما أخرك إلى هذا الوقت، وقد سَرّحتكم المدرسة مبكراً؟ هل تدرك مدى الهلع الذي أصاب والديك؟

فأجاب وهو ينظر إلي وإلى أمه بنظرة حائرة:

–ألم أذكر لكما البارحة أن فريقنا يلعب اليوم مباراة في كرة السلة مع مدرسة كريستال بالاس Crystal Palace، وأني بذلك أعود متأخراً بحافلة المدرسة؟

وكان خالد يلعب في فريق الناشئين الخاص بمدرسته. ولعله قد ذكر لنا خبر المباراة المرتبة بأسلوب عابر لم يستقر في أسماعنا وأذهاننا. ولم تنتبه موظفة المدرسة التي هاتفتها إلى هذا الاحتمال أو كانت تجهله. وما كان ليخطر ببال أحد أن المدرسة تلتزم إجراء المباراة في تلك الظروف الجوية الاستثنائية. ولكن، هكذا هم الإنجليز، لا يصدّهم عن خططهم ظرف يرون إمكانية التغلب عليه، إلا أن تنقطع الأسباب نهائياً!

غادر الشرطيان بعد اعتذار منا، وكلمة ناصحة منهما.

مكتبة الربيعي أحمد

على الرغم من احتفالنا بانقشاع الغمة، أورثتني تلك التجربة القاسية شعوراً بعدم الارتياح في مقامنا في لندن ذلك الحين. ولذا سرّني أن يقتضي بحث زوجي للدكتوراه عملاً ميدانياً في مخيم البقعة لجمع مادة البحث، عبر مقابلات مع جملة من نساء المخيم من أعمار ومستويات تعليمية مختلفة. وذاك يجيز عودتنا إلى عمّان بعد انقضاء العام الأول من دوام زوجي في كليتها في لندن. ولا حاجة للإقامة الدائمة بَعْدُ هناك. ولكن على زوجي أن تسافر إليها من حين إلى آخر في إقامات مؤقتة للتدارس مع مشرفها حول تقدّم البحث. وهكذا كان. وشتان ما بين عودتنا الآن من لندن، وعودتنا منها عند انقضاء دراستي فيها. فالآن أغادرها متحرراً من سلطتها العاطفية. فإن زرتها بعد الآن فعلت على شرطي لا شرطها. وعلى الرغم من أن زوجي بقيت على ودّها القديم للندن، فإن زياراتي الكثيرة إلى عواصم العالم الشرقي والغربي، وإقاماتي في بعضها مدداً، قد بدّدت إلى الأبد تعلّقي المفرط بتلك المدينة العظيمة. فالعالم مليء بالمشاهد والشواهد والمآثر والروائح والمذاقات والثقافات والآفاق المفتوحة الواعدة. ومن الجور على النفس أن تنقطع لواحدة منها إن كان في وسعك أن تنتشر في الأرض وتبتغي من فضل الله.

هذا كله من تداعيات الحديث عن عودتي إلى عمّان بعد فراغي من الدراسة في لندن. ولقد وجدت بعض العزاء عن فراق لندن وعما كابدته في بحثي عن سكن مستقل، في التدريس بالجامعة الأردنية. وكانت ما تزال في عنفوان شبابها من حيث مستوى الأداء الإداري والتعليمي، حين كانت الكفاءة معيار التعيينات أو معياراً أساساً على الأقل، وقبول الطلبة مبنياً على التنافس النزيه بنتائج الثانوية. وذلك بخلاف ما آل إليه الحال بعد سنين.

ولم أكن مزهواً بلقب الدكتور بقدر زهوي بأني كنت أصغر الأساتذة سناً في كلية الآداب على الأقل، وربما في مجمل الجامعة، ولم يكن هذا أمرا مألوفاً من قبل. إذ لم يكن من المتاح لمعظم الجيل السابق أن يتابع دراسته حتى الدكتوراه، إلا أن يتخلل ذلك فترات عمل يدخر فيها طالب العلم ما ينفق به على دراسته مع إنفاقه على أسرته.

وما كان يزيدني خروجاً عن المألوف مظهري الخارجي الذي لا يوافق الصورة التقليدية النمطية للأستاذ الجامعي الرصين الذي يرتدي «بذلة» وربطة عنق، ويحرص

مكتبة الربيعي أحمد

على أن يكون شعر رأسه قصيراً. أما أنا فكان مظهري مظهر شباب السبعينات من القرن الماضي؛ الشعر الكث الطويل (ولأنه جعد خشن بالطبيعة، فقد كان مثل أجمة ضخمة لا تنسدل). وبنطال «الجينز» الذي يضيق أعلاه ويعرض أسفله. والقميص الضيق الملاصق للجسم ذو «القبة» العريضة التي تمتد حتى طرفي الكتفين، والجزمة ذات الكعب المرتفع بعض الشيء. (لا لم أكن أرتدي سلسلة معدنية حول عنقي، ولا أفتح أعلى القميص لأكشف أعلى صدري!). وهكذا حين دخلت قاعة المحاضرة الأولى وجدت الطلبة على عادتهم قبل وصول المدرّس بين واقف وجالس يتبادلون الحديث، وقد أحاط بعضهم بكرسي المعلم وطاولته. فما التفتوا لدخولي ولا انصرفوا عما هم فيه، حتى شققت طريقي إلى كرسي المحاضر، ووضعت أوراقي على الطاولة ثم طرقت بقبضتي عليها وأنا أرسل بنظرات صارمة ثابتة توحي بسلطان الأستاذ. فبدأت الأصوات المختلطة تخمد بينما اتجهت إلي أنظار حائرة متعجبة. أهذا أستاذ المادة؟ وحين بدأت بالكلام انقطع الشك باليقين وسكنت الأصوات إلا من همسات الدهشة. والحق أن مظهري غير التقليدي بقي يثير عند الطلبة مزاجاً من التعجب والإعجاب، بينما كان زملائي وأساتذتي السابقون ينظرون إلي نظرة تمزج بين التعجب والاستنكار المكبوت. وكنت أنتمي أليهم من حيث المهنة والمكانة، وأنتمي إلى الطلبة من حيث التقارب العمري. وكان توزع الانتماء على ذلك النحو امتيازاً أمكنني من أن أبلغ من عقول طلبتي وأفئدتهم ما لا يبلغ الكهل مع فجوة الأجيال، مسلحاً بسلطة المعرفة من جهة، وتفهم الحاجات والتطلعات من جهة أخرى.

والحقيقة أن مظهري كان دائماً مصدر إرباك وحيرة لكثير من الناس الذين لا يعرفونني حق المعرفة. فمن كان متحرراً حسبني على مذهبه، ولربما أغراه مظهري بأن يقاربني بكلام وأفكار تتعارض مع التزامي الديني، حتى اجادله بآرائي فيداري صدمته ما وسعه ذلك، ويعيد صوغ كلامه السابق لرفع الحرج. ولربّ فتاة غلب عليها الإعجاب والميل العاطفي حتى كادت لتبدي به، وما زالت تتذرع بمراجعتي في شؤون العلم والثقافة والأدب لتأنس بالجلوس إلي في مكتبي، دون تجاوز لمقتضيات الحشمة والحياء، حتى تدخل مكتبي يوماً فتجدني على سجادة الصلاة ساجداً لله سجداً طويلاً، فتنسل راجعة بهدوء، لتنقطع مراجعاتها بعد ذلك!

مكتبة الرمحي أحمد

ومن كان متديناً أوهمه مظهري أني لست على دين. ولربما استقرّ عنده أني من أهل اليسار في التصنيف السياسي، ومن أصحاب الشمال في التصنيف الديني. فإذا انتهى إليه أني مقيم على صلاتي وعبادتي وأني مجتهد في ديني قنع أن يصفني بالتناقض تأثراً بالغرب الذي درست فيه. وإذ كنت كذلك فلا يؤخذ مني في أمور الدين والفكر الإسلامي، وأفكاري التجديدية موضع شبهة! وربما دار الكلام على خلفيتي اليسارية والفتحاوية. ويعزز ذلك أني ما زلت أنافح عن مفاهيم العدالة الاجتماعية، ولا أسقط دور الصراع الطبقي في تفسير الظواهر التاريخية والاجتماعية (وإن لم أجعله المحدد الجامع المانع)، وكل ذلك يحيل في الأذهان إلى الاشتراكية؛ وما زلت أنافح عن الوحدة العربية وأنفي التناقض بين العروبة والإسلام، وأتهم التجزئة القطرية بأنها أصل الداء ورأس البلاء، وذلك يحيل إلى الفكر القومي. وحتى الحماس للقضية الفلسطينية وتأكيد أنها القضية المركزية، والدعوة إلى الجهاد والكفاح المسلح من أجل التحرير، يحيل في بعض الأذهان المكبّلة «بالدوغما» الإيدولوجية إلى «الوطنية» الضيقة، وربما إلى العنصرية الجهوية!

وإن لم يكن هذا كافياً لترسيخ شبهة التناقض والالتزام الديني المنقوص، فإن شعري شاهد صارخ. فأي شاعر متدين يقول مثل ذلك الشعر الذي إذا سمعته أو قرأته لم ينبئك عن انتماء صاحبه الديني، وجاز للعلمانيين واليساريين وغير الإسلاميين على الجملة أن ينفعلوا ويحتفوا به؟ أين حضور الوعظ والإرشاد والدعوة فيه؟ وما باله بدلاً من ذلك يستحضر ما يستحضره الشعراء بعامة: الأنثى الساحرة الباهرة التي تلقي بأنوثتها على الغيم والشجر والحجر، فتؤنث العالم في مخيلة الذكورة المشحونة بالأشواق والرغبات وهاجس البحث عن تمام إنسانيتها!

والحال أن من يقوّم الشعر بمثل هذه المعايير الإيدولوجية (سواء أكان إسلامياً أم علمانياً) فهو يخلو من الشعرية وذائقتها، ويجهل طبيعة الشعر التي لا تتقوم بتلك الوظائف الإعلامية المباشرة، فإذا طغت على الشعر ذهبت به جميعاً شكلاً ورسالة! ولو طبقنا تلك المعايير لأسقطنا ذاكرتنا الشعرية كلها، فأين منها امرؤ القيس وابن الملوح والمتنبي وأبو تمام والمعرّي وشوقي ومحمود درويش!

تالله ما تعمل «الدوغما» الأحادية في عقول الناس مهما تكن عقائدهم ومرجعياتهم! فهي لا تتعرّف إلا بالمفاصلة والمغايرة. فإن وجدت شخصاً مثلي قد يسلمه فكرة الحر

مكتبة الربيعي أحمد

المستقل، إلى أن يغاير كلاً من الأطراف الإيدولوجية المتصارعة في أمور، ويلتقي مع كل منها في أمور أخرى، اتهمته بالتناقض. ولم تدرك أن العكس هو الصحيح، وأن الحقيقة أعظم من أن تعبّأ في زجاجة، وليست وجوداً مكتملاً ناجزاً تحتكر امتلاكه جهة واحدة بعينها، وأن الحكمة ضالّة متوزّعة في الإنسانية كلها، ما مضى من تاريخها وما هو آتٍ. ولسوف تنقضي الحياة على الأرض وفي النفس بقية من أسئلتها! وذاك شرط وجودي إنساني. وما كان كذلك فلا ينبغي له أن يتناقض مع الدين الذي يعتقد المؤمن أنه خرج من المشكاة نفسها التي خرجت منها الفطرة التي فطر الله الناس عليها!

ولكن الاجتماع الإنساني يضيق في جانب ويتسع في آخر، ولا يبخل حتى يجود. وليس الناس جميعاً على ذلك المذهب من ضيق الأفق والنزوع إلى التبسيط والاختزال في تصنيفات عقدية جامعة مانعة. فمع تراخي الأيام واختبارات المواقف والأفكار والمبادئ تجرّد معظم من يعرفني من التحيّزات المسبقة والانطباعات الذهنية النمطية، فحظيت بتقديرهم وتفهمهم، على اختلاف مشاربهم الفكرية وانتماءاتهم العقدية. ولم يصرفهم ما أختلف به عنهم أو ما أخالفهم به، عن التفاعل مع جهودي الفكرية والأدبيّة، بل التّأثّر بها كذلك.

ما إن عدت من لندن وبدأت مهماتي التدريسية، حتى استأذنت في إجازة قصيرة أزور فيها والديّ وإخوتي في طولكرم بالضفة الغربية. فوجدت والدي قد هدّه مرض السكري وأقعده حبيس البيت، بعد أن فقد بصره وأثخنت فيه مخالطات الداء. فحملته إلى مستشفى المقاصد بالقدس. وهناك أخبرني الطبيب المختص أن المرض قد عطّل الكثير من الوظائف الحيوية ومنها وظائف الكلى، وأن الطب لا يستطيع الكثير بعد الآن. وكانت هذه طريقته في القول: إن النهاية قد تكون وشيكة!

غمرني الأسى مضاعفاً. فها هو الأب القوي الصارم المهيب الذي كان ملء السمع والبصر، وكانت نساء الحي يبادرن إلى تسوية خمرهنّ على شعورهن إذا رأينه مقبلاً، وكنا نسرع إلى فرشنا مساءً إذا سمعنا وقع خطواته عائداً.. ها هو الآن قد أعجزه المرض عن

مكتبة الربيعي أحمد

نفسه، وأسلم نفسه إلى أمي تقلّبه وتقعده وتقيمه وتطعمه وتسقيه بيدها. ومع ذلك بقي له من عزّة نفسه أنه احتجب عن عائديه، كيلا يروه في ضعفه ذاك. وزاد من أسفي وأساي أنه بلغ هذا المبلغ قبل أن يتاح لي أن أبرّه في عافيته وأوسع عليه في عيشه. فغاية البرّ الآن أن أوفر له عناية طبيّة مناسبة، أيأسني الطبيب من جدواها.

وهناك علمت من أمي ما أخفته الأسرة عنّي في أثناء إقامتي في لندن. فمن الشائع في مجتمعنا أن يجنب المسافر الغائب الأخبار السيئة التي يمكن أن تنغّص عليه وتشتت ذهنه عما تغرّب من أجله، وبخاصة إذا لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً، إلا أن يكون أمراً لا يمكن حجبه كخبر الوفاة. كنت أعلم في غربتي أن والدي مريض بالسكري، ولكني لم أعلم أن المرض قد بلغ منه هذا المبلغ حتى أقعده عن العمل فأغلقت بقالته الصغيرة التي كان ينفق منها على البيت. وفي تلك الأثناء تزوجت أختي الكبرى المعلّمة التي كانت تعين براتبها، فتوقف هذا المورد أيضاً. ولم يعد للأسرة عائل ولا مصدر دخل. فأخذت أمّي تنفق من المدّخرات المحدودة، وتستعين على الحال بما تزرعه في حديقة المنزل من الخضروات، وما يثمر من شجرها. ومنعتها عزّة النفس من أن تعلم بالحال أحداً من الأقارب المقربين الذي يمكن أن يعينوا، وفي مقدمتهم عمي أبو جهاد (محمود إبراهيم) الذي لم يتوان يوماً عن دعم أسرته الممتدة، وكان ممن يصح فيهم قول الشاعر عن نفسه: (أقسّم جسمي في جسوم كثيرة..). وبدلاً من ذلك أسلمت أمرها لله، واعتصمت باليقين أن الله تعالى سيجعل للأسرة مخرجاً ويرزقها من حيث لا تحتسب. حتى جاء يوم أوشكت فيه المدخرات على النفاد. فجلست على عتبة البيت تدافع يأسها بالدعاء، ثم يلح عليها سؤال تلحقه بالاستغفار: نعم، الله قادر. ولكن من أين يأتي الرزق وقد انقطعت الأسباب وذهبت المدّخرات، ولا ثمة عائل ولا ولد عامل؟ في تلك اللحظة، طرق باب الحديقة. كان الطارق موظف البريد الذي سلّمها رسالة مني. فلما فتحتها مع سائر الأسرة وجدت فيها «شيكا» على حسابي في لندن!

فأجهشت بالبكاء، وأجهش معها أبي. ثم تتابعت شيكاتي على رأس كل شهر حتى عدت من لندن.

حين أرسلت الشيك الأول، لم يدر في خلدي أن هذا سيكون منذ الآن دخل أسرتي الوحيد، حتى عرفت ذلك من أمي في تلك الزيارة.

مكتبة الربيعي أحمد

والحكاية أن منحتي الدراسية ما كانت لتكفي حاجة العيش في لندن مع زوجي إلا بالاقتصاد وحسن التدبير. ثم فتح الله لي باب رزق آخر من عملي الحر مع القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، لا سيما البرامج الثقافية الأدبية. وما هي حتى حدّثتني نفسي أن أقطع من دخلي الجديد مبلغاً أرسله إلى أسرتي في طولكرم، لا لأنها في حاجة ماسّة إليه، فما كنت أعلم بما آل إليه وضعها المادي، ولكن الغاية كانت التوسعة عليهم وكسب الرضا بالبرّ. فما إن أرسلت شيكي الأول لهم، حتى ضاعفه الله لي، فزدتهم. والله أجل وأكرم. رزقهم بي، ورزقني بهم!

بعد زهاء شهر أو شهرين من تلك الزيارة. دعاني الدكتور عبد الكريم خليفة، رئيس القسم، ورئيس الجامعة سابقاً، إلى مكتبه. وكان صديقاً للأسرة ولعمي محمود إبراهيم بصفة خاصّة. فلما دخلت مكتبه وجدت عمي عنده. وحسبته لقاء عادياً لتجاذب أطراف الحديث، واحتساء الشاي. ووجه الدكتور خليفة الحوار في مواضيع شتى مألوفة، حتى انتهى به على نحو ما إلى تأملات عامّة في الحياة وتقلباتها، وأفراحها وأتراحها، وضرورة الصبر على ابتلاءاتها. وهنا فقط تنبهت حواسي وحواس عمّي، كما دلت ملامحه، وقد سرت إلينا نذر الكلام. ولم يتلبث الدكتور خليفة بعد ذلك إذ قام وأقبل علينا محتضناً معزّياً بوفاة والدي، رحمه الله. فقد كان الصليب الأحمر قد توصّل إليه بخبر الوفاة ليعلمنا به. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

حين توفي الوالد، رحمه الله، كان أربعة فقط من أبنائه في الخارج: أخي الكبر فيصل الذي استقر في كندا، وأختي الكبرى نائلة التي انتقلت مع زوجها إلى الأردن، وأخي مفيد الذي يليني سناً، وكان يدرس الطب في الجزائر، وأنا في عمّان. وبقي مع الوالدة في طولكرم ثمانية، من بينهم أخت متزوجة سكنت في جوارها فكانت تعينها في شؤون البيت، أما السبعة الباقون فكانوا ما يزالون في سن المدرسة، وكان صغيرهم في الثامنة، وكبيرهم في الثامنة عشرة على وشك الفراغ من دراسته الثانوية.

مكتبة الرمحي أحمد

وهكذا مضت الوالدة في العناية بالأسرة بكل تفان وإنكار للذات، بينما شرّفني الله بالإنفاق على الأسرة الكبيرة فضلاً عن أسرتي الصغيرة في عمّان. ومن جديد، رزقني الله بهم. إذ بدأت منذ عام 1978 بكتابة الأعمال الدرامية التلفازية إلى جانب عملي في الجامعة. (وللحديث عن تجربتي في التأليف الدرامي موضع آخر تالٍ).

وما هي حتى تضخّمت المسؤوليات والتكاليف، مع تتابع خروج الإخوة من المنزل والالتحاق بجامعات أجنبية. وفي فترة معيّنة اجتمع ثلاثة منهم في الدراسة الجامعية، ولكن الله أعان على نفقاتهم ونفقات من ينتظر اللحاق بهم في طولكرم. وبعد أن حصل أخي مفيد -الذي يليني في السن- على شهادته الأولى في الطب وأتم تدريبه آثر أن يؤجل دراسة التخصص التي تستغرق أعواماً أخرى، كي يكون في وسعه أن يشارك في نفقات الأسرة المتزايدة. فما إن وجد عملاً في أرامكو السعودية، حتى قاسمني المسؤوليات المالية. ومكث على ذلك أعواماً طوالاً حتى تخرّج آخر العنقود من الجامعة، واستغنى الجميع بأعمالهم. فانتقل إلى بريطانيا للتخصص متأخراً، وهو الآن مستشار في إصابات العمود الفقري في أهم مستشفيات لندن المتخصصة في هذا المجال. والحق أن سائر الإخوة كانوا متلهفين بالقدر نفسه على حمل أعباء الأسرة الكبيرة. فما إن يتخرج التالي من الجامعة ويجد عملاً حتى يشارك سابقيه في إعالة الباقين معيشةً ودراسة. وهكذا حتى تمت كلمة الله الحسنى في جميع أفراد العائلة واستقلوا بأنفسهم وأعمالهم، وكلهم بفضل الله مستقيم على الطريقة وصّال للرحم محب مشفق. اثنا عشر أخاً وأختاً فرقتهم الجغرافيا، وجمعتهم المحبة والإخلاص وصلة الرحم. وتلك دعوة أبيهم إبراهيم وأمهم فاطمة اللذين أفنيا نفسيهما فيهم ولم يطلبا من الحياة إلا نجاح أبنائهما وسعادتهم واستقامتهم وحسن خلقهم وصحة دينهم. فأجاب الله دعوتهما. ولكنهما لم يتلبثا طويلاً ليريا آثار صنعهما تامّة مكتملة. فقد توفي الوالد، رحمه الله، عقب حصولي على الدكتوراه بشهرين ونيف. ولحقت به الوالدة -رحمها الله- بعد عشر سنين ولما تبلغ الستين. فقد أنهكها ما استثمرت من نفسها في اثني عشر ولداً وبنتاً فضلاً عن زوج لبث في الداء بضع سنين.

وليست هذه رواية خاصة استثنائية، فهي قصة فلسطينية بامتياز. غيّر الزعماء والقادة والسياسيون، وتقلبوا في المواقف، وبدّلوا المواقع والخنادق، وتخلوا عن البنادق،

مكتبة الرمحي أحمد

وبقيت الأسرة الفلسطينية المتضامنة المتكافلة مقيمة على إرثها العظيم، تسدّ لأبنائها ما قد أخلّت الظروف العامّة وضيّعت: ثغور حقوق ما أطاقت لها سدا!

2. الخروج القسري من الجامعة وتداعياته

في أواخر سبعينات القرن الماضي، عاد ناصر الدين الأسد ليتولّى رئاسة الجامعة مرة أخرى. وكنت من أكثر الناس احتفاءً بعودته، لعله يعود بالجامعة سيرتها الأولى. ولعل الحنين إلى ماضٍ لم يكن قد أوغل في البعد، قد زاد من احتفائي بعودته.

ولكن الأقدار قد شاءت أن يواجه في ولايته الثانية بعض ما واجه في آخر ولايته الأولى من الضغوط السياسية والأمنية على استقلال الجامعة. ففي عام 1979 وقعت اضطرابات سياسية في مجتمع الطلبة، وتعاقبت المظاهرات والصدامات في حرم الجامعة لبضعة أيام. وبذل الأسد كل ما كان بوسعه للتهدئة وإدارة الأزمة. ولكن الزمان كان قد تغيّر. فقد تضخّم المجتمع الطالبي فيما بين ولايته الأولى والثانية، وصارت إدارته أعظم عبئاً وأشد صعوبة. وخلّف أيلول الأسود إرثاً ثقيلاً، واشتدت القبضة الأمنية في البلد، وخسرت الجامعة الكثير من استقلالها.

وما إن هدأت الأوضاع في الجامعة، وظنت إدارتها أنها قادرة عليها، حتى وقع في صيف عام 1979 حدث غير مسبوق هز الوسط الأكاديمي وتقاليده المتعارفة، ولكنه هذه المرة لم يكن ذا علاقة بمجتمع الطلبة، وإنما طال مجتمع الأساتذة.

كنت عائداً من زيارة قصيرة للأهل في طولكرم بالضفة الغربية المحتلة حين استقبلتني زوجي بالنبأ:

-هل علمت أنك قد طردت من الجامعة مع خمسة آخرين من زملائك؟

وبالطبع لم يكن القرار من داخل الجامعة. ولكنه كان قراراً سياسياً أمنياً أملته دائرة المخابرات العامّة على إدارة الجامعة، وإن كان القرار من الناحية الشكلية يصدر عن الجامعة. وكانت الجهات الأمنية قد احتاطت لمثل هذا الأمر منذ وقت، ففرضت على

مكتبة الربيعي أحمد

الجامعات أن تقحم في قوانينها وأنظمتها مادة تبيح لها الاستغناء عن خدمات أي من أعضاء هيئة التدريس دون إبداء الأسباب! وبذلك تتحرر الجامعة من المسؤولية القانونية عن قرار مجحف بحق أساتذة لم يرتكبوا أي مخالفات إدارية تخلّ بالتزامات العمل، وتحقق الجهات الأمنية غايتها من وراء ستار، دون أن تضطر إلى اتخاذ إجراءات أمنية وقانونية محرجة في تهم سياسية غامضة يصعب تجريم أصحابها.

لم يكن ثمة معنى لذلك القرار إلا أن أولئك الستة المغضوب عليهم ذوو مواقف وأفكار سياسية غير مرغوب بها، وأنهم يمكن أن يفسدوا عقول الناشئة بتلك الأفكار. ولما كان القرار قد جاء بعد مدة قصيرة من اضطرابات الطلبة، فقد بدا أنه يضمر اتهام الستة المطرودين بأنهم أسهموا في التحريض عليها.

كان القرار سابقة خطيرة وسيفاً مشهراً على المجتمع الأكاديمي. فما أوقع على الستة السابقين، يمكن أن يوقع على غيرهم إن لم يبدّلوا تبديلاً.

والحق أنه لم يكن ثمة جامع عقدي أو حزبي بين الستة، وهم من كليات شتى، ولم أكن على معرفة بأيّهم قبل أن تجمعنا تداعيات القرار. بلى، ثمة جامع واحد بين خمسة منا. وهو أننا كنا قد أكملنا دراساتنا العليا في جامعات غربية مرموقة مبعوثين على نفقة الجامعة. وما كانت الجامعة لتبتعث إلا نخبة المتفوقين. وقد عدنا للتدريس في الجامعة وفاءً بالتزامات المنحة التي تفرض أن يعمل المبعوث في التدريس عقب عودته، ضعفي مدة دراسته، وزدت عليهم أنا بأن كل دراستي الجامعية بعد الثانوية من البكالوريوس حتى الدكتوراه كانت بمنح دراسية. أما البكالوريوس فكانت على نفقة وزارة التربية والتعليم التي نقلت التزامي إلى الجامعة الأردنية حين عينت فيها معيداً، وأما الدراسات العليا حتى الدكتوراه فكانت على نفقة الجامعة. فتراكم علي بذلك التزام بالعمل في الجامعة ضعفي سنوات الدراسة الجامعية كلها: من البكالوريوس حتى الدكتوراه، وجماع ذلك زهاء أربعة عشر عاما!

هل بلغ من خطورتنا على أمن الدولة وعقول الناشئة أن تتخلى الجامعة عن استثمارها الضخم في خمسة منا، فتحررنا من التزاماتنا القانونية لقاء ذلك؟ على نحو ما يمكن النظر إلى القرار بوصفه مكافأة لا عقوبةً. فأي هدر للطاقات المدرّبة وأي هدر للاستثمار فيها

مكتبة الربيعي أحمد

بدون مسوّغ حقيقي. فأي أمن هش هذا الذي يخشى أن يقوّضه الفكر الحر والمعارضة السلمية المدنية! فمن المؤكد أننا لم نضلع في مؤامرة سرية لإسقاط النظام ولا في التحريض على العنف السياسي، ولا حتى في رفع شعارات متطرّفة. وما تعريف الأفكار السياسية الخطيرة؟ مقاومة الاحتلال؟ تحرير الوطن؟ النهوض العربي؟ التحرر من الاستعمار؟ مطلب الوحدة؟ العدالة الاجتماعية؟ الحريات المدنية والديموقراطية؟ رفع قوانين الطوارئ؟ محاربة الفساد؟ استقلال القضاء؟ تطوير مؤسسات المجتمع المدني؟ التحرر من القبضة الأمنية؟ الفصل بين السلطات؟ رفض التقسيمات العشائرية والجهوية؟....

إذا كانت هذه تهماً تدين صاحبها، فأنا أول المذنبين! عليها عشت وعليها أموت! والأجدر بالطبع إعادة تعريف الأمن الوطني والقومي الذي لا ينبغي أن تهدده تلك الأفكار، وإنما يهدده نقائضها: الاستبداد والفساد والاستغلال والفقر وتبديد الثروات والإملاءات الخارجية والمشروع الصهيوني والاحتلال والتجزئة القطرية والتّخلف والعصب القبلية والجهوية....

أما الاضطرابات الطلابية التي سبقت قرار الاستغناء عن خدماتنا، فلم يكن لي فيها ناقة ولا بعير. فقد كانت بلا قضيّة. بل كانت تطوراً مؤسفاً لانقسام المجتمع الطلابي على أساس جهوي. وهو ما يتناقض مع كل ما أؤمن به وأدعو إليه. ولقد مضى على تلك الحوادث الآن بضع وثلاثون سنة وصارت أثراً من الماضي الذي يكاد ألا يذكره أحد. وفي هذه المدّة تقلّبت في ظروف مختلفة، وعدت إلى عملي في الجامعة بعد إحدى عشرة سنة من النفي، ومكثت فيها حتى استقلت عام 2007. فليس عندي الآن أي سبب عمليّ لادعاء البراءة دفعاً لضرر أو جلباً لمنفعة. ولكنها الحقيقة لوجه الحقيقة. وإن كان لي دور في هذه الحوادث فهو أنني وظفت كل طاقتي في التأثير والحجة والاقناع، وكان ما كان لي عند الطلبة من المحبة والتقدير والثقة، لرد الجميع إلى رشدهم وصفوفهم الدراسية، وإلى تجاوز أسباب الخلاف وخطاب الكراهية، والانتظام في المبادئ الوطنية والقومية الإسلامية الجامعة. فعلت ذلك في قاعة المحاضرة وفي مكتبي الذي كان الطلبة يتوافدون عليه. وكنت أرى في الممر طالباً او طالبين يرقبان عن بعد، فلا يسمعان شيئاً مما يقال. فقدّرت أنهما مخبران. وكان يكفيهما أن يشهدا توافد الطلبة على مكتبي في تلك الظروف الساخنة المضطربة ليجدا مادّة تقاريرهما إلى الجهات الأمنية! وكل ذلك يؤكد أن العين

مكتبة الربيعي أحمد

الأمنية، في غياب الشفافية، يمكن أن تخطئ الرؤية مهما تجتهد، ثم تبني على ذلك قرارات مجحفة بحق الأفراد والمؤسسات والمجتمع على الجملة.

لم يعجز أي منا، نحن الستة، أن يجد فرصاً أخرى للعمل، سواء أكان ذلك في داخل البلد أم في خارجه. أما انا فلم أكن في حاجة للوظيفة الراتبة من الناحية المادية. فقد كنت قبل ذلك قد صرت معروفاً بنصوصي الدرامية التلفازية التي حظيت بنجاح كبير. وكانت تعود علي بأحسن مما يعود به العمل الأكاديمي. وكانت العروض أكثر مما أستطيع قبوله.

ومع ذلك فقد حملني شغفي بالعمل الأكاديمي إلى جامعة الإمارات العربية المتحدة في مدينة العين. وأشهد أنني وجدت هناك من الاحتفاء والرعاية والتقدير ما يقتضي الشكر والامتنان. وقد كان القوم هناك على علم بخلفية إخراجي من جامعتي الأم. فما زادهم ذلك إلا تكريماً وإحساناً. وتنازعتني وزارة الإعلام هناك والجامعة. وكلّ بالغ في رعايتي وتقديري معنوياً ومادياً دون اشتراطات. وتلك لعمر الله مفارقة تثير من الراحة بقدر ما تثير من الأسى. فالجامعة التي تعهّدتني طالباً أولاً، ومعيداً ثانياً، ومبعوثاً منها ثالثاً، يفرض عليها أن تهدر استثمارها في تأهيلي خشية على عقول الناشئة أن أفسدها بأفكاري. ثم تتلقاني جامعة أخرى في بلد عربي آخر بقبول حسن وتحسن مثواي، دون أن تخشى من أفكاري شراً على أبنائها!

ومع ذلك فإني لم أتلبث في جامعة الإمارات إلا فصلاً دراسيا واحداً. فقد أملت علي ظروف عائلية خاصة أن أعود إلى الأردن وأتفرّغ للتأليف. ولم تفلح جهود رئاسة جامعة الإمارات في ثنيي عن الاستقالة. وكان من كرم رئاستها معي أن عرضت علي أن تمنحني إجازة مدفوعة الراتب للفصل التالي، فأقيم في عمّان. فإذا وجدت بعد ذلك أن أستأنف عملي في جامعة الإمارات فعلت، وإن ألحّ علي داعي الاستقالة فلا غالب إلا الله. وما كان يحسن بي أن أقبل ذلك الكرم إلا بالصدق، فلا أنتفع بالعرض الكريم وأنا أعلم كل العلم أني لست عائداً. فشكرت واعتذرت. ولسوف أبقى شاكراً أبد العمر. فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله كما قال النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

مكتبة الربيعي أحمد

في هذه الأثناء كنا - نحن الستة - المطرودين، قد رفعنا قضية ضد الجامعة لدى محكمة العدل العليا في الأردن. وتولّاها عنا المحامي الكبير الأستاذ إبراهيم بكر، رحمه الله. وبعد سنة من المرافعات، قضت المحكمة بعدم الاختصاص.

المفارقة الدرامية الخاصة في كل هذه القصّة أنني طردت من الجامعة الأردنية صيف 1979، بقرار وقّعه رئيس لم تزدني الأيام إلا مودّة وتقديراً له، وأعلم أنه قد حمل لي دائماً مودّة وتقديراً خاصين، وإن لم نكن على تواصل قريب دائم. وقد سبقت شهادتي فيه علماً وعقلاً وخلقاً. وحسبي أن أكرر القول: قد أتعب الرؤساء من بعده! وإن إخراجي من الجامعة في ولايته الثانية لم يغيّر رأيي به وتقديري له. وما كنت لأطالبه بأن يتكلّف من أجلي ما لا قبل له به. علي أن أعلم علم اليقين أنه كان من أشد الناس كرهاً وأسفاً لما فرض عليه. وقد جلس إلى عمّي محمود إبراهيم قبل صدور القرار رسمياً وعبّر له عن أسفه وحزنه وأنه بذل وسعه في ثني السلطات الأمنية عن فرض القرار دون جدوى. وبعد أعوام من الواقعة حدّثني الدكتور محمود السمرة، وكان نائباً للأسد ذلك الحين في رئاسة الجامعة، فأكد لي أنه شهد بنفسه الأسد يفاوض مدير المخابرات العامة طويلاً في الأمر بعامة، وفي أمري بخاصّة، ولم يبلغ شيئاً. فسحر الأسد الذي كان يأتي بنا إلى رأيه طوعاً، لا يعمل على دائرة المخابرات التي يبدو أنها محصّنة من سحر البيان وبلاغة المنطق!

ولكن مهلاً، لم تنقض المفارقة الدرامية بعد.

كان مدير المخابرات العامة، صاحب القرار الفعلي بطردنا، رجلاً سوف تظهر لنا الأيام من شخصه وموقفه ما يحملنا على احترامه وتقديره حملاً! بلى.. الرجل الذي اتخذ قرار طردي وأصر عليه ولم يُجد معه سحر الأسد، لا يمنعني ما كان منه نحوي ونحو زملائي في ذلك الوقت أن أشهد له الآن بأنه من خير رجالات الأردن وأنظفهم يداً وأحسنهم رأيا وموقفاً! ذلك هو أحمد عبيدات!

كان قراره بحقنا مجحفاً وخطأً كبيراً. ولا أدري ما هي الاعتبارات التي أقنعت رجلاً بعقله واتزانه واعتداله باتخاذ ذلك القرار في ذلك الحين. ولا أريد أن أخوض في التأملات والتخمينات حول ما لا نعلمه من غوامض الأمور وما يبدو لنا من تغيرات الإنسان وتحولاته. ولكن الذي أعلمه الآن أن أحمد عبيدات حين تولّى رئاسة الوزراء سلك

مكتبة الرمحي أحمد

فيها مسلكاً نظيفاً، ووطن نفسه على استئصال الفساد دون تمييز أو انتقائية أو ازدواجية أو حسابات شخصية نفعية. ولعله لذلك لم تطل ولايته، ولم يعد بعد انقضائها إلى أي منصب في السلطة التنفيذية، في بلد يعاد فيه تدوير أصحاب المناصب العليا، فلا يخرج أحدهم من منصب حتى يعود إلى منصب مثله أو أحسن منه. فالفساد كما يبدو شبكة واسعة، إذا أمسكت بطرفها فلا تدري أين تقودك. والذي أعلمه أيضاً أن أحمد عبيدات ما زال منذ حين في مقدمة الشخصيات العامة التي تقود حركة المطالبة بالإصلاح والحريات والحقوق المدنية والسياسية، بكل جرأة وعزيمة، ولكن بلا ضجيج ولا نزق ولا استعراض. فالرجل بطبعه معتدل المزاج، هادئ النبرة، مع قوة شخصيته وثبات عزيمته.

وما زلت كلما تابعت مواقفه وآراءه أتوقف أمام المفارقة متأملاً متسائلاً في نفسي: هذا الرجل الذي أملى قرار فصلي من الجامعة قبل ثلاثين سنة ونيف، إنما ينطق الآن عن نفسي ومواقفي. فليس بين أفكاره وأفكاري إلا مثل عود النجاشيّ، وإننا لنصدر عن مشكاة واحدة.

بل إنني حين علمت أنه كان بصدد تشكيل حزب مع رئيس وزراء سابق أيضاً يحظى باحترام الجميع هو طاهر المصري، رجوت أن يتم المشروع. فالرجلان عرفا بنظافة اليد والتعقل والحكمة وصدق الانتماء الوطني والعروبي، وثمة إجماع شعبي على احترامهما وتقديرهما. فهما أجدر بالتعبير معاً عن الوحدة الوطنية الجامعة. وحين بلغني بعد ذلك أن المحاولة توقفت، بادرت إلى زيارة الرئيس عبيدات في مكتبه الشخصي لأحثّه على المضي في المشروع حتى تمامه، من اجل مصلحة الوطن. فاستقبلني استقبالاً حسناً، وتحاورنا حول الموضوع ومقتضياته بكل مودّة وتناغم وتوافق؛ وكان ذلك أول لقاء شخصي لي به. ولم تغرني مفارقة الموقف الراهن باستدعاء الموقف القديم، ولو على سبيل الطرافة. وما كان لي غاية من ذلك اللقاء الذي بادرت إليه إلا تأييدي لفكرة حزب يشكله الرجلان المحترمان، وما ينطوي عليه من تعزيز لمفهوم الوحدة الوطنية التي ما يفتأ يهددها خطاب الكراهية السقيم.

وحين توفي عمّي محمود إبراهيم، جاء الرجلان: أحمد عبيدات وطاهر المصري إلى مجلس العزاء. ولكي تصل المفارقة الدرامية إلى ذروتها علمت من طاهر المصري وغيره أن

مكتبة الرمحي أحمد

الرجلين كانا يرغبان في أن أكون معهما في جملة مؤسسي الحزب، لو تمّ أمره. ولكنه لم يتمّ. وما كان لي أي رغبة في الانضمام إلى أي حزب على كل حال. فيا لتقاليب الأيام وتحولات الأزمان! هل كان يمكن أن أتصور في ذلك الزمان الذي فُصلت فيه من الجامعة، أن الرجل الذي أملى فصلي لأسباب سياسية، سيكون الرجل الذي يرغب في ان أكون معه في تأسيس حزب سياسي يعبر عن غاياتنا المشتركة!

وما دمنا في حديث المفارقات والتحولات، فثمة مفارقة أخرى مختلفة تتعلق بموضوع الجامعة وما كان من فصلنا منها.

ذكرت ان الجهات الأمنية كانت قبل فصلنا، قد احتاطت للأمر، فأملت إقحام مادة في قوانين الجامعات الوطنية وأنظمتها، تبيح فصل عامليها من أساتذة وإداريين دون إبداء الأسباب. وقد أدركت الهيئة الأكاديمية خطورة تلك المادة وتعارضها مع التقاليد الجامعية والحقوق المدنية، فسعت إلى إبطالها مبكراً قبل استعمالها فعلاً. وقد تشكلت لجنة من أساتذة الجامعة الأردنية في ذلك الحين للتحاور والتفاوض مع المسؤولين والشخصيات العامة بغرض الضغط على الحكومة. وكنت عضواً في تلك اللجنة. فكان ممن زرناه في بيته من كبار الشخصيات العامة، رئيس وزراء سابق بارز ومقرب من القصر. وكان في ذلك الحين خارج المنصب الرسمي، إلا أنه يبقى ذا دالّة ونفوذ كبيرين. وإن لم يسعه أن يفعل شيئاً في الوقت الحاضر، فالرجاء أن يفعل إذا عاد إلى رئاسة الوزارة. وقد أنصت الرجل إلينا باهتمام وأبدى لنا تفهّماً وتعاطفاً وقبولاً. وعدنا من عنده أكثر اطمئناناً ندعو أن يعجّل الله عودته لرئاسة الحكومة فيضع الأمور في نصابها السليم.

وبالفعل عاد الرجل بعد حين رئيساً للوزارة. ورجا الوسط الأكاديمي أن يصلح الرجل ما أفسده غيره من أمر الجامعات بتلك المادة القانونية المجحفة التي ذهبت بستة من أعضاء هيئة التدريس، وبقيت سيفاً مشهراً على رؤوس الباقين.

وبالفعل، لم يقصّر الرجل وأثبت للجميع أنه فعّال لا قوال حين صار القرار الحكومي بيده.

لا، لم يبطل تلك المادة المشؤومة، ولا أعاد الستة المفصولين سابقاً إلى جامعتهم، ولكنه ألحق بهم عشرين أستاذاً وإدارياً من جامعة اليرموك مرّة واحدة! وبذلك أثبت أنه

مكتبة الرمحي أحمد

اكثر حزماً من سابقيه، وأثبتت جامعة اليرموك تفوقها على الجامعة الأردنية في خطيئة إيواء الأفكار السياسية الضالّة المضلة!

لم يلبث الأسد بعد واقعة فصلنا من الجامعة طويلاً حتى استقال من رئاستها مجدّداً. ولم ألتقه بعد ذلك إلا مرة واحدة في أوائل التسعينات حين كان وزيراً للتعليم العالي، إذ قصدته في مسألة إنسانية ملحة.

كان أخي الأصغر قد أصيب بفشل كلوي كامل اقتضى زراعة كلية له. وكان عليه بعد ذلك أن يراجع الطبيب المختص في مستشفى الجامعة الأردنية على نحو دوري منتظم بينما كان مقيماً في إربد يدرس في جامعة اليرموك. وبدا لنا أن الأوفق أن ينتقل إلى الجامعة الأردنية ليكون قريباً مني ومن طبيبه. ولم يكن سبيل إلى ذلك إلا أن يمنحه أحد أعضاء مجلس أمناء الجامعة المقعد الذي خصص لتصرّفه حسب النظام. وهكذا زرت الأستاذ الأسد في مكتبه في الوزارة لعرض المسألة عليه. فاستقبلني استقبالاً حاراً. ولما كان المقعد المخصص له قد سبق منحه إلى شخص ما، فقد أبى إلا أن يتصل بآخرين من مجلس الأمناء بحثاً عن مقعد لم يذهب بعد. وقد استطاع بدالته أن يجده، فصرف إلى أخي. وكانت تلك جميلة تليق بأخلاقه. فله الشكر على ما وسعه وبذله، وله العذر فيما لم يسعه اجتنابه!

في عام 1987، عملت في جامعة القدس المفتوحة التي كانت في طور التأسيس وإعداد المواد الدراسية بأسلوب التعليم عن بعد والتعلم الذاتي، في سياق مشروع وطني نهضت به منظمة التحرير الفلسطينية لمعالجة مشكلة الإغلاق المتكرر للجامعات الفلسطينية في الداخل في ظل الانتفاضة الأولى. وأزعم أنه كان لي إسهام رئيس في تطوير المشروع، بخاصة في مجال تطوير المواد التعليمية وإنتاجها وفقاً لمعايير هذا النمط الخاص من التعليم الجامعي الذي لم يكن له سابقة في الوطن العربي. أما الأطر التي وضعتها مع نفر من العاملين الذين شرفت بتدريبهم وتوجيههم تحت إدارتي (رئيساً لدائرة تطوير المواد التعليمية والإنتاج) لتصميم المواد التعليمية وأساليبها، فما زالت المرجع الذي يعمل

مكتبة الربيعي أحمد

به في هذا المجال. وقد استغرقت عملية التأسيس وإعداد المواد الأولى قبل بدء العمل وتسجيل الطلبة ردحاً من الزمان. ولكن المشروع آتى أكله واستوت الجامعة على سوقها، وهي الآن تقدم خدماتها لآلاف الطلبة.

وتقتضي شهادة الحق أن أنسب للدكتور وليد قمحاوي -رحمه الله -، الرئيس الأول للجامعة، وعضو اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير لفترة من الوقت، فضل التفكير في المشروع ابتداءً وإقناع قيادة المنظمة بضروراته الوطنية، ومن ثم فضل التأسيس. وعلى الرغم من أن الدكتور قمحاوي كان طبيباً، ولم يكن أكاديمياً في أي وقت، فقد كان ذا رؤية سباقة في هذا المجال.

بلى، وقع بينه وبيني خلاف مهني شديد في الاجتهادات المتعلّقة بالمسار والوجهة والعلاقة مع مصدر التمويل (منظمة التحرير)، وانحازت الدائرة المختصة في المنظمة إلى اجتهادي، بل كانت في خلاف مع اجتهاده بمعزل عني قبل أن تساند موقفي، حتى أنها أوقفت التمويل فترة منَ الوقت، وانقطعت مرتبات العاملين وأوشك المشروع على التوقف. وكنت أرجو أن يحل الخلاف دون أن يضطر إلى الاستقالة قبل أن تكتمل عملية التأسيس. ولكن، هذا الذي كان. والآن بعد زهاء ستة وعشرين عاماً، وقد أفضى الرجل إلى ربه، رحمه الله، أجد في هذا الموضع فرصة، ولو متأخرة، لإنصاف الرجل. فهو صاحب الفضل في الرؤية والتأسيس، فضلاً عن سيرته الوطنية الحافلة. وقد كان دمثاً هادئ الطباع، ولكنه جمع إلى ذلك صلابة الموقف فيما يعتقد بصوابه، وإن كلفه ذلك موقعه. ولربما التبست الصلابة المبدئية بالتصلّب في فهم الآخرين. ولا أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء. وإني لأعترف الآن أنني لو كنت أستقبل من أمري ما استدبرت لما دخلت في ذلك الخلاف، وأن تلك الواقعة أورثتني ندماً. وما ذاك لأنني قد رجعت على نفسي بخطأ الاجتهاد فيما شجر بيننا من خلاف، ولكن لأنني مقتنع الآن أن الاعتقاد بصواب الاجتهاد في مسألة خلافية، لا يسوغ دائماً الدخول في خلاف أو صراع قد تكون نتائجه (من النواحي الإنسانية والمعنوية على الأقل) أكبر كلفة من اجتنابه، وأسوأ عاقبة من اجتهاد تراه مخطئاً..

ومع هذا الإقرار الشخصي، أقر أيضاً أن جملة من الشواهد والتجارب قد أرتني أن شطراً من مجتمع النخبة الفلسطيني لا يبرأ من شبهة الجحود والتنكر لجهود السابقين،

مكتبة الربيعي أحمد

ويميل اللاحق لإلغاء السابق والاستئثار بالفضل كله. وقد تجد من المسؤولين من ينسب الأخطاء والمغارم إلى غيره، وينسب إنجازاتهم إلى نفسه! ولا أحب هنا أن أزيد على القول: إن هذا كله هو ما دعاني بعد ثلاثة أعوام من عملي في جامعة القدس المفتوحة إلى الاستقالة. وإن نبل القضية الفلسطينية وكفاح الشعب الشعب الفلسطيني وآلامه، كل ذلك لا يرفعنا فوق النقد، ولا يعصمنا من الأخطاء والظواهر الاجتماعية المختلة. وكفانا من الثناء أننا بشر، وكفانا من التهمة أننا بشر كذلك!

وفي أثناء عملي في جامعة القدس المفتوحة صرت عضواً في المجلس الفلسطيني الأعلى للتربية وللثقافة والعلوم برئاسة الدكتور أحمد صدقي الدجاني، المفكر الوطني والعروبي الأصيل، الذي عاش وفياً لمبادئه حتى توفي عليها، رحمه الله. وكان يثير العجب والإعجاب معاً بالتزامه الفصحى في كل كلامه ومواقف حياته، مهما يكن المستوى الثقافي لمحاوره، ومهما يكن موضوع الكلام. وهو من الفئة القليلة التي تخطت الحواجز الإيدولوجية المصطنعة بين الانتماء الوطني والعروبي والإسلامي. فوجد كل منا في الآخر صاحبه بهذا الشأن، على ما بيننا من فجوة الأجيال.

وفضلاً عن ذلك شاركت لأعوام متتالية في الوفد الفلسطيني إلى مؤتمرات اليونسكو في جنيف وباريس، وكنت أكتب كلمة الوفد بالعربية والإنجليزية، كي آمن أن يخطئ المترجم الفوري للأصل العربي الذي يلقيه رئيس الوفد.

كذلك صرت عضواً في الهيئة العليا للجامعات الفلسطينية في الداخل، التي ترسم السياسات العامّة وتوزع أموال الدعم من منظمة التحرير.

وفضلاً عن ذلك شاركت في الإشراف على إعادة كتابة المناهج المدرسية بأسلوب التعليم الذاتي، لتكون للطلبة بديلاً عن الدروس النظامية في المدارس الفلسطينية مع تطاول إغلاقها أعوام الانتفاضة. وفي عام 1988 مثلت فلسطين في مؤتمر تنسيق التعريب الذي تنظمه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وتشارك فيه وفود من مجامع اللغة العربية في الوطن العربي. ولم يكن لفلسطين مجمع كسائر المجامع المشاركة. ومع ذلك وجهت إليها الدعوة للمشاركة على قدم المساواة اعترافاً بدولة فلسطين التي أعلنها المؤتمر الوطني الفلسطيني في الجزائر عام 1988. فوقع الاختيار علي لتمثيلها في المؤتمر. وكان

مكتبة الربيعي أحمد

لكل مجمع آخر وفد من بضعة أعضاء مع رئيسه. أما وفد فلسطين فلم يكن فيه غيري. ومع ذلك، أو لذلك، اجتهدت أن يكون إسهامي فيه لافتاً. حتى قال لي الدكتور شاكر الفحّام، رئيس الوفد السوري، «وقعنا منك على كنز ثمين». ولئن لم يغرّني الثناء (كما يغرّ الغواني، على قول الشاعر الذكوري)، فقد سرّني منه أن ينسب إلى المشاركة الفلسطينية في آخر المطاف، وأن يعزز الانطباع السائد عن التميز الفلسطيني في المجالات العلمية والتربوية والثقافية. وهي من أهم ميادين الكفاح من أجل البقاء، والثابت إذ يترجل المناضلون، ويغير الزعماء والقادة والسياسيون، ويعلن كبيرهم كفره بالمقاومة المسلّحة، بل يأمر بتغيير وجهة السلاح لاستهداف المقاومين، حفظاً للتنسيق الأمني «المقدّس» مع العدو الصهيوني، من كل مقاوم مارد!

أقمت على تلك المواقع والأنشطة التربوية حتى اتفاقات أوسلو وقيام السلطة الفلسطينية وتعطيل منظمة التحرير الفلسطينية، فنأيت بنفسي من فوري. وحسبي أن أبقى على ثغور الذاكرة الفلسطينية أشارك في حراستها، وأن أسهم في حماية الرواية الفلسطينية من العبث والتحريف، حتى يبلغ الكتاب أجله، وأجله عندي القدس وحيفا ويافا؛ أو القيامة!

3. العودة إلى الجامعة وأسفار علمية

ما إن استقلت من عملي في جامعة القدس المفتوحة صيف عام 1990، حتى نشأت ظروف سياسية جديدة في الأردن أباحت عودتي إلى الجامعة الأردنية بعد فراق قسري دام إحدى عشرة سنة.

وفي عام 1993 فزت بثلاث منح: منحة من مؤسسة التبادل العلمي الألمانية (DAAD) لقضاء شهرين من الصيف في جامعة برلين الحرة، ومنحة أخرى للمشاركة في إحدى ندوات سالزبورغ التي تنظمها جامعة هارفارد في قصر خاص في مدينة سالزبورغ بالنمسا على مدار العام، وتشارك في كل منها نخبة مختصة من أرجاء العالم في موضوع معيّن من مواضيع الاقتصاد والعلوم والتربية والثقافة والسياسة. كذلك فزت بمنحة فولبرايت الأمريكية للتبادل العلمي لأقضي إجازة التفرغ العلمي التي استحققتها باحثاً زائراً في جامعة جورج تاون بواشنطن العاصمة، للعام الدراسي 1993 - 1994.

مكتبة الربيعي أحمد

أما ندوة سالزبورغ التي دعيت إليها فكان موضوعها «الأدب بوصفه قوة سياسية» وامتدت جلساتها أسبوعين كاملين، وشارك فيها زهاء خمسة وثلاثين من الأكاديميين والأدباء والكتاب، معظمهم من الأمريكان والأوروبيين، وفيهم الكاتب الأمريكي الشهير غور فيدال Gore Vidal الذي كان من خصوم المؤسسة السياسية الأمريكية، واختار أن يقيم في إيطاليا مع عشيقه المكتهل مثله (نعم، عشيقه لا عشيقته!). والشكل الأدبي الذي برع فيه هو فن المقالة التي تمزج بين الفكر والأسلوب الأدبي الساخر. وكتب عدداً من الأعمال السينمائية والتلفازية، وظهر في بعضها ممثلاً.

وكانت تلك فرصة نادرة للاختلاط والتحاور المباشر مع تلك النخبة المختارة من أقطار مختلفة، في مواضيع أدبية وثقافية وسياسية. وكان المشاركون، كلهم أو جلّهم، من التيار الليبرالي المتمرّد على المؤسسة السياسية والاجتماعية التقليدية. وبعضهم متطرف في فكره الليبرالي. وفي الجانب الثقافي والفلسفي كان خطاب ما بعد الحداثة طاغياً بمفاهيمه ومصطلحه. وكان الفيلسوف الفرنسي الشهير ميشال فوكو حاضراً بفلسفته، ومعه مؤلفات إدوارد سعيد في الاستشراق والأدب والإمبريالية. ووجدت نفسي معهم منقسماً بين القبول والرفض. فكلنا على مذهب متقارب من رفض الإمبريالية وأشكال العنصرية والمركزية الغربية. ولكن الصفقة الليبرالية في الغرب تشمل كذلك رفض الأحكام الأخلاقية السلوكية، ومعاداة القيم الدينية على الجملة، وتحتضن الإباحية بلا حدود. وهي لا ترضى منك أن تأخذ منها الشطر الأول وتدع الثاني. فالبيع على الاثنين معاً. وأسوأ من ذلك كله أن مفاهيم التحرر عند شطر كبير منهم تتعطل عند الصهيونية وإسرائيل. عندئذٍ تتوقف شهرزاد الليبرالية عن الكلام المباح. وتتهرب من الكلام على المظالم التي أوقعها الصهاينة بالشعب الفلسطيني، بالحديث عن المظالم التي أوقعها الغرب باليهود. يُجَرّمون الغرب بحق، ويجعلون عقوبة الجرم على العربي والفلسطيني، ويُكَفِّرون بذلك عن ذنوب بلادهم!

نعم، يمكن أن يكون الأدب قوة سياسية. ولكن لا ضمان ألا تكون قوّة جائرة!

وبعد انقضاء جلسات اليوم يخرج المشاركون للصخب والرقص واحتساء الكحول. وأحتجب أنا في غرفتي، حتى ليظن بعضهم أني من النوع الانعزالي الذي يقعده الخجل الزائد، لولا مشاركتي النشطة في الجلسات الفكرية الفرعية والعامة التي لفتت الأنظار.

مكتبة الربيعي أحمد

ومكان الندوة والإقامة ذلك القصر البديع الذي رآه ملايين الناس في الفلم الغنائي الأشهر «صوت الموسيقى» Sound of Music، وقد أقيم في حرمه بناء جديد لسكن المشاركين فضلاً عن الإدارة. وحول القصر تستطيع أن ترى التلال الخضراء التي تنبعث فيها الحياة مع صوت الموسيقى كما تقول الأغنية الافتتاحية في الفيلم الشهير، حيث ترى جولي أندروز، الراهبة التي لم تطفئ الرهبنة فيها حب الموسيقى، تدور على رأس التلة المعشبة الخضراء القريبة من السماء، وتغني مع التلال محتفلة بالحياة النابضة بثياب عادية، قبل أن تتسلل عائدة إلى الدير وإلى ثوب الرهبنة! فأي صوت ذاك الذي ينبعث من روح الكون ويسمو بروح الإنسان!

أما الألمان فقد وجدتهم أقرب الناس إلى أبناء عمومتهم الإنجليز الذين جاءت تسميتهم من القبائل الإنجلو - سكسونية التي قدمت من الأراضي الجرمانية واستوطنت ما عرف منذ ذلك الحين بإنجلترا، حتى غزاها النورمانديّون القادمون من فرنسا، ذوو الأصول الاسكندنافية، عام 1066 بقيادة وليم الفاتح، فملكوا البلاد واختلطت دماؤهم بدماء الأنجلو - ساكسون.

وإذا كان الانضباط بالمواقيت والمواعيد قد صار علامة على الإنجليز، فإن الألمان أجدر بالصفة. ولم أر مثل هذين الشعبين احتكاماً للترشيد العقلاني الموحش القاسي، الذي يتوخى تحقيق أفضل النتائج المادية العملية بأنجع السبل وأكثرها فاعلية واقتصاداً وكلفة، ولو كان الثمن تنحية الاعتبارات العاطفية والإنسانية والأخلاقية، إلا أن يكون ثمة مجال لاستثمار تلك المعاني استثماراً وظيفياً لتحشيد الطاقات العملية وتوجيهها وتفعيلها وتعظيم إنتاجها. وبخلاف ذلك تترك تلك الاعتبارات والأشواق الإنسانية والروحية ليعبر عنها الإبداع الفني والأدبي الرفيع في مجتمع يقوم على الاختصاص الوظيفي الصارم، فللإدارة السياسية والاقتصادية والصناعية والعسكرية أربابها، وللفنون والآداب أربابها. وإذ يلتقي في الحضارة نفسها بحر أجاج، وبحر عذب فرات، فإنه ليبقى بينهما برزخ لا يبغيان! وحتى الآداب والفنون لا تخلو رعايتها من اعتبار عقلاني وظيفي. فهي تقوم مقام المخيّلة الدينية الأسطورية الغاربة في تغذية الوجدان، وتعوّض الإنسان عن غلالة السحر والغموض المشوّق التي كانت تحيط بالكون قبل أن

مكتبة الرمحي أحمد

يؤدي سلطان العقل والعلم إلى انقشاعها، ويظن الإنسان أنه فك ألغاز الكون وصار قادراً عليه!

ولا شك أيضاً أن البروتستانتية قد أسهمت في عقلنة الوعي وإخلائه من المعجزات وقصص القديسين وأحلام المؤمنين بتدخلات روحية خارقة تمنحهم ما عجزت عنه الأسباب. فالعذراء لا تتجلى لهم، ولا ثم تمثال لها يعصر دموعاً دامية، ولا يصبح كاهن ليجد ذراعيه وساقيه مثقوبة ينز منها الدم في مواضع مسامير الصلب!

ولكن المخيلة التي أفرغت من هذه الصور المؤثرة استعاضت عنها بأصوات الموسيقى وهمسات الطبيعة الحالمة وقصص الإنسان وأشواقه وهزائمه وانتصاراته، كما تتجلى في الآداب والفنون السامية الخالدة. المعجزة لم تعد موضوع الحكاية، ولكنها الحكاية نفسها في صورة عمل أدبي أو سيمفونية تمتد بك لتسع الكون كلّه. فإذا استعدت إنسانيتك وخيالك وروحك في هذه المحطات الإبداعية، عدت أكثر نشاطاً إلى موقعك المخصوص في آلة الإنتاج العظمى التي لا تنتج أسباب الحياة إلا بقدر إنتاجها لأسباب الموت الموحش في الأرض اليباب.

الكفاءة الوظيفية المعقلنة التي أنتجت المرسيدس وأسباب الرفاه المادي والثروة والصحة وزيادة معدل الأعمار، خرجت من المصدر نفسه الذي أنتج آلة الموت والدمار والمحرقة النازية.

وفي مدى البحر العذب الفرات الذي يلتقي بالبحر الأجاج دون أن يمتزج به، أنتجت ألمانيا الحلم الرومانسي وجوته وباخ وبيتهوفن. أما البرزخ بين البحرين فأعاظم الفلاسفة العقلانيين والماديين: إيمانويل كانت، ونيتشه، وهيجل، وشوبنهاور، وماركس ونيتشه وماكس فيبر.

ما إن انقضى صيف ألمانيا والنمسا عام 1993، حتى ارتحلت إلى واشنطن العاصمة بالولايات المتحدة، لأبدأ سنة التفرغ العلمي. فكانت تلك فرصة للتأمل والمقارنة بين

مكتبة الربيعي أحمد

فضاءات من الغرب تختلف وتأتلف؛ كذلك المقارنة بين الانطباعات الذهنية والمعاينة المباشرة.

وكنت قبل ذلك عازفاً عن زيارة الولايات المتحدة، وقد انتصب حاجز نفسي بيني وبينها، من أثر سياستها الإمبريالية ودعمها الاستراتيجي للعدو الصهيوني. فاستنكفت عن قبول دعوات من جهات ثقافية وفنية خشية أن تكون هذه واجهات لمؤسسات حكومية تخفي أغراضاً سياسية.

أما مؤسسة التبادل العلمي (فولبرايت) فهي معروفة، ولا تقدم منحها إلا من خلال الجامعات والمؤسسات العلمية العامة. وقد أفاد منها أكاديميون من مشارب سياسية شتى.

كتب الكثيرون من الكتاب والأدباء والباحثين العرب عن تجاربهم في الولايات المتحدة وانطباعاتهم عنها، فاجتهدوا في الوصف والتحليل والتفسير. ولعل من أعمق تلك الكتابات ما دونه المفكر الفذ عبد الوهاب المسيري. وهي تنطق عني في الكثير مما يمكن أن أدوّنه هنا، فتغني عنه.

التناقض الظاهر بين انطباعات العرب الذي يزورون الولايات المتحدة أو يقيمون فيها، بل كذلك في انطباعات الشخص الواحد، مردها - في رأيي - إلى مصدرين: أولهما النظرة السطحية التبسيطية الاختزالية التجزيئية، وثانيهما طبيعة المجتمع الأمريكي وثقافته وتاريخه وآليات السيطرة والتوجيه فيه.

ففي المجال الأول تتردد الانطباعات والآراء بين الغلو في الإعجاب والغلو في البغض، وبينهما منازل ودرجات. فتجد من يختزل أمريكا في سياستها الخارجية، ولا يرى وراء ذلك شيئاً، فإذا ذكرت أمامه بعض الظواهر الاجتماعية الحسنة أصر أن باطنها من قبلها العذاب، واستعان بنظرية المؤامرة لينفي كل طيب، ويثبت كل خبيث. وفي المقابل، تجد من يمعن في الحديث عن طيبة الأمريكي العادي (التي تلتبس أحياناً بالسذاجة)، وفي الحديث عن الديموقراطية والحريات واحترام الإنسان والكفاءة الإدارية والتعددية وقبول الآخر وسهولة الاندماج في المجتمع الأمريكي دون عوائق، وانفتاح الفرص لكل مجتهد. ثم يفضل أن يتجاهل السياسة الخارجية الأمريكية، فإذا ذكّرته بها وبما أحدثته في

مكتبة الربيعي أحمد

بلادنا، رد التهمة إلى الذات. فنحن جلبنا ذلك على أنفسنا إذ أخفقنا في الدفاع عن حقوقنا وإقناع الرأي العام بها، وحكوماتنا الفاسدة المستبدة هي التي فرطت بمصالح شعوبها وتطوعت بخدمة المصالح الأمريكية دون مقابل إلا الحفاظ على سلطتها. أما الولايات المتحدة فلا تلام على طلب مصالحها، وإنما العبء على الطرف الآخر الذي يفرط بمصالحه!

لا تَرْجُ بعد ذلك أن تُحَجَّ صاحبك بالعنصرية التي تهمش السود وتستغل المهاجرين من أمريكا اللاتينية، ولا بالقوى الاقتصادية التي تختفي وراء واجهة الديموقراطية الليبرالية وتوجه القرار السياسي، ولا بدور الإعلام المرتبط بها في توجيه الرأي العام وإدارة العقول وتوجيه الناخب الأمريكي، ولا بتركز الثروة في أيدي نخبة صغيرة، ولا بتدخّل الحكومة لمصلحة رؤوس الأموال الكبرى وإحجامها عن التدخل من أجل الآخرين بدعوى حرية السوق وتقليص دور الحكومة عملاً بمبادئ الديموقراطية الليبرالية، وتجنباً لاستبداد الدولة، ولا بالحديث عن وسائل السيطرة الحديثة غير المنظورة التي تدير وعيك وخياراتك وأنت تظن أنك تملك الخيار الحر المستقل دون إكراه. لا تحاول شيئاً من هذا. فظواهر الفقر والتهميش لا يحتمل مسؤوليتها إلا من يعاني منها بسبب كسله وعجزه. وإلا فالفرص متاحة وموفورة!

والحق أن الحياة في الولايات المتحدة تبدو أيسر منها في الدول الأوروبية. فهي بلاد أرحب في مساحاتها وبيوتها وطرقاتها، وقد اعتاد أهلها على الوفرة، وكلفة المعيشة فيها أقل، والاندماج في مجتمعها أيسر (بغض النظر عن التغيرات التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر)، إذ هو مجتمع من المهاجرين الذين قدموا من أعراق وقوميات وأقطار شتى. وإذا كان مفهوم الأمة الحديث قد اقترن بالقومية، فإن الأمة الأمريكية لا تتطابق تماماً مع التعريف القومي، وذاك يعزز واقع التعددية بمظاهرها العرقية وثقافاتها الفرعية. وهو ما يعين الوافد والمهاجر على الاندماج دون أن يشعر بأنه مفرد خارج النمط السائد.

والحق أيضاً أن الأمريكي العادي أكثر إقبالاً وانفتاحاً وحرارة وتفاعلاً في علاقاته اليومية مع الآخرين. وتراه يفشي السلام على من يعرف ومن لا يعرف، أكثر مما يفعل من أمروا به ديناً، أعني المسلمين في مجتمعاتهم المدنية. فإن اكتفيت بهذا الفضاء الاجتماعي والمعاشي وكنت ناجحاً في عملك، أَنِسْتَ وآنَسْت، وكان لك أن تأخذ وتترك.

مكتبة الربيعي أحمد

ولكن هذه ليست الولايات المتحدة كلها. وأولئك ليسوا الوافدين كلهم. ولئن كان الأمريكان العاديون هم جلّ المواطنين، فإن الذي يدير حياتهم ونظام دولتهم ويعيد إنتاج مجتمعهم هم النخب الاقتصادية والسياسية والثقافية والإعلامية والعلمية. وهؤلاء هم الأقلية في رأس الهرم، حيث توجد مراكز إنتاج الخطاب السائد الذي يتحكم بالوعي العام. وثمة نخبة أخرى أصغر تتحرك في مساحة أضيق، وتعمل على إنتاج خطاب معارض للخطاب السائد وتجلياته المؤسسية، وإليها ينتسب مفكرون مثل تشوسكي وإدوارد سعيد.

على أن المجتمع الأمريكي بطبيعته وتاريخه وثقافته ينطوي على جملة من المفارقات التي تستعصي على الاختزال والتبسيط. فالدولار الذي تضفى عليه صفة القدرة الإلهية فيقال: Almighty dollar ، والذي هو رمز الثروة والجشع المادي، يحمل عبارة دينية تقول: بالله نثق In God we trust. وتختزل هذه المفارقة الكثير من طبيعة المجتمع الأمريكي وثقافته وقيمه. فهذا المجتمع الذي يتوجه بالفلسفة النفعية البراجماتية أكثر من أي مجتمع غربي آخر، ويتفوق على غيره في تعظيم النجاح المادي وجمع الثروة ويسقط عليهما قيمة أخلاقية معنوية، ويطلق روح التنافس الشرس في السوق، ما يزال الدين فيه حاضراً كما لا يحضر في المجتمعات الأوروبية.

بل إن الاتجاهات الدينية الأصولية المتشددة أظهر في الطبقات الغنية وأوثق صلة برأس المال، ومن ثم بالاتجاهات السياسية المحافظة والحزب الجمهوري الأكثر تعبيراً عن مصالح الرأسمالية المتوحشة.

ولعل تفسير هذه المفارقة يكمن في الجذور التاريخية التي أسست للولايات المتحدة. فالمهاجرون الأوائل الذين استوطنوا الأرض الأمريكية كان فيهم عدد كبير من البروتستانت المتشددين الذين عرفوا بإسم المتطهرين Puritans ، وقد هاجروا فراراً من الإضطهاد الديني في أوروبا ورأوا في العالم الجديد أرض الميعاد، وحملو معهم القيم البروتستانتية الكالفينية (نسبة إلى Calvin)، التي أسقطت ثنائية النجاح الدنيوي المادي والخلاص الديني الأخروي. فجعلت النجاح الدنيوي شاهداً مسبقاً على الاجتباء الرباني ونعمة الخلاص في الآخرة. إن شئت أن تطمئن على مصيرك الأخروي، فاجتهد وسعك

مكتبة الربيعي أحمد

أن تحقق النجاح المادي في الدنيا، فإن تحقق ذلك فهو علامة الإجتباء والخلاص! وبذلك يصبح الدولار صكاً مالياً وشهادة دينية معاً! فلا عجب إذن أن يبقى الدين حاضراً في فضاء التنافس الرأسمالي على الثروة المتراكمة.

وإذا كانت هذه العقيدة تمثل دافعاً قوياً للنشاط الرأسمالي ومراكمة الثروة (كما نص ماكس فيبر من قبل)، فإن من الطبيعي أن تبرئ النظام الاجتماعي من المسؤولية عن ظواهر الفقر والتهميش، فتنسب ذلك إلى الفرد نفسه وإلى مصيره المقدر. ولئن كان النجاح المادي، وفقاً لتلك العقيدة، شهادة أخلاقية ودينية للناجحين، فإن الاخفاق أيضاً شهادة أخلاقية ودينية ضد الفقراء والمعدمين. لا عجب في كل هذه المفاهيم أن تقاوم النخب الاقتصادية والسياسية المحافظة أنموذج دولة الرعاية الاجتماعية(على النمط الكندي والأوروبي) وأي دعوة إلى تدخل الدولة لدعم الطبقات الضعيفة.

وسواء أكانت القاعدة المادية الرأسمالية هي التي استدعت هذه العقيدة مسوغاً أخلاقياً وخطاباً أيدولوجياً (كما يفضل التفسير المادي الماركسي)، أم أن هذه العقيدة قد أسهمت في تحفيز النشاط الرأسمالي المتوحش (كما يفضل ماكس فيبر)، فإن أقل ما يمكن التوافق عليه أن ثمة علاقة عضوية تفاعلية (أو قل: جدلية) بين الجانبين.

ولا تتوقف المفارقات والتناقضات هنا. فالأمة التي استلهمت جون لوك ونظرية العقد الاجتماعي في إعلان استقلالها، ورفعت الحريات الفردية والعدالة والمساواة إلى مستوى الدين المدني، لتبرأ إلى الأبد من إرث التجربة الأوروبية في الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي واستكبار العائلات والسلالات الارستقراطية التي كانت ترى أن مكانتها منحة إلهية حصرية تقررها علاقات الدم، هذه الأمة استعبدت من الأفارقة ما لم تشهد مثله أمة أوروبية أخرى، وتأخرت في تحريرهم عن الأمم الأخرى، ولم يتحرروا رسمياً إلا بعد حرب أهلية حصدت مئات الألوف من البشر. على أن تحررهم رسمياً لم ينقذهم من التهميش والاضطهاد والتمييز العنصري. وحتى نهاية الستينات من القرن الماضي بقي الفصل العنصري قائماً في الكثير من مدارس الجنوب الأمريكي وكنائسه ومطاعمه وحافلاته. وحتى توماس جيفرسون، الذي حرر إعلان الاستقلال، وكان من الآباء المؤسسين لدولة الولايات المتحدة، ثم صار رئيسها الثالث، بقي يحتفظ بعدد من

مكتبة الرمحي أحمد

إناث الرقيق للعمل والمتعة معاً، وأولدهن أبناء لم ينسبهم إلى نفسه، وما زالت ذريتهم ممتدة حتى الآن.

ولكن هذا كله لا ينفي القول إن المجتمع الأمريكي قد اتسم عبر تاريخه بحيوية فذّة وبفرص واسعة للحراك الاجتماعي أغرت المهاجرين من كل حدب وصوب أن ينسلوا إليه، وأن يجتهدوا وسعهم لتحسين ظروفهم وصنع الثروة. وقصص النجاح في هذا الباب كثيرة شائقة أشبه أحياناً بقصص الخيال.

على أن هذه الظاهرة لم تنشئها خيارات مبدئية أخلاقية خالصة كما يتوهم بعض الناس، وإنما أملتها ظروف موضوعية في المقام الأول. فمن الطبيعي أن تتيح أرض جديدة واسعة لم يتم استغلال مواردها الهائلة بعد، لمجتمع جديد من المهاجرين في طور البناء والنمو والامتداد، فرصاً واسعة في فضاء لم ينغلق بعد على إرث تاريخي اجتماعي ثقيل ولا على نظام طبقي ناجز وصارم وموروث، كحال المجتمعات الأوروبية العريقة. ولكن، من الخطأ الاعتقاد أن هذا الحال ما زال قائماً الآن على ما كان عليه، بعد أن بلغت الولايات المتحدة ما بلغت من القوة الاقتصادية والسياسية، واستبدت نخب قليلة بجل الثروة، ونشأت سلالات اقتصادية راسخة يتوارث الأبناء امبراطورياتها جيلا بعد جيل، ثم يكون دورهم أن يحافظوا عليها ويعظّموا نشاطها وثرواتها. وبذلك فإن فرص الحراك الاجتماعي قد انحسرت انحساراً كبيراً مقارنة بما كانت عليه في الأيام الخوالي.

وإذا كان المهاجرون في أزمنة التأسيس والتكوين قد وجدوا آفاقاً مفتوحة للفرص والبناء وصنع الثروة، بعيداً عن القيود الاجتماعية التاريخية الراسخة في أوروبا، فإن الحرية التي أتاحت لهم ذلك في العالم الجديد، هي نفسها التي أطلقت العنان للتنافس الشرس، بل العنيف أحياناً، في بيئة كانت ما تزال رخوة من حيث القوانين والتنظيمات والإدارة الحكومية التي ينبغي لها أن تحتكر العنف تحت مظلة القانون. ومن الطبيعي أن يعمل في هذه الأجواء قانون الغلبة. بل إن بعض القوانين والتنظيمات الرسمية قد فسحت لذلك التقليد. فمن ذلك أن تقسم الأراضي الصالحة للفلاحة في بعض المناطق الجديدة، التي يصل إليها المهاجرون من الشرق الأمريكي إلى الغرب، ثم تنظم مسابقة بين المتنافسين ليتسابقوا بخيولهم نحو قطع الأرض المقسومة، وكل يريد أحسنها، فمن سبق إلى واحدة منها ركز فيها رايته، فكانت له من دون الناس. فهي لمن غلب.

مكتبة الربيعي أحمد

وهذه هي الأجواء التي تخلقت فيها ظاهرة رعاة البقر، «الكاوبوي» الأمريكي الذي يحتكم إلى مسدسه وبندقيته. وإذا استوفت المبارزة بالمسدس بين المتخاصمين شروطها القانونية، فلا ضير على المتغلّب، ولا عزاء للقتيل المغلوب!

والآن، تعمل ست وعشرون ولاية بقانون مثير للجدل يعرف باسم «اثبت في مكانك» Stand your ground law، وينصّ على أنه إذا حاول شخص ما أن يزيحك من أي مكان تكون فيه بصفة شرعية، فلا يلزمك التقهقر تجنباً لصدام قد يكون مؤذياً أو مميتاً، فلك ان تذب عن حقك ولو باستخدام السلاح وقتل الخصم إذا ترجح لديك أنه يمكن أن يسبب لك أذى جسدياً أو أنه يتهدد حياتك إذا مكثت في مكانك. وليس عليك أن تلجأ بدلاً من ذلك إلى الشرطة لتدفع عن حقك المهدد.

وعلى الرغم من سيادة القانون وتنوّع الوكالات المسؤولة عن تنفيذه ومبدأ احتكار الدولة للعنف المشروع في الدولة الحديثة، فإن امتلاك السلاح المميت ما يزال حقاً مشروعاً للأفراد. وحتى عهد قريب لم يكن ثمة قيود تذكر على شراء السلاح، ومنه أنواع حربية. فلما كثر الجدال حول العواقب المميتة وتوالي الجرائم العشوائية العبثيّة التي استهدف بعضها أطفال المدارس والمارة والأبرياء، أضيفت بعض القيود المحدودة التي لا تمنع جل الناس من الحصول على السلاح. وظلت جماعات الضغط التي تمثل المصالح المادية الهائلة لمؤسسات صناعة السلاح والإتجار به، قادرة على تعطيل المطالب المتنامية لوقف هذه التجارة بين المدنيين. وحجتها كالعادة، أن حمل السلاح للدفاع عن النفس حق قديم من حقوق الفرد الأمريكي، وأنه يدخل في باب الحريات الشخصية التي لا يجوز للدولة أن تجور عليها، وأن منافعه ترجح أضراره. وذلك على الضد مما تفيد به الوقائع والإحصاءات والبينات الدامغة. وهكذا يوظف خطاب الحريات الفردية لحماية المصالح الرأسمالية للشركات الكبرى! ويظهر كذلك أن الإيدولوجيا المحافظة تفضّل مبدأ العقاب على الجريمة بعد وقوعها، على مبدأ القضاء على أسبابها، حين تتداخل هذه الأسباب مع بعض أسباب الثروة، أو حين يؤدي الحدّ من أسباب الجريمة، إلى الحد من حرية السوق. والمنطق الذي تردده في سياق الجدال الدائر حول هذا الموضوع: ليس السلاح في ذاته سبب الجريمة، ولكنه الشخص الذي يحمل السلاح! أما الشخص فلا سبيل إلى معرفة ميوله الإجرامية أو اضطراباته مسبقاً، وأما أداة الجريمة فهي صناعة بمليارات الدولارات.

مكتبة الربيعي أحمد

وبصرف النظر عن أحكامنا السياسية والأخلاقية على النظام الرأسمالي الأمريكي، فإن المنجز الأمريكي الهائل من حيث القوة الاقتصادية والتقنية والسياسية في فترة قصيرة نسبياً من التاريخ يمكن تفسيرها -جزئياً على الأقل- باستدعاء نظرية ارنولد توينبي في التحدي والاستجابة. فالمهاجرون الذين تقاطروا على تلك البلاد الشاسعة جيلا بعد جيل، حملوا معهم الخبرات الأوروبية المتراكمة والمتقدمة، ووظفوها في مواجهة التحديات البشرية والطبيعية الكبرى في عالم جديد لم يُوَطَّأ بعد للاستيطان المدني الأوروبي بغاباته وجباله وسهوله وصحاريه ومناخاته المتنوعة بين البرد الشديد والحر القائظ. وعلى القادمين أن يكتشفوا موارده الهائلة ويعملوا على استخراجها واستغلالها من نقطة الصفر، في جو يسوده قانون المغالبة والتنافس الشرس. ثم كان عليهم أن يطوّروا قوانينهم ونظامهم بما يواكب نمو المجتمع وضروراته، وأن يختلقوا مع الزمن لأنفسهم هويّة أمريكية مستقلة عن البلاد التي قدموا منها، وتنصهر فيها المكونات البشرية المتنوعة بخلفياتها الاجتماعية والثقافية. وفضلاً عن هذه التحديات، كان عليهم أن يواجهوا العوائق البشرية التي يمثلها السكان الأصليون الذين بات المد البشري الطارئ يهدد عالمهم القديم وثقافاتهم وحقوقهم في أراضيهم ومواطنهم وسبل عيشهم. فنهض الكثيرون منهم يذبون عنها في مواجهة غير متكافئة انتهت بإبادة معظمهم وتقويض عالمهم وإلحاقه بالمجتمع الأبيض الجديد.

بلى، أدت هذه التحديات إلى استجابة جماعية هائلة مسلّحة أصلاً بخبرات أوروبية متطورة، حتى أفضت أخيراً إلى قيام الإمبراطورية الأمريكية بكل قوتها وجبروتها، ولكن، بثمن أخلاقي باهظ.

وإذا أمعنا النظر، رأينا أن تشكل الأمة الأمريكية قام على مفارقة كبرى، هي أم المفارقات الأخرى التي ما زالت من طبيعة المجتمع الأمريكي على نحو ما ذكرنا سابقاً. فمن جهة، نشأت هذه الأمة على خلفية التحرر والانفلات من سطوة الدولة القومية المركزية الأوروبية، والظلم الاجتماعي والاضطهاد الديني والقهر السياسي، ومن جهة أخرى احتفظت بروح العنصرية الأوروبية وعقيدة تفوق الرجل الأبيض الأوروبي، واستباحت بذلك دماء السكان الأصليين في أمريكا وحقوقهم، واستعبدت ملايين الأفارقة لتسخيرهم في العمل الزراعي بصفة خاصة في ظروف بالغة القسوة. فالحريات

مكتبة الربيعي أحمد

امتياز للإنسان الأوروبي الأبيض. لا يجوز للأوروبي أن يضطهد الأوروبي أو يستعبده، ولكن يجوز له أن يستعبد الشعوب الأخرى. ومن هنا كان التناقض الفادح بين خطاب الحريات وممارسات القهر والسيطرة والعنصرية، التي امتدت فيما بعد إلى العالم مع التحول إلى الإمبريالية.

ينبغي أن نتنبه في هذا السياق إلى أن مفهوم الاستقلال في التاريخ الأمريكي يختلف عن مفهومه في البلاد التي خضعت للاستعمار الأوروبي. ففي السياق الأمريكي، لم تكن بريطانيا قوة غازية استعمارية فرضت نفسها بالقوة على المستوطنين البيض بوصفهم شعباً مستقلاً بهويته وثقافته وتاريخه، ثم حارب من أجل استقلاله كشأن الشعوب الأخرى المستعمرة (بفتح الميم). إنما كانوا امتداداً لبريطانيا في العالم الجديد، أي أنهم كانوا المادة البشرية للتمدد الاستعماري الاستيطاني البريطاني. فهم فرع من الأصل البريطاني، وجزء من الكل، وإن استقر في أرض جديدة. لم تلحقهم بريطانيا بها، ولكنها امتدت بهم. وحتى عشية حرب الاستقلال الأمريكية لم تكن الهوية الوطنية الأمريكية قد اكتمل تشكلها مستقلة عن هويتها الأصل. وكانت مطالب المستوطنين التي مهدت للصدام، مطالب حقوقية مدنية، تتلخص في ضرورة المساواة بين المستوطنين وسائر الشعب البريطاني المقيم في بريطانيا نفسها من حيث الحقوق والواجبات، وفي مقدمة ذلك حق تمثيلهم في البرلمان البريطاني إذا كان عليهم أن يؤدوا الضرائب المفروضة للحكومة البريطانية. فكان الشعار «لا ضرائب بلا تمثيل». وقد أسهم التعنت البريطاني الرسمي الذي اتخذ أشكالاً عنيفة في اتساع الهوّة الشعورية بين الأصل والفرع، ومن ثم في تعزيز هويّة أمريكية مستقلة. بل إن جزءاً من المستوطنين ظلوا على ولائهم لبريطانيا عشية حرب الاستقلال وفي أثنائها.

وإذن فإن الاستقلال الأمريكي كان أشبه بتمرّد الولد على سلطة أبيه واختياره الاستقلال عنه بعد أن شب عن الطوق، وصار مستغنياً عنه. ومع ذلك فإنه يحمل جينات أبيه. كل ما في الأمر، أن المادة البشرية للامتداد الاستيطاني الاستعماري البريطاني في العالم الجديد، تستطيع منذ الآن أن تتابع مشروعها لقهر القارة الأمريكية بمعزل عن الأب الذي تخلّقت منه. فلها أن تعلي من خطاب الحرية على خلفية استقلالها عن الأصل الأوروبي وإرثه الثقيل، لتنهض مستقلة بنفسها في إنجاز المشروع الاستعماري الاستيطاني نفسه بوسائل العنف نفسها. وبعد زهاء قرن ونصف سوف ترث القوى الاستعمارية

مكتبة الربيعي أحمد

الأوروبية في الهيمنة الإمبريالية على العالم، دون أن تكفّ عن التباهي بمبادئ الحرية والمساواة التي تزعم أنها تأسست عليها!

تلكم هي المفارقات التي استقرت عليها التجربة الأمريكية، والتي تتجلى أحياناً في انطباعات الآخرين عنها بين محب غالٍ ومبغض قالٍ، وبين الطرفين من ينطبق عى علاقته بالولايات وصف الحب والكراهية معاً! فتراهم يتقلبون بين المدح والذم. ومنهم من يكره بلسانه، ثم لا يرضى عن الإقامة فيها بديلاً. ومنهم من تراه عربياً بين الأمريكان، وأمريكياً بين العرب!

على أنه تبقى دائماً مسافة ما بين الرؤية التاريخية والثقافية والسياسية للمجتمع بجملته، وبين حيز العلاقات الشخصية والتفاعل اليومي مع الناس والبيئة. ففي هذا الحيّز يمكن أن تجد ما يثير الإعجاب وما يغريك بالاندماج، وما يغني تجاربك وخبراتك، ويمتع سمعك وبصرك وفؤادك، ويطلق مواهبك وقدراتك، ويؤمن لك حياة مريحة. إنما المشكلة فيمن تتوقف رؤيته عند مظاهر هذا الحيّز الشخصي، فلا يرى وراءها شيئاً.

وأعترف أني استمتعت بإقامتي في الولايات المتحدة في سنة التفرّغ العلمي تلك، ثم في زياراتي الكثيرة بعد ذلك. فذرعتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، واختبرت ما فيها من التنوع الجغرافي والبشري والثقافي. وعلى الرغم من أن حركة الاستيطان الأوروبي الدائم فيها قد بدأت في مطالع القرن السابع عشر، وأنه قد مضى الآن على «الاستقلال» وتأسيس الدولة قرنان وبضعة وثلاثون عاماً، فإن آثار الجدّة ما تزال واضحة فيها مقارنة بالدول العريقة. تنطق عن ذلك غاباتها وسهولها وجبالها ومدنها وعمائرها وأحياؤها السكنية التي كثيراً ما تحيط بها بيئة الغابات الأصيلة التي امتد فيها العمران البشري المستحدث. وربما شاهدت حيوانات بريّة تعبر بين الأشجار القديمة في حديقة منزلك، لتذكرك بأن هذه هي بيئتها الأصلية التي طرأ عليها البشر وزاحموها عليها.

ولكم وجدت نفسي أقف متأملاً في بيئة عمرانية عظيمة تضج بالحياة الحديثة، ثم تجتهد مخيلتي في محوها من المشهد، لأتخيلها في طبيعتها البريّة الأولى، يرعى فيها الجاموس الأمريكي، وتتناثر فيها خيام السكان الأصليين، قبل أن تبدأ نذر النبوءات القديمة في التحقق، وتطأ أقدام الغرباء البيض القادمين من البحر أرضهم لتبدأ ملحمة جديدة كبرى

مكتبة الربيعي أحمد

تقوّض عالمهم القديم الموروث من آلاف السنين، وتبني على أنقاضه عالماً حديثاً لن تنحصر آثاره فيهم، حتى يغيّر من تاريخ البشرية كلها. ثلّة من المستوطنين الأوائل، ما إن وضعت أقدامها على الشاطئ حتى ختم المصير المظلم للسكان الأصليين، بل تقررت معه مصائر الكثير من شعوب العالم، و مصائر أجيال فلسطينية ستولد بعد زهاء ثلاثة قرون ونصف القرن، من أصلاب أجدادهم الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن العالم الجديد البعيد حين رست سفينة المستوطنين الأوائل على الشواطئ الأمريكية! خيمتان.. خيمة قوّضت قسراً في الأرض الأمريكية. وأخرى نصبت قسراً في الأرض العربية بعد قرون. أما الأولى فكانت المأوى القديم الذي اختاره «الهندي الأحمر» حراً طليقاً ليحتضن أحلامه وتراثه وطقوسه، فكان تقويضها إيذاناً باغتيال وجوده ومصادرة أرضه وروحه. وأما الثانية فقد نصبت لتكون البديل القسري عن وطن الفلسطيني، وعنوان شقائه وتشرّده. ولكنه جعلها كذلك مستودع ذاكرته وأحلام عودته ومنطلق مقاومته. فهل نذهب بعيداً إذا قلنا إن الجانب المظلم من التاريخ الأمريكي يمتد بين الخيمتين: الخيمة المقوّضة، والخيمة المنصوبة!

الوداع الأخير للجامعة والأكاديميا

في عام 2007 استقلت من عملي في الجامعة الأردنية، وودعت معها العمل الوظيفي الراتب على الجملة. وهذه المرة لم ألتفت ورائي أبداً!

لم تكن الجامعة التي غادرتها في ذلك العام، هي الجامعة التي عاصرتها في أعوام تألقها طالباً ومعيداً ومبعوثاً ومدرساً. لماذا يكون تقادم المؤسسات العلمية في الغرب تقدماً وعراقة ويكون عندنا ترهلاً وتراجعاً؟! لماذا نبدأ أحياناً من مستوى ممتاز كما أراده الآباء المؤسسون ثم ما يلبث الخط البياني أن ينحدر دون توقف؟ لماذا يأتي التضخم الكمّي على حساب المستوى النوعيّ؟

لا ننكر أن المؤسسة الجامعية لا تنفك عن المجتمع العام والظروف الموضوعية التي تحيط بها، فيصح أن تنسب أوضاعها إلى تلك الظروف العامة. ولكننا كنا نأمل أن تنهض الجامعات بدور طليعي فاعل في خلق وعي جديد وفي عملية التقدم والإنماء.

مكتبة الرمحي أحمد

فقد الأستاذ الجامعي الكثير من اعتباره المعنوي وهيبته، وأكثر من وضعه المادي الذي لا بد أن يؤثر في مركزه الاجتماعي. فليس باللقب العلمي وحده يحيا الإنسان. ومما يزيد من الضغوط المادية على الأستاذ الجامعي أن لقبه وتأهيله وموقعه في السلم الاجتماعي، كل ذلك يفرض عليه أن يعيش بمستوى معين لا يقل عن مستوى الشريحة الوسطى من الطبقة الوسطى. فلا أقل من أن يملك سكنه وسيارته ويرسل أبناءه إلى مدارس خاصة محترمة، ويقضي مع أسرته إجازة في الخارج بين الفينة والأخرى. فلا عجب أن ينتهي الأساتذة إلى التنافس المحموم أحياناً على المحاضرات الإضافية لدعم دخلهم، أو أن يبحث بعضهم، إذا تسنى لهم ذلك عن فرص إضافية خارج العمل الوظيفي الراتب. فلا يبقى لديهم بعد ذلك وقت كافٍ للبحث والدراسة ومواكبة الجديد في مجالات تخصصهم العلمي.

ولقد رأيت أكثر الزملاء يعلمون اليوم محتوى المادة الذي أعدوه منذ انتظموا في العمل الأكاديمي، فلا تغيير ولا تبديل ولا إضافة ولا تطوير. ولا متابعة لما يَجِدّ من النظريات والمناهج الجديدة. وربّ أستاذ لم يزل يحاضر من كراسته القديمة التي أكل الدهر عليها وشرب، لا يبغي عنها حِوَلاً. ولقد يدفع عن نفسه بصرف التهمة إلى ضعف الطلبة. فهذا منتهاهم من التحصيل إذا اجتهدوا، وأفلح القوم إن استوعبوا كلّه أو جله. فلم التزيد والفضول! وإذا استعصى على بعضهم مواكبة الجديد بمصطلحه ومنظومة مفاهيمه، اتهم الخائضين به بالعجمة والتغريب والهرطقة المعرفية. فما لنا والبنيوية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وتحليل الخطاب ونحو النص والسميولوجيا والأسلوبية والتفكيكية! وهذا على أي حال أقوم طريقة ممن يدعي وصلاً موهوماً بليلى، فيستدعي المصطلح دون استيعاب للنسق المعرفي الذي ينتمي إليه. وإذ بالبنيوية تعبير جديد جذاب عن معنى قديم لا يزيد على مفهوم الترابط العضوي بين أجزاء النص، وإذ بالأسلوبية كلام تقليدي في الشكل الفني ، وعوضاً عن «تحليل النص» يقال: «تفكيك النص»، أو تحليل الخطاب. تسميات جديدة براقة لمسميات قديمة!

ولا ينحصر الوضع في محتوى المادة التي يعلمها الأستاذ الجامعي. ولكنه يشمل البرنامج الدراسي المقرر برمته. إذ تميل الأقسام إلى المحافظة والتقليد والثبات على برنامجها وموادها وتقاوم مقترحات التغيير والتعديل وتصميم مواد جديدة تواكب التطورات

مكتبة الربيعي أحمد

المعرفية والحاجات العلمية. إذ يقتضي ذلك من المدرسين مفارقة المألوف الذي أقاموا عليه دهراً، وأن يبذلوا جهوداً إضافية في تحضير مواد جديدة. وعلى سبيل المثال، عرضت على قسم اللغة العربية وآدابها غير مرة أن يرجع النظر في خطته الدراسية للبكالوريوس في ضوء الشكوى المستمرة من أن الكثير من الخريجين لا يحسنون استعمال العربية الفصحى كلاماً وكتابة، فيكثر منهم اللحن والخطأ، حتى في طلبات العمل والمخاطبات الرسمية والديوانية. ولما كانت العربية مجال تخصصهم فإنهم بتلك الأخطاء يهدفون أنفسهم والقسم الذي تخرجوا منه للسخرية والنقد الشديد، وأصل المشكلة في رأيي أن الخطة الدراسية للقسم قد بنيت على أساس شبيه بما تبنى عليه أقسام اللغة الإنجليزية في جامعات الدول الناطقة بالانجليزية. فالطالب البريطاني أو الأمريكي لا يلتحق بقسم اللغة الإنجليزية ليكتسب مهاراتها الأساسية في الكلام والكتابة، على نحو ما تفعله معاهد تعليم الإنجليزية لغير الناطقين بها. فالإنجليزية للناطقين بها هي لغة الأم الأولى المكتسبة. فإذا التحق أحدهم بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها فإن الغاية أن يتعلم عن لغته، لا أن يتعلم لغته! فيدرس آدابها وتاريخ تطورها ونظامها اللغوي على نحو منهجي. ولا ريب أنه في أثناء ذلك يصقل أساليبه ويطور كفاياته التعبيرية. فهل ينطبق هذا على الطالب العربي واللغة العربية الفصحى، حتى يكون تركيز الخطة الدراسية على علوم اللغة وآدابها، دون أن تفرد مساحة كافية لتطوير المهارات اللغوية الأساسية؟ والحال، أن الطالب يتخرج وهو يعرف عن العربية ونظامها وتاريخها وآدابها أكثر ما يتقن استعمالها. فقد يحدثك عن الشعر الجاهلي وعن الجاحظ والمتنبي وجهود الخليل بن أحمد، ولكنه مع ذلك لا يكاد يقيم على لسانه جملة سليمة دون أن يتعثر، وإذا كتب أكثر من الأخطاء النحوية، فإن سلم من الأخطاء لم يسلم من الركاكة. والحق أن الخطة الدراسية لقسم اللغة العربية وآدابها يجب أن تأخذ بعين الإعتبار أن الفصحى عند الطلبة الملتحقين بالقسم هي في منزلة بين المنزلتين: اللغة الأولى المكتسبة، واللغة الثانية المُتَعَلَّمة. فلا هي الأولى بإطلاق، ولا هي الثانية بإطلاق. فينبغي أن تصمم الخطة الدراسية وفقاً لهذا الوضع، فتجمع بين المهارات اللغوية وعلوم العربية وآدابها، أي بين تعليم العربية والتعليم عنها.

وقد انكشف هذا الخلل الفادح في أداء الطلبة من غير العرب الذين كانوا يوفدون من بلادهم للدراسة في قسم اللغة العربية، وأكثرهم من ماليزيا. ويفترض أنهم يلتحقون

مكتبة الربيعي أحمد

بالقسم وعندهم من مهارات العربية ما تكفي لاستيعاب المحاضرات وتدوين المعلومات والاتصال بالمصادر والمراجع والتقدم للاختبارات مع زملائهم العرب على صعيد. ولكن واقع الحال أن جلّهم يبدأ وهو لا يكاد يبين، ولا يفقه حديثاً، وينتهي كما بدأ! ويعولون على تسمح المدرسين معهم بمعايير التقويم ترفقاً بهم وإشفاقاً عليهم أن يعودوا إلى بلادهم ولم يحصلوا على الدرجة التي قدموا من أجلها.

وغني عن القول: إن محاولاتي واقتراحاتي للتعديل والتطوير، قد اصطدمت بجدار سميك من التقليد والمحافظة المريحة، إلا ما أعانت عليه جهود فذة من الدكتور نهاد الموسى والدكتور إبراهيم السعافين اللذين تولى كل منهما رئاسة القسم مدة من الزمن وكان لهما من العقل والعلم والنزاهة والجرأة والانفتاح ما أعان على فتح بعض الأبواب المغلقة، ولو إلى حين. ولكن الظروف العامة المحبطة ظلت أقوى من جهودهما المشكورة. وما كان للأفكار التجديدية أن تؤتي أكلها، إن لم تجد من الكفاءات البشرية من يستطيع ترجمتها إلى فعل وواقع. وليس في وسع من يقدم تلك الأفكار والمقترحات أن ينهض بها وحده، فثمة حدّ لعبء الأستاذ الجامعي من المواد التي يدرسها والرسائل التي يشرف عليها.

ومع ذلك، اجتهدت في نطاق الحيز المتاح لي أن أقحم طلبتي، لا سيما طلبة الدراسات العليا، في المدارس والمناهج الجديدة في النظرية النقدية والأدبية واللسانية، مثل الأسلوبية والسيمائية وتحليل الخطاب والبنيوية وما بعد البنيوية والتحليل الثقافي للنصوص، ونحو النص، ومدارس علم اللسان المختلفة، واللسانيات التطبيقية، وعلم اللسان الاجتماعي، مع وضع هذه المناهج في سياق الاتجاهات المعرفية (الابستمولوجية) المتنافسة التي ترتد إليها في تاريخ الفكر وفلسفة العلوم كالاتجاهات الوضعية المادية Empirical والسلوكية والتأويلية والإدراكية العقلانية. ومن شأن ذلك أن يفتح الأبواب لفهم التداخل بين المجالات المعرفية كعلم اللسان والنظريات الأدبية وعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة وتاريخ الفكر.

وما افتقدته في المحيط الأكاديمي العام عوضتني عنها استجابات طلبتي، فبرز منهم عدد من الباحثين اللامعين الذين أقبلوا بشغف على هذه المعارف يربطونها بتراث العربية ويكتشفون بها كنوزاً خبيئة فيه. وما كنت لأوافق على الإشراف على رسالة جامعية مقترحة إلا لطالب اختبرت قدراته ومواهبه في المواد التي درسها عليّ، وإلا في موضوع

مكتبة الربيعي أحمد

جديد يعد بإضافة جادّة. وأشهد أن بعضهم قدّم رسائل فائقة بكل المعايير. وكانت المشكلة أحياناً أن تجد من الأساتذة من له من التخصص أو المعرفة بالموضوع ومنهجه ومصطلحه ما يؤهله للمشاركة في لجنة المناقشة.

إذا رأيت اثنين من أعضاء الهيئة التدريسية يتحاوران، فالأرجح أن تكون الشكوى ثالثهما: الشكوى من الإدارة أو من مستوى الطلبة أو من الأوضاع العامة للأستاذ الجامعي والعملية الأكاديمية، أو من هؤلاء جميعاً، حتى ليبدو لك أن الأستاذ الجامعي الذي كان شديد الاعتزاز بمهنته، لا يمسكه الآن فيها إلا غياب الخيارات الأخرى.

ويكاد الوسط الأكاديمي أن يخلو من التبادل الفكري والمعرفي والتعاون البحثي. وهي ظاهرة عامة في الجامعات العربية. وما عليك إلا أن تقارن الكتب التي ينتجها الأكاديميون العرب بتلك التي ينتجها الأكاديميون والباحثون في الدول الغربية. فمن النادر أن تجد كتاباً عربياً يسهم فيه عدد من الباحثين فيتناول كل منهم جانباً من جوانب الموضوع الجامع، بإشراف محرر فيهم يضطلع بمهمة التنسيق والترتيب وخلق الاتساق والتجانس. وهو ما تجد الكثير منه في المكتبة الأكاديمية الغربية. وحتى كتاب المؤلف الواحد في الغرب، فإنك واجد في مقدمته شكراً لقائمة من الأسماء التي أسهم أصحابها في قراءة المُسَوَّدَة وعادوا على المؤلف بمقترحات وأفكار قيمة، ما كان للمؤلَّف أن يستوي في صورته الأخيرة الراقية بدونها. ولا تجد نظير ذلك في المكتبة الأكاديمية العربية على تضاؤلها كماً ونوعاً قياساً بالإنتاج الغربي.

والحق أن الإبداع يتولد بعضه من بعض. والنص وإن كان مؤلفه واحداً، فهو نتاج جملة من النصوص، كما تفيد نظرية التناص.

ومن المؤسف أيضاً أن تعمل أمراض المجتمع في الوسط الأكاديمي، بدلاً من أن يكون طليعة التغير والتقدم. ولطالما رددنا أن مخرجات النظام التربوي والتعليمي هي الكفاءات البشرية التي تقود عملية التنمية الشاملة. ولكن واقع الحال يشي بخلاف ذلك في واقعنا العربي. وإذ بالوسط الجامعي صورة مكثفة للمجتمع العام بكل مشكلاته وصراعاته ومظاهر تخلّفه، وإن تظاهر بغير ذلك في خطابه المعلن. فالولاءات الشخصية

مكتبة الربيعي أحمد

والجهوية تتقدم على معايير الكفاءة والإبداع في التعيينات والمناصب الإدارية. بل إن الجهود الإبداعية لا تحظى من الإدارة بمستوياتها المختلفة بالتقدير المعنوي الذي تجده في الأوساط الثقافية والفنية خارج الجامعة، وربما على امتداد الوطن العربي.

حين كنت طالباً في الجامعة الأردنية في النصف الثاني من عقد الستينات من القرن الماضي، كان الدكتور ناصر الدين الأسد، الرئيس المؤسس، إذا رآني في تجواله في حرم الجامعة، استوقفني ليعلق مثنياً على نص شعري أو قصصي أو نقدي نشرته في الصحافة. ولك أن تتخيل ما يتركه ذلك في نفس طالب لم يتجاوز العشرين.

بعد ذلك بزهاء أربعة عقود، لم أتلق من إدارة الجامعة التي أعمل فيها تهنئة واحدة على أعمالي الأدبية الدرامية التي حظيت بنجاح وتقدير كبيرين على مد الوطن العربي، وحصل كل منها على أرفع الجوائز العربية إنتاجاً وتأليفاً. وكان منها مسلسل «التغريبة الفلسطينية» الذي أحدث صدى عظيماً وكرمتني به جهات كثيرة مختلفة في مشرق الأرض ومغربها، ومنحني اتحاد الاذاعات العربية التابع للجامعة العربية جائزته التقديرية الكبرى اعترافا بقيمة العمل الباقية في سرد الرواية الفلسطينية وحفظ الذاكره. ثم فزت بجائزة الدولة التقديرية في الأردن (وهي أرفع جائزة تمنحها الدولة) عن جهودي في التأليف الدرامي. وفي كل هذه المناسبات لم تبادر الإدارة في الجامعة بمستوياتها المختلفة، من القسم إلى العمادة إلى الرئاسة، إلى تكريم جهودي ولو بتهنئة شفوية.

بل يبدو أن مثل هذه الانجازات تصير عبئاً على صاحبها في المؤسسة التي يعمل بها، بدلاً من أن تكون في ميزانه. ففي إحدى المناسبات النادرة التي راجعت فيها رئيساً للجامعة في أمر رسمي، أخبرني الرئيس في ذلك الحين بأن جهودي الإعلامية والثقافية والإبداعية خارج نطاق عملي الجامعي، قد تركت انطباعاً لدى الإدارة العليا بأن هواي خارج الجامعة، وأن القوم يتوقعون لذلك أن أترك الجامعة عاجلاً أو آجلاً لأنصرف إلى جهودي الأخرى. ولو وقف عند هذا لهان الأمر. ولكنه أردف يقول: فإن كان الأمر كذلك، فليكن عاجلاً!

أي رئيس هذا الذي يستعجل خروج أستاذ يشهد له قسمه وطلبته (وهم شهود الحق) بأداء تدريسي متميز إلى جانب إنجازاته الإبداعية؟! ومن جديد، لا يملك المرء إلا

مكتبة الربيعي أحمد

أن يقارن بالجامعات الغربية المرموقة التي تحتفي بمبدعيها أيما احتفاء، وترى في إنجازاتهم كسباً لها ولصيتها، ثم تجعل ذلك كله في ميزان المبدعين معنوياً وعملياً، وتحسبه في ترقياتهم وعقودهم. ويبدو في المقابل أن النجاح عندنا يستجلب من الحسد والضغائن أكثر مما يستجلب من التقدير والإعجاب!

الفرق بين موقف الأستاذ الكبير المؤسس ناصر الدين الأسد، من الإسهامات الأدبية والثقافية لطالب مبتدئ يستقبل من أيامه وأحلامه وطموحاته أكثر مما يستدبر، وبين موقف رئيس آخر، بعد زهاء أربعة عقود، من عضو في هيئة التدريس يرجو أن يكون قد ترك إرثاً باقياً في طلبته وفي المشهد الإبداعي معاً - هذا الفرق بين السلف المتقدم والخلف المتأخر يلخص مسار الجامعة من عصرها الذهبي إلى مآلها الحاضر!

أعلم أن هذا التقويم لن يسر بعض الناس الذين يؤثرون الإنكار والإطراء على الذات، وإن اتفق عليه جل العاملين في الوسط الأكاديمي.

وليس الحال الذي آل إليه وضع الهيئة الأكاديمية بأسوأ من الحال الذي آل إليه المجتمع الطالبي من حيث معايير القبول التي زاحم فيها نظام الاستثناءات نظام التنافس الحر بنتائج الثانوية، ومن حيث مستويات الأداء الدراسي، والأنشطة الثقافية العامة والتنظيمات الطالبية. أين ما كان عليه المجتمع الطالبي منذ بداية الجامعة حتى أواخر عقد الثمانينات من حيوية ونشاط، حين كان التدافع بين النشطاء بالتيارات الفكرية والعقدية والسياسية، وكانوا أسرع الناس استجابة للقضايا الوطنية والقومية؟ ما الذي طرأ على المجتمع والمزاج الاجتماعي السياسي العام حتى انحصر التدافع السياسي بين التيار الاسلامي وما يسمى بالتيار الوطني الذي تدعمه المؤسسة الرسمية والأمنية. وليته يقف عند هذا. فما زلنا نسمع بين الفينة والأخرى عن صدامات عنيفة حركتها العصبيات العشائرية أو الجهوية. أما مجلس الطلبة الذي كان ينتخب بكامل أعضائه، حتى في فترة الحكم العرفي، فقد فرضت إدارة الجامعة انتخاب نصفه وتعيين نصفه لضبط نشاطه السياسي والتحكم به، وذلك بعد سنين من رفع الأحكام المعرفية واستئناف الحياة النيابية؛ وكفى بذلك تعبيراً عن تراجع الوضع الجامعي.

ولا يفوتنا في هذا السياق أن نشير إلى تردّي مستوى الأداء الدراسي في الدراسات الأدبية والإنسانية بصفة خاصة. ذلك أن هذه الأقسام تستقبل أضعف الطلبة من حيث

مكتبة الربيعي أحمد

نتائج الثانوية. وجل من يقبلون عليها هم الذي لا يستطيعون غيرها. ومهما يجتهد المدرسون فلن يجاوزوا وسع طلبتهم وقدراتهم الذهنية. وربما كيّفوا أداءهم التدريسي على وفق ما يستطيعه طلبتهم. ويبدو أن إدارات الجامعات المتتابعة، لا سيما تلك التي جاءت من خلفيات علمية مهنية كالطب مثلا، ما زالت تميل إلى تهميش أهمية هذه الدراسات. على أن العامل الأهم يبقى متمثلاً في ضغوط سوق العمل، فضلاً عن النظرة الاجتماعية العامة التي تضغط على نخبة الطلبة من خريجي الثانوية للتوجه إلى التخصصات العلمية المهنية كالطب والهندسة والصيدلة، حتى لو كان سوق العمل قد ضيّق فرص المهندسين والصيادلة دون الأطباء. وهؤلاء على أي حال، ينقطعون بعد التأهيل الجامعي إلى مهنهم المخصوصة. فلا يتوقع منهم أن ينخرطوا في الحياة الفكرية والثقافية ليسهموا في قيادة عملية التغيير والتجديد والتنمية الشاملة. أما خريجو الدراسات الإنسانية فلا يملك الكثير منهم ابتداءً ما يكفي من المواهب الذهنية للإبداع الفكري والثقافي. وبذلك تكون الخسارة مزدوجة على المدى البعيد. والحال أن أسئلة التغيير والتقدم على الصعد الاجتماعية والثقافية والسياسية والفكرية تتصل بالدراسات الإنسانية في المقام الأول. ولا يغني عن ذلك أصحاب الاختصاصات العلمية المهنية الذين يفتخر الكثيرون منهم بانقطاعهم عن الشأن الثقافي والفكري ويقنعون بالنجاح المهني والمادي.

ولقد يزعم البعض أن التطور العلمي والتقني هو ما تفتقر إليه مجتمعاتنا، ومن ثم فإن التركيز على التخصصات ذات العلاقة هو عين الطلب. ولكن هذا تصور ساذج مبسط. فالتقدم العلمي والتقني والصناعي يخضع لشروط مجتمعية واقتصادية وسياسية عامّة تفضي إلى قاعدة إنتاجية لا خدمية. فثمة فرق بين الممارسة الطبية وإنتاج المعرفة والتقنيات الطبية التي تتضافر فيها جملة من العوامل والوظائف التي يرفد بعضها بعضاً مثل معامل البحث والصناعات الطبية والدوائية وتسهم فيها العلوم الأساسية مع العلوم التقنية التطبيقية. وها قد تكاثر أعداد الأطباء والصيادلة والمهندسين في العقود الأخيرة، فأين هي قاعدة التطور العلمي والتقني التي تقربنا من المجتمعات الصناعية المتقدمة؟! وما حجم الصناعات العلمية في الوطن العربي كله قياساً إلى الدولة العبرية؟!

ولسنا بهذا نقلل من أهمية الخدمات الطبية والهندسية، ولا من جهود العاملين فيها. ولكن الاعتقاد بأن هذا يكافئ عملية التقدم والتنمية الشاملة هو اعتقاد ساذج.

مكتبة الرمحي أحمد

لم يكن يمسكني في الجامعة، مع كل هذه الظروف المحبطة، إلا طلبتي، لا سيما طلبة الدراسات العليا، وتفاعلهم النشط في دروسي، والأثر الذي تحدثه فيهم. وكان يكفيني أن يبرز منهم نفر قليل من الباحثين الممتازين. حتى إذا غلبت الظروف العامة قدّمت استقالتي. فلا أنا التفت ورائي، ولا إدارة الجامعة شيّعت خطواتي وأنا أغادر إلى غير رجعة!

والآن، لا يكاد يسكن في ذاكرتي ووجداني منها إلا فترة الدراسة وأعوام عملي الأولى فيها، حين كان شبابي يرادف شبابها، وأحلامي لنفسي تواكب أحلامي لها. فلما خفت أن يعجّل هرمها بهرمي آثرت أن أنفرد بفضائي ألونه على نحو ما أشاء، مرة بعين الصبي القديم الذي أبى أن يفارقني، ومرة بعين المكتهل الستيني الذي لا مردّ له، أو ربما بالعينين معاً. ولي أن اتقلب بين فصول العمر، فأبرأ من نزق الصبا بحكمة الكهولة، وأبرأ من ترهل الكهولة بحماس الصبا المقيم! ولئن خذلتني آلة الجوارح يوماً، فإني لأرجو ألا تخذلني يوماً مخيلة لا وصي عليها، ولا يرهقها ركوب الريح العاصفة.

مكتبة الرمحي أحمد ***@ktabpdf*** *تيليجرام*

مكتبة الرمحي أحمد

حياة مع الدراما

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

1. الدراما حين تكتب كاتبها!

على وفق عادتها، أوسعت لي الدراما حين ضقت بعملي في الجامعة فاستقلت منها عام 2007، مثلما أوسعت لي قبل ذلك بنحو ثمانية وعشرين عاماً حتى ضاقت الجامعة بي فأخرجتني منها حتى عدت إليها بعد إحدى عشرة سنة، وهكذا أعتقتني الدراما من قيد الوظيفة وما يمكن أن يلابسها من قهر الرجال!

وبذلك يصح القول إن الكتابة تكتب كاتبها، فلقد تشيده بقدر ما يشيدها، وتفتح له من سبل الحياة بقدر ما سلك من طرقها وبلغ من آفاقها. وكذلك كان دور الكتابة الدرامية في حياتي. ولئن علمتني المعالجة الدرامية شيئا فهو أن مصير الفرد، كائناً من كان، تسهم في تشكيله مصائر البشر جميعاً، سابقهم وحاضرهم!

أهو من الخيال الجامح أن أزعم مثلاً أن جانباً من مصيري الشخصي، أنا ابن هذا الزمان، قد تقرر قبل زهاء ألف وأربعمائة سنة، حين زرعت بذرة الصراع بين بني هاشم وبني أمية، فقرر أحد أبناء عبد الله بن عباس أن ينشئ حركة سرية للثورة على الدولة الأموية، حتى إذا انتصرت الثورة وأمعن المُسَوِّدة العباسيون في قتل الأمويين فر منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (صقر قريش) إلى المغرب الأقصى، ثم عبر العدوة إلى الأندلس، وحاز الحكم فيها بعد معارك دامية، فجدد في الأندلس دولة آبائه الغاربة في المشرق. ثم بعد زهاء ألف وأربع مائة سنة قرر كاتب أن يؤلف مسلسلاً درامياً عن سيرته، فكان من أثر ذلك أن تغيرت حياته وحظوظه وانفتحت له سبل ما كان ليسلكها لولا عمله ذاك. وامتد الأثر منه إلى أهله وآخرين من خاصته!! فهل خطر لي يوماً قبل ذلك أن مصيري مرتبط على نحو ما بمصير الأمير الشارد الذي ختمت سيرته قبل

مكتبة الربيعي أحمد

زهاء ثلاثة عشر قرناً، وأني حين كتبته كان يكتبني وهو رميم؟! كذلك فعل آخرون من قبل ومن بعد: فغزوت إذ غزا أمير الصعاليك عروة بن الورد، وبكيت إذ بكت الخنساء أخاها صخراً وأعقبني البكاء فرجاً، وصعدت مع شجرة الدر إذ صعدت ولم أهبط معها إذ هبطت، وصحبت صلاح الدين الأيوبي في تحرير القدس فنلت حظاً من مغانم نصره في حياتي الشخصية، وقطفت في ربيع قرطبة بعض ما قطف المنصور بن أبي عامر دون أن أبيع روحي لشيطان السلطة الغوية، وخرجت من عصر الطوائف بخير مما خرج به المعتمد بن عباد إلى منفاه البئيس في أغمات! بلى تقلب مصيري مع تقلب مصائر هؤلاء وغيرهم، وقدموا لحياتي وسيرتي قبل أن أولد بقرون طويلة. ولكن كان يجب أن أسترجعهم أولا في نصوصي الدرامية كي تعمل أسبابهم في حياتي. وبذلك يكون اللاحق الذي تنجزه سبباً في اشتغال السابق على حياتك. فكلا السابق واللاحق في هذه الحالة سبب موصول بالآخر! يعود الحاضر على الماضي، فيعود الماضي على الحاضر! فكأن الزمن وهم يُشَيّده وعينا. فأي دراما!

في عام 1978 أتتني الكتابة الدرامية تجرجر أذيالها على غير دعوة مني ولا موعد مضروب. ولكنها لم تصبني خبط عشواء. فقد كنت قبل ذلك شيئاً مذكوراً في الشعر والأدب والثقافة. وكان الإنتاج الدرامي التلفازي قد بدأ في التوسع خارج مصر، وتصدرته مؤسسة الخليج للأعمال الفنية في دبي بالإمارات العربية المتحدة. ولكن كان ثمة نقص فادح في النصوص الدرامية وكتابها. فمن الطبيعي أن تستدرج الجهات المنتجة كتاباً معروفين من الساحة الأدبية لعل الكتابة الدرامية توافق هوى وموهبة عند بعضهم، فيوظفون مواهبهم الفنية في هذا الشكل السردي الحديث. وليس إبداع الكاتب في شكل فني ما ضمين لإبداعه في شكل آخر، حتى لو كان الانتقال من شكل سردي إلى شكل سردي مختلف. فالروائي قد لا يحسن الكتابة للمسرح، وكذلك الكاتب المسرحي مع الشكل الروائي. وكلاهما قد لا يحسن كتابة الدراما التلفازية. فلكل من هذه الأشكال شروطه وتقنياته ومقتضياته.

وعلى الرغم من أنني لم أبادر بنفسي إلى الكتابة الدرامية للتلفاز حتى عرض ذلك علي، فإن العرض وافق هوى قديماً في نفسي ومنزعاً قوياً كنت أستشعره منذ نعومة أظفاري. فأقبلت على التجربة غير هياب، لا تنازعني الشكوك التي تلابس التجربة

مكتبة الربيعي أحمد

الأولى. فكان مسلسل الخنساء الذي أسس نجاحه الباهر على الرغم من ضعف الإمكانيات الإنتاجية والفنية في ذلك الحين، لحضوري في عالم الدراما، ولكن من باب الأدب. وأُلِحُّ على هذا الجانب الأدبي في تجربتي الخاصة.

من جهة تتنازع الدراما أصولها الأدبية المسرحية التي تنتمي لأشكال الثقافة العليا (High Culture) وتجلياتها الحديثة في بعض أشكال الثقافة الشعبية (Popular Culture) كالسينما والتلفاز بصورة خاصة، إضافة إلى المسرح الشعبي من جهة أخرى. وقد مضى ردح من الزمان كانت المسافة فيه بين الأشكال الثقافية العليا والأشكال الثقافية الشعبية واسعة واضحة. ولكل منهما جمهوره. ثم بدأت المسافة تتقاصر منذ ستينيات القرن العشرين، حتى تداخل الحيزان قيمة وجمهوراً. فقد ارتقت الصناعة السينمائية مثلاً إلى مستويات رفيعة معقدة من الصنعة والقيمة الجمالية والفكرية، لا تتقنها إلا مواهب عالية متخصصة مدربة في أرقى المعاهد، وتتوجه إلى قاعدة واسعة من الجمهور، تجمع بين النخب المثقفة والقطاعات الشعبية على صعيد، وتنفتح مادة الأعمال الجادة ذات القيمة الفكرية منها على مستويات مختلفة من التذوق والتأويل النشط من جانب المتلقي، بينما تبقى المادة الحكائية الجذابة عنصراً جامعاً لفئات المشاهدين على اختلاف مستوياتهم الثقافية. وهذا التحول في جملته وجه من الوجوه التي يتعرف بها عصر ما بعد الحداثة. وفي هذا السياق، لم يعد من النادر أن تنتقل النصوص بين الحيزين، فتتحول الأعمال اللسردية المطبوعة مثلا إلى اعمال درامية سينمائية وتلفازية. بل صار شطر من الروائيين يؤلفون رواياتهم وفي ذهنهم احتمال تحولها إلى أعمال سينمائية، فيصوغونها بأساليب توافق المطلب وتغري به. وترى الآن أفلاماً قديمة تتحول إلى مسرحيات غنائية باهرة في الغرب، ومسرحيات تتحول إلى أفلام راقية. وهكذا تنتقل النصوص السردية بين أشكال مختلفة. فما الذي يجعل النص المقروء لرواية مثل «War Horse» مثلاً أعلى قيمة من المسرحية العظيمة التي بنيت عليها، وما الذي يجعل الكتاب والمسرحية معاً أرقى من الفيلم السينمائي الضخم الذي جسّد الرواية وهزّ الملايين من النظارة؟

ولكن الانطباعات القديمة الراسخة لا تذهب بسهولة عند كثير من الناس الذين يرون أن صفة الأدب والثقافة الرفيعة تلحق عادة بالنص المقروء أو المطبوع، لا سيما ذاك الذي تختص بقراءته النخبة دون غيرهم، فإذا اتسع رواجه ووزع بالملايين لما تنطوي عليه

مكتبة الربيعي أحمد

حبكته ومادته الحكائية من التشويق، ربما نزع عنه البعض صفة الأدب والثقافة الرفيعة، وإن كان مستحقاً لها شكلاً ومحتوى وفكرا ورسالة. لكأن عنصر التشويق رذيلة تهبط بالقيمة الأدبية والفكرية، بينما ترتفع بها الفذلكات الشكلانية المملة وإن كانت المادة الحكائية محدودة، والمحتوى الفكري هزيلاً.

بلى، دخلت إلى الكتابة الدرامية التلفازية من باب الأدب منذ اللحظة الأولى، ولم يخامرني الشك في إمكانية الدمج بين المستوى الأدبي والتقنيات البصرية التلفازية دون أن يقف ذلك عائقاً أمام الجمهور العريض، ما دامت المادة الحكائية جذابة. فمن قال إن من طبيعة الأدب وشرطه أن يستغلق على الفهم، إلا فهم النخبة؟ بل إن من شأن التقنيات التلفازية أن تقرب بعيده وتيسر التفاعل معه، وتصل به إلى حيث لا تصل المادة المطبوعة. ثم إن الفنون السردية بطبيعتها حتى المادة المطبوعة منها، يمكن أن تجذب مسنويات متفاوتة من المتلقين، باعتبار مادتها الحكائية الشائقة. ثم يتفاوتون في مستويات التذوق والتأويل والتحليل، من القارئ العادي إلى الناقد المتعمق، إلى الباحث المتخصص. وذلك بخلاف ما آل إليه الكثير من الشعر الحديث من الاستغلاق والتعمية والعبث الشكلاني، ويلحق به ما حاكاه من النصوص السردية التي يطغى فيها التجريب الشكلاني على المحتوى والخط الحكائي.

2. الدراما الأدبية المصورة: تجربتي الخاصة

تتمثل الجوانب الأدبية في أعمالي الدرامية المصورة في اللغة والمعالجة الدرامية من حيث تحليل الشخصيات وتطورها وصراعاتها، ومن حيث البناء الدرامي، والمحتوى الفكري ورسالة العمل.

أما اللغة في الأعمال التاريخية فقد قررت منذ اللحظة الأولى ألا أتنازل عن المستوى البلاغي الأدبي وفقاً لمقتضيات الموقف الدرامي والشخصية والعصر الذي تدور فيه الأحداث. وما زال التعريف العربي القديم المكثف للبلاغة بأنها «موافقة الكلام لمقتضى الحال»، صحيحاً وجامعاً مانعاً. فليس من المعقول ولا المقنع أن ننطق شخصيات من العصور التاريخية المتقدمة بأسلوب عصري يحاكي لغة الصحافة مثلاً، بدعوى تقريب اللغة إلى المشاهد الراهن وتيسير فهمه للحوار، كما يمكن أن يزعم بعض المتنطعين بغير

مكتبة الرمحي أحمد

علم. فاللغة ليست مجرد وسيلة لنقل المعنى، فتستَوي أساليب التعبير عن المعنى الواحد. ولكن الأساليب تتنوع بتنوع الأشخاص وخلفياتهم الثقافية والاجتماعية ومحتوى وعيهم فضلاً عن أساليب زمانهم وثقافتهم العامة. بل يتقلب الشخص الواحد بين أساليب مختلفة باختلاف موقف الكلام. وتحمل الأساليب دلالات ثانوية هامة غير المعنى المركزي المباشر. وفضلاً عن التنوِع الفردي في أساليب الكلام، فإن لكل عصر سماته الأسلوبية العامة التي تميزه من حيث نظم العبارة وسبكها ومن حيث المعجم والمفاهيم والمعاني. وما عليك إلا أن تتخيل الجاحظ يقرأ مقالة صحفية معاصرة فيضل فهمه للكثير من مصطلحاتها ومفاهيمها المعاصرة، وتضميناتها الحديثة وإشاراتها السياقية التي لا يدركها إلا أبناء العصر. وإذا كانت الدراما تقوم على التقمص والإقناع به، فإن كلام الشخصية التاريخية بأسلوب معاصر يفقدها على الفور مصداقيتها وقدرتها على الإقناع، ويجردها من الأصل الذي تتقمصه، فلا يبقى من الشخصية التاريخية المجسدة إلا اسمها ورسمها التاريخي، وهو ما يفسد الدراما بما تمليه من مطابقة الكلام لمقتضى الحال. فأي شخصية تاريخية قديمة تنطق بعبارات من نوع:

-علينا أن نأخذ بعين الاعتبار..

-هناك أبعاد مختلفة للموضوع.

-إنه يعتبر هذا الأمر مشروعه الخاص..

-هذه مسألة تتعلق بالحريات الشخصية..

-أعتقد أن الرسالة قد وصلت (أي مغزى الكلام).

-سوف نمد رأس جسر عسكري من هذا الموقع.

-إنه في حالة نفسية سيئة هذه الأيام.

وإذا بدا أن هذه الأمثلة فاقعة بعض الشيء، فإن المتتبع المرهف يلتقط في بعض ما عرض من الأعمال التاريخية ما هو أشد اغتراباً عن الأساليب القديمة. ومن أوتي حساً لغوياً أسلوبياً مرهفاً، وكان له ألفة طويلة بالمصادر القديمة، يلتقط ما هو أخفى منها وأقل نفورا. وعلى سبيل المثال، قد تبدو كلمة عربية بسيطة مثل «أرجوك» عابرة للحقب

مكتبة الرمحي أحمد

التاريخية. فاشتقاقات فعل الرجاء قديمة راسخة في اللغة واستعمالاتها. فلا شيء يلفت الانتباه في أن تقول شخصية تاريخية: - وقد رجوته أن..- وإني لأرجو الله..- وقد رفعنا أكف الرجاء..- ولولا رجائي بالله..ومع ذلك فإن بعض السياقات التداولية وأساليب الاستعمال للمادة اللغوية نفسها لا يتطابق فيه المعاصر مع القديم. فلن تجد في نص قديم من يستفتح الطلب بالمصدر: رجاء، كما نفعل الآن. وحتى الاستفتاح بفعل الطلب: أرجوك، يبدو ألصق بالكلام المعاصر منه بالقديم. وقد رأيت مشهداً في أحد الأعمال الدرامية التاريخية، يتعرض فيه رجل للتعذيب، فيردد متوسلاً جلاده: أرجوك. فلم تسغ لي أبداً. وثمة أساليب أخرى للتوسل والمناشدة تتكرر في مصادرنا القديمة، ليس من بينها هذه الكلمة إطلاقاً. مثل: نشدتك الله.

وفي أحد أعمالي التاريخية تصرف المخرج في أحد المشاهد لضرورة إنتاجية. إذ تُقْتَل إحدى الشخصيات في السجن خنقاً، ثم تزعم السلطة أنه مات حتف أنفه. وفي المشهد الأصلي المكتوب، يدخل عليه جماعة من قومه لحمل جثته، فيخاطبه بعضهم بكنيته: «يا أبا فلان. لقد علمنا والله أنك لم تمت حتف أنفك». أما في التنفيذ، فقد استبدل المخرج بالجماعة، ولد الميت. فكان لا بد من تعديل الخطاب وفقاً لذلك، فيقول الابن: - يا أبي...ولا غبار على الكلمة. ولكن ما كنت لأكتبها أبداً. فالأقرب إلى الأساليب القديمة أن يقال: يا أبت. وهي أكثر انسجاماً مع لغة النص وحواراته. فالخيار لا يكون أحياناً بين الصحيح والخطأ، ولكن بين الفصيح والأفصح لمزيد من الإقناع ونقل روح العصر. وتقمص أسلوب العصر على كل حال ليس بالأمر الهين، ولا يتقنه إلا القليل النادر، ويحتاج إلى طول إلفة مع النصوص القديمة، فضلاً عن الموهبة اللغوية والأدبية والتمكن من الأساليب المختلفة.

على أن محاكاة الأساليب القديمة في الدراما التاريخية لا يعني استعمال المفردات الغريبة التي تعيق فهم المشاهد المعاصر العادي، إلا ما يدل سياق الموقف على معناه أو على وجه استعماله في السياق، فليس من الضرورة أن يفهم المشاهد معنى كلمة «ورهاء» في المعجم. يكفي أن ترد في سياق الشتيمة: أيتها الحمقاء، الخرقاء الورهاء! ولعلها أن تحفز السامع أو المشاهد على استخراج معناها من المعجم، وقد صار الآن ميسراً في شبكة الإنترنت. (لا، لن أذكر معناها هنا أيضاً. التمسها بنفسك إن شئت!) وعلى أي حال، فإن

مكتبة الرمحي أحمد

الأساليب اللغوية القديمة لا تتمثل في مفردات المعجم فقط، وإنما تستظهر أولاً في سبك العبارة ونظمها.

ومن جهة أخرى، فإن الجماليات الأدبية في لغة النص الدرامي المصور لا تتقوم باللغة الإنشائية والزخارف اللفظية والصور الشعرية المتكلفة، كما يتوهم بعض الكتاب. بل إن من شأن هذه الأساليب أن تفسد واقعية الحدث والسرد الدرامي، ومصداقية المواقف والشخصيات، وإيقاع العمل وتدفق أحداثه على نحو عفوي. أما الجماليات الأدبية الحقيقية فتنبثق من طبيعة الموقف الدرامي وصراعاته، وتوظف في خدمة التأثير المنشود منه على نحو طبيعي لا تعسف فيه ولا تكلف. فهذه حوادث درامية تحاكي الحياة الواقعية وما فيها من مواقف وعلاقات إنسانية. فلا ينبغي أبداً أن تكون مجموعة من النصوص الإنشائية والنثر الشعري مركبة على الشخصيات من خارجها، ومقحمة على المواقف، بحيث تبدو مُنْبَتَّة عن هؤلاء وأولئك. إذ إن شعرية الحوار الدرامي وقيمته الجمالية تخضع لشروط الدراما ومقتضياتها، ولا ينبغي أن يتقدم فيها الشكل على الفكرة والمحتوى والموقف، ولكنه يتشكل بهؤلاء في السياق السردي.

ولقد أثبتت تجربتي العملية صواب خياري الأسلوبي اللغوي، فلم يقف الأسلوب البلاغي القديم عائقاً أمام فهم المشاهد، وإنما أسهم إسهاماً كبيراً في تعزيز مصداقية الشخصيات والمواقف والبيئة الاجتماعية العامة وروح العصر، ومن ثم في تحقيق مطلب الإقناع. بل كانت اللغة في أعمالي التاريخية عامل جذب واحتفاء كبيرين، لم يقتصرا على النخبة المثقفة. ووجدت كثيراً من عامة الجمهور يدون عبارات ومقاطع حوارية منها في سياق التعليقات عليها في مواقع التواصل الاجتماعي. واقترن التعليق على القيمة البلاغية فيها بالفكرة التي تعبر عنها، إذ لا فاصل في بلاغة الحوار الدرامي بين الشكل والمحتوى. فكلاهما يتحقق بالآخر، بل هما حقيقة واحدة.

وعلى الجملة، تجد الاحتفاء بلغة أعمالي التاريخية تتصدر الحديث عنها، ومما يجمع عليه الجمهور على اختلاف مستوياتهم الثقافية. وقد صح بذلك ظني في الجمهور العربي. فما زالت اللغة تحتل موقعاً مركزياً في حسه الجمالي وعالمه الوجداني. وهي ظاهرة ثقافية تاريخية ممتدة منذ العصر الجاهلي، حين أملت ظروف البيئة المادية والاجتماعية أن يصرف

مكتبة الربيعي أحمد

العربي طاقته الإبداعية باللغة دون الفنون البصرية (التشكيلية والتشخيصية)، فكان الشعر الجاهلي العظيم بلغته وإيقاعاته، واحتفاء القوم بالشعر والشعراء، حتى نسبوا الشعر لقوى خارقة تتوسل لسان الشاعر، واشتقوا معنى «العبقرية» من وادي عبقر الذي تسكنه تلك القوى الخفية الملهمة. وعلقوا القصائد العظام الطوال على جدران الكعبة. ثم جاء الإسلام، فلم يقدم لصدق الرسالة بآيات المعاجز المشهودة، ولكن بآيات الكلام المعجز في نص القرآن الكريم. فتعززت بذلك مركزية اللغة في الفضاء الإبداعي العربي، واستقر ذلك في الوجدان الجمعي والمخيلة العامة. ومضى على ذلك اللاحقون.

ولا أعلم ثقافة أخرى يضم تراثها المدون ما يضمه التراث العربي من قصص ونوادر ومواقف كان اللسان بطلها. فكم من كلمة قربت بعيداً أو أبعدت قريباً، وأمنت خائفاً أو راعت آمناً، ورفعت وضيعاً أو وضعت رفيعاً، وأحيت نفساً على شفا الهلاك أو أهلكت أخرى كانت تظن أنها قادرة على دنياها. حتى قيل: البلاء موكل بالمنطق؛ وقيل: الانسان بأصغريه: قلبه ولسانه. فلا عجب إذن أن ترى العربي يهتز لسماع الكلام البليغ ويطرب لإيقاعه ويتذوق جماله، وإن لم يكن في ذاته بليغاً متمكناً أو مثقفا. ألا ترى إلى الأمي أو شبه الأمي إذا استمع إلى القرآن يتلى عليه خشع قلبه واهتزت جوارحه! وذلك ما وصل قديم اللغة بحديثها. ولئن كان جل الناس قد عزفوا عن قراءة النصوص الأدبية المكتوبة، قديمها وجديدها، فإن الوسيط الدرامي المصور أقدر الآن على الوصول إليهم ومخاطبة ذائقتهم بلغة أدبية حية تتوسط السرد والمادة الحكائية الجذابة بشخصياتها وأحداثها المشخصة، فيستقبلها المشاهد في سياقاتها الوظيفية. ذلك ما كان من أمر اللغة في أعمالي الدرامية التاريخية. فلما كتبت «التغريبة الفلسطينية» انتقلت إلى المحكية الريفية الفلسطينية لنفس الدواعي التي أملت علي اختيار الفصحى الأدبية القديمة في أعمالي التاريخية، فلم أفارق بذلك شرط البلاغة في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولا شروط التقمص والمصداقية والإقناع في الدراما. فلو أني أنطقت شخصياتي في «التغريبة» بالفصحى لأفسدت صدقيتها وقدرتها على الإقناع. ومع ذلك أزعم أنه ظل في الوسع تخليق الشعرية من باطن الموقف الدرامي الإنساني دون افتعال ولا تكلف، وتكفلت المادة الحكائية والبناء السردي والقص الروائي والمحتوى الفكري والإنساني بتحقيق المستوى الروائي الأدبي.

مكتبة الربيعي أحمد

ذلك ما كان من أمر اللغة في أعمالي الدرامية، وإسهامها في تحقيق القيمة الأدبية فيها. ولكن ليس بالأسلوب اللغوي وحده يتقوم الأدب السردي الدرامي، وإنما كذلك في المعالجة الدرامية من حيث البناء السردي العام وتطور الأحداث والصراعات الداخلية والخارجية وبناء الشخصيات المركبة وتطورها والحبكات التي تربط أجزاء العمل وتدفع تصاعد وقائعه وتطورها. وإلى جانب هذا كله هناك المحتوى الفكري والرسالة الإنسانية. والتحدي الأعظم يتمثل في الجمع بين القيمة الجمالية والقيمة المعرفية، فلا يجور أحدهما على الآخر فيجور على نفسه. ففي الأشكال الأدبية والفنية عامة، لا يتراجع أحد هذين الركنين إلا تراجع معه الآخر. فالتركيز على الشكل دون المحتوى، يفسدهما معا، وكذلك التركيز على المحتوى دون الشكل يذهب بالعمل إلى التجريد الذهني أو إلى الخطاب الوعظي المباشر. وكل ذلك يورث الملالة ويصرف عن المتابعة، ويتنافى مع طبيعة الدراما.

وإذا كان الصراع عنصراً أساساً في السرد الدرامي، فإن هذا المطلب لا يتحقق بالشخصيات المسطحة ذات البعد الواحد. فكيف يتطور الصراع إذا استقرت الشخصيات من أول العمل إلى آخره على بعد واحد، فهي في آخر أمرها كما هي في أوله. فإما شر مطلق وإما خير مطلق. ثم لا ندري ما الذي أفضى بهذه الشخصية أو تلك إلى الحال الذي هي عليه خيراً أو شراً، لكأنها قد جبلت عليه وولدت به فلا خيار لها فيه ولا إرادة. فإذا كانت كذلك فيمكن للمشاهد أن يتنبأ بسلوكها واستجاباتها للمواقف مسبقاً. وكل ما يمكن التنبؤ به مطلقاً يفقد قيمته التواصلية فلا يشغل المشاهد الخبير بالتأمل والتفكير والتاويل والترقب والتفاعل.

وكما أن الشخصيات المسطحة (غير المركبة) تتعارض مع طبيعة السرد الدرامي، فإنها تتعارض كذلك مع طبيعة الإنسان في واقع الحياة. إذ هو حقيقة مركبة ذات أبعاد متعارضة، تتنازعه الدوافع والرغبات والحاجات والقيم. ويتقلب فيها من وقت إلى آخر حسب الظروف الضاغطة. ويستعين على تسويغ مواقفه بالنشاط التأويلي. ولكل إنسان شياطينه التي تغالبه ويغالبها، فتغلبه حيناً ويغلبها حيناً. وقد يستسلم لها أخيراً فتهيمن عليه، فيكون ضحية نفسه كما جعل من غيره ضحايا له. أما الشر المطلق الذي لا يخالطه تسويغ ولا تأويل ولا ندم، فمن صفات الشخصية الإجرامية المريضة المختلة العقل (psychopath) وربما كان لاختلالها أسباب من تجارب طفولة قاسية ونشأة مضطربة.

مكتبة الربيعي أحمد

والمتابع لأعمالي الدرامية لا يفوته ملحظ شخصياتها المركبة ذات الأبعاد المتضاربة وما يستصحب ذلك من تحولات وتقلبات. حتى ليحار المشاهد في تقويمها: هل يحبها أم يكرهها؟ هل يحب بعض ما فيها وينكر غيره؟ هل يسوغ لها أم يدينها على الجملة؟ ولقد سرني دائماً أن أرى الناس يختلفون في تقويم تلك الشخصيات، وكل منهم يأتي بحجة لها أو عليها. وتلك سمة في النص الأدبي والعمل الفني الجاد عامة، إذ ينفتح على مستويات مختلفة من الفهم والتأويل والتقويم، ويستدرج المتلقي للتفاعل النشط لا الاستقبال السلبي.

والإنسان لا يبقى على حال طوال عمره، ولكن التحول لا يكون بين ليلة وضحاها، وإنما ينشأ بالتراكم مع تغير الظروف والمواقع، وله مقدمات. وقد لا يدرك المشاهد مغزى بعض المقدمات إلا بعد أن يقع التغيير. والكاتب الحاذق يلمح لها دون أن يبوح بها على نحو صارخ، فيقتل عنصر التطور والتحول المتدرجين.

وقد درج الناس على اختزال الشخصية التاريخية العظيمة في جانب إنجازاتها. فإذا ذكر عبد الرحمن الداخل لم يستطلعوا من سيرته إلا فراره الملحمي من العباسيين، بعد أن شهد مقاتل قومه، وكيف بلغ أقصى المغرب ثم عبر العدوة وحده، فحاز الأندلس بجهده الفردي، وأنشأ دولة عظيمة جدد بها دولة بني أمية في الأندلس بعد أفولها في المشرق. فإذا نظرت في تفاصيل سيرته وجدت أنه كان لخادمه بدر جهود عظيمة لا تكون من مجرد خادم، وأنه كان شريكه في العمل والتخطيط، بل إنه نزل الأندلس قبله، فدرس أحوالها ثم وطأ له بعقد التحالفات وجمع الأنصار. حتى إذا نزل الداخل الجزيرة كان جمع اليمنية وموالي بني أمية في انتظاره، فحاز الأندلس بهم لا برأسه منفرداً. وأي خادم يتولى بعد ذلك أرفع المناصب ومنها قيادة الجيش إلا أن يكون ذا مواهب قيادية وسياسية فذّة!! بل فات من كتب عن سيرة الداخل أن يتساءل: ما الذي يدعو خادماً إلى أن يهدف نفسه للهلاك مع سيّده، إذ يصحبه في رحلة الفرار، ومن ورائهما عسكر بني العباس يتقصّون أثر الداخل ليأخذوه! وكان بوسع الخادم أن يتخلى عن سيّده وقد ذهب سلطانه وترجح هلاكه. فإذا ربطنا هذا بإنجازاته مع سيده بعد ذلك، أفلا يسوغ لنا أن نعيد النظر فيه ليتمثل لنا رجلاً ذا مواهب وطموحات كبيرة، ألزمته ظروف الحياة الخدمة. فإذا تجرّد سيده من سلطانه، ومضى هارباً على وجهه لا يلوي على شيء، صار وإياه على صعيد في اختبار المواهب والإرادة والقدرات. فالآن نشأت له فرصة ليتحول من مجرد خادم إلى

مكتبة الرمحي أحمد

شريك في رحلة المصير، فإما إلى الموت وإما إلى الملك والسلطان. وذلك ما كان. ثم نقرأ في المصادر أنه بعد التمكين وبناء الدولة، بدأ بدر ينازع على منصب الحاجب، وهو بمثابة الوزير الأول. وشاع تذمره من تقديم غيره، وهو صاحب اليد الأولى في التمكين لأميره. وأخذ يردد أن الداخل ما كان ليبلغ ما بلغه لولا عمله. فتغير عليه الداخل ثم عزله من كل مناصبه العليا، وردّه إلى الفقر والبؤس حتى مات مغموراً مجهولاً. فلمن تنحاز في هذه الدراما الإنسانية؟ من جهة، لا نملك إلا أن نتعاطف مع هذا الخادم الذي أثبت أنه كان يطوي جوانحه على مواهب القيادة والإمارة، فجازف بنفسه مع سيده من أجل الغاية العظيمة حتى بلغاها معاً. فاستحق أعلى المناصب. ولا نملك بعد إلا أن نشفق عليه في مصيره البئيس بعد صعوده. ومن جهة أخرى لا نملك إلا أن نتفهم حجة الداخل عليه. فما كان لبدر ولغيره مهما يكن عندهم من المواهب والقدرات أن يعينوا رجلاً من أغمار الناس على امتلاك الأندلس. ولكن الداخل كان يطلب الأندلس بإرث أجداده بني أمية، وهو الأمير حفيد هشام بن عبد الملك. والأندلس ولاية أموية لم تصل إليها جيوش بني العباس لبعد الشقة. ولذا لم يكن من الغريب أن ينحاز إلى مطلبه في الأندلس موالي بني أمية، وأن تنضم إليهم جموع اليمنية ثأراً من القيسية التي تغلبت على حكم البلاد بعد حروب طاحنة مع اليمنية. فكيف يغفل بدر عن هذه الحقائق، فينسب الإنجاز إلى جهده! وإذا كانت شهوة السلطان هي التي حجبت بصيرته عن تقدير الواقع، فكيف يفوته أن المُلْك عقيم، وأن الأمير الذي ارتفع معه إلى سدّة الحكم مستعد للتضحية بأهل بيته إذا نازعوه سلطانه. وهو ما كان حقاً حين قتل بعض أبناء إخوته بعد تآمرهم عليه، وهو الذي جاء بهم من الشام بعد تمكنه وأحسن مثواهم. فهل ندين بطشه هذا بذوي القربى أم ندين خياناتهم، أم ندين الطرفين معاً؟ وإن المشاعر لتبقى مختلطة متضاربة تجاه الداخل ونحن نراه يبني دولة عظيمة ويحقق مجدا مؤثلاً وهو الذي لم يكن آمنا على حياته في رحلة الفرار. ونراه في أثناء ذلك يتحول الى طاغية يعيد إنتاج جلاديه. فها هو ينتصر باليمنية على القيسية، فيصل بهم إلى الملك. حتى إذا استقر له ضرب أنصاره اليمنية بموالي بني أمية، ثم ينقلب على هؤلاء أيضاً ويصطنع لنفسه جيشاً من الصقالبة المرتزقة، وهم بمثابة مماليك الأندلس، ليستغني بهم عن العصبيات السائدة في الأندلس، وقد ثبت له أنه لا يستطيع التعويل عليهم طويلاً، فكل يقدم عصبيته على ولائه للدولة. ومن جديد، هل نتهمه بالانقلاب على أنصاره بعد أن يحقق حاجته بهم، وبالمنهج الميكافيلي في الإدارة

مكتبة الرمحي أحمد

السياسية، أم نتهم العصبيات القبلية التي لا تتقوم بها دولة متينة راسخة، وكادت أن تودي بدولة الإسلام في الأندلس في مهدها. وما نقول في إعدامه خمسة آلاف أسير بعد أن هزم ثورة دبرها عليه بنو العباس في عقر ملكه القصيّ؟ هل نعتذر له بما شهد من مقاتل قومه على أيدي العباسيين حتى استأصلوا شأفتهم ولم يرعوا فيهم إلاً ولا ذمة، ولم يفرّقوا بين المقاتلة وغير المقاتلة، ولا بين الشيخ والصبي والرجل والمرأة؟ وهم بعد من دبروا عليه في بلده، فأراد أن يجعل من قسوة الانتقام رادعاً عن المزيد. ولكن هل يُجَوِّز ذلك كله قتل الأسرى؟

ومع ذلك كله لن نملك إلا أن نتعاطف معه، ونحن نشركه شعوره بالوحدة في أرض ظلّ يحس أنه غريب فيها وإن ملكها. فقلبه ما يزال هناك في مرابع صباه في الشام. ونراه يستجلب نخلة يتيمة يزرعها في أرض قصره، فما زال يخرج بين الفينة والأخرى فيدور حولها ويتوحّد معها، وينشد شعراً شجياً.

كيف تكون الأندلس ملكه ولا تكون وطنه؟ لقد حقق الحلم العظيم، ولكن الثمن الأخلاقي كان فادحاً. وسنبقى نتساءل: كم من مسؤولية العنف والطغيان ننسب إلى شخصه، وكم ننسب إلى الظروف والضرورات القاهرة؛ هل كان يمكن أن يكون غير الذي كان؟ ما الخيارات الأخرى التي كانت بيده وهو يواجه المؤامرة تلو المؤامرة؟ وهل كان ينقلب على أنصار الأمس لولا انقلابهم أولاً عليه؟! هل صنع مصيره بإرادته المحضة أم كان على موعد معه مسلّحاً بمواهبه وتراث آبائه؟

تلكم أسئلة الدراما حين نستقرئ بها المادة التاريخية المتاحة، ثم نعيد تشكيلها من خلال المعالجة الدرامية في بناء فني. وليس السابق إلا لمعاً سريعة من عمل واحد عن الشروط الإنسانية والتاريخية المركبة التي ينبغي أن تستبطنها المعالجة الدرامية لتحولها إلى عمل فني يتجاوز خصوصية الزمان والمكان والشخصيات، ليطرح اسئلة وجودية من نوع أسئلة المصير والحرية والإرادة والسلطة والتدافع الإنساني والتنازع بين الضرورة والأخلاق، وبين الفرد والمجتمع، وليقدم نماذج إنسانية مركبة تستظهر في صور مختلفة في أزمان وبيئات مختلفة. وتلكم هي الغاية من البناء الدرامي على المادة التاريخية، إلى جانب القيمة الفنية الجمالية المؤثرة التي يتشكل بها ذلك المحتوى الفكري فيحملها وتحمله. وبذلك يخاطب العمل الذائقة الفنية والمتعة الجمالية والعقل والوجدان معاً.

مكتبة الرمحي أحمد

وعلى نحو عبد الرحمن الداخل، احتار الناس في المنصور بن أبي عامر في مسلسل «ربيع قرطبة» واختلفوا فيه. هل يُغَلّبون إنجازاته العظيمة على الصعيدين الشخصي والعام على الثمن الذي دفعه من روحه في طريق صعوده الملحمي من الفقر والخمول إلى سدّة الحكم، دون أن يكون له رصيد سابق من قوّة العشير وإرث الآباء، إلا طموحه ومواهبه وجملة من الغايات والمثل العظيمة؟! ولقد رأى أن الوصول إلى السلطان سبيله الوحيد إلى التغيير وتحقيق العدل والشورى والأمن والقوة، وتحرير الأمة من نير الصقالبة المتحكمين، والتمكين للعرب الذين استبعدوا من السلطة منذ الداخل. ولكن الوصول إلى سدّة الحكم عبر التدرج في المناصب يحتاج إلى الكثير من المكائد والخديعة والمكر والإيقاع بكل من يمثل عائقاً في الطريق. وهكذا فعل، مسوغاً ذلك بالقاعدة القديمة التي حولها ميكافيلي بعد ذلك بقرون إلى فلسفة في الحكم، وإن لم يخترعها: الغاية تسوّغ الوسيلة مهما تبد قبيحة منافية للأخلاق. ولكن السؤال هو هل تسلم الغايات النبيلة من أثر وسائلها القبيحة؟ أم أن الوسائل المرذولة تشوه الغايات السامية نفسها، وربما ذهبت بها جميعاً؟

سنرى المنصور بن أبي عامر يشق طريقه إلى المجد والسلطان ساحقاً في طريقه خصومه جميعاً. فإذا بلغ القمة لم تكن لتسع غيره وقد غدا مستبداً. وإذ هي كذلك فهو يقف عليها وحيداً متفرداً بلا صاحب ولا حبيب. أما المبادئ العظمى والغايات الأولى فقد دفن جلّها مع كل ضحية من ضحاياه. فلا الشورى تحققت ولا تمكين العرب. وحتى الصقالبة التي قضي عليهم، عاد ليصطنعهم لنفسه. فالموقع الذي تبلغه يبلغ منك، والسلطان الذي تصنعه يعود فيصنعك، فله شروطه المسبقة وغواياته الآسرة. وإذ تقصي غيرك تغفل عن أنك بذلك تقصي نفسك بالقدر نفسه. وقد يقع الإنسان ضحية قوته كما يقع ضحية ضعفه وقوة الآخرين. وحتى قصة الحب المؤثرة مع صبح، أم الخليفة الصبي هشام المؤيّد، تنتهي إلى صراع مرير تختلط فيه المشاعر وتلتبس العواطف. فبعد أن وطّأت له في قصر الخلافة أيام زوجها الحكم المستنصر بداعي الحب الخفي وداعي العهد بينهما أن يصون حق ولدها الصبي في الحكم من تدابير أعمامه المتربّصين، ها هي تلك العلاقة العاطفية الملتبسة تنتهي إلى صراع وقد عطّل ولدها إلا من لقب الخلافة واستبد بالحكم دونه. فهي تنازعه الآن على سلطان ولدها بلا هوادة. وفي الوقت نفسه يتنازعها ويتنازعه الهوى القديم الذي يأبى أن يفارق حتى في ذروة الصراع الذي يفوز به أخيراً، لا لأنه

مكتبة الربيعي أحمد

أعظم منها موهبة وكفاءة، وإنما لأن معه حليفاً قويا ليس لها مثله: مجتمعا ذكوريا يحاصر الأنثى في حيزها الخاص، فلا يترك لها سبيلاً إلى الفضاء العام. ولكن المنصور إذ يفوز في معاركه كلها، يخسر روحه ويخسر عطف الجماهير التي التفت حوله في وقت ما ورأت فيه المنقذ المخلص الذي صعد من أغمارها حاملاً أحلامها وآمالها. وتصرف عواطفها الآن للخليفة الصبي المعزول عن الدنيا خلف أسوار قصره. فهو يبقى في الأذهان والوجدان رمز الشرعية المتوارثة في السلالة الأموية الحاكمة منذ عبد الرحمن الداخل، أي منذ زهاء ثلاثة قرون. على أن الرجل الذي عطل رسوم الخلافة واستبد بالحكم وحمل الناس على الطاعة بقبضة من حديد، هو نفسه الذي قهر قوى الشمال المتربصة، وردها على أعقابها مدحورة، ووضعت خيوله حوافرها في برشلونة وجليقية وبلغ من ديارها ما لم يبلغه حاكم قبله، وجعل من دولة الإسلام في الأندلس أعظم دولة في زمانه، وغزا بنفسه خلال ذلك ستين غزوة لم تهزم له فيها راية، وكان يجمع المناديل التي يمسح بها غبار المعارك لتوضع معه في قبره، فلعلها تشفع له. فهل تغفر الانتصارات العظيمة التي يحققها المستبد على العدو الخارجي، والأمجاد التي يصنعها بذلك لدولته وأمته - هل تغفر طغيانه واستبداده داخل بلده. أتكون حريات الأمة ثمناً مقبولاً لهيبة الدولة وقوتها وانتصاراتها؟ سؤال قديم جيد. ولتجدنّ من يقول: نعم، ولتجدن من ينكر ذلك، وبين هذا وذاك منازل. إنه الخيار البئيس بين الطغاة والغزاة.

ولكن مهلاً. بلى جعل المنصور من دولة الإسلام في الأندلس أعظم ممالك الأرض وأقواها في زمانه، وقضى في إحدى غزواته، ونفذ القوم وصيته فدفنوا معه مناديله، ولكن حكايته لا تنقضي بانقضاء أجله. ففضلاً عن المناديل التي دفنت معه، دفنت كذلك معه كل أسباب القوة التي كان يمسك بها منفرداً. ومن عادة المستبد أن يترك فراغاً هائلاً بعد موته. فلم تنقض بضعة عقود بعد وفاته، حتى انفرط عقد الأندلس إلى دويلات الطوائف. وقوى الشمال التي قهرها المنصور، وجدت الآن فرصة سانحة للانقضاض على دولة الإسلام لتقضم من أراضيها أضعاف ما حاز المنصور منها في غزواته المظفرة. كذلك شأن المستبد القوي. قد يفلح في تحقيق إنجازات عظيمة. ولكنه لا يستطيع حفظها. إن لم يكن ذلك في حياته، فبعد مماته.

مكتبة الربيعي أحمد

أذكر أن ابنتي الصغرى ليلى تابعت حلقات العمل على صغر سنها في ذلك الحين، وقد سحرتها شخصية المنصور وذكاؤه وموهبته منذ الحلقات الأولى، وإذ رأته في فقره وكفاحه لتأمين لقمة العيش والدراسة في جامع قرطبة وتكشفت لها طموحاته الكبيرة في الوقت نفسه انشدّت إلى تتابع السرد متلهفة معه على بلوغ غاياته. ثم إذ رأته يبيع من روحه في رحلة الصعود شعرت بحيرة لم تصرفها عن الإعجاب به، وأخذت تلتمس له الأعذار بسوء خصومه. ولكنها ظلت تنطوي على رجاء بأنه في ختام السيرة سيرتد إلى مبادئه الأولى ويسترجع معها روحه القديم. فإذا انتهى العمل دون أن يتحقق رجاؤها، وجدتها تبكي بكاءً حاراً. ثم إذا سكن عنها الحزن أخذت تجادل من جديد في الاعتذار له وتنسب للظروف القاهرة ما وصل به إلى تلك الخاتمة. فما أنجزه هو ثمرة إرادته، وما يمكن أن يؤخذ عليه فهو نتاج ظروف غلبت عليه.

لم تكن ليلى الصغيرة في ذلك الحين قد اطلعت على مفهوم التراجيديا. ولكن تفاعلها مع العمل أفضى بها إلى موقف لا يبتعد كثيراً عن ذلك المعنى. وقد وجدت في استجابتها تلك شهادة للعمل دونها شهادات الكبار. فإذا كان العمل قد بلغ من نفس طفلة في العاشرة هذا المبلغ العاطفي والفكري، وتركها تقلب الأمر على كل جوانبه، فلي أن أطمئن على نجاحه في تحقيق القيمتين الفنية والإنسانية اللتين تتقوم بهما الأعمال الأدبية والفنية الجادّة عامة، والأعمال الدرامية خاصّة.

حسبي ما سبق في التمثيل على دور المعالجة الدرامية العميقة وبناء الشخصيات المركبة ذات الأبعاد المتضاربة والصراعات الداخلية والخارجية في إضفاء قيمة أدبية وثقافية راقية على العمل الدرامي المصور، شأنه في ذلك شأن الأعمال المسرحية والسردية الأدبية المطبوعة.

هل ترى أن العرض السابق الذي قرأته ينتمي إلى أشكال الثقافة العليا أم إلى أشكال الثقافة الشعبية؟

لا شك أنك ستنسبه إلى أشكال الثقافة العليا. فكيف يعقل أن يكون كلامي المقروء عن بعض أعمالي الدرامية التلفازية ذا قيمة ثقافية فكرية عالية، ولا تكون كذلك الأعمال نفسها التي اشتقت منها الأفكار؟ هل تسلبها التقنيات البصرية التلفازية ورواج

المشاهدة بين الشرائح الاجتماعية الواسعة تلك القيمة، أم ينبغي أن تضيف إليها؟! أفلو صغتها في مادة روائية أو مسرحية مقروءة أولاً، ترتفع قيمتها الأدبية والثقافية؟!

كل ما في الأمر أن الأعمال الدرامية السينمائية أو التلفازية يمكن حقاً أن تنتمي إلى أشكال الثقافة الشعبية حصراً، حين لا تتجاوز عناصر الترفيه والتشويق والإبهار، ولكنها يمكن كذلك أن تجمع بين القيمة الدرامية والثقافية الراقية، شأنها في ذلك شأن الأشكال الأدبية والثقافية المقروءة، والرواج الشعبي من خلال التقنيات البصرية التي تحملها إلى كل بيت. فهي إذن دون غيرها من الأشكال، يمكن أن تسقط الحدود بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية، كذلك بين جمهور النخبة والجمهور العام. وهو سر قوتها وقدرتها على التأثير.

3. الدراما التاريخية: لماذا، وكيف؟

لا يفتأ بعض الكتاب والصحفيين يسأل: لم اللجوء إلى التاريخ؟ حتى قلت: ليتهم يكفون. ولولا أن الكثير من الأعمال التاريخية التلفازية يفتقر حقاً إلى مستوى المعالجة الدرامية ذات القيمة الأدبية والفكرية، لاتهمت السؤال بالسذاجة. ولكن، لماذا لم يُسأَل عن ذلك نجيب محفوظ الذي استلهم التاريخ المصري القديم في بعض رواياته؟ ولم لم يسأل أمين معلوف وآخرون في الشرق والغرب بنوا أعمالاً روائية ومسرحية عظيمة على مواد من التاريخ؟ وقد سبقهم إلى ذلك شيكسبير في عدد كبير من مسرحياته: أنطوني وكليوباترا، هنري الرابع، هنري الخامس، هنري السادس، هنري الثامن، يوليوس قيصر، ريتشارد الثاني، ريتشارد الثالث.

هل لجأ هؤلاء جميعاً إلى التاريخ يستلهمون منه أعمالهم فراراً من حاضر بئيس إلى ماض ذهبي مجيد، أو تجنباً لمعالجة قضايا معاصرة يمكن أن تهدفهم لحراب سلطة غاشمة، كما يشي السؤال المكرور: لم اللجوء إلى التاريخ؟ وهل كانت أعمالهم مجرد سجل لأخبار تاريخ ماض في إطار سردي؟ أم أنهم استعملوا المادة التاريخية على وفق مقتضيات الفنون السردية بأساليب إبداعية حققت قيمة خالدة متجددة من المتعة الجمالية والفكرية معا! فما زالت عبر عقود وقرون تجتذب متلقياً متجدداً وباحثاً متعمقاً يستقرئ فيها من المعاني والقيم الفنية ما لم يستقرئه الأولون. وتلك شيمة النص الإبداعي.

مكتبة الربيعي أحمد

ومع الإقرار بأن الكثير من الأعمال الدرامية التلفازية التاريخية المعاصرة، لا تحمل تلك القيمة الأدبية والفكرية، فما الذي يمنع من حيث المبدأ أن يرتفع بعضها إلى ذلك المستوى، وإن لم تتمتع بما تتمتع به المادة المقروءة المطبوعة من الدوام. يعوض عن بعض ذلك اتساع قاعدة المتلقين ووقت عرضها مقارنة بالكتاب، وتراجع عادات القراءة عند الكثير من الناس في الوقت الحاضر.

وإذ لا يسعني الحديث عن غيري، فإن أعمالي الدرامية التاريخية قد توخت ما تتوخاه الأعمال السردية المقروءة من القيمة الإبداعية: الفنية والفكرية. فليست الغاية تسجيل أخبار الماضي، ولا تعظيم أمجاده للتعزي عن الواقع المتردي، ولا إيثار السلامة من عواقب التصدي لمشكلات الحاضر. ولا يخفى شيء من ذلك على المشاهد. فالذي يحقق القيمة الراهنة المعاصرة ليس فترة الأحداث: قديمة كانت أم معاصرة، وإنما المعاني الفكرية، فضلاً عن الفنية، للمادة التاريخية، بما يفضي إلى مخاطبة الذائقة وشحذ الوعي بالشرط الإنساني عامة، وأسئلة الواقع خاصة. وهو ما اصطلح عليه بالإسقاط، على الرغم من ابتذال الكلمة بتكرارها وفجاجة أسلوب تطبيقها في بعض الأعمال. ومن قال: إن الأعمال الاجتماعية التي تدور وقائعها في الوقت الحاضر تتصدى بالضرورة لقضاياه ومشكلاته برؤية نقدية عميقة تسهم في تطوير الوعي والارتقاء بالذائقة؟ وكم من كتابها تعرضوا لقمع السلطة جزاء نكالاً على جرأتهم في نقد الواقع وتعريته؟ وأي القنوات التلفازية المعتبرة المشهورة تعرض عملاً درامياً يتحدى السلطة على نحو مباشر؟ ومن قال أصلاً إن الخطاب المباشر من طبيعة الفن المبدع؟ ألا يصح القول في الكثير من تلك الأعمال بأنها تسهم في تغييب الوعي والانحطاط بالذائقة؟

والماضي والحاضر على كل حال، كلاهما تاريخ. ويبقى معيار القيمة رؤية الكاتب الفكرية ورسالة العمل وطريقة التناول والمستوى الفني. وفي الأشكال الإبداعية لا يقتصر السؤال على: ماذا يريد الكاتب أن يقول، ولكنه ينصب بالقدر نفسه على الكيفية التي تحمل المحتوى وتصل برسالته إلى المستقبِل. فإذا اختلت الكيفية اختل المحتوى نفسه.

على أن كتابة الدراما التاريخية تواجه تحدياً إبداعياً لا تواجه مثله الدراما الاجتماعية. كيف يتصرف الكاتب بالمادة التاريخية المدونة وفقاً لمقتضيات الفن الدرامي

مكتبة الربيعي أحمد

من جهة، ووفقاً لرؤيته الفكرية وأسئلته الإنسانية، دون أن يخل بالحقائق التاريخية أو يتعسف في استقراء المادة التاريخية على نحو فج في خدمة منظور إيدولوجي مسبق، أو بدعوى الإسقاط؟

كما قلنا سابقاً، ليست غاية الدراما التاريخية أن تقدم سجلاً مدرسياً مصوراً لوقائع التاريخ المدون. وفي المقابل، لا يصح في نظري أن تضحي المعالجة الدرامية والفكرية بنسق الوقائع التاريخية، فتختلق تاريخاً غير التاريخ، إلا أن يكون العمل من قبيل «الفانتازيا» التي لا تبنى على أصل تاريخي حقيقي. فلا معنى لأن أختار شخصية تاريخية معروفة، ثم أجردها من كل ما تمثله في الذاكرة التاريخية، فلا يبقى منها غير الاسم والرسم، ثم أجعلها لساني. فالأولى هنا أن ألجأ إلى «الفانتازيا» التاريخية لأختلق ما أشاء من الشخصيات والوقائع. وحتى هذه يجب أن تخضع لمنطق السرد الفانتازي. أما الشخصية التاريخية المعروفة فتبعث من الفور ذاكرة سيرتها وبيئتها وعصرها. فإن حضر الكاتب ولم تحضر انتفى مسوغ اللجوء إلى المادة التاريخية، وأنكر المشاهد ما يرى.

الكاتب الحاذق يعرف كيف يسلط وعيه ورؤيته الدرامية على المادة التاريخية المدونة ليستنطقها ويستقرئ معانيها ويستبطن ما تنطوي عليه من إمكانيات درامية تشتغل عليها المعالجة الدرامية والفكرية، ويستحضر الغائب المسكوت عنه من إشارات النص الحاضر. فلا تدوين التاريخ ولا قراءته بالعملية البريئة من التحيز الذي تمليه الرؤية الفكرية للقارئ والكاتب ومحتوى وعيهما. ومن ثم تختلف القراءات للمادة التاريخية نفسها باختلاف القارئ. وتتجدد القراءات عبر العصور والأزمان، مع تطور الوعي والمناهج الفكرية والأدوات المعرفية. قصة الماضي ليست ثابتة، لا من حيث وقائعها بالضرورة، ولكن من حيث فهمها وتأويلها وتحليلها. أفلا ترى إلى الحاضر نفسه الذي نعيشه، قد نجمع على وقائعه المشهودة، ونختلف على تقويمه وتعريفه وتأويله؟! أهي ثورة أم انقلاب؟ أهي انتفاضة شعبية أم شغب وفوضى ومؤامرة؟ أهو جهاد مشروع أم إرهاب؟ أهي عدالة أم فعل انتقام؟ أهي تقوى وورع أم تزمت وتطرف؟ أهو كرم أم سرف؟ أهي شجاعة أم تهوّر؟ أهي حكمة أم عجز؟ أهي واقعية أم إذعان وتنازل؟ أهي جنوح إلى السلم أم خيانة وتفريط؟

إنه صراع المعاني الذي نحيا به، ونموت به.

مكتبة الربيعي أحمد

وإذن فإن في وسع الكاتب المبدع ألا يخلّ بنسق الوقائع التاريخية الهامة وهو يبني بها عملاً فنياً راقياً، ويشحنها بمعانٍ إنسانية، يتجاوز بها خصوصية مكانها وزمانها، ليخاطب وعي المستقبِل المتجدد وأسئلته وشرطه الإنساني، ويحوّل الظرفي التاريخي إلى عام إنساني. والكاتب المبدع يحقق ذلك كله دون فجاجة أو تعسّف. وإلا فقد القدرة على التأثير والإقناع، وطغى حضوره في النصوص على حضور الشخصيات الدرامية.

وفضلاً عن تشكيل المادة التاريخية المدونة على هذا النحو، فإنه يبقى للكاتب مساحات فارغة معتبرة تملؤها مخيلته، فيبتدع فيها مادة سرِدية شائقة من شخصيات ووقائع ومواقف لا تجدها في المدونة التاريخية. ولكن شرطها أن تكون منسجمة مع نسق الوقائع المعروفة، ومع منطق الأحداث، ومع الجو العام. فالمدونة التاريخية لا تقص علينا كل التفاصيل، ولا سيما الجوانب الذاتية ومفاتيح الشخصيات ودوافعها وعلاقاتها الإنسانية في الحيّز الخاص، ولا تؤرخ في العادة للشرائح الشعبية إذ تنشغل بالتاريخ للشخصيات القيادية المشهورة والوقائع الكبرى. ولئن كانت الشخصيات المبتدعة في هذا في هذا المجال من وحي خيال الكاتب، فإن هذا لا ينفي عنها بالضرورة صفة الواقعية والصدقية التاريخية إذا نجح الكاتب في فهم الواقع الاجتماعي في تلك الحقبة التاريخية، فجعل من شخصياته المبتدعة أنماطاً إنسانية منسجمة مع ذلك الواقع، ممثلة لشرائحه. وبذلك يتسنى للكاتب أن يبرز ما أغفله المؤرّخ الأول ويستحضر ما غيبه، ويعطي صوتاً لمن حجب صوته.

وكذا ينبغي على كاتب الدراما التاريخية أن ينظر في المادة التاريخية المتاحة بعينين معاً: عين الباحث في التاريخ التي تستقرئ وتحلل وتؤول وتستبطن الحركة الاجتماعية التي تمثل البنية التحتية العميقة للوقائع والأحداث الكبرى الظاهرة، وتكشف تحيزات المؤرخ الأصلي وتنقد الروايات وترجح بعضها على بعض، وعين الكاتب الدرامي التي يرى بها الإمكانيات الدرامية الكامنة ويدرس بها الشخصيات ومفاتيحها وعالمها الذاتي الداخلي، حتى يتسنى له أخيراً أن يحولها من أسماء وأخبار إلى شخصيات إنسانية من لحم ودم.

مكتبة الربيعي أحمد

وسأكتفي بمثال واحد من عمل قديم كتبته في مطلع الثمانينيات عن الشاعر الجاهلي «طرفة بن العبد»، أحد أصحاب المعلقات الشهيرة، والذي انقصف عمره في ريعان الشباب مصلوباً على جذع نخلة في موطنه في هجر والبحرين، بأمر من عمرو بن هند ملك الحيرة لعامله على تلك الديار. ولذلك لقب طرفة بالغلام القتيل. ولا شك أن نهايته المأساوية زادت من الاهتمام به وبشعره.

هذا شاعر أخباره معروفة يمكن أن تجمع في بضع صفحات. وكنت بالطبع قد درسته من قبل في إطار الشعر الجاهلي. أما الآن فأمعن النظر في أخباره وشعره لأكتشف مفاتيح الشخصية على المستوى الذاتي، ومعها أزمته الإنسانية التي أفضت إلى ذلك المصير المريع، وما يمكن أن تنطوي عليه سيرته وأزمته من إمكانيات للمعالجة الدرامية والفكرية تتجاوز به خصوصية الذات والزمان والمكان ليصير أنموذجاً تراجيدياً لأزمة الإنسان في صراعه مع شرطه الوجودي.

بين أخبار السيرة وشهادة الشعر التي لا تكذب، وإن كانت تتخفى، تبيّن لي أن مفتاح الشخصية وأزمتها الوجودية تتمثل في التنازع الخالد بين فرديّة الإنسان وانتمائه الجمعي، وهي مسألة تتعلق بسؤال الحرية. فالإنسان بطبعه ينزع إلى الجانبين معاً، ويحتاج إليهما معاً، ولكن هيهات أن يفوز بهما معاً دون تسوية متوازنة، وتنازلات متبادلة. فكل منهما يطلب حظه من الآخر. والأفراد ليسوا سواء في طرق استجابتهم لهذا التنازع بين المطلبين، فبعضهم أقدر من بعض على الوصول إلى سويّة متوازنة معقولة، وآخرون يغلّبون أحدهما بأقدار متفاوتة قد تبقى في حدود الممكن المحتمل، وقد يشتط بعضها فيقع الصدام والتأزّم. ولربما عاش بعض الناس حياتهم كلها متأزمين يترجحون بين هذا وذاك. وربما رجحت ببعض الأشخاص فرديتهم القوية، فتنكبوا عن الجماعة فنبذتهم واقتضت منهم ثمناً باهضاً.

وكما يتفاوت الأفراد في هذا، تتفاوت المجتمعات نفسها في تنظيم هذه العلاقات المتنافرة وإدارتها. فالمجتمعات الغربية الحديثة مثلاً، فسحت مجالاً واسعاً نسبياً للحريات الفردية وإن طوّرت في المقابل نظماً فعالة للتوجيه والرقابة والسيطرة، بعضها خفي غير منظور، وبعضها يكتسي وجهاً إنسانياً ناعماً. أما المجتمعات التقليدية فتميل إلى ترجيح

مكتبة الربيعي أحمد

التقاليد الجمعية الصارمة على الحريات الفردية، وإن بقي بوسع الأفراد أن يتفلتوا منها في عالم سرّي غير منظور ليعيشوا حياة من النفاق والازدواجية. وقد عرف العصر الفيكتوري في إنجلترا مثل هذه الظاهرة.. ومنها كثير في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

(هل تذكرون سي السيّد في ثلاثية محفوظ؟)

أشد ما تكون التقاليد الجمعية في المجتمع القبلي. بل تزداد صرامتها حين تغيب الدولة التي تحتكر العنف [illegible] سي والقضاء في الخصومات، وتتمثل بها الجماعات والأفراد معاً. وهكذا كان حال المجتمع القبلي الذي عاش فيه طرفة. فعلى الفرد أن يمتثل لدستور القبيلة غير المدوّن وتقاليدها الصارمة، لتمنحه في المقابل حمايتها وأمانها. فأنى كان، تكون معه قبيلته وإن لم يكن حضورها مادياً. فإن أُعتدي عليه فهو عدوان على قبيلته كلها، فتنهض بثأره، وإلا لحقها عار الأبد. فهو قبيلة في فرد، إذ كان فرداً في قبيلته! فإن خرق الفرد قواعد القبيلة وتقاليدها واحتكم لرغباته الفردية، حتى يهدفها لحراب العرب دون حق، أو يستجلب عليها العار، كان عليها أن تنبذه وتخلعه وتتبرأ منه علناً، فيخرج من حمايتها. ويكون عليه أن يواجه مصيره وعواقب أفعاله منفرداً.

ومن هنا جاءت ظاهرة «الخلعاء» في العصر الجاهلي، وهم ضرب من الصعاليك الذين عاشوا حياتهم على هوامش المجتمع القبلي. ومنهم تطور معنى كلمة «خليع» إلى ما صار إليه في العصور المتأخرة.

كان طرفة ذا شخصية فردية جامحة، ضاقت بتقاليد القبيلة وإملاءاتها التي تقيّد حريّته، فغَلَّب حريته الفردية عليها وجازف بالعواقب، أو لربما أنه لم يقدّر فداحة الثمن.

وما زال تشرابي الخمور ولذَّتي ... وبَيعي وإنفاقي طَريفي ومُتلَدي
إلى أن تَحامَتني العَشيرة كلُّها ... وأُفرِدتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

وهكذا دخل طرفة في نزاع مع قومه. فوجد نفسه متوحداً مغترباً عن واقعه. ولكنه لم يصر إلى الصعلكة. إنما فارق قومه، وانطلق في الآفاق برأسه. وكأنه قد أراد أن يثبت قدرته على البقاء وتحقيق طموحاته بمواهبه الشخصية، دون سند من الجماعة أو القبيلة. وإذ أصحبه في تجواله، تتمثل لي مفارقة درامية إنسانية. فها هو الآن بعيداً عن قبيلته، إذا

مكتبة الربيعي أحمد

تعرّض لخطر ما لم ينجه إلا أن يعرف الناس نسبه وقبيلته، فيكفوا أيديهم عنه. ذلك أنه خرج طوع إرادته، ولم تعلن قبيلته بخلعه. حين كان فيها كانت فرديته حاضرة في وعيه أكثر من حضور قبيلته، والآن وقد خرج منها وصار بعيداً عنها وجدها حاضرة معه أكثر من حضوره الفردي! فأين يذهب من ذاته ومنها!

ثم وصلت به رحلته إلى مملكة الحيرة. هنا دولة تفرض سلطانها على القبائل نفسها. وكان أخو الملك قد ثار على أخيه يطلب الملك لنفسه. فلِمَ يختار طرفة أن ينضم إلى الأخ الثائر وكان بوسعه أن ينضم إلى الملك المتمكن فيكون عنده في أمن وعافية. ولِمَ يستغضب ملكاً طاغية عرف بجبروته وإسرافه في القتل؟

–هل كان يستجيب لمزاجه المتمرد على المؤسسة السائدة؟

–أم كان يحب العيش على حافة الهاوية، أو يستجيب لرغبة دفينة بالموت ليتحرر من عبء شقاء الأزمة التي ما فتئت تمزقه؟

–أم رأى في الثورة فرصة لصنع مصيره وقدره بنفسه وإرادته دون عون أو إملاء من عصبته؟

–أم أن هذه مجتمعة قد عملت في نفسه ووجهت خياره؟

أخفقت الثورة. وعاد طرفة ليهيم على وجهه. حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وظن أنه لا مفر من الملك الجبّار إلا إليه، أخذ يستعطفه ويمدحه، بعد أن كان هجاه. فأمّنه الملك واستصلحه وقرّبه وجعله في ندامائه. ومكث على ذلك وقتاً ومعه خاله المتلمّس الشاعر. فهل خضع الشاعر المتمرّد أخيراً وتبددت مقاومته فانقلب على نفسه واعتزازه بذاته كما يحدث مع الكثير من المتمرّدين؟ هل مات معنوياً إذ نجا ببدنه؟ أم أن نفسه الثائرة القديمة لبثت تنكأ عليه حتى استأذن الملك أخيراً في مفارقته والعودة إلى بلده وقومه؟ هل أدرك أخيراً أن الخضوع لتقاليد عصبته أهون من الخضوع إلى ملك جبّار؟

وإذ يأذن له الملك، فإنه يعطيه وخاله المتلمّس كتابين مختومين بختمه إلى عامله على هجر والبحرين ليمنح كلا منهما جائزته. ولكن المتلمس الذي لا يأمن غدر الملك وسوء نياته، يدفع بالكتاب إلى غلام قارئ من الحيرة فيقرأه له. فيلطم الغلام صدره ويصيح:

مكتبة الربيعي أحمد

ثكلت المتلمّس أمه. ويعلم أن الكتاب أَمْرٌ بقتله. فيقرر أن يحوّل وجهته إلى الشام ليستأمن فيها بعيداً عن سطوة ملك الحيرة. أما طرفة فيقرر أن يتابع سيره إلى هجر، ويرفض أن يفض ختم الملك ليرى ما في كتابه كما فعل المتلمّس. وخاله يقول: لقد علمت أن الذي في كتابك كالذي في كتابي. فكلانا هجاه. وهو لا ينسى ثأره وإن تظاهر بالإغماض عنه. فيجيب طرفة: لئن جرؤ عليك فإنه لا يجرؤ علي! هل كان الشاعر العظيم، صاحب المعلّقة الشهيرة، على تلك الدرجة من الحمق والغفلة والاستهتار؟ أم أنه وقد أخفق في الخروج من أزمته الكامنة، قد زهد بالحياة نفسها وعاودته رغبته الدفينة بالموت. ولما كان بوسعه أن يتجنب الموت بعد أن تبيّن له أمر الملك، فقد صار موته فعل إرادة ذاتية. إنه الاختبار الأخير لإرادته الفردية التي أخفقت حتى الآن في صنع حياته على المثال الذي يحب. فإن لم يكن بوسعه أن يعيش كما يشاء، فإنه يستطيع أن يموت كما يشاء:

ألا أيُّهـذا اللائمـي أحضـرَ الـوغى وأن أشهدَ اللذّات، هـل أنـتَ مُخلِـدي؟
فـإن كنـتَ لا تسـتطيع دفـع منيَّتـي فـدعني أبادرهـا بـما ملكـتْ يـدي

وبذلك فإن الموت المتحكم بالمصائر لا يقهر إلا بالموت الإرادي. والموت بهذه الطريقة يمنح للحياة معنى بأثر رجعي.

وإلى جانب هذا الدافع، يتسنى لنا أن نضيف دافعاً آخر. فكما أن هذا الخيار بمثابة الاختبار الأخير، وربما الوحيد، لإرادة فردية غلبتها سلطة الجماعة، فيمكن أن يكون كذلك اختباراً أخيراً للجماعة نفسها ومدى وفائها بقانونها الذي يلزمها حماية أبنائها. ها هي قد استعملت قوتها وسلطتها لتخضع الشاعر، كي ينتظم في قالبها، حتى ضاقت به الدنيا فخرج على وجهه متشرداً. وها هو الآن يعود إليها، فهل تملك أن تحميه من سطوة ملك الحيرة وعامله، أم أن سلطة العصبية تقف عند سلطان الحاكم الطاغية؟ فإن لم يكن في وسعها أن تؤدي ما عليها في حماية أبنائها كما يفرض قانونها، فكيف تفرض عليه أن يؤدي لها ما عليه امتثالاً للقانون نفسه؟!

لا شيء يخسره الشاعر بتلك المجازفة الأخيرة. فإن عصمته قبيلته من الموت، فقد نجا، وجرّها في الوقت نفسه قسراً إلى التّمرد على ملك الحيرة وعسفه. وبذلك تتحول قضية الحرية من مطلب فردي يصادم القبيلة، إلى مطلب جمعي تنهض به القبيلة كلها،

مكتبة الربيعي أحمد

فتتحقق المصالحة أخيراً بينه وبينها. وإذا تخلّفت القبيلة عن حمايته واستنقاذه، فهو من جهة لا يأبه بموت اختاره لنفسه ليعطي وجوده معنى، ومن جهة أخرى يكون قد حقق انتصاره الأخير على القبيلة، إذ كشف قصورها وضعفها وعجزها عن الوفاء بواجباتها، فلحق بها من العار أكثر مما أرادت تجنبه حين أملت على الشاعر فراقها.

وأخيراً ينتهي الغلام القتيل مصلوباً على جذع نخلة، على مشهد من قومه، محققاً بذلك انتصاره الأخير في صراع الإرادة الفردية والإرادة الجمعية. الموت هنا ليس ثمناً من أجل حرية الآخرين، وإنما هو حرية القتيل نفسه!

هل هذا ما تقوله أخبار طرفة المدونة وشعره؟! من الواضح أنها لا تقوله بهذا المصطلح الفكري الفلسفي الدرامي المعاصر. وما كان للأولين أن يستعملوا مثل هذا الأنموذج التفسيري وهم يستقبلون أخبار طرفة وشعره. ومع ذلك فإن الأخبار والشعر يسمحان بهذه القراءة المعاصرة دون أي إخلال بالمادة التاريخية المدونة. فالمتغير هو القراءة لا المقروء. وقد لا تتطابق قراءتي مع قراءة باحث أو كاتب معاصر آخر. ولذلك لا تتوقف القراءات والتأويلات والأبحاث والمعالجات للمادة التاريخية والشعرية نفسها.

هل الصراع بين الحرية الفردية والتقاليد الاجتماعية أمر جديد؟

هل غربة الإنسان عن مجتمعه ظاهرة حديثة؟

والجواب أن هذه وكثير مثلها ظواهر إنسانية قديمة تتعلق بالشرط الإنساني بمطلقه وإن اختلفت الأشكال والظروف والتجليات. ولكن وعينا بها يتطور مع تطور منظومات المفاهيم التي نحلل بها ونفسر. وعلى سبيل المثال، ما كان طرفة ولا الذين سمعوا شعره أو قرؤوه من الأولين لَيَتَحَدّثون عن «مذهب اللذة» (Hidonism) بوصفه موقفاً فلسفياً. ولكن بعضهم كان يمارسه في واقع الحال. وإلا فانظر هذه الأبيات من معلقة طرفة:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضرَ الوغى ... وأن أشهدَ اللذّات، هل أنتَ مُخلِدي؟

فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيَّتي ... فدعني أبادرها بما ملكتْ يدي

ولولا ثلاثٌ هُنّ مِنْ عِيشة الفتى، ... وجدِّكَ لم أحفل متى قامُ عوَّدي

مكتبة الربيعي أحمد

فمنهُنّ سَبْقي العاذِلاتِ بشَرْبَة   كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزبِد
وتقْصيرُ يوم الدَّجن والدَّجنُ مُعجِبٌ   ببهنكة تحت الخباء المُعَمد
كريمٌ يُروّي نفسه في حياتِهِ،   ستعلم إن مُتنا غداً أيُّنا الصدي
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ   وما تَنقُصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَد
لعمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى   لَكالطِّوَلِ المُرخى وثِنياهُ باليَدِ

ألا تلخص هذه الأبيات بلغة قديمة مذهب اللذّة؟ ألا ترى إلى الربط بين حقيقة الموت واستباق اللذات قبل الفوت؟

ولكن مهلاً. لم تنته مهمة الباحث والكاتب الدرامي باستقراء المادة التاريخية على هذا النحو، وبناء المعالجة الدرامية على ذلك. فالتحدي الأخير هو أن يقول ذلك بلغة الحقبة التي تدور فيها الأحداث ومفاهيمها وثقافتها. فإن قالها بلغة المفاهيم المعاصرة فقدت الدراما والشخصيات صدقيتها وقدرتها على الإقناع. فحضر الكاتب وغاب التاريخ! فكما أنه استقرأ هذه المعاني في المادة التاريخية المدونة انطلاقاً من وعيه المعاصر، فعليه أن يترك للمتلقي أيضاً أن يترجمها إلى لغة المفاهيم المعاصرة من خلال نشاطه التأويلي.

لا يعني ذلك أن الذين شاهدوا عملي الدرامي عن طرفة، أو أي عمل آخر من أعمالي، قد استوعبوا تلك المعاني جميعها على السوية نفسها. وهذا ينطبق على قراءة الروايات والمسرحيات، وحتى على الأعمال السينمائية الراقية. ولقد وجدتني في إحدى المناسبات أناقش مع نفر من المثقفين فيلم أفاتار Avatar الذي يبدو لأول وهلة أنه من أعمال الفانتازيا التي تقوم على الإبهار، وتتوخى الإمتاع في المقام الأول. وقد أجمع رأينا على روعة العمل وجمال حكايته وصورته. ولكنا لم نكن على سوية واحدة من فهم معانيه ورسالته. إذ كاد الإبهار البصري أن يصرف عن التمعن في رؤيته الإنسانية الثقافية العميقة ورسالته السياسية النقدية الجادة. فالعمل ينطوي على نقد شديد للمركزية الثقافية الغربية التي تجعل نفسها معيارا كونياً تقاس به الثقافات الأخرى. وهو ما يغذي العنصرية وتهميش الآخر وتحقير ثقافته وإنسانيته، ويسوغ العنف في التعامل معه والهيمنة عليه، لخدمة المصالح الغربية المادية. كما يبرز العمل الوجه الذرائعي النفعي القبيح للعقلانية

مكتبة الربيعي أحمد

المادية الغربية التي تتعامل مع الطبيعة بمنطق القهر والجشع والاستغلال، فتدمر مصادرها وتخل بتوازنها الحيوي، وهو ما يهدد مستقبل الحياة كلها، وفي مقدمتها الإنسان نفسه. ويستحضر العمل في المقابل منطق الثقافات الأحيائية الأرواحية (Animistic) الشمولي (Holistic) التي ترى الوجود بكل مظاهره منظومة حيوية واحدة، يعتمد بعضها على بعض. فإذا اختل أحدها اختلت المنظومة كلها. فثمة روح واحد ينتظم الكون كله ويسري حتى في الموجودات المادية. وذلك أدعى إلى احترام البيئة بحيوانها ونباتها ومصادرها والتناغم معها، ذلك أن صيانتها هي صيانة للإنسان نفسه. وما كان للشخصية الرئيسة في العمل أن يستوعب ثقافة السكان الأصليين لذلك الكوكب بعين ثقافته الغربية حتى يتقمص صورة أبنائها وتستدرجه الأحداث إلى الانخراط بها من داخلها، ليتقمص فوق ذلك نظرتها إلى الحياة والوجود. وهي رسالة أخرى هامة متأسسة على علم الأنثروبولوجيا الذي يقرر أنه لا سبيل لفهم ثقافة أخرى إلا باستدخالها أولاً وتقمص نظرتها، بدلاً من معاينتها من الخارج بعين ثقافة الذات. وليس عبثاً أن يكون بطل القصة كسيحاً لإصابة سابقة في عالمه، حتى إذا تجسد في جسم واحد من سكان الكوكب استوى على ساقيه يمشي ويركض ويقفز بحرية، ليعيد اكتشاف ذاته مع اكتشاف حقائق المجتمع الآخر وثقافته، ثم يتماهى تدريجاً مع أهله ليتحول من عدو غاز إلى واحد منهم، ينافح معهم عن حريتهم وقيمهم وأسلوب معيشتهم ضد قومه السابقين الذين خرج نهائياً من عالمهم.

لم يكن غريباً، في ضوء رسالة العمل هذه ومعانيها، أن تستنكره بعض الجهات في الولايات المتحدة. إذ يكاد أن يكون دعوة عالمية للثورة على الهيمنة الإمبريالية الأمريكية. والشاهد هنا أن مشاهدي العمل، حتى النخبة المثقفة، قد توصلوا إلى أقدار متفاوتة من معاني الفيلم ورسالته. وكفى بذلك. ولكنهم أجمعوا على فائدته ومتعته ورقيه، وانجذبوا جميعاً لمادته الحكائية الشائقة المستكملة لشروط السرد الدرامي.

4. حضور الكاتب في شخصياته

لا يخلو نص سردي من بعد ذاتي وإن أخفى الكاتب صوته. ولا أعني بذلك أن النص في آخر المطاف هو نتاج وعي الكاتب ومخيلته. فهذا من نافل القول. ولكني أعني أن جانباً من تجارب الكاتب الشخصية وسيرته لابدّ أن يتسرب على نحو ما إلى نصّه، وأنه في هذا الموضع أو ذاك يكتب شيئاً من ذاته.

مكتبة الربيعي أحمد

وهكذا لم يخل عمل من أعمالي الدرامية من مواقف وجدت نفسي أتماهى معها وأستحضر فيها شيئاً من مزاجي وتجاربي الداخلية، وربما كذلك هواجسي التي أطوي عليها جوانحي ولا أبوح بها لأحد من العالمين. لكأن نظرية «التطهّر» الأرسطية في المسرح لا تقتصر على المتفرّج، ولكنها تبدأ عند الكاتب في أثناء فعل الكتابة.

في مسلسلي «صلاح الدين الأيوبي» توقفت في مرحلة البحث وإعداد المعالجة الدرامية عند العلاقة بين صلاح الدين وعمه شيركوه بما يزيد على علاقة صلاح الدين بأبيه. ولولا تعهّد شيركوه لصلاح الدين وتقديمه إياه على أبنائه وأبناء أخيه، لما بلغ صلاح الدين ما بلغ من الوزارة ثم السلطنة على غير تدبير منه ولا رغبة. فوجدتني أستحضر علاقتي الخاصة بعمي محمود إبراهيم رحمه الله. فألقيت على معالجتي لذلك الجانب من القصة قبساً عاطفياً من حياتي.

وكم منا تسلّطت على وعيه وخياله وحسه رغبة طاغية يلابسها التأثم، ولا قبل له بصدّها وطردها من موضع سرّه، وعلم في الوقت نفسه أنها ضرب من المستحيل، أو أن بينه وبينها ثمنا باهظا من روحه وقيمه وأخلاقه. فالتجأ إلى المخيّلة يصطنع منها عالماً بديلاً وسيرة أخرى وشروطاً مختلفة تتيح له مالا يتيحه الواقع بلا إثم ولا حرج ولا حساب ولا عقاب ولا شعور بالذنب. إنه عالم الحلم الذي يتحرر فيه صاحبه من أي إملاء إلا إملاءات الرغبة، فلا رقيب ولا حسيب. فلا حساب على ما يتحركَ في القلوب وما تصنعه الأحلام، إنما الإثم على ما تصنعه الجوارح.

إن كان هذا يصف حالة اختبرتها في حياتك، فأهلاً بك إلى نادٍ ستجدني فيه! ودعنا معاً نشاهد موقفاً من مسلسلي «ربيع قرطبة» يصوّر هذا الحال. وذلك حين غلب الشوق والوجد على محمد بن أبي عامر في علاقة الحب المكتومة بينه وبين صبح أم ولد الخليفة الحكم المستنصر.. فيشي لها ببعض ما في نفسه بمرافعة شعرية مؤثّرة يلتمس فيها الأعذار لما غلب على نفسه ونفسها دون إرادة منهما.

والإرادة هي مناط المسؤولية والحساب. فإذا حصّنت بأسوار العفاف، فلم تخرج إلى عمل الجوارح، فلا لوم ولا عتاب. نصون بعمل الإرادة التي تعصم الجوارح ما لا إرادة لنا فيه من عمل القلوب.

مكتبة الربيعي أحمد

لم يكن ابن أبي عامر في ذلك الموقف ينطق عن نفسه فقط، وإنما كذلك عن نفسي وعن نفوس الكثيرين غيري. ولذلك استوقف المشهد الكثير من المشاهدين والمشاهدات، ودوّن بعضهم الكلام حتى حفظه، لأنه ضرب على وتر حساس من المسكوت عنه، وتولّى القول عمّن لا يستطيعه، دون أن يترك سبيلاً للتهمة. فكان بمثابة التطهّر الذي يأتي مع الاعتراف.

وليس بوسعي الآن أن أتتبع كل ما تسرّب من عالمي الشخصي في أعمالي الدرامية. ولكنني سأتوقف عند «التغريبة الفلسطينية». فإذا كان العمل الدرامي التاريخي لا يخلو من شظايا تتناثر من سيرة الكاتب وتجاربه الشخصية، فأحرى بذلك أن يتمثل بقدر أعظم في عمل درامي عن قضية نشأ الكاتب وعاش في قلبها وكان لها الإسهام الأكبر في تشكيل وعيه ووجدانه وأحلامه وأحزانه وذاكرته ومخيلته، بل شرط وجوده على الجملة.

كيف أروي ملحمة العذاب والكفاح الفلسطينيين من خلال شخصيات واقعية يرى فيها الفلسطيني نفسه وأباه وأمه وجده وجدته وعمه وعمته وخاله وخالته وآخرين من دونهم، دون أن يغريني نبل القضية بأن أسمو بالشخصيات فوق الواقع؟ فهذا عمل سيكون المشهود فيه هو عين المشاهد الشاهد نفسه. كيف أصنع ودراما الضحايا والمعذّبين والمناضلين في واقع الحياة أكبر مما يمكن أن يبتدعه خيال الكاتب، بل أكبر من قدرته على فن السرد. والذاكرة ممتلئة بالمشاهدات والتجارب والأخبار والقصص، وكلها تتدافع للحضور في نص لا يمكن أن يتسع لها جميعاً .. والانتقاء من كثير متزاحم أعسر من التوسّع بالقليل. ولقد وجدتني في حال كحال المعماري الذي يفضّل الانطلاق من مرجع معماري قائم على الأرض يتصرّف به تعديلاً وتطويراً وفق معطياته المسبقة ليستوي خلقاً معمارياً آخر. أنا ابن طولكرم، المدينة الحدودية في الضفة الغربية، فلتكن بيئة الأحداث الرئيسة بعد التهجير. وبيتنا يقوم على حافة المخيم الذي ملأ وعيي ووجداني بنواحه وكفاحه منذ طفولتي المبكرة، واسترفدت الكثير من ذاكرة أهله الذين كانوا يجالسون أبي في دكانه الصغير فيفيضون في الحديث عن ذكرياتهم وأحزانهم وأحلامهم. فليكن مخيم طولكرم إذن محط شخصياتي الرئيسة بعد اقتلاعهم من قريتهم في الداخل الفلسطيني. ولقد انتقل أبي وعمّاي إلى طولكرم من قريتهم باقة الشرقية في قضاء طولكرم، ونقلوا لنا ذاكرة حياتهم فيها بلا تجميل ولا تبخيس. فلتكن تلك القرية وتلك الذكريات مرجعي في رسم صورة

مكتبة الربيعي أحمد

القرية التي تعيش فيها شخصياتي الرئيسة قبل النكبة والتهجير. وبذلك تتشخص البيئات الرئيسة التي تتحرك فيها الأحداث والشخصيات في صورة مألوفة ذات طابع شخصي. وهي فرصة لابتعاث مرابع الصبا في مدينتي ومشاهدها القديمة التي أسست لهويتي ومخيالي وعالمي الشعري. لعل ذلك أن يكون طريقتي في شكرها وتكريمها.

ولكن، هل ثمة أثر من سيرتي الذاتية وسيرة أسرتي في بناء شخصيات العمل؟ وهو سؤال ردّده الكثيرون. والجواب: نعم. ولكن تلك السيرة الشخصية والأسريّة لم تكن غير مخطط مرجعي طورت تصاميمه وجمعت أحجاره ورفعت «مداميكه» من مصادر وسير شتى. فاستعرت لذلك المخطط واستعرت منه، فظلّ له من أصله نصيب وإن تخلّق في صورة أخرى.

نعم، عانت أسرة جدي في «باقة الشرقية» من بعض ما عانت منه أسرة صالح الشيخ يونس (أبو أحمد) في قريتهم في المسلسل. وكان على كل من الأسرتين أن تواجه اضطهاد ملاك الأراضي الكبار الذين كان يغريهم بذلك افتقار الأسرة إلى العزوة العشائرية الكبيرة في القرية نفسها. إذ عدّوا طارئين على القرية أو «غُربية» بالدارجة الريفية. أما «حمولتهم» الكبيرة العريقة ففي بلدة أخرى من فلسطين. وكما في المسلسل كانت أسرة جدّي تضطر أحياناً إلى استضافة نفر من «الحمولة» لتستقوي بهم وتستعرض أرومتها المعتبرة أمام أهل القرية. ولكن الاستضافة ثقيلة بتكاليفها على أسرة رقيقة الحال كما كانت الغالبية العظمى من أهل الريف الفلسطيني في تلك الفترة المظلمة من الانتداب البريطاني الذي عمل جهده على إفقار الفلاحين ليدفعهم إلى بيع أراضيهم. وكما في المسلسل أيضاً تحدّت الأسرة الصغيرة ظروفها الضاغطة، وحافظت على كبريائها وعزة نفسها، وقاومت مضطهديها. بل إن تمسكها بعزة النفس على رقة الحال كان أدعى إلى استفزاز بعض زعماء القرية وكبار ملاكها. وكما في المسلسل أدركت أسرة جدّي مبكراً أن التعليم هو سبيلها إلى التحرر من ربقة الفقر والاضطهاد وإلى الخروج من حياة الريف الكئيبة.

ومثل أسرة أبي أحمد في المسلسل، كانت أسرة جدي (أبو إبراهيم) تتكون منه ومن جدّتي وأربعة أبناء وبنت واحدة. وقد ألقيت على كل من شخصيات أسرة المسلسل بعضاً من ملامح شخصيات أسرتي وأمزجتهم. فأبو أحمد يلتقي مع جدّي أبي إبراهيم (كما عرفت من رواية الأسرة عنه، إذ لم أدركه في حياته) في رقة القلب وإيثار السلامة وتغليب

مكتبة الرمحي أحمد

العواطف. فكان يؤثر أن يبقى أبناؤه في جواره على أن ينطلقوا في الآفاق ويمشوا في مناكب الأرض سعياً لتحسين أوضاعهم. بل إن الشقاء الذي اختبره في القرية ما كان ليصرفه عن البقاء فيها، ولو هيّأ له أبناؤه حياة أفضل في المدينة. فالقرية عالمه المألوف بروائحه وأصواته وعاداته وحكاياته. فإن أخرجته منه فكأنك تخرج السمكة من بحرها. ولما ابتنى أبي وأخواه مساكن في طولكرم، وراودوه على الانتقال معهم إليه أبى. وآثر أن يبقى في بيته الطيني في القرية. فكان يتردد بين القرية ومنزلنا في طولكرم، فيدور بالبيت متمتماً ساخطاً، ثم يعود من يومه إلى القرية، حتى بلغ الحال من صحته وأدركه بعض الخرف المبكّر، ثم كان الموت راحته.

كذلك كان أبو أحمد في المسلسل. ولما انتهى به التهجير إلى مخيّم طولكرم واقتلع قسراً من قريته رأيناه يغرق رويداً رويداً في عالمه الداخلي، شارداً عن نفسه وعمّن حوله حتى انقطعت صلته بالواقع وبدأ عقله يخلّط ولا يستحضر إلا الزمان المنصرم كأنه قد آثر أن يمحو ما وقع بعده من كوارث النكبة، حتى أدركه الموت.

وعلى النقيض من الأب (أبو إبراهيم وأبو أحمد) كانت الأم (جدتي أم إبراهيم وأم أحمد في المسلسل)، السنديانة التي تلتف حولها الأسرة، والمرأة التي تشع قوّة وشجاعة وصموداً في وجه العواصف. وهي وإن كانت لا تقل عن زوجها حباً لأولادها فإنها لم تجعل حبها ذاك قيداً على طموحهم وحركتهم. بل كان الدافع لتشجيعهم على البحث عن حظوظهم وسعادتهم في أي مكان. «ابعدوا واسعدوا». كان ذلك شعارها، وهي تدرك أن الكلفة العاطفية للفراق عظيمة من نفسها. ولكن ذلك أهون عليها من أن تكون كلفة بقائهم من سعادتهم ومستقبلهم.

أما الأخ الأكبر أحمد (القائد أبو صالح)، فيلتقي مع أبي (إبراهيم) الذي كان أكبر إخوته أيضاً، في الهيبة والصرامة والتصدّي للمظالم دون وجل من صاحب سلطة أو ثروة أو زعامة. ولما كان الأكبر فقد شارك أباه مبكراً في رعاية الأسرة والدفاع عن حقوقها وحفظ كرامتها. وكما رأينا أحمد في المسلسل يصرّ بحزم على أن يتابع أخواه الصغيران (حسن وعلي)، أحدهما أو كلاهما، تعليمهما في المدينة بأي ثمن، على الرغم من رقة الحال واعتراض الأب، فقد كان لأبي مثل هذا الموقف من أخيه الأصغر محمود الذي سيحصل

مكتبة الربيعي أحمد

فيما بعد على أعلى الشهادات العلميّة من جامعة أجنبية مرموقة. وهي قصّة مكرورة مألوفة في المجتمع الريفي الفلسطيني. فلا يسع الأسرة البسيطة أن تعلم أبناءها جميعاً في المدينة، ويكون على الكبار أن يبدؤوا مبكّراً في العمل في الأرض، على أن يستثمروا في تعليم أحدهم أو بعضهم ليكون المتعلّم رافعة الأسرة كلها في المستقبل، ممهداً للأجيال التالية. هكذا مضى الأمر في أسرة المسلسل وفي أسرة أبي. إلا أن أحمد (أبو صالح) في المسلسل ينخرط في ثورة الثلاثينيات (1931-1939) ضد سياسات الانتداب البريطاني الرامية إلى تنفيذ وعد بلفور، ليصير القائد أبو صالح. وذلك ما لم يكنه أبي. ولكنهما يعودان للتشابه بعد ذلك من وجوه اجتماعية وشخصيّة شتى. فكلاهما يتزوّج من فتاة مدنيّة من حيفا. ومن الطبيعي أن يؤدي اختلاف العادات إلى بعض التوتر. وهنا يظهر جانب التزمت الاجتماعي والتسلط الذكوري في شخصيّة (أبو صالح) القائد الثوري السابق الذي قاوم الظلم على جبهتين: جبهة النضال ضد الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني، وجبهة النضال ضد تسلّطِ الزعامات المحلية شبه الاقطاعية. ولكن، كما علمتنا التجارب والمشاهدات، فإن الوعي الثوري يمكن أن يكون ناقصاً. فإذ يتوجه إلى القضايا الوطنية يبقى أسيراً للتقاليد الاجتماعية السائدة وثقافتها الذكورية. والذين عرفوا والدي، رحمه الله، ولا سيما أبناء العائلة، استحضروا صورته فوراً وهم يشاهدون أبو صالح يقاوم رغبة زوجته في دخول جهاز المذياع إلى البيت بوصفه صندوق الشيطان، ويهزأ بميوعة المطربين الذين يفسدون أخلاق الناس بالكلام عن الحب، ويزري بأصناف المتع، حتى البريئة منها، التي تصرف عن القضايا الجادة.

وكما استحضر العارفون صورة والدي في أبي صالح، استحضروا كذلك صورة أمي -رحمها الله- في الزوجة أم صالح. فقد بنيت الشخصية على مثال أمي، حتى تماهتا في وعيي وأنا أتابع العمل من موقع المشاهد، لا من موقع الكاتب.

ومثلما كان «علي»، الأخ الأصغر المتعلم، يتوسط بين الفينة والأخرى بين أخيه «أبو صالح» وزوجه ليخفف التوتر الناشئ عن اختلاف العادات والمطالب، ويستعمل دالته عند أخيه الأكبر ليرجع عن موقفه المتشدد، فكذلك كان يفعل عمي محمود مع أبي وأمي. وما كان أبي ليردّ له طلباً أو يصرف سمعه عن رأيه. فكان لأمي شفيعاً وسناداً وملجأً فوق ما يكون الأخ من الدم. وهي على أي حال كانت أرق فؤاداً وأكثر تفانياً وألطف معشراً

مكتبة الرمحي أحمد

من أن تحيل التوتر العارض إلى شقاق. وما هي حتى راضت نفسها على مزاج زوجها وبيئتها الأسرية الجديدة، كما فعلت أم صالح في قصة المسلسل. وصار عالمها الأسري القديم المفارق مجرّد ذكرى قديمة تعاودها بين الفينة والأخرى في سياق ذكرى حيفا السليبة، سقى الله أيامها، كما كانت تردد بلهجتها الدارجة. وكما التجأ أهل أم صالح إلى لبنان عام النكبة، كذلك فعلت عائلة أمّي.

يكاد علي، في قصة المسلسل، أن يكون عمّي محمود في واقع الحياة بمزاجه وأخلاقه وحكمته واتزانه فضلاً عن سيرته، إلا ما اقتضاه البناء السردي والاختلاف في البيئات والمسارات. فكلاهما كان الوحيد الذي تضامنت أسرته ليتابع تعليمه في المدينة القريبة (وهي طولكرم في حالة عمي)، ثم في القدس، قبل أن يتابع دراسته الجامعية حتى الدكتوراه في جامعة أجنبية. والظروف المادية الصعبة التي عاشها علي في المدينة التي تابع فيها صفوفه المدرسية استوحيتها من حديث عمي محمود عن تجربته الشخصية القاسية. وكلاهما كان له إسهام كبير في تحسين وضع الأسرة ودعم أبنائها. وكلاهما صار أستاذاً جامعياً مرموقاً. وكلاهما أيضاً تزوّج من فتاة تنتمي إلى خلفية اجتماعية مدنيّة مختلفة. هل تذكرون مشاهد عرس علي: من تزاحم الأهل والناس في الحافلة القديمة التي تقلّهم إلى عمّان حيث بيت العروس، وأغاني الأعراس الريفية في الطريق وعند الوصول، والتدفق العفوي للقادمين إلى داخل بيت العروس، والمواقف الطريفة الناشئة عن تضارب عادات الفرح وأساليب التعبير عنه!! ضحك كثير من المشاهدين وبكوا في الوقت نفسه.

شهدت بنفسي صغيراً بعض هذا، ولا أقول كله.

أما حسن الأخ الذي يكبر عليّاً بقليل في قصة المسلسل، ويشاركه الخبز الحافي والمتع الصغيرة والأحزان الكبيرة والأحلام البعيدة، فقد استلهمت شخصيته من عمي (محمد) الذي توفي في ميعة الصبا، فأورث الأسرة حزناً مقيماً، وكان أكثر من فجع بموته عمي محمود، فقد كانا متلازمين متصافيين. ومثل حسن في المسلسل، فاته قسراً أن يتابع تعليمه في المدينة مع أخيه، فبقيت في نفسه حسرة من ذاك، وهو الذي تروي الأسرة أنه كان بعيد الطموح، جامح الأحلام. وكان مقبلا على الحياة يريد أن يعبّ منها عباً، وكأنه يستبق شبح الموت المقبل. وعلى الرغم من أنني لم أدركه في حياته، فقد تكفّلت الأسرة، لا سيما عمي محمود، باستحضار طيفه حتى لكأني قد أدركته. ووجدت في كتابة النص فرصة

لابتعاثه سردياً من مرقده في شخصيّة حسن، ذلك الشاب النبيل الرومانسي الحالم المتأنق في مظهره على الرغم من رقة الحال، والذي يستجيب لنداء مشاعره وقيمة الإنسانية بشجاعة فذّة. فإذا عزم لم يستشر في رأيه غير نفسه، ونكب عن ذكر العواقب جانباً، سواء أكانت مواجهة مع مجتمع محافظ قاسٍ أم مع الموت نفسه. وبهذا كان يفترق عن أخيه علي الذي ينشغل بالأسئلة والتأمل عن الحسم والمبادرة السريعة. فبينما مضى علي في رحلته مع الكتاب المخطوط، مضى حسن يقرأ لغة الريح والشجر والأرض. مات عمي محمد بداء ألم به، بينما قضى حسن شهيداً في عام النكبة.

أين أنا في قصة المسلسل؟

إذا التمستني وجدت بعضي في صلاح، الابن الثاني لأبي صالح. فقد أعرته مزاج صباي القلق المتمرّد وشغف المطالعة وهاجس الشعر وتقمّص الأزمات الوجوديّة التي تثيرها الكتب الغربية المترجمة انطلاقاً من وعي مفارق وبيئة صناعية متقدّمة معقدّة، ثم إسقاط ذلك قسراً على بيئة طولكرم البسيطة الريفية التي تنام مع غروب الشمس، ولا تملك ترف التفلسف حول أزمة الإنسان المعاصر، وهي التي ينفتح سهلها وأفقها على الشطر المغتصب من فلسطين! والكتب التي نراها في المسلسل على طاولة صلاح ويستعرضها أمام الآخرين، هي بعض الكتب التي كانت عندي أيام الثانوية ومنها مؤلفات لسارتر وكولن ولسون. وكنت أستوعب منه ما يكفي لإيهام الآخرين بأني أحلّق فوقهم وبعيداً عنهم في عالم الفكر والفلسفة والشعر! ولم أقاوم في كتابة نص المسلسل الرغبة في أن أؤدي واجب التحية والشكر لذلك الرجل الطيب، صاحب المكتبة الوحيدة التي تبيع تلك الكتب الأدبية والفكرية الجادة، فكان يسمح لي أن آخذ منها ما أشاء على وعد السداد المؤجل متى وسعني ذلك. فكان له بذلك فضل عليّ لا ينسى ولا يجحد. وقد ذكرت اسمه الحقيقي على لسان صالح: عبد الرحيم العلي. ولعل أبناءه قد شاهدوا المسلسل فتنبهوا إلى ذكر أبيهم باسمه. ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

هل بقي شيء مما أعرته من نفسي لصلاح؟! آه، نعم... شيء من قصّة الحب مع فتاة الشرفة! إلا أنني في واقع الحياة لم أكن لاجئاً «ابن مخيم» كصلاح، ولذا لم يكن علي أن أواجه ما واجهه في قصّة الحب تلك، من ثورة أسرة الفتاة عند اكتشاف العلاقة، بتأثير من

مكتبة الرمحي أحمد

النظرة الدونية الظالمة «لابن المخيم». إذ لم يبرأ فلسطينيو الضفّة الغربية أنفسهم من إلحاق وصمة بالمخيم وأهله، فصار الناس ناسين: اللاجئين، «والوطنية» كما شاعت تسمية غيرهم من أهل البلد. وقد وجدت في بناء علاقة الحب تلك فرصة لكشف هذا الجانب المظلم في المجتمع الفلسطيني. كأني حين أعرت بعضاً من نفسي لصلاح، كنت أريد أن أتقمصه أكثر مما أردت أن يتقمّصني، فأخرج من مكاني بين «الوطنية» لأكون من أبناء المخيّم المظلومين من العدو البعيد، والأخ القريب. فلعل ذلك أن يطهّرني من الوصمة الحقيقية: وصمة التّعصب ضد المخيم الذي كان دائماً عنوان المأساة الفلسطينية، وحاضنة الكفاح والمقاومة.

لم تستطع قصّة حب صلاح في المسلسل أن تصمد في وجه التّعصب والتفاوت الاجتماعي. فإذا انقضى ما بين الحبيبين سكنت العاصفة، ولم تسكن المرارة في نفس صلاح، ولا الأمل في أن يصل يوماً ما انقطع بينهما، حتى ينبهه صاحبه أن الفتاة نفسها قد انصرفت بقلبها عنه، إلى فتى آخر من «الوطنية»! هذا كل ما يذكر عن الفتى الآخر! هل تدرون من هو هذا الفتى الآخر الذي يتحول إليه قلب فتاة الشرفة في واقع الحياة؟ إنه أنا!! فقد كان فتى من المخيم يتعشّقها من قبل، ويزعم أنها تبادله العواطف وأنه يكاتبها وتكاتبه، حتى اكتشف أهلها العلاقة فصرفوا ابنتهم عنها، وانتهى ما بينهما، إذا صحّ من ذلك شيء. ثم دخلت أنا في الصورة فبادلتني حباً بحب لا لقاء فيه ولا سلام ولا كلام، إلا من الرسائل، على نحو ما قصصت في الفصل الأول. وعلمت أن الفتى ابن المخيم قد كابد ما كابد من لوعة الهجر والقطيعة. ولعله وجد في نفسه عليّ. وهكذا اخترت في نص «التغريبة» أن أتوحد معه في شخص صلاح، فألقيت عليه مني ومن الفتى فيما يمكن أن يكون مصالحة أخيرة متأخرة بين ابن «الوطنية» وابن «المخيّم»!

أرأيتم إذن كيف يمكن أن تنبث حياة الكاتب وسيرته في نصّه السردي، فيوزع نفسه في نفوس كثيرة من جهة، أو يدمج جوانب من نفسه مع جوانب من نفوس أخرى في شخصيّة واحدة من جهة أخرى!! ألا يظهر من ذلك أن الكتابة عن تجارب الحياة، هي في ذاتها تجربة حياة، وأننا إذ نصوّر الواقع فإننا ننشئه على نحو ما؟ وأن كتابة الدراما يمكن أن تكون في ذاتها دراما؟

مكتبة الربيعي أحمد

5. دراما التفاعل والتدافع بين أطراف الصناعة

فضلاً عن دراما الكتابة الدرامية، فهناك دراما صناعة الدراما المشخصة. أعني بذلك العلاقات التفاعلية بين أطراف الصناعة من كاتب ومخرج ومنتج وممثل في المقام الأول. ولا يغرنك الكلام الديبلوماسي الذي تسمعه عن علاقات التعاون والتكامل والتفاهم والانسجام بين هذه الأطراف. فالحقيقة في معظم الأحيان أنها علاقة مشحونة بالتوتر والتجاذب والمغالبة، وإن لم تصل بالضرورة إلى الصدام أو الخلاف الصريح. فالكاتب يرغب في أن يطلق العنان لخياله على الورق، فلا يقيده بحسابات التكاليف الإنتاجية والإمكانيات الفنية المتاحة. والمنتج يطلب أحسن النتائج الفنية الممكنة بأقل التكاليف حتى لو اقتضى ذلك التضحية ببعض طموحات النص والإخراج. والمخرج يرغب في إطلاق يده في التصرف في النص على وفق رؤيته أو قدرته أو المقتضيات الإنتاجية والفنية. والممثل النجم يود لو استطاع أن يسخر هؤلاء جميعاً لصالح نجوميته. بل إن منهم من يتابع تأليف النص خطوة خطوة ليضمن أن يكون مفصلاً عليه. وبالطبع، فإن الكاتب المحترم لا يرضى أن يستحضر نجماً يتوجه به في بناء العمل وشخصياته. فالشخصية الدرامية هي التي توجه اختيار الممثل المناسب على وفق ملامحها، وليس العكس. وإذن فإن العلاقات بين صانعي العمل هي علاقات قوة. ومن طبيعة علاقات القوة ألا تكون متكافئة تماماً. وهي كذلك متغيرة من عمل إلى آخر حسب أوضاع المشاركين فيه من حيث الكفاءة والشهرة والإنجازات السابقة. فالممثل الصاعد لا يملك ترف الاشتراط. والمخرج اللامع الفائق يخطب وده النجوم ليكون لهم من عمله نصيب. فإن كان دون ذلك تراجعت سلطته. والكاتب المبدع المشهور تسعى الصناعة إليه سعياً، ويملك أن يشترط ألا تتصرف أطراف التنفيذ بنصه، إلا بموافقته. فإن كان دون ذلك فلربما اقتضى الأمر التوجيه والتعديل والتصرف، أو حتى إعادة الكتابة. وأما الجهة الإنتاجية الكبيرة القادرة على تكاليف الأعمال الكبيرة، فهي صاحبة السلطان في آخر المطاف. ومهما يكن وضعك من علاقات القوة والتجاذب تلك، فأنت على الخيار من أمرك، فإن شئت فخذ، وإن شئت فدع.

وقد لا تتوقف عملية التجاذب والتدافع عند الإعداد والتنفيذ والتوليف بين عناصر الصناعة، حتى تتعداها إلى طريقة عرض أسماء المشاركين في المقدمة. أما التدافع بين النجوم

مكتبة الربيعي أحمد

الكبار إذا اجتمعوا في عمل واحد، فمعروف مشهور. وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى حلول وتسويات وترضيات سقيمة سخيفة. كأن يظهر اسمان في إطار واحد، ثم يتبادلان الموقع بين يمين الإطار وشماله، او بين أعلاه وأدناه، ليستوي الاسمان مثلاً!! دع عنك أنواع الترضية الأخرى، كإضافة الأوصاف السمينة: النجم الكبير، الممثل القدير، ونحو ذلك مما قد يضطر إليه المخرج والمنتج تحت وطأة الحاجة إلى إشراك أسماء كبيرة في أدوار ثانوية.

وأقل من ذلك وضوحاً ما يقع في عرض اسمي الكاتب والمخرج، وهما ركنا العمل الرئيسان. ويرجع الأمر إلى شهرة كل منهما في الصناعة ومستوى إنجازاته السابقة، ثم إلى نزاهة المخرج الذي يشرف على تنفيذه. فمن المخرجين من يحب أن ينسب العمل إلى نفسه منفرداً في عرض الأسماء والمواهب المشاركة، فيمر باسم الكاتب مروراً سريعاً وبحرف غير بارز، ثم يختم باسمه مخطوطاً بحروف كبيرة، ويتلبث في عرضه وقتاً حتى ينطبع في ذهن المشاهد. وقد يمهره بعبارة: «مع تحيات...»، أو يسبقه بحرف الجر(ل) لينسب مجمل العمل إلى جهده.

ولكن المخرجين ليسوا جميعاً على هذا المنهج الاستحواذي. فمنهم من يتسم بالنزاهة والإنصاف. وقد اختبرت في تجربتي من هؤلاء وأولئك. وأعتقد أن الإنصاف يعبر عن ثقة المخرج بنفسه وعمله، فلا يحتاج إلى أن ينتقص من جهد غيره ليعظم جهده. وكثيراً ما سئلت عن طبيعة العلاقة التبادلية بين النص والإخراج في الناتج النهائي المشهود. وجوابي المكرور المختصر هو: النص الضعيف لا يستطيع إنقاذه مخرج حاذق مهما تكن موهبته، وفي المقابل، فإن الإخراج الهزيل يمكن أن يهبط بالنص الممتاز مهما يكن مستوى تميزه. فإذا اجتمع النص القوي مع الإخراج الفائق، بلغ العمل غايته.

على أن العاملين في هذه الصناعة يجمعون على أن النص يبقى الأساس الذي تنبني عليه الجهود الأخرى. ويجمعون في القدر نفسه على ندرة النصوص المتميزة قياساً بالمواهب الأخرى. وهي ظاهرة عالمية، وإن كانت في الوطن العربي أظهر وأكبر. وتمثل مصدر حرج للمخرجين المقتدرين والممثلين البارعين. فلا يسعهم أن يتوقفوا عن العمل حتى يأتيهم ما يتطلعون إليه من النص الرفيع المستوى. فيضطرون إلى التسمح في المستوى بقدر معلوم. ثم يدفعون اللوم بالضرورة. فالجود بالموجود.

مكتبة الرمحي أحمد

ولقد غبر زمان كان فيه الكاتب عندنا يتحمل ضغوطاً هائلة ليكيف نصه على وفق الإمكانيات الفنية والإنتاجية الفقيرة. فقبل أن يشرع في الكتابة، يطلب منه أن يختصر في الشخصيات الرئيسة والثانوية فلا تتجاوز عددا معيناً، وأن يقتصر على عدد محدود من الديكورات الثابتة التي ستدور فيها المشاهد كلها، وأن يتجنب مشاهد المجاميع الكبيرة والمعارك، والمشاهد الخارجية إلا اللمم! فلا الإمكانيات الإنتاجية ولا القدرات الفنية تسمح بغير ذلك.

ومن الواضح أن هذه الظروف الضاغطة تلقي على الكاتب عبئا ثقيلاً وتحمل النص ما لا ينبغي أن يحتمل للتعويض عن فقر الحركة والبيئات المصورة والقيم البصرية. وهي في الوقت نفسه امتحان لقدرته على تحقيق حد معقول من شروط السرد الدرامي الجذاب بذلك الحد الأدنى من الإمكانيات الفنية والإنتاجية. فيكون عليه أن يوجه المعالجة الدرامية في المقام الأول إلى عالم الشخصيات الداخلي والعلاقات الإنسانية. وينوب القول عن الفعل والخبر عن العيان، والوصف اللفظي عن الحدث الخارجي. وهكذا يتقدم الحوار على السيناريو(الحركة)، والسماع عن البصر. فنرى الشخصيات في هذا المشهد تتأهب للحرب، ثم نراها مرة أخرى تعود منها منتصرة أو مهزومة، ولا نرى بينهما الفعل نفسه. وقد يستثقل المخرج العتيد مؤونة تغيير مظهر الشخصيات العائدة من المعركة، فلا نرى عليها أثارة من غبار أو دم أو ثوب ممزق. وقد نرى شخصية ما قادمة من سفر طويل، فلا يظهر عليها شيء من وعثاء السفر. فإذا غامر المخرج العتيد بتصوير مشهد خارجي يتيم كدت تقول: ليته لم يفعل. فهو أقل إقناعاً من مشاهد الديكورات الداخلية، بل ربما كان أقل حركة. فها هو بطلنا الفارس المغوار على ظهر جواده مع صاحبه يتحاوران، وقد وقفا بجواديهما لا يخطوان بهما خطوة واحدة. والجواد قلق تحت صاحبه فيكاد ألا يستقر عليه، وهما يتحاوران في خطة الغارة المقبلة! وتكاد ألا تتبين الكلام لرداءة الصوت في البيئة الخارجية، فإذا انضم إليها صوت الريح الطبيعي أو طغت عليها المؤثرات الموسيقية الفجة، ذهب الكلام أدراج الرياح! عندئذ يتبين لك أن المشكلة ليست فقط في فقر الإمكانيات الإنتاجية، وإنما كذلك في ضعف المواهب التنفيذية. فحتى لو لم يردعك القرار الإنتاجي عن كتابة مشاهد الحركة الخارجية، فأولى بك أن تتجنبها طوعاً، لأن صورتها المنفذة سوف تنتقص من صدقية العمل بدلاً من أن تضيف إليه.

مكتبة الربيعي أحمد

قل مثل ذلك في إدارة الكومبارس والمجاميع على قلتها وهزالتها. فلا أعدادهم مقنعة، ولا حركتهم واقعية طبيعية. أما أصواتهم المركبة في الخلفية فأشد وأنكى وأجدر بأن تذهب بما فضل من واقعية المشهد. وأذكر بأنني جازفت في أحد أعمالي التاريخية القديمة بكتابة مشهد لمعركة كبيرة من معارك التاريخ الإسلامي، على وعد من المخرج والمنتج بأن توفر لتنفيذه كل الطاقات الممكنة. فلما عرض العمل، لم نر في مشهد المعركة إلا سيقان الخيل وحوافرها تتخبط في أماكنها مع بعض الغبار، ولم يصلنا من تصافح السيوف إلا صليلها، ومن تصادم الخيول إلا صهيلها، وخلال ذلك مؤثرات موسيقية صاخبة، وكفى الله المؤمنين القتال.. أو تصوير القتال! فندمت أشد الندم على تلك المجازفة التي شجعت عليها ثقة في غير محلها!

ومن طريف ما وقع لي في هذا السياق، أن جهة إنتاجية حكومية أحبت أن تحيي ذكرى صلاح الدين الأيوبي بمناسبة مرور ثماني مائة عام على وفاته، بإنتاج عمل درامي تلفازي عن سيرته. فعرضت علي كتابة النص، ولكنها اشترطت تجنب المعارك، حتى حطين، تجنباً لضخامة التكاليف! صلاح الدين بلا حطين!! وكان من الطبيعي أن أعتذر عن عدم قبول العرض، حتى أذن الله بتحقيق أمنيتي بعد ثمانية أعوام، فكان مسلسل صلاح الدين فاتحة تعاوني مع المخرج حاتم علي، وكان الإنتاج الدرامي التلفازي قد قفز قفزة كبيرة من حيث المواهب التنفيذية والإمكانيات الإنتاجية. فشاهد الجمهور حطين وفتح القدس وأخواتها بمستوى فني غير مسبوق في الدراما التاريخية التلفازية. وبدا أن زمن الإنتاج الهزيل والتصوير الداخلي الساكن والديكورات المصطنعة الفقيرة، قد ذهبت بلا رجعة. ومع ذهابها تراجع النفس المسرحي الذي كان يمليه فقر الصورة، لصالح النفس السينمائي، وصار في الوسع تحقيق التوازن بين الصورة والحوار، ومعه التوازن بين النص والإخراج والتنفيذ، فلا يتحمل الكاتب فوق ما ينبغي أن يتحمل من عبء النهوض بالعمل إلى النجاح ضد كل الاحتمالات الفنية المعاكسة. وهو ما تحقق لأعمالي القديمة في حينها من الخنساء إلى عروة بن الورد إلى شجرة الدر إلى طرفة بن العبد إلى ملحمة الحب والرحيل، إلى الصعود إلى القمة.. وغيرها. وكان الاحتفاء بها في ذلك الوقت احتفاء استثنائياً. والنجاح على أي حال مشروط بمعايير الفترة والتوقعات السائدة والذائقة العامة التي ترتقي بارتقاء المستوى الفني المشهود. فما كان كافياً لإرضائها في حين

مكتبة الربيعي أحمد

من الدهر، لا ترضى به وقد ألفت الجديد الأكثر رقياً وإتقاناً، فارتقت به ذائقتها وارتفع سقف توقعاتها. وأعترف أني كنت أبذل من الجهد قديماً في كتابة المسلسل المكون من ثلاث عشرة حلقة فقط أضعاف ما أبذل الآن في كتابة مسلسل من ثلاثين حلقة، بعد أن تحررت مخيلتي من حصار الأسوار المغلقة. ومع ذلك ينبغي الاعتراف أيضاً أنه ما زال أمام الإنتاج الدرامي التلفازي والسينمائي العربي الكثير مما ينبغي تطويره أو تحقيقه، قياساً بالمستويات العالمية المتقدمة. فليس للإبداع عدو أشد من التنفج والادعاء والرضا التام بما كان، باعتباره غاية الإمكان! وأشهد أن الآفاق التي يسرح فيها قلمي على الورق ما زالت أبعد وأوسع مما تسرح فيه الكاميرا. وما هذا بالوضع الأمثل!

6. دراما الحياة وحياة الدراما

بدأت كلامي بالحديث عن دراما الكتابه في حياة الكاتب. وأختم بكلمة سريعة عن دراما الحياة التي تمر بنا مرّ السحاب، ويصرفنا مألوفها عن تبصّر ما فيها من غنى درامي دونه ما يجتهد خيال المبدع في اختلاقه. فهو يعصر ذهنه ومخيلته في البحث عن فكرة درامية وحبكة شائقة. وقد يعاني في وقت ما من انسداد المخيلة وتعسّر الكتابة، حتى يخامره الشك في موهبته، أو يخشى أن يكون قد استنفد طاقته الإبداعية. والحياة من حوله قصص درامية متشابكة تنحبك في رواية إنسانية كبرى شاملة مستمرة، فلا تنقضي عجائبها ولا تَخلَق على طول التأمل. والاختبار الأكبر للمبدع يتمثل في رؤية المدهش في المألوف، أو تحويل المألوف إلى مدهش، حتى لكأن المتلقي يرى نفسه في المرآة لأول مرة، فيهتف مندهشاً: آه.. إي وربّي.. هو ذا.. هو ذا.. قد شهدت مثله تماماً.. والحال أن الكاتب قد نجح في تغريبه عن مألوف حياته، ليرى نفسه لأول مرة موضوعاً، بعد أن كان ذاتاً فقط تنظر خارجها، كالعين ترى بها ولا تراها. فالآن يصبح الرائي والمرئي، الذات والموضوع معاً! ولا يبلغ الكاتب أن يحقق هذا حتى يبدأ بنفسه فيغرّبها عن اليومي المألوف، ليرى من الحياة العادية مقومات الدراما العظيمة. لأنها كذلك حقاً. يستوي في ذلك القائد والبطل والعالم والجاهل والغني والفقير ومدير شركة عملاقة والمراسل والسائق وبائع «البسطة». كل حياة هي رواية درامية مؤثرة، إذا تأتى لها من يحسن سردها. ولا يؤهلها للسرد الدرامي المبدع أن تكون حافلة بالأحداث والمفارقات والانعطافات والتحولات والصراعات الكبيرة. ولكن السرد الذكي المبدع هو الذي يؤهلها لتكون

مكتبة الربيعي أحمد

مادة درامية ساحرة. ولا حدّ للأسئلة التي تفتح خطوطاً متنوعة لتطور السرد، حتى يحار الكاتب فيما يسلك منها. وكل خيار يسلم إلى جملة خيارات أخرى تفضي إليها الأسئلة.

ليست القصة الدرامية، مهما يكن موضوعها وحبكتها وأحداثها، إلا رحلة تمتد بين نقطة البدء والنهاية. ونقطة البدء مشكلة أو رغبة أو طموح أو غاية تحرّك الإرادة. وعلى الإرادة أن تواجه سلسلة من العقبات والتحديات في سعيها لحل المشكلة أو تحقيق الغاية. وفي أثناء ذلك يعيد الإنسان اكتشاف ذاته وتعريفها كما يتطور وعيه بشرطه الإنساني ومجتمعه وآخرين يتشابك مصيره مع مصائرهم ويتقاطع طريقه مع طرقهم. وقد تنعطف به الرحلة على غير تدبير مسبق منه إلى وجهات جديدة غير التي كان يتوقعها. وربما أملت عليه تجارب الرحلة أن يعيد النظر في البدايات والغايات معاً. فهو بعد الذي اختبره في رحلته لم يعد الشخص الذي كان في بدايتها! ولربما ارتدّ عن منطلقاته الأولى وتحوّل عن غايته القديمة، ليكون ذلك انتصاره الأكبر أو هزيمته العظمى!

ولقد وجدتني أحياناً في أثناء الكتابة الدرامية أتحوّل مرغماً عن المسار الحكائي الذي رسمته مسبقاً لبعض الشخصيات، لأنعطف بها إلى مسارات أخرى بديلة توجهني إليها الشخصية نفسها، لكأنها قد استقلت عن كاتبها بعد أن تشكلت ملامحها وقطعت شوطاً في رحلتها، فصار لها أن تدخل في حوار مع الكاتب حول مصيرها. فالكتابة فعل اكتشاف واختراع معاً، وحوار لا يتوقف بين الذات ونفسها وموضوعها.

الرغبة في السرد وسماعه، من «سلافات» المجالس، إلى حديث النمائم والإشاعات، إلى الحكايات الشعبية، إلى الروايات العظيمة، منزع إنساني كوني قديم. فالحدث الذي لا يروى كأنه لم يكن. والقصّ ينشئه ويشيّده إذ يصفه وينقله. والأحداث في الواقع على تراخي الزمان قد لا تبدو مثيرة، فإذا رويت مكثّفة في وقت محدود، تسارع إيقاعها وبرزت عناصر الدراما فيها. وكذلك تفعل الذاكرة حين تستدعي الماضي الذي بدا في وقته عادياً لا يثير التفاعل أو الدهشة. الآن يعطيه التقادم معنى ويحوّله إلى قصّة تروى.. فها نحن ننظر في ألبوم الصور، ونتوقف عند هذه الصورة أو تلك ونتأمل في خلفيتها ونستدعي ظروفها ونلقي عليها من حاضر مشاعرنا مالم تحتمله في وقت وقوعها! وهكذا يشيد صاحب «الألبوم» قصّته التي بدا الآن فقط أنها تستحق السرد!

مكتبة الربيعي أحمد

لماذا هجرت الشعر

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد ktabpdf@تيليجرام

لطالما سئلت: لماذا هجرت الشعر، وكنت فيه حيناً من الدهر شيئاً مذكوراً ، وبه عُرِفْت أول أمرك في الأدب، وتلقاك النقاد بقبول حسن. فإذا ذكر جيل السبعينيات من الشعراء كنت تعد من أهل السبق والتقدم، وأنت بعد في ميعة الصبا. فصدر ديوانك الأول عن دار الطليعة «قصائد في زمن الفتح» عام 1969، وأعقبه ديوانك الثاني «وشم على ذراع خضرة» عام 1971، ثم صدر ديوانك الثالث «تغريبة بني فلسطين» عام 1979 والأخيران صدرا عن دار العودة في بيروت. ثم انصرفت عن ذلك إلى كتابة الدراما!

والسؤال المكرور على وجاهته، ينطوي أحياناً على شيء من العتاب الذي يتاخم التهمة: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

ولقد يرتد المغزى إلى أصل في الثقافة العربية الأدبية الموروثة، حيث الشعر ديوان العرب، فما احتفت أمة بالشعر والشعراء كما احتفى بهما العرب. وظل الشعر حتى العصر الحديث الشكل الأدبي الأسمى الذي لا تنازعه أشكال أخرى. فلم يعرف العرب المسرح كما عرفه الإغريق. أما الرواية والقصة فكلاهما وافد حديث استعرناه من الغرب. ولذا قرّ في الوعي الأدبي العربي أن الشعر سيد الأشكال الأدبية! فكيف يَطَّرِحه من أعطي موهبته، وينصرف إلى غيره، إلا أن يجمع بين الموهبتين فيكون مجلّيا فيهما على سواء!

والحديث في هذا الأمر ذو شجون. والحق أولاً أنه لا تفاضل بين الأشكال الإبداعية بمطلقها. إنما يقع التفاضل بين النصوص والمواهب بأعيانها. فثم رواية عظيمة وكاتب روائي عظيم، وثم رواية ضعيفة وكاتب رواية ضعيف الموهبة. ومثل ذلك في الشعر والشعراء وفي المسرح وكتابه. فأما الزبد في هذا وذاك فيذهب جفاء، وإن تدخلت الأغراض والأهواء والتحزبات والتحيزات وعلاقات القوة في الترويج له في وقته، وأما

مكتبة الرمحي أحمد

ما كان قيمة ابداعية أصيلة لا تتعكز على شيء خارجها، فيمكث في الوعي والذاكرة والذائقة جيلاً بعد جيل، وإن تحالفت الأغراض والتحيزات على تجاهله في أول ظهوره. فالقيمة الإبداعية غلابة، وحليفها الزمن وتقدم الوعي والذائقة.

لماذا هجرت الشعر؟!

هل يفارق الشعر صاحبه على حين غرة، فيستعصي عليه وإن راوده وطالبه، إذ تنضب الموهبة ويغيب الإلهام؟! ربما صح ذلك فيمن كانت موهبته محدودة ابتداءً، فلم تَعِدْ محاولاته الأولى بالكثير، ولم تشجعه استجابات القراء والنقاد على المضي في تعريف نفسه بالشعر. ولكنه لا يصح في غيره ممن ثبتت موهبته وصدقت بها الذائقة المدربة مبكراً.

ولكن الموهبة الشعرية الحقيقية كنبع في باطن الأرض، يعطي ويفيض بقدر ما يضخ صاحبه منه إلى ظاهر الأرض، فإن انصرف بجهده وطاقته إلى غيره لبث كامناً في عمق الأرض.

والكتابة الشعرية طاقة ذهنية ووجدانية. فإذا مال المبدع إلى إفراغ طاقته تلك في أشكال أخرى من الإبداع الفكري أو الأدبي بسبب ما، لم يبق له الكثير مما ينفقه في الشعر، وبخاصة إذا شعر أنه يحقق ذاته الإبداعية في الأشكال الأخرى على نحو يغنيه عن غيرها. والشعر غيور يلح على صاحبه أن يتفرغ له، وإلا حجب كنوزه وخزائنه. ومن النادر أن تجد مبدعاً عظيماً وزعَ طاقته بين أشكال إبداعية مختلفة فتفوق فيها جميعاً بالقدر نفسه كماً ونوعاً، إلا أن يكون ذا موهبة متواضعه فيها جميعاً، وإن أكثر.

أما الشاعر العظيم الذي أنفق عمره في تطوير مشروعه الشعري، حتى بلغ به ذروة مجيدة، وملأ الأسماع وشغل الناس، فيحذر أن يغامر بأشكال أخرى يمكن أن تقصر به عما بلغ بالشعر، فيكون تفوقه بالشعر حجة وحكماً عليها. وقد روى لي نبيل عمرو (سفير فلسطين الأسبق في القاهرة) عن صديقه الحميم محمود درويش أنه وإن كان آمناً على مكانته التي لا تنازع في الشعر، فقد كان يكتم غيرة من الرواية العظيمة، فيتوق إلى كتابة الرواية، ثم يحجم قائلاً: أن أكون الأول في الشعر خير من أن أكون متأخراً عن هذه المنزلة في الرواية!

مكتبة الرمحي أحمد

خلاصة القول أن الموهبة الشعرية الكبيرة لا تتواصل إنجازاتها وتتراكم وتتجدد وتتفرد لتصير إرثاً باقياً إلا إذا تفرغ صاحبها للشعر فجعله حرفته ومشروع حياته المركزي وهويته التي يتعرف بها ورسالته الأولى في الحياة، فإن أضاف إليه جهوداً كتابية اخرى كالمقالة والبحث، بقيت على هامش المشروع الشعري أو ظلت تدور في فلكه، ولم تزاحم الشعر على موقعه المركزي في حسه ووعيه بذاته.

نعم، مضى علي حين من العمر كان فيه الشعر هاجسي الأول الذي أصحو وأنام على صوته الغامض وندائه الساحر، فلا أحب أن أتعرف إلا به، وإن تنوعت الاهتمامات والطموحات الأخرى. ولا شك عندي في أن الموهبة الأدبية كسائر المواهب تولد مع الإنسان، ولا تكتسب في ذاتها بالتعلم، فهي استعداد فطري مهما يكن تعريفك للفطرة. ولكن نموها حتى تستوي على سوقها وتعطي أُكُلَها يحتاج إلى التعهد والرعاية والصقل والثقافة والخبرات الفكرية والإنسانية. وإذ هي استعداد طبيعي فإنها تتحرك فيك مبكراً في سياق تطور وعيك بذاتك. وهذا ما كان مني في طفولتي المبكرة. فكنت إذا سمعت الشعر أو قرأته اعترتني فيه هزة ونشوة وشجى، وانتظم وقع الفؤاد على وقعه، فما إن أردده حتى أحفظه بلا جهد ولا كد، ولبث يتردد في خاطري ماشياً أو واقفاً أو جالساً أو راقداً. وكنت أنتظر بفارغ الصبر حصة «المحفوظات» وكلي رجاء أن يقع اختيار المعلم علي لإلقاء القصيدة المطلوب حفظها. وأذكر أن أول محاولاتي الشعرية كانت وأنا في الصف الإبتدائي الثاني. وبالطبع لم يكن فيها من الشعر إلا ما تنبئ به عن استعداد صاحبها وهاجسه. وقد أدركت الوالدة -رحمها الله- هذا المعنى فحرصت على الاحتفاظ بالقصاصة التي كتبت عليها زمناً حتى ضيعتها حركة الحياة في البيت.

ثم وجدتني، قبل أن أتعلم العروض وأوزانه، أقيم الوزن بالسماع فلا أخل به. وإذا أخل به من ينشده تنبه له سمعي، ثم اجتهدت في تصويب القراءة مسترشداً بمقتضى الوزن وحده، لا بسابق علم بالشعر نفسه. حتى إذا بلغت الصف الإعدادي الثاني (أي الصف الثامن) كانت كتابة الشعر قد استقامت لي وزناً ولغةً على معيار القصيدة التقليدية. وامتد تعريفي لنفسي شاعراً إلى تعريف مجتمع المدرسة والمدينة لي. ولا يثبت تعريفك لنفسك إلا بمصادقة الآخرين عليه. فكان مدير المدرسة يدعوني إلى إلقاء قصيدة وطنية من إنتاجي أمام صفوف المدرسة كلها إذ تنتظم في الساحة قبل الدخول إلى

مكتبة الرمحي أحمد

صفوفها. فإذا بلغت في الإلقاء ذروة عاطفية ضج الطلبة بالتصفيق والهتاف، فرفعني ذلك إلى السحاب! فلا أدري هل كنت أوظف الشعر من أجل القضية الوطنية، أم كنت أوظف القضية لأفوز بمجد الشعر وجمهوره! أم كان الأمر مزاجاً من الهاجسين والغايتين. وهوالأرجح. بل لعله كذلك عند الشعراء جميعاً، كبيرهم وصغيرهم؛ في مبتدى أمرهم وفي آخره! ولا تثريب عليهم فيما تمليه طبائع الأشياء.

لم تنقض سنوات الإعدادية حتى كنت قد بدأت في نشر قصائدي في الصحف المحلية، لا سيما صحيفة الجهاد. وفي المرحلة الثانوية صار أسمي مألوفاً في الصحافة الأدبية، وتوجت ذلك بالنشر في مجلة «الأفق الجديد» التي كانت مجمع الأدباء والشعراء من الضفتين. وفي هذه المرحلة تنوعت إسهاماتي بين الشعر والقصة القصيرة والخاطرة الصحفية والمقالة النقدية. إلا أن الشعر بقي في المركز من الوعي والهوية الذاتية. فإذا مشيت في طرقات المدينة ظننت أن المارة يتهامسون: هذه هو الشاعر. ولكن، كان يسعدني بقدر مكافىء أن يتهامسوا أيضاً بتفوقي الدراسي.

وفي هذه الأثناء أيضاً اكتشفت الشعر الرومنسي الذي فتنني عن الشعر التقليدي، فملأ الشابي بصفة خاصة عالمي الوجداني، حتى حفظت جل ديوانه. وكانت قصيدته «صلوات في هيكل الحب » تحملني إلى عوالم بعيدة مغلفة بالغيوم التي تتراءى من فوقها الأقمار والنجوم، وإذا أمطرت لم تمطر إلا ورداً وشعراً. ثم اكتشفت الشعر الحديث: السياب وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ونزار قباني وآخرين، ومعهم الشعر الغربي المترجم.

وما هي حتى هجرت القصيدة العمودية إلى قصيدة التفعيلة. واتسعت في الوقت نفسه قراءاتي في الفكر والنقد والفلسفة، وأنا بعد لم أفرغ من دراستي الثانوية. وقبل أن أنتقل إلى الدراسة الجامعية في عمان، كان قد اكتمل لي ديوان مخطوط، رجوت أن تتاح لي فرصة نشره في بيروت. ولكنني أجلت المحاولة حتى أتوصل أولاً إلى النشر في الصحافة الأدبية اللبنانية، وفي مقدمتها مجلة الآداب الشهيرة في ذلك الحين، فيعرفني الوسط الأدبي اللبناني قبل أن أجرؤ على عرض ديواني للنشر هناك.

وهكذا كان. وصدر ديواني الأول عام 1969 حين كنت في السنة الجامعية الثالثة كما ذكرت في مواضع سابقة، ولكنه لم يضم شيئاً من المخطوط القديم، فقد شعرت أن

مكتبة الربيعي أحمد

هزيمة حزيران قد ذهبت بجدته وسياقه، وخلقت سياقاً جديداً وحساسية مختلفة. وكان شعري بعدها قد صار «أكثر نضجاً»، وتراكم منه ما يغني عن سابقه.

ومكثت على ذلك مسكوناً بهاجس الشعر وهويته، حتى صدر ديواني الثاني عام، 1971 حين كنت معيداً بالجامعة. فلما انتقلت إلى لندن لمتابعة دراساتي العليا بدأ الهاجس البحثي الأكاديمي يزاحم الشعر في فضاء الوعي بالذات ومواضيعها. ولما لم يكن في الوسع التراخي في جهد البحث والدراسة لإنفاق شطر منه في الكتابة الشعرية، فقد وجدتني أؤجل مواعيدي مع الشعر حتى يصير بوسعي أن أتفرغ له بالقدر الذي يحفظ تدفقه من مستودعه العميق. وبالفعل، عاودته بعد أعوام الدراسة في لندن، فعاودني، وكان ديواني الثالث والأخير بعد زهاء سبعة أعوام من صدور ديواني الثاني. ولكني في تلك الأثناء كنت أعبر أطواراً من التحول في الاهتمامات الفكرية والأدبية والمهنية، حتى لم يعد الشعر شاغلي الأول الذي يمكن أن يستأثر بالقدر الأعظم من طاقتي الذهنية والإبداعية. فالعمل الأكاديمي لا يمكن دفعه إلى الهامش ليكون مجرّد جهد ثانوي مضاف. ثم وجدت في الكتابة الدرامية ما أحب أن أنفق فيه طاقتي الأدبية والفنية حيث يجتمع الفن السردي الدرامي مع القيمة الشعريّة المنبثقة من مقتضيات الموقف الدرامي دون تعسّف أو ابتذال أو فذلكة شكلية، مع القيمة المعرفية ورسالة الوعي التي تصل إلى ملايين الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية.

وهكذا لم أعاود الشعر بعد ديواني الثالث إلا في قصيدتين طويلتين: «البحث عن عبد الله البرّي» «والحب ثانية». نشرت الأولى في مجلة الكرمل، والثانية في الملحق الأدبي لجريدة الدستور الأردنية. وفي رأيي المتواضع أني تجاوزت بهما تجاربي الشعرية السابقة من حيث الرؤية والقيمة الفنيّة. ومع ذلك لم أحاول جمعهما في ديوان وإن قل حجمه، ولم أجتهد أن أضيف إليهما ما يكتمل معه ديوان عاديّ الحجم. لكأني أردت أن يكون خروجي من مسرح الشعر خروجاً قوي التأثير، أو أني أردت أن أبعث برسالة إلى المتسائلين: ها أنذا إن شئت قلت. ولكني الآن في شأن آخر!

توقفت عن كتابة الشعر، ولكني استصحبت الشعريّة معي في كتابتي الدرامية. وعلى أي حال، فقد خلفت ورائي مشهداً شعرياً غلب عليه ما يسمّى بالشعر المنثور،

مكتبة الرمحي أحمد

وحجة المدافعين عنه أن الأوزان والتفاعيل لا تغني من الشعر شيئاً، وإنما يتقوم الشعر باللغة الشعرية في المقام الأول. وعلى الرغم من أنني أخالف هذا الرأي، وأرى أن الشكل الشعري يتحقق بهذا وذاك معاً، فإن مفهوم الشعرية أوسع من حدود القصيدة، ويمكن حقاً أن يتجلّى في الأشكال الأدبية الأخرى، إلى جانب المقومات التي تتعرف بها. وذاك ما مكث معي حين غادرت أفق القصيدة إلى آفاق أخرى.

نعم، الشعر يكره القسمة والشراكة والضرائر، ويلح أن يبقى في مركز «الأنا»، ولا يبلغ به الشاعر مداه إلا أن يتخذه حرفة يتفرّغ لها بكدّه الذهني والوجداني، فيصحو وينام على هاجسها، ولا يرى شرطه الذاتي في غيرها. وهذا مع وجود الموهبة الفذّة ابتداءً.

الشعر حرفة وكدّ ذهني ووجداني؟! أين التدفق والعفوية؟ أين دور الإلهام الذي يتنزل على الشاعر من حيث يدري ولا يدري فيبعث فيه الشعر بلا جهد ولا تكلّف؟ أليس الشعر نفثات شعورية طاغية تتشكل باللغة في لحظة ما وتفاجئ الشاعر على غير موعد أو تدبير؟

لعل هذه الانطباعات الشائعة المغلوطة، من جملة الأساطير التي شيدتها طائفة الشعراء عن أنفسهم عبر التاريخ، ليؤكدوا تميّزهم عن سائر الخلق. فلطالما أنكرت تنفج الأدباء والشعراء وادعاءاتهم في أنفسهم ومصادر إلهامهم. فقديماً اختلق الإغريق إلهة للإلهام سموها (Muse)، وزعموا أنها تنفث في رؤوس الشعراء والفنانين. واختلق العرب شياطين الشعر، وجعلوا لكل شاعر عظيم شيطاناً يختص به، ومنحوه اسماً. وما الشاعر إلا لسانه الذي ينطق به. وكل ذلك للإيهام بأن عبقرية الشاعر منحة روحانية تتجاوز عالم الخلق وتتعالى عليه، وتمدّه قوى غيبية خارقة تجعله فوق الناس. فإن لم يكن في ذاته إلهاً فهو يتاخم الآلهة، وإن لم يكن في ذاته نبياً فهو كذلك مؤيّد برسالة كونيّة من نوع آخر غير رسالة النبي. فحق على الناس أن ينصبوه في الموقع الذي يستحقه بين النجوم.

وفي العصور الحديثة غاب البعد الغيبي الروحيّ في دعوى الشعراء والأدباء. ولكنهم ابتدعوا طرقاً جديدة في تأكيد تفرّدهم. فالإلهام ما يزال قوة غريبة غامضة تضرب

مكتبة الربيعي أحمد

الشاعر كما الصاعقة، فيشتعل الشعر فيه على غير إرادة وكدّ منه. فهذا يقول: «كتبتني القصيدة ولم أكتبها»، وذاك يقول: «فاجأتني القصيدة وأنا في الحافلة». والمعنى المضمر في هذا وأمثاله يحيل إلى ما يشبه شيطان الشعر عند العرب، وإلهة الإلهام عند الإغريق. ويصر الكثير من الشعراء والأدباء والفنانين على تقمّص صورة ذهنية نمطية رسموها بأنفسهم لأنفسهم، تستعلن في المظهر والسلوك ليفارقوا بها مألوف الناس ويؤكدوا بها تفردّهم. فالشاعر روح قلق يستقبل نبض الكون، وهو ما يجعله مثقلاً بالهموم والهواجس، ويدفعه إلى التصعلك والتسكع على أرصفة العالم. وإذا كانت شبهة الجنون وصمة لسائر البشر، فإنها علامة العبقرية عند المبدعين. وأشدّ ما يغيظني من هؤلاء أنهم لا يرسمون خطاً فاصلاً بين لغة الشعر ولغة الحديث عن الشعر والحياة. فتراهم إذا تحدثوا في أمر من العاديّات التي تقتضي بياناً مباشراً، لجؤوا إلى زخرف القول الشعري غروراً. يحسبون أن الشاعر لا يقول كغيره، ولو كان القول في أسعار الفجل والمحروقات. فإن سئل عن طفولته وتجاربه الأولى، لم يسعه الجواب البسيط المباشر.

-ولدت في ظل السنديانة، وكانت الفراشة دليلي إلى غوايات الرحيق الأول. والسنونو مرشدي إلى ركوب الريح. وأعارتني الخيول الجامحة صهيلها الذي لا يعبأ بسائس ولا رقيب.... إلخ

لا أحسب أنك تحب أن تقرأ أكثر من هذا. فهو على شعرية العبارة هذر سقيم، وادعاء منفّر، وتنفج مزعج. ولو وضع في قصيدة أو نص أدبي لتلقيناه بقبول حسن. فذاك سياقه ومحلّه. أما أن يساق في مقابلة صحفية فهو تكلّف مرذول، ومن باب وضع الندى في موضع السيف، والسيف في موضع الندى.

لا، لا تكتب القصيدة شاعرها، ولا تنزل عليه كالصاعقة، ولا تجلجل كالجرس في رأسه، ولا تنتابه كَسِنَةَ النوم، فإذا أفاق وجدها على ورقه. فكل من كابد الشعر بحق، يعلم علم اليقين أن كتابة القصيدة تحتاج إلى كدّ ذهني ووجداني أشدّ من كدّ الكتابة النثرية الفكرية غير الأدبية، أو ما يسمى بالنصوص المنطقية كالمقالة والبحث. فكاتب النص الفكري المتمكن من مادته، يسيل قلمه بأفكاره التي تتقدم وعيه في تلك اللحظة، وتتشكل وتتمثل بالوسيط اللغوي الذي يبقى في خلفية الوعي، فلا يتوزّع نشاطه الذهني

مكتبة الرمحي أحمد

بين الفكرة التي يعبّر عنها والشكل اللغوي الذي يعبّر به. وإنما ينصب على الأفكار، والأفكار على كل حال لا تتخلّق خارج اللغة ولكن بها. أما في تأليف الشعر، فينقلب الحال. إذ يتقدم التشكيل اللغوي الفني الجمالي إلى مقدّمة الوعي، ويصبح غاية في ذاته فضلاً عن الرسالة والمعاني التي تتأسس هنا في التشكيل اللغوي الجمالي نفسه. وقارئ النص النثري المنطقي كذلك تتقدم المعاني والمحتوى وعيه، إلا أن يقع خلل لغوي يتنبّه له. أما قارئ النص الشعري فيتقدّم التشكيل الجمالي اللغوي وعيه أيضاً، بما يحفل به من انزياحات لغوية فنية مقصودة تخرق المعايير اللغوية العامة في علاقات المفردات بعضها ببعض، لخلق عنصر المفاجأة الشعرية الجمالية وما يصحبها من تأثيرات أسلوبية، وابتداع دلالات جديدة من خلال الصورة الشعرية المجازية والاستعارية. اللغة في الشعر هي مادة التشكيل الجمالي فضلاً عن وظائفها الدلالية. ولذا فإن مهمة الشاعر مزدوجة، إذ يتوزع وعيه بين تخليق القيمة الفنية باللغة، والمعاني التي يريد إيصالها. والتسوية بين الغايتين ليست بالعملية الهيّنة، إلا عند الشاعر المطبوع. فقد تطغى الفكرة على القيمة الفنية الجمالية، فيقع في المباشرة أو التجريد الذهني وتتراجع الشعرية، وقد تطغى غاية الإغراب الفني حتى تتشيّأ اللغة ولا تقول شيئاً، ويسود الإبهام وينغلق النص.

لا تتوقف تحدّيات الشاعر عند هذه الثنائية المتنافرة بين تخليق القيمة الفنية الجمالية والمعاني. إذ إن لغة الشعر تقوم على جملة من المفارقات. فعلى الشاعر أن يفارق اللغة العامة ومعاييرها من خلال الانزياحات اللغوية التي تفضي إلى لغة المجاز والاستعارة والصورة، ثم عليه أن يفارق أساليب الشعراء الآخرين قبله وفي زمنه، ثم عليه أن يفارق قصائده السابقة، ليقدّم نصاً متميّزاً مغايراً. فالانزياحات التي تفارق المألوف اللغوي العام (لغة المجاز والاستعارة والصورة)، إذا تكررت بأعيانها وأشباهها فقدت عنصر الجدّة والمفاجأة والتميّز، وما تلبث أن ترتد إلى الخلفية اللغوية العامة وتندمج بها. وينبهنا علم الأسلوبية أن بنية القصيدة العامة تقوم على عنصرين متشارطين: الخلفية (Background) والنتوء (Foreground). أما الخلفية فتتكون من معايير اللغة العامة المألوفة في خطاباتنا المنطقية. وأما النتوء فيتشكل من خروقات الشاعر المقصودة لتلك المعايير، حين يخلق علاقات جديدة غير مألوفة بين الكلمات يكسر بها توقعات القارئ، محدثاً عنصر المفاجأة الفنية. فبدلاً من أن يقول مثلاً: «على مرمى حجر»، ربما قال: «على مرمى قصيدة». ولا

مكتبة الربيعي أحمد

تبرز الخروقات أو الانزياحات إلا بالتقابل مع الخلفية اللغوية المعيارية المألوفة التي تم خرقها في ذلك الموضع من النص الشعريّ.

فاستقبال غير المألوف يفترض استحضار المألوف، وكسر التوقعات يقتضي حضور التوقعات المعياريّة، كما تبرز النقطة السوداء على خلفية بيضاء. أما إذا كانت الخلفية رمادية فإن النقطة السوداء لا تفاجئ الوعي المستقبل بالقدر نفسه. ومن جديد، فإن تكرار الانزياحات الشعرية نفسها من قصيدة إلى أخرى، يحوّلها إلى مألوف يتراجع إلى الخلفية، ويفقدها من ثمّ قدرتها على خلق المفاجأة الفنية والقيمة الشعرية الإبداعية. ومن هنا كان على الشاعر في كل قصيدة جديدة أن يفارق معايير اللغة العامة في مواضع مختلفة من نصّه، وأن يفارق معها الانزياحات الشعرية الناجزة في شعر غيره، بل في شعره السابق نفسه، ليكون نصّه الجديد إضافة شعريّة حقيقية. وتلك لعمر الله مهمّة شديدة الصعوبة لا يواجه مثلها كاتب النص النثري المنطقي.

وإن لم يكن هذا كافياً، فإن على الشاعر أن يرضي متطلبات نظامين متنافرين آخرين معاً: النظام العروضي والنظام اللغوي. فعلى خياراته اللغوية أن تنتظم في كلا النظامين دون أن يجور أحدهما على الآخر. فقد تصحّ الكلمة في موضع ما من البيت الشعري (أو السطر الشعريّ في القصيدة الحديثة) باعتبار النظام اللغوي، ولا تستقيم باعتبار النسق الإيقاعي العروضي. أو العكس. ومن شأن هذا أن يقلّص خيارات الشاعر المعجميّة في كل موضع من نسق القصيدة وأبياتها. فلو أسقطت كلمة من سياق نص نثري منطقي، وطلبت من آخر أن يملأ الفراغ، فالأرجح أن تتسع الخيارات المحتملة التي يستقيم معها الكلام. أما إذا أسقطت كلمة من بيت شعري، فإن قائمة الخيارات المحتملة لملء الفراغ أقلّ وأضيق. فثم كلمات تصحّ في ذلك السياق اللغوي الدلالي، ولا تستقيم مع الوزن العروضي، فتخرج من الاحتمال. وتبقى الخيارات التي تستقيم لغةً ودلالة ووزناً، وهي لا شك قليلة. فيكون من الأسهل تخمين الكلمة المناسبة الساقطة في ذلك الموضع الشعري، مقارنة مع مثلها في النص النثري المنطقي.

كل ذلك يجعل مهمّة الشاعر أشد صعوبة من الناثر المترسّل، إذ عليه أن يشكل عبارته الشعرية في نطاق القيود اللغوية والقيود العروضية معاً، وكل منهما يجذب في

مكتبة الرمحي أحمد

اتجاهه. ومن شأن هذا أن يفضح الموهبة الضعيفة والمتوسّطة، بقدر ما يجلّي الموهبة المطبوعة الفذّة. فقد تجد عند الأول كلمات قلقة بمثابة الحشو، ما اضطر إليها إلا تحت وطأة الوزن العروضي. أما الثاني فلا تحسّ عنده تنافراً بين هذا وذاك. ومما ييسر عليه ذلك اتساع معجمه اللغوي الذي يوازن به إملاءات الوزن. كذلك شأن المتنبي الذي ما زال يحمل راية الشعراء عبر العصور.

اجتهد الكثيرون في تفسير التحول إلى شعر التفعيلة منذ أواخر الأربعينيات بين من ردّه إلى تأثير الشعر الغربي ومن اعتبره تطوراً ذاتياً يندرج في سياق التطور العام في الوعي الثقافي والرؤية الشعرية وبنية القصيدة ولغتها. ومهما يكن نصيب تلك التفسيرات من الصواب، فإن ثمّة عاملاً آخر غائباً في رأيي يرجع إلى طبيعة العلاقة المتنافرة بين النظام اللغوي والنظام العروضي في الشعر، على نحو ما بيّنا. ذلك أن مقتضيات الوزن تقلّل من خيارات الشاعر المعجمية في أي موضع من البيت الشعري. ولكن لغة الشعر القديم والتقليدي كانت تعوّض عن ذلك بالتوسّع في الذخيرة المعجمية لتشمل مفردات قديمة لم تعد مألوفة في الاستعمالات المعاصرة الأخرى. فلا يصدمك أن تقرأ في قصيدة تقليدية كلمات مثل ليث وغضنفر إشارة إلى الأسد، ولا كلمات مثل مهنّد وصارم وحسام إشارة إلى السيف. ولكنها تصدمك في درج الكلام العاديّ. فلا تتوقع من صاحبك أن يدعوك إلى حديقة الحيوان لتريا معاً الليث أو الغضنفر، ولن تسمعه يشير إلى السيف الدمشقي بكلمة حسام! وإذن فإن معجم الشاعر التقليديّ أوسع من معجم الأساليب المعاصرة، وهو ما يوازن ضغط العروض على خيارات الشاعر اللغوية. ولكننا إذ ندقق النظر في الشعر العربي الرومانسي الذي مهّد للشعر الحديث، مثل شعر الشابي وشعراء المهجر نلحظ انصرافه إلى حد كبير عن مفردات المعجم التاريخي التي سقطت من الاستعمال المعاصر، وجنوحه إلى المعجم المعاصر فقط. ومهما يكن السبب في هذا التحول، فإنه أفضى إلى تعاظم ضغوط الوزن التقليدي العمودي على خيارات الشاعر اللغوية مع انحسار معجمه اللغوي. وهذا بدوره بدأ يملي على الشعراء التخفف من بعض القيود العروضية لموازنة ضمور الخيارات المعجميّة. وقد تمثّل ذلك قبل شعر التفعيلة في ظاهرة التنويع في الأوزان والقوافي على نحو منظم في الكثير من القصائد، كما في قصيدة المواكب لجبران مثلاً، وكذلك في الميل إلى القافية الساكنة بدلاً من تلك التي تنتهي بحركة مشبعة (أي

مكتبة الرمحي أحمد

مطوّلة). إذ إن القافية الساكنة تتيح للمفردات في آخر الأبيات أن تتقافى بصرف النظر عن وظائفها النحوية ومن ثم حركتها الإعرابية في سياق العبارة الشعرية، بخلاف القافية المتحركة التي تلزم الشاعر أن يكيف عبارته وتركيبها النحوي بما يفضي إلى أن تكون كلمة القافية في موضع إعرابي معين للحفاظ على حركة القافية. وإلا وقع ما يُسمّى «بالإقواء»، وهو أن تأتي حركة القافية مخالفة لمقتضى النحو. كل ذلك في رأيي كان تمهيداً لشعر التفعيلة الذي تحرر من نظام الشطرين والتناظر في عدد التفاعيل والقافية الواحدة. وفي الوقت نفسه لم تعد المفرده مستقلة تحمل أي قيمة شعرية، وإنما تتحقق شعريتها في سياق الصورة الشعرية والعلاقة المستحدثة بينها وبين الكلمات الأخرى.

كل هذا لنحطّم الأسطورة التي خلقها الشعراء عن أنفسهم: أسطورة الإلهام الذي يصعقهم دون جهد منهم، فما إن يفيقوا منه حتى تكون القصيدة قد كتبت نفسها!! فلعلّه قد اتضح للقارئ الآن أن في كتابة الشعر من الكد الذهني والوجداني ما لا يجد مثله كاتب المقالة أو الدراسة ونحوهما. أما ميل الكثير من الشعراء إلى استعمال اللغة الشعرية في غير النص الشعري، امتثالاً لصورة الشاعر النمطية المصطنعة وتأكيداً لتميّزه وتفرّده حتى في سياق العادي والمألوف، فما زال في النفس بقيّة منه. فقد أسلفنا أن بنية النص الشعري تتكون من عنصرين متشارطين: الخلفية اللغوية المعيارية العامّة المألوفة، والانزياحات الفنية المقصودة عنها من خلال لغة المجاز والاستعارة والصورة المبتدعة الجديدة. وذكرنا أن الانزياحات لا تبرز إلا بالتقابل مع الخلفية التي يتم الانزياح عنها، كما تبرز النقطة السوداء على خلفية بيضاء. ومعنى ذلك أنه بقدر ما تكون الخلفية المعيارية شديدة الصرامة، يكون خرقها واضحاً مؤثراً يصدم الوعي المستقبِل بعنصر المفاجأة الشعرية الفنية وكسر التوقعات. وذلك شبيه -على نحو ما- بالسلوك الاجتماعي. فإذا كانت الأعراف والقيم الاجتماعية صارمة كان الخروج عليها أوضح للعيان. أما إذا كانت الخلفية المعيارية رخوة ومرنة وشديدة التسامح، فإن خرقها لا يصدم الوعي ولا يكسر التوقعات ولا يفاجئ المستقبل بالقدر نفسه. والحال أن الإسراف في استعمال اللغة الشعرية خارج نطاق النص الشعري، وفي سياق الخطابات التي يفترض أن تكون مباشرة منطقية، يجعل الخلفية اللغوية المعيارية العامة أقل صرامة في معياريتها وأكثر رخاوة. إذ هي مشبعة بالشعرية خارج النص الشعري نفسه. ومن ثم يكون الانزياح عنها بلغة النص

مكتبة الربيعي أحمد

الشعري: لغة الصورة المبتدعة، أشد صعوبة، ويصبح مطلب خلق المفاجأة الشعرية أبعد منالاً، كحال النقطة السوداء على خلفية رمادية. بعبارة أخرى: فإن قوّة الانزياح مشروطة بقوة المعيار المنزاح عنه. فإذا أسرف الشعراء والأدباء والمثقفون في ضخ الشعرية في سياقات استعمال اللغة العامة، أحبطوا شروط الإمكان لتميّز لغة النص الشعري نفسه، الذي يقوم في جوهره على مفارقة معايير اللغة العامّة. فيصبح الكل مألوفاً أو قريباً من المألوف. والمألوف عدو الشعرية. وعلى ذلك قد يصح القول: إن «لا شعرية» الخطابات العامة المنطقية، شرط لتخليق «شعرية» النص الشعري على سبيل التقابل!! بل يمكن القول إن شيوع اللغة العلمية والاصطلاح المعرفي الدقيق يؤسس الخلفية للغة الشعرية على سبيل المغايرة والمفارقة!

واللغات -كما يفيدنا علم الأسلوبية- من حيث أساليب الاستعمال العامّة، كلاماً منطوقاً أو مكتوباً، تمرّ بأحد طورين متعاكسين حسب الظرف الحضاري الثقافي للناطقين بها. أما أحدهما فيتّسم بالمعيارية الصارمة التي لا تترك مجالاً واسعاً للتصرّف الفردي، فتكثر فيها التعابير الجاهزة Idioms ويشيع المعجم الاصطلاحي الدقيق الصارم في التعبير عن المفاهيم الفكرية والتقنية حتى في درج الكلام اليومي. وتوصف أساليب اللغة في هذا الطور «بالتمأسس» Institutionalization. فإذا خرج المتحدث عن مألوف أساليبها لسبب ما تنبّه المستقبل من أبناء اللغة فوراً لغرابة التعبير قياساً بالمألوف المعياري، حتى لو كانت العبارة منضبطة بقواعد النحو. وأكثر ما يظهر هذا في كلام من لم يصل إلى مستوى الإتقان العام من غير أبناء اللغة. فقد يأتي بعبارة ما سليمة من الناحية النظمية النحوية، ولكنها مع ذلك تبدو غريبة غير مقبولة من الناحية الأسلوبية المتعارفة. ولذا يميّز علم اللسان الحديث بين نحويّة العبارة Grammaticality وبين مقبوليتها Acceptability. فإذا كانت أساليب اللغة العامة على هذا القدر من المعيارية والتمأسس، صار الانزياح عنها قصداً في النص الشعري أيسر وأجدر بأن يحقق عنصر المفاجأة الجمالية. فبقدر صرامة المعيار، يكون وضوح الخروج عنه. وهذا حال الإنجليزية الآن في أساليبها العامّة. وهذا الطور اللغوي الأسلوبي يعبّر عن عقل ثقافي متجانس من جهة، وشديد التخصص من جهة أخرى، فلكل مجال من المجالات المعرفية والتقنية والاجتماعية مصطلحه الدقيق الذي يعبّر عن منظومة مفاهيمه المترابطة، والذي رشح جزء منه إلى الثقافة العامّة.

مكتبة الربيعي أحمد

فللمجال الاقتصادي معجمه، ومثله في السياسة والتكنولوجيا والفلسفة والاجتماع.... فلا يحتاج المتكلم إلى أن يجتهد في التعبير عن فكرته خارج مصطلحها الجاهز بأسلوب ذاتي متفرّد، فيحتال لها باستعمال التشابيه والصور والمجاز والتوصيفات الخاصة. وكل ذلك يعبّر عن مستوى حضاري ومعرفي متقدم، وعن شيوع المفاهيم العلمية والتقنية، وعن تجانس المؤسسة الاجتماعية وثقافتها العامة.

أما الطور الثاني فهو على الضد من الأول، إذ الأساليب العامة تفتقر إلى المعيارية الصارمة والعرف الأسلوبي الراسخ، والصدور عن مرجعية اصطلاحية ومعرفية عامّة تحقق الدقة في التعبير عن الأفكار. ولذلك تشيع في هذا الطور الاجتهادات الفردية في التعبير، وتتراجع سلطة النص المنطقي، وينحسر معجمه المعرفي الجاهز، لصالح التعبير الإنشائي الذاتي ولغة الاستعارة المرتجلة. وهنا نجد الكثير من النصوص النثرية الفكرية مشبعة باللغة الشعرية وانزياحاتها، بسبب حالة السيولة في الأساليب والمجالات الفكرية. فإذا كانت الخلفية المعيارية ممثلة في الأساليب العامّة شديدة التسيّب على هذا النحو، ومفعمة بالانزياحات الشعرية، ولا تؤسس لتوقعات قويّة مسبقة، فإن خرقها قصداً في النص الشعري وتحقيق عنصر المفاجأة يصبح مهمّة أشد صعوبة وأبعد منالاً. فلا يملك الشاعر إلا أن يبالغ في الإغراب والمفارقة، حتى تصير الانزياحات هي القاعدة والأصل، بدلاً من أن تكون الاستثناء الذي يفارق الأصل ويبرز على خلفيته، وهنا ينغلق النصّ وتفقد الانزياحات تأثيرها الجمالي والدلالي معاً، ويصبح الشكل غاية في ذاته لذاته، لا يشير إلا إلى نفسه، وهو ما يمكن أن يوصف بتشييء اللغة، على نحو ما تكون الألوان في الرسوم التجريديّة.

وهنا تنفتح أبواب الساحة الشعرية ليدخل منها أدعياء الشعر وغير الموهوبين وأنصافهم. فليس عليهم إلا أن يقدّموا عبثاً شكلياً مغايراً وانزياحات لغوية مجانية ليعطوا نصوصهم صفة الشعر. فإن اعترضت بأنها لا تقول شيئاً قالوا: ليس من مهمّة اللغة في الشعر أن تقول، وإنما أن تكون! ومن لا يسعه أن يقدّر ذلك، فليتّهم وعيه وثقافته التي قصرت به عن اللحاق بالحداثة!

هذا هو حال العربية الآن، على خلاف ما كانت أساليبها العامّة في العصر العباسي مثلاً. ولقد تقرأ الآن شعر أبي تمام، فتعجب لِمَ وصف في حينه بالإغراب، حتى قيل: لم لا نقول ما يُفهم؟. والحال أنه بدا غريباً في ذلك العصر قياساً بمعيارية أسلوبية عامّة صارمَة.

مكتبة الربيعي أحمد

وذلك في أوج الإنتاج الحضاري المعرفي العربي. ألا يصح القول إذن: إن ترسّخ الأساليب العلمية والمنطقيّة والاصطلاحية في الاستعمالات العامّة أجدر بأن يخلق شرط الإمكان للشعر نفسه دون أن ينزلق إلى التعميّة والانغلاق؟

هل يفسّر هذا ما آل إليه المشهد الشعري العربي من انحسار جمهوره وتقدّم الفنون السردية عليه؟ وأين هو الآن من وصفه القديم بديوان العرب؟ وهل يفسّر هذا انبعاث ما يسمّى «بالشعر النبطي» بديلاً عن الشعر النخبوي في مناطق كثيرة من الوطن العربي؟

عذراً للشعراء إذا سرقت نارهم وأسلمتها إلى عامة الخلق، وكشفت بعض أساطير الطائفة المهنية التي ينتسبون إليها. ولعلّي كنت على بعض طرقهم وادعاءاتهم في مطلع الشباب، حتى أفسدتني «الأكاديميا» أو أصلحتني! ولعلّ هذا الذي وصفته من أحوال الشعر والشعراء بعض ما صرفني عن الشعر إلى السّرد الدرامي.

وعلى أي حال، فإن تراجع الشعر أمام الفنون السردية ظاهرة عالمية في عصر ما بعد الحداثة، على نحو ما بيّنت في كلامي عن الدراما. ففي الوقت الذي سقطت فيه الفواصل بين أشكال الثقافة العالية والثقافة الشعبية، ومعها الفواصل بين جمهور النخبة والجمهور العريض، تقدّمت الفنون السرديّة بفضل قدرتها على إمتاع الجميع ومخاطبتهم دون أن تفقد بالضرورة قيمتها الابداعية، بينما بقي الشعر عاجزاً عن تلبية المطلبين معاً، فإذا توخّى التميّز الفني بالإسراف في المفارقة والمغايرة، خسر قراءه إلا من نخبة ضئيلة ما زالت تضيق مع الأيام، وإذا طلب الجمهور العريض وقع في المباشرة فخسر من قيمته الفنية.

شقاء الشعراء في السعي الدائب إلى المغايرة من وجوه عدّة: مغايرة المعيار اللغوي العام، ومغايرة ما صار معياراً للشعر، ومغايرة كل النماذج والإنجازات الشعرية المرموقة في الماضي والحاضر. فكل تجربة شعرية جديدة هامة، تمثل تحدياً لتجاوزها إلى نقلة أخرى، حتى إذا امتد بالشعر تاريخه إلى الوقت الراهن، وجد الشعراء أنفسهم قد أوغلوا بعيداً، حتى دخلوا في صحراء التيه، وانبتّوا عن الجمهور الذين لا وجود لنصوصهم إلا به. وإن المُنْبَتّ لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع!

أعلن البعض موت الشاعر، وأرادوا بذلك أن القصيدة تنفصل عن منشئها وتصبح ملكاً لقارئها، يعيد تشييدها في وعيه وذائقته بمعزل عن الشاعر. ولكن، ماذا إذا مات الجمهور نفسه الذي لا يحيا الشعر إلا به! ألا يغري ذلك بنعي الشعر نفسه!!

مكتبة الربيعي أحمد

خاتمة

ثمة غائب في هذا الكتاب، هو أهم الناس حضوراً في وعيي ووجداني وسيرتي، أعني أسرتي الصغيرة: زوجي إيهان، وأبنائي خالد وليانة وليلى. أما غياب زوجي فقد كان امتثالاً لرغبتها الصارمة التي لا رادّ لها عندي. فهي أحرص الناس على حماية حيّزها الشخصي من أن يطلع عليه أحد من الناس، وإن كان حيزاً مفعماً بالحب والجمال والنبل والبذل والعطاء والوفاء والوعي والثقافة والذائقة الرفيعة والحس الإنساني الرهيف. حسبي من الاعتذار عن غيابها أن أقول: إن كل حضور لي في هذه السيرة كان يستصحب في وعيي حضورها. فإن كنت قد جعلت نفسي شاهداً، فكل شهاداتي كانت شِركةً بيننا، بل كانت فوق ذلك شاهداً علي. وما كان لهذه السيرة - في الحياة وفي النّص - أن تكون بغير حضورها.

أما ولدي البكر خالد الذي بلغ الآن أشدّه وبلغ أربعين سنة فهو مني بمثابة السمع والبصر والظهر والظهير، قد كفاني السعي في شؤون الحياة وأعبائها اليوميّة لأتفرغ لما أحسنه: الكتابة والقراءة والسفر في الآفاق. وقد شاء الله أن يختط لنفسه منذ نعومة أظفاره غير الذي اختطته لنفسي من المشاغل والاهتمامات، فاكتمل لي به ما ليس عندي. إذ سلك طريق الاقتصاد والإدارة، وحصل على درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة سيدني في استراليا، وتقلب في مناصب إدارية هامة في بعض المؤسسات الكبرى، حتى تفرّغ لعمله الخاصّ. وهذا كله مما لم أرزق شيئاً من مهاراته ولا خطر لي يوماً على بال، ولا ورثت شيئاً من تقاليده. وإذا كان يفرحك أن ترى في ولدك ما يشبهك، فلقد يفرحك بالقدر نفسه أو أكثر أن يشبه نفسه وزمانه أكثر مما يشبهك، فتلك شهادة له، وشهادة لك. وقد استظهر استقلال شخصيته ومزاجه منذ وقت مبكر. فما إن بلغ العاشرة حتى كان عالم الرياضة بأنواعها وفرقها المحلية والعربية والعالمية قد ملك عليه نفسه نشاطاً ومعرفة ومتابعة. وتلك لعمري آخر اهتمامات أبيه وأمّه. وإذا كنت أنا أميل إلى العزلة فهو على الضّد مني يرمي نفسه في معترك العلاقات الاجتماعية مستعداً لخيباتها ومغارمها ومغانمها. فلا يصدّه عنها ما يجد فيها من خيبات، ولا يغرّه منها ما يجد من الفرص والموافقات. فتلكم هي الحياة: مجازفات ومدافعات. ولقد ينطبق على خالد القول: ليس بالخِبّ، ولكن الخِبّ لا يخدعه. أما أنا، فأعترف أن الخب قد خدعني مراراً. وأسوأ من ذلك أن يمضي عليّ خداعه وأنا أرجح أنه يخدعني، يعينه عليّ سيف الحياء الذي ركب في طبيعتي، على الرغم من حدة في مزاجي. ومع ذلك ما زلت أقدّم الظن الحسن. وليس كل الظّن إثماً، وإن كان بعضه كذلك. والآن كلما كان عليّ أن أواجه أمراً أخشى منه أن أُغرّ بسيف الحياء، تولّاه عني خالد فكفانيه. بل إن الخبّ

مكتبة الرمحي أحمد

المتمرّس يكتسب مهارة عظيمة في قراءة الناس، فيميّز على عجل من يمكن أن يغرّه ويخدعه، ممن لا تنطلي عليه مظاهر البراءة الخدّاعة وزخرف القول. وكذلك حال بعض من اختبرت منهم. فإذا حولتهم عني إلى ولدي، نكصوا على أعقابهم فوراً وقد استيأسوا من خداعه. وأشهد أيضاً أني لست سريع التكيف في الظروف الجديدة. أما خالد، فيسعه أن يتقلّب بين الصحراء وجبال الثّلج.. بين غابة الاسمنت في نيويورك والغابات المطرية في مجاهيل الأمازون وآسيا، ويجد في كل منها ما يمتع بصره ويغني فؤاده. ولكنه مع تغلّب الجانب العملي على مزاجه، يمتلك حساً فنياً رهيفاً وعيناً ناقدة دقيقة. فهو من أفضل من رأيت في قراءة الأعمال الدرامية السينمائية والتلفازيّة فناً ومضموناً، لا يفوته منها معنى ولا حسن ولا قبيح.

هذا ولدي خالد.

أما ابنتي ليانة فهي قسيمة العقل والروح، وأشبه الناس بأبيها. فقد مضت على أثر أبيها وأمّها في عالم الأكاديميا، فأكملت دراستها العليا وحصلت على درجة الدكتوراه في الأدب الانجليزي وتاريخ الفكر من جامعة لندن. ثم تلقفتها جامعة اكسفورد العريقة لتعمل فيها في البحث والتدريس. وفازت بزمالة الجمعية الأكاديمية البريطانية. وعملت وقتاً إلى جانب ذلك في القسم الإسلامي من المتحف البريطاني الشهير. وقادها الاختصاص في تاريخ الفكر إلى التركيز على علاقة التفاعل بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية الأوروبية وقنوات التواصل بينهما عبر التاريخ، لا سيما في مجال الفلسفات الروحية والصوفية. وقد غدت معروفة في الأوساط العلمية والأكاديمية بجهودها البحثية. وفي إنجلترا أعادت اكتشاف هويتها العربية الإسلامية، وجذورها الفلسطينية. فنشطت في ميدان الحوار والدفاع عن قضايا أمتها ووطنها ودينها بخطاب لا يجامل المستمع الغربيّ من حساب الحقوق والمبادئ، ولا يغرّبه بلغة العواطف والانفعالات الساذجة. وقد أوتيت مواهب فنيّة وأدبية متنوعة لم تبرز بعد إلى العلن. ولقد كان بيني وبينها دائماً مطارحات فكرية وثقافية، ومقابسات وجدانية وروحيّة. فكلانا ينطوي على منزع صوفيّ معتدل. فإذا خطر لأحدنا فكرة جديدة عجل بها إلى الآخر، فيستولد النقاش فيها أفكاراً أخرى بعيدة المرمى، واسعة المضطّرب. وما زلنا معاً نتدبّر في الحقيقة الإنسانية والروحية حتى صار لنا في ذلك إرث شخصي مشترك. وقد وهبها الله حساً إنسانياً عميقاً، يجعلها تتماهى مع هموم الآخرين وأوجاعهم، فتصل بيدها إليهم ما وسعها ذلك. ولما شهدت ما يعاني الحيوان من جور الإنسان وجشع الصناعات الغذائية، انصرفت تماماً عن تناول اللحوم، واختارت أن تكون نباتية في مطعمها. وأخفقت كل حججي في ثنيها عن هذا الخيار. فهي وإن كانت لا تحرّم ما أحلّ الله، فلا تريد أن تكون شريكاً في جور الرأسمالية المتوحّشة على الحيوان الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «في كل ذي كبد رطبة أجر». وهي الآن ناشطة في مجال رعاية الحيوان قولاً وفعلاً.

مكتبة الربيعي أحمد

نعم، ريحانة، وأحبها.

وأخيراً وليس آخراً: ليلى. يكفي أن أذكر الاسم حتى يهتز لها قلبي وروحي وتتدفق عواطفي كنهر تعرف منبعه ولا تعرف مصبّه، فلربما استدار على هيئة الأرض حتى يتصل منبعه بمصبّه، فلا يكون له آخر! نعم، تستوي محبتي لأبنائي، فكلهم على صعيد. ولكن في الروح مثوى تختص به ليلى! ولقد يداعبني خالد وليانة أحيانا فيقولان: ما بال ليلى أحب إلى أبينا منا؟ وهما يعلمان كل العلم أنهم لا يتفاضلون في حبي لهم. فأجيب مناكفاً: أيها المغفلان أما أدركتما بعد أن في القلب بقعة ناعمة طريّة لأختكم الصغيرة! وهو كذلك حقاً. أيكون السبب أنها آخر العنقود كما يشيع القول؟ أم السبب أنها أرق من عرفت فؤاداً وأرهفهم حساً وأبعدهم عن مزاج الصدام والمغالبة، وإن لم يكن ذلك عن ضعف. فيختلط الحب عندي بالإشفاق كفاء ما فيها من الطيبة الزائدة والرفق المفرط الذي قد يزيد من فرص خيبات الأمل بالآخرين، ويغري بعضهم بالتنمّر. وقد وقع لها بعض ذلك في حياتها المدرسيّة، ثم استطاعت أن تتغلب على آثاره. وما علمت به إلا بعد أن انقضى زمانه. فقد بلغ من حرصها على أبويها أنها آثرت أن تجنبهم ما يمكن أن يعكّر صفوهم. ولئن كنت حريصاً على الأخذ بالحكمة التقليدية في تربية خالد وليانة، فلا أفسدهما بالدلال المفرط، فقد تخلّيت عن هذه الحكمة مع ليلى. ولكن فرط الدلال لم يفسدها أبداً، وقد طبعت على القناعة والزهد بالمظاهر المادية، وعلى تقديم المعاني والمشاعر والقيم الإنسانية. بل كنت أغالبها حتى ترضى بعروضي المادية عليها. ولم تكن لتكره شيئاً أكثر من كرهها الاستعراض المادّي، وتتجنب أن تراها صاحباتها وزميلاتها فيما يمكن أن يلتبس بذلك. والمفارقة أن ليلى حصلت على درجة البكالوريوس في مجال لا ينسجم كثيراً مع طبيعتها ومزاجها..ذلك هو «التسويق». وكان الأقرب إلى مزاجها أن تدرس الأدب أو أحد العلوم الإنسانية. ولا أدري ما الذي دفعها إلى ذلك الخيار الذي لم يسعني إلا احترامه. وما إن فرغت من الدراسة الجامعية حتى قررت تغيير الوجهة إلى مجال يمثّل شغفاً عندها. فالتحقت بأحد أهم المعاهد العالمية لتعليم فنون الطبخ وثقافاته وإدارة خدماته، وهو المعهد الأمريكي لفنون الطبخ Culinary Institute Of America، وفي طموحها أن تنشئ عملاً خاصاً في هذا المجال، وأن تؤلّف في أبعاده الثقافية في المجتمعات المختلفة. أما الحس الإنساني عند ليلى فلا أبالغ إذ أقول إنه ليسمو بروحها ويصقل جوانحها حتى لتكاد تشع به أينما كانت. وقد أوتيت معه حكمة عميقة بلا ضجيج ولا ادّعاء. وإني لأتعلّم منها كما تعلمت مني. نعم، ريحانة وأحبها.

والحق أن أبنائي الثلاثة قد طبعوا على اللاأثرة والحس الإنساني العميق. فلا أفخر بشيء كما افخر بهذا الجانب فيهم. فلطالما نفرت مما أرى في بعض الأسر التي تنغلق على ذاتها المركزية، لترى الآخرين هوامش تحيط بالصورة. فتراهم لا ينصتون إلى غير نجواهم، وقد

مكتبة الربيعي أحمد

جعلوا انفسهم في موقع النقد والحكم على الناس. فإليهم يرجع الرأي في كل شيء، من السياسة إلى الأخلاق إلى العلاقات الاجتماعية. فإن اطمأنوا على مصالحهم لم يشغلوا أنفسهم بما يقع على الآخرين من مصائب الدنيا. وما علموا أن العطاء يرجع على المعطي بأكثر مما أعطى. وأن السعادة التي تأتي مع البذل أعظم من سعادة الأخذ، وأن الإنسان يتسع عالمه بقدر ما يسع الآخرين، ويمتد بذاته فيهم.

بين كل من أبنائي والذي يليه زهاء ثمانية أعوام. وقد كنت حريصاً دائماً على صحبتهم مذ كانوا أطفالاً. فإذا خرجت في أمر دعوتهم للخروج معي. وربّما اقترحت على ليانة وليلى (بعد أن شبّ خالد عن الطوق) أن تخرجا معي في السيارة إلى البريّة بغير حاجة إلا أن نجول معاً في الجبال والوديان، ونجدد صلتنا بالطبيعة التي عزفنا عنها فعزفت عنا. فنقضي الوقت في الحديث والبوح. وأقصّ عليهما من حكايات طفولتي وصباي. فينفتح عالمي على عالمهما، وتدركان من حياة أبيهما وأحلامه القديمة وانتصاراته وانكساراته ما كان قبل وجودهما. وأصغي إليهما كما تصغيان إلي، وأغتني بجديد عالمهما كما تغتنيان بقديم عالمي. وما هي حتى تنحسر فجوة الأجيال ويتداخل العالمان في مساحة مشتركة. وقد غدت تلك الجولات جزءاً عزيزاً من ذاكرتنا الباقية ما بقينا.

هل فهم من كلامي أني أزعم بأننا أسرة مثالية لا يأتيها الخطأ ولا النقص من بين أيديها ولا من خلفها؟! معاذ الله أن أزكي نفسي وأسرتي على الله. فما هذا أردت. وما هكذا أحوال البشر مهما يجتهدوا. ولكن، لئن صحّ كلام علماء الطبيعة الذين يقولون بنظرية الأكوان المتوازية، وأن لكل منّا نسخاً أخرى بعدد تلك الأكوان، تعيش فيها سيراً مختلفة في نطاق قوانين طبيعية مختلفة، فإني لا أحتفي أبداً، هنا والآن، بفكرة وجود نسخة أخرى مني لها أسرة غير أسرتي هذه.

لا، لا أريد غير الأسرة التي وُهبتها في هذا الكون! ولكن أليس هذا ما يمكن أن تقوله نسختي الأخرى عن أسرتها في كونها الموازي؟!

ما لي وللأكوان الأخرى وما يمكن أن يكون فيها من حيوات وسير ومشاهدات وشهادات! حسبي الآن من العوالم المحتملة هذا العالم الذي أشهده ويشهدني والذي انتظمت سيرتي في سيرته! وتلك كانت شهادتي عليه وشهادتي عليّ!

مكتبة الرمحي أحمد ktabpdf@تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

الدكتور وليد سيف

أكاديمي وشاعر وكاتب درامي، تفوق بأعماله الدرامية التاريخية التي انفرد بجعلها نوعاً أدبياً مصوراً.

ومن **أهمها**: صلاح الدين الأيوبي، صقر قريش، ربيع قرطبة، ملوك الطوائف، عمر ابن الخطاب، التغريبة الفلسطينية.

مكتبة الرمحي أحمد **@ktabpdf**تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

فهرس

مكتبة الربيعي أحمد

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

مكتبة الرمحي أحمد

THE WITNESS.. THE WITNESSED سيرة

الشَاهِدُ المَشْهُود وليد سيف

سيرة ومراجعات فكرية

من قال إنَّ شجاعة البوح في السيرة لا تتمثَّل إلاَّ في كشف ما يحرص الإنسان عادةً على كتمانه من الخبايا والخفايا الخاصّة، لا سيّما ذاكرة الجسد في متاهاته؟

إنّما الشجاعة في مقاومة التيّار وإغراءات الأمان في ظلّ القطيع ..

وإنّما الشجاعة في الامتناع عن الشرب من نهر الجنون حين يتكاثر الشاربون وتصير أوهامهم وهذاؤهم هي القاعدة ..

وإنّما الشجاعة في تفكيك الأساطير الّتي تؤسّسها الطوائف المهنيّة والثقافيّة والسياسيّة عن نفسها ..

إنّما الشجاعة في رفض اشتراطات النادي لحمل بطاقته مهما تكن سلطته وامتيازاته العمليّة والمعنويّة ..

إنّما الشجاعة في تفضيل مغارم العقل على مغانم الجهل ..

وإذا كان تحدّي خطاب السلطة الحاكمة الفجّة يحتاج إلى قدر من الشجاعة، فإنّ نقد الكثير من الخطابات المعارضة، وكشف ادّعاءاتها وازدواجيّتها وأضاليلها وسلطتها الكامنة، يحتاج إلى قدْر أكبر من الشجاعة. يستوي في ذلك ما يبتزّك منها بمفردات الحداثة والتقدّم والقيم الكونيّة، وما يبتزُّك بمفردات الأصالة والخصوصيّات الثقافيّة وحماية الهويّة المهدّدة. ذلك أنّ تحدّيَ خطاب السلطة قد تخرج منه بنياشين الفروسيّة والشهادة. أمّا نقد الخطابات الآيديولوجيّة والشعبيّة فقد يوزّع دمَك بين القبائل السياسيّة والفكريّة، فلا تدري على أيّ جنب تميل؛ فمن قال إنّ عدوّ عدوّي صديقي بالضرورة؟

الشجاعة، أخيرًا، هي أن تكون ذاتَك، وتَشيدَ روايتك الخاصّة بعيدًا عن الإملاءات الخارجيّة.

وهذه روايتي!

من مقدّمة الكتاب

مكتبة الرمحي أحمد

https://t.me/ktabpdf

ISBN 978-9950-385-55-9



الأهلية

الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34

ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962

فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2016

الغلاف: ☎ 95297109 7 00962